مجموع الصالحي

في حمى التوحيد

تأليف وإعداد فضيلة الشيخ
علي الحمد المحمد الصالحي
رحمه الله تعالى

تحقيق
صبري بن سلامة شاهين

دار القبس
للنشر والتوزيع

مجموع الصالحي

في

حمى التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

دار القبس للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

ح فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد المحمد

مجموع الصالحي في حمى التوحيد/ علي الحمد المحمد الصالحي الرياض، ١٤٣٠هـ

٧٢٨ ص، ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٤_٤_٩٨٧٦_٩٩٦٠_٩٧٨

١- التوحيـــد أ- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٣٠/٥٦٧٩

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الموقع الرسمي للمؤلف: http://www.assalehi.com

البريد الكتروني: email: info@assalehi.com

هاتف: ٩٦٦١٤١١٨٨٩٨+ ; ٩٦٦١٤١١٨٨٧٤+ ; فاكس: ٩٦٦١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربيّة السعودية ص. ب: ٢١١٧٠ الرّياض: ١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، إن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التَّكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف.

محتوى المجموع

١- قاعدة أهل السنة والجماعة، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
٢- قاعدة في المعجزات والكرامات، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
٣- الرسالة القبرصية، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
٤- رسالة الحسن بن أيوب، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
٥- نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس، لابن رجب رحمه الله.
٦- بيان فضل علم السلف على علم الخلف، للحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله.
٧- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، للإمام الأمير الصنعاني رحمه الله.
٨- كشف الشبهات، للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.
٩- الأصول الثلاثة، للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.
١٠- تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، للإمام محمد المغيلي رحمه الله.
١١- رسالة الإمام عبد العزيز الأول رحمه الله.
١٢- رسالة الإمام عبدالعزيز الثاني رحمه الله، للعلامة محمد بن عبداللطيف رحمه الله.
١٣- الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب، للشيخ المعمري رحمه الله.
١٤- تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن، للخطيب الأسعردي رحمه الله.
١٥- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله.
١٦- الدرة المختصرة في محاسن دين الإسلام، للشيخ السعدي رحمه الله.
١٧- واجب المسلمين، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله.
١٨- الهدية الثمينة فيما يحفظ به المرء دينه، للأستاذ عبد الله السليمان بن حميد رحمه الله.
١٩- البراهين الإنجيلية على أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية، للدكتور الهلالي رحمه الله.
٢٠- العطار والقاسم في الميزان، للشيخ علي الحمد الصالحي رحمه الله.
٢١- دعوة المسلمين إلى احترام شعائر الدين، للشيخ علي الحمد الصالحي رحمه الله.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله بدءًا وانتهاءً، والحمد لله صبحًا ومساءً، والحمد لله مع كل شهيق وزفير، والحمد لله في كل قبيل ودبير، والحمد لله عدد الأنفاس وعدد من خلق من الجنة والناس، أحمده سبحانه إذا أقبل الليل وأسفر النهار، وأشكره تعالى وقد توالت علينا نعمه الغزار، وأشهد أن لا إله إلا الله الكبير المتعال، المتفضل بالإنعام والعطايا الكبار، وأشهد أن سيدنا محمدًا خليله وحبيبه المختار، وعلى آل بيته الطيبين الأطهار، وأصحابه الميامين أولي النهى وذوي الفخار، اللهم صلِّ عليه وسلم تسليمًا كثيرًا ما بقيت عين تطرف أو قلب ينبض أو أرعدت سماء وهطلت أمطار، أو لاح نجم وبزغ ضوء النهار.

أما بعد: فإن من دواعي سروري وغبطتي أن استعملني الله في خدمة دينه، والذود عن شريعته، ومهّد لي العمل في كتابه وسنة نبيه ﷺ، إذ يسّر لي تحقيق هذا السفر المبارك بعد أن عشت بين رسائله أقطف من زهراته، وأشتم من طيبه ونفحه، وأرتوي من مائه العذب الزلال، فقد أصبت منه خيرًا كثيرًا، ولِـمَ لا وأنا أتعلم وأنهل من علوم هؤلاء الأفاضل الأماجد: ابن تيمية وابن رجب وابن عبد الوهاب والسعدي وغيرهم رحمهم الله جميعًا وأنزلهم في منازل الأبرار في جنات النعيم، وحشرنا وإياهم مع الحبيب المصطفى ﷺ، وإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، كما ثبت عن رسول الله ﷺ، وإني لأشكر الشيخ الفاضل الجليل علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله الذي كان السبب في إخراج هذا المجموع المبارك، نعم أشكره مرتين: المرة الأولى حيث أتاح لي العمل مصححًا ومدققًا في هذه الرسائل سنة ١٤١٤، وعندما كان حيًّا بين أظهرنا حيث أعدها للنشر، وقد نشر معظمها في مطبعته «مؤسسة النور للطباعة والتجليد» منذ سنوات عديدة، فأراد رحمه الله طباعتها طباعة جيدة معتنى بها، وكان من فضل الله عليَّ أن اختارني للعمل في هذه الرسائل، ولكن حال مرض الشيخ ووفاته دون إخراجها، ومرت السنون حتى جاءت سنة ١٤٢٩هـ وأراد الله عز وجل أن تخرج هذه الرسائل في حلة زاهية

وثوب قشيب، حيث أتى ابن الشيخ رحمه الله عز وجل الأخ العزيز والصديق الكريم سليمان بن علي الصالحي، فأسند إليّ العمل في هذه الرسائل، تنفيذًا لوصية والده رحمه الله، وبرًّا به، وامتدادًا لأعماله الصالحة، التي كان يقوم بها والده رحمه الله، فأشكر الشيخ عليًّا مرة ثانية الذي كان السبب في عملي في هذه الرسائل محققًا، وأشكر أبناءه سليمان وإبراهيم اللذين يقومان ببر أبيهم والإحسان إليه وإحياء ذكراه بإحياء أعماله الصالحة من طباعة الكتب وتحقيقها ونشرها ومساهمتهم في نشر العلم وتيسيره لطلابه، ولقد تم بفضل الله عز وجل تحقيق كتاب «**التنبيهات حول المقام ومنى واقتراحات**» وهو من تأليف الشيخ علي رحمه الله، وكذلك أنا بصدد تحقيق كتاب «**الضوء المنير على التفسير**» الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية في ستة مجلدات كبار يسر الله إتمامه على خير، وهو من أعظم أعمال الشيخ علي رحمه الله، حيث قام على إعداده وجمعه أكثر من خمسة عشر عامًا وطبع بفضل الله طبعة أولى سنة ١٤١٤هـ، وسوف يطبع بإذن الله طبعة محققة مهذبة قريبًا بفضل الله تعالى.

هذا وإني لأحمد الله الكريم المنان على هذا الخير والفضل والنعيم الذي أرفل فيه وأنعم به، فأسأله سبحانه أن يمن عليّ وهو المان بفضله وجوده وإحسانه ـ فيجعل عقيدتي وطويتي وسري وعلانيتي في مرضاته سبحانه وتعالى، وأن يجعل كل ما خطه بناني وخطر بجناني، وكل ما ألفته وحققته خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله في موازين أعمالي، ويبيض به وجهي يوم الوقوف بين يديه والعرض عليه، وأن يفيض سبحانه على هذه الرسائل بالبركة والقبول والنفع للقاصي والداني، وأن يجزي مؤلفيها وجامعها ومحققها وناشرها والساعي إلى ظهورها ودارسها وقارئها والناظر فيها ـ خير الجزاء وأحسنه وأوفاه، فإنه سبحانه الكريم الجواد، الكثير العطاء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا ينقص من خزائن كرمه وجوده وإحسانه شيء، فإنه سبحانه الرؤوف الرحيم والبر الكريم. وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

صبري بن سلامة شاهين

في غرة ذي الحجة ١٤٢٩هـ

بمدينة الرياض

ترجمة فضيلة الشيخ
على الحمد المحمد الصالحي رحمه الله
١٣٣٣-١٤١٥هـ

أولاً: نسبه ومولده ونشأته:

هو العالم الجليل والشيخ الفاضل النبيل، علي بن حمد بن محمد بن صالح بن عبد الله الصالحي، ولد هذا العالم في مدينة عنيزة سنة ١٣٣٣هـ، وكان الجد الثالث له قد نزح من خب البصر إلى عنيزة، ولا يزال فيها بنو عم لهم، ولهم أملاك فيها.

نشأ شيخنا رحمه الله نشأة صالحة حسنة، ورباه والده أحسن تربية، واعتنى به عناية فائقة، ولما بلغ سن التمييز أدخله والده كتاتيب بلده عنيزة، فتعلم فيها مبادئ القرآن والكتابة، ثم شغف بطلب العلم منذ صباه، فأدخله والده مدرسة القرزعي: لصاحبها صالح وعبد الرحمن العبد الله السالم القرزعي، فحفظ القرآن عن ظهر قلب، وتعلم مبادئ العلوم وقواعد الخط والحساب، فمهر فيهما، وشرع في طلب العلوم الشرعية بهمة عالية ونشاط ومثابرة، فحفظ كثيرًا من المتون في علوم الشريعة، ودرس أمهات الكتب وهو في سن مبكرة، وقد لازم شيخه فضيلة الشيخ: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ولما رأى الشيخ السعدي فيه المثابرة والملازمة أمره أن يجلس لتدريس صغار الطلاب في الأوقات التي لا يفوته فيها دروس شيخه، حتى استفاد منه عدد غير قليل، وسيأتي بيانهم إن شاء الله.

ولما فتحت المعاهد العلمية في الرياض، وصار من بعدها كلية الشريعة واللغة، لم ترض همته إلا الالتحاق بالمعهد العلمي بالرياض، ونال شهادته سنة ١٣٧٦هـ، ثم انتسب إلى كلية الشريعة فأكمل دراستها وحصل على الشهادة سنة ١٣٨٢هـ، ثم انتسب إلى المعهد العالي للقضاء، فتخرج منه، وكان لا يمل ولا يسأم من تكرير الدروس وحفظها وتفهمها.

وكان رحمه الله في كل ذلك مثال الجد والاجتهاد، والحيوية والنشاط، فدرس ودرَّس، وأجاد وأبدع وأفاد، وحسن مدخله ومخرجه، غفر الله له.

ثانيًا: شيوخه:

لازم الشيخ عليٌّ رحمه الله كثيرًا من العلماء، منهم الشيخ العلامة صالح بن عثمان القاضي، والشيخ عثمان بن صالح، والشيخ عبد الله بن محمد بن مانع قاضي عنيزة، والشيخ سليمان العمري، والشيخ عبد العزيز الخريدلي، وكان من أهم وأقرب شيوخه إليه والذين أثروا في حياته العلمية والعملية، هو فضيلة الشيخ العلامة السعدي، بل هو أكثر مشائخه نفعًا له وملازمة له. قرأ عام ١٣٦٢هـ على الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع في الحرم المكي، وكذا قرأ على الشيخ بهجة البيطار، ولما عاد إلى عنيزة لازم مشائخه مدة إقامته فيها، ولما رحل إلى الرياض لازم كلا من: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وفضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، وفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وممن أخذ عنهم ودرس عليهم فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحم الله الجميع.

ثالثًا: تلاميذه:

لما أتيحت الفرصة للشيخ أن يدرس لصغار طلبة العلم بتكليف من شيخه العلامة السعدي، قام الشيخ علي رحمه الله بذلك خير قيام، وكان عند حسن ظن شيخه به، فأحسن تدريس هؤلاء الطلاب، وأفادهم، وكانوا جمعًا غفيرًا، من أبرزهم وأشهرهم وأفضلهم - فيما نحسب والله حسيبهم -: فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله، والشيخ علي المحمد الزامل، وسليمان الأشقر الزامل، وعبد الله الصالح اليحيا، والشيخ حمد المحمد المرزوقي، والشيخ عبد العزيز العلي المساعد، والأستاذ عبد الرحمن اليوسف الشبل، والأستاذ عبد العزيز الإبراهيم الغرير، والشيخ محمد العثمان القاضي، والأستاذ محمد الحمد الونين، والأستاذ صالح الحمد الونين، والأستاذ إبراهيم المحمد السبيل، والأستاذ عبد الله السليمان القاضي، والأستاذ عبد العزيز السليمان القاضي، وغيرهم كثير.

رابعًا: أعماله:

لقد كان رحمه الله له همة عالية ونشاط منقطع النظير في أمور الدنيا والدين، ومن ذلك:

١- إن أول مكتبة عامة في نجد هو الذي اهتم بتأسيسها، فإنه في عام ١٣٥٨هـ قام بتأسيس مكتبة جامع عنيزة، فقد كتب معروضًا لوزير المالية الشيخ عبد الله السليمان الحمدان، جمع فيه توقيع علماء عنيزة وأعيانها، وأيده من قاضيها الشيخ عبد الله المانع، ومن أميرها عبد الله الخالد السليم، وسافر به إلى الوزير في مكة، فأمر بنسخة من كل كتاب من مطبوعات الحكومة السعودية، كما أنه أمر أن يشتري من جميع الكتب الموجودة في سوق الكتب (باب السلام)، ثم طلب من الشيخ السعدي أن يكتب لأعيان بلده لبناء المكتبة، فكلهم استجابوا، وتم بناؤها، وقام الصالحي بجهود مضنية بجلب الكتب والأثاث لها، وأتى بالمخطوطات من مظانها في مناطق المملكة كلها، ومن جمعيات أخرى من فاعل خير، حتى اجتمع في هذه المكتبة ما يقارب أربعين ألف كتاب في شتى الفنون، من أصول الدين وفروعه والحديث والتفسير والمراجع اللغوية والتاريخ والسير والأدب ودواوين الشعر، حتى أخذت مصافها معادلة أكبر مكتبة في نجد بوقت التأسيس، وصارت هذه المكتبة فيما بعد مكان إلقاء دروس العلامة السعدي، ومحل البحث والاجتماع لطلابه.

٢- أنشأ الشيخ علي رحمه الله مؤسسة النور للطباعة والتجليد، والتي تعتبر من أقدم المطابع في المملكة، فقد كان لهذه المطبعة بعد فضل الله الأثر الكبير في إعادة طباعة أمهات الكتب، وطبع فيها كتبًا لا حصر لها في فنون عديدة من كتب الأصول والفروع والتواريخ، وغير ذلك من كتب العلم النافع.

٣- كان رحمه الله شجاعًا لا يهاب أحدًا في الله، وكانت تأخذه غيرة وحمية إذا تعدى أحد على منهج السلف، ونشر ما يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة، وكانت له

مواقف بطولية رائعة فيما يعتقد أن في ذلك قمع فساد أو إحقاق حق، فلقد كان أحد العلماء المصريين الذين وفدوا إلى عنيزة للتدريس في معهدها يُدرِّس في أحد المساجد، فأيّد في درسه بعض المسائل المخالفة لمذهب السلف، فشاع خبر هذا المدرس ودرسه الذي ألقاه، وانقسم أهل عنيزة قسمين بين معالج الأمر بجو هادئ، وبين منكر ومطالب إبعاد هذا المدرس، فكان الشيخ علي رحمه الله هو رئيس القسم الأخير، وعظَّم أمر المسألة، وما زال يتصل بالمسؤولين من العلماء والأمراء، حتى استبعد هذا المدرس، وأزيل خطره عن منهج السلف وعقيدة أهل السنة.

٤- وكان رحمه الله نصوحًا يحب الخير للجميع، ولا يأل جهدًا في إبداء النصح لولاة الأمور إذا علم أمرًا يوجب النصح، فلم يمنعه شيء في إيصال الخير إلى الولاة والعلماء، عملًا بقول رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة**» ويرد على المبطلين، ويدحض حججهم، ويفنّد شبهاتهم، ويكشف عوارهم، نصرة للحق ودفاعاً عن الدين والعرض والوطن.

خامسًا: مؤلفاته ونشاطه العلمي:

لم يكن الشيخ علي رحمه الله تاجرًا فحسب، بل كان عالمًا فاضلاً، له منهج واضح في طباعة الكتب، فقد كان حريصًا على طباعة كتب السلف وكتب العقيدة الصحيحة، ولم يكن همه مثل هم كثير من الناشرين وأصحاب المطابع، يطبع كل ما هب ودب، طالما يدر عليه أموالاً طائلة، لم يكن الشيخ من هذا الصنف، بل كان رحمه الله من العلماء الحريصين على نشر العلم النافع، يظهر ذلك جليًا من خلال الكتب التي تولى نشرها وطباعتها، ومن خلال المقدمات التي كان يحرص عليها في بداية كل كتاب، فمن يقرأ هذه المقدمات يعلم يقينًا أن الشيخ كان داعية للعلم قبل أن يكون تاجرًا للكتب.

١- «**الضوء المنير على التفسير**» من أعظم ما خلفه من كتب في ستة أجزاء كبار، فقد قام الشيخ رحمه الله بجمع كلام العلامة السلفي ابن قيم الجوزية من خلال جميع

مصنفاته المطبوعة والمخطوطة في تفسير آيات القرآن الكريم، ورتبها حسب ترتيب المصحف، واستمر عمله هذا قرابة خمسة عشر عامًا، حتى جمع هذا السفر الجليل، وطبع سنة ١٤١٤هـ ويطبع قريبًا بإذن الله بتحقيقي وتهذيبي.

٢- كتاب **«التنبيهات حول المقام ومنى واقتراحات»**، طبع هذا الكتاب سنة ١٣٩٤هـ وعرض هذا الكتاب على هيئة كبار العلماء بالمملكة لدراسته والنظر فيما تضمنه، وخلصت الهيئة إلى صحة ما في الكتاب، وأجازته الهيئة، وأثنت عليه خيرًا، وأعده الشيخ لطبعة ثانية سنة ١٤١٤هـ، ولكن حال مرض الشيخ وموته دون طباعته، ويطبع قريبًا طبعة جديدة بتحقيقي.

٣- كتاب **«العطار والقاسم في الميزان»**، دافع فيه الشيخ على الحق الذي دعا إليه الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار رحمه الله، وأبطل الباطل الذي نادى به المدعو عبد الرحمن القاسم الحاصل على ليسانس حقوق، الفارغ من العلم الشرعي، وليس لديه حجة دينية في دعواه، فلم يأل الشيخ جهدًا في الدفاع عن الحق، وإظهار المحق من المبطل، وقدم لهذا الكتاب فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله، وطبع سنة ١٣٨٤هـ.

٤- كتاب **«دعوة المسلمين إلى احترام شعائر الدين»**، طبع سنة ١٤١٣هـ وترجم إلى الإنجليزية.

٥- كتاب **«كشف الشبهات»** لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، قام الشيخ علي رحمه الله بتفصيله وكتابة الترجمة والمقدمة والتعليق، طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣هـ والطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ.

ومن الكتب التي طبعها الشيخ الصالحي في مطبعته:

١- **كتاب البلبل في أصول الفقه**، تأليف الإمام سليمان الطوفي الصرصري الحنبلي الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣هـ.

٢- **تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد**، تأليف الأمير الصنعاني، طبعه الشيخ علي

رحمه الله سنة ١٣٨٩هـ، وطبعه مرة ثانية سنة ١٣٩٦هـ.

٣- **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، الجزء الثاني عشر، الكتاب الخاص بتراجم أصحاب الرسائل والأجوبة.

٤- **«تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان»**، تأليف فضيلة الشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن، قدم له الشيخ الصالحي مقدمة هامة، أشار فيها إلى أن هذا الكتاب سيكون في خمسة أجزاء متوسطة حسب تجزئة مؤلفه.

٥- **كتاب التوحيد ومعه القول السديد للسعدي**، وطبع أكثر من طبعة وقدم له الصالحي، ط١ سنة ١٣٨٢هـ، وط٢ سنة ١٣٨٤هـ، وط٣ سنة ١٣٩٠هـ.

٦- **القول المحرر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، تأليف الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، قام بتصحيحه والإشراف على طبعه الشيخ الصالحي رحمه الله.

٧- **الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب**، تأليف الشيخ أحمد بن ناصر بن عثمان المعمري، طبعه الشيخ الصالحي في مطبعته.

٨- **مبادئ الإسلام**، تأليف الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، طبعه الشيخ الصالحي باللغة العربية والإنجليزية في كتاب واحد، وذلك سنة ١٣٨٩هـ طبعة رابعة.

٩- **رسالة الإمام عبد العزيز الأول ابن الإمام محمد بن سعود رحمه الله**، قدم لها الشيخ الصالحي بمقدمة هامة، وترجم له ترجمة مختصرة، طبعت سنة ١٣٨٢هـ.

١٠- **رسالة الإمام عبد العزيز الثاني أو حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، بقلم حفيده العلامة محمد بن عبد اللطيف، قدم لها الشيخ الصالحي بمقدمة هامة.

١١- **تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن**، تأليف إسماعيل بن إبراهيم الخطيب الحسني الأسعردي الأزهري، قدم له الشيخ الصالحي رحمه الله وطبعه في مطبعته.

١٢- الأدلة الكاشفة لأخطاء بعض الكتاب، للشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرحمن الفريان، قدم لها الشيخ الصالحي رحم الله الجميع.

١٣- الانتصار على من أزرى بالنبي والمهاجرين والأنصار، للشيخ حمود التويجري، ذيلها الشيخ الصالحي بخاتمة ونداء.

١٤- مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

١٥- الدرة الثمينة في الفرائض، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تأليف سليمان ابن عبد الرحمن الحمدان رحمه الله، سنة ١٣٩٢هـ.

١٦- الرد الجميل على أخطاء ابن عقيل، تأليف الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٢هـ.

١٧- دليل الحجاج الكرام إلى بيت الله الحرام، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن سليمان بن سحمان، الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ.

١٨- المنهج لمريد العمرة والحج، تأليف الشيخ محمد الصالح العثيمين رحمه الله، الطبعة الثانية.

١٩- واجب المسلمين، تأليف الشيخ عبد الرحمن السعدي، قدم لها الشيخ الصالحي، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٠هـ.

٢٠- الإرشاد في القطع بمقبول الآحاد، تأليف الشيخ إسماعيل الأنصاري.

٢١- شفاء الصدور في الرد على الجواب المشكور، أصدرته دار الإفتاء العامة.

٢٢- أصول الأحكام، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، الطبعة الثانية.

٢٣- أبو الحسن الأشعري، تأليف الشيخ حماد الأنصاري، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٢هـ.

٢٤- تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والحب والبغض والهجران، تأليف

الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى.

٢٥- **إيضاح المحجة في الرد على صاحب طنجة**، تأليف الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٥هـ.

٢٦- **زيارة القبور الشرعية والشركية**، تأليف محيي الدين محمد البركوي رحمه الله.

٢٧- **تسهيل الوصول إلى علم الأصول**، وفق المنهج المقرر تدريسه في المعاهد العلمية ومعهد الجامعة الإسلامية، تأليف: عطية محمد سالم، وعبد المحسن العباد، وحمود بن عقلا، مراجعة الشيخ عبد الرزاق عفيفي.

٢٨- **نصحية من سماحة مفتي البلاد السعودية محمد بن إبراهيم آل الشيخ بمناسبة صلاة الاستسقاء**، يوم الاثنين الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٣٨٦هـ.

٢٩- **أذكار الصباح والمساء، ويليها مختصر ثلاثة أصول**، تأليف الشيخ عبد العزيز ابن محمد الشثري، الطبعة الثانية.

٣٠- **الإحكام في أصول الأحكام**، تأليف الإمام علي بن محمد الآمدي، قام بالتعليق عليه الشيخ عبد الرزاق، عفيفي، وقام بتصحيحه الشيخان: عبد الله ابن غديان وعلي الحمد الصالحي، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ.

٣١- **النظام الداخلي للمدرسة الابتدائية**، سنة ١٣٨٤هـ.

٣٢- **قوائم بأسماء الكتب والمطبوعات الممنوعة**، قدم له مفتي البلاد السعودية سنة ١٣٨٦هـ.

٣٣- **فوائد السواك ومنافعه**، تأليف الشيخ أبي بكر الجراعي الحنبلي رحمه الله، سنة ١٣٨٦هـ.

٣٤- **رسالة في دية النفس وغيرها**، تأليف مفتى الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، سنة ١٣٧٤هـ.

٣٥- **الدخان في نظر الإسلام**، تأليف الشيخ صالح بن عبد العزيز بن إبراهيم آل منصور، الطبعة الأولى.

٣٦- **العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية**، تأليف عبد الرزاق المناوي، قام بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ إسماعيل الأنصاري.

٣٧- **في سبيل الحق**، تأليف الشيخ عبد الرحمن الحماد العمر، سنة ١٣٨٣هـ.

٣٨- **الإرشاد إلى توحيد رب العباد**، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حماد بن عمر، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤هـ.

٣٩- **الإرشاد إلى طريق النجاة**، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حماد آل عمر، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦هـ.

٤٠- **اللآلئ البهية في شرح لامية شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف أحمد بن عبد الله المرداوي الحنبلي، قدم لها الشيخ الصالحي وذكر في مقدمته أنه طبعه على أصل خطي، واعتنى بتصحيحه، طبع سنة ١٣٨٦هـ.

٤١- **نقد الاشتراكية**، صدرت من دار الإفتاء بالرياض، قام بالإشراف على طبعها وتصحيحها محمد السليمان البسام وعلي الحمد الصالحي، طبع في مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، سنة ١٣٨١هـ.

٤٢- **كتاب الفتن والملاحم** وهو النهاية من تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير، تصحيح وتعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري، قدم للطبعة الأولى الشيخ علي الحمد الصالحي، وكذا للطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ، وأعده الشيخ الصالحي لطبعة ثالثة، أضاف لها زيادات في المقدمة بخط يده، وهذا الكتاب طبع بالاشتراك بين مؤسسة النور ومكتبة الحرمين.

٤٣- **رسالة الحسن بن أيوب**، أخذها الشيخ علي من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن وافته المنية، وحالت دون طباعتها.

وقد قام الشيخ رحمه الله بطباعة بعض الكتب على نفقته الخاصة، منها:

- كتاب تنبيه الغافلين سنة ١٤١١هـ.
- وكتاب مجموع ابن رميح سنة ١٤١٤هـ.

- والربع الأول من تفسير القرآن الكريم باللغة الإنجليزية.
- وتفسير معاني القرآن كاملًا باللغة الإنجليزية.

سادسًا: صفاته وأخلاقه:

كان رحمه الله جم الخلق حسن الطباع، كريمًا يبذل المعروف ويدعو إليه، ويكف عن الشر ويحذر منه، ويحب إصلاح ذات البين، ويصل الرحم، ويكرم الضيف، ويعطف على الفقراء والمحاويج واليتامى، وكان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة والشمائل الكريمة، مستقيمًا في دينه وخلقه، قويًّا صبورًا حازمًا نشيطًا، مع زهد وإقبال على الآخرة، ولا يخشى في الله لومة لائم، وكان تقيًّا محسنًا صدوقًا، وكان مربوعًا، أسمر اللون، متوسط الجسم والشعر، يجمع فضائل كثيرة وشمائل حسنة وصفات جليلة، نحسبه كذلك والله حسيبه.

سابعًا: مراسلاته لولاة الأمر:

دأب الشيخ رحمه الله على التواصل مع ولاة الأمر من الملوك والأمراء والعلماء، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة» ثلاثاً، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

من هنا كان الشيخ حريصًا على الكتابة لولاة الأمر، فقد كتب لكل من:

- جلالة المللك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله.
- وجلالة الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله.
- وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله.
- وصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز حفظه الله.

وكان له تواصل مع كل من العلماء يراسلهم ويراسلونه، منهم: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز وأصحاب الفضيلة الشيوخ: عبد الله بن حميد وعبد الرحمن الدوسري ومحمد بن عثيمين وبكر أبو زيد وسليمان الصنيع وعبد الله بن عبدان وأحمد عبد الغفور عطار وجودت سعيد

وإسماعيل الأنصاري ومحمد نصيف رحمهم الله جميعًا.

نماذج من مراسلات الشيخ الصالحي رحمه الله:

* كتب لجلالة الملك خالد رحمه الله، فقال: صاحب الجلالة إن الحامل على هذا الكتاب النصيحة التي أوجبها الله لكم، والنصح أغلى ما يبذل ويوهب، لأننا نعتقد أن الله سبحانه قد وكل لكم رعاية خلقه رعاية عامة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله فيما يختص بكم، ورعاية خاصة وهو القيام على حفظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالعمل والاحترام، وبذلك يكتب الله لكم أجر المجاهدين في سبيله، وخاصة أمام هذه التيارات الجارفة والفتن المظلمة المغرية ودعاة السوء، التي أخبر عنها الصادق ﷺ، وحذر منها في أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

ثم طفق الشيخ يسرد على جلالة الملك بعض الملاحظات والسلبيات التي بدأت تنتشر، فقال لجلالته: والواجب يحتم علينا مصارحتكم فاعذرونا، لأننا ملزمون بذلك شرعًا وطبعًا لمحبتنا لكم وخوفنا عليكم وعلى المسلمين.

وختم هذا الخطاب بقوله رحمه الله: وختاماً أرجو الله أن يتولاكم بولايته، ويحميكم بحمايته، وينصركم بنصره، ويجعلكم عونًا لحزبه، وأن يعزكم بالإسلام، ويعز الإسلام بكم، وأن يجعلكم ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، هذا ما أردناه لكم، والخير أردناه، والله يتولى الصالحين.

* وكتب أيضًا لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله، فقال: إن مواقفكم المشرفة من نشر الإسلام والاهتمام به في الداخل والخارج ليدفعنا إلى الشكر لكم والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بأن يحفظكم حصنًا للإسلام من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر، كما أن ذلك يدفعنا إلى مناصحتكم، لأن الله سبحانه قد أخذ علينا الميثاق بأن نبين الحق، ونناصح أئمة المسلمين وعامتهم.

يا إمام المسلمين بالرغم من أن حكومتكم والحمد لله هي الحكومة التي تطبق

شريعة الله التي أهملها كثير من حكام المسلمين اليوم، فإن هناك بعض الملاحظات التي يجب أن نصارحكم فيها، وهي في صالحكم وصالح المسلمين.

ثم طفق الشيخ في عرض هذه الملاحظات وإبداء بعض المقترحات، ثم قال رحمه الله: هذه ملاحظات نعتبرها من أسس هذا الدين، ولا تبرأ ذمتنا حتى نطلعكم عليها: معذرة لنا يوم نقف بين يدي الله يوم القيامة، ورغبة منا في الإصلاح، وشفقة عليكم، لأننا على ثقة أنكم المسؤول الأول يوم القيامة بين يدي الله عز وجل عن هذه الأخطاء، لأن الله قد استرعاكم على هذه الأمة، وقد عرفناكم حفظكم الله بالاستقامة والصلاح، سائلين الله سبحانه أن يعينكم على تحمل هذه المسؤولية.

* وكتب للأمير سلمان حفظه الله، فقال: أرجو الله أن يحفظكم، ويحفظ بكم الإسلام وتعاليمه العظام، ثم إن الداعي لهذا ما رأيته من تكرار الإعلانات حول المساكن المؤجرة، ولعلمي أنكم أهل فطرة وحق أذكركم والذكرى تنفع المؤمنين، يا صاحب السمو إن هذه الشكاوى والمشورات التي تقدم لسموكم من المستأجرين فيها غش وغصب وظلم في الحقيقة: غش لكم بالذات وللدولة عامة.

أيها الأمير، إن الشرع الذي شرفكم الله بحمايته لا يظلم أحدًا، والخروج عنه هو الحيف والظلم.

ثم قال رحمه الله: فإن الحكم لله العلي الكبير، والرجوع عند التنازع إليه في كتابه وسنة رسوله، وهي محفوظة، قد شرفكم الله بحمايتها، ولازلتم والحمد لله تنعمون بوارف ظلها، فلا تغبنوا ذلك بوسوسة شياطين الإنس الذين هم يحسدونكم على نعمة الله عليكم.

أيها الأمير، إن كنت أطلت عليكم إشفاقًا ونصحًا، فالنصح أغلى ما يوهب، والواجب علينا وعليكم التقيد بما رسمه الله من الشرع، هذا ما نريده لكم والخير أردناه، والله يتولى الصالحين.

وكتب له سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله في ٢٣/ ١١/ ١٤٠٢هـ، فقال: فقد وصلني كتابكم الكريم بشأن وضع الأئمة في المسجد الحرام، وما ذكرتم فيه كان معلومًا، فأشكركم على غيرتكم الإسلامية، وما بذلتموه من النصح في هذا السبيل، زادكم الله صلاحاً وتوفيقًا.

وكتب له فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله، فقال: وصلني كتابكم المكرم، وسرني لإفادته صحتكم واستقامة أحوالكم، تابع الله على الجميع وافر نعمه، وصرف عنا وعنكم أسباب سخطه ونقمه، سؤالكم عما تم حول بحثكم المحال لهيئة كبار العلماء، فقد جرى النظر فيه، وحصل الاتفاق فيه بالإجماع على جواز نقل المقام إلى موضع مسامت لمكانه من الناحية الشرقية ما لم ير ولي الأمر تأجيل ذلك لأمر مصلحي، إلى آخر خطابه رحمه الله تعالى.

وممن كتب له الأستاذ جودت سعيد الكاتب المعروف، فقال في رسالته المؤرخة في ٢٤/ ١/ ١٣٧٩هـ: وصلني كتابك فسرني سرورًا بالغًا، وشكر الله لك جميل ودادك، وحسن عتابك الأخوي، الله يعلم أني أشعر بالحاجة إلى قربك، وأن أكون عضدًا لك في جهادك الذي ملأ قلبي، وجرأتك في مواطن الحق، أكثر الله من أمثالك، وأعاننا على قضاء ما وجب.

وقال له في رسالة أخرى: فيا أيها الأخ الكريم ما أدري مقدار ما أجد من السعادة والسرور حين أفكر في شخصكم الكريم، أدام الله نشاطك وجهادك، إن أحوج ما تحتاج إليه الدعوة إلى الله في كل وقت الرجال المخلصون الذين امتلئوا حماسة وشجاعة، لا يخافون مما يخاف منه الناس، إن ما رأيته فيك من الشجاعة في الحق جعلني أنظر إليك: أن المسؤولية قد عظمت عليك لما فضلك الله، ولما أسبغ عليك من نعمة الاعتزاز بالله، واليوم قد تضاعفت مسؤوليتك بعد أن فرغت من ا لدراسات المقيدة.

ثامنًا: مرضه ووفاته:

أصيب رحمه الله بتليف في الرئة، واشتد عليه المرض، وطال معه حتى أنهكه، ووافاه الأجل وهو منهمك في مراجعة كتابه «الضوء المنير على التفسير» في الأجزاء الأخيرة منه، وفارق الدنيا في يوم الأربعاء الموافق ٢١ من شهر جمادى الآخرة سنة ١٤١٥هـ بعد حياة حافلة بالجد والعمل الدؤوب، وله من العمر ثلاثة وثمانون عامًا، وصلِّي عليه في جامع عنيزة، ودفن في مقابر الشهوانية، وحزن عليه عارفو فضله.

خلف مكتبة نفيسة عامرة بأمهات الكتب والمراجع الهامة والنادرة، وفيها مخطوطات قيمة، وقد قام أبناؤه حفظهم الله بإهداء هذه المكتبة لدارة الملك عبد العزيز وجامعة القصيم لينتفع بها أكثر عدد ممكن من طلاب العلم.

كما خلّف أبناء نجباء بررة، ما يزالون إلى الآن في سعي حثيث لإيصال الخير والنفع لأبيهم في قبره، ينشرون علمه ويحيون أعماله، هم في الحقيقة امتداد لأجوره، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١) وقال أيضًا ﷺ: «**إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علّمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه...**»(٢). هذا ما نحسبه فيهم والله حسيبهم.

وكان رحمه الله يقول: أنا لم أعرف اللعب واللهو في حياتي، ولا أضيع أوقاتي فيما لا يفيد، فإما في عمل الدنيا، وإما في عمل الآخرة.

وبالجملة ففقده خسارة فادحة لا تعوض، وثلمة لا تسد، إن في الله عزاء

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٤٢)، وحسنه المنذري والألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٧٤).

من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١] قال: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها، وكذا قال مجاهد أيضًا: هو موت العلماء(١).

وصدق القائل:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يموت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلف(٢)

رحم الله الشيخ عليًا رحمة واسعة، وجعل مستقره دار كرامته، وأسكنه فسيح جنته، ونفع الله بعلومه وجهوده، وأحيا أعماله إلى يوم الدين، وجعل له لسان ذكر في العالمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين(٣).

❁❁❁

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).

(٢) ذكر البيتين الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٧/ ٢٥٦) وعزاهما إلى أحمد بن غزال، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).

(٣) انظر في ترجمة الشيخ رحمه الله: علماء نجد خلال ثمانية قرون، للبسام (٥/ ١٨٠-١٨٤ رقم ٥٨٥)، وروضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، لمحمد بن عثمان القاضي (٣/ ٢٠٥-٢٠٧ رقم ٤٦٥).

الرسالة الأولى:

قاعدة أهل السنة والجماعة

في رحمة أهل البدع والمعاصي
ومشاركتهم في صلاة الجماعة

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

٦٦١ ـ ٧٢٨هـ

قال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى وتقدس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٦].

قال ابن عباس وغيره: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة(١): ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

وفي الترمذي عن أبي أمامة الباهلي عن النبي ﷺ في الخوارج «أنهم كلاب أهل النار»(٢)، وقرأ هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾.

قال الإمام أحمد بن حنبل: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه(٣).

وقد خرجها مسلم في صحيحه، وخرج البخاري طائفة منها، قال النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٢٩ رقم ٣٩٥٠، ٣٩٥١)، وانظر: الدر المنثور (٢/ ٢٩١) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٩١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٧٦) وأحمد (٢/ ٤٠٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٦٨ رقم ٨٠٣٦) والحاكم (٢/ ١٦٣ رقم ٢٦٥٤).

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٢٧٩) وشرح القصيدة النونية لابن عيسى (٢/ ٤٠٥).

«يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[(١)]. وفي رواية: **«يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»**[(٢)].

والخوارج هم أول من كفر المسلمين بالذنوب، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم ويستحلون دمه وماله، وهذه حال أهل البدع، يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم في بدعتهم، وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة، ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحق، ويرحمون الخلق.

وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج[(٣)] والشيعة، حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فعاقب الطائفتين، أما الخوارج فقاتلوه فقتلهم، وأما الشيعة فحرق غاليتهم بالنار، وطلب قتل عبدالله بن سبأ فهرب منه، وأمر بجلد من يفضله على أبي بكر وعمر. وروي عنه من وجوه كثيرة أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ورواه عنه البخاري في صحيحه[(٤)].

فصل

ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات، لا يدعون الجمعة والجماعة كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم، فإن كان الإمام مستورًا،لم يظهر منه بدعة ولا فجور صلى خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين، ولم يقل أحد من الأئمة: إنه لا تجوز الصلاة إلا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦١٠) ومسلم (رقم ١٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٤) ومسلم (رقم ١٠٦٤).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٧) وعمدة القاري (١٨/ ١٣٩).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣٥١ رقم ٣١٩٥٠) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٩٧-٢٩٨ رقم ٩٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٩٩) وقال: صحيح مشهور من حديث شعبة، وانظر: الثقات (٧/ ١٤٢ رقم ٩٣٧٤) و(٨/ ٤٠٢ رقم ١٤٠٩٦) وتذكرة الحفاظ (٣/ ١١٢٢) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٠) و(١٨/ ٥٩) والكامل في ضعفاء الرجال (٤/ ١٧٩).

خلف من علم باطن أمره، بل مازال المسلمون من بعد نبيهم يصلون خلف المسلم المستور، ولكن إذا ظهر من المصلي بدعة أو فجور وأمكن الصلاة خلف من يعلم أنه مبتدع أو فاسق مع إمكان الصلاة خلف غيره، فأكثر أهل العلم يصححون صلاة المأموم وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة، وهو أحد القولين في مذهب مالك وأحمد، وأما إذا لم يمكن الصلاة إلا خلف المبتدع أو الفاجر كالجمعة التي إمامها مبتدع أو فاجر وليس هناك جمعة أخرى، فهذه تصلى خلف المبتدع والفاجر عند عامة أهل السنة والجماعة، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم. من أئمة أهل السنة بلا خلاف عندهم.

وكان بعض الناس إذا كثرت الأهواء يحب أن لا يصلي إلا خلف من يعرفه على سبيل الاستحباب، كما نقل ذلك عن أحمد أنه ذكر ذلك لمن سأله، ولم يقل أحمد: إنه لا تصح إلا خلف من عُرِفَ حاله.

ولما قدم أبو عمرو عثمان بن مرزوق[1] إلى ديار مصر وكان ملوكها في ذلك الزمان مظهرين للتشيع، وكانوا باطنية ملاحدة، وكان بسبب ذلك قد كثرت البدع وظهرت بالديار المصرية ـ أمر أصحابه أن لا يصلوا إلا خلف من يعرفونه لأجل ذلك، ثم بعد موته فتحها ملوك السنة مثل صلاح الدين، وظهرت فيها كلمة السنة المخالفة للرافضة، ثم صار العلم والسنة يكثر بها ويظهر.

فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين، ومن قال: إن الصلاة

(١) هو عثمان بن مرزوق بن حميد بن سلام القرشي الفقيه العارف الزاهد، أبو عمرو، صحب شرف الإسلام ابن عبد الواحد بدمشق، ثم ارتحل إلى مصر واستوطن بها إلى أن مات، أفتى ودرس وناظر وتكلم على المعارف والحقائق، وانتهت إليه تربية المريدين، وانتمى إليه خلق كثير من الصلحاء، وأثنى عليه المشايخ، وحصل له قبول تام من الخاص والعام، وكان يعظم الشيخ عبد القادر، وكان الشيخ أبو عمرو له كرامات وأحوال ومقامات وكلام حسن على لسان أهل الطريقة، توفي بمصر سنة ٥٦٤ هو وقد جاوز السبعين ودفن بالقرافة شرقي قبر الإمام الشافعي ﷺ.
المقصد الأرشد، لبرهان الدين ابن مفلح (٢/ ٢٠٠-٢٠١ رقم ٦٨٩).

محرمة أو باطلة خلف من لا يُعرف حاله، فقد خالف إجماع أهل السنة والجماعة.

وقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يصلون خلف من يعرفون فجوره، كما صلى عبدالله بن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان قد يشرب الخمر، وصلى مرة الصبح أربعًا، وجلده عثمان بن عفان على ذلك.

وكان عبدالله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف.

وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد، وكان متهما بالإلحاد وداعيًا إلى الضلال(١).

فصل

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم(٢).

والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين. واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار، ولهذا لم يسب حريمهم، ولم يغنم أموالهم.

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله

---

(١) عن عبد الكريم البكاء قال: أدركت عشرًا من أصحاب النبي ﷺ كلهم يصلون خلف أئمة الجور، التاريخ الكبير للبخاري (٦/ ٩٠ رقم ١٨٠٠)، وانظر: سبل السلام للصنعاني (٢/ ٢٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢٦).

ورسوله ﷺ، بقتالهم فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟ فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ولا تستحل دمها ومالها، وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضًا، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ. والغالب أنهم جميعًا جهال بحقائق ما يختلفون فيه(١).

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله، قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**»(٢). وقال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»(٣). وقال ﷺ «**من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ذمة الله ورسوله**»(٤).

---

(١) قال ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٩-٢٣١): إني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا عُلِم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارةً، وفاسقًا أخرى، وعاصياً أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية... إن ما نقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار، وهي مسألة الوعيد، فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] الآية. وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فهو كذا، فإن هذه مطلقة عادة، وهي بمنزلة قول من قال من السلف: من قال كذا فهو كذا، ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه بتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة، والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئًا.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٧) ومسلم (رقم ١٦٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٩١).

وقال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه أراد قتل صاحبه**»[١]. وقال: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢]. وقال: «**إذا قال المسلم لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما**»[٣] وهذه الأحاديث كلها في الصحاح.

وإذا كان المسلم متأولاً في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك، كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**»[٤] وهذا في الصحيحين.

وفيها أيضًا من حديث الإفك أن أسيد بن الحضير قال لسعد بن عبادة: إنك منافق تجادل عن المنافقين[٥]. واختصم الفريقان، فأصلح النبي ﷺ بينهم، فهؤلاء البدريون فيهم من قال لآخر منهم: إنك منافق. ولم يكفر النبي ﷺ لا هذا ولا هذا، بل شهد للجميع بالجنة.

وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلًا بعد ما قال: لا إله إلا الله، وعظم النبي ﷺ ذلك لما أخبروه، وقال: «**يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله**»[٦] وكرر ذلك عليه حتى قال أسامة: تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ومع هذا لم يوجب عليه قودًا ولا دية ولا كفارة؛ لأنه كان متأولًا ظن جواز قتل ذلك القائل لظنه أنه قالها تعوذًا.

فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفين ونحوهم، وكلهم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١) ومسلم (رقم ٢٨٨٨).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢١) ومسلم (رقم ٦٥).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٣، ٦١٠٤) ومسلم (رقم ٦٠).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٠٧) ومسلم (رقم ٢٤٩٤).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٦١) ومسلم (رقم ٢٧٧٠).
(٦) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٩) ومسلم (رقم ٩٦).

مسلمون مؤمنون، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل، ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضًا موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ سأل ربه: **«أن لا يهلك أمته بسنة عامة، فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يسلط عليهم عدوًّا من غيرهم، فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم، فلم يعط ذلك»**[1] وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدوًّا من غيرهم يغلبهم كلهم، حتى يكون بعضهم يقتل بعضًا، وبعضهم يسبي بعضًا.

وثبت في الصحيحين لما نزل قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال: **«أعوذ بوجهك»** ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: **«أعوذ بوجهك»** ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٩] قال: **«هاتان أهون»**[2].

هذا مع أن الله أمر بالجماعة الائتلاف، ونهى عن البدعة والاختلاف، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال النبي ﷺ: **«عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة»**[3]، وقال: **«الشيطان مع الواحد، وهو من**

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٢٨، ٧٣١٣).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٨٨ رقم ١١٠٨٥) الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٧ رقم ١٣٦٢٣) بلفظه، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٦٦٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢١٨) رواه =

الإثنين أبعد»[١]، وقال: «**الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم»**[٢].

فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالًا أو غاويًا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وإذا كان قادرًا على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه، وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه. وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا»**[٣]، وإن كان

=

الطبراني بإسناد رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح خلا مرزوق مولى طلحة وهو ثقة. بينما أخرج أوله الضياء المقدسي في أحاديثه المختارة (١/ ٢٩٤-٢٩٥ رقم ١٨٥) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٨٨ رقم ٩٢٢٥) والترمذي (رقم ٢١٦٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥٠٨ رقم ٣٧٦١٥) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٢ رقم ٨٨). بينما أخرج آخره البيهقي في سننه الكبرى (٢/ ٢٩٢ رقم ٣٤٨٣) والنسائي في المجتبى (رقم ٤٠٢٠) والطبراني في الأوسط (٧/ ١٩٣ رقم ٧٢٤٩) وفي الكبير (١/ ١٨٦ رقم ٤٨٩) (٤/ ٨١ رقم ٣٦٠٩) (١٧/ ١٤٤ رقم ٣٦٢) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٦٠ رقم ١٣٠٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٦٧ رقم ٢٣٩).

(١) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (١/ ١٩٢ رقم ٩٦) (١/ ٢٦٦-٢٦٧ رقم ١٥٥) والحاكم (١/ ١٩٧ رقم ٣٨٧) وابن حبان (١٠/ ٤٣٦ رقم ٤٥٧٦) والنسائي في سننه الكبرى (٥/ ٣٨٧ رقم ٩٢١٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٩١ رقم ١٣٢٩٩) والترمذي (رقم ٢١٦٥) وصححه كل من الضياء والحاكم والترمذي.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٦٤ رقم ٣٤٤، ٣٤٥) وعبد بن حميد (رقم ١١٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥٧ رقم ٢٨٦٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢١٩): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد قيل: إنه لم يسمع من معاذ.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٦٧٣).

في هجره لمظهر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره، كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا حتى تاب الله عليهم[1]، وأما إذا ولي غيره بغير إذنه وليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلًا وضلالًا، وكان قد رد بدعة ببدعة، حتى إن المصلي الجمعة خلف الفاجر اختلف الناس في إعادته الصلاة وكرهها أكثرهم، حتى قال أحمد بن حنبل في رواية عبدوس: من أعادها فهو مبتدع[2]. وهذا أظهر القولين، لأن الصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع، ولم يأمر الله تعالى قط أحدًا إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة، ولهذا كان أصح قولي العلماء أن من صلى بحسب استطاعته أن لا يعيد، حتى المتيمم لخشية البرد، ومن عدم الماء والتراب إذا صلى بحسب حاله، والمحبوس وذوو الأعذار النادرة والمعتادة والمتصلة والمنقطة لا يجب على أحد منهم أن يعيد الصلاة إذا صلى الأولى بحسب استطاعته.

وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة صلوا بغير ماء ولا تيمم لما فقدت عائشة عقدها[3]. ولم يأمرهم النبي ﷺ بالإعادة، بل أبلغ من ذلك أن من كان يترك الصلاة جهلا بوجوبها لم يأمره بالقضاء، فعمر وعمار لما أجنبا وعمر لم يصل وعمار تمرغ كما تتمرغ الدابة لم يأمرهما بالقضاء[4]. وأبو ذر لما كان يجنب ولا يصلي لم يأمره بالقضاء. والمستحاضة لما استحاضت حيضة شديدة منكرة منعتها الصلاة والصوم لم يأمرها بالقضاء[5]، والذين أكلوا في رمضان حتى يتبين لأحدهم الحبل الأبيض من الحبل

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤١٨) ومسلم (رقم ٢٧٦٩).

(٢) انظر: المغني (٢/ ١٠) وقال ابن قدامة بعد ذكره لقول أحمد: وهذا يدل بعمومه على أنها لا تعاد خلف فاسق ولا مبتدع، لأنها صلاة أمر بها، فلم تجب إعادتها كسائر الصلوات.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٦، ٣٧٧٣) ومسلم (رقم ٣٦٧).

(٤) أخرج أبو داود (رقم ٣٢١) وانظر: المحلى لابن حزم (٢/ ١٥٤-١٥٥).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٤٣٩) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٢٢ رقم ٨١١) وفي الكبير (٢٤/ ٢١٨ رقم ٥٥٣) والدارقطني في سننه (١/ ٢١٤ رقم ٤٨).

الأسود لم يأمرهم بالقضاء. وكانوا قد غلطوا في معنى الآية فظنوا أن قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] هو الحبل فقال النبي ﷺ: «إنما هو سواد الليل وبياض النهار»(١) ولم يأمرهم بالقضاء، والمسيء في صلاته لم يأمره بإعادة ما تقدم من الصلوات(٢)، والذين صلوا إلى بيت المقدس بمكة والحبشة وغيرهما بعد أن نسخت بالأمر بالصلاة إلى الكعبة وصاروا يصلون إلى الصخرة حتى بلغهم النسخ لم يأمرهم بإعادة ما صلوا، وإن كان هؤلاء أعذر من غيرهم لتمسكهم بشرع منسوخ.

وقد اختلف العلماء في خطاب الله ورسوله: هل يثبت حكمه في حق العبيد قبل البلاغ؟ على ثلاثة أقوال، في مذهب أحمد وغيره، قيل: يثبت، وقيل: لا يثبت، وقيل: يثبت المبتدأ دون الناسخ، والصحيح ما دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] وقوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»(٣).

فالمتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر، بل قد جعل الله لكل شيء قدرًا.

فصل

أجمع المسلمون على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن ذلك حق يجزم به المسلمون، ويقطعون به ولا يرتابون، وكل ما علمه المسلم وجزم به فهو يقطع به، وإن كان الله قادرًا على تغييره، فالمسلم يقطع بما يراه ويسمعه، ويقطع بأن الله قادر على ما يشاء، وإذا قال المسلم: أنا أقطع بذلك، فليس مراده أن الله لا يقدر

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩١٦) ومسلم (رقم ١٠٩٠).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٧) ومسلم (رقم ٣٩٧).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١٦) ومسلم (رقم ١٤٩٩).

على تغييره، بل من قال: إن الله لا يقدر على مثل إماتة الخلق وإحيائهم من قبورهم وعلى تسيير الجبال وتبديل الأرض غير الأرض. فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

والذين يكرهون لفظ القطع من أصحاب أبي عمرو بن مرزوق هم قوم أحدثوا ذلك من عندهم، ولم يكن هذا الشيخ ينكر هذا، ولكن أصل هذا أنهم كانوا يستثنون في الإيمان، كما نقل ذلك عن السلف، فيقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ويستثنون في أعمال البر، فيقول أحدهم: صليت إن شاء الله. ومراد السلف من ذلك الاستثناء كونه لا يقطع بأنه فعل الواجب كما أمر الله ورسوله، فيشك في قبول الله لذلك فاستثنى ذلك، أو للشك في العاقبة، أو يستثنى لأن الأمور جميعًا إنما تكون بمشيئة الله، كقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح: ٢٧]، مع أن الله علم بأنهم يدخلون لا شك في ذلك، أو لئلا يزكي أحدهم نفسه(١).

وكان أولئك يمتنعون عن القطع في مثل هذه الأمور، ثم جاء بعدهم قوم جهال فكرهوا لفظ القطع في كل شيء، ورووا في ذلك أحاديث مكذوبة، وكل من روى عن النبي ﷺ أو عن أصحابه أو واحد من علماء المسلمين أنه كره لفظ القطع في الأمور المجزوم بها فقد كذب عليه. وصار الواحد من هؤلاء يظن أنه إذا أقر بهذه الكلمة فقد أقر بأمر عظيم في الدين، وهذا جهل وضلال من هؤلاء الجهال، لم يسبقهم إلى هذا أحد من طوائف المسلمين، ولا كان شيخهم أبو عمرو بن مرزوق ولا أصحابه في حياته ولا خيار أصحابه بعد موته يمتنعون من هذا اللفظ مطلقًا، بل إنما فعل هذا طائفة من جهالهم.

كما أن طائفة أخرى زعموا أن من سب الصحابة لا يقبل الله توبته وإن تاب،

---

(١) انظر: اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٦١ رقم ١٧٤٧) (٥/ ٩٨٤-٩٨٥ رقم ١٧٩٨) والإيمان لابن منده (١/ ٣١١) وعمدة القاري (١/ ١١٠) وفيض القدير (١/ ٣٦٩).

ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «سب أصحابي ذنب لا يغفر»[(١)] وهذا الحديث كذب على رسول الله ﷺ، لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة، وهو مخالف للقرآن، لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] هذا في حق من لم يتب، وقال في حق التائبين: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٦٣].

فثبت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن كل من تاب تاب الله عليه. ومعلوم أن من سب الرسول من الكفار المحاربين، وقال: هو ساحر أو شاعر أو مجنون أو معلم أو مفتر، وتاب تاب الله عليه.

وقد كان طائفة يسبون النبي ﷺ من أهل الحرب ثم أسلموا وحسن إسلامهم وقبل النبي ﷺ منهم: منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عم النبي ﷺ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وكان قد ارتد، وكان يكذب على النبي ﷺ، ويقول: أنا كنت أعلمه القرآن، ثم تاب وأسلم، وبايعه النبي ﷺ على ذلك.

وإذا قيل: سب الصحابة حق لآدمي، قيل: المستحل لسبهم كالرافضي يعتقد ذلك دينًا، كما يعتقد الكافر سب النبي ﷺ دينًا، فإذا تاب وصار يحبهم ويثني عليهم، ويدعو لهم محا الله سيئاته بالحسنات. ومن ظلم إنسانًا فقذفه أو اغتابه أو شتمه، ثم تاب قبل الله توبته، لكن إن عرف المظلوم مكنه من أخذ حقه، وإن قذفه أو اغتابه

---

(١) ذكره علي الهروي في كتاب المصنوع (ص ١٥٠) وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٣٧ رقم ١٤٤٥): نقل القاري عن ابن تيمية أنه كذب موضوع، ثم قال: وقد يوجه إن صح بأنه ذنب عظيم تعلق به حق الأصحاب، بل وحق سيد الأحباب، ثم قال: وقد كتبت في المسألة رسالة مستقلة، ولا يبعد أن يكون المعنى: سب أصحابي ذنب لا يغفر، لا أسامح من سب أصحابي فاضربوه، ومن سبني فاقتلوه.

ولم يبلغه ففيه قولان للعلماء، هما روايتان عن أحمد: أصحهما: أنه لا يعلمه أني اغتبتك. وقد قيل: بل يحسن إليه في غيبته، كما أساء إليه في غيبته(١)، كما قال الحسن البصري: «كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته»(٢)، فإذا كان الرجل قد سب الصحابة أو غير الصحابة وتاب فإنه يحسن إليهم بالدعاء لهم والثناء عليهم بقدر ما أساء إليهم. والحسنات يذهبن السيئات، كما أن الكافر الذي كان يسب النبي ﷺ ويقول: إنه كذاب، إذا تاب وشهد أن محمدًا رسول الله الصادق المصدوق، وصار يحبه ويثني عليه، ويصلي عليه، كانت حسناته ماحية لسيئاته، والله تعالى ﴿ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥] وقد قال تعالى: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾ [غافر: ١-٣].

آخر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه الزكية، وأسكننا وإياه بمنه الغرف العلية، وصلى الله على محمد وصحبه وسلم.

[يقول محمد رشيد صاحب المنار] هذه الرسالة من أنفس ما كتبه شيخ الإسلام

---

(١) قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في الوابل الصيب (ص٢١٩): وهذه المسألة فيها قولان للعلماء، هما روايتان عن الإمام أحمد، وهما: هل يكفي في التوبة من الغيبة الاستغفار للمغتاب أم لابد من إعلامه وتحليله؟ والصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه، بل يكفيه الاستغفار وذكره بمحاسن ما فيه من المواطن التي اغتابه فيها. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، والذين قالوا: لابد من إعلامه، جعلوا الغيبة كالحقوق المالية،والفرق بينهما ظاهر، فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلمته إليه،إن شاء أخذها وإن شاء تصدق بها، وأما في الغيبة فلا يمكن ذلك، ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع ﷺ، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رُمي به، ولعله يهيج عداوته، ولا يصفو له أبدًا، وما كان هذا سبيله فإن الشارع الحكيم ﷺ لا يبيحه ولا يجوزه، فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به، ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها، لا على تحصيلها وتكميلها، والله تعالى أعلم.

(٢) يروى مرفوعًا عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ. قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٦٧): هذا حديث منكر، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٤٥ رقم ١٩٣٢) وضعفه؛ وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٧٧) إلى البيهقي وضعفه. ولم أقف على قول الحسن البصري رحمه الله.

وأنفعه في التأليف بين أهل القبلة، الذين فرق الشيطان بينهم بأهواء البدع وعصبيات المذاهب، على كونه أقوى أنصار السنة برهانًا، وأبلغ المفندين للبدع قلمًا ولسانًا، ومنهاجه في الرد على المبتدعة ببيان الحق بالأدلة، وحكم ما خالفه من شرك وكفر وبدعة، مع عدم الجزم بتكفير شخص معين له شبهة تأويل، فضلًا عن تكفير فرقة تقيم أركان الدين، فجزاه الله أفضل الجزاء على إرشاده ونصحه للمسلمين.

الرسالة الثانية:

قاعدة في المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات منافعها ومضارها

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

قدس الله ثراه

٦٦١ - ٧٢٨هـ

الرسالة الثانية:

قاعدة في المعجزات والكرامات
وأنواع خوارق العادات
منافعها ومضارها

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

قدس الله ثراه

٦٦١ ـ ٧٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال الشيخ الإمام، العالم العلامة، العارف الرباني، المقذوف في قلبه النور القرآني، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

الحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا إله سواه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي اصطفاه واجتباه وهداه، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات[1]

وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين: كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ـ ويسمونها الآيات ـ لكن كثيرًا من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما، فيجعل المعجزة للنبي، والكرامة للولي، وجماعهما الأمر الخارق للعادة.

فنقول: صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى.

وإن شئت أن تقول: العلم، والقدرة، والقدرة إما على الفعل وهو التأثير، وإما على الترك وهو الغنى، والأول أجود.

وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده، فإنه الذي أحاط بكل شيء علمًا، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين.

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكذلك قال نوح عليه السلام، فهذا أول أولي العزم، وأول رسول بعثه الله

---

(١) هذه القاعدة الشريفة ضمن مؤلفات شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (١١/ ٣١١-٣٦٢).

تعالى إلى أهل الأرض، وهذا خاتم الرسل وخاتم أولي العزم، كلاهما يتبرأ من ذلك، وهذا لأنهم يطالبون الرسول ﷺ:

تارةً بعلم الغيب كقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس:٤٨] و﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وتارةً بالتأثير كقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وتارةً يعيبون عليه الحاجة البشرية كقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب، ولا يملك خزائن الله، ولا هو ملك غني عن الأكل والمال، إن هو إلا متبع لما أوحي إليه، واتباع ما أوحي إليه، هو الدين وهو طاعة الله وعبادته علمًا وعملًا بالباطن والظاهر، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى، فيعلم منه ما علمه إياه، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه، ويستغني عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس.

فما كان من الخوارق من باب العلم. فتارةً بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره. وتارةً بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومنامًا. وتارةً بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحيًا وإلهامًا، أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة، ويسمى كشفًا ومشاهدات،

ومكاشفات ومخاطبات، فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله كشفا و مكاشفة، أي كشف له عنه.

وما كان من باب القدرة فهو التأثير، وقد يكون همة وصدقًا ودعوة مجابة. وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال. مثل هلاك عدوه بغير أثر منه، كقوله: **«من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة»**[(١)]، و**«إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرد»**[(٢)]. ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه ونحو ذلك.

وكذلك ما كان من باب العلم والكشف، قد يكشف لغيره من حاله بعض أمور، كما قال النبي ﷺ في المبشرات: **«هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له»**[(٣)]، وكما قال النبي ﷺ: **«أنتم شهداء الله في الأرض»**[(٤)].

وكل واحد من الكشف والتأثير قد يكون قائمًا به، وقد لا يكون قائماً به، بل يكشف الله حاله، ويصنع له من حيث لا يحتسب، كما قال يوسف بن أسباط: ما صدق الله عبد إلا صنع له. وقال أحمد بن حنبل: لو وضع الصدق على جرح

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢).

(٢) ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ١٦٧ رقم ٤٤٤٣) بلفظ: **«قال الله عز وجل: من أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي، إني لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرد»** وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٣٢) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٣٤) (٤/ ٨٤) وصفة الصفوة (١/ ٤٠). والحرد: المنع عن حدة وغضب. انظر: التعاريف للمناوي (ص ٢٧٣) ولسان العرب (٣/ ١٤٥-١٤٦) ومختار الصحاح (ص ٥٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٣٣) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٢٧٧ رقم ٣٣٩) وقال محققه: إسناده حسن. ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٧ رقم ١٧١٥) وأحمد (٥/ ٣١٥) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١١٨ رقم ١٠٢٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٢): رواه أحمد البزار ... ورجال أحمد رجال الصحيح، وانظر: الفتح (١٢/ ٣٦١) والتمهيد (١/ ٢٨٥) (٥/ ٥٥-٥٧) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٤٨-٤٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦٧) ومسلم (رقم ٩٤٩).

لبرأ[1]. لكن من قام بغيره له من الكشف والتأثير فهو سببه أيضًا وإن كان خرق عادة في ذلك الغير، فمعجزات الأنبياء وإعلامهم ودلائل نبوتهم تدخل في ذلك.

وقد جمع لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع المعجزات والخوارق.

أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية: فمثل إخبار نبينا عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم. وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر، أو بغيره من غير تعلم له منهم.

وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم، ويُعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء: تارةً بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر. وتارةً بما يعلمه الخاصة من علمائهم، وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب، وهو من حكمة إبقائهم بالجزية، وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه.

فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من باب العلم الخارق، وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة، مثل مملكة أمته، وزوال مملكة فارس والروم، وقتال الترك، وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها، مذكور بعضها في كتب دلائل النبوة وسيرة الرسول وفضائله، وكتب التفسير والحديث والمغازي، مثل دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي وسيرة ابن إسحاق، وكتب الأحاديث المسندة: كمسند الإمام أحمد والمدونة كصحيح البخاري، وغير ذلك مما هو مذكور أيضًا في كتب أهل الكلام والجدل، كأعلام النبوة للقاضي عبد الجبار وللماوردي، والرد على النصارى للقرطبي، ومصنفات كثيرة جدًّا.

وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد في كتب الأنبياء المتقدمين، وهي في وقتنا هذا اثنان وعشرون نبوة بأيدي اليهود والنصارى كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وكتاب

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٣٢٠، ٣٢١).

شعيا[١]، وحبقوق[٢]، ودانيال[٣] وأرميا[٤].

كذلك إخبار غير الأنبياء من الأحبار والرهبان، وكذلك أخبار الجن والهواتف المطلقة، وأخبار الكهنة كسطيح[٥] وشق[٦] وغيرهما. وكذلك المنامات وتعبيرها كمنام كسرى وتعبير الموبذان[٧].

(١) ذكره ابن ماكولا في الإكمال (٥/ ٥٨) فقال: شعيا: بياء معجمة باثنتين من تحتها، فهو شعيا بن أمصيا: نبي من أنبياء بني إسرائيل، قال ابن إسحاق: وهو الذي بشر بعيسى ابن مريم ﷺ، وانظر: الدر المنثور (١/ ٢١٢) والعظمة (٢/ ٦١٦).

(٢) حبقوق من سبط لاوى بن يعقوب، ومعناه في التراث الإسرائيلي: المعانق، وله سفر يتكون من ثلاثة إصحاحات، انظر: العهد القديم (ص١٣٢٩) والتراث الإسرائيلي (ص٢٤٩).

(٣) دانيال من سبط يهوذا، وعاش في عصر المحنة التي تعرض لها شعب يهوذا، وكان دانيال ﷺ أول من فرق بين الشهود، كما ذكر البيهقي في سننه الكبرى (٨/ ٢٣٥ رقم ١٦٨٢٢) عن أبي إدريس، وانظر: البداية والنهاية (٢/ ٤٠) والعهد القديم (صـ ١٢٦٠).

(٤) في بعض الكتب أن أرميا كان بإيليا حين خربها بختنصر فخرج منها إلى مصر، فكان بها فأوحى الله إليه أن اخرج منها إلى بيت المقدس فأتاها فإذا هي خربة فنظر إليها، فقال: أني يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام، ثم بعثه، فإذا حماره قائم على رباطه، وإذا طعامه سل عنب وسل تين، لم يتغير على حاله. انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٣٨) والدر المنثور (٢/ ٢٩).

(٥) قال الحافظ ابن حجر في نزهة الألباب في الألقاب (١/ ٣٦٥ رقم ١٤٨٤): سطيح الكاهن في الجاهلية اسمه: ربيع بن ربيعة الغساني، وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٦٨/ ٧٢ رقم ٩٠٠٣) بينما قال ابن ماكولا في الإكمال (٣/ ٤٠٢): أما الذئبي فهو سطيح الكاهن الذئبي من آل ذئب بن حجن.

(٦) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٢٨): وذكر ابن وصيف المؤرخ أن الدجال من ولد شق الكاهن المشهور، قال: وقال: بل هو شق نفسه، أنظره الله، وكانت أمه جنية عشقت أباه فأولدها، وكان الشيطان يعمل له العجائب، فأخذه سليمان فحبسه في جزيرة من جزائر البحر، وهذا أيضًا في غاية ا لوهي.

(٧) لما كانت الليلة التي ولد فيها سيدنا رسول الله ﷺ ارتج إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك مائة عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلًا صعابًا تقود خيلاً عرابًا، قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى أفزعه ما رأى، فلبس تاجه، وأخبر مرازبته بما رأى، فورد عليه كتاب بخمود النار، فقال الموبذان: وأنا رأيت في هذه الليلة وقص عليه رؤياه في الإبل، فقال له: وأي شيء يكون هذا؟ قال: حادث من ناحية العرب، فبعث كسرى إلى النعمان بن المنذر: ابعث إليَّ برجل عالم ليخبرني عما أسأله فوجه إليه بعبد =

وكذا أخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى، وما عبر هو من أعلامهم.

وأما القدرة والتأثير: فإما أن يكون في العالم العلوي أو ما دونه. وما دونه إما بسيط أو مركب، والبسيط إما الجو وإما الأرض. والمركب، إما حيوان وإما نبات وإما معدن. والحيوان إما ناطق وإما بهيم.

فالعلوي كانشقاق القمر[١] ورد الشمس ليوشع بن نون[٢]، كذلك ردها لما فاتت عليًّا الصلاة والنبي ﷺ نائم في حجره[٣] ـ إن صحَّ الحديث ـ فمن الناس من صححه: كالطحاوي والقاضي عياض، ومنهم من جعله موقوفًا كأبي الفرج ابن الجوزي، وهذا أصح. وكذلك معراجه إلى السماوات.

وأما الجو فاستسقاؤه واستصحاؤه غير مرة، كحديث الأعرابي الذي في الصحيحين وغيرهما[٤]. وكذلك كثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره[٥]. وكذلك

= المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني، فأخبره بما رأى، فقال: علم هذا عند خالي سطيح، انظر: الاعتقاد للبيهقي (ص٢٥٧) وفتح الباري (٦/ ٥٨٤) وتاريخ مدينة دمشق (٢٧/ ٣٦١-٣٦٢) ودلائل النبوة للأصبهاني (ص١٣٤-١٣٥) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٦٢٢-٦٢٣) ولسان العرب (٢/ ٤٨٣). وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢١٧) والتمهيد (٦/ ٤٨٩).

(١) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال النبي ﷺ: «اشهدوا» أخرجه البخاري (رقم ٣٦٣٦) ومسلم «رقم ٢٨٠٠».

(٢) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس» أخرجه القطيعي في جزء الألف دينار (رقم ٢٣٩) وحسنه، وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٢١) وصححه الحافظ ابن حجر.

(٣) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥٦٣): وقال القاري في الموضوعات: وأما ما أخرجه الدولابي عن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه قال: كان رأس النبي ﷺ في حجر علي ﷺ وهو يوحى إليه، فلما سري عنه قال: «يا علي صليت العصر؟» قال: لا، قال: «اللهم إنك تعلم أنه كان في حاجتك وحاجة رسولك، فرد عليه الشمس» فردها عليه فصلى وغابت الشمس، قال العلماء: إنه حديث موضوع.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٩٣٣) ومسلم (رقم ٨٩٧).

(٥) انظر: فتح الباري (٨/ ٦٧٢) وتفسير الطبري (٢٣/ ٣٦-٣٨).

إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى(١).

وأما الأرض والماء فكاهتزاز الجبل تحته(٢)، وتكثير الماء في عين تبوك، وعين الحديبية، ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة(٣)، ومزادة المرأة.

وأما المركبات: فتكثيره للطعام غير مرة في قصة الخندق من حديث جابر وحديث أبي طلحة، وفي أسفاره، وجراب أبي هريرة، ونخل جابر بن عبد الله، وحديث جابر وابن الزبير في انقلاع النخل له وعوده إلى مكانه، وسقياه لغير واحد من الأرض كعين أبي قتادة. وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه، وإنما الغرض التمثيل(٤).

وكذلك من باب القدرة: عصا موسى ﷺ، وفلق البحر، والقمل، والضفادع، والدم، وناقة صالح، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى لعيسى.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٠) ومسلم (رقم ١٧٠).

(٢) فعن أنس ﷺ قال: إن النبي ﷺ صعد أحدًا وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» أخرجه البخاري (رقم ٣٦٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (قم ١٦٩) ومسلم (رقم ٢٢٧٩) وانظر: عمدة القاري (٣/ ٣٤).

(٤) قال الكتاني في نظم المتناثر (ص٢١٣): تكثير الطعام ببركته وردت من رواية جماعة من الصحابة حتى قال بعضهم: إنها متواترة تواتراً معنويًا وأشار لتواترها أيضًا عياض، وقال النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم (١٢/ ٣٥): قال المازري في تحقيق المعجزة في هذا أنه كلما أُكل منه جزء أو شُرب جزء خلق الله تعالى جزءًا آخر يخلفه، قال: ومعجزات النبي ﷺ ضربان: أحدهما: القرآن، وهو منقول تواترًا، والثاني: مثل تكثير الطعام والشراب ونحو ذلك، ولك فيه طريقان: أحدهما: أن تقول: تواترت على المعنى كتواتر جود حاتم طيء وحلم الأحنف بن قيس، فإنه لا ينقل في ذلك قصة بعينها متواترة، ولكن تكاثرت أفرادها بالآحاد حتى أفاد مجموعها تواتر الكرم والحلم، وكذلك تواتر انخراق العادة للنبي ﷺ بغير القرآن، والطريق الثاني: أن تقول: إذا روى الصحابي مثل هذا الأمر العجيب وأحال على حضوره فيه مع سائر الصحابة وهم يسمعون روايته ودعواه أو بلغهم ذلك ولا ينكرون عليه كان ذلك تصديقًا له يوجب العلم بصحة ما قال، والله أعلم.

انظر: فتح الباري (٥/ ٢٣٢) (٦/ ٥٨٦-٥٩٥) (٩/ ٥٢٧) وشرح النووي (١٣/ ٢١٥-٢١٧) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (٤/ ٣٧٧).

كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

وفى الجملة لم يكن المقصود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها، وإنما الغرض التمثيل بها.

وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم: فمثل قول عمر في قصة سارية[1]، وإخبار أبى بكر بأن ببطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلًا. وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام.

والقدرة: مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد، وسفينة مولى رسول الله ﷺ، وأبي مسلم الخولاني، وأشياء يطول شرحها، فإن تعداد هذا مثل المطر، وإنما الغرض التمثيل بالشيء الذي سمعه أكثر الناس.

وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله، فمثل نصر الله لمن ينصره، وإهلاكه لمن يشتمه.

فصل

الخارق كشفًا كان أو تأثيرًا، إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين، كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينًا وشرعًا، وإما واجب وإما مستحب.

وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية، التي تقتضي شكرًا.

وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم، أو نهي تنزيه كان سببًا للعذاب أو البغض، كقصة الذي أوتي الآيات فانسلخ منها: بلعام بن باعوراء، لكن قد يكون صاحبها معذورًا لاجتهاد أو تقليد، أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة، فيكون من جنس برح العابد.

---

(١) ذكر القصة البيهقي في الاعتقاد (ص٣١٤) وابن قتيبة في مختلف الحديث (ص ١٦٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١٩-٢٧) وابن حجر في الإصابة (٣/ ٥-٦) وابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٦٠٥) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥١٤ رقم ٣١٧٢) ونقل تحسين الحافظ ابن حجر لإسنادها.

والنهي قد يعود إلى سبب الخارق، وقد يعود إلى مقصوده.

فالأول: مثل أن يدعو الله دعاء منهيًّا عنه اعتداء عليه، وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥].

ومثل الأعمال المنهي عنها إذا أورثت كشفًا أو تأثيرًا.

(والثاني): أن يدعو على غيره بما لا يستحقه، أو يدعو للظالم بالإعانة ويعينه بهمته: كخفراء العدو، وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال.

فإن كان صاحبه من عقلاء المجانين، والمغلوبين غلبة بحيث يعذرون، والناقصين نقصًا لا يلامون عليه برحية[(١)]، وقد بينت في غير هذا الموضع ما يعذرون فيه وما لا يعذرون فيه. وإن كانوا عالمين قادرين كانوا بلعامية[(٢)]، فإن من أتى بخارق على وجه منهي عنه، أو لمقصود منهي عنه: فإما أن يكون معذورًا معفوًّا عنه كبرح، أو يكون متعمدًا للكذب كبلعام.

فتلخص أن الخارق ثلاثة أقسام:

محمود مع الدين، ومذموم في الدين، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين.

فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات، التي لا منفعة فيها كاللعب والعبث.

قال أبو علي الجوزجاني: كن طالبًا للاستقامة لا طالبًا للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة.

قال الشيخ السهروردي في عوارفه: وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب.

وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين. وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبدًا نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء

---

(١) نسبة إلى برح العابد.

(٢) نسبة إلى بلعام بن باعوراء.

من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئًا من ذلك، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهمًا لنفسه في صحة عمله، حيث لم يكاشف بشيء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابًا، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة تفننًا، فيقوى عزمه على هذا الزهد في الدنيا والخروج عن دواعي الهوى.

وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب، ومن كوشف بصدق اليقين أُغني بذلك عن رؤية خرق العادات؛ لأن المراد منها كان حصول اليقين، وقد حصل اليقين فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقينًا.

فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به، وتقتضي الحكمة كشف ذلك لآخر لموضع حاجته، وكان هذا الثاني يكون أتم استعدادًا وأهلية من الأول، فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامة، ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع، فما يبالى ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة.

فتعلم هذا لأنه أصل كبير للطالبين، والعلماء الزاهدين، ومشايخ الصوفية.

فصل

كلمات الله تعالى نوعان: كلمات كونية، وكلمات دينية.

فكلماته الكونية: هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «أعوذ بكلمات الله التامَّات التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجرٌ»[1]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٥٠ رقم ١٧٠٥) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣١٥ رقم ٥٤١٥) وفي الكبير (٤/ ١١٤ رقم ٣٨٣٨) (٢٥/ ١٢ رقم٣) وأحمد (٣/ ٤١٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٧٥ رقم ٤٧١٠) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٦٤ رقم ٣٧٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٩٥٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٥): رواه الطبراني وإسناده حسن.

أن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥] والكون كله داخل تحت هذه الكلمات وسائر الخوارق الكشفية التأثيرية.

(والنوع الثاني) الكلمات الدينية: وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي: أمره ونهيه وخبره، وحظ العبد منها العلم بها والعمل، والأمر بما أمر الله به، كما أن حظ العبد عمومًا وخصوصًا من الأول العلم بالكونيات والتأثير فيها. أي بموجبها.

(فالأولى) قدرية كونية (والثانية) شرعية دينية، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية، وقدرة الأولى التأثير في الكونيات، وقدرة الثانية التأثير في الشرعيات.

وكما أن الأولى تنقسم إلى تأثير في نفسه بطاعته لله، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطنًا وظاهرًا.

وإلى تأثير في غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله، فيطاع في ذلك طاعةً شرعية، بحيث تقبل النفوس ما يأمرها به من طاعة الله ورسوله في الكلمات الدينيات، كما قبلت من الأول ما أراد تكوينه فيها بالكلمات الكونيات.

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علمًا وقدرة لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ولم يسخر له شيء من الكونيات، ولا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأمورًا به أمر إيجاب ولا استحباب.

وأما عدم الدين والعمل به فيصير الإنسان ناقصًا مذمومًا، إما أن يجعله مستحقًا للعقاب، وإما أن يجعله محرومًا من الثواب، وذلك لأن العلم بالدين وتعليمه والأمر به ينال به العبد رضوان الله وحده وصلاته وثوابه، وأما العلم بالكون والتأثير فيه فلا ينال به ذلك إلا إذا كان داخلًا في الدين، بل قد يجب عليه

شكره، وقد يناله به إثم. وإذا عرف هذا فالأقسام ثلاثة: إما أن يتعلق بالعلم والقدرة أو بالدين فقط أو بالكون فقط.

(فالأول) كما قال لنبيه ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء:٨٠]، فإنَّ السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله، وهو كلماته الدينية والقدرية والكونية عند الله، بكلماته الكونيات، ومعجزات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ تجمع الأمرين، فإنها حجة على النبوة من الله وهى قدرية.

وأبلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، فإنه هو شرع الله وكلماته الدينيات، وهو حجة محمد ﷺ على نبوته ومجيئه من الخوارق للعادات، فهو الدعوة، وهو الحجة، والمعجزة.

(وأما القسم الثاني) فمثل من يعلم بما جاء به الرسول خبرًا وأمرًا، ويعمل به، ويأمر به الناس، ويعلم بوقت نزول المطر وتغير السعر، وشفاء المريض، وقدوم الغائب، ولقاء العدو، وله تأثير إما في الأناسي، وإما في غيرهم بإصحاح وإسقام وإهلاك، أو ولادة أو ولاية أو عزل.

وجماع التأثير أما جلب منفعة كالمال والرياسة، وإما دفع مضرة كالعدو والمرض، أو لا واحد منهما، مثل ركوب أسد بلا فائدة، أو إطفاء نار ونحو ذلك.

(وأما الثالث) فمن يجتمع له الأمران، بأن يؤتى من الكشف والتأثير الكوني، ما يؤيد به الكشف والتأثير الشرعي. وهو علم الدين والعمل به، والأمر به، ويؤتى من علم الدين والعمل به، ما يستعمل به الكشف والتأثير الكوني، بحيث تقع الخوارق الكونية تابعة للأوامر الدينية، أو إن تخرق له العادة في الأمور الدينية، بحيث ينال من العلوم الدينية، ومن العمل بها، ومن الأمر بها، ومن طاعة الخلق فيها، وما لم ينله غيره في مطرد العادة، فهذه أعظم الكرامات والمعجزات، وهو حال نبينا محمد ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر و كل المسلمين.

فهذا القسم الثالث هو مقتضى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾، إذ الأول هو العبادة، والثاني هو الاستعانة، وهو حال نبينا محمد ﷺ، والخواص من أمته المتمسكين بشرعته ومنهاجه باطنا وظاهرًا، فإن كراماتهم كمعجزاته، لم يخرجها إلا لحجة أو حاجة.

فالحجة ليظهر بها دين الله، ليؤمن الكافر، ويخلص المنافق، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا، فكانت فائدتها اتباع دين الله: علمًا وعملًا، كالمقصود بالجهاد.

والحاجة كجلب منفعة يحتاجون إليها: كالطعام والشراب وقت الحاجة إليه أو دفع مضرة عنهم، ككسر العدو بالحصى الذي رماهم به، فقيل له: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧] وكل من هذين يعود إلى منفعة الدين، كالأكل والشراب، وقتال العدو، والصدقة على المسلمين، فإن هذا من جملة الدين والأعمال الصالحة.

وأما القسم الأول، وهو المتعلق بالدين فقط، فيكون منه ما لا يحتاج إلى الثاني، ولا له فيه منفعة، كحال كثير من الصحابة والتابعين وصالحي المسلمين وعلمائهم وعبادهم، مع أنه لابد أن يكون لهم حاجة أو انتفاعًا بشيء من الخوارق، وقد يكون منهم من لا يستعمل أسباب الكونيات ولا عمل بها، فانتفاء الخارق الكوني في حقه، إما لانتفاء سببه، وإما لانتفاء فائدته، وانتفاؤه لانتفاء فائدته لا يكون نقصًا، وأما انتفاؤه لانتفاء سببه فقد يكون نقصًا، وقد لا يكون نقصًا، فإن كان لإخلاله بفعل واجب وترك محرم كان عدم الخارق نقصًا وهو سبب الضرر، وان كان لإخلاله بالمستحبات فهو نقص عن رتبة المقربين السابقين، وليس هو نقصًا عن رتبة أصحاب اليمين المقتصدين، وإن لم يكن كذلك بل لعدم اشتغاله بسبب الكونيات التي لا يكون عدمها ناقصًا لثواب لم يكن ذلك نقصًا، مثل من يمرض ولده ويذهب ماله، فلا يدعو ليعافى أو يجيء ماله، أو يظلمه ظالم فلا يتوجه عليه لينتصر عليه.

وأما القسم الثاني: وهو صاحب الكشف والتأثير الكوني، فقد تقدم أنه تارةً

يكون زيادةً في دينه وتارةً يكون نقصًا، وتارةً لا له ولا عليه، وهذا غالب حال أهل الاستعانة، كما أن الأول غالب حال أهل العبادة.

وهذا الثاني بمنزلة الملك والسلطان، الذي قد يكون صاحبه خليفة نبيًّا، فيكون خير أهل الأرض، وقد يكون ظالماً من شر الناس، وقد يكون ملكًا عادلًا، فيكون من أوساط الناس.

فإن العلم بالكونيات والقدرة على التأثير فيها بالحال والقلب. كالعلم بأحوالها والتأثير فيها بالملك وأسبابه، فسلطان الحال والقلب كسلطان الملك واليد، إلا أن أسباب هذا باطنة روحانية، وأسباب هذا ظاهرة جثمانية، وبهذا تبين لك أن القسم الأول إذا صح فهو أفضل من هذا القسم، وخير عند الله وعند رسوله وعباده الصالحين المؤمنين العقلاء. وذلك من وجوه:

(أحدها) أن علم الدين طلبًا وخبرًا لا ينال إلا من جهة الرسول ﷺ، وأما العلم بالكونيات فأسبابه متعددة، وما اختص به الرسل وورثتهم أفضل مما شركهم فيه بقية الناس، فلا ينال علمه إلا هم وأتباعهم، ولا يعلمه إلا هم وأتباعهم.

(الثانى) أن الدين لا يعمل به إلا المؤمنون الصالحون، الذين هم أهل الجنة وأحباب الله وصفوته وأحباؤه وأولياؤه، ولا يأمر به إلا هم.

وأما التأثير الكوني فقد يقع من كافر ومنافق وفاجر، تأثيره في نفسه وفى غيره: كالأحوال الفاسدة والعين والسحر، وكالملوك والجبابرة المسلطين والسلاطين الجبابرة، وما كان من العلم مختصًا بالصالحين أفضل مما يشترك فيه المصلحون والمفسدون.

(الثالث) أن العلم بالدين والعمل به ينفع صاحبه في الآخرة ولا يضره، وأما الكشف والتأثير فقد لا ينفع في الآخرة بل قد يضره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة:١٠٣].

(الرابع) أن الكشف والتأثير، إما أن يكون فيه فائدة أو لا يكون.

فإن لم يكن فيه فائدة كالاطلاع على سيئات العباد، وركوب السباع لغير حاجة،

والاجتماع بالجن لغير فائدة، والمشي على الماء مع إمكان العبور على الجسر، فهذا لا منفعة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو بمنزلة العبث واللعب، و إنما يستعظم هذا من لم ينله، وهو تحت القدرة والسلطان في الكون، مثل من يستعظم الملك أو طاعة الملوك لشخص، وقيام الحالة عند الناس بلا فائدة، فهو يستعظمه من جهة سببه لا من جهة منفعته كالمال والرياسة، ودفع مضرة كالعدو والمرض، فهذه المنفعة تنال غالبًا بغير الخوارق أكثر مما تنال بالخوارق، ولا يحصل بالخوارق منها إلا القليل، ولا تدوم إلا بأسباب أخرى.

وأما الآخر أيضًا فلا يحصل بالخوارق إلا مع الدين، والدين وحده موجب للآخرة بلا خارق.

بل الخوارق الدينية الكونية أبلغ من تحصيل الآخرة كحال نبينا محمد ﷺ.

وكذلك المال والرياسة التي تحصل لأهل الدين بالخوارق إنما هو مع الدين، وإلا فالخوارق وحدها لا تؤثر في الدنيا إلا أثرًا ضعيفًا.

فإن قيل: مجرد الخوارق إن لم تحصل بنفسها منفعة لا في الدين ولا في الدنيا، فهي علامة طاعة النفوس له، فهو موجب الرياسة والسلطان، ثم يتوسط ذلك فتجتلب المنافع الدينية والدنيوية، وتدفع المضار الدينية والدنيوية.

قلت: نحن لم نتكلم إلا في منفعة الدين، أو الخارق في نفسه من غير فعل الناس. وأما إن تكلمنا فيما يحصل بسببها من فعل الناس فنقول:

أولًا: الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو الواقع، فإنه لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره، إذ طاعة الأول أعم وأكثر، والمطيع بها خيار بني آدم عقلًا ودينًا.

وأما الثانية: فلا تدوم ولا تكثر ولا يدخل فيها إلا جهال الناس، كأصحاب مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي، ونحوهم، وأهل البوادي، والجبال ونحوهم، ممن لا عقل له ولا دين.

ثم نقول ثانيًا: لو كان الخارق يناله من الرياسة والمال أكثر من صاحب الدين لكان غايته أن يكون ملكًا من الملوك، بل ملكه إن لم يقرنه بالدين فهو كفرعون وكمقدمي الإسماعيلية ونحوهم، وقد قدمنا أن رياسة الدنيا التي ينالها الملوك بسياستهم وشجاعتهم وإعطائهم أعظم من الرياسة بالخارق المجرد، فإن هذه أكثر ما يكون مدة قريبة.

(الخامس) أن الدين ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة، ويدفع عنه مضرة الدنيا والآخرة من غير أن يحتاج معه إلى كشف أو تأثير. وأما الكشف أو التأثير فإن لم يقترن به الدين، وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة.

أما في الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات.

وأما في الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة، التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات في القلب والجسم والأهل والمال.

فإنه إن سلك طريق الجوع والرياضة المفرطة خاطر بقلبه ومزاجه ودينه، وربما زال عقله ومرض جسمه وذهب دينه.

وإن سلك طريق الوله والاختلاط بترك الشهوات ليتصل بالأرواح الجنية وتغيب النفوس عن أجسامها، كما يفعل مولهو الأحمدية ـ فقد أزال عقله وأذهب ماله ومعيشته ـ وأشقى نفسه شقاء لا مزيد عليه، وعرض نفسه لعذاب الله في الآخرة، لما تركه من الواجبات، وما فعله من المحرمات.

وكذلك إن قصد تسخير الجن بالأسماء والكلمات من الأقسام والعزائم، فقد عرض نفسه لعقوبتهم ومحاربتهم، بل لو لم يكن الخارق إلا دلالة صاحب المال المسروق والضال على ماله أو شفاء المريض أو دفع العدو من السلطان والمحاربين ـ فهذا القدر إذا فعله الإنسان مع الناس، ولم يكن عمله دينًا يتقرب به إلى الله كان كأنه قهرمان للناس يحفظ أموالهم، أو طبيب أو صيدلي يعالج أمراضهم، أو أعوان سلطان يقاتلون عنه، إذ عمله من جنس عمل أولئك سواء.

ومعلوم أن من سلك هذا المسلك على غير الوجه الديني، فإنه يحابي بذلك أقوامًا ولا يعدل بينهم، وربما أعان الظلمة بذلك كفعل بلعام وطوائف من هذه الأمة وغيرهم، وهذا يوجب له عداوة الناس التي هي من أكثر أسباب مضرة الدنيا، ولا يجوز أن يحتمل المرء ذلك إلا إذا أمر الله به ورسوله، لأن ما أمر الله به ورسوله وإن كان فيه مضرة فمنفعته غالبة على مضرته، والعاقبة للتقوى.

(السادس): إن للدين علمًا وعملًا إذا صح، فلابد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ۝٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٦٨﴾ [النساء:٦٦-٦٨]. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]. وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله - ثم قرأ قوله تعالى - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] [الحجر: ٧٥]» رواه الترمذي وحسنه من رواية أبي سعيد.

وقال الله تعالى فيما روى عنه رسول الله ﷺ: «من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب

---

(١) أخرجه الترمذي (قم ٣١٢٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٢ رقم ٣٢٥٤) (٨/ ٢٣ رقم ٧٨٤٣) وفي الكبير (٨/ ١٠٢ رقم ٧٤٩٧) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٢٠٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (رقم ٦٦٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨): رواه الطبراني وإسناده حسن، وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤٤١) وفيض القدير (١/ ١٤٢، ١٨٦) (٢/ ٥٥٨).

إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولابد له منه»[1]. فهذا فيه محاربة الله لمن حارب وليه، وفيه أن محبوبه به يعلم سمعًا وبصرًا، وبه يعمل بطشًا وسعيًا، وفيه أنه يجيبه إلى ما يطلبه منه من المنافع، ويصرف عنه ما يستعيذ به من المضار، وهذا باب واسع.

وأما الخوارق فقد تكون مع الدين، وقد تكون مع عدمه، أو فساده أو نقصه.

(السابع): أن الدين هو إقامة حق العبودية، وهو فعل ما عليك وما أمرت به. وأما الخوارق فهي من حق الربوبية، إذا لم يؤمر العبد بها، وإن كانت بسعي من العبد فإن الله هو الذي يخلقها بما ينصبه من الأسباب.

والعبد ينبغي له أن يهتم بما عليه وما أمر به، وأما اهتمامه بما يفعله الله إذا لم يؤمر بالاهتمام به، فهو إما فضول، فتكون لما فيها من المنافع كالمنافع السلطانية المالية، التي يستعان بها على الدين: كتكثير الطعام والشراب وطاعة الناس إذا رأوها، ولما فيها من دفع المضار عن الدين بمنزلة الجهاد الذي فيه دفع العدو وغلبته.

ثم هل الدين محتاج إليها في الأصل، ولأن الإيمان بالنبوة لا يتم إلا بالخارق، أو ليس بمحتاج في الخاصة، بل في حق العامة؟ وهذا نتكلم عليه.

وأنفع الخوارق الخارق الديني، وهو حال نبينا محمد ﷺ، قال ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[2] [أخرجاه في الصحيحين].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٨١) ومسلم (رقم ١٥٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦-٧) وشرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٨٨) وفيض القدير (٥/ ٤٦٦).

وكانت آيته هي دعوته وحجته، بخلاف غيره من الأنبياء، ولهذا نجد كثيرًا من المنحرفين منا إلى العيسوية يفرون من القرآن والقال إلى الحال، كما أن المنحرفين منا إلى الموسوية يفرون من الإيمان والحال إلى القال، ونبينا صاحب القال والحال، وصاحب القرآن والإيمان.

ثم بعده الخارق المؤيد للدين المعين له؛ لأن الخارق في مرتبة ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والدين في مرتبة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فأما الخارق الذي لم يعن الدين، فإما متاع دنيا، أو مبعد صاحبه عن الله تعالى.

فظهر بذلك أن الخوارق النافعة تابعة للدين حادثة له، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين، وكذلك المال النافع، كما كان السلطان والمال بيد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فمن جعلها هي المقصودة وجعل الدين تابعًا لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل، فهو يشبه بمن يأكل الدنيا بالدين، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة، فإن ذلك مأمور به، وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة.

والعجب أن كثيرًا ممن يزعم أن همه قد ارتفع وارتقى عن أن يكون دينه خوفًا من النار أو طلبًا للجنة، يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا، ولعله يجتهد اجتهادًا عظيمًا في مثله، وهذا خطأ، ولكن منهم من يكون قصده بهذا تثبيت قلبه وطمأنينته وإيقانه بصحة طريقه وسلوكه، فهو يطلب الآية علامة وبرهانًا على صحة دينه، كما تطلب الأمم من الأنبياء الآيات دلالة على صدقهم، فهذا أعذر لهم في ذلك.

ولهذا لما كان الصحابة ﷺ مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات بما رأوه من حال الرسول ونالوه من علم، صار كل من كان عنهم أبعد مع صحة طريقته يحتاج إلى ما عندهم في علم دينه وعمله.

فيظهر مع الإفراد في أوقات الفترات وأماكن الفترات من الخوارق ما لا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة.

فصل

العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة: حسية، وعقلية، وكشفية، وسمعية، ضرورية، ونظرية، وغير ذلك.

وينقسم إلى قطعي وظني وغير ذلك، وسنتكلم إن شاء الله تعالى على ما يتبع منها وما لا يتبع في الأحكام الشرعية أعني الأحكام الشرعية، على العلم بالكائنات من طريق الكشف يقظة ومناماً، كما كتبته في الجهاد. وأما العلم بالدين وكشفه، فالدين نوعان: أمور خبرية اعتقادية، وأمور طلبية عملية.

فالأول: كالعلم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويدخل في ذلك أخبار الأنبياء وأممهم ومراتبهم في الفضائل، وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار، وما في الأعمال من الثواب والعقاب، وأحوال الأولياء والصحابة وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك.

وقد يسمى هذا النوع أصول دين، ويسمى العقد الأكبر[1]، ويسمى الجدال فيه بالعقل كلامًا، ويسمى عقائد واعتقادات، ويسمى المسائل العلمية والمسائل الخبرية، ويسمى علم المكاشفة.

(والثانى): الأمور العملية الطلبية من أعمال الجوارح والقلب: كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات والمباحات، فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد، فهو من جهة كونه علماً واعتقادًا أو خبرًا صادقًا أو كاذبًا يدخل في القسم الأول، ومن جهة كونه مأمورًا به أو منهيًا عنه يدخل في القسم الثاني، مثل شهادة أن لا

---

(١) كذا بالنسخ المطبوعة، ولعل الصواب والله أعلم: (الفقه الأكبر). قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى: فمن الناس من يسمي العلم والاعتقاد والحكم والقول الخبري التابع: علم الأصول، وأصول الدين، أو علم الكلام، أو الفقه الأكبر، ونحو ذلك من الأسماء المتقاربة وإن اختلفت فيها المقاصد والاصطلاحات، ويسمى النوع الآخر: علم الفروع وفروع الدين وعلم الفقه والشريعة، ونحو ذلك من الأسماء، وهذا اصطلاح كثير من المتفقهة والمتكلمة المتأخرين.

إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لمخبرها فهي من القسم الأول، ومن جهة أنها فرض واجب وأن صاحبها بها يصير مؤمنًا يستحق الثواب، وبعدمها يصير كافرًا يحل دمه وماله، فهي من القسم الثاني.

وقد يتفق المسلمون على بعض الطرق الموصلة إلى القسمين، كاتفاقهم على أن القرآن دليل فيهما في الجملة، وقد يتنازعون في بعض الطرق: كتنازعهم في أن الأحكام العملية من الحسن والقبيح والوجوب والحظر، هل تعلم بالعقل كما تعلم بالسمع أم لا تعلم إلا بالسمع؟ وأن السمع هل هو منشأ الأحكام أو مظهر لها، كما هو مظهر للحقائق الثابتة بنفسها؟

وكذلك الاستدلال بالكتاب والسنة والإجماع على المسائل الكبار في القسم الأول، مثل مسائل الصفات والقدر وغيرهما مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، وأبى ذلك كثير من أهل البدع المتكلمين بها عندهم على أن السمع لا يثبت به تلك المسائل فإثباتها بالعقل حتى يزعم كثير من القدرية والمعتزلة: أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله، وأنه خالق كل شيء وقادر على كل شيء، وتزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم: أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته، وأنه مستو على العرش.

ويزعم قوم من غالية أهل البدع: أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقا، بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بها زعموا.

ويزعم كثير من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع واليقين.

ويزعم قوم من غالية المتكلمين أنه لا يستدل بالإجماع على شيء.

ومنهم من يقول: لا يصح الاستدلال به على الأمور العلمية؛ لأنه ظني، وأنواع من هذه المقالات التي ليس هذا موضعها.

فإن طرق العلم والظن وما يتوصل به إليهما من دليل أو مشاهدة، باطنة أو

ظاهرة، عام أو خاص، فقد تنازع فيه بنو آدم تنازعًا كثيرًا.

وكذلك كثير من أهل الحديث والسنة قد ينفي حصول العلم لأحد بغير الطريق التي يعرفها، حتى ينفي أكثر الدلالات العقلية من غير حجة على ذلك. وكذلك الأمور الكشفية التي للأولياء من أهل الكلام من ينكرها، ومن أصحابنا من يغلو فيها، وخيار الأمور أوساطها.

فالطريقة العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية طريقة أهل الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف، قد تجاذبها الناس نفيًا وإثباتًا، فمن الناس من ينكر منها ما لا يعرفه، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه، فيرفعه فوق قدره وينفى ما سواه، فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية، وكثير منها فاسد متناقض، وهم أكثر خلق الله تناقضًا واختلافًا، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعيًّا.

وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب، وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوي، وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفًا وهي خيالات غير مطابقة، وأوهام غير صادقة ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم:٢٨] فنقول:

أما طرق الأحكام الشرعية التي نتكلم عليها في أصول الفقه فهي بإجماع المسلمين: الكتاب، لم يختلف أحد من الأئمة في ذلك، كما خالف بعض أهل الضلال في الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية.

(والثاني) السنة المتواترة التي لا تخالف ظاهر القرآن بل تفسره، مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها، ونصب الزكاة وفرائضها، وصفة الحج والعمرة، وغير ذلك من الأحكام التي لم تعلم إلا بتفسير السنة.

وأما السنة المتواترة التي لا تفسر ظاهر القرآن، أو يقال تخالف ظاهره كالسنة في تقدير نصاب السرقة ورجم الزاني وغير ذلك، فمذهب جميع السلف العمل بها

أيضًا، إلا الخوارج، فإن من قولهم - أو قول بعضهم - مخالفة السنة، حيث قال أولهم للنبي في وجهه: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. ويحكى عنهم أنهم لا يتبعونه ﷺ، إلا فيما بلغه عن الله من القرآن والسنة المفسرة له، وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره، ولهذا كانوا مارقة، مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وقال النبي ﷺ لأولهم: «**لقد خبت وخسرت إن لم أعدل**»[(١)] فإذا جوز أن الرسول يجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه الله عليه من الأموال، وهو معتقد أنه أمين الله على وحيه، فقد اتبع ظالماً كاذباً، وجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه من المال من هو صادق أمين فيما ائتمنه الله عليه من خبر السماء، ولهذا قال النبى ﷺ: «**أيأمننى من في السماء ولا تأمنوني**»[(٢)] أو كما قال، يقول ﷺ: «**إن أداء الأمانة في الوحي أعظم**»[(٣)]. والوحي الذي أوجب الله طاعته، هو الوحي بحكمه وقسميه.

وقد ينكر هؤلاء كثيرًا من السنن، طعنًا في النقل، لا ردًّا للمنقول، كما ينكر كثير من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم: كالشفاعة والحوض والصراط والقدر وغير ذلك.

(الطريق الثالث): السنن المتواترة عن رسول الله ﷺ، إما متلقاة بالقبول بين أهل العلم بها، أو برواية الثقات لها، وهذه أيضًا مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم.

وقد أنكرها بعض أهل الكلام، وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشيء منها وإنما يوجب العلم، علم القرآن والسنة المتلقى بالقبول وغيره، وكثير من أهل الرأي

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٠٦٣) وابن حبان في صحيحه (١١/ ١٤٧-١٤٨ رقم ٤٨١٩) وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٥٩) والتمهيد (٢٣/ ٣٢٩-٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٢)، ومسلم (رقم ١٠٦٤) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ١٢٠-١٢١) وعون المعبود (١٣/ ٧٧).

(٣) لم أجده.

قد ينكر كثيرًا منها بشروط اشترطها، ومعارضات دفعها بها ووضعها، كما يرد بعضهم بعضًا؛ لأنه بخلاف ظاهر القرآن فيما زعم، أو لأنه خلاف الأصول، أو قياس الأولى، أو لأن عمل متأخري أهل المدينة على خلافه أو غير ذلك من المسائل المعروفة في كتب الفقه والحديث وأصول الفقه.

(الطريق الرابع): الإجماع، وهو متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة، لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة، وأما ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالبًا، ولهذا اختلف أهل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابة، واختلف في مسائل منه كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابة، والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم، والإجماع السكوتي وغير ذلك[1].

(الطريق الخامس): القياس على النص والإجماع، وهو حجة أيضًا عند جماهير الفقهاء، لكن كثيرًا من أهل الرأي أسرف فيه، حتى استعمله قبل البحث عن النص وحتى رد به النصوص، وحتى استعمل منه الفاسد، ومن أهل الكلام وأهل الحديث وأهل القياس من ينكره رأسًا، وهي مسألة كبيرة، والحق فيها متوسط بين الإسراف والنقص.

(الطريق السادس): الاستصحاب، وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع، وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق، وهل هو حجة في اعتقاد العدم؟ فيه خلاف[2].

---

(١) انظر: الحاوي في فقه الشافعي، للماوردي (١٦/ ١٠٦-١١٤) والأنجم الزاهرات على حل ألفاظ الورقات للمرديني (ص٤٢-٤٤) والفصول في الأصول للرازي الجصاص (٣/ ٢٥٧-٢٧٧) والتمهيد (٤/ ٢٦٧) وفتح الباري (١٣/ ٤٠٧) وعون المعبود (١٣/ ٣١).

(٢) انظر: الأحكام للآمدي (٣/ ٨٤) (٤/ ١٣٣-١٤٢) والتعاريف للمناوي (ص٥٧) والتعريفات للجرجاني (ص٣٤).

ومما يشبه الاستدلال بعدم الدليل السمعي على عدم الحكم الشرعي.

مثل أن يقال: لو كانت الأضحية أو الوتر واجبًا لنصب الشرع عليه دليلًا شرعيًا، إذ وجوب هذا لا يعلم بدون الشرع، ولا دليل، فلا وجوب.

فالأول يبقى على نفي الوجوب والتحريم المعلوم بالعقل حتى يثبت المغير له، وهذا استدلال بعد الدليل السمعي المثبت على عدم الحكم، إذ يلزم من ثبوت مثل هذا الحكم ثبوت دليله السمعي، كما يستدل بعدم النقل لما تتوفر الهمم والدواعي على نقله وما توجب الشريعة نقله، وما يعلم من دين أهلها وعادتهم أنهم ينقلونه على أنه لم يكن، كالاستدلال بذلك على عدم زيادة في القرآن وفي الشرائع الظاهرة، وعدم النص الجلي بالإمامة على علي أو العباس أو غيرهما، ويعلم الخاصة من أهل العلم بالسنن والآثار وسيرة النبي ﷺ وخلفائه انتفاء أمور من هذا، ولا يعلم انتفاءها غيرهم، ولعلمهم بما ينفيها من أمور منقولة يعلمونها هم، ولعلمهم بانتفاء لوازم نقلها؛ فإن وجود أحد الضدين ينفي الآخر، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم.

(الطريق السابع): المصالح المرسلة، وهو أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب منفعة راجحة، وليس في الشرع ما ينفيه، فهذه الطريق فيها خلاف مشهور، فالفقهاء يسمونها المصالح المرسلة، ومنهم من يسميها الرأي، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته، وهذه مصلحة[1].

لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض

(١) انظر: الإحكام للآمدي (٤/ ١١، ٣٢، ١٦٧) والأم (٧/ ٩٤، ٢٩٤-٣٠١) والمبسوط لمحمد بن الحسن الشيباني (٣/ ٤٨-١٦٦) والمدونة الكبرى (١٤/ ٣٧٣) وفتح الباري (٩/ ٤٦٣) وشرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ١٠٥) وأحكام القرآن للشافعي (ص ٣٦) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٨٥) (٢٤/ ١٠٦).

والعقول والأديان، وليس كذلك، بل المصالح المرسلة في جلب المنافع وفى دفع المضار، وما ذكروه من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين.

وجلب المنفعة يكون في الدنيا وفى الدين، ففي الدنيا كالمعلامات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعي، وفى الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات، التي يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي، فمن قصر المصالح على العقوبات التي فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر.

وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به، فإن من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم، وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه، وربما قدم على المصالح المرسلة كلامًا بخلاف النصوص، وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعًا، بناء على أن الشرع لم يرد بها، ففوت واجبات ومستحبات، أو وقع في محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه.

وحجة الأول: أن هذه مصلحة والشرع لا يهمل المصالح، بل قد دل الكتاب والسنة والاجماع على اعتبارها.

وحجة الثاني: أن هذا أمر لم يرد به الشرع نصًا ولا قياسًا.

والقول بالمصالح المرسلة يشرع من الدين ما لم يأذن به الله، وهى تشبه من بعض الوجوه مسألة الاستحسان العقلي والرأي ونحو ذلك، فإن الاستحسان طلب الحسن والأحسن كالاستخراج، وهو رؤية الشيء حسنًا، كما أن الاستقباح رؤيته قبيحًا والحسن هو المصلحة، فالاستحسان والاستصلاح متقاربان.

والتحسين العقلي قول بأن العقل يدرك الحسن، لكن بين هذه فروق(١).

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٥١٤) (١٣/ ٢٠٨) وعمدة القاري (٤/ ١٥٦) وعون المعبود (٢/ ١٠٥) والإحكام للآمدي (١/ ١٢٧، ١٦٥، ١٧١، ١٩٠) (٢/ ٣٣) (٣/ ١٣٣) (٤/ ١١١) ونيل الأوطار (٤/ ١٥٩).

والقول الجامع: إن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي ﷺ، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك(١)، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له:

إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر، أو أنه ليس بمصلحة، أو اعتقد مصلحة، لأن المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا، ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩].

وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعًا وحقًّا وصوابًا ولم يكن كذلك، بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس يحسب كثير منهم أن ما هم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا، ومنفعة لهم، فقد: ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٤].

وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنًا، فإذا كان الإنسان يرى حسنًا هو سيء كان استحسانه أو استصلاحه قد يكون من هذا الباب. وهذا بخلاف الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا. فإن باب جحود الحق ومعاندته غير باب جهله والعمى عنه، والكفار فيهم هذا وفيهم هذا.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٥ رقم ٣٣١) وابن ماجه (رقم ٤٣) والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥٧ رقم ٦٤٢) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٧٢-١٧٣ رقم ٢٠١٧) وأحمد (٤/ ١٢٦) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤٧ رقم ٩٣): رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد حسن.

وكذلك في أهل الأهواء من المسلمين القسمان، فإن الناس كما أنهم في باب الفتوى والحديث يخطئون تارة، ويتعمدون الكذب أخرى، فكذلك هم في أحوال الديانات.

وكذلك في الأفعال قد يفعلون ما يعلمون أنه ظلم، وقد يعتقدون أنه ليس بظلم هو ظلم، فإن الإنسان كما قال الله تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب:٧٢]. فتارةً يجهل وتارة يظلم: ذلك في قوة علمه، وهذا في قوة عمله.

واعلم أن هذا الباب مشترك بين أهل العلم والقول، وبين أهل الإرادة والعمل، فذلك يقول هذا جائز أو حسن، بناء على ما رآه، وهذا يفعله من غير اعتقاد تحريمه، أو اعتقاد أنه خير له كما يجد نفعًا في مثل السماع المحدث سماع المكاء والتصدية واليراع التي يقال لها الشبابة والصفارة والأوتار وغير ذلك.

وهذا يفعله لما يجده من لذته، وقد يفعله لما يجده من منفعة دينه بزيادة أحواله الدينية كما يفعل مع القرآن.

وهذا يقول: هذا جائز لما يرى من تلك المصلحة والمنفعة، وهو نظير المقالات المبتدعة، وهذا يقول: هو حق لدلالة القياس العقلي عليه، وهذا يقول: يجوز ويجب اعتقادها وإدخالها في الدين إذا كانت كذلك.

وكذلك سياسات ولاة الأمور من الولاة والقضاة وغير ذلك.

واعلم أنه لا يمكن العاقل أن يدفع عن نفسه أنه قد يميز بعقله بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وبين النافع والضار، والمصلحة والمفسدة، ولا يمكن المؤمن أن يدفع عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق في المعتقدات، وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التي تدخل فيها الاعتقادات؛ ولهذا لم يختلف الناس أن الحسن أو القبيح إذا فسر بالنافع والضار والملائم للإنسان والمنافي له واللذيذ والأليم فإنه قد يعلم بالعقل، وهذا في الأفعال.

وكذلك إذا فسر حسنه بأنه موجود أو كمال الموجود يوصف بالحسن، ومنه قوله

تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧]، كما نعلم أن الحي أكمل من الميت في وجوده، وأن العالم أكمل من الجاهل، وأن الصادق أكمل من الكاذب ـ فهذا أيضا قد يعلم بالعقل.

وإنما اختلفوا في أن العقل هل يعتبر المنفعة والمضرة، وأنه هل باب التحسين واحد في الخالق والمخلوق.

فأما الوجهان الأولان فثابتان في أنفسهما، ومنهما ما يعلم بالعقل الأول في الحق المقصود، والثاني في الحق الموجود.

(الأول) متعلق بحب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته، وخطابه بالأمر والنهي.

(والثاني) متعلق بتصديقه وتكذيبه، و إثباته ونفيه، وخطابه الخبري المشتمل على النفي والإثبات.

والحق والباطل يتناول النوعين، فإن الحق يكون بمعنى الموجود الثابت، والباطل بمعنى المعدوم المنتفي، والحق بإزاء ما ينبغي قصده وطلبه وعمله، وهو النافع، والباطل بإزاء ما لا ينبغي قصده ولا طلبه ولا عمله وهو غير النافع. والمنفعة تعود إلى حصول النعمة واللذة والسعادة، التي هي حصول اللذة، ودفع الألم هو حصول المطلوب، وزوال المرهوب، وحصول النعيم وزوال العذاب، وحصول الخير وزوال الشر.

ثم الموجود والنافع قد يكون ثابتًا دائمًا، وقد يكون منقطعًا، لاسيما إذا كان زمنًا يسيرًا، فيستعمل الباطل كثيرًا بإزاء ما لا يبقى من المنفعة، وبإزاء ما لا يدوم من الوجود، كما يقال: الموت حق والحياة باطل، وحقيقته أنه يستعمل بإزاء ما ليس من المنافع خالصًا أو راجحًا، كما تقدم القول فيه، فيما يزهد فيه، وهو ما ليس بنافع.

والمنفعة المطلقة هي الخالصة أو الراجحة، وأما ما يفوت أرجح منها أو يعقب ضررا ليس هو دونها فإنها باطل في الاعتبار، والمضرة أحق باسم الباطل من المنفعة.

وأما ما يظن فيه منفعة وليس كذلك أو يحصل به لذة فاسدة، فهذا لا منفعة فيه بحال، فهذه الأمور التي يشرع الزهد فيها وتركها وهي باطل، ولذلك ما نهى الله

عنه ورسوله باطل ممتنع أن يكون مشتملًا على منفعة خالصة أو راجحة، ولهذا صارت أعمال الكفار والمنافقين باطلة، لقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

أخبر أن صدقة المرائي والمنان باطلة لم يبق فيها منفعة له، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد:٣٣]، وكذلك الإحباط في مثل قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] ولهذا تسميه الفقهاء العقود.

والعبادات بعضها صحيح وبعضها باطل وهو ما لم يحصل به مقصوده ولم يترتب عليه أثره، فلم يكن فيه المنفعة المطلوبة منه.

ومن هذا قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [النور:٣٩]. وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧]. وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] ولذلك وصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة ليست مطابقة ولا حقًّا، كما أن الأعمال ليست نافعة.

وقد توصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة إذا كانت غير مطابقة إن لم يكن فيها منفعة، كقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»[1] فيعود الحق فيما يتعلق بالإنسان إلى ما ينفعه من علم وقول وعمل وحال.

قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٢٢) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٥/ ٢٦٢ رقم ١٨٩١) وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٨٣ رقم ٨٢، ٨٣).

ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧]. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾ [محمد:١-٣].

وإذا كان كذلك وقد علم أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل حابط، لا ينفع صاحبه وقت الحاجة إليه، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، لأن ما لم يرد به وجهه إما أن لا ينفع بحال، وإما أن ينفع في الدنيا أو في الآخرة. فالأول ظاهر. وكذلك منفعته في الآخرة بعد الموت، فإنه قد ثبت بنصوص المرسلين أنه بعد الموت لا ينفع الإنسان من العمل إلا ما أراد به وجه الله.

وأما في الدنيا فقد يحصل له لذات وسرور، وقد يجزى بأعماله في الدنيا، لكن تلك اللذات إذا كانت تعقب ضررًا أعظم منها وتفوت أنفع منها وأبقاه، فهي باطلة أيضًا، فثبت أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل وإن كان فيه لذة ما. وأما الكائنات فقد كانت معدومة منفية، فثبت أن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكما قال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»[(١)] وأنها تجمع الحق الموجود والحق المقصود، وكل موجود بدون الله باطل، وكل مقصود بدون قصد الله فهو باطل، وعلى هذين فقد فسر قوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٨٩) ومسلم (رقم ٢٢٥٦).

هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨]. إلا ما أريد به وجهه، وكل شيء معدوم إلا من جهته، هذا على قول. وأما القول الآخر وهو المأثور عن طائفة من السلف، وبه فسره الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ في رده على الجهمية والزنادقة.

قال أحمد: وأما قوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ وذلك أن الله أنزل ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن:٢٦] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأنزل الله تعالى أنه يخبر عن أهل السموات والأرض أنكم تموتون، فقال: كل شيء من الحيوان هالك ـ يعنى ميتًا ـ إلا وجهه، فإنه حي لا يموت، فلما ذكر ذلك أيقنوا عند ذلك بالموت[1]، ذكر ذلك في رده على الجهمية قولهم: إن الجنة والنار تفنيان.

وقد تبين مما ذكرناه أن الحسن هو الحق والصدق والنافع والمصلحة والحكمة والصواب، وأن الشيء القبيح هو الباطل والكذب والضار والمفسدة والسفه والخطأ.

وأما مواضع الاشتباه والنزاع واختلاف الخلائق فموضع واحد، وذلك أن فعل الله كله حسن جميل، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: ٧] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقال النبي ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[2] وهو حكم عدل.

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا ﴾ [النساء: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ

(١) ألرد على الجهمية والزنادقة (ص١٧٠) للإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ بتحقيق من منشورات دار الثبات بالرياض ويطبع طبعة جديدة بدار القبس يسر الله إتمامها على خير.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩١).

ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨، ٧٣] وهذا كله متفق عليه بين الأمة مجملًا غير مفسر، فإذا فسر تنازعوا فيه.

وذلك أن هذه الأعمال الفاسدة والآلام وهذا الشر الوجودي المتعلق بالحيوان، وأنه لا يخلو عن أن يكون عملًا من الأعمال، أو أن يكون ألمًا من الآلام الواقعة بالحيوان، وذلك العمل القبيح والألم شره من ضرره، وهذا العمل والألم.

فالمعتزلة ومن اتبعها من الشيعة تزعم أن الأعمال ليست من خلقه ولا كونها شيء، وأن الآلام لا يجوز أن يفعلها إلا جزاء على عمل سابق، أو تعوض بنفع لاحق. وكثير من أهل الإثبات ومن اتبعهم من الجبرية يقولون: بل الجميع خلقه، وهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا فرق بين خلق المضار والمنافع والخير والشر بالنسبة إليه، ويقول هؤلاء: إنه لا يتصور أن يفعل ظلمًا ولا سفهًا أصلًا، بل لو فرض أنه فعل أي شيء كان فعله حكمة وعدلًا وحسنًا، إذ لا قبيح إلا ما نهى عنه وهو لم ينهه أحد، ويسوون بين تنعيم الخلائق وتعذيبهم، وعقوبة المحسن ورفع درجات الكفار والمنافقين.

والفريقان متفقان على أنه لا ينتفع بطاعات العباد، ولا يتضرر بمعصيتهم، لكن الأولون يقولون: الإحسان إلى الغير حسن لذاته، وإن لم يعد إلى المحسن منه فائدة.

والآخرون يقولون: ما حسن منا حسن منه، وما قبح منا قبح منه، والآخرون مع جمهور الخلائق ينكرون، والأولون يقولون: إذا أمر بالشيء فقد أراده منا، لا يعقل الحسن والقبيح إلا ما ينفع أو يضر، كنحو ما يأمر الواحد منا غيره بشيء، فإنه لابد أن يريده منه ويعينه عليه، وقد أقدر الكفار بغاية القدرة، ولم يبق يقدر على أن يجعلهم يؤمنون اختيارًا، وإنما كفرهم وفسوقهم وعصيانهم بدون مشيئته واختياره.

وآخرون يقولون: الأمر ليس بمستلزم الإرادة أصلًا، وقد بينت التوسط بين هذين في غير هذا الموضع.

وكذلك أمره والأولون يقولون: لا يأمر إلا بما فيه مصلحة العباد. والآخرون

يقولون: أمره لا يتوقف على المصلحة. وهنا مقدمات، تكشف هذه المشكلات.

(إحداها): أنه ليس ما حسن منه حسن منا، وليس ما قبح منه يقبح منا، فإن المعتزلة شبهت الله بخلقه، وذلك أن الفعل يحسن منا لجلبه المنفعة، ويقبح لجلبه المضرة، ويحسن لأنا أمرنا به، ويقبح لأنا نهينا عنه، وهذان الوجهان منتفيان في حق الله تعالى قطعًا، ولو كان الفعل يحسن باعتبار آخر، كما قال بعض الشيوخ:

ويقبح من سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منك ذاكا[1]

(المقدمة الثانية): أن الحسن والقبح قد يكونان صفة لأفعالنا، وقد يدرك بعض ذلك بالعقل، وإن فسر ذلك بالنافع والضار والمكمل والمنقص، فإن أحكام الشارع فيما يأمر به وينهى عنه، تارة تكون كاشفة للصفات الفعلية ومؤكدة لها وتارة تكون مبينة للفعل صفات لم تكن له قبل ذلك، وأن الفعل تارةً يكون حسنه من جهة نفسه، وتارة من جهة الأمر به، وتارةً من الجهتين جميعًا.

ومن أنكر أن يكون للفعل صفات ذاتية لم يحسن إلا لتعلق الأمر به، وأن الأحكام بمجرد نسبة الخطاب إلى الفعل فقط، فقد أنكر ما جاءت به الشرائع من المصالح والمفاسد، والمعروف والمنكر، وما في الشريعة من المناسبات بين الأحكام وعللها، وأنكر خاصةً الفقه في الدين، الذي هو معرفة حكمة الشريعة ومقاصدها ومحاسنها.

(المقدمة الثالثة): أن الله خلق كل شيء، وهو على كل شيء قدير، ومن جعل شيئًا من الأعمال خارجًا عن قدرته ومشيئته فقد ألحد في أسمائه وآياته، بخلاف ما عليه القدرية.

(المقدمة الرابعة): أن الله إذا أمر العبد بشيء فقد أراده منه إرادة شرعية دينية، وإن لم يرده منه إرادة قدرية كونية، فإثبات إرادته في الأمر مطلقًا خطأ، ونفيها عن الأمر مطلقًا خطأ، وإنما الصواب التفصيل، كما جاء في التنزيل: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ

---

(١) ذكره المصنف في منهاج السنة النبوية (٣/ ١٩٠) وانظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك (٣/ ٨٩).

ﭐلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ ﴾ [النساء:٢٨]، ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ ﴾ [المائدة:٦]. وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [المائدة: ٤١]. وقال: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣] وأمثال ذلك كثير.

(المقدمة الخامسة) أن محبته ورضاه مستلزم للإرادة الدينية والأمر الديني، وكذلك بغضه وغضبه وسخطه مستلزم لعدم الإرادة الدينية، فالمحبة والرضا والغضب والسخط ليس هو مجرد الإرادة، هذا قول جمهور أهل السنة.

ومن قال: إن هذه الأمور بمعنى الإرادة كما يقوله كثير من القدرية وكثير من أهل الإثبات، فإنه يستلزم أحد أمرين.

إما الكفر والفسوق والمعاصي مما يكرهها دينًا، فقد كره كونها، وأنها واقعة بدون مشيئته وإرادته. وهذا قول القدرية، أو يقول: إنه لما كان مريدًا لها شاءها فهو محب لها راض بها، كما تقوله طائفة من أهل الإثبات، وكلا القولين فيه ما فيه، فإن الله تعالى يحب المتقين ويحب المقسطين، وقد رضي عن المؤمنين، ويحب ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، وليس هذا المعنى ثابتًا في الكفار والفجار والظالمين، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب كل مختال فخور، ومع هذا فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأحسن ما يعتذر به من قال هذا القول من أهل الإثبات: إن المحبة بمعنى الإرادة: أنه أحبها كما أرادها كونًا، فكذلك أحبها ورضيها كونًا، وهذا فيه نظر مذكور في غير هذا الموضع.

(فإن قيل): تقسيم الإرادة لا يعرف في حقنا، بل إن الأمر منه بالشيء إما أن يريده أو لا يريده، وأما الفرق بين الإرادة والمحبة فقد يعرف في حقنا.

(فيقال): وهذا هو الواجب، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، وليس أمره لنا

كأمر الواحد منا لعبده وخدمه، وذلك أن الواحد منا إذا أمر عبده، فإما إن يأمره لحاجته إليه أو إلى المأمور به، أو لحاجته إلى الأمر فقط، فالأول كأمر السلطان جنده بما فيه حفظ ملكه ومنافعهم له، فإن هداية الخلق وإرشادهم بالأمر والنهي هي من باب الإحسان إليهم، والمحسن من العباد يحتاج إلى إحسانه، قال الله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء:٧]، وقال: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت:٤٦].

والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم، ولا هو محتاج إلى أمرهم، وإنما أمرهم إحسانًا منه، ونعمة أنعم بها عليهم، فأمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم. وإرسال الرسل، وإنزال الكتب من أعظم نعمه على خلقه، كما قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس:٥٧، ٥٨]، فمن أنعم الله عليه مع الأمر بالامتثال فقد تمت النعمة في حقه، كما قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ [المائدة:٣]، وهؤلاء هم المؤمنون، ومن لم ينعم عليه بالامتثال، بل خذله حتى كفر وعصى فقد شقي، لما بدل نعمة الله كفرًا، كما قال: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٨] الأمر والنهي الشرعيان لما كانا نعمة ورحمة عامة لم يضر ذلك عدم انتفاع بعض الناس بهما من الكفار، كإنزال المطر وإنبات الرزق هو نعمة عامة، وإن تضرر بها بعض الناس لحكمة أخرى، كذلك مشيئته لما شاءه من المخلوقات وأعيانها وأفعالها، لا يوجب أن يحب كل شيء منها، فإذا أمر العبد بأمر فذاك إرشاد ودلالة، فإن فعل المأمور به صار محبوبًا لله، وإلا لم يكن محبوبًا له، وإن كان مرادًا له،

وإرادته له تكوينًا لمعنى آخر، فالتكوين غير التشريع.

(فإن قيل): المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب، ويوجب للمحب بدرك محبوبه فرحًا ولذة وسرورًا، وكذلك البغض لا يكون إلا عن منافرة بين المبغِض والمبغَض، وذلك يقتضى للمبغض بدرك المبغض أذى وبغضًا ونحو ذلك، والملاءمة والمنافرة تقتضى الحاجة، إذ ما لا يحتاج الحي إليه لا يحبه، وما لا يضره كيف يبغضه؟ والله غني لا تجوز عليه الحاجة، إذ لو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه وإمكانه، وهو غني عن العالمين، وقد قال تعالى: [أي في الحديث القدسي]: **«يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»**(١) فلهذا فسرت المحبة والرضا بالإرادة، إذ يفعل النفع والضر، فيقال: الجواب من وجهين:

(أحدهما): الإلزام، وهو أن نقول: الإرادة لا تكون إلا للمناسبة بين المريد والمراد، وملاءمته في ذلك تقتضى الحاجة، وإلا فما لا يحتاج إليه الحي لا ينتفع به ولا يريده، ولذلك إذا أراد به العقوبة والإضرار لا يكون إلا لنفرة وبغض، وإلا فما لم يتألم به الحي أصلًا لا يكرهه ولا يدفعه، وكذلك نفس نفع الغير وضرره هو في الحي متنافر من الحاجة، فإن الواحد منا إنما يحن إلى غيره لجلب منفعة أو لدفع مضرة، وإنما يضر غيره لجلب منفعة أو دفع مضرة، فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي أخرى يلزمه فيما أثبته نظير ما يلزمه فيما نفاه، لم يكن إثبات إحداهما ونفي الأخرى أولى من العكس، ولو عكس عاكس فنفى ما أثبته من الإرادة، وأثبت ما نفاه من المحبة لما ذكره لم يكن بينهما فرق، وحينئذ فالواجب إما نفي الجميع ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق والإحسان إليهم، وأن ذلك يستلزم الإرادة، وإما إثبات الجميع كما جاءت به النصوص، وحينئذ فمن توهم أنه يلزم من ذلك محذور، فأحد الأمرين لازم: إما أن ذلك المحذور لا يلزم أو أنه إن لزم فليس بمحذور.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧).

(الجواب الثاني): إن الذي يعلم قطعًا هو أن الله قديم واجب الوجود كامل، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ولا الإمكان ولا النقص، لكن كون هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص هو موضع النظر، فإن الله غني واجب بنفسه، وقد عرف أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ولا إمكانه ولا حاجته، وأن قول القائل بلزوم افتقاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله مفتقر إلى ذاته، ومعلوم أنه غني بنفسه، وأنه واجب الوجود بنفسه، وأنه موجود بنفسه، فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه، وإن عني به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته فهذا حق، فإن الله غنى عن العالمين وعن خلقه، وهو غني بنفسه.

وأما إطلاق القول بأنه غني عن نفسه فهو باطل، فإنه محتاج إلى نفسه، وفى إطلاق كل منهما إيهام معنى فاسد، ولا خالق إلا الله تعالى، فإذا كان سبحانه عليمًا يحب العلم، عفوًا يحب العفو، جميلًا يحب الجمال، نظيفًا يحب النظافة، طيبًا يحب الطيب، وهو يحب المحسنين والمتقين المقسطين، وهو سبحانه الجامع لجميع الصفات المحبوبة، والأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو يحب نفسه، ويثني بنفسه على نفسه، والخلق لا يحصون ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، فالعبد المؤمن يحب نفسه، ويحب في الله من أحب الله وأحبه الله، فالله سبحانه أولى بأن يحب نفسه، ويحب في نفسه عباده المؤمنين، ويبغض الكافرين، ويرضى عن هؤلاء ويفرح بهم، ويفرح بتوبة عبده التائب[1] من أولئك، ويمقت الكفار ويبغضهم، ويحب حمد نفسه والثناء عليه، كما قال النبي ﷺ للأسود بن سريع لما قال: «**إنني حمدت ربي بمحامد**»، فقال: «إن ربك يحب الحمد»[2]، وقال: «لا أحد أحب إليه المدح من الله، ولا أحد

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٨) ومسلم (رقم ٢٦٧٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٢٨٢ رقم ٨٢٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٨٩ رقم ٤٣٦٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٦) وابن عدي في الكامل (٥/ ١١٠) وانظر: العلل للمديني (رقم ٦٣) والمراسيل لابن أبي حاتم (رقم ١٢٧).

أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل، ولا أحد أصبر على أذى من الله، يجعلون له ولدًا وشريكًا وهو يعافيهم ويرزقهم»(١) فهو يفرح بما يحبه، ويؤذيه ما يبغضه، ويصبر على ما يؤذيه، وحبه ورضاه وفرحه وسخطه وصبره على ما يؤذيه كل ذلك من كماله، وكل ذلك من صفاته وأفعاله، وهو الذي خلق الخلائق وأفعالهم، وهم لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، وإذا فرح ورضي بما فعله بعضهم فهو سبحانه الذي خلق فعله، كما أنه إذا فرح ورضي بما يخلقه فهو الخالق، وكل الذين يؤذون الله ورسوله هو الذي مكنهم وصبر على أذاهم بحكمته، فلم يفتقر إلى غيره، ولم يخرج شيء عن مشيئته ولم يفعل أحد ما لا يريد، وهذا قول عامة القدرية ونهاية الكمال والعزة.

وأما الإمكان لو افتقر وجوده إلى فرح غيره، وأما الحدوث فيبني على قيام الصفات فيلزم منه حدوثه، وقد ذكر في غير هذا الموضع أن ما سلكه الجهمية في نفى الصفات فمبناه على القياس الفاسد المحض، وله شرح مذكور في غير هذا الموضع.

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة وجدها في غاية الإحكام والإتقان، وأنها مشتملة على التقديس لله عن كل نقص، والإثبات لكل كمال، وأنه تعالى ليس له كمال ينتظر بحيث يكون قبله ناقصًا بل من الكمال أنه يفعل ما يفعله بعد أن لم يكن فاعله، وأنه إذا كان كاملًا بذاته وصفاته وأفعاله لم يكن كاملًا بغيره، ولا مفتقرًا إلى سواه، بل هو الغني ونحن الفقراء، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١] وهو سبحانه في محبته ورضاه ومقته وسخطه وفرحه وأسفه وصبره وعفوه ورأفته له الكمال الذي لا تدركه الخلائق وفوق الكمال، إذ كل كمال فمن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١٦) ومسلم (رقم ١٤٩٩) وأخرج الفقرة الأخيرة البيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٣٩٥ رقم ١١٣٢٣) وأحمد في مسنده (٤/ ٤٠٥) والبزار في مسنده (٨/ ٢٧ رقم ٣٠٠٦) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٨٧).

كماله يستفاد، وله الثناء الحسن الذي لا يحصيه العباد، وإنما هو كمال أثنى على نفسه، له الغنى الذي لا يفتقر إلى سواه ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

فهذا الأصل العظيم وهو مسألة خلقه وأمره، وما يتصل به من صفاته وأفعاله من محبته ورضاه وفرحه بالمحبوب وبغضه وصبره على ما يؤذيه، هي متعلقة بمسائل القدر، ومسائل الشريعة، والمنهاج الذي هو المسئول عنه، ومسائل الصفات، ومسائل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، وهذه الأصول الأربعة كلية جامعة، وهي متعلقة به وبخلقه.

وهي في عمومها وشمولها وكشفها للشبهات تشبه مسألة الصفات الذاتية والفعلية، ومسألة الذات والحقيقة والحد، وما يتصل بذلك من مسائل الصفات والكلام في حلول الحوادث ونفي الجسم، وما في ذلك من تفصيل وتحقيق.

فإن المعطلة والملحدة في أسمائه وآياته كذبوا بحق كثير، جاءت به الرسل، بناء على ما اعتقدوه من نفي الجسم والعرض، ونفي حلول الحوادث ونفي الحاجة.

وهذه الأشياء يصح نفيها باعتبار، ولكن ثبوتها يصح باعتبار آخر، فوقعوا في نفي الحق الذي لا ريب فيه الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وفطرت عليه الخلائق، ودلت عليه الدلائل السمعية والعقلية والله أعلم.

❁❁❁

الرسالة الثالثة:

رسالة من ابن تيمية
إلى
ملك قبرص
الرسالة القبرصية

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

٦٦١ ــ ٧٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية: إلى سرجوان عظيم أهل ملته، ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين، وعظماء القسيسين، والرهبان، والأمراء، والكتاب، وأتباعهم(١).

سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد:

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو؛ إله إبراهيم وآل عمران ونسأله أن يصلي على عباده المصطفَيْن وأنبيائه المرسلين، ويخص بصلاته وسلامه أولي العزم، الذين هم سادة الخلق وقادة الأمم، الذي خُصُّوا بأخذ الميثاق، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، كما سماهم الله تعالى في كتابه، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ

(١) هذا هو المنهج النبوي في مخاطبة الناس وإنزالهم منازلهم، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه أرسل رسائل إلى الملوك والعظماء وخاطبهم على قدر مكانتهم بين أقوامهم ولم يبخسهم حقوقهم أو يقلل من شأنهم، فقد أرسل إلى هرقل بقوله: «من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم» وأن رسول الله ﷺ بعث بكتابه رجلاً وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، وقال أبو سفيان: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ قال: فبينا أنا بالشام، إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل: وكان دحية الكلبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، وهذا كله في الصحيح، كما ورد في صحيح مسلم تعليقًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم، وذكره الحاكم في كتابه معرفة علوم الحديث وقال: هو حديث صحيح.

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧-٨].

ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين، وخطيبهم[١] إذا وفدوا على ربهم، وإمامهم إذا اجتمعوا، شفيع الخلائق يوم القيامة، نبي الرحمة ونبي الملحمة[٢] الجامع محاسن الأنبياء، الذي بشَّر به عبد الله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى الصديقة الطاهرة البتول[٣] التي لم يمسها بشر قط: مريم ابنة عمران، ذلك مسيح الهدى عيسى ابن مريم، الوجيه في الدنيا والآخرة، المقرب عند الله، المنعوت بنعت الجمال والرحمة لما انجر بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعت الجلال والشدّة، وبعث الخاتم الجامع بنعت الكمال المشتمل على الشدة على الكفّار والرحمة بالمؤمنين، والمحتوي على محاسن الشرائع والمناهج التي كانت قبله ﷺ أجمعين وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة. أما بعد:

فإن الله خلق الخلائق بقدرته، وأظهر فيهم آثار مشيئته، وحكمته ورحمته، وجعل المقصود الذي خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته.

---

(١) الوارد أن شعيب ﷺ هو خطيب الأنبياء عليهم السلام، انظر في ذلك: تفسير الطبري (٩/ ٤) (١٢/ ١٠٥) وتفسير السيوطي (٣/ ٥٠١، ٥٠٤) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٢، ٤٥٨).

(٢) قال البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٤٥): قال الحليمي رحمه الله: وأما نبي الملحمة فلأن الله تبارك وتعالى فرض عليه جهاد الكفار، وجعله شريعة باقية إلى قيام الساعة، وما فتحت هذه البلدان إلا بحد السيف أو خوف السيف ما عدا المدينة، فإنها فتحت بالقرآن، وقال المناوي في فيض القدير (٣/ ٤٥) ونبي الملحمة أي نبي الحرب، وسمي به لحرصه على الجهاد، ووجه كونه نبي الرحمة ونبي الحرب أن الله بعثه لهداية الخلق إلى الحق، وأيده بمعجزات، فمن أبى عذِّب بالقتال والاستئصال، فهو نبي الملحمة التي بسببها عمت الرحمة وثبتت المرحمة.

(٣) التبتل: الانقطاع عن النساء وترك النكاح، وامرأة بتول: منقطعة عن الرجال، لا شهوة لها فيهم، وبها سميت مريم أم المسيح عليهما السلام، وسميت الفاطمة: البتول، لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً ودينًا وحسبًا، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله تعالى، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١/ ٩٤) وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ١٧١) وشرح النووي لصحيح مسلم (٩/ ١٧٦) وفتح الباري (٩/ ١١٨).

وأصل ذلك هو معرفته ومحبته، فمن هداه الله صراطه المستقيم، آتاه رحمةً وعلمًا ومعرفةً بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، ورزقه الإنابة إليه، والوجل لذكره والخشوع له، والتأله له، فحنّ إليه حنين النسور إلى أوكارها، وكلف بحبه كلف الصبي بأمه، لا يعبد إلا إياه رغبةً ورهبةً ومحبةً، وأخلص دينه لمن الدنيا والآخرة له، ربّ الأولين والآخرين، مالك يوم الدين، خالق ما تبصرون، وما لا تبصرون، عالم الغيب والشهادة، الذي أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، لم يتخذ من دونه أندادًا كالذين اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله، ولم يشرك بربه أحدًا، ولم يتخذ من دونه وليًا، ولا شفيعًا، لا ملكًا، ولا نبيًّا، ولا صديقًا، فإن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا، لقد أحصاهم وعدّهم عدًّا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا ـ فهنالك اجتباه مولاه واصطفاه وآتاه رشده، وهداه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فإنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قصة الصراع بين التوحيد والشرك

وذلك: أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام، على التوحيد والإخلاص؛ كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر عليه السلام ـ حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان بدعةً من تلقاء أنفسهم، لم ينزل الله بها كتابًا، ولا أرسل بها رسولًا ـ بشبهات زينها الشيطان من جهة المقاييس الفاسدة، والفلسفة الحائدة(١).

قوم منهم: زعموا أن التماثيل طلاسم الكواكب السماوية، والدرجات الفلكية، والأرواح العلوية.

وقوم: اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين(٢).

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، المستدرك (٢/ ٥٩٦ رقم ٤٠٠٩).

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعده، أما ود: =

وقوم: جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن، والشياطين.

وقوم: على مذاهب أخر.

وأكثرهم لرؤسائهم مقلدون، وعن سبيل الهدى ناكبون، فابتعث الله نبيه نوحًا ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه؛ وإن زعموا أنهم يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى الله زلفى، ويتخذوهم شفعاء، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلما أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، دعا عليهم فأغرق الله تعالى أهل الأرض بدعوته.

وجاءت الرسل بعده تترى إلى أن عم الأرض دين الصابئة والمشركين ـ لما كانت النماردة والفراعنة ملوك الأرض شرقًا وغربًا ـ فبعث الله تعالى إمام الحنفاء[1] وأساس الملة الخالصة، والكلمة الباقية: إبراهيم خليل الرحمن.

فدعا الخلق من الشرك إلى الإخلاص، ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام، وقال: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩]. وقال لقومه: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي

= كانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر، فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت. أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٠) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٧) وتفسير السيوطي (٨/ ٢٩٣).

(١) الحنفاء ـ جمع حنيف ـ وهو: المسلم. وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في مقدمة فتح الباري (١٠٨-١٠٩) الحنيفية أي: الملة المستقيمة، وقوله: حنيفاً هو للواحد وحنفاء للجماعة، وقال أبو عبيد: الحنفاء عند العرب من كان على دين إبراهيم، وأهل الحنف: الميل، والمعنى مال إلى الإسلام، وانظر: غريب الحديث للحربي (١/ ٢٩١) ولسان العرب (٩/ ٥٨).

يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢]. وقال إبراهيم عليه السلام ومن معه لقومهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

فجعل الله الأنبياء والمرسلين من أهل بيته، وجعل لكل منهم خصائص، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وآتى كلًّا منهم من الآيات ما آمن على مثله البشر(١).

فجعل لموسى العصا حيّة حتى ابتلعت ما صنعت السحرة الفلاسفة من الحبال والعصي، وكانت شيئًا كثيرًا، وفلق له البحر حتى صار يابسًا، والماء واقفًا حاجزًا بين اثني عشر طريقًا على عدد الأسباط، وأرسل معه القُمَّل والضفادع والدم، وظلل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم، وأنزل عليهم صبيحة كل يوم المنّ والسلوى، وإذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا؛ قد علم كل أناس مشربهم.

وبعث بعده أنبياء من بني إسرائيل؛ منهم من أحيا الله على يده الموتى، ومنهم من شفى الله على يده المرضى، ومنهم من أطلعه على ما شاء من غيبه، ومنهم من سخّر له المخلوقات، ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات.

وهذا مما اتفق عليه جميع أهل الملل، وفي الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى، والنبوات التي عندهم وأخبار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مثل أشعياء(٢)،

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعْطِيَ ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة». أخرجه البخاري (رقم ٤٩٨١) ومسلم (رقم ١٥٢).

(٢) ورد ذكر «أشعياء» في كتاب تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ١١) وقال الدكتور صابر طعيمة في التراث الإسرائيلي (ص١٧٢): إنه أشعيا بن آموص، ومن أشهر أنبياء العهد القديم. وانظر: الكتاب المقدس (ص ٩٩٢) ورجال الكتاب المقدس، للقس إلياس مقار (٢/ ٣٣٩).

وأرمياء[١]، ودانيال[٢]، وحبقوق[٣]، وداود، وسليمان، وغيرهم وكتاب سفر الملوك[٤] وغيره من الكتب ما فيه معتبر.

المسيح.. وبنو إسرائيل

وكانت بنو إسرائيل أمة قاسية عاصية، تارةً يعبدون الأصنام والأوثان، وتارةً يعبدون الله، وتارةً يقتلون النبيين بغير الحق، وتارةً يستحلون محارم الله بأدنى الحيل.

فلعنوا أولًا على لسان داود، وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم. ثم بعث الله المسيح ابن مريم رسولًا، قد خلت من قبله الرسل، وجعله وأمه آيةً للناس ـ حيث خلقه من غير أبٍ إظهارًا لكمال قدرته وشمول كلمته، حيث قسم النوع الإنساني الأقسام الأربعة.

فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى.

وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى.

وخلق المسيح ابن مريم من أنثى بلا ذكر.

وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى.

وآتى عبده المسيح من الآيات البينات ما جرت به سنته، فأحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأنبأ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ودعا إلى الله وإلى عبادته، متبعًا سنة إخوانه المرسلين، مصدقًا لمن قبله، ومبشرًا بمن يأتي بعده.

---

(١) ورد ذكر «أرمياء» وأنه الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه في تفسير الطبري (٣/ ٤١).

(٢) ورد ذكر «دانيال» في تفسير الصنعاني (١/ ٩٩) وتفسير الطبري (٢/ ٦٠٩) (١٥/ ٣٣) وتفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٧١ رقم ٢٤٨٩) والدر المنثور (١/ ٢٠٣) (٨/ ٢٨٤) وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٨) (٤/ ٤٢٣) وفي سنن البيهقي (٨/ ٢٣٥ رقم ١٦٨٢٢).

(٣) «حبقوق» أي المعانق، هكذا ورد ذكره في التراث الإسرائيلي (ص ٢٤٩) وله سفر يسمى باسمه ويتألف من ثلاثة إصحاحات، انظر: العهد القديم (ص١٣٢٩).

(٤) سفر الملوك من كتب بني إسرائيل، انظر: كشف الظنون (٢/ ٩٩١).

الناس يختلفون في عيسى

وكان بنو إسرائيل قد عتَوْا وتمردوا، وكان غالب أمره[(١)] اللين والرحمة، والعفو والصفح، وجعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، وجعل منهم قسيسين ورهبانًا.

فتفرق الناس في المسيح عليه السلام ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب:

قوم: كذّبوه وكفروا به، وزعموا أنه ابن بغيّ، ورموا أمه بالفِرية، ونسبوه إلى يوسف النجار[(٢)]، وزعموا أن شريعة التوراة لم ينسخ منها شيء، وأن الله لم ينسخ ما

(١) المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

(٢) عن وهب بن منبه رحمه الله أنه قال: لما اشتملت مريم على الحمل كان معها قرابة لها يقال له: يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم، فكانت مريم ويوسف يخدمان في ذلك المسجد في ذلك الزمان، وكان لخدمته فضل عظيم، فرغبا في ذلك، فكانا يليان معالجته بأنفسهما: تحبيره وكناسته وطهوره، وكل عمل يعمل فيه، وكان لا يعمل من أهل زمانهما أحد أشد اجتهادًا وعبادة منهما، فكان أول من أنكر حمل مريم صاحبها يوسف، فلما رأى الذي بها استفظعه وعظم عليه وفظع به فلم يدر على ماذا يضع أمرها، فإذا أراد يوسف أن يتهمها ذكر صلاحها وبراءتها وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر عليها، فلما اشتد عليه ذلك كلمها، فكان أول كلامه إياها أن قال لها: إنه قد حدث في نفسي من أمرك أمر قد خشيته، وقد حرصت على أن أميته وأكتمه في نفسي، فغلبني ذلك فرأيت الكلام فيه أشفى لصدري، قالت: فقل قولًا جميلًا، قال: ما كنت لأقول لك إلا ذلك، فحدثيني: هل ينبت زرع بغير بذر؟! قالت: نعم، قال: فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها؟! قالت: نعم، قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟! قالت: نعم، ألم تعلم أن الله تبارك وتعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، والبذر يومئذ إنما صار من الزرع الذي أنبته الله من غير بذر. أو لم تعلم أن الله بقدرته أنبت الشجر بغير غيث، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر بعد ما خلق كل واحد منهما وحده؟ أم تقول: لن يقدر الله على أن ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته. قال يوسف لها: لا أقول هذا، ولكني أعلم أن الله تبارك وتعالى بقدرته على ما يشاء يقول لذلك: كن فيكون، قالت مريم: أو لم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وامرأته من غير أنثى ولا ذكر؟ قال: بلى، فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله تبارك وتعالى، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لما رأى من كتمانها لذلك.

تفسير ابن جرير الطبري (١٦/ ٦٤-٦٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١١٧).

شرعه بعد ما فعلوه بالأنبياء وما كان عليهم من الآصار في النجاسات والمطاعم.

وقوم: غلوا فيه وزعموا: أنه الله، وابن الله، وأن اللاهوت تدرّع الناسوت، وأن رب العالمين نزل، وأنزل ابنه ليصلب ويقتل فداءً لخطيئة آدم عليه السلام.

وجعلوا الإله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، قد وُلِدَ، واتخذ ولدًا، وأنه إله حيّ عليم قدير جوهر واحد ـ ثلاثة أقانيم ـ وأن الواحد منها أُقنوم الكلمة وهي العلم، وهي تدرّعت الناسوت البشرى.

مع العلم بأن أحدهما لا يمكن انفصاله عن الآخرَيْن، إلا إذا جعلوه ثلاثة إلاهات متباينة، وذلك ما لا يقولونه.

وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقًا، وتشتتوا تشتتًا، لا يقرُّ به عاقل، ولم يجئ به نقل؛ إلا كلمات متشابهات[1] في الإنجيل وما قبله من الكتب قد بينتها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله، كلها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده، ودعائه وتضرعه.

انحراف النصارى

ولما كان أصل الدين: هو الإيمان بالله، ورسوله ـ كما قال خاتم النبيين والمرسلين: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[2]. وقال:

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٣٧٦): فإذا تأول النصارى قول المسيح: عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس. على أن الابن صفته التي هي العلم، وروح القدس صفته التي هي الحياة، كان هذا كذبًا بينًا على المسيح، فلا يوجد قط في كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله ولا شيئًا من صفاته ابنا ولا حياته روح القدس. وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسل روحه الذي هو جبريل، وهو روح القدس، فنفخ في مريم فحملت بالمسيح، فكان المسيح متجسدًا مخلوقًا من أمه ومن ذلك الروح، وهذا الروح ليس صفة الله ولا حياته ولا غيرها، بل روح القدس قد جاء ذكرها كثيرًا في كلام الأنبياء ويراد بها إما الملك وإما ما يجعله الله في قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد، ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢).

«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[١].

كان أمر الدين توحيد الله، والإقرار برسله، ولهذا كان الصابئون والمشركون كالبراهمة[٢] ونحوهم من منكري النبوات مشركين بالله في إقرارهم وعبادتهم، وفاسدي الاعتقاد في رسله.

فأرباب التثليث في الوحدانية، والاتحاد في الرسالة، قد دخل في أصل دينهم من الفساد ما هو بيِّن بفطرة الله التي فطر الناس عليها، وبكتب الله التي أنزلها.

ولهذا كان عامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان، وما يدخل فيهم من البطارقة[٣]، والمطارنة، والأساقفة[٤]، إذا صار الرجل منهم فاضلًا مميزًا فإنه ينحل عن دينه ويصير منافقًا لملوك أهل دينه، وعامتهم، رضي بالرياسة عليهم وبما يناله من الحظوظ؛ كالذي كان ببيت المقدس الذي يقال له: «ابن البورى» والذي كان بدمشق الذي يقال له: «ابن القف» والذي بقسطنطينية وهو: «البابا» عندهم ـ وخلق كثير من كبار «الباباوات» والمطارنة، والأساقفة ـ لما خاطبهم قومٌ من الفضلاء أقروا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى، وإنما بقاؤهم على ما هم عليه لأجل العادة والرياسة؛ كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغناهم، ولهذا تجد غالب فضلائهم إنما همة أحدهم نوعٌ من العلم الرياضي ـ كالمنطق والهيئة والحساب والنجوم، أو الطبيعي ـ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٥).

(٢) البراهمة هم المنتسبون إلى رجل منهم يقال له: براهم أو برهام من ملوك الفرس، يقرون بالله ويجحدون الرسل، وهم فرق مختلفة، يؤمنون بتناسخ الأرواح، انظر: الملل والنحل (٢/ ٢٥١).

(٣) البطارقة: بفتح الموحدة جمع بطريق، وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغتهم، وهو ذو منصب عندهم، كذا في المجمع وفي القاموس: البطريق: ككبريت: القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل... والرجل المختال المزهو. شرح سنن ابن ماجه (١/ ١٣٣).

(٤) الأساقفة. جمع أسقف وهو العالم في النصرانية، وهم رؤساء النصارى، وهو فوق القسيس ودون المطران. انظر: شرح سنن ابن ماجه (١/ ١٣٣) والقاموس المحيط (ص ١٠٥٩).

كالطب، ومعرفة الأركان. أو التكلم في الإلهي على طريقة الصابئة الفلاسفة الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل ﷺ وقد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده وراء ظهورهم، وحفظوا رسوم الدين لأجل الملوك والعامة.

وأما الرهبان فأحدثوا من أنواع المكر والحيل بالعامة، ما يظهر لكل عاقل - حتى صنّف الفضلاء في حيل الرهبان كتبًا مثل: النار التي كانت تصنع - بقمامة يدهنون خيطًا دقيقًا «بسندروس» ويلقون النار عليه بسرعة فتنزل - فيعتقد الجهّال أنها نزلت من السماء ويأخذونها إلى البحر، وهي صنعة ذلك الراهب، يراه الناس عيانًا، وقد اعترف هو وغيره أنهم يصنعونها.

وقد اتفق أهل الحقّ من جميع الطوائف على أنه لا تجوز عبادة الله - تعالى - بشيء ليس له حقيقة، وقد يظن المنافقون أن ما ينقل عن المسيح وغيره من المعجزات، من جنس النار المصنوعة، وكذلك حيلهم في تعليق الصليب، وفي بكاء التماثيل التي يصورونها على صورة المسيح وأمه وغيرهما ونحو ذلك، كل ذلك يعلم كل عاقل أنه إفك مفترى، وأن جميع أنبياء الله، وصالحي عباده برآء من كل زور وباطل وإفك كبرائهم من سحر سحرة فرعون.

ثم إن هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التي يعبدون الله بها فناقضوا الأولين من اليهود فيها، مع أنهم يأمرون بالتمسك بالتوراة؛ إلا ما نسخه المسيح.

تناقض

قصّر هؤلاء في الأنبياء حتى قتلوهم، وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم.

وقال أولئك: إن الله لا يصلح له أن يغيِّر ما أمر به، فينسخه، لا في وقت آخر، ولا على لسان نبيٍّ آخر.

وقال هؤلاء: بل الأحبار والقسيسون يغيّرون ما شاءوا، ويحرمون ما رأوا، ومن أذنب ذنبًا وضعوا عليه ما رأوا من العبادات وغفروا له، ومنهم من يزعم أنه

ينفخ في المرأة من روح القدس، فيجعل البخور قربانًا.

وقال أولئك حِرِّم علينا أشياء كثيرة ، وقال هؤلاء: ما بين «البقة» و«الفيل» حلالٌ ـ كلْ ما شئت، ودعْ ما شئت.

وقال أولئك النجاسات مغلّظة، حتى إن الحائض لا يُقْعَد معها، ولا يُؤكَل معها. وهؤلاء يقولون: ما عليك شيء نجس، ولا يأمرون بختان ولا غسل من جنابة ولا إزالة نجاسة، مع أن المسيح والحواريين كانوا على شريعة التوراة.

عبادات مبتدعة

ثم إن الصلاة إلى المشرق، لم يأمر بها المسيح، ولا الحواريون، ابتدعها قسطنطين[(١)] أو غيره، وكذلك الصليب إنما ابتدعه قسطنطين برأيه وبمنام زعم أنه رآه.

وأما المسيح والحواريون فلم يأمروا بشيء من ذلك.

والدين الذي يتقرب العباد به إلى الله، لابد أن يكون الله أمر به وشرعه على ألسنة رسله وأنبيائه وإلا فالبدع كلها ضلالة، وما عبدت الأوثان إلا بالبدع. وكذلك إدخال الألحان في الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون.

وبالجملة فعامة أنواع العبادات والأعياد التي هم عليها لم ينزل بها الله كتابًا ولا بعث بها رسولًا

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٢/ ٤٣٢-٤٣٣): بعد المسيح ﷺ بنحو ثلاثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية، وكان فيلسوفًا قبل ذلك، فدخل في دين النصارى، قيل: تقية، وقيل حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدّعوها وأحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح، ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة، وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى المشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول.

مقارنة بين اليهود والنصارى

لكن فيهم رأفة ورحمة، وهذا من دين الله بخلاف الأولين فإن فيهم قسوة ومقتًا، وهذا مما حرمه الله تعالى؛ لكن: الأولون لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر. والآخرون فيهم ضلال عن الحق، وجهل بطريق الله.

ثم إن هاتين الأمتين تفرقتا أحزابًا كثيرة في أصل دينهم واعتقادهم في معبودهم ورسولهم، هذا يقول: إن جوهر اللاهوت والناسوت صارا جوهرًا واحدًا، وطبيعة واحدة، وأقنومًا واحدًا، وهم اليعقوبية. وهذا يقول: بل هما جوهران، وطبيعتان، وأقنومان؛ وهم النسطورية. وهذا يقول بالاتحاد من وجه دون وجه؛ وهم الملكانية(١).

وقد آمن جماعات من علماء أهل الكتاب قديمًا وحديثًا، وهاجروا إلى الله ورسوله، وصنفوا في كتب الله من دلالات نبوة النبي خاتم المرسلين، وما في التوراة والزبور والإنجيل من مواضع لم يدبروها، وكذلك الحواريون. فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فبعث النبي الذي بشَّر به المسيح ومن قبله من الأنبياء ـ داعيًا إلى ملة إبراهيم، ودين المرسلين قبله وبعده، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله لله، وطهر الأرض من عبادة الأوثان، ونزه الدين عن الشرك دقِّه وجلِّه، بعد ما كانت الأصنام تعبد في أرض الشام وغيرها في دولة بني إسرائيل ودولة الذين قالوا: إنا نصارى، وأمر بالإيمان بجميع كتب الله المنزلة: كالتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان وبجميع أنبياء الله من آدم إلى محمد، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٢) (٣/ ٤٢٦) (٤/ ٣٦٣) وعمدة القاري (١٦/ ٢٧-٣٥٦) والجواب الصحيح (٢/ ٣٤٥-٣٥٦).

بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٨].

وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]. وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

وأمره أن تكون صلاته وحجه إلى بيت الله الحرام؛ الذي بناه خليله إبراهيم، أبو الأنبياء وإمام الحنفاء وجعل أمته وسطًا فلم يغلوا في الأنبياء كغلو من عدلهم بالله، وجعل فيهم شيئًا من الإلهية، وعبدهم، وجعلهم شفعاء، ولم يجفوا جفاء من آذاهم، واستخف بحرماتهم، وأعرض عن طاعتهم؛ بل عزروا الأنبياء: أي عظموهم، ونصروهم، وآمنوا بما جاءوا به، وأطاعوهم، واتبعوهم، وائتموا بهم، وأحبوهم، وأجلُّوهم، ولم يعبدوا إلا الله؛ فلم يتكلوا إلا عليه، ولم يستعينوا إلا به، مخلصين له الدين حنفاء.

وكذلك في الشرائع، قالوا: ما أمرنا الله به أطعناه، وما نهانا عنه انتهينا. وإذا نهانا عما كان أحله؛ كما نهى بني إسرائيل عما كان أباحه ليعقوب، أو أباح لنا ما كان

حرامًا؛ كما أباح المسيح بعض الذي حرم الله على بني إسرائيل سمعنا وأطعنا.

وأما غير رسل الله وأنبيائه فليس لهم أن يبدِّلوا دين الله، ولا يبتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله، والرسل إنما قالوا تبليغًا عن الله؛ فإنه سبحانه له الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره، لا يأمر غيره ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].

الأمة الوسط

وتوسطت هذه الأمة في الطهارة والنجاسة، وفي الحلال والحرام، وفي الأخلاق، ولم يجرّدوا الشدة كما فعله الأولون، ولم يجردوا الرأفة كما فعله الآخرون؛ بل عاملوا أعداء الله بالشدة، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة، وقالوا في المسيح ما قاله سبحانه وتعالى، وما قاله المسيح والحواريون، لا ما ابتدعه الغالون والجافون(١).

وقد أخبر الحواريون عن خاتم المرسلين: أنه يبعث من أرض اليمن، وأنه يبعث بقضيب الأدب، وهو السيف(٢)، وأخبر المسيح: أنه يجيء بالبينات والتأويل، وأن المسيح جاء بالأمثال، وهذا باب يطول شرحه.

---

(١) قال الطبري رحمه الله في تفسيره (٢/ ٦): أرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين. فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولاهم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها.

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم». أخرجه أحمد (٢/ ٥٠) وقال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤٠) وهذا إسناد جيد، وقال في الفتاوى (٢٥/ ٣٣١): هذا حديث جيد. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٨٣١).

وإنما نبه الداعي لعظيم ملته وأهله، لما بلغني ما عنده من الديانة والفضل، ومحبة العلم وطلب المذاكرة، ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي(١): شاكرًا من الملك من رفقه ولطفه، وإقباله عليه، وشاكرًا من القسيسين ونحوهم.

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة؛ فإن أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه(٢)؛ وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين. ولا نصيحة أعظمُ من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه، فإنه لابد للعبد من لقاء الله، ولابد أن الله يحاسب عبده، كما قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٦].

وأما الدنيا فأمرها حقيرٌ، وكبيرها صغير(٣)، وغاية أمرها يعود إلى الرياسة

(١) لعله: أحمد بن أحمد بن نعمة بن أحمد العلامة شرف الدين مفتي الشام، أقضى القضاة أبو العباس المقدسي النابلسي ثم الدمشقي الشافعي خطيب دمشق، ولد سنة اثنتين وعشرين وستمائة (٦٢٢هـ) وأجاز له الفتح ابن عبد السلام وأبو علي الجواليقي، وسمع من السخاوي وابن الصلاح وعدة، وطلب بنفسه وقرأ على الشيوخ، ولم يكثر وبرع في كتابة المنسوب، وتقوم في علمي الأصول والفقه، وتخرج به الأصحاب وصنف مع ا لتواضع والديانة وسرعة الفهم ووفور العلم، مات سنة أربع وتسعين وستمائة (٦٩٤هـ) انظر: معجم المحدثين للذهبي (ص ١٢-١٣ رقم ٧).

(٢) فقد ثبت عن تميم الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثًا: قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» أخرجه مسلم (رقم ٥٥) بينما أخرجه معلقًا البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة» (ص٣٥) بعد حديث (رقم ٥٦).
قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٥-٢١٩) وقد ذكرنا في أول الكتاب عن أبي داود أن هذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور عليها الفقه، وقال الحافظ أبو نعيم: هذا حديث له شأن ذكر محمد بن أسلم الطوسي أنه أحد أرباع الدين، وقد ذكر الله في كتابه عن الأنبياء عليهم السلام أنهم نصحوا الأمم كما أخبر بذلك عن نوح وعن صالح.. وقال الخطابي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له.

(٣) الذي يبين حقارة الدنيا وصغر شأنها قول رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها (أي الشاة الميتة) ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء» أخرجه الحاكم (٤/ ٣٤١ رقم ٧٨٤٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

والمال[١]. وغاية ذي الرياسة أن يكون كفرعون، الذي أغرقه الله في اليَمِّ انتقامًا منه، وغاية ذي المال أن يكون كقارون، الذي خسف الله به الأرض؛ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة لما أذى نبي الله موسى.

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين، كلها تأمر بعبادة الله والتجرد للدار الآخرة، والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا[٢]. ولما كان أمر الدنيا خسيسًا، رأيت أن أعظم ما يُهدى لعظيم قومه: المفاتحة في العلم والدين بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله، والكلام في الفروع مبني على الأصول، وأنتم تعلمون أن دين الله لا يكون بهوى النفس، ولا بعادات الآباء وأهل المدنيّة؛ وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل، وفيما اتفق الناس عليه وما اختلفوا فيه، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى، بالاعتقاد الصحيح، والعمل الصالح، وإن كان لا يمكن الإنسان أن يظهر كل ما في نفسه لكل أحد، فينتفع هو بذلك القدر.

وإن رأيتُ من الملك رغبة في العلم والخير كاتبته وجاوبته عن مسائل يسألها، وقد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص لمصالح في الدين والدنيا، لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله؛ فإن الملك وقومه يعلمون أن الله قد أظهر من معجزات رسله عامة، ومحمد خاصة ما أَيَّدَ به دينه، وأذل الكفار والمنافقين.

---

(١) أما غاية أمر الدنيا فيمثله قول رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٧٦) وقال: حسن صحيح، قال ابن رجب رحمه الله في شرح هذا الحديث: فهذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلمين بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها... فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم.

(٢) قال الحافظ ابن رحب رحمه الله في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧٩-٣٨٠):ومن وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه أنه قال لهم: اعبروها ولا تعمروها، وروي عنه أنه قال: من ذا الذي يبني على موج البحر دارًا، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

شيخ الإسلام يحارب المغول

ولما قدم مقدم المغول غازان وأتباعه إلى دمشق وكان قد انتسب إلى الإسلام، لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه، حيث لم يلتزموا دين الله.

وقد اجتمعت به وبأمرائه، وجرى لي معهم فصول يطول شرحها؛ لابد أن تكون قد بلغت الملك فأذله الله وجنوده لنا، حتى بقينا نضربهم بأيدينا، ونصرخ فيهم بأصواتنا، وكان معهم صاحب سيس[١] مثل أصغر غلام يكون، حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه ويشتمه، وهو لا يجترئ أن يجاوبه، حتى إن وزراء غازان ذكروا ما ينم عليه من فساد النية له، وكنت حاضرًا لما جاءت رسلكم إلى ناحية الساحل، وأخبرني التتار بالأمر الذي أراد صاحب سيس أن يدخل بينكم وبينه فيه، حيث منَّاكم بالغرور، وكان التتار من أعظم الناس شتيمة لصاحب سيس وإهانة له، ومع هذا فإنا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان إليهم والذب عنهم.

وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى وأطلقهم «غازان» و«قطلوشاه» وخاطبت مولاي فيهم، فسمح بإطلاق المسلمين قال لي: ولكن معنا نصارى أخذناهم من القدس فهؤلاء لا يطلقون، فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فإنا نفكهم، ولا ندع أسيرًا، لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا، والجزاء على الله.

وكذلك السبي الذي بأيدينا من النصارى، يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم؛ كما أوصانا خاتم المرسلين، حيث قال في آخر حياته: «الصلاة وما ملكت إيمانكم»[٢] قال الله تعالى في كتابه: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا

---

(١) ورد ذكره في سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٢/ ٤٢٠ رقم ٨٠٦) وقال محققه: إسناده حسن، =

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨].

ومع خضوع التتار لهذه الملة، وانتسابهم إلى هذه الأمة، فلم نخادعهم، ولم ننافقهم؛ بل بينا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الإسلام الموجب لجهادهم، وأن جنود الله المؤيَّدة، وعساكره المنصورة، المستقرة بالديار الشامية والمصرية، ما زالت منصورة على من ناوأها مظفرة على من عاداها. وفي هذه المدة لما شاع عند العامة أن التتار مسلمون، أمسك العسكر عن قتالهم؛ فقتل منهم بضعة عشر ألفًا، ولم يقتل من المسلمين مائتان، فلما انصرف العسكر إلى مصر وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة: من الفساد وعدم الدين، خرجت جنود الله، وللأرض منها وئيد، قد ملأ السهل والجبل، في كثرة وقوة وعُدة وإيمان وصدق، قد بهرت العقول والألباب: محفوفة بملائكة الله، التي ما زال يمد بها الأمة الحنيفية المخلصة لبارئها، فانهزم العدو بين أيديها، ولم يقف لمقابلتها، ثم أقبل العدو ثانيًا، فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيل؛ وانصرف خاسئًا، وهو حسير، وصدق الله وعده، ونصر عبده وهو الآن في البلاء الشديد، والتعكيس العظيم، والبلاء الذي أحاط به، والإسلام في عز متزايد، وخير مترافد، فإن النبي ﷺ قد قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»[1].

وهذا الدين في إقبال وتجديد، وأنا ناصح للملك وأصحابه، والله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة، والإنجيل والفرقان. ويعلم الملك أن وفد نجران، وكانوا نصارى كلهم فيهم الأسقف وغيره؛ لما قدموا على النبي ﷺ ودعاهم إلى الله

=

وفي (٦/ ١٥٧-١٥٨ رقم ٢١٥٥، ٢١٥٦) وقال محققه: إسناده صحيح.

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٢٩١) والحاكم (٤/ ٥٦٧، ٥٦٨ رقم ٨٥٩٢، ٨٥٩٣) والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٣٢٣-٣٢٤ رقم ٦٥٢٧) والديلمي في مسند الفردوس (١/ ١٤٨ رقم ٥٣٢) والداني في السنن الواردة في الفتن (٣/ ٧٤٢-٧٤٣ رقم ٣٦٤).

ورسوله وإلى الإسلام، خاطبوه في أمر المسيح وناظروه فلما قامت عليهم الحجة جعلوا يراوغون، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى المباهلة، كما قال: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١].

فلما ذكر النبي ﷺ ذلك استشوروا بينهم فقالوا: تعلمون أنه نبي، وأنه ما باهل أحد نبيًّا فأفلح؛ فأدّوا إليه الجزية، ودخلوا في الذمة، واستعفَوْا من المباهلة(١).

وكذلك بعث النبي ﷺ كتابه إلى قيصر؛ الذي كان ملك النصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية، وغيره وكان ملكًا فاضلًا، فلما قرأ كتابه وسأل عن علامته عرف أنه النبي الذي بشر به المسيح، وهو الذي كان وعد الله به إبراهيم في ابنه إسماعيل، وجعل يدعو قومه النصارى إلى متابعته، وأكرم كتابه، وقبّله، ووضعه على عينيه، وقال: وددت أني أخلص إليه حتى أغسل عن قدميه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه(٢).

وأما النجاشي ملك الحبشة النصراني، فإنه لما بلغه خبر النبي ﷺ من أصحابه الذين هاجروا إليه، آمن به وصدقه، وبعث إليه ابنه وأصحابه مهاجرين، وصلى النبي ﷺ عليه لما مات، ولما سمع سورة ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ بكى، ولما أخبره عما يقولون في المسيح، قال: (والله ما يزيد عيسى على هذا مثل هذا العود)، وقال: (إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة)(٣).

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٣/ ١٠٤٤ رقم ٤٩٩، ٥٠٠)، وانظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٩٩-٣٠١) وتفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٦٦-٦٦٧) والدر المنثور (٢/ ٢٢٩-٢٣٢) وتفسير ابن كثير (١/ ١٢٨، ٣٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧) ومسلم (رقم ١٧٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢) (٥/ ٢٩١) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٩٤ رقم ٨٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٦-٢٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

وكانت سيرة النبي ﷺ: أن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من النصارى، صار من أمته، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وكان له أجران: أجر على إيمانه بالمسيح، وأجر على إيمانه بمحمد[1]، ومن لم يؤمن به من الأمم فإن الله أمر بقتاله، كما قال في كتابه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩].

فمن كان لا يؤمن بالله، بل يسب الله، ويقول: إنه ثالث ثلاثة، وأنه صُلب، ولا يؤمن برسله، بل يزعم أن الذي حُمِل ووُلد، وكان يأكل، ويشرب ويتغوط، وينام، هو الله وابن الله، وإن الله أو ابنه، حل فيه، وتدرعه، ويجحد ما جاء به محمد خاتم المرسلين، ويحرف نصوص التوراة والإنجيل.

فإن في الأناجيل الأربعة من التناقض والاختلاف بين ما أمر الله به وأوجبه ما فيها، ولا يدين الحق، ودين الحق: هو الإقرار بما أمر الله به وأوجبه، من عبادته، وطاعته، ولا يحرم ما حرم الله ورسوله، من الدم والميتة ولحم الخنزير، الذي ما زال حرامًا، من لدن آدم إلى محمد ﷺ، ما أباحه نبي قط، بل علماء النصارى يعلمون أنه محرم، وما يمنع بعضهم من إظهار ذلك إلا الرغبة والرهبة، وبعضهم يمنعه العناد والعادة ونحو ذلك، ولا يؤمنون باليوم الآخر، لأن عامتهم وإن كانوا يقرون بقيامة

---

(١) فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها، فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران» أخرجه البخاري (رقم ٩٧) ومسلم (رقم ١٥٤) وأخرج ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٤١٧) عن الشعبي قال: الناس يوم القيامة على أربعة منازل: رجل كان مؤمناً بعيسى وآمن بمحمد صلى الله عليهما فله أجران، ورجل كان كافرًا بعيسى فآمن بمحمد ﷺ فله أجر، ورجل كان كافرًا بعيسى فكفر بمحمد فباء بغضب على غضب، ورجل كان كافرًا بعيسى من مشركي العرب فمات بكفره قبل محمد ﷺ فباء بغضب، وانظر: تفسير الطبري أيضًا (٢٧/ ٢٤٣) وتفسير السيوطي (٨/ ٦٧).

الأبدان لكنهم لا يقرون بما أخبر الله به من الأكل والشرب واللباس والنكاح، والنعيم والعذاب في الجنة والنار، بل غاية ما يقرون به من النعيم السماع والشم، ومنهم متفلسفة، ينكرون معاد الأجساد، وأكثر علمائهم زنادقة، وهم يضمرون ذلك، ويسخرون بعوامهم، لاسيما بالنساء والمترهبين منهم؛ لضعف العقول، فمن هذا حاله فقد أمر الله رسوله بجهاده، حتى يدخل في دين الله، أو يؤدي الجزية، وهذا دين محمد ﷺ. ثم إن المسيح ـ صلوات الله عليه ـ لم يأمر بجهاد، ولاسيما بجهاد الأمة الحنيفية، ولا الحواريون بعده، فيا أيها الملك، كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحريم، وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسله!!

أسرى.. وأسرى

ثم أما يعلم الملك أن بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان مالا يُحصي عددهم إلا الله، ومعاملتنا فيهم معروفة؛ فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة ولا ذو دين؟!

لست أقول عن الملك وأهل بيته، ولا إخوته؛ فإن أبا العباس شاكر للملك ولأهل بيته كثيرًا معترفًا بما فعلوه معه من الخير، وإنما أقول عن عموم الرعية، أليس الأسرى في رعية الملك! أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والإحسان. فأين ذلك؟!

ثم إن كثيرًا منهم إنما أخذوا غدرًا، والغدر حرام في جميع الملل والشرائع والسياسات، فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدرًا، أفتأمنون مع هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا؟ وتكونون مغدورين؛ والله ناصرهم ومعينهم، لاسيما في هذه الأوقات، والأمة قد امتدت للجهاد، واستعدت للجلاد، ورغب الصالحون وأولياء الرحمن في طاعته، وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد، وقد ظهر بعض أثرهم، وهم في ازدياد.

الفدائيون

ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية، الذين يغتالون الملوك في فرشها، وعلى أفراسها: من قد بلغ الملك خبرهم قديمًا وحديثًا وفيهم الصالحون، الذين لا يرد الله دعواتهم، ولا يخيب طلباتهم[١]، الذين يغضب الرب لغضبهم، ويرضي لرضاهم.

وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم إلى المسلمين: لما غضب المسلمون عليهم، أحاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف، فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة، التي لا يرضاها عاقل، لا مسلم ولا معاهد!

هذا، وأنت تعلم أن المسلمين لا ذنب لهم أصلًا، بل هم المحمودون على ما فعلوه، فإن الذي أطبقت العقلاء على الإقرار بفضله، هو دينهم، حتى الفلاسفة أجمعوا على أنه لم يطرق العالم دين أفضل من هذا الدين! فقد قامت البراهين على وجوب متابعته.

ثم إن هذه البلاد ما زالت بأيديهم الساحل، بل وقبرص أيضًا، ما أخذت منهم إلا من أقل من ثلاثمائة سنة، وقد وعدهم النبي ﷺ أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة[٢]، فما يؤمن الملك إن هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد، كما ينتقم لغيرهم وما يؤمنه أن تأخذ المسلمين حمية إسلامهم، فينالوا منها ما نالوا من غيرها، ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه ما يصلح عاملناهم بالحسنى وإلا فمن بُغي عليه لينصرنه الله.

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين، وأنا ما غرضي الساعة إلا

---

(١) فقد قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» أخرجه البخاري (رقم ٢٧٠٣) ومسلم (رقم ١٦٧٥).

(٢) فقد قال رسول الله ﷺ: «ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» أخرجه البخاري (رقم ٣١١٦).

مخاطبتكم بالتي هي أحسن، والمعاونة على النظر في العلم واتباع الحق، وفعل ما يجب، فان كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم، وحقائق الأديان، ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون؛ إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا![١]

وأصل ذلك إن تستعين بالله، وتسأله الهداية، وتقول: اللهم أرني الحق حقًا وأعني على اتباعه، وأرني الباطل باطلًا وأعني على اجتنابه، ولا تجعله مستبهًا عليّ فأتبع الهوى[٢]، وقل: اللهم ربَّ جبريل وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم[٣].

والكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا، لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه في الدنيا والآخرة، وهما شيئان:

أحدهما: له خاصة، وهو معرفته بالعلم والدين، وانكشاف الحق وزوال الشبهة، وعبادة الله كما أمر؛ فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها، وهو الذي بعث به المسيح وعلمه الحواريين.

الثاني: له وللمسلمين، وهو مساعدته للأسرى الذين في بلاده، وإحسانه إليهم، وأمر رعيته بالإحسان إليهم، والمعاونة لنا على خلاصهم، فإن في الإساءة إليهم دركًا على الملك في دينه ودين الله تعالى، ودركًا من جهة المسلمين. وفي المعاونة على خلاصهم حسن له في دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين، وكان المسيح أعظم الناس توصية بذلك.

ومن العجب كل العجب: أن يأسر النصارى قومًا غدرًا أو غير غدر، ولم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٣٢).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٢).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٠).

يقاتلوهم، والمسيح يقول: «من لطمك على خدّك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك»[١]، وكلما كثرت الأسرى عندكم كان أعظم لغضب الله، وغضب عباده المسلمين! فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين في قبرص! سيما وعامة هؤلاء الأسرى قوم فقراء وضعفاء، ليس لهم من يسعى فيهم. وهذا أبو العباس مع أنه من عُبَّاد المسلمين، وله عبادة، وفقر وفيه مشيخة، ومع هذا، فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة، ودين الإسلام يأمرنا أن نعين الفقير، والضعيف، فالملك أحق أن يساعد على ذلك من وجوه كثيرة، لاسيما والمسيح يوصي بذلك في الإنجيل، ويأمر بالرحمة العامة، والخير الشامل كالشمس والمطر، والملك وأصحابه إذا أعانونا على تخليص الأسرى، والإحسان إليهم، كان الحظ الأوفر لهم في ذلك في الدنيا والآخرة.

أما في الآخرة: فإن الله يثيب علي ذلك ويأجر عليه، وهذا مما لا ريب فيه عند العلماء المسيحيين الذين لا يتبعون الهوى، بل كل من اتقى الله وأنصف علم أنهم أسروا بغير حق، لاسيما من أُخذ غَدرًا، والله تعالى لم يأمر، ولا المسيح أمر، ولا أحد من الحواريين، ولا من اتبع المسيح على دينه، لا بأسر أهل ملة إبراهيم الخليل ﷺ ولا بقتلهم، وكيف وعامة النصارى يقرون بأن محمدًا رسول الأميين، فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين الله الذين اتبعوا رسولهم؟؟

«فإن قال قائل»: هم قاتلونا أول مرة؟ «قيل»: هذا باطل، فيمن غدرتم به، ومن بدأتموه بالقتال، وأما من بدأكم منهم فهو معذور؛ لأن الله تعالى أمره بذلك

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٧): وقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ [المائدة: ٨٢] أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة. كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ [الحديد: ٢٧] وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال مشروعًا في ملتهم.

ورسوله، بل المسيح والحواريون أخذ عليهم المواثيق بذلك، ولا يستوي من عمل بطاعة الله ورسوله، ودعا إلى عبادته ودينه، وأقر بجميع الكتب والرسل، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله، ومن قاتل في هوى نفسه وطاعة شيطانه، على خلاف أمر الله ورسوله.

وما زال في النصارى من الملوك والقسيسين، والرهبان والعامة من له مزية على غيره في المعرفة والدين، فيعرف بعض الحق، وينقاد لكثير منه، ويعرف من قدر الإسلام وأهله ما يجهله غيره، فيعاملهم معاملة تكون نافعة له في الدنيا والآخرة، ثم في فكاك الأسير(١)، وثواب العتق من كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه(٢)، فمهما عمل الملك معهم وجد ثمرته.

أما في الدنيا: فإن المسلمين أقدر على المكافأة في الخير والشر من كل أحد، ومن حاربوه، فالويل كل الويل له، والملك لابد أن يكون سمع السِّير، وبلغه أنه ما زال في المسلمين النفر القليل، منهم من يغلب أضعافًا مضاعفة من النصارى، وغيرهم،

---

(١) إن فكاك الأسير كان يعد من المناقب والفضائل التي يفتخر بها قبل البعثة وبعدها فقد أخرج الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٥) قال العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني. وأخرج أيضًا في تفسيره (١١/ ٤٣) أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قال: يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم أفلا نستغفر لهم. الحديث. وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦٨) والدر المنثور (٤/ ١٤٥، ١٤٦، ٣٠١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٢، ٣٩٥).
وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «فكوا العاني - يعني الأسير - وأطعموا الجائع، وعودوا المريض» أخرجه البخاري (رقم ٣٠٤٦).
وعن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة: قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: «العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»، أخرجه البخاري (رقم ١١١) ومسلم (رقم ١٣٧٠).
(٢) فعن أبي هريرة ﷺ قال النبي ﷺ: «أيما رجل أعتق امرءًا مسلمًا، استنقذ الله بكل عضو منه عضوًا منه من النار» أخرجه البخاري (رقم ٢٥١٧) ومسلم (رقم ١٥٠٩).

فكيف إذا كانوا أضعافهم؟ وقد بلغه الملاحم المشهورة في قديم الدهر وحديثه؛ مثل: أربعين ألفًا يغلبون من النصارى أكثر من أربعمائة ألف، أكثرهم فارس، وما زال المرابطون بالثغور مع قلتهم، واشتغال ملوك الإسلام عنهم يدخلون إلى بلاد النصارى، فكيف وقد منَّ الله تعالى على المسلمين باجتماع كلمتهم، وكثرة جيوشهم، وبأس مقدميهم، وعلوِّ هممهم، ورغبتهم فيما يقرب إلى الله تعالى! واعتقادهم أن الجهاد أفضل الأعمال المطوعة، وتصديقهم بما وعدهم نبيهم، حيث قال: «**يعطى الشهيد ست خصال: يُغفر له بأول قطرة من دمه، ويرى مقعده في الجنة، ويكسى حلة الإيمان، ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين، ويوقى فتنة القبر، ويؤمن من الفزع الأكبر يوم القيامة**»(١).

كيف كان يحارب المسلمون

ثم إن في بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من المسلمين، فإن فيهم من رؤوس النصارى من ليس في البحر مثلهم إلا قليل، وأما أسارى المسلمين، فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون، ولا من ينتفعون به، وإنما نسعى في تخليصهم لأجل الله تعالى، رحمة لهم وتقربًا إليه يوم يجزي الله المصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين.

وأبو العباس، حامل هذا الكتاب، قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا، واستعطف قلوبنا إليه؛ فلذلك كاتبت الملك لما بلغتني رغبته في الخير، وميله إلى العلم والدين، وأن من نواب المسيح، وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه، وطلب الخير لهم، فإن أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس، يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويدعونهم إلى الله، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم، وإن كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التي فيها طعن

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٩٣): رواه أحمد، وفيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه جماعة.

على بعضهم، أو طعن على دينهم؛ فإما أن يكون المخبر كاذبًا، أو ما فهم التأويل، وكيف صورة الحال؛ وإن كان صادقًا عن بعضهم بنوع من المعاصي، والفواحش والظلم؛ فهذا لابد منه في كل أمة، بل الذي يوجد في المسلمين من الشر أقل بكثير مما في غيرهم، والذي يوجد فيهم من الخير لا يوجد مثله في غيرهم.

والملك وكل عاقل يعرف أن أكثر النصارى خارجون عن وصايا المسيح والحواريين، ورسائل بولص وغيره من القديسين، وإن كان أكثر ما معهم من النصرانية شرب الخمر، وأكل الخنزير، وتعظيم الصليب، ونواميس مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان، وأن بعضهم يستحل بعض ما حرمته الشريعة النصرانية؛ هذا فيما يقرون به، وأما مخالفتهم لما لا يقرون به، فكلهم داخل في ذلك، بل قد ثبت عندنا عن الصادق المصدوق رسول الله ﷺ: **«أن المسيح عيسى ابن مريم، ينزل عندنا بالمنارة البيضاء في دمشق»**[1]، **«واضعًا يده على منكبي ملكين، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»**[2]، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، ويقتل مسيح الضلالة الأعور الدجال، الذي يتبعه اليهود، ويسلط المسلمون على اليهود، **«حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله»**[3]، وينتقم الله للمسيح ابن مريم، مسيح الهدى، من اليهود ما آذوه وكذبوه لما بُعث إليهم.

وأما ما عندنا في أمر النصارى، وما يفعل الله بهم من إدالة المسلمين عليهم، وتسليطه عليهم؛ فهذا مما لا أخبر به الملك لئلا يضيق صدره، ولكن الذي أنصحه به: أن كل من أسلف إلى المسلمين خيرًا، ومال إليهم، كانت عاقبته معهم حسنة،

---

(١) خبر نزول عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء في دمشق أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ١٩٦ رقم ٤٤٠) وعزاه السيوطي إليه في الدر المنثور (٢/ ٧٤٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٠٥): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٢٢) ومسلم (رقم ١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٢٥، ٢٩٢٦) ومسلم (رقم ٢٩٢١، ٢٩٢٢).

بحسب ما فعله من الخير؛ فان الله يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

والذي أختم به الكتاب: الوصية بالشيخ أبي العباس، وبغيره من الأسرى، والمساعدة لهم، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن، والامتناع من تغيير دين واحد منهم، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله، ونحن نجز ي الملك على ذلك بإضعاف ما في نفسه، والله يعلم أني قاصد للملك الخير؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد، ونعطف على خلق الله، وندعوهم إلى الله، والى دينه، وندفع عنهم شياطين الإنس والجن[١].

والله المسئول: أن يعين الملك على مصلحته، التي هي عند الله المصلحة، وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله، ويختم له بخاتمة خير.

والحمد لله رب العالمين، وصلواته على أنبيائه المرسلين ولاسيما محمد خاتم النبيين والمرسلين والسلام عليهم أجمعين.

❁❁❁

---

(١) هذا هو المشروع في حق كل من يقدر على نفع غيره من المسلمين عملاً بقول رسول الله ﷺ: «من استطاع منك أن ينفع أخاه فليفعل» أخرجه مسلم (رقم ٢١٩٩) وبقوله ﷺ: «اشفعوا تؤجروا» أخرجه البخاري (رقم ١٤٣٢) ومسلم (رقم ٢٦٢٧).

الرسالة الرابعة:

رسالة الحسن بن أيوب

من الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية

قدم لها

فضيلة الشيخ:

علي الحمد المحمد الصالحي

رحمه الله

مُقَدِّمَة

بقلم علي الحمد المحمد الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، لا شريك له في ألوهيته، ولا في ربوبيته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في خلقه، ولا في أمره، ولا في شرعه، و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف: ١-٥]، و﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: ١-٢]، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى إخوانه من النبيين أفضل الأنام، وعلى التابعين لهم بإحسان ما تعاقبت الليالي والأيام، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فقد وجدت في قراءتي لكتاب العالم الكبير الداعي إلى الله بما أعطاه من العلم الغزير الشيخ أحمد بن عبد الحليم المعروف بشيخ الإسلام ابن تيمية الذي من كتبه الكثيرة «**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**» والكتاب طبع عدة طبعات آخرها طبعة محققة في ستة مجلدات من ثلاثة دكاترة فضلاء، جزاهم الله أحسن الجزاء، و كانت هذه الطبعة بالنسبة لي ولكل مسلم كالغيث على الأرض العطشى حيث قام هؤلاء المشايخ بتحقيقهم بتزكية ما ذكره شيخ الإسلام في كل الكتاب وخاصة في كتاب الحسن بن أيوب، الذي نقل عنه شيخ الإسلام وأثنى الشيخ عليه بما هو له أهل، والكتاب كما ستراه فيه قصة إسلامه وإرشاد النصارى بوقته وبعده

لمواطن الخلل في شريعتهم، التي سلكوها بغير هدى من الله، وهي من نسج الهوى النفسي، ولا أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله. وقد دفعني لنشر هذا الكتاب.

أولاً: وجوب الدعوة إلى الله عز وجل وخروجاً من المسؤولية أمام الله.

ثانياً: أن شيخ الإسلام نقله مرتضياً ما ذكر فيه مثنياً على كاتبه.

ثالثاً: رغبة في الاختصار على القارئ واطلاع القارئ منهم ومن غيرهم على واقعهم المخالف للشرع والعقل، فلعل الله أن يهدي من أراد هدايته ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧].

رابعاً: ما ذكره الله عنهم مما يشير إلى أنهم أقرب إلى قبول النصح من غيرهم بقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ [المائدة: ٨٢].

خامساً: أنهم جادون في الطعن في الإسلام ونبيه ونشر عقيدتهم المنسوخة، فرأيت أن يكون كف غلوائهم ونصحهم بواسطة واحد منهم، وقديماً قيل: (صاحب الدار أدرى بما فيها).

وقد كتب شيخ الإسلام في طيات «الجواب الصحيح» ما لم يبق لهم عذراً في التمسك بشريعتهم المبدلة والمنسوخة، وبيّن سلوكهم المعاكس للشرع والعقل ونصح الناصحين من علمائهم الذين أسلموا مدى الأجيال، وهم أدرى بعلمائهم الذين دخلوا في الإسلام وهم عدد كثير لا يمكننا حصرهم من أول الإسلام حتى يومنا هذا، والهدف من عملنا النصح لهم والمعذرة إلى الله، ولعلهم يتقون ربهم فيرجعون إليه.

هذا وقد كتب تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية شمس الدين ابن القيم في الموضوع كتابةً وافية سماها «هداية الحيارى» ومنها في عرض واقع سلوكهم، قال بعض ملوك الهند: «أما النصارى فإن كان أعداؤهم يجاهدونهم بالشرع فأنا أرى جهادهم بالعقل».

وهذا أوان الشروع فيما ذكره شيخ الإسلام من كتاب «الحسن بن أيوب»

وأشار الشيخ في آخر ما نقل أنه لم ينقله كله، وننبه القارئ أن الشيخ علق في طيات الكتاب بقوله (قلت) فإذا انتهى من تعليقه عاد فقال بقوله (قال) يعني الحسن بن أيوب فلينتبه القارئ لذلك.

***

قال شيخ الإسلام:

قلت: ومن أخبر الناس بمقالاتهم من كان من علمائهم، وأسلم على بصيرة بعد الخبرة بكتبهم، ومقالاتهم (كالحسن بن أيوب) الذي كتب رسالة إلى أخيه (علي ابن أيوب)(١) يذكر فيها سبب إسلامه، ويذكر الأدلة على بطلان دين النصارى، وصحة دين الإسلام، قال في رسالته إلى أخيه لما كتب إليه يسأله عن سبب إسلامه بعد أن ذكر خطبته: «ثم أعلمك ـ أرشدك الله أن ابتداء أمري في الشك الذي دخلني فيما كنت عليه، والاستبشاع للقول به من أكثر من عشرين سنة، لِما كنت أقف عليه من المقالة من فساد التوحيد لله ـ عز وجل ـ بما أدخل فيه من القول بالثلاثة الأقانيم وغيرها، مما تضمنته شريعة النصارى، ووضع الاحتجاجات التي لا تزكو ولا تثبت في تقرير ذلك، وكنت إذا تبحرته وأجلت الفكر فيه بَانَ لي عَوارُهُ ونفرت نفسي من قبوله، وإذا فكرت في دين الإسلام الذي منّ الله عليّ به وجدت أصوله ثابتة، وفروعه مستقيمة، وشرائعه جميلة.

وأصل ذلك ما لا يختلف فيه أحد ممن عرف الله عز وجل منكم ومن غيركم.

وهو الإيمان بالله الحي القيوم، السميع البصير، الواحد الفرد، الملك القدوس، الجواد العدل إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وإله موسى وعيسى، وسائر النبيين، والخلق أجمعين، الذي لا ابتداء له، ولا انتهاء ولا ضد ولا

---

(١) ذكره ابن النديم في كتابه الفهرست (ص٢١٤) قال: الحسن بن أيوب من المتكلمين، وله من الكتب: كتاب إلى أخيه علي بن أيوب في الرد على النصارى وتبيين فساد مقالتهم وتثبيت النبوة.

ند ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً، الذي خلق الأشياء كلها لا من شيء ولا على مثال، بل كيف شاء، وبأن قال لها: كوني فكانت على ما قدر وأراد.

وهو العليم القدير، الرؤوف الرحيم، الذي لا يشبهه شيء، وهو الغالب فلا يغلب، والجواد فلا يبخل، لا يفوته مطلوب، ولا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها.

وكل مذكور أو موهوم هو منه، وكل ذلك به وكل له قانتون. ثم نؤمن بأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون. ونؤمن بموسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم السلام، لا نفرق بين أحد منهم. ونؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وسائر الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧] و﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٥]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢].

قال(١): وكان يحملني إلف ديني، وطول المدة والعهد عليه، والاجتماع مع الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأقارب والإخوان والجيران وأهل المودات، على التسويف بالعزم والتلبث عن إبرام الأمر، ويعرض مع ذلك الفكرُ في إمعان النظر والازدياد في البصيرة، فلم أدع كتاباً من كتب أنبياء التوراة والإنجيل والزبور، وكتب الأنبياء والقرآن إلا نظرت فيه وتصفحته، ولا شيئاً من مقالات النصرانية إلا تأملته، فلما لم أجد للحق مدفعاً، ولا للشك فيه موضعاً، ولا للأناة والتلبث وجهاً.

خرجت مهاجراً إلى الله ـ عز وجل ـ بنفسي، هارباً بديني عن نعمة وأهل

---

(١) يقصد الحسن بن أيوب.

ومستقر ومحل وعز ومتصرف في عمل، فأظهرت ما أظهرته عن نية صحيحة وسريرة صادقة، ويقين ثابت، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق، وإياه ـ تعالى ـ نسأل أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

قال: ولما نظرت في مقالات النصارى وجدت صنفاً منهم يعرفون بالأريوسية، يجردون توحيد الله، ويعترفون بعبودية المسيح ﷺ، ولا يقولون فيه شيئاً مما يقوله النصارى من ربوبية ولا بنوة خاصة ولا غيرهما، وهم متمسكون بإنجيل المسيح مقرون بما جاء به تلاميذه، والحاملون عنه، فكانت هذه الطبقة قريبة من الحق، مخالفة لبعضه في جحود نبوة محمد ﷺ ودفع ما جاء به من الكتاب والسنة.

قال: ثم وجدت منهم صنفاً يعرفون باليعقوبية[1]، يقولون: إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين: إحداهما طبيعة الناسوت، والأخرى طبيعة اللاهوت، وأن هاتين الطبيعتين تركبتا كما تركبت النفس مع البدن فصارتا إنساناً واحداً، وجوهراً واحداً، وشخصاً واحداً، وأن هذه الطبيعة الواحدة، والشخص الواحد هو المسيح، وهو إله كله، وإنسان كله، وهو شخص واحد، وطبيعة واحدة من طبيعتين.

وقالوا: إن مريم ولدت الله ـ تعالى الله عما يقولون ـ وأن الله مات وتألم وصلب متجسداً، ودفن وقام من بين الأموات وصعد إلى السماء.

فجاءوا من القول بما لو عرض على السماء لانفطرت، أو على الأرض لانشقت،

---

(١) عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٤] قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض، فأحيا من أحيا، وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية. تفسير الصنعاني (٣/ ٨) وانظر: تفسير الطبري (١٦/ ٨٤، ٨٦) (٢٨/ ٩٢) وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١١١٠ رقم ٦٢٣٣) وتفسير السيوطي (٢/ ٧٢٨) (٥/ ٥١٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٧٥) (٣/ ١٢٢).

أو على الجبال لانهدمت. فلم يكن لمحاجة هؤلاء وجه، إذ كان كفرهم بما صرحوا به أوضح من أن يقع فيه الشك، (وكان غيرهم من النصارى كالملكانية[١] والنسطورية[٢] يشهدون بذلك عليهم).

قال: ثم نظرت في قول الملكانية وهم الروم، وهم أكثر النصارى فوجدتهم قالوا: إن الابن الأزلي الذي هو الله الكلمة تجسد من مريم تجسداً كاملاً كسائر أجساد الناس، وركب في ذلك الجسد نفساً كاملة بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس، وأنه صار إنساناً بالنفس والجسد اللذين هما من جوهر الناس، وإلهاً

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (١/ ٥٩٢): النصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهًا، ومنهم من يعتقده شريكًا، ومنهم من يعتقده ولدًا، وهم طوائف كثيرة، لهم آراء مختلفة وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم، وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندرية في حدود سنة أربع مئة من الهجرة النبوية: أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفًا، فكانوا أحزابًا كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص، فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفراً وقد توافقوا على مقالة أخذها الملك ونصرها وأيدها، وكان فيلسوفًا داهية، ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دست أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتبًا وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمدونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكانية.

(٢) قال الفيروزآبادي رحمه الله في القاموس المحيط (ص٦٢٠): النسطورية بالضم وتفتح: أمة من النصارى، تخالف بقيتهم، وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمن المأمون، وتصرف في الإنجيل بحكم رأيه، وقال: إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة، وهو بالرومية: نسطورس. اهـ.
وهم القائلون: إن عيسى ابن الله، كان فينا ما شاء الله ثم رفعه إليه، انظر: تفسير الصنعاني (٣/ ٨) وتفسير الطبري (١٦/ ٨٤، ٨٦) (٢٨/ ٩٢) وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١١١٠ رقم ٦٢٣٣) والدر المنثور (٢/ ٧٢٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٧٥) (٣/ ٤٢٦) والأحاديث المختارة (١٠/ ٣٧٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٤٨٩) وعمدة القاري (١٦/ ٢٧).

بجوهر اللاهوت، كمثل أبيه لم يزل وهو إنسان بجوهر الناسوت، مثل إبراهيم وداود وهو شخص واحد لم يزد عدده، وثبت له جوهر اللاهوت، كما لم يزل يصح له جوهر الناسوت الذي لبسه من مريم، وهو شخص واحد لم يزد عدده، وطبيعتان، ولكل واحدة من الطبيعتين مشيئة كاملة، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح، وله بناسوته مشيئة مثل مشيئة إبراهيم وداود.

وقالوا: إن مريم ولدت إلهاً، وأن المسيح، وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت، مات، وقالوا: إن الله لم يمت، والذي ولدت مريم قد مات بجوهر ناسوته، فهو إله تام بجوهر لاهوته، وإنسان تام بجوهر ناسوته، وله مشيئة اللاهوت ومشيئة الناسوت، وهو شخص واحد، لا نقول شخصان، لئلا يلزمنا القول بأربعة أقانيم.

قال: فهؤلاء أتوا من ذلك بمثل ما أتت به اليعقوبية في ولادة مريم الله ـ تعالى الله عما يقول الظالمون ـ وقالوا: إن المسيح ـ وهو اسم لا تشك جماعة النصارى أنه واقع على اللاهوت والناسوت ـ مات، وأن الله لم يمت.

فكيف يكون ميتاً لم يمت، وقائماً قاعداً في حال واحدة؟ وهل بين المقالتين فرق إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع؟

قال: ثم نظرت في قول النسطورية فوجدتهم قالوا: إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة، وأن طبيعة اللاهوت التي للمسيح غير طبيعة ناسوته، وأن طبيعة اللاهوت لما توحدت بالناسوت بشخصها الكلمة التي صارت الطبيعتان بجهة واحدة، وإرادة واحدة واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصان، ولا يمتزج بشيء والناسوت يقبل الزيادة والنقصان، فكان المسيح بتلك إلهاً وإنسانا، فهو إله بجوهر اللاهوت الذي لا يزيد ولا ينقص، وهو إنسان بجوهر الناسوت القابل للزيادة والنقصان. وقالوا: إن مريم ولدت المسيح بناسوته، وإن اللاهوت لم يفارقه قط منذ توحدت بناسوته.

وقال: فوجدنا اليعقوبية قد صرحوا بأن مريم ولدت الله ـ تعالى عما يصفه

المبطلون ويقوله العادلون ـ وأنه تألم وصلب ومات، وقام بعد ثلاثة أيام من بين الموتى، وهذا الكفر الذي تشهد به عليهم سائر ملل النصارى وغيرهم، ووجدنا الملكانية قد حادوا عن هذا التصريح إلى ما هو دونه في الظاهر، فقالوا: إن المسيح شخص واحد و طبيعتان، فلكل واحدة من الطبيعتين مشيئة، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح، وله بناسوته مشيئة كمشيئة إبراهيم وداود. وأوهموا الواقف على قولهم أنهم بما اخترعوه من هذا الاختيار قد فرقوا بين اللاهوت والناسوت، ثم عادوا إلى قول اليعقوبية، فقالوا: إن مريم ولدت إلهاً، وأن المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت عند جماعتهم لا يشكون في ذلك، مات بالجسد، وأن الله لم يمت، والذي قد ولدته مريم قد مات بجوهر ناسوته، فكيف يكون ميت لم يمت؟ وهل بين المقالتين ـ إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع ـ فرق؟

وإذا كانوا قد اعترفوا بأن مريم ولدت الله، وأن الذي ولدته مريم، وهو المسيح الاسم الجامع للجوهرين، اللاهوت والناسوت قد مات، فهل وقعت الولادة والموت وسائر الأفعال، التي تحكي النصارى أنها فعلت بالمسيح إلا عليهما؟ فكيف يصح لذي عقل عبادة مولود من امرأة بشرية قد مات ونالته العلل والآفات.

قلت: ومما يوضح تناقضهم أنهم يقولون: إن المسيح وهو اللاهوت والناسوت شخص واحد وأقنوم واحد، مع قولهم: إنهما جوهران بطبيعتين ومشيئتين. فيثبتون للجوهرين أقنوماً واحداً، ويقولون: هو شخص واحد، ثم يقولون: إن رب العالمين إله واحد، وأقنوم واحد، وجوهر واحد، وهو ثلاثة أقانيم، فيثبتون للجوهر الواحد ثلاثة أقانيم، وللجوهرين المتحدين أقنوماً واحداً، مع أن مشيئة الأقانيم الثلاثة عندهم واحدة، والناسوت واللاهوت يثبتون لهما مشيئتين وطبيعتين، ومع هذا هما عندهم شخص واحد، وأقنوم واحد.

وهذا يقتضي غاية التناقض، سواء فسروا الأقنوم بالصفة، أو الشخص، أو الذات مع الصفة، أو أي شيء قالوه. وهو يبين أن الذين تكلموا بهذا الكلام ما تصوروا ما

قالوه، بل كانوا ضلالا جهالا بخلاف ما يقوله الأنبياء فإنه حق، فلهذا لا يوجد عن المسيح، ولا غيره من الأنبياء ما يوافق قولهم في التثليث، والأقانيم والاتحاد، ونحو ذلك مما ابتدعوه بغير سمع وعقل، بل ألقوا أقوالاً مخالفة للشرع والعقل.

ثم قال الحسن بن أيوب: ثم وجدنا النصارى المعروفين بالنسطورية قد خالفوا اليعقوبية والملكانية في قولهم بشخصين لهما مشيئة واحدة، وأن الطبيعتين اتحدتا فصارتا بجهة واحدة، ثم عادوا إلى شبيه قولهم في أن مريم ولدت المسيح، فإذا كانت ولدت المسيح فقد لزمهم ووجب عليهم الإقرار بأنها ولدت هذا اللاهوت والناسوت المتحدين.

وقد رجع المعنى إلى قول اليعقوبية إلا أنهم اختاروا لذلك ألفاظاً زوقوها وقدروا بها التمويه على السامع، ولم يصرحوا بالقول كتصريح اليعقوبية؛ لأن المتحد بالشيء هو الممازج له والمجتمع معه، حتى صار الذي مازجه وهو شيئاً واحداً، ثم أكدوا القول بإقرارهم أن الناسوت منذ اتحد باللاهوت لم يفارقه، فما لم يفارق الشيء هل هو إلا يجري مجراه في سائر متفرقاته من ضر ونفع، وخير وشر، وحاجة وغنى.

قال: وأما قولهم: إن مريم ولدت المسيح بناسوته فهذه أغلوطة، وإلا فكيف يولد ولد متحد بشيء آخر مجامع له دون ذلك الشيء؟ وكيف يكون ذاك، وهم يقولون: إنه لم يفارقه قط! وهل يصح هذا عند أهل النظر، أو ليس الحكم عند كل ناظر؟ ومن كل ذي عقل يوجب أن تكون الولادة واقعة على اللاهوت والناسوت معاً، بمعنى الاتحاد، وبمعنى الاسم الجامع للاهوت والناسوت وهو المسيح، وكذلك الحمل بهما جميعاً وأن يكون البطن قد حواهما.

قال: فإن لجوا في الباطل، ودافعوا عن قبيح هذه المقالة، ومالوا إلى تحسينها بالتمويهات المشككة لمن قصرت معرفته فنحن نقيم عليهم شاهداً من أنفسهم لا يمكنهم دفعه، وذلك أن شريعة إيمانهم التي ألفها لهم رؤساؤهم من البطاركة والمطارنة والأساقفة والأحبار في دينهم وذوي العلم منهم بحضرة الملك، عند

اجتماعهم من آفاق الأرض بمدينة قسطنطينية، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، يصفون أنهم نطقوا بها بروح القدس، وهي التي لم تختلف جماعتهم عند اختلافهم في المقالات فيها، ولا يتم لهم قربان إلا بها على هذا النسق الذي نبينه.

(نؤمن بالله الأب، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء الذي من أجلنا معشر البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب أيام فيطوس بن بيلاطوس ودفن وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء.

ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه روح ومجيئه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسية سليخية جاثقلية، وبقيامة أبداننا، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين).

قال: فهذه الشريعة يجتمع على الإيمان بها، وبذل المهج فيها، وإخراج الأنفس دونها جماهيرهم من الملكانية واليعقوبية والنسطورية.

وقد اعترفوا فيها جميعا بأن الرب المسيح الذي هذه صفته على ما اقتصصناه منها الإله الحق من الإله الحق، نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وصار إنسانا وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب.

قال: فهل في هذا الإقرار شبهة أو علقة يتعلق بها العنت المدافع عن الحجة.

فتدبروا هذا القول يا معشر النصارى، فإنه لا يمكن أحد منكم أن يخرج عنه ولا أن يدفع ما صرح به. فإنكم إن قلتم: إن المقتول المصلوب هو الله، فمريم على قولكم ولدت الله ـ سبحانه وتعالى عما يقولون ـ.

وإن قلتم: إنه إنسان. فمريم ولدت إنساناً، وفي ذلك أجمع بطلان شريعة

إيمانكم، فاختاروا أي القولين شئتم، فإن فيه نقض الدين.

قال: وقد يجب على ذوي العقول أن تزجرهم عقولهم عن عبادة إله ولدته مريم وهي امرأة آدمية، ثم مكث على الأرض ثلاثين سنة، تجري عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية، وصحة وسقم، وخوف وأمن، وتعلم وتعليم، لا يتهيأ لكم أن تدَّعوا أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللاهوتية شيء، ولا له من أحوال الآدميين كلها من حاجتهم وضروراتهم وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم مخرج، ثم أحدث بعد هذه المدة الطويلة ما أحدثه من إظهار أمر الله ـ تعالى ـ والنبوات، والآيات الباهرة المعجزة بقوة الله ـ تعالى ـ وقد كان من غيره من الأنبياء مثلها وما هو أعلى منها، فكانت مدته في ذلك أقل من ثلاث سنين، ثم انقضى أمره بما يصفون أنه انقضى به، وينسبونه إليه من حبس وضرب وقذف وصلب وقتل، فهل تقبل العقول ما يقولون من أن إلها نال عباده منه مثل ما تذكرون أنه نيل منه.

فإن تأولتم أن ذلك حل بالجسم، وليس بالقياس يحتمل ذلك لما شرحناه من معنى اتحاد اللاهوت به، أفليس قد وقع بجسم توحدت اللاهوتية به، وحلت الروح فيه، وقد أنجبه الله على ما تزعمون وتصفون لخلاص الخلق، وفوض إليه القضاء بين العباد في اليوم الذي يجتمع فيه الأولون والآخرون للحساب.

وقد وجدناكم تؤثرون أخباراً في قوم عرضوا التوابيت فيها شهداء لكم بأن الأيدي التي بسطت إليها جفت، أو هل نال أحداً من الجزع والهلع والغم والقلق والتضرع إلى الله في إزالة ما حل به، مثل ما يحكى في الإنجيل أنه ناله، ووجدنا الكتب تنبيء بأنه نيل من جورجيس[1] ـ أحد من كان على دين المسيح ﷺ من العذاب الشديد بالقتل والحرق والنشر بالمناشير ما لم يسمع بمثله في أحد من الخلق، ونال

---

(١) أخرج أحمد بن حنبل في الزهد (ص٧٦) عن عبد الصمد بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه يقول: نادى منادٍ من السماء: إن يحيى بن زكريا سيد من ولدت النساء، وإن جورجيس سيد الشهداء، وانظر: الدر المنثور (٢/ ١٩٠).

خلقاً كثيراً من تلامذته أيضاً عذاب شديد.

وقيل: لما كان الملوك المحاربون لهم يسومونهم إياه من الرجوع عن أديانهم إلى الكفر الذي كان أولئك الملوك عليه فصبروا على ذلك، واحتسبوا أنفسهم فلم يهربوا من الموت، وقد كان يمكنهم الهرب من بلد إلى بلد، والاستتار وإخفاء أشخاصهم، وما أظهروا في حال من تلك الأحوال جزعاً ولا هلعاً وهم بعض الآدميين التابعين له؛ لأنه خفف عنهم ما كانوا ينالون به بتأييد الله عز وجل إياهم.

قال: ثم نقول قولاً آخر: قد نستدل على صحة هذه الشريعة من سقمها بأربعة أوجه، لا يقع في شيء منها شك ولا طعن، ولا زيادة ولا نقصان، وهي أصل أمر المسيح عندكم:

فأولها: البشرى التي أتى بها جبريل عليه السلام.

والثانية: قول يحيى بن زكريا الذي شهد له المسيح بأنه لم تقم النساء عن مثله.

والثالثة: النداء المسموع من السماء.

والرابعة: قول المسيح عن نفسه حين سأله يحيى عن شأنه.

والذي قال جبريل على ما ثبت في إنجيلكم لمريم حين بشرها: (السلام عليك أيتها الممتلئة نعماً، ربنا معك أيتها المباركة في النساء، فلما رأته مريم ذعرت منه، فقال: لا ترهبي يا مريم فقد فزت بنعمةٍ من ربك، فها أنت تحبلين وتلدين ابناً، وتسميه يسوع، ويكون كبيراً، ويسمى ابن الله العلي، ويعطيه الله الرب كرسي أبيه داود، ويكون ملكا على آل يعقوب إلى الأبد، فقالت مريم: أنى يكون لي ذلك ولم يمسسني رجل، قال الملك: إن روح القدس يأتيك، أو قال: يحل فيك وقوة العلي تحبلك من أجل ذلك يكون الذي يولد منك قديسا ويسمى ابن الله العلي).

قال: فلم نرَ الملك قال لها: إن الذي تلدين، هو خالقك وهو الرب كما سميتموه، بل أزال الشك في ذلك بأن قال إن الله الرب يعطيه كرسي أبيه داود ويصطفيه ويكرمه وأن داود النبي أبوه، وأنه يسمى ابن الله)، وما قال أيضاً: (إنه

يكون ملكاً على الأرض) وإنما جعل له الملك على بني إسرائيل فقط.

وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لا يحصون، فمن ذلك إقراركم بأنكم جميعا أبناء الله بالمحبة، وقول المسيح: (أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم)(١) في غير موضع من الإنجيل، ثم تسمية الله يعقوب وغيره بنيه خصوصاً.

فالسبيل في المسيح إذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور أن يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة، الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار، ونسبة الملك إياه إلى أبيه داود تحقق أن أباه داود، وأن التسمية الأولى على جهة الاصطفاء والمحبة، وأن حلول الروح عليه على الجهة التي قالها «متى» التلميذ للشعب عن المسيح في الإنجيل: (لستم أنتم متكلمين، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم).

فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين، وتتكلم فيهم، وقال الملك في بشارته لمريم بالمسيح عليه السلام: إنه يكون ملكا على آل يعقوب، فخص آل يعقوب بتملكه عليهم دون غيرهم من الناس، ولم يقل إنه يكون إلها للخلائق، ومعنى قول جبريل عليه السلام لمريم: (ربنا معك) مثل معنى قول الله ـ عز وجل ـ لموسى وغيره من الأنبياء: (إني معكم) فقد قال ليوشع بن نون(٢): (إني أكون معك كما كنت مع موسى

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٢/ ٣٥) في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨] أي نحن منتسبون إلى أنبيائه، وهم بنوه، وله بهم عناية وهو يحبنا، ونقلوا من كتابهم: أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم: أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده؛ ولهذا قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حبست الشمس على بشر قط إلا على يوشع بن نون، ليالي سار إلى بيت المقدس» صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦١٢).

عبدي)[١]. فقول النصارى كلهم في مجاري لغتهم ومعاني ألفاظهم، أن الله ـ عز وجل ـ وروح القدس، مع كل خطيب وراهب وفاضل في دينه على هذه السبيل.

قال: وأما النداء الذي سمعه يحيى بن زكريا من السماء في المسيح وشهادة يحيى له، فإن «متى» قال في إنجيله: إن المسيح ﵇ لما خرج من الأردن[٢] تفتحت له السماء، فنظر يحيى إلى روح القدس قد نزلت على المسيح كهيئة حمامة، وسمع نداء من السماء: إن هذا ابني الحبيب الذي اصطفيته)[٣].

فقد علمنا وعلمتم أن المصطفى مفعول، والمفعول مخلوق، وليس يستنكف المسيح ﵇ من الاعتراف بذلك عن الاعتراف بذلك في كل كلامه، وما زال يقول: (إلهي وإلهكم وأبي وأبيكم)، وكلما يصحح به أنه عبد مرسل مربوب مبعوث مأمور، يؤدي ما سمع ويفعل ما حد له، ونحن نشرح هذا في موضعه من هذا الكتاب[٤] ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ثم قال: وقد وجدنا المسيح ﵇ احتاج إلى تكميل أمره بمعمودية يحيى له فصار إليه لذلك وسأله إياه، فليس مرتبة المقصود بدون مرتبة القاصد الراغب، وقال «لوقا» التلميذ في إنجيله: (إن يحيى المعمداني أرسل إلى المسيح بعد أن عمده وسأله أنت ذلك الذي تجيء أو نتوقع غيرك؟)[٥] فكان جواب المسيح لرسله أن: (ارجعوا فأخبروه بما ترون من عميان يبصرون، وزمنى ينهضون، وصم يسمعون، فطوبى لمن لم يغتر بي، أو يذل في أمري).

قال: فوجدنا يحيى مع محله وجلالة قدره عند الله ـ عز وجل ـ، ثم ما شهد به

---

(١) انظر: العهد القديم (ص ٣٤٠).
(٢) انظر: قاموس الكتاب المقدس (ص ٤٦).
(٣) انظر: العهد الجديد (ص٦، ٥٩).
(٤) أي: كتاب الحسن بن أيوب (إلى أخيه).
(٥) انظر: العهد الجديد (ص ١٤٠).

للمسيح له من أنه ما قامت النساء عن مثله. قد شك فيه فاحتاج إلى أن يسأله عن شأنه، ثم لم يكن من جواب المسيح له بشيء مما تصفون من الربوبية، ولا قال: إني خالقك وخالق كل شيء، كما في شريعة إيمانكم، بل حذر الغلط في أمره والاغترار، ولا كان من قوله أكثر مما ذكر أنه أظهر بنبوته من هذه الآيات التي سبق إلى مثلها أكثر الأنبياء.

قال: ولا رأينا يحيى زاد في وضعه إياه لما قرظه، وأعلا ذكره مع تشككه في أمره وحاجته إلى مسألته عن حاله على أن قال: (هو أقوى مني، وأني لا أستحق أن أحل معقد خفه)[(١)] ولم يقل: إنه خالقي، وقد يقول الرجل: الخير فيمن هو دونه مثل الذي قال يحيى فيه تواضعاً لله وخشوعاً كما قال المسيح في يحيى: (إنه ما قامت النساء عن مثله)[(٢)].

قال: فتركتم ما أتت به الرسل والنبوات في المسيح، وهو أصلكم الذي وقع عليه بناؤكم، وجعلتم لأنفسكم شريعة غيرها، ومثل الذين عقدوا هذه الشريعة لكم مثل من آمن بنبوة رجل ينتفي من النبوة؛ لأن المسيح عليه السلام يقول: إنه مربوب مبعوث، ويقول جبريل: إنه مكرم مصطفى، وأن أباه داود، وأن الله جعله ملكا على آل يعقوب، وينادي منادٍ من السماء بمثل ذلك، ويشهد يحيى بن زكريا على مثله، وتقولون: بل هو خالق أزلي، إلا أنه يستر نفسه، ويقول المسيح وغيره ممن سمينا: إنه معطى وأن الله معطيه، وتقولون: بل هو رازق النعم وواهبها، ويقول: إن الله أرسله، وتقولون: بل هو الذي نزل لخلاصنا، وتعتقدون سبب نزوله من السماء: أنه أراد أن يخلصكم، ويحتمل الخطيئة، ويربط الشيطان فقد وجدنا الخلاص لم يقع، والخطيئة قائمة لم تزل، والشيطان أعتى ما كان يربط، بل سلطه الله عليه على ما

(١) انظر: العهد الجديد (ص ١٤).
(٢) انظر: العهد الجديد (ص١٩).

تقولون، فحصره في الجبل أربعين يوماً يمتحنه، وقال له في بعض أحواله معه: (إن كنت ابن الله فقل لهذه الصخور تصير خبزاً، فقال له المسيح مجيباً له: إنه مكتوب أن حياة الإنسان لا تكون بالخبز[١]، بل بكل كلمة تخرج من الله، ثم ساقه الشيطان إلى مدينة بيت المقدس، وأقامه على قرنه الهيكل[٢]، وقال له: إن كنت ابن الله فارم بنفسك من هاهنا، فإنه مكتوب إن الملائكة توكل بك، لئلا تعثر رجلك بالحجر، قال يسوع ومكتوب أيضاً: لا تجرب الرب إلهك، ثم ساقه إلى جبل عال، وأراه جميع مملكات الدنيا وزخارفها، وقال له: إن خررت على وجهك ساجداً لي جعلت هذا الذي ترى كله لك. قال له المسيح: اغرب أيها الشيطان فإنه مكتوب اسجد للرب إلهك، ولا تعبد شيئا سواه، ثم بعث الله ـ عز وجل ـ ملكاً اقتلع العدو من مكانه ورمى به في البحر، وأطلق السبيل للمسيح).

وقال: أفلا يعلم من كان في عقله أدنى مسكة، أن هذا الفعل لا يكون من شيطان إلى إله، ولو كان إلهاً لأزاله عن نفسه، قبل أن يأتيه الملك من عند ربه، ولما قال: (أمرنا أن لا نجرب الله، وأن نسجد للرب ولا نعبد شيئاً سواه)، وكيف لم يربط الشيطان عن نفسه قبل أن يربطه عن أمته.

قال: فهذه أمور إذا تأملها المتأمل قبحت جداً، وكثر اختلافها، واشتد تناقضها واضطرابها.

قال: ومما يعجب منه أنكم تعتقدون أن الابن الأزلي اتحد بالمسيح، فصارا بجهة واحدة، ولم يفارقه قط منذ اتحد به، ومكث على ذلك في بطن أمه تسعة أشهر، ثم أقام مولوداً، وتغذى باللبن، ومربوباً صبياً مغذى بالأغذية إلى أن بلغ ثلاثين سنة لا يظهر منه شيء من آلة الربوبية، ولا أمر يوجب هذا المحل، ولا كان بينه وبين نظرائه

---

(١) انظر: إنجيل متى (٤/ ٣).

(٢) انظر: الموسوعة العربية الميسرة (ص ١٩٣٠).

من الآدميين فرق، ولا سطع منه نور، ولا ظهرت له سكينة، ولا حفته الملائكة بالتهليل، ولا ألم به الشعث بعد ذلك فوق ما كان من الأنبياء قبله، فقد كلم الله موسى من العوسجة كيف شاء، فأشرق ما حولها نوراً، وكلمه من طور سيناء[(١)] فاضطربت في الجبل النيران، والتبس وجهه النور الساطع حتى كان يتبرقع إذا جلس مع بني إسرائيل بعد ذلك؛ لأنهم كانوا لا يستطيعون النظر إليه[(٢)]، ثم سأل موسى ربه ـ عز وجل ـ لما قرب منه، فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] من صعقته استغفر ربه فتاب عليه، وتجلى مجد الله لجماعة من الأنبياء فرأوا حول مجده ربوات الملائكة.

وقال داود: (يا رب إنك حيث عبرت ببلاد سنين تزلزلت الأرض منك، وانفطرت من هيبتك)[(٣)] وقال أيضاً كالمخاطب للبحر والجبال والمتعجب منها: (ما لك أيها البحر هارباً وأنت يا نهر الأردن لم وليت راجعاً، وما لك أيتها الجبال تنفرين كالأبابيل، وما لكن أيتها الشوامخ والهضبات تنزو نزو الشياء) ثم قال كالمجيب عنهم: (من قدام الرب تزلزلت البقاع)[(٤)].

قال: فإن كان المسيح هو الأزلي الخالق أو كان متحدا به فكيف لم ترجف بين يديه الجبال، ولم تتصرف عن مشيئته الأنهار والبحار، أو كيف لم تظهر منه آيات باهرات أجل من آيات الأنبياء قبله، مثل المشي على متون الهوى، والاضطجاع على أكتاف الرياح، والاستغناء عن المآكل والمشارب وإحراق من قرب منه من الشياطين والجن،

---

(١) هو جبل الطور الذي بالشام: جبل ببيت المقدس، قال: ممدود هو بين مصر وبين آيلة، وقال آخرون: معناه أنه جبل ذو شجر، انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٣٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٩١) وتفسير السيوطي (٣/ ٥٤٤).

(٣) انظر: العهد القديم (ص ٨٨٥).

(٤) انظر: العهد القديم (ص٩١٣).

كما أحرق إيليا من قرب منه من جند آحاب الملك، ويمنع الآدميين من نفسه، وما فعلوا على زعمكم بجسمه ليعلم الناس أنه خالقهم، أو أنه هيكل الخالق.

قال: ووجدناكم تقولون: إن الابن إنما يسمى ابن الله وكلامه؛ لأنه تولد من الأب وظهر منه فلم نقف على معنى ذلك؛ لأن شريعة إيمانكم تقول: إن الروح أيضاً تخرج من الأب، فإن كان الأمر كما تقولون: فالروح أيضاً ابن؛ لأنها تخرج عن الله ـ تعالى ـ وإلا فما الفرق بينهما؟

قال: ولم نفهم أيضاً قولكم: إن الابن تجسد من روح القدس، وأن روح القدس ساقه إلى البر ليمتحنه الشيطان، فما كانت حاجة الابن إلى أن تكون الروح ـ وهي في قولكم مثله ـ تدبره وتغيره من حال إلى حال أو ما علمتم أن الغير السابق المدبر فاعل والمسبوق المدبر مفعول به، فالابن إذن دون الروح وليس مثله؛ لأن الأزلي لا ينفك من الأزلي وهو مثله.

قال: وإن كان المسيح من روح القدس، كما قال جبريل الملك لأمه مريم، فلِمَ سميتموه كلمة الله وابنه، ولم تسموه روحه؟! فإنما قال لها الملك: إن الذي تلدين من روح القدس، والروح غير الابن، ولو كان المعنى واحدا لما قالت الشريعة: إنه تجسد من روح القدس، وإن روح القدس ساقه إلى البر، وإن روح القدس نزل عليه، ولم تثلثون به في إيمانكم، فتقولون: نؤمن بالأب والابن والروح القدس؟

قال[1]: ووجدناكم تقولون: أيتها النسطورية إن لله علماً وحكمةً هما الابن، وحياة هي الروح قديمين، ولعلمه وحياته ذات كذات الله، وذلك أن علم الله له علم وحياة، ولحياته التي هي روحه علم وحياة، وأن الله الأب لما رأى استيلاء العدو على خلقه، ونكول الأنبياء عن مناوأته، أرسل إليه ابنه الفرد وحبيبه، وجعله فداء ووفاء للناس أجمعين، وأن ابنه نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار

---

(١) يقصد الحسن بن أيوب.

إنساناً ثم ولد ونشأ، وعاش ثلاثين سنة، يتقلب بين بني إسرائيل كواحد منهم يصلي في كنائسهم، ويستن بسننهم، لا يدعي دينا غير دينهم، ولا ينتحل رسالة ولا نبوة ولا بنوة، حتى إذا انقضت تلك السنون أظهر الدعوة، وجاء بالآيات الباهرة والبراهين المشهورة، فأنكرته اليهود وقتلته وصلبته، ثم صعد إلى السماء.

وصدقتم بشريعة الإيمان، وكفرتم من خالفها، ثم لم تلبثوا أن خلعتموها وانسلختم منها، وقلتم: إن المسيح جوهران وأقنومان: جوهر قديم، وجوهر حديث، ولكل جوهر أقنوم على حياله، وأن الله جوهر قديم يقوم بمعنيين، فهو واحد يقوم بثلاثة معان، وثلاثة لها معنى واحد، كالشمس التي هي شيء واحد، ولها ثلاثة معان: القرص، والحر، والنور.

فالمسيح هو الله وهو مبعوث غير أنه ليس يعبد.

فكان معنى قولكم هذا أن المسيح مولود لكنه ليس مفعولاً به وهو مبعوث مرسل، لكنكم تستحيون أن تسموه رسولا، إذ كنتم لا تفرقون بين الله وبينه في شيء من الأشياء، وأقبلتم على الملكانية واليعقوبية بالتكفير واللعن لقولهم: إن الله والمسيح شيء واحد، ثم لم تلبثوا أن قدمتم المسيح على الله ـ تبارك وتعالى ـ وبدأتم به في التمجيد، ورفعتم إليه تهاليلكم ورغائبكم في أوقات القرابين خاصة، وهي أجل صلواتكم، وأفضل محافلكم عندكم، فإنه يقوم الإمام منكم على المذبح من مذابحكم وأهله مرعوبون فتتوقعون نزول روح القدس، بزعمكم من السماء بدعائه.

فيفتتح دعاءه ويقول: (ليتم علينا وعليكم نعمة يسوع المسيح، ومحبة الله الأب، ومشاركة روح القدس إلى دهر الداهرين). ثم يختم صلاته بمثل ذلك، فهذا تصريح بالشرك وتصغير لعظمة الله وعزته أن جعلتم النعم والمواهب لمن هو دونه، وهو معطى ومخول من عند الله على قولكم، وجعلتم لله بعد المسيح محبة ولروحه مشاركة.

قال: ووجدناكم قد عبتم على اليعقوبية قولهم: إن مريم ولدت الله ـ عز الله وجل عن ذلك ـ، وفي شريعة الإيمان التي بيناها ـ المجتمع عليها ـ أن المسيح إله

حق، وأنه ولد من مريم، فما معنى المنافرة، وما الفرق، وما تنكرون من قولهم: إن المقتول المصلوب هو الله ـ عز الله وجل عن ذلك ـ.

شريعة إيمانكم تقول: نؤمن بالرب المسيح الذي من خبره وحاله الذي ولد من مريم، وتألم وصلب على عهد الملك «بيلاطس» النبطي، ودفن وقام في اليوم الثالث، أليس هذا إقراراً بمثل قولهم؟ فتدبروا هذا القول يا أولي الألباب.

فإنكم إن قلتم: إن المقتول المصلوب هو الله، فإن مريم عندكم ولدت الله.

وإن قلتم: إنه إنسان فإن مريم ولدت إنساناً، وبطلت الشريعة، فأي القولين اخترتموه ففيه نقض دينكم.

ثم عبتم على الملكانية قولهم: إنه ليس للمسيح إلا أقنوماً واحداً؛ لأنه صار مع الأزلي الخالق شيئا واحدا لا فرق بينهما، وقلتم بأن له أقنومين، لكل جوهر أقنوم على حياله، ثم لم تلبثوا أن رجعتم إلى مثل قولهم، فقلتم: إن المسيح، وإن كان مخلوقاً من مريم مبعوثاً، فإنه هيكل لابن الله الأزلي، ونحن لا نفرق بينهما، فإذا كان الأمر عندكم على هذا فما تنقمون على الملكية، وما معنى الافتراق، وقد رجعتم في الاتحاد إلى مثل قولهم: إن هذا الأمر تحار فيه الأفهام.

فإن كانت الشريعة بمعنى الأمانة عندكم حقاً، فالقول ما قال يعقوب. وذلك أنا إذا ابتدأنا من الشريعة في ذكر المسيح، ثم نسقنا المعاني نسقاً واحداً، وانحدرنا فيها إلى آخرها، وجدنا القوم الذين ألفوها لكم قد صححوا أن يسوع المسيح هو ابن الله، وهو بكر الخلائق كلها، وهو الذي ولد من مريم ليس بمصنوع، وهو إله حق من إله حق من جوهر أبيه، وهو الذي أتقن العوالم وخلق كل شيء على يده، وهو الذي نزل لخلاصكم، فتجسد وحملته مريم وولدته وقتل وصلب، فمن أنكر قول اليعقوبية لزمه أن ينكر هذه الشريعة التي تشهد بصحة قولهم، ويلعن من ألفها.

قال: وإنما أخذت تلك الطائفة ـ يعني الذين وضعوا الأمانة ـ بكلمات، ـ وذكروا أنهم وجدوها في الإنجيل ـ مشكلات تأولت فيها ما وقع بهواها، وتركت

ما في الإنجيل من الكلام البين الواضح، الذي يشهد بعبودية المسيح، وشهادته بذلك على نفسه، وشهادة تلاميذه به عليه. فأخذت بالمشكل اليسير، وجعلت له ما أحبت من التأويل، وألغت الواضح الكثير الذي لا يحتاج إلى تأويل.

قال: فأما احتجاجكم بالشمس، وأنها شيء واحد له ثلاثة معان، وتشبيهكم ما يقولونه في الثلاثة الأقانيم بها، فإن ذلك تمويه لا يصح، لأن نور الشمس لا يحد بحد الشمس، وكذلك حرها لا يحد بحد الشمس، إذ كان حد الشمس جسماً مستديراً مضيئاً مسخناً دائراً في وسط الأفلاك دوراناً دائماً، ولا يتهيأ أن يحد نورها وحرها بمثل هذه الصفة، ولا يقال: إن نورها أو حرها جسم مستدير مضيء مسخن دائم الدوران، ولو كان نورها وحرها شمساً حقاً من شمس حق من جوهر الشمس، كما قالت الشريعة في المسيح: إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه، لكان ما قلتم له مثلاً تاماً، والأمر مخالف لذلك، فلا يشبهه ولا يقع القياس عليه، والحجة منكم فيه باطلة.

قال: ووجدناكم تذكرون أن المسيح نزل من السماء، فأبطل بنزوله الموت والآثام، فإن العجب ليطول من هذا القول، وأعجب منه مَنْ قَبِلَهُ، ولم يتفكر فيه، وممن لم يستقبح أن يعتقد ديانة لله ـ تبارك وتعالى ـ على مثل هذا القول المحال البائن عما تشهد به العقول، وتنبيء به المشاهدة، ويدعو الناس إليها، فما هو ببعيد من عقد ما هو أمحل وأبطل منها؛ لأنه إن كانت الخطيئة بطلت بمجيئه، فالذين قتلوه إذا ليسوا خاطئين ولا مأثومين، لأن لا خاطيء بعد مجيئه ولا خطيئة.

وكذلك أيضا الذين قتلوا حواريه وأحرقوا أسفاره غير خاطئين، وكذلك من يراه من جماعتكم، منذ ذلك الدهر إلى هذا الوقت يقتل ويسرق ويزني ويلوط ويسكر ويكذب، ويركب كل ما نهى عنه من الكبائر وغيرها غير خاطئين، ولا مأثومين. فمن جحد ذلك فليرجع إلى التسبيحة التي تقرأ بعقب كل قربان، وهو أن (يا ربنا الذي غلب بوجعه الموت الطاغي).

وفي الأخرى التي تقال في يوم الجمعة الثانية من الفصح: (إن فخرنا بالصليب

الذي بطل به سلطان الموت وصرنا إلى الأمن والنجاة بسببه).

وفي بعض التسابيح (بصلوات ربنا يسوع المسيح بطل الموت، وانطفأت فتن الشيطان، ودرست آثارها) فأي خطيئة بطلت؟ وأي فتنة للشيطان انطفأت، أو أي أمر كان الناس عليه قبل مجيئه من المحارم والآثام تغير عن حالته.

قال: فإذا كان التمويه يقع فيما يلحقه كل أحد بالمعرفة والبيان، فهو فيما أشكل من الأمور وفعل بالتأويلات ـ التي تأولها أولئك المتأولون ـ أوقع.

وإذا كنتم قد قبلتم هذا المحال الظاهر الذي لا خفاء به عن الصبيان، فأنتم لما هو أعظم منه من المحال أقبل، وهذا إنجيلكم يكذب هذا القول، حيث يقول المسيح فيه: (ما أكثر من يقول لي يوم القيامة: يا سيدنا أليس باسمك أخرجنا الشيطان، فأقول: اغربوا عني أيها الفجرة الغاوون، فما عرفتكم قط)[1]، فهذا خلاف قول علمائكم ما قالوا، ووضعهم لكم ما وضعوا، ومثله قوله: (إني جامع الناس يوم القيامة عن ميمنتي وميسرتي، وقائل لأهل الميسرة: إني جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، وكنت غريباً فلم تأووني، ومحبوساً فلم تزوروني، ومريضاً فلم تعودوني، فاذهبوا إلى النار المعدة لكم من قبل تأسيس الدنيا).

وأقول لأهل الميمنة: (فعلتم بي هذه الأشياء، فاذهبوا إلى النعيم المعد لكم من قبل تأسيس الدنيا)، فهل أدخل أولئك النار إلا خطاياهم التي ركبوها، وهل صار هؤلاء إلى النعيم إلا بأعمالهم الجميلة التي قدموها بتوفيق الله إياهم، فمن قال: إن الخطيئة قد بطلت فقد بهت، وقد خالف قول المسيح، وكان هو من الكاذبين.

قال: ويا أيها القوم الذين هم أولوا الألباب والمعرفة، حيث ينسبونه إلى الربوبية وينحلونه اللاهوتية، ويجعلونه خالق الخلق أجمعين وإلههم، بماذا ساغ ذلك لكم، وما الحجة فيه عندكم؟

(١) انظر: العهد الجديد (ص١٢).

هل قالت كتب النبوات فيه ذلك، أو هل قاله عن نفسه، أو قاله أحد عن تلامذته، والناقلين عنه، الذين هم عماد دينكم وأساسه، ومن أخذتم الشرائع والسنن عنه؟ ومن كتب الإنجيل وبينه، قد أفصح في كل الإنجيل من كلامه ومخاطبته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بأنه عبد مثلكم ومربوب معكم، ومرسل من عند ربه وربكم، ومبدي ما أمر به فيكم، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته، ووصفوه لمن سأل عنه.

وفي كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله ـ عز وجل ـ ونبي له قوة وفضل، فتأولتم في ذلك أنه أخرج كلامه على معنى الناسوت، ولو كان كما تقولون لأفصح عن نفسه بأنه إله كما أفصح بأنه عبد، ولكنه ما ذكره ولا ادعاه، ولا دعا إليه، ولا ادعته له كتب الأنبياء قبله ولا كتب تلامذته، ولا حُكي عنهم ولا أوجبه كلام جبريل الذي أداه إلى مريم، ولا قول يحيى بن زكريا.

قال: فإن قلتم إنكم استدللتم على ربوبيته بأنه أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، ومشى على الماء، وصعد إلى السماء، وصيَّر الماء خمراً، وكثَّر القليل، فيجب الآن أن ينظر إلى كل من فعل من هذه الأمور فعلاً فنجعله ربّاً وإلهاً، وإلا فما الفرق؟ فمن ذلك أن كتاب «سفر الملوك» يخبر أن إلياس أحيا ابن الأرملة، وأن اليسع[1] أحيا ابن الإسرائيلية[2]، وأن «حزقيال» أحيا بشراً كثيراً، ولم يكن أحد ممن ذكرنا بإحيائه الموتى إلهاً.

وأما إبراء الأكمه فهذه التوراة تخبر أن يوسف[3] أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت[4]، وهذا موسى طرح العصا فصارت حية لها عينان تبصر بهما، وضرب بها

---

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس (ص١١١).
(٢) انظر: العهد القديم (ص٥٨٩).
(٣) انظر: قاموس الكتاب المقدس (ص١١١٥).
(٤) انظر: العهد القديم (ص٧٨).

الرمل فصار قملا لكل واحدة منها عينان تبصر بهما، ولم يكن واحد منهم بذلك إلهاً.

وأما إبراء الأبرص، فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلا من عظماء الروم برص فرحل من بلده قاصدا اليسع عليه السلام ليبرئه من برصه، فأخبر الكتاب بأن الرجل وقف بباب اليسع أياما لا يؤذن له: فقيل لليسع: إن ببابك رجلاً يقال له «نعمان»[١]، وهو أجل عظماء الروم به برص، وقد قصدك لتبرئه من مرضه، فإن أذنت له دخل إليك، فلم يأذن له وقال لرجل من أصحابه: اخرج إلى هذا الرجل، فقل له: ينغمس في الأردن سبع مرات، فأبلغ الرسول لنعمان ما أمره به اليسع، ففعل ذلك، فذهب عنه البرص، ورجع قافلاً إلى بلده فأتبعه خادم اليسع، فأوهمه أن اليسع وجه به إليه يطلب منه مالاً فسر الرجل بذلك، ودفع إلى الخادم مالاً وجوهراً، ورجع فأخفى ذلك وستره.

ثم دخل إلى اليسع فلما مثل بين يديه، قال له: تبعت نعمان وأوهمته عني كذا وكذا، وأخذت منه كذا وأخفيته في موضع كذا، إذ فعلت الذي فعلت به فليصر برصه عليك وعلى نسلك، فبرص ذلك الخادم على المكان[٢].

قال: فهذا اليسع قد أبرأ أبرصا وأبرص صحيحاً، وهو أعظم مما فعل المسيح عليه السلام، فلم يكن في فعله ذلك إلهاً.

قال: وأما قولكم: إنه مشى على الماء، فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس عليه السلام صار إلى الأردن، ومعه اليسع تلميذه، فأخذ عمامته فضرب بها الأردن، فاستيبس له الماء حتى مشى عليه هو واليسع، ثم صعد إلى السماء على فرس من نور، واليسع يراه، ودفع عمامته إلى اليسع، فلما رجع اليسع إلى الأردن ضرب بها الماء فاستيبس له حتى مشى عليه راجعاً[٣]، ولم يكن واحد منهما بمشيه على الماء إلهاً، ولا

(١) قاموس الكتاب المقدس (٩٧٣).

(٢) انظر: العهد القديم (ص ٥٩٠).

(٣) انظر: العهد القديم (٥٨٤).

كان إلياس بصعوده إلى السماء إلهاً.

قال: وأما قولكم: إنه صيَّر الماء خمراً، فهذا كتاب سفر الملوك يخبر بأن اليسع نزل بامرأة إسرائيلية فأضافته وأحسنت إليه، فلما أراد الانصراف، قال لها: هل لك من حاجة؟ فقالت المرأة: يا نبي الله إن على زوجي ديناً قد فدحه، فإن رأيت أن تدعو الله لنا بقضاء ديننا فافعل، فقال لها اليسع: اجمعي كل ما عندك من الآنية واستعيري من جيرانك جميع ما قدرت عليه من آنيتهم ففعلت، ثم أمرها فملأت الآنية كلها ماء فقال: اتركيه ليلتك هذه، ومضى من عندها فأصبحت المرأة، وقد صار ذلك الماء كله زيتاً فباعوه فقضوا دينهم(١).

وتحويل الماء زيتاً أبدع من تحويله خمراً. ولم يكن اليسع بذلك إلهاً.

وأما قولكم: المسيح عليه السلام كثّر القليل حتى أكل خلق كثير من أرغفة يسيرة، فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس نزل بامرأة أرملة وكان القحط قد عمَّ الناس وأجدبت البلاد ومات الخلق ضراً وهزلاً، وكان الناس في ضيق، فقال للأرملة: هل عندك طعام؟ فقالت: والله ما عندي إلا كفٌّ من دقيق في قلة، أردت أن أخبزه لطفل لي، وقد أيقنا بالهلاك لما الناس فيه من القحط.

فقال لها: أحضريه فلا عليك فأتته به فبارك عليه فمكث عندها ثلاث سنين وستة أشهر تأكل هي وأهلها وجيرانها منه حتى فرَّج الله عن الناس(٢)، فقد فعل إلياس في ذلك أكثر مما فعل المسيح؛ لأن إلياس كثّر القليل وأدامه، والمسيح كثّر القليل في وقت واحد، ولم يكن إلياس بفعله هذا إلهاً.

قال: فإن قلتم: إن هؤلاء الأنبياء ليس لهم صنع في هذه الأفعال وإن الصنع فيها والقدرة لله ـ عز وجل ـ إذ كان هو الذي أجراها على أيديهم ـ فقد صدقتم ـ

---

(١) انظر: العهد القديم (ص٥٨٧).

(٢) انظر: العهد القديم (٥٦٨).

ونقول لكم ـ أيضا ـ كذلك المسيح ليس له صنع فيما ظهر على يديه من هذه الأعاجيب، إذ كان الله هو الذي أظهرها على يديه، فما الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء، وما الحجة في ذلك؟

قال: وإن قلتم: إن الأنبياء كانت إذا أرادت أن يظهر الله على أيديهم آية تضرعت إلى الله، ودعته وأقرت له بالربوبية، وشهدت على أنفسها بالعبودية.

قيل لكم: وكذلك سبيل المسيح، سبيل سائر الأنبياء، قد كان يدعو ويتضرع ويعترف بربوبية الله ويقر له بالعبودية، فمن ذلك أن الإنجيل يخبر بأن المسيح أراد أن يُحيي رجلًا يقال له العازر، فقال: (يا أبي أدعوك كما كنت أدعوك من قبل فتجيبني وتستجيب لي، وأنا أدعوك من أجل هؤلاء القيام ليعلموا)[(١)]، وقال: (بزعمكم وهو على الخشبة إلهي إلهي لم تركتني)، وقال: (يا أبي اغفر لليهود ما يعملون فإنهم لا يدرون ما يصنعون)[(٢)].

وقال في إنجيل متى: (يا أبي أحمدك)[(٣)]، وقال: (يا أبي إن كان بد أن يتعداني هذا الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا فلتكن مشيئتك)[(٤)]. وقال أيضا: (أنا أذهب إلى إلهي الذي هو أعظم مني)[(٥)]، وقال: (لا أستطيع أن أصنع شيئاً ولا أتفكر فيه إلا باسم إلهي)[(٦)]، وقال: يعني نفسه (لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده، ولا للرسول أن يكون أعظم ممن أرسله)[(٧)].

---

(١) انظر العهد الجديد (ص١٦٨ ـ ١٦٩).
(٢) انظر العهد الجديد (ص١٤١).
(٣) انظر العهد الجديد (ص١١٣).
(٤) انظر العهد الجديد (ص٥٠).
(٥) انظر العهد الجديد (ص١٧٦).
(٦) انظر العهد الجديد (ص١٦٢).
(٧) انظر العهد الجديد (ص ١٧٤).

وقال: (إن الله لم يلد ولم يولد ولم يأكل ولم يشرب ولم ينم ولم يره أحد من خلقه، ولا يراه أحد إلا مات)[١].

والمسيح قد أكل وشرب وولد ورآه الناس فما ماتوا من رؤيته، ولا مات أحد منهم، وقد لبث فيهم ثلاثاً وثلاثين سنة.

قلت: وعامة ما ذكره هذا عن الكتب تعترف به النصارى، ولكن بعضهم ينازعه في يسير من الألفاظ، فنازعه هنا في قوله: (لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده) وقال: هذا إنما قاله المسيح للحواريين، وذكر أنه لا يعرف عنه لفظ لم يولد ولم يأكل ولم يشرب.

قال: وقال في إنجيل «يوحنا»: (إنكم متى رفعتم ابن البشر فحينئذ تعلمون أني أنا هو وشيء من قبل نفسي لا أفعل، ولكن كل شيء كالذي علمني أبي)[٢]، وقال في موضع آخر: (من عند الله أرسلت معلماً)، وقال لأصحابه: (اخرجوا بنا من هذه المدينة، فإن النبي لا يحل في مدينته)[٣]، وأخبر الإنجيل أن امرأة رأت المسيح، فقالت: إنك لذلك النبي الذي كنا ننتظر مجيئه، فقال لها المسيح: (صدقت طوبى لك)[٤]، وقال لتلامذته: (كما بعثني أبي كذلك أبعث بكم)[٥].

قال: فاعترف بأنه نبي وأنه مألوه ومربوب و مبعوث، وقال لتلامذته: (إن من قبلكم وآواكم فقد قبلني، ومن قبلني فإنما يقبل من أرسلني، ومن قبل نبياً باسم نبي فإنما يفوز بأجر من قبل النبي)[٦].

---

(١) انظر العهد الجديد (ص ١٤٣).
(٢) انظر العهد الجديد (ص ١٦٢).
(٣) انظر العهد الجديد (ص ١٥٢).
(٤) انظر العهد الجديد (ص ١٥١).
(٥) انظر العهد الجديد (ص ١٨٦).
(٦) انظر العهد الجديد (ص ١٩).

فبين ها هنا في غير موضع أنه نبي مرسل، وأن سبيله مع الله سبيلهم معه. وقال «متى» التلميذ في إنجيله يستشهد على المسيح بنبوة أشعيا عن الله ـ عز وجل ـ: (هذا عبدي الذي اصطفيته، وحبيبي الذي ارتاحت إليه نفسي، أنا واضع روحي عليه ويدعو الأمم إلى الحق)(١)، فلن يُحتاج إلى حجة أوضح من هذا القول الذي جعلتموه حجة لكم، فقد أوضح الله أمره وسماه عبداً، وأعلم أنه يضع عليه روحه ويؤيده بها، كما أيد سائر الأنبياء بالروح، فأظهروا الآيات المذكورة عنهم، وهذا القول يوافق ما بشر به جبريل الملك مريم حين ظهر لها، وقال القول الذي سقناه في صدر كتابنا.

قال: وقال يوحنا التلميذ في الإنجيل عن المسيح عليه السلام: (إن كلامي الذي تسمعون هو كلام من أرسلني)(٢)، وقال في موضع آخر: (إن أبي أجلّ وأعظم مني)، وقال أيضاً: (كما أمرني أبي كذلك أفعل أنا، أنا الكرم وأبي هو الفلاح)(٣)، وقال يوحنا: (كما للأب حياة في جوهره، فكذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في قينومه)(٤)، قال: فالمعطي خلاف المعطَى لا محالة، والفاعل خلاف المفعول.

قال: وقال المسيح في إنجيل يوحنا: (إني لو كنت أنا الشاهد لنفسي على صحة دعواي لكانت شهادتي باطلة، لكن غيري يشهد لي، فأنا أشهد لنفسي ويشهد لي أبي الذي أرسلني)(٥)، وقال المسيح لبني إسرائيل: (تريدون قتلي، وأنا رجل قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقوله)(٦).

قال: وقال في الرجل الذي أقامه من الموتى: (يا أبي أشكرك على استجابتك

---

(١) انظر العهد الجديد (ص ٢١).

(٢) انظر العهد الجديد (ص ١٧٦).

(٣) انظر العهد الجديد (ص ١٧٦).

(٤) انظر العهد الجديد (ص ١٥٤).

(٥) انظر العهد الجديد (ص ١٥٤).

(٦) انظر: العهد الجديد (ص ١٦٣).

دعائي وأعترف لك بذلك، وأعلم أنك كل وقت تجيب دعوتي، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني)[(١)].

قال: فأي تضرع وإقرار بالرسالة والمسألة والطلب للإجابة من الله ـ عز وجل ـ أشد من هذا أو أكثر.

قال: وقال في بعض مخاطبته لليهود، وقد نسبوه إلى الجنون: (أنا لست بمجنون، ولكن أُكْرِمُ أبي ولا أحب مدح نفسي، بل مدح أبي لأني أعرفه، ولو قلت: إني لا أعرفه لكنت كذاباً مثلكم، بل أعرفه وأتمسك بأمره)[(٢)].

قال: وقال داود في مزمور مائة وعشرة: (قال الرب: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لرجليك، عصا العظمة تبعث الرب من صهيون، ويبسط على أعدائك شعبك يا مسيح يوم الرعب في بهاء القدس من اليوم ولدتك يا صبي، عهد الرب ولا يكذب أنك أنت الكاهن المؤيد يشبه ملكيز داق).

قال: فهذه مخاطبة ينسبونها إلى اللاهوت، وقد أبان داود في مخاطبته أن لربه الذي ذكره ربا هو أعظم منه وأعلى، أعطاه ما حكيناه ومنحه ذلك وشهد عليه، إن عصا العظمة تبعث ربه هذا من صهيون وسماه صبياً محققاً لقوله الأول: اليوم ولدتك ونسقاً على أول كلامه وهو ربه، ووصف أنه الكاهن المؤيد الذي يشبه ملكيز داق.

قلت: قالوا: وهذا الكاهن هو الذي ذكر في التوراة أن الخليل أعطاه القربان، وإذا كان المسيح مشبها به مع تسميته كاهناً، كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه مخلوق.

قال: فأما قوله: (من البدىء، ولدتك) فهو يشبه قول داود (تبنني على نفسه من البدء. ذكرتك وهديت كل أعمالك).

وبعضهم يقول: لفظ النص: (إن الرب يبعث عصاه من صهيون)[(٣)].

---

(١) انظر: العهد الجديد (ص ١٦٩).

(٢) انظر: العهد الجديد (ص ١٦٣).

(٣) انظر: العهد القديم (ص ١٠٣٩).

قال: وقال شمعون الصفا[1] رئيس الحواريين في الفصل الثاني من قصصهم: (يا رجال بني إسرائيل اسمعوا مقالتي إن يسوع الناصري[2] رجل ظهر لكم من عند الله بالقوة والأيدي والعجائب التي أجراها على يديه، وأنكم أسلمتموه وقتلتموه، فأقام الله يسوع هذا من بين الأموات)[3].

قال: فأي شهادة أبين وأوضح من هذا القول، وهو أوثق التلاميذ عندكم يخبر كما ترون أن المسيح رجل وأنه من عند الله، وأن الآيات التي ظهرت منه بأمر الله أجراها على يديه، وأن الذي بعثه من بين الموتى هو الله ـ عز وجل ـ.

قال: وقال في هذا الموضع: (اعلموا أن الله جعل يسوع الذي قتلتموه ربا ومسيحاً)[4]، قال: فهذا القول يزيل تأويل من لعله يتأول في الفصل الأول أنه أراد بقوله الناسوت؛ لأنه يقول: إن الله جعله رباً ومسيحاً والمجعول مخلوق مفعول *
قال أبو نصر: وإنما سمى ناصري، لأن أمه كانت من قرية يقال لها «ناصرة»[5] في الأردن، وبها سميت النصرانية.

قال: وقد سمَّى الله ـ جل ثناؤه ـ يوسف ربّاً، قال داود في مزمور مئة وخمسة: (وللعبودية بيع يوسف، وشدوا بالكبول رجليه، وبالحديد دخلت نفسه حتى صدقت كلمته قول الرب جربه بعث الملك فخلاه وصيره مسلطاً على شعبه، وربّاً

---

(١) ورد ذكره عند ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٧١) وفي عمدة القاري (١٦/ ١٩) ومعجم البلدان (٢/ ٥١٧) (٣/ ٧٦).

(٢) ورد ذكره في معجم البلدان (٥/ ٢٥١).

(٣) انظر: العهد الجديد (ص ١٩١).

(٤) انظر: العهد الجديد (ص ١٩١).

(٥) الناصرة: فاعلة من النصر، قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً، فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ومنها اشتق اسم النصارى، وكان أهلها عيروا مريم، انظر: معجم البلدان (٥/ ٢٥١)، وانظر: الطبقات الكبرى (١/ ٥٣).

على بنيه ومسلطاً على فتيانه)[(١)].

وقال لوقا في آخر إنجيله: إن المسيح عرض له وللوقا[(٢)] تلميذه، جبريل في الطريق وهما محزونان فقال لهما، وهما لا يعرفانه: ما بالكما محزونين؟ فقالا: كأنك أنت وحدك غريب ببيت المقدس، إذ كنت لا تعلم ما حدث فيها في هذه الأيام من أمر يسوع الناصري، فإنه كان رجلاً نبياً قوياً في قوله وفعله عند الله وعند الأمة أخذوه وقتلوه) على قولهم فيه.

قال: فهذا قوله وأقوال تلاميذه قد تركتموها وعقدتم على بدع ابتدعها لكم أولوكم تؤدي إلى الضلالة والشرك بالله ـ جل ثناؤه ـ، وقال داود في المزمور الثاني في زبوره مخاطباً لله ومثنياً على المسيح: (مَنِ الرجل الذي ذكرته، والإنسان الذي أمرته وجعلته دون الملائكة قليلًا، وألبسته المجد والكرامات؟)[(٣)].

وقال في المزمور الثاني: (قال لي الرب: أنت ابني وأنا اليوم ولدتك، سلني فأعطيك)، فقوله: ولدتك دليل على أنه حديث غير قديم، وكل حادث فهو مخلوق، ثم أكد ذلك بقوله: (اليوم) فحد باليوم حدًّا لولادته، أزال به الشك في أنه ما كان قبل (اليوم) ودل بقوله: سلني فأعطيك، على أنه محتاج إلى المسألة غير مستغن عن العطية.

قال: فهذا ما حضرنا من الآيات في تصحيح خلق المسيح وعبوديته وبطلان ما يدعونه من ربوبيته، ومثله كثير في الإنجيل لا يحصى، فإذا كانت الشهادات منه على نفسه، ومن الأنبياء عليه ومن تلاميذه بمثل ما قد بيناه في هذا الكتاب.

وإنما اقتصرنا على الاحتجاج عليكم من كتبكم، فما الحجة فيما تدعونه له، ومن أي جهة أخذتم ذلك واخترتم الكلام الشنيع الذي يخرج عن المعقول، وتنكره النفوس، وتنفر منه القلوب الذي لا يصح بحجة ولا قياس ولا تأويل، على القول

---

(١) انظر: العهد القديم (ص ٩٠٦).

(٢) انظر: العهد الجديد (ص ١٤٣).

(٣) انظر: العهد القديم (ص ٨٣٨).

الجميل الذي تشهد به العقول، وتسكن إليه النفوس، ويشاكل عظمة الله وجلاله.

قال: وإذا تأملتم كل ما بيّناه تأمل إنصاف من أنفسكم وإشفاق عليها علمتم أنه قول لا يحتمل أن يتأول فيه للناسوت شيئاً دون اللاهوت.

قال: فإن قلتم: إنه يثبت للمسيح البنوة بقوله: (أبي وأبيكم(١) ـ ويا أبي ـ وبعثني أبي) قلنا: فإن كان الإنجيل أنزل على هذه الألفاظ لم تبدل ولم تغير، فإن اللغة قد أجازت أن يسمى الولي ابناً، وقد سماكم الله جميعا بنيه، وأنتم لستم في مثل حاله.

ومن ذلك أن الله ـ عز وجل ـ قال لإسرائيل في التوراة: (أنت ابني بكري)(٢)، وقال لداود في الزبور: (أنت ابني وحبيبي). وقال المسيح في الإنجيل للحواريين: (أريد أن أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم)(٣). فسمى الحواريين أبناء الله، وأقرَّ بأن له إلهاً هو الله، ومن كان له إله فليس بإله كما تقولون، فإن زعمتم أن المسيح إنما استحق الإلهية بأن الله سماه ابناً فلنلتزم ذلك، ونشهد بالإلهية لكل من سماه ابناً وإلا فما الفرق؟

قال: فإن قلتم: إن إسرائيل وداود ونظراءهم إنما سُمُّوا أبناء الله على جهة الرحمة من الله لهم، والمسيح ابن الله على الحقيقة، تعالى الله عن ذلك.

قلنا: يجوز لمعارض أن يعارضكم، فيقول لكم: ما تنكرون أن يكون إسرائيل وداود ابني الله على الحقيقة، والمسيح ابن رحمة، وما الفرق؟

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٢/ ٣٥): نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٢/ ٣٥): ثم قال تعالى ردًّا على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] أي نحن منتسبون إلى أنبيائه، وهم بنوه، وله بهم عناية وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم: أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥).

فإن قلتم: إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء، من قبل أن المسيح جاء إلى مُقْعَد فقال له: (قم قم فقد غفرت لك، فقام الرجل، ولم يدع الله في ذلك الوقت)[١].

قلنا لكم: هذا إلياس أمر السماء أن تمطر فأمطرت، ولم يدع الله في ذلك الوقت[٢]، وكذلك اليسع أمر نعمان الرومي أن ينغمس في الأردن من غير دعاء، ولا تضرع[٣]، على أنّا قد وجدناه في الإنجيل قد تضرع، وسأل مسائل قد تقدم ذكرها.

وقال في بعض الإنجيل: (يا أبي أشكرك على استجابتك دعائي، وأعلم أنك في كل وقت تجيب دعوتي، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني).

فإن قلتم: إن الغفران من الله ـ عز وجل ـ، وأن المسيح قال لبعض بني إسرائيل: (قم فقد غفرت لك) والله هو الذي يغفر الذنوب.

قلنا: فقد قال الله في السفر الخامس من التوراة لموسى: (أخرج أنت وشعبك الذي أخرجت من مصر، وأنا أجعل معكم ملكاً يغفر ذنوبكم)[٤].

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه غفر ذنوب المقعد، فالملك إذاً إله لأنه يغفر ذنوب بني إسرائيل، وإلا فما الفرق؟

فإن قلتم: إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن الله سماه ربّاً، فقال: (ابن البشر رب السبت)[٥].

قلنا: فهذه التوراة تخبر بأن لوطاً عليه السلام لما رأى الملكين قد أقبلا من البرية لهلاك

---

(١) انظر: العهدا الجديد (ص ٩٩).
(٢) انظر: العهد القديم (ص ٥٧١).
(٣) انظر: العهد القديم (ص ٥٩٠).
(٤) انظر: العهد القديم (ص ١٤٢).
(٥) انظر: العهد الجديد (ص ١٠١).

قومه، قال لهما: (يا ربي ميلاً إلى منزل عبدكما)[١]، وقد تقدم لنا احتجاج في هذا الكتاب بذكر من سمى في الكتب ربّاً من يوسف وغيره، فإن كان المسيح إلهاً؛ لأنه سمى ربًّا، فهؤلاء إذاً آلهة لأنهم سموا بمثل ذلك.

فإن قلتم: إن الأنبياء قد تنبأت بإلهية المسيح، فقال أشعيا: (العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعى اسمه «عمانويل»)، وتفسيره «معنا إلهنا».

قلنا: إن هذا اسم يعاره السيد الشريف من الناس، وإن كان الله عز وجل المنفرد بمعنى الإلهية ـ جل ثناؤه ـ فقد قال الله في التوراة لموسى عليه السلام: (قد جعلتك لهارون إلها وجعلته لك نبياً). وقال في موضع آخر: (قد جعلتك يا موسى إلهاً لفرعون).

وقال داود في الزبور لمن كانت عنده حكمة: (كلكم آلهة ومن العلية تدعون).

فإن قلتم: إن الله ـ عز وجل ـ جعل موسى إلهاً لهارون على معنى الرياسة عليه.

قلنا: وكذلك قال أشعيا في المسيح أنه إله لأمته على هذا المعنى. وإلا فما الفرق؟

فإن قلتم: إن المسيح قد قال في الإنجيل: (من رآني فقد رأى أبي، وأنا وأبي واحد).

قلنا: إن قوله: (أنا وأبي واحد) إنما يريد به أن قبولكم لأمري هو قبولكم لأمر الله، كما يقول رسول الرجل: أنا ومن أرسلني واحد، ويقول الوكيل: أنا ومن وكلني واحد؛ لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه، ويؤدي عنه ما أرسله به، ويتكلم بحجته، ويطالب له بحقوقه.

وكذلك قوله: (من رآني فقد رأى أبي)، يريد بذلك أن من رأى هذه الأفعال التي أظهرها فقد رأى أفعال أبي.

فإن قلتم: إن المسيح قد قال في الإنجيل: (أنا قبل إبراهيم)[٢]، فكيف يكون قبل إبراهيم، وإنما هو من ولده؟ ولكن لما قال قبل إبراهيم علمنا ما أراد أنه قبل

---

(١) انظر: العهد القديم (ص ٢٧).

(٢) انظر: العهد الجديد (ص ١٦٤).

إبراهيم من جهة الإلهية.

قلنا: هذا سليمان بن داود يقول في حكمته: (أنا قبل الدنيا وكنت مع الله حيث بدأ الأرض)(١)، فما الفرق بينه وبين من قال: إن سليمان ابن الله، وأنه إنما قال أنا قبل الدنيا بالإلهية.

وقد قال داود أيضاً في الزبور: (ذكرتك يا رب من البدء، وهديت بكل أعمالك)(٢).

فإن قلتم: إن كلام سليمان بن داود متأول، لأنهما من ولد إسرائيل، وليس يجوز أن يكونا قبل الدنيا.

قلنا: وكذلك قول المسيح: إنا قبل الدنيا. متأول؛ لأنه من ولد إبراهيم، ولا يجوز أن يكون قبل إبراهيم، فإن تأولتم تأولنا، وإن تعلقتم بظاهر الخبر في المسيح تعلقنا بظاهر الخبر في سليمان وداود، وإلّا فما الفرق؟

وقد قدمنا هذا الاحتجاج على تأويلكم لتعلموا بطلان ما ذهبتم إليه على أنه تأويل غير واقع بحقه، وإنما حقه أن يكون هذا الاسم يعني «عمانويل» لما وقع على المسيح كان معناه أنه أخبر عن نفسه بأن «إلهنا معنا»، يعني أن الله معه، ومع شعبه معيناً وناصراً.

ومما يصحح ذلك أنكم تتسمون به، ولو كان المعنى ما ذهبتم إليه لما جاز لأحد أن يتسمى به، كما لم يجز أن يتسمى بالمسيح لأنه مخصوص بمعناه.

فإن قلتم: إن تلاميذ المسيح كانوا يعلمون الآيات باسم المسيح.

قلنا لكم: فقد قال الله ـ جل ثناؤه ـ ليحيى بن زكريا: (قد أيدتك بروح القدس وبقوة إلياس، وهي قوة تفعل الآيات) فأضاف القوة إلى إلياس.

(١) انظر: العهد القديم (ص ٩٤٥).
(٢) انظر: العهد القديم (ص ٩١٨).

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه فعلت الآيات باسمه، فما الفرق بينكم وبين من قال: إن إلياس إله فإنه فعلت بقوته الآيات؟ فإن قلت: إن الخشبة التي صُلب عليها المسيح على زعمكم ألصقت بميت فعاش، فإن هذا دليل على أنه إله.

قلنا لكم: فما الفرق بينكم وبين من قال: إن اليسع إله؟ واحتج في ذلك (بأن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلاً مات فحمله أهله إلى المقبرة، فلما كانوا بين القبور رأوا عدوًّا لهم يريد أنفسهم، فطرحوا الميت عن رقابهم وبادروا إلى المدينة، وكان الموضع الذي ألقوا عليه الميت قبر اليسع فلما أصاب ذلك الميت تراب قبر اليسع عاش، وأقبل يمشي إلى المدينة)[1]، فإن زعمتم أن المسيح إله لأن الخشبة التي ذكروا أنه صلب عليها ألصقت بميت فعاش، فاليسع إله لأن تراب قبره لصق بميت فعاش.

فإن قلتم: إن المسيح كان من غير فحل، قلنا لكم: قد كان كذلك، وليس أعجوبة الولادة توجب الإلهية ولا الربوبية؛ لأن القدرة في ذلك للخالق - تبارك وتعالى - لا للمخلوق، وعلى أنه يوجدكم؛ لأن حواء خلقت من فحل بلا أنثى، وخَلْقُ أنثى من ذكر بلا أنثى أعجب من ذكر من أنثى بغير ذكر، وأعجب من ذلك أن آدم خلقه الله من تراب، وخلق بشر من تراب أعجب وأبدع من خلق ذكر من أنثى بلا فحل، فما الفرق؟

قال: وهذه الأسباب التي ذكرناها كلها هي الأسباب التي تتعلقون بها في نحلتكم المسيح الربوبية وإضافتكم إليه الإلهية، وقد وصفناها على حقائقها عندكم وقبلنا فيها قولكم، وإن كنا لا نشك في أن أهل الكتاب قد حرّفوا بعض ما فيها من الكلام عن مواضعه، وأوجدناكم بطول ما تنتحلونه، وفساد ما تتأولونه من الكتب التي في أيديكم التوراة والزبور والأنبياء والإنجيل، فما الذي يثبت الحجة بعد ذلك لكم؟

قال: وقد قال السيد المسيح في الإنجيل لتلاميذه لما سألوه عن الساعة والقيامة:

---

(١) انظر: العهد القديم (ص ٦٠٧).

(إن ذلك اليوم، وتلك الساعة لا يعرفه أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن أيضاً، ولكن الأب وحده يعرفه). قال: فهذا إقرار منه بأنه منقوص العلم، وأن الله ـ تبارك وتعالى ـ أعز وأعلم منه، وأنه خلافه وأعلا منه، وقد بين بقوله أحد عمومه بذلك الخلق جميعاً، ثم قال: (ولا الملائكة) وعندهم من علم الله ما ليس عند أهل الأرض، ثم قال: (ولا الابن)، وله من القوة ما ليس لغيره، وشهد قوله هذا شهادة واضحة عليه بأنه لا يعلم كل ما يعلمه الله، بل ما علّمه الله إياه وأطلعه على معرفته وجعله له، وأنه لقصور معرفته بكل الأشياء ليس بحيث يصفونه من الربوبية، وأنه هو الله ومن جوهر أبيه ـ تعالى الله الخالق لكل شيء علوًّا كبيراً ـ.

ولو كان إلهاً كما يقولون؛ لعلم ما يعلمه الله من سائر الأشياء وسرائر الأمور وعلانيتها، إذا كان هذا المعنى ليس من الكلام الذي إذا سئلتم عنه تعلقتم بأنه قيل للناسوت دون اللاهوت.

قلت: مقصوده بذلك أنه صرح بأنه لا يعلمه أحد، ثم خص الملائكة بالذكر، لئلا يظن أن أحداً منهم يعلمه، فقال: (ولا الملائكة الذين في السماء).

ثم قال: (ولا الابن يعرفه، وأن الأب وحده يعرفه) فنفى معرفة الابن، وأثبت أن الأب وحده يعرفه، ومراده بالابن المسيح فعرف أن المسيح لا يعرفه، وأثبت أن الرب يعرفه دون الابن، ودل ذلك على أن لفظ الابن عند المسيح، إنما يراد بها الناسوت وحده، إذ كان لا يجوز نفي العلم عن اللاهوت، فإن اللاهوت يعلم كل شيء. وقد دل ذلك على أن قوله: (عمدوا الناس باسم الأب والابن)، المراد به الناسوت وحده، كما أريد بلفظ الابن في سائر كلامه وكلام غيره لم يرد قط أحد منهم بلفظ الابن اللاهوت.

بل إطلاق الابن على اللاهوت مما ابتدعته النصارى، وحملوا عليه كلام المسيح، فابتدعوا لصفات الله أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وحملوا عليها كلام المسيح.

وإنما يحمل كلام الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وغيرهم على معنى لغتهم التي جرت

عادتهم بالتكليم بها لا على لغة يحدثها من بعدهم، ويحمل كلامهم عليها.

قلت: فإن هذا الذي فعلته النصارى وأشباههم يفتح باب الإلحاد في كتب الله المنزلة، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠]، وذلك أن كل من اعتقد معاني برأيه يمكنه أن يعبر عنها بألفاظ تناسبها بنوع مناسبة، وتلك الألفاظ موجودة في كلام الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لها معانٍ أخر، ويجعل تلك الألفاظ دالة على معانيه التي رآها، ثم يجعل الألفاظ التي تكلمت بها الأنبياء، وجاءت بها الكتب الإلهية، أرادوا بها معانيه هو.

وهكذا فعل سائر أهل الإلحاد في سائر الكتب الإلهية، كما فعلته النصارى.

مثل ما اعتمدت الملاحدة المتبعون لفلاسفة اليونان القائلون بأن هذه الأفلاك قديمة أزلية لم تزل ولا تزال، وأن الله لم يتكلم بالتوراة ولا غيرها من الكتب الإلهية، ولا هو عالم بالجزئيات لا بموسى بن عمران ولا بغيره، ولا هو قادر أن يفعل بمشيئة ولا يقيم الناس من قبورهم، فقالوا: خلق وأحدث وفعل وصنع ونحو ذلك يقال على الإحداث الذاتي، والإحداث الزماني.

فالأول: هو إيجاب العلة لمعلولها المقارن لها في الزمان.

والثاني: إيجاد الشيء بعد أن لم يكن.

ثم قالوا: ونحن نقول: إن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما وأحدث ذلك وأبدعه وصنعه، كما أخبرت بذلك الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، لكن مرادهم بذلك الإحداث الذاتي وهو أن ذلك معلول له لم يزل معه فيقال لهم: لم يستعمل أحد من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، بل ولا أحد من سائر الأمم لفظ الخلق والإحداث إلا فيما كان بعد عدمه، وهو ما كان مسبوقاً بعدمه ووجود غيره.

ومعنى هذا اللفظ معلوم بالاضطرار في جميع لغات الأمم.

وأيضاً فاللفظ المستعمل في لغة العامة والخاصة لا يجوز أن يكون معناه ما لا

يعرفه إلا بعض الناس، وهذا المعنى الذي يدعونه لو كان حقًّا لم يتصوره إلا بعض الناس. فلا يجوز أن يكون اللفظ العام الذي تداوله العامة والخاصة موضوعاً له، إذا كان هذا يبطل مقصود اللغات، ويبطل تعريف الأنبياء للناس. فكيف وهو باطل في صريح المعقول، كما هو باطل في صحيح المنقول، فإنه لم يعرف أن أحدًا قط عبر عن القديم الأزلي الذي لم يزل موجوداً، ولا يزال بأنه محدث أو مخلوق أو مصنوع أو مفعول، فهذا الذي ذكرتموه كذب صريح على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، لتوهموا الناس أنكم موافقون لهم، والكتب الإلهية كالتوراة والقرآن مصرحة بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، والقديم الأزلي لا يكون مخلوقاً في ستة أيام.

وكذلك الكتب الإلهية كالتوراة والقرآن قد أخبرت بتكليم الله لموسى، وبندائه إياه من الطور من الشجرة، وفي التوراة أنها شجرة العليق. وأخبرت بأن موسى عليه السلام كان يلقي عصاه فتصير حية تسعى، ويخبر بأن الله فلق له البحر.

فقالت الملاحدة: إن الشيء الثابت يسمى طوراً. فإنه ثابت كالجبل والقلوب تسمى أودية، وإظهار العلوم بتفجير ينابيع العلم والحجة المبتلعة كلام أهل الباطل هي عصا معنوية، فمراد الكتب بالطور العقل الفعال، الذي فاض منه العلم على قلب موسى عليه السلام، والوادي قلب موسى، والكلام الذي سمعه موسى سمعه من سماء عقله، وتلك الأصوات كانت في نفسه لا في الخارج، والملائكة التي رآها كانت أشخاصاً نورانية تمثلت في نفسه لا في الخارج، والبحر الذي فلقه هو بحر العلم، والعصا كانت حجته غلب على السحرة بحجته العلمية، فابتلعت حجته شبههم التي جعلوها حبالا يتوسلون بها إلى نيل أغراضهم، وعصيا يقهرون بها من يجادلونه.

أفليس من قال مثل هذا الكلام يعلم بالاضطرار أنه يكذب على الكتب الإلهية، التي أخبرت بقصة موسى كالتوراة والقرآن، وأنه ليس مراد الرسل بما أخبروا به من قصة موسى هذا.

بل صرحوا بأن موسى سمع نداء الله له، وأنه كلمه من الطور طور سينا الذي هو الجبل، وقلب عصاه التي كان يهش بها على غنمه ثعباناً عظيماً. وفلق له البحر، وأغرق فيه آل فرعون فغرقوا وماتوا فيه وهلكوا، وأمثال هذا من تحريفات الملاحدة كثير.

فهكذا النصارى حرَّفوا كتب الله، وسموا صفة الله القديمة الأزلية التي هي علمه أو حكمته ابناً، وسموها أيضاً كلمة، وسموا صفته القديمة الأزلية التي هي حياته روح القدس.

وتسمية هذه الصفات بهذه الأسماء لا توجد في شيء من كلام الأنبياء ولا غيرهم، ولا يعرف أن أحدا قط لا من الأنبياء ولا غيرهم سمى علم الله القائم به ابنه، بل ولاسمى علم أحد من العالمين القائم به ابنه، ولكن لفظ الابن يعبر به عمن وُلِدَ الولادة المعروفة، ويعبر به عمن كان هو سبباً في وجوده، كما يقال ابن السبيل لمن ولدته الطريق، فإنه لما جاء من جهة الطريق جعل كأنه ولده.

ويقال لبعض الطير ابن الماء؛ لأنه يجيء من جهة الماء، ويقال: كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا[1]، فإن الابن ينتسب إلى أبيه ويحبه، ويضاف إليه أي كونوا ممن ينتسب إلى الآخرة ويحبها، ويضاف إليها، وهذا اللفظ موجود في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب في حق الصالحين الذين يحبهم الله ويربّيهم.

كما ذكروا أن المسيح قال: (أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم).

وفي التوراة: أن الله قال ليعقوب: (أنت ابني بكري).

ونحو ذلك مما يراد به إذا كان صحيحاً له معنى صحيح، وهو المحبة له، والاصطفاء له والرحمة له، وكان المعنى مفهوماً عند الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومن

(١) يروى مرفوعًا عن شداد بن أوس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، يحق فيها الحق، ويبطل فيها الباطل، أيها الناس كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها ولدها» أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦٤ - ٢٦٥) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٥٩٨).

يخاطبونه، وهو من الألفاظ المتشابهة، فصار كثير من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل.

وزعم كثير من الكفار أن لله ـ سبحانه وتعالى ـ بنين وبنات، وأن الملائكة بناته.

وبعض من يقول بقدم العالم من المتفلسفة يقولون العقول العشرة هي بنوه، والنفوس الفلكية هي بناته، وهي متولدة عنه لازمة لذاته.

فجاء القرآن الذي هو أفضل الكتب وأكملها بإبطال هذه المعاني، ومنع استعمال هذا اللفظ في حق الله ـ تعالى ـ فنزه الله عن أن يتخذ ولدًا، كما نزهه عن أن يكون له ولد، والأول من باب تنزيهه عن الأفعال المذمومة، وهذا على قول جماهير المسلمين وغيرهم الذين ينزهون الله ويقدسونه عن الأفعال القبيحة التي لا تليق به، بل تنافي ما وجب له من الكمال في أفعاله، كما وجب له الكمال في ذاته وصفاته.

وأما من كان من المسلمين وغيرهم لا ينزه الله عن فعل من الأفعال إلا ما كان ممتنعاً لذاته، فأما الممكن المقدور فيقول: لا يعلم انتفاؤه إلا بالخبر أو بالعادة المطردة التي يمكن انتقاضها، فهذا لا يبقى معه ما ينفي به عن الله الأفعال المذمومة القبيحة.

والكتب الإلهية، قد نزهت الرب ـ عز وجل ـ عن الأفعال المذمومة، كما نزهته عن صفات النقص، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٦-٢٧]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [سورة النساء: ١٧١]. كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٠]. وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [سورة الإسراء: ١١١]. وقال تعالى عن المؤمنين: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [سورة آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ [سورة الفرقان: ١-٢]. وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢ ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١-٩٢]. وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ ﴾ [سورة الصافات: ١٥١-١٥٢]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص].

فكما نزه نفسه عن الولادة نزه نفسه عن اتخاذ الولد. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥ ﴾ [سورة مريم: ٨٨-٩٥]. وقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [سورة النساء: ١٧٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠ ﴾ [سورة آل عمران: ٨٠].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله ـ تعالى ـ: كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله أنَّى يعيدني كما بدأني؟! وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله:**

إني اتخذت ولدا. وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»(١).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم ليجعلون له ولدًا وشريكًا، وهو يرزقهم ويعافيهم»**(٢). ولهذا كان معاذ بن جبل يقول: لا ترحموا النصارى، فإنهم سبّوا الله مسبّة ما سبّه إياها أحد من البشر(٣).

فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية، وحرّمت أن يتكلم في حق الله باسم ابن أو ولد سدًّا للذريعة، كما منعت أن يسجد أحد لغير الله، وإن كان على وجه التحية(٤)، كما منعت أن يصلي أحد عند طلوع الشمس وغروبها، لئلا يشبه عباد الشمس والقمر(٥)، فكانت بسدها للأبواب التي تجعل لله فيها الشريك والولد أكمل من

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٧٤، ٤٩٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٩٩) ومسلم (رقم ٢٨٠٤).

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٢٧ رقم ١٠٤١) بلفظ مختلف عن معاذ أنه كان يقول: لا تلووا عليكم، يعني أهل الذمة ـ فإن الله ضرب على رقابهم بذل مغرم، وإنهم سبوا الله سبًّا لم يسبه أحد من خلقه، دعوا الله ثالث ثلاثة، وانظر: غريب الحديث للخطابي (٢/ ٣١١) وغريب الحديث للحربي (٣/ ١٠٧٤).

(٤) فعن معاذ بن جبل ؓ أنه أتى الشام فرأى النصارى يسجدون لأساقفتهم وقسيسيهم وبطارقتهم، ورأى اليهود يسجدون لأحبارهم ورهبانهم وربانيهم وعلمائهم وفقهائهم، فقال: لأي شيء تفعلون هذا؟ قالوا: هذه تحية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قلت: فنحن أحق أن نصنع بنبينا، فقال نبي الله ﷺ: «إنهم كذبوا على أنبيائهم، كما حرفوا كتابهم، لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظيم حقه عليها...» إلخ الحديث أخرجه الحاكم (٤/ ١٩٠ رقم ٧٣٢٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٩٢ رقم ١٤٤٨٨) والطبراني في الكبير (٥/ ٢٠٨ رقم ٥١١٦) (٨/ ٣١ رقم ٧٢٩٤) وأحمد (٤/ ٣٨١) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣١٠): رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح خلا صدقة بن عبد الله السمين وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه البخاري وجماعة.

(٥) قال رسول الله ﷺ: «صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة =

غيرها من الشرائع، كما سدت غير ذلك من الذرائع مثل تحريمها قليل المسكر[1]؛ لأنه يجر إلى كثيره، فإن أصول المحرمات التي قال الله فيها: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٣٣].

مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء بخلاف تحريم الطيبات عقوبة، فإن هذا جاء في شرع التوراة دون شرع القرآن، فإن الله أحل لأمة محمد الطيبات، وحرم عليهم الخبائث، وكذلك تكميل التوحيد من كل الوجوه، وسد أبواب الشرك من كل الوجوه، جاءت به هذه الشريعة مع اتفاق الأنبياء على إيجاب التوحيد وتحريم أن يجعل لله شريك أو ولد.

فإذا كان مراد المسيح ﷺ بالابن هو الناسوت، وهو لم يسم اللاهوت ابناً، وقد ذكر أن الابن لا يعلم الساعة. فتبين بذلك أن المسيح هو الناسوت وحده، وأنه لا يعلم الساعة، وهذا هو الحق. وإن قالوا: مراده بالابن اللاهوت أو اللاهوت والناسوت، لزم من ذلك أن اللاهوت أو اللاهوت والناسوت لا يعلم الساعة، وهذا باطل وكذب، وهو أيضًا مناقض لقولهم.

فدل هذا النص من المسيح مع سائر نصوصه ونصوص الأنبياء على أن مسمى الابن هو الناسوت وحده، وأنه لا يعلم ما يعلمه الله، وذلك صريح في أنه مخلوق ليس بخالق، ولا يجوز أن يكون هذا خطابًا للناسوت المتحد باللاهوت دون

=

حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل، فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار». أخرجه مسلم (رقم ٨٣٢) وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ١١٢) والتمهيد (٤/ ١٠-١٧) والديباج على مسلم (٢/ ٢٦٦) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/ ٦٥) وعون المعبود (٢/ ٦٠).

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٧٤).

اللاهوت، كما يتأوله عليه بعض النصارى؛ لأن كل ما علمه اللاهوت المتحد بالمسيح علمه الناسوت، ولأن الناسوت ليس هو الابن عندهم دون اللاهوت المتحد به، بل اسم الابن عندهم هو اللاهوت، ولأجل الاتحاد دخل فيه الناسوت، ولأنه لم يثبت إلا علم الأب وحده لم يستثن علم الابن الأزلي عندهم، بل نفى علم ما سوى الأب به، وهذا مناقض لقولهم من كل وجه.

فصل
في بطلان ما قاله النصارى في المسيح

قال الحسن بن أيوب: ومثل هذا أنه لما خاطبه الرجل على ما كتب في الإنجيل فقال له: أيها الخير، فقال: ليس الخير إلا الله وحده.

قلت: وبعضهم يترجمه أيها الصالح، فقال: ليس الصالح إلا الله وحده[1].

قال: ومثله قوله في الإنجيل: (إني لم آت لأعمل بمشيئتي لكن بمشيئة من أرسلني)[2].

قال: ولو كانت له مشيئة لاهوتية كما يقولون، لما قال هذا القول فقد أبطل به ما تدعونه في ذلك.

قال: ثم أنتم مع ذلك تدعون أن المسيح كلمة الله، ومن قوة الله غير بائنة منه ولا منفصلة عنه، وتشهدون عليه في الإنجيل بقوله: إنه يصعد إلى السماء، ويجلس عن يمين أبيه ويدين الناس يوم القيامة، ويجازيهم بأعمالهم، ويتولى الحكم بينهم، وأن الله ـ عز وجل ـ منحه ذلك، إذ كان لا يراه أحد من خلقه في الدنيا، ولا في الآخرة، فإن كان هذا الجالس للحكومة بين العالمين يوم الدين، والقاعد عن يمين أبيه وهو شخص قائم بذاته لا يشك فيه، هو الجسد الذي كان في الأرض المتوحد به الربوبية، فقد فصلتم بين الله ـ تبارك وتعالى ـ وبينه، وبعّضتموه باجتماعهما في السماء

(١) انظر: العهد الجديد (ص ٧٤).
(٢) انظر: العهد الجديد (ص ١٥٢).

شخصين متباينين، أحدهما عن يمين صاحبه، وهذا كفر وشرك بالله ـ عز وجل ـ وإن كان جسدًا خاليًا من الإلهية، وهي الكلمة، وقد عادت إلى الله كما بدت منه فقد زال عنه حكم الربوبية التي تنتحلونه إياها.

قال: ونسألكم عن واحدة نحب أن تخبرونا بها، هي أصل ما وضعتموه من عبادة الثلاثة الأقانيم التي ترجع بزعمكم إلى جوهر واحد، وهو اللاهوت، ما هو؟ ومن أين أخذتموه؟ ومن أمركم به؟ وفي أي كتاب نزل؟ وأي نبي تنبأ به، أو أي قول للمسيح تدعونه فيه؟ وهل بنيتم أمركم في ذلك إلا عل قول «متى» للتلميذ عن المسيح عليه السلام أنه قال لتلاميذه حيث أراد أن يفارقهم: (اذهبوا فعمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس)؟

قال: وهذا كلام يحتمل معناه ـ إن كان صحيحًا ـ أن يكون ذهب فيه بأن يجمع هذه الألفاظ إلى أن تجتمع لهم بركات الله وبركة نبيه المسيح وروح القدس التي يؤيد بها الأنبياء والرسل، وقد نراكم إذا أردتم الدعاء بعضكم لبعض قلتم صلاة فلان القديس تكون معك، ومعنى الصلاة الدعاء، واسم فلان النبي يعينك على أمورك.

وكما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]. يقرن طاعته بطاعة نبيه وأولي الأمر من المسلمين، أفنقول لذلك: إنهم جميعاً آلهة؟

قال: وقد يجوز أن يكون له معنى يدق عن الوقوف عليه بغير التأويل إن لم يكن معناه ما قلناه، أو يكون المسيح عليه السلام ذهب فيه إلى ما هو أعلم به، فلم حكمتم بأنه ذهب إلى أن هذه الأسماء لما أضافها إلى الله ـ عز وجل ـ صارت آلهة، وجعلتم لها أقانيم لكل اسم أقنوم يخصه بعينه، وهو شخص واحد، وكيف استجزتم ما أشركتموه مع الله ـ عز وجل ـ بالتأويل الذي لا يصح.

وإذا قلتم بثلاثة أقانيم كل أقنوم بذاته، فلابد من أن تعترفوا ضرورة بأن كل أقنوم منها حي سميع بصير عالم حكيم منفرد بذاته، كما يقولون في المسيح: إنه

جالس عن يمين أبيه. فنراكم أخذتم الأقنومين اللذين أحدثتموهما مع الله من جهة أن الله حكيم حي فحكمته الكلمة، وهي المسيح وروحه روح القدس، وهذه صفة من صفات الله مثلها كثير؛ لأنه يقال حكيم عليم سميع بصير حي قدير.

وكذا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وإن كانت صفاتنا إياه لا تلحق صفاته، ولا تبلغ كنه مجده إلا بالتمثيل لعظمته وعزته وجلاله وعلوه، فنحلتم صفاته التي هي معناه وليست سواه غيره، وجعلتموه أقانيم لكل واحد من الحياة والحكمة وسائر الصفات مثل الذي له، وما منها أقنوم له صفة إلا ويحتمل على قياس قولكم أن تكون صفة مثله، فإذا كانت هذه الأقانيم آلهة، وكل صفة إله، وهي من جوهره فيجب أن تكون كل صفة لكل واحد من الثلاثة الأقانيم إلهاً مثله، إذ كان من جوهره فيتسع الأمر في ذلك حتى لا يكون له غاية ولا نهاية.

قال: وإذا قلتم بثلاثة أقانيم هي في السماء من جوهر قديم أفليس يلزمكم الإقرار بثلاثة آلهة؛ لأن الأقانيم أشخاص يومأ إليها، ويقع الحد عليها، وإلا فما الحجة وأنتم تذكرون في بعض احتجاجكم أنها ثلاثة ترجع إلى واحد غير متبعضة ولا منفصلة، وتشبهونها في اجتماعها وظهور ما يظهر منها بالشمس، وقد نراكم عقدتم شريعة إيمانكم على أن المسيح إله وإنسان متحدين، وأنه يصعد إلى السماء، ويجلس عن يمين أبيه، والجالس عن يمين صاحبه أليس هو منفصلاً عنه مفروزا عنه؟ فكيف يصح على هذا القول قياس، أو يصح به عقد دين؟ تقولون مرة مجتمع، ومرة منفصل، وما شبهتموه به من الشمس، فقد تقدم شرحنا لبطلان الحجة فيه، وأنه لا يكون قياسه القياس الذي تعلقتم به.

على أنا وجدناكم تقولون في معنى التثليث: إن الذي دعاكم إليه ما ذكرتم أن «متى» التلميذ حكاه في الإنجيل عن المسيح ﷺ، إذ قال لتلاميذه: (سيروا في البلاد، وعمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس)، وأنكم فكرتم في هذا القول بعقولكم فعلمتم أن المراد بذلك أنه لما أن ثبت حدوث العالم علمتم أن له

محدثاً فتوهمتموه شيئاً موجودًا، ثم توهمتموه حيًّا، ثم ناطقًا، لأن الشيء ينقسم لحي، ولا حي، والحي ينقسم لناطق، ولا ناطق.

وأنكم علمتم بذلك أنه شيء حي ناطق، فأثبتم له حياة ونطقًا، غيره في الشخص، وهما هو في الجوهرية.

فنقول لكم في ذلك: إذا كان الحي له حياة ونطق، فأخبرونا عنه، أتقولون: إنه قادر عزيز أم عاجز ذليل؟

فإن قلتم: لا، بل هو قادر عزيز، قلنا: فأثبتوا له قدرة وعزة، كما أثبتم له حياة وحكمة.

فإن قلتم: لا يلزمنا ذلك لأنه قادر بنفسه عزيز بنفسه، قلنا لكم: وكذلك، فقولوا: إنه حي بنفسه، وناطق بنفسه، ولا بد لكم مع ذلك من إبطال التثليث أو إثبات التخميس، وإلا فما الفرق؟ وهيهات من فرق.

وقال الحسن بن أيوب أيضاً: إنا كلما تأملنا معكم في نسبة المسيح عليه السلام إلى الإلهية وعبادتكم له مع الله على الجهة التي تذهبون إليها، وطلبنا لكم الحجة في ذلك من كتبكم، ازددنا بصيرة في استحالة ذلك، ووضعكم له من القول ما لا يثبت لكم به حجة ولا يشهد به لكم شيء من كتبكم، ووجدنا أبين ما جاء في المسيح وصحة أمره فيما أتى به ما قال «متى» التلميذ: (إنه لما جاء يسوع إلى أرض قيسارية سأل تلاميذه فقال: ماذا يقول الناس في أني ابن البشر؟ فقالوا: منهم من يقول: إنك يوحنا المعمداني، وآخرون يقولون: إنك أرميا أو أحد الأنبياء، فقال لهم يسوع: فأنتم ماذا تقولون؟ فأجابه سمعان الصفا ـ وهو رئيسهم ـ فقال: أنت المسيح ابن الله الحق، فأجابه المسيح، وقال: طوبى لك يا سمعان بن يونان، إنه لم يطلعك على هذا لحم ولا دم، ولكن أبي الذي في السماء)[1].

---

(١) انظر: العهد الجديد (ص٣٠).

وحكى لوقا في إنجيله هذا الخبر فقال: إن سمعان أجابه فقال: (أنت مسيح الله) ولم يقل ابن الله، فهذا كلام تلميذه الرئيس فيه وأرضاه ما قال[١].

وقوله: إنه لم ينطق بذلك إلا ما أوحاه الله في قلبه، ولم ندفعكم قط عن أنه مسيح الله، ولا عن أنه كما تقولون في لغتكم أنه ابن الله بالرحمة والصفوة مع هذا الاختلاف الواقع في ذلك في الإنجيلين، وقد قال: مثل ذلك فيكم جميعًا: (إن الله إلهي وإلهكم وأبي وأبيكم) فنعمل على احتجاجكم بأنه ليس مثلكم في معنى النبوة، ونجعله مثل من سمى في الكتب ابنا على جهة الاصطفاء والمحبة مثل إسرائيل وغيره، بل قد خص إسرائيل بأن قال ـ عز وجل ـ: (أنت ابني بكرى).

وهذا كلام له مذهب في اللغة القديمة التي جاءت بها الكتب، وليست بموجبة الإلهية، إذ كان قد شاركه في هذا الاسم غيره، فلِمَ لا جعلتموه كما جعل نفسه؟

ومما يؤكد المعنى في ذلك، ويزيل تأويل من يتأوله له ما لم يدعه ولم يرض به قوله في علم الساعة: (أن ذلك شيء لا يعلمه أحد من الخلق ولا الملائكة المقربون ولا الابن ـ يعني نفسه ـ إلا الأب وحده)، ثم قال للرجل الذي أتاه فقال له: (أيها العالم الصالح، أي الأعمال خير لي، الذي تكون لي حياة إلى يوم الدين؟ فقال له: لِمَ تقول لي صالحاً، ليس الصالح إلا الله وحده) فاعترف لله بأنه واحد لا شريك له، ونفى عن نفسه فلم يجعلها ـ ولا أحداً من الخلق ـ أهلًا لذلك.

وقوله للمرأة التي جاءته فقالت: (أنت ذلك النبي الذي كنا ننتظر مجيئه.

فقال لها المسيح: (صدقت طوبى لك)[٢]، ثم قال للشيطان حين اختبره فسامه أن يلقي نفسه من رأس الهيكل، فقال: (أمرنا أن لا نجرب الرب)، ثم سامه أن يسجد له، فقال: (أمرنا أن لا نسجد إلا لله وحده، ولا نعبد سواه) ثم صلاته في غير

(١) انظر: العهد الجديد (ص ١٠٨).
(٢) انظر: العهد الجديد (ص ٩٦).

وقت لله، وآخرها الليلة التي أخذته اليهود فيها، فإذا كان إلها كما زعمتم فلمن كان يصلي ويسجد؟

ثم قول الجموع الذين كانوا معه حين دخل أورشليم، وهي مدينة بيت المقدس، على الأتان لمن كان يسأله عن أمره لما راجت المدينة به: (هذا هو يسوع الناصري النبي الذي من الناصرة)[١]، ثم قوله في بعض الإنجيل: (أخرجوا بنا من هذه المدينة فإن النبي لا يبجل في مدينته) وفي موضع آخر أنه قال: (لا يهان نبي إلا في مدينته وفي بيته وأقاربه).

وقوله في بعض خطبه: (إن هذا الجيل السوء يريد آية، وأنه لا يعطى إلا آية يونس، كما كان يونس لأهل «نينوى»[٢]: (كذلك يكون ابن البشر لهذا الجيل، رجال نينوى) يقومون في الدين مع هذا الجيل فيخصمونهم؛ لأنهم تابوا على قول يونس النبي، وإن هاهنا أفضل من يونس)[٣].

ثم قول داود في نبوته عليه: (من هذا الرجل الذي ذكرته وجعلته دون الملائكة قليلاً)، ثم قول تلاميذه فيه ما شرحناه في صدر كتابنا هذا ما تقدم ووصفهم أنه رجل أتى من عند الله بالأيدي والقوة.

ومما يشبه ذلك أنه لما قدم تلامذته فركبوا السفينة، وقال لهم: (امضوا، فإني ألحق بكم. فأتاهم يمشي على البحر، فلما رأوه في تلك الحال قالوا: ما هذا الحال ويح، ومن الغرق صاحوا، فقال لهم يسوع: اطمئنوا ولا تخافوا أنا هو، فأجابه شمعون الصفا، وقال له: يا رب إن كنت أنت هو فاذن لي آتيك على الماء. فقال له: تعال فنزل سمعان إلى الماء ليمشي عليه، فلم يستطع وجعل يغرق، فصاح، وقال: يا

---

(١) انظر: العهد الجديد (ص ٢٨).

(٢) نينوى: بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو بوزن طيطوى، وهي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل، انظر: معجم البلدان (٥/ ٣٣٩).

(٣) انظر: العهد الجديد (ص٢٢).

رب أغثني فبسط يده يسوع فأخذه، وقال له: لِمَ تشككت يا قليل الأمانة؟)[1] قال: فبان بذلك عجز المسيح عن إتمام ما سأله شمعون الصفا، ومثله أمر الرجل الذي قال ليسوع خبر ابنته وما ينالها من الشيطان، وأنه قد قدمها إلى تلاميذه، فلم يستطيعوا أن يخرجوه، وقد كان جعل لهم ذلك وغيره فأخرجه هو منها.

وقال في الإنجيل، وهو يذكر الأمثال التي ضربها لرؤساء الكهنة أنهم لما سمعوها منه علموا أنها في شأنهم، فهموا أن يأخذوه، ثم فرقوا من الجموع، لأنهم كانوا ينزلونه مثل النبي)[2].

وقال في الإنجيل: (لما جاءته أم ابني زندا، وكانت من تلامذته مع ابنيها، فقال لها: ما تريدين؟ قالت: أريد أن تجلس ابناي أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك في ملكوتك، فقال: ليس إلى ذلك سبيل، لأنه ليس لي أن أعطيه، ولكن من وعد له من أبي)[3].

قال الحسن بن أيوب: فما يكون يا هؤلاء أفصح وأبين وأوضح من اجتماع هذه الشواهد لكم في كتبكم، ما رضيتم بقوله في نفسه، ولا بقول تلامذته فيه، ولا بقول من تنبأ عليه من الأنبياء، ولا قول جموعه الذين تولوه لمن سألهم من مخالفيهم عنه وتركتم ذلك كله، وأخذتم بآراء قوم تأولوا لكم على علمكم بأنهم قد اختلفوا أيضًا في الرأي، فقال كل قوم في المسيح ما اختاروا، واتبع كلا منهم طائفة قالوا بقولهم، ثم سلك من بعدهم سبيل الآباء في الاقتداء بهم.

فبينوا لنا حجتكم في ذلك وهيهات من حجة، ونحن نستوهب الله العصمة والتوفيق منه.

قال: ومما يشبه ما تقدم قوله لتلاميذه في إنجيل لوقا: (فأما أنتم الذين صبرتم

(١) انظر: العهد الجديد (ص ٢٧).
(٢) انظر: العهد الجديد (ص٤٠).
(٣) انظر: العهد الجديد (ص٣٦).

معي في بلائي وتجاربي، فإني أعدكم كما وعدني أبي الملكوت لتأكلوا وتشربوا معي على مائدتي في ملكوتي)[١] فبين أن الله ـ عز وجل ثناؤه ـ وعده أن يجعله في ملكوت السماء يأكل ويشرب مع تلاميذه على مائدته، وهذا ما لا شك لكم فيه، وهو مخالف لقولكم فيما يصير إليه، وفي الأكل والشرب والنعيم هناك، ثم قوله لشمعون حين أتته الجموع فأخذوه: (أم تظن أني لست قادرًا أن أطلب إلى أبي فيقيم لي اثني عشر جندًا من ملائكته أو أكثر، ولكن: كيف تتم الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون)[٢]، ولم يقل: إني قادر أن أدفعهم عن نفسي، ولا أني آمر الملائكة أن يمنعوا عني، كما يقول من له القدرة والأمر.

قال: ونجدكم تقولون في المسيح عليه السلام: إنه مولود من أبيه أزلي، ويجب على المدعي القول أن يثبت الحجة فيه، ويعلم أنه مطالب بإيضاحها، لا سيما في مثل هذا الخطب الجليل، الذي لا يقع التلاعب به، ولا تجترىء النفوس على ركوب الشبهات فيه، والويل الطويل لمن تأول في ذلك تأويلًا لا حقيقة له، فإنه يهلك نفسه، ومن كان من الناس معه ممن يتبع قوله إن كان هذا الابن أزليًا على ما في شريعة إيمانكم، فليس هذا بمولود، وإن كان مولودًا فليس بأزلي؛ لأن اسم الأزلية إنما يقع على من لا أول له ولا آخر.

ومعنى المولود أنه حادث مفعول، وكل مفعول فله أول، فكيف ما أردتم القول فيه كان بطلان الشريعة.

قال: ونسألكم أيضاً عن واحدة لم سميتم الأب أباً، والابن ابناً، فإنه إن كان وجب للأب اسم الأبوة لقدمه فالابن أيضاً يستحق هذا الاسم بعينه إذ كان قديماً مثله، وإن كان الأب عالماً عزيزًا فهو أيضاً عالم عزيز، تشهد شريعة الإيمان له بذلك

(١) انظر: العهد الجديد (ص ١٣٧).
(٢) انظر: العهد الجديد (ص ٥٠).

في قولها: إنه خلق الخلائق كلها، وأتقنت على يده، وأنه نزل لخلاصكم، ومن قدر على ذلك لم يكن إلا عالماً عزيزاً، فهذه المعاني التي ذكرناها تبطل اسم الأبوة والبنوة، وفي إبطالها بطلان الشريعة التي تقول: ولد من أبيه، وإلا فإن كان الأب والابن متكافئين في القدم والقدرة، فبأي فضل وسلطان للأب عليه أمره ونهاه، فصار الأب باعثاً والابن مبعوثاً، والأب متبوعاً مطاعاً، والابن تابعاً مطيعاً.

ومما يشهد بصحة قولنا وبطلان ما تأوله أولوكم في عبودية المسيح أن «متى» التلميذ حين بنى كتابه الإنجيل أول ما ابتدأ به أن قال: كتاب مولد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم[1] فنسبه إلى من كان منه على الصحة، ولم يقل: إنه ابن الله، ولا إنه إله من إله، كما يقولون: فإن قلتم إن تسمية يسوع للناسوت الذي قد جعلتموه حجة بينكم وبين كل من التمس الحجة منكم عند الانقطاع فيما يعترف به المسيح من العبودية، فقد نسق متى على اسم يسوع الذي هو عندكم اسم للناسوت المسيح، الذي هو جامع الناسوت واللاهوت، فأي حجة في إبطال هذا التأويل أوضح من هذا.

ومما يصحح قولنا ويؤكده قول جبريل الملك لمريم عند مخاطبته إياها: إنه ابن داود. على ما ثبت من ذلك في الإنجيل.

قال: ووجدناكم قد ذكرتم في شريعة الإيمان أن يسوع المسيح بكر الخلائق، فإن كنتم ذهبتم في ذلك إلى أنه على نحو ما يسمى أول ولد الرجل وكبيرهم فجائز. وهو محقق لقولنا في عبوديته، وإن كنتم أردتم بذكر البكر أنه أول قديم، فلسنا نعرف للبكر معنى في لغة من اللغات إلا للأكبر من الإخوة والأول من الولد وبكر الخلائق لا يكون إلا من الخلائق.

كما أن بكر الرجل والمرأة لا يكون إلا من جنسهما، وباكورة الثمار لا تكون إلا ثمرة، ولأن من المحال أن يقول قائل بكر ولد آدم ملك من الملائكة، وكذلك من

---

(١) انظر العهد الجديد (ص٣).

المحال أن يكون بكر المصنوعات ليس بمصنوع وبكر المخلوقات ليس بمخلوق.

وقد قال الله ـ تعالى ـ في التوراة: (يا ابني بكري) أي إسرائيل، وقال في موضع آخر: (إنه نظر بنو الله إلى بنات الناس فشغفوا بهن)[١]، فهل يوجب لآل إسرائيل إلهية بهذا القول؟

قال: وقلتم: إن المسيح ولد من أبيه قبل العوالم، وليس بمصنوع فليس يخلو الأب من أن يكون أولد شيئاً موجوداً أو غير موجود، فإن كان لم يزل موجوداً فإن الأب لم يلد شيئاً. وإن كان غير موجود، وإنما هو حادث لم يكن فهو مخلوق كما قلنا.

قال: ومما يبين قولنا في خلق المسيح: أن هذا الاسم إنما وقع له؛ لأنه مسح للنبوة والخير، وماسحه الله ـ تبارك وتعالى ـ، وقد قال داود في زبوره قولاً يشهد على ذلك بعينه: (من أجل هذا البر مسحك الله إلهك أكثر مما مسح به نظراءك)[٢]، فأبان (داود بهذه الآية معنى المسح بإنجيله، وأن ماسحه الله إلهه)، وأنه مصطفى مكرم بزيادة على نظرائه، وقال داود أيضًا في مزمور إحدى وثلاثين يخاطب الله: (من أجل داود عبدك لا يغلب وجه مسيحك عهد الرب لداود بالحق، ولا يرجع عنه)[٣] يعني بمسيحه نفسه، لأن الله مسحه للنبوة والملك، وقد قال مثل هذا في غير موضع من زبوره، فسمى نفسه مسيح الله[٤].

قال: وإذا نظر في الإنجيل، وكتب «بولس»[٥] وغيره، ممن يحتج به النصارى،

---

(١) انظر: العهد القديم (ص ١٠).

(٢) انظر: العهد القديم (ص ٨٦٤).

(٣) انظر: العهد القديم (ص ٩٢٦).

(٤) انظر: العهد القديم (ص ٨٥١).

(٥) قال وهب بن منبه رحمه الله: كان بولس من رؤساء اليهود وأشدهم بأسًا وأعظمهم شأنًا في إنكار ما جاء به المسيح ﷺ ودفعه ودفع الناس عنه، فجمع العساكر وسار إلى المسيح ﷺ ليقتله ويمنعه عن دخول دمشق، فلقيه بكوكبا، فضربه ملك بجناحه فأعماه، ورأى من دلائل أمره والأحوال التي لم يصل معها إلى ما أراد من مكروهه ما اضطره إلى الإيمان به والتصديق بما جاء به، فأتى المسيح على =

وجد نحوًا من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح، وكلها تنطق بعبودية المسيح، وأنه مبعوث مربوب، وأن الله اختصه بالكرامات، ماخلا آيات يسيرة مشكلات قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته، فلو كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التي يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التي قد بانت بغير تأويل؛ لأنه إنما يجب أن يقاس الجزء على الكل، ويستدل على ما غاب بما حضر، وعلى ما أشكل بما ظهر، فمن تلك الآيات المشكلات ما ذكرناه في كتابنا هذا وبينا معناه والحجة فيه، وأنه ليس كما تأولوه.

ومنها ما يحكون عن المسيح أنه قال: (أنا بأبي)[1]، وقد فسر المسيح عليه السلام ذلك، وكشفه، قال «يوحنا» في إنجيله: إن المسيح تضرع إلى الله في تلاميذه، وقال: ياأيها الرب القدوس احفظهم باسمك الذي أعطيتني ليكونوا هم أيضاً شيئاً واحداً، كما أنا شيء واحد، وكما أنك أرسلتني إلى العالم، وكذلك أرسلهم أنا أيضًا، ثم قال بعد هذا أيضاً: إني قد منحتهم من المجد الذي أعطيتني ومنحتني، ليكونوا أيضًا شيئًا واحدًا كما أنا شيء واحد، فأنا بهم، وأنت بي).

قال: هو معنى ذلك أنه قال أنت معي وأنت لي، كما أنا مع تلاميذي ولهم.

قلت: أو أراد أنك بي هديت الخلق وعلمتهم وأنا أهديهم وأعلمهم والباء

=

ذلك وسأله أن يفتح عينيه، فقال له المسيح: كم تسعى في أذاي وأذى من هو معي وتفعل وتصنع، ثم قال له المسيح: امض حتى تدخل دمشق، وخذ في السوق الطويل الممدود في وسط المدينة يعني دمشق حتى تصير في آخره، وتصير إلى حنينا، وكان حنينا قد اختفى منه فزعًا في مغارة نحو الباب الشرقي حتى يفتح عينيك. فأتاه عند الكنيسة المصلبة وهي الكنيسة المنسوبة إليه اليوم، وكان بولس قد أخذ ابن أخيه، وكان قد آمن بالمسيح فحلق وسط رأسه، فنادى عليه ورحمه حتى مات، فمن ثم أخذ النصارى حلق وسط رؤوسهم للتأسي بذلك فيما كان عوقب به، وأنه كالتواضع لا كالعيب لمن آمن بالمسيح عليه السلام، انظر: تاريخ مدينة دمشق (١٥/ ٣٣٣ـ ٣٣٤).

(١) انظر: العهد الجديد (ص ١٨٠).

للسببية، فإن الله برسله هدى عباده وعلمهم، والرسل علموا الغائبين عنهم، بالحاضرين الذين بلغوا عنهم، وقوله ليكونوا شيئاً واحداً: أراد به اتفاق صدقهم وأمرهم ومرادهم، وهذا مفسر، وقد قال: ليكونوا هم شيئًا واحدًا: كما أنا شيء واحد. فقد طلب لهم مثل ما حصل له ولربه.

وهذا يبين أن قوله كما أنا شيء واحد، أي أنا موافقك في أمرك ونهيك ومحبتك ورضاك، لم يرد بذلك اتحاد ذاته به، كما لم يرد أن تتحد ذوات بعضهم ببعض، فإنه طلب لهم مثل ما حصل له من الموافقة لأمر الله ونهيه ومحبته ورضاه.

قال: أو يكون ذهب فيه إلى معنى دقيق لا يعرفه إلا إنه قد بطل على كل حال بهذا القول تأويلكم ممازجته ـ عز وجل ـ في اللاهوت بقوله في تلاميذه: إنه بهم، كما أن أباه به؛ لأنه إن تأول متأول في هذا المعنى أنه ذهب في بعض وصفه أبيه، وأن أباه به إلى مشاركته في اللاهوت فقد قال في تلامذته مثل هذا القول، فيجب أن يكونوا على هذا القياس شركاء في المحل، وهذا ما لا يكون، ولا يجترىء على القول به أحد.

قال: ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها ودعوتها ومعبودها واحداً يتمسكون بأمر المسيح ﵇، وتلامذته، وإنجيله، وسننه، وشرائعه، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف، فمنهم، من يقول: إنه عبد، ومنهم من يقول: إنه إله، ومنهم من يقول: إنه ولد، ومنهم من يقول: إنه أقنوم وطبيعة، ومنهم من يقول: إنه أقنومان وطبيعتان.

وكل منهم يكفر صاحبه، ويقول: إن الحق في يده، وكلهم لا يأتي من الكتاب بحجة واضحة يثبت بها دعواه، ولا من قياسه لنفسه وتأوله بما يصح له عند المناظرة، وإنما يرجع في دينه واعتقاده إلى ما تأوله له المتأولون، بما يخالف إنجيلهم، وكتبهم بالهوى والعناد من بعضهم لبعض، فهم يشركون بالله على التأويل ولا شريك له، ويدعون له ولدًا من جهة ما أحدثوا لأنفسهم ـ سبحانه ـ أنى يكون له ولد!!!

قال الحسن بن أيوب: وقد بينًّا الحجج في بطلان كل قول لكم مما عقدتم به

شريعة إيمانكم، ووجدنا قومًا منكم إذا نوظروا في ذلك قالوا: قد وجدنا أكثر الأديان يختلف أهلها فيها، ويتفرقون على مقالات شتّى، هم عليها وكل منهم يدَّعي أن الصواب في يده. وهذا أيضا من سوء الاختيار، وذهاب القلوب عن رشدها، وانصرافها عن سبيل حقها.

فلم يختلف أهل دين من الأديان في عقد معبودهم، ولا شكوا فيه، ولا تفرقوا القول فيما اختاروه إلا أهل ملل النصرانية فقط.

وسائر من سواهم إنما اختلفوا في فروع من فروع الدين وشرائعه، مثل اختلاف اليهود في أعيادهم وسنن لهم، ومثل اختلاف المسلمين في القدر.

فمنهم من قال به، ومنهم من دفعه.

وفي تفضيل قوم من أصحاب محمد ﷺ على نظرائهم بعد اتفاق جماعتهم على إلههم ومعبودهم وخالقهم، وأن الله إله الخلق كلهم، واحد لا شريك له ولا ولد.

ثم اتفاقهم بعد ذلك على نبيهم محمد ﷺ لا يشكون فيه، وعلى القرآن، وأنه كتاب الله المنزل على محمد المرسل لا يختلفون فيه. فإذا صح اتفاقهم على هذه الأصول، كان ما سواها جللًا لا يقع معه كفر، ولا يبطل به دين.

والبلاء العظيم الاختلاف في المعبود. فلو أن قوماً لم يعرفوا لهم إلهاً ولا ديناً، ثم عرض عليهم دين النصرانية، لوجب أن يتوقفوا عنه، إذ كان أهله لم يتفقوا على شيء فيه. ودل اختلافهم في مقالاتهم ومباينتها ما في كتبهم، على باطله.

فأما قولنا في باب التوحيد، واعترافنا بوحدانية الله ـ تعالى ـ، ونَفْيُنَا عنه الشركاء والأنداد والأمثال والأولاد، فهو قول لا يشكون في صحته، ولا يشك فيه أحد من أهل الكتب وسائر الملل ولا غيرهم من أهل القول بالدهر وسائر عبدة الأصنام والأوثان وكل منهم يُقِرُّ به ويرجع إليه.

إلا أن منهم من يتابعنا على تحديد التوحيد. ومنهم من يدخل العلل فيه، بأن يقول: ثلاثة ترجع إلى واحد، وصنما نعبده إجلالاً لله ليقربنا إلى ربنا وربه ومدبر

للأمور قديم، لا بد أن نعترف به خالقها وباريها.

وكل منهم مقر بقولنا، وذاهب إلى مذهبنا على الاعتراف بالله على الجهة التي يذهب إليها، وأنه واحد لا شريك له.

فقد صح عقدنا بلا شك منكم، ولا من أحد من الأمم فيه، ولا في شيء منه، بل تقودكم الضرورة إلى الإقرار به والاجتماع معنا عليه.

والحمد لله رب العالمين على توفيقه، وإياه نسأل أن يتم علينا فضله ويديم لنا تسديده بقدرته، وأن يحيينا ويميتنا على الإسلام، غير مشركين ولا جاحدين ولا مبدلين، إنه على كل شيء قدير وكل مستصعب عليه يسير، وهو بمن خافه واتقاه وطلب ما عنده ولم يلحد في دينه رؤوف رحيم. أ. هـ.

قلت: هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى وأخبر الناس بأقوالهم، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره.

وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية، ما يبين ذلك.

إلى هنا ينتهي المطلوب من الجواب الصحيح حيث إن هدفنا نقل ما نقله الشيخ من كتاب الحسن الأيوب لأخيه، ونريد من كل من يهمه الأمر من المسلمين وغيرهم أن يفيدنا عن وجود كتاب الحسن بن أيوب سواء باللغة العربية أو غيرها من اللغات، ليحوز الأجر من الله والشكر الجميل، كما يهمنا وجود ترجمته بأي لغة من اللغات. والحمد لله رب العالمين.

الناشر علي الحمد المحمد الصالحي
المملكة العربية السعودية ـ القصيم
عنيزة: ٠٦/٣٦٤١٠٤٠ ص ب: ٢٤٨

الرسالة الخامسة:

نور الاقتباس

في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه

تأليف الشيخ الإمام العلامة

الحافظ زين الدين أبي الفرج

عبد الرحمن بن شهاب الدين

أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي ثم الدمشقي

المتوفى سنة ٧٩٥

تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

الحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أخرج الإمام أحمد من حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: **«يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن»**، قلت: بلى، فقال: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»**(١). هكذا ساقه من طريق حنش مع إسنادين آخرين منقطعين، وفي السياق أنه لا يحفظ حديث بعضهم من بعض.

وخرجه أيضًا من طريق حنش وحده مختصرًا، ولفظه: **«يا غلام إني محدثك حديثًا: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد رفعت الأقلام، وجفت الكتب، فلو جاءت الأمة أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لما استطاعت»**(٢).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٧) والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٣) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢١٧ رقم ١٩٥) (٢/ ٢٧ رقم ١٠٧٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٠٩٥) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٣٩-١٤٠) وابن وهب في القدر (رقم ٢٨) وابن المستفاض في القدر (رقم ١٥٣، ١٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٣) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٨ رقم ١٢٩٨٨)، وأبو يعلى في مسنده =

وخرجه الترمذي بنحو هذا المختصر، ولفظه: «إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» وقال: حديث صحيح[(١)].

وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده: لهذا الحديث طرق عن ابن عباس، وهذا أصحها، قال: وهذا إسناد مشهور، ورواته ثقات.

قلت: قد روي هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية جماعة: فمنهم علي ابنه وعطاء وعكرمة، ومن رواية عمر مولى عبد الملك بن عمير وابن أبي مليكة عن ابن عباس، وقيل: إنهما لم يسمعا منه، وفي أسانيدها كلها مقال، وفي ألفاظها بعض الزيادة والنقص[(٢)].

وروي عن النبي ﷺ أنه وصَّى بذلك ابن عباس من حديث علي بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري وسهل بن سعد وغيرهم من الصحابة، وفي أسانيدها أيضًا مقال[(٣)].

= (٤/ ٤٣٠ رقم ٢٥٥٦)، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٥).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦).

(٢) أخرجه الحاكم من رواية ابن أبي مليكة (٣/ ٦٢٤ رقم ٦٣٠٤)، والطبراني عن عطاء في المعجم الأوسط (٥/ ٣١٦ رقم ٥٤١٧) والطبراني عن ابن أبي مليكة في المعجم الكبير (١١/ ١٢٣رقم ١١٢٤٣) وعن عطاء في الكبير (١١/ ١٧٨ رقم ١١٤١٦) وعن عكرمة في الكبير (١١/ ٢٢٣ رقم ١١٥٦٠) وابن الجعد في مسنده عن عطاء (رقم ٣٤٤٥) والقضاعي في مسند الشهاب عن ابن أبي مليكة (١/ ٤٣٤ رقم ٧٤٥) وعبد بن حميد عن عطاء (١/ ٢١٤ رقم٦٣٦) والبيهقي في الشعب عن ابن أبي مليكة (٧/ ٢٠٣ رقم ١٠٠٠١).

(٣) أخرجه أبو يعلى في معجمه عن أبي سعيد الخدري (رقم ٩٦) وهناد بن السري في الزهد عن عمر (رقم ٥٣٦).

وذكر العقيلي: أن أسانيد الحديث كلها لينة، وبعضها أصلح من بعض.

قلت: وأجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس التي ذكرناها، وهو إسناد حسن لا بأس به.

وقد استوفينا ذكر طرق الحديث مع الكلام عليها في كتاب شرح الترمذي، ومقصودنا هاهنا الكلام على معنى الحديث وشرح ألفاظه، فإنه تضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلها.

حتى قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر: تدبرت هذا الحديث فأدهشني، وكدت أطيش. ثم قال: فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث وقلة الفهم لمعناه[(١)].

فقوله ﷺ: احفظ الله يحفظك يعني: احفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو: الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده، فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أمر به إلى ما نهى عنه، ودخل في ذلك فعل الواجبات جميعًا وترك المحرمات كلها، كما في حديث أبي ثعلبة المرفوع: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرَّم حرمات فلا تنتهكوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها**»[(٢)].

وذلك كله يدخل في حفظ حدود الله، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٥).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١٢ رقم ١٩٥٠٩) والدارقطني (٤/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٤٢) والطبراني في الصغير (٢/ ٢٤٩ رقم ١١١١) وفي الأوسط (٧/ ٢٦٥-٢٦٦ رقم ٧٤٦١) وفي الكبير (٢٢/ ٢٢١-٢٢٢) رقم ٥٨٩)، وفي مسند الشاميين (٤/ ٣٣٨ رقم ٣٤٩٢)، قال المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٥): حديث حسن رواه الدارقطني وغيره، وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص ٤١٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٦٦).

وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣] وفسر الحفيظ هاهنا: بالحافظ لأوامر الله، وفسر: بالحافظ لذنوبه حتى يرجع منها، وكلاهما يدخل في الآية. ومن حفظ وصية الله لعباده وامتثلها فهو داخل أيضًا والكل يرجع إلى معنى واحد.

وقد ورد في بعض ألفاظ حديث يوم المزيد في الجنة: «**إن الله تعالى يقول لأهل الجنة إذا استدعاهم إلى زيارته وكشف لهم الحجب: مرحبًا بعبادي، الذين حفظوا وصيتي، ورعوا عهدي، وخافوني بالغيب، وكانوا مني على كل حال مشفقين**»[(١)].

فأمره ﷺ لابن عباس أن يحفظ الله يدخل فيه هذا كله. ومن أعظم ما يجب حفظه من المأمورات: الصلوات الخمس، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ ﴾ [المعارج: ٣٤].

وقال النبي ﷺ: «**من حافظ عليها كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة**»[(٢)]. وفي حديث آخر: «**من حافظ عليهن كن له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة**»[(٣)] الحديث

---

(١) ذكره المصنف رحمه الله في كتابه (شرح حديث لبيك) من حديث أبي جعفر مرسلاً (ص ٨٧)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٦٤٧) والتصديق بالنظر (ص ٨٠-٨٢) وقال: إسناده ضعيف، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٠٧-٣٠٨): رواه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم هكذا معضلاً، ورفعه منكر، والله أعلم.

(٢) أخرجه بلفظ قريب: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة...» أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٣٦٥ رقم ٤٤٩) وابن حبان في صحيحه (٥/ ٢٣ رقم ١٧٣٢٤) والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٢ رقم ٣٢٢) وأبو داود (رقم ١٤٢٠) وابن ماجه (رقم ١٤٠١) والبيهقي في الكبرى (١/ ٣٦١ رقم ١٥٧٣) (٢/ ٨ رقم ٢٠٥٨) (٢/ ٤٦٧ رقم ٤٢٣٩) والدارمي (رقم ١٥٧٧) والنسائي في الصغرى (رقم ٤٦١)، وانظر: التمهيد (٢٣/ ٢٨٨) وتحفة الأحوذي (٢/ ٤٤٢).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٢٩ رقم ١٤٦٧) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٥٤) والدارمي (رقم ٢٧٢١) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢١٣ رقم ١٧٦٧) وأحمد في المسند (٢/ ١٦٩) =

وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة[1]. وقال النبي ﷺ: «لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[2] فإن العبد تنتقض طهارته ولا يعلم بذلك إلا الله.

فالمحافظة على الوضوء للصلاة دليل على ثبوت الإيمان في القلب.

ومما أمر الله بحفظه الأيمان لما ذكر كفارة اليمين، قال: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] فإن الأيمان كثيرًا ما تقع من الناس وموجباتها مختلفة، فتارة يجب بها كفارة يمين، وتارة يجب بها كفارة مغلظة، وتارة يلزم بها المحلوف عليه من طلاق ونحوه، فمن حفظ أيمانه دل على دخول الإيمان في قلبه، وكان السلف كثيرًا يحافظون على الأيمان، فمنهم من كان لا يحلف بالله البتة، ومنهم من كان يتورع حتى يكفر فيما شك فيه الحنث.

ووصَّى الإمام أحمد رحمه الله عند موته أن يخرج عنه كفارة يمين وقال: أظن أني

=

والطبراني في مسند الشاميين (رقم ٢٤٥) وعبد بن حميد (رقم ٣٥٣)، وقال المنذري في الترغيب (١/ ٢١٧ رقم ٨٣٢): رواه أحمد بإسناد جيد. وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٩٢): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد ثقات.

(١) فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم» أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٢/ ٣٤١ رقم ٧١٨) وقال محققها: إسناده حسن، والحاكم (١/ ٢٢٣ رقم ٤٥٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، والنسائي (رقم ٣٥٩) وأبو داود (رقم ٦١) وابن ماجه (رقم ٢٧٥) والترمذي (رقم ٣) وقال: هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب وأحسن (ورقم ٢٣٨) وقال: هذا حديث حسن، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٥) وشرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ٩٦ ، ٢١٥) وعمدة القاري (٦/ ٣٣، ١٢١) والتمهيد (٩/ ١٨٥) وتحفة الأحوذي (١/ ١٨).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ٣١١ رقم ١٠٣٧) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ١٦٤) وابن ماجه (رقم ٢٧٧) والبيهقي في الكبرى (١/ ٨٢ رقم ٣٨٩) ومالك (رقم ٦٦) والطبراني في الصغير (رقم ٨) وفي الأوسط (٧/ ١١٦ رقم ٧٠١٩) وفي الكبير (٢/ ١٠١ رقم ١٤٤٤) وأحمد في المسند (٥/ ٢٨٠) والبزار (٦/ ٣٥٨ رقم ٢٣٦٧) قال المنذري في الترغيب (١/ ٩٧ رقم ٣١١): رواه ابن ماجه بإسناد صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

حنثت في يمين حلفتها[١].

وقد روي عن أيوب عليه السلام أنه كان إذا مر باثنين يحلفان بالله ذهب فكفر عنهما يمينهما، لئلا يأثمان وهما لا يشعران. ولهذا لما حلف على ضرب امرأته مائة جلدة أفتاه الله بالرخصة لحفظه لأيمانه وأيمان غيره.

وقد اختلف العلماء: هل تتعدى الرخصة إلى غيره أم لا؟

وقال يزيد بن حبيب: بلغني أن من حملة العرش من يسيل من عينيه أمثال الأنهار من البكاء، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك ما تُخشَى حق خشيتك. فيقول الله تعالى: لكن الذين يحلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك[٢].

وقد ورد التشديد العظيم في الحلف الكاذب بالله، ولا يصدر كثرة الحلف بالله إلا من الجهل بالله تعالى، وقلة هيبته في الصدور.

ومما يلزم المؤمن حفظه رأسه وبطنه، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه المرفوع: **«الاستحياء من الله حق الحياء أن يحفظ الرأس وما وعى، ويحفظ البطن وما حوى»**[٣] خرّجه الإمام أحمد والترمذي.

وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على محرم، وقد جمع الله ذلك كله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ويدخل في حفظ البطن وما حوى حفظه من إدخال الحرام إليه من المأكولات والمشروبات.

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٢٢ رقم ٤٨٥٧).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٨) والطبراني في الصغير (رقم ٤٩٤) والبزار (٥/ ٣٩١ رقم ٢٠٢٥) والبيهقي في الشعب (٦/ ١٤١ر قم ٧٧٣٠) (٧/ ٣٥٤ رقم ١٠٥٦١) والخرائطي في مكارم الأخلاق (رقم ٩٠)، وانظر: فتح الباري (١٢/ ٦٢) وتحفة الأحوذي (٦/ ١٢٦)، و جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٥، ٢٠١).

ومما يجب حفظه من المنهيات حفظ اللسان والفرج.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة»[(١)] خرجه الحاكم وخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ ولفظه: «من يضمن لي ما بين لحييه ورجليه أضمن له الجنة»[(٢)]. وفي مسند الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «من حفظ ما بين فقميه وفرجه دخل الجنة»[(٣)].

وقد أمر الله بحفظ الفرج خاصة ومدح الحافظين، قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٦].

وقد روي عن أبي إدريس الخولاني أن أول ما وصى الله آدم عند إهباطه إلى

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٧ رقم ٨٠٥٨) وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه بلفظ قريب الطبراني في الكبير (٦/ ١٩٠ رقم ٥٩٦٠) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٢٣ رقم ٥٤٥) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٦٠ رقم ٥٤٠٦) وابن أبي عاصم في الزهد (رقم ١٤) وتمام الرازي في فوائده (رقم ٤٩٠) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٦٨٨) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٧٤) وانظر: الاستذكار (٨/ ٥٦٥) وفتح الباري (١١/ ٣١٠) وعمدة القاري (٢٣/ ٧١) والتمهيد (٥/ ٦١) وفيض القدير (٦/ ٢٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٨) والحاكم (٤/ ٣٩٩) والطبراني في الكبير (١/ ٣١١ رقم ٩١٩) والبيهقي في الشعب (٥/ ٥٥ رقم ٥٧٥٥) والمحاملي في أماليه (رقم ٣٦٥)، وأبو يعلى (١٣/ ٢٥٨-٢٥٩ رقم ٧٢٧٥) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٩٥ رقم ٣٦٤٦): رواه الطبراني بإسناد جيد، والفقمان بسكون القاف هما اللحيان. وقال في (٣/ ٣٣٧ رقم٤٣٣٣): رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى واللفظ له ورواته ثقات وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٠) رواه الطبراني وإسناده جيد. وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦)، وفيض القدير (٦/ ١١٩).

الأرض بحفظ فرجه، وأن لا يضعه إلا في حلال[١]، قوله: يحفظك يعني أن من حفظ حدود الله وراعى حُقُوقه حفظه الله، فإن الجزاء من جنس العمل.. كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وحفظ الله تعالى لعبده يتضمن نوعين أحدهما حفظه له في مصالح دنياه: كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «**اللهم إن أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إن أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وآخرتي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي**»[٢] خرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه. وهذا الدعاء منتزع من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ [الرعد: ١١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه»[٣]. وقال علي ﷺ: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وأن الأجل جنة حصينة[٤].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥) وأبو داود (رقم ٥٠٧٤) وابن ماجه (رقم٣٨٧١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٩٨) والديلمي في مسند الفردوس (رقم ١٨٥٤) قال ابن كثير في التفسير (٢/ ٢٠٦): تفرد به البزار وحسنه.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢٢٣٢ رقم ١٢١٩٦) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٦٣) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦) وتفسير الصنعاني (٢/ ٣٣٢).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١٩) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٦١٤) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٥) =

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال وراءك، إلا شيئًا قد أذن الله فيه فيصيبه[١].

ومن حفظ الله للعبد أن يحفظه في صحة بدنه وقوته وعقله وماله، قال بعض السلف: العالم لا يخرف[٢].

وقال بعضهم: من حفظ القرآن متع بعقله. وتأول ذلك بعضهم على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥، ٦].

وكان أبو الطيب الطبري قد جاوز المائة السنة وهو ممتع بعقله وقوته، فوثب يومًا من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة، فعوتب على ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر[٣]. وعكس هذا أن الجنيد رأى شيخًا يسأل الناس، فقال: إن هذا ضيَّع الله في صغره، فضيَّعه الله في كبره[٤].

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، إنهما حفظا بصلاح أبيهما[٥].

وقال محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده، وقريته

= وجامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١٦، ١١٩) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٦١٤) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٤) وجامع العلوم الحكم (١/ ١٨٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن طاوس (٧/ ٢٤٢ رقم ٣٥٦٩٥) وهناد السري في الزهد (١/ ٣٠٥ رقم ٥٣٧) ومحمد بن إسحاق في جزء عمشليق (رقم ٣) وانظر: الدر المنثور (٥/ ١٤٦).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦) وصفة الصفوة (٢/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٤) نسبه في تاريخ مدينة دمشق (٥٤/ ٢٥٨) إلى الكتاني، وذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦) ولم ينسبه لأحد.

(٥) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٣١ رقم ٢٤٣) والحميدي في مسنده (١/ ١٨٤ رقم ٣٧٢)وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٣٢) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٣٦٠) وانظر: تفسير الطبري (١٦/ ٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٠) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٨٧).

التي هو فيها، والدويرات التي حولها، فما يزالون في حفظ الله وستره[(١)].

وقال ابن المسيب لابنه: يا بني إني لأزيدن في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك. وتلى هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله تعالى في عقبه وعقب عقبه[(٢)].

وقال يحيى بن إسماعيل بن سلمة بن كهيل: كان لي أخت أسن مني فاختلطت، وذهب عقلها وتوحشت، وكانت في غرفة في أقصى سطوحنا، فمكثت بذلك بضع عشرة سنة، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذا باب يدق نصف الليل، فقلت: من هذا؟ قالت: كجه، فقلت: أختي؟ قالت: أختك، ففتحت الباب فدخلت، ولا عهد لها بالبيت أكثر من عشر سنين. فقالت: أتيت الليلة في منامي، فقيل لي: إن الله حفظ أباك إسماعيل لسلمة جدك، وحفظك لأبيك إسماعيل، فإن شئت دعوت الله فذهب ما بك، وإن شئت صبرت ولك الجنة، فإن أبا بكر وعمر قد شفعا لك إلى الله عز وجل بحب أبيك وجدك إياهما، فقلت: فإذا كان لابد من اختيار أحدهما: فالصبر على ما أنا فيه والجنة، وإن الله عز وجل لواسع بخلقه لا يتعاظمه شيء إن شاء أن يجمعهما لي فعل، قالت: فقيل: فإن الله تعالى قد جمعهما لك ورضي عن أبيك وجدك بحبهما أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، قومي فانزلي. فأذهب الله تعالى ما كان بها.

ومتى كان العبد مشتغلاً بطاعة الله فإن الله تعالى يحفظه في تلك الحال، كما في مسند الإمام أحمد عن حميد بن هلال عن رجل قال: أتيت النبي ﷺ فإذا هو يريني

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٣٣٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢١٠ رقم ٣٥٤١٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٧) والدر المنثور (٥/ ٤٢٢) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٠٤) وأخرجه الطبري في تفسيره مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ (٢/ ٦٣٤) وابن الجعد في مسنده (رقم ١٦٨٦) وابن أبي الدنيا في العيال (١/ ٥٣٨ رقم ٣٥٩) وهو: حديث مرسل رجاله رجال الصحيح. وضعفه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٧٦٤).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٧).

بيتًا، فقال: إن امرأة كانت فيه فخرجت في سرية من المسلمين، وتركت ثنتي عشرة عنزًا وصيصيتها[(١)] قال: ففقدت عنزًا وصيصيتها، فقالت: كانت تنسج بها، فقالت: يا رب إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزًا من غنمي وصيصيتي، وإني أنشدك عنزي وصيصيتي، قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة مناشدتها ربها تبارك وتعالى، قال رسول الله ﷺ: «فأصبحت عنزها ومثلها وصيصيتها ومثلها» وهاتيك فائتها إن شئت قال: فقلت: بل أصدقك[(٢)].

وكان شيبان الراعي يرعى غنمًا، فإذا جاءت الجمعة خط عليها خطًّا وذهب إلى الجمعة، ثم يرجع وهي كما تركها[(٣)].

وكان بعض السلف بيده الميزان يزن بها دراهم فسمع الأذان، فنهض ونفضها على الأرض، وذهب إلى الصلاة، فلما عاد جمعها فلم يذهب منها شيء.

ومن أنواع حفظ الله لمن حفظه في دنياه أن يحفظه من شر كل من يريده بأذى من الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ١] قالت عائشة رضي الله عنها: يكفيه غم الدنيا وهمها[(٤)].

وقال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس[(٥)]. وكتبت

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٦٧): الصيصية: الوتد الذي يقلع به التمر، والصنارة التي يغزل بها وينسج.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٦٧) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٧٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٧).

(٣) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣١٧) وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٣٧٦).

(٤) ذكره عنها ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٦٠ رقم ١٨٩١٢) والسيوطي في الدر المنثور (٨/ ١٩٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وذكره الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٠٢) والطبري في تفسيره (٢٨/ ١٣٨، ١٣٩) والسيوطي في تفسيره (٨/ ١٩٨) وابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٨١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٠٦) وعمدة القاري (٢٣/ ٦٩).

عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئًا[١].

وكتب بعض الخلفاء إلى الحكم بن عمرو الغفاري كتابًا يأمره فيه بأمر يخالف كتاب الله، فكتب إليه الحكم: إني نظرت في كتاب الله فوجدته قبل كتاب أمير المؤمنين، وأن السموات والأرض لو كانتا رتقاً على امرءٍ فاتقى الله عز وجل جعل له مخرجًا، والسلام[٢] وكتب وأنشد بعضهم:

بتقوى الإله نجا من نجا ... وفاز وصار إلى ما رجا
ومن يتق الله يجعل له ... كما قال من أمره مخرجا[٣]

كتب بعض السلف إلى أخيه: أما بعد، فإنه من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيَّع تقواه فقد ضيَّع نفسه، والله الغني عنه[٤].

ومن عجيب حفظ الله تعالى لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى وساعية في مصالحه، كما جرى لسفينة مولى النبي ﷺ، حيث كسر به المركب، وخرج إلى جزيرة، فرأى السبع، فقال: يا أبا الحارث أنا سفينة مولى النبي ﷺ فجعل يمشي حوله، ويدله على الطريق، حتى أوقفه عليها، ثم جعل يهمهم، كأنه يودعه وانصرف عنه[٥].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٠/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٠١ رقم ٥٨٦٩) وذكر الحكاية الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٤-٤٧٥) وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٥٧).

(٣) ذكر البيتين ونسبهما إلى أبي العتاهية، أبو الحسين الصيداوي في كتابه معجم الشيوخ (ص١٨٢).

(٤) ذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٧).

(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٦٧٥ رقم ٤٢٣٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وفي (٣/ ٧٠٢ رقم ٦٥٥٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والطبراني في الكبير (٧/ ٨٠ رقم ٦٤٣٢) والبزار في مسنده (٩/ ٢٨٥ رقم ٣٨٣٨) والبيهقي في الاعتقاد (ص ٣١٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٦٦ - ٣٦٧): رواه البزار والطبراني... ورجالهما وثقوا.

وكان أبو إبراهيم السايح قد مرض في برية بقرب دير، فقال: ولو كنت عند باب الدير لنزل الرهبان فعالجوني. فجاء السبع فاحتمله على ظهره حتى وضعه على باب الدير، فرآه الرهبان فأسلموا وكانوا أربعمائة[(١)].

وكان إبراهيم بن أدهم نائمًا في بستان، وعنده حية في فمها طاقة نرجس، فما زالت تذب عنه الذباب حتى استيقظ[(٢)]. فمن حفظ الله حفظه من الحيوانات المؤذية بالطبع، وجعل تلك الحيوانات حافظة له، ومن ضيَّع الله ضيَّعه الله بين خلقه، حتى يدخل عليه الضرر ممن كان يرجو أن ينفعه، ويصير أخص أهله به وأرفقهم به يؤذيه، كما قال بعضهم: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق خادمي وحماري[(٣)]. يعني: أن خادمه يسوء خلقه عليه ولا يطيعه، وحماره يستعصي عليه فلا يواتيه لركوبه.

فالخير كله مجموع في طاعة الله والإقبال عليه، والشر كله مجموع في معصية الله والإعراض عنه. قال بعض العارفين: من فارق سدة سيده لم يجد لقدميه قرارًا أبداً:

والله ما جئتكم زائرًا ... إلا وجدت الأرض تطوى لي
ولا ثنيت العزم عن بابكم ... إلا تعثرت بأذيالي[(٤)]

---

(١) أنكر هذه الحكاية الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٨-٢٢٩) بقوله: هذه حكاية منكرة، قال القاضي أبو يعلى: نقلت من خط أبي إسحاق بن شاقلا أخبرني عمر بن علي، حدثنا جعفر الرزاز جارنا، سمعت أبا جعفر محمد بن المولى، سمعت عبد الله، فذكرها، فلعلها من وضع الرزاز. وذكر القصة ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٤١١-٤١٢ رقم ٢٩١) وانظر: المقصد الأرشد لابن مفلح (٢/ ٧).

(٢) أخرج هذه القصة ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦/ ٣١٨) وذكرها ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ١٥٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم عن الفضيل بن عياض في الحلية (٨/ ١٠٩) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٤٨/ ٣٨٣) والتدوين في أخبار قزوين (٤/ ٣١٣) وصفة الصفوة (٢/ ٢٣٨).

(٤) ذكر البيتين الذهبي في السير (٢١/ ٥٨) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٥٦ رقم ٢٢٥٩).

النوع الثاني من الحفظ وهو أشرفها وأفضلها: حفظ الله تعالى لعبده في دينه، فيحفظ عليه دينه وإيمانه في حياته من الشبهات المردية والبدع المضلة والشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإسلام، قال الحكم بن أبان عن أبي مكي: إذا حضر الرجل الموت يقال للملك: شم رأسه قال: أجد في رأسه القرآن. قال: شم قلبه. قال: أجد في قلبه الصيام. قال: شم قدميه. قال: أجد في قدميه القيام. قال: حفظ نفسه حفظه الله عز وجل[(١)]، خرجه ابن أبي الدنيا.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب أن النبي ﷺ علَّمه أن يقول عند منامه: «**اللهم إن قبضت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[(٢)].

وفي حديث عمر عن النبي ﷺ أنه علَّمه أن يقول: «**اللهم احفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعدًا، واحفظني بالإسلام راقدًا، ولا تطع فيّ عدوًا ولا حاسدًا**»[(٣)] خرجه ابن حبان في صحيحه.

وكان النبي ﷺ إذا ودَّع من يريد السفر يقول له: «**أستودع الله دينكَ وأمانتكَ وخواتيم عملك**»[(٤)]، وفي رواية: وكان يقول: «**إن الله إذا استودع شيئًا حفظه**»[(١)]

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٢٠) ومسلم (رقم ٢٧١٤).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢١٤ رقم ٩٣٤) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٤٣٠) والحاكم (١/ ٧٠٦ رقم ١٩٢٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (١/ ٤٦٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١١٨٣)، والطبراني في الدعاء (رقم ١٤٤٥) وابن فضيل الضبي في الدعاء (رقم ٧٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٧) وفيض القدير (٢/ ١٢٠).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ١٠٦ رقم ٢٤٧٥، ٢٤٧٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والنسائي في سننه الكبرى (٦/ ١٣٠ رقم ١٠٣٤٠، ١٠٣٤١) وأبو داود (رقم ٢٦٠٠، ٢٦٠١) وابن ماجه (رقم ٢٨٢٦) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٥١ رقم ١٠٠٩١، ١٠٠٩٢) والترمذي (رقم ٣٤٤٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

خرجه النسائي وغيره.

وخرج الطبراني حديثًا مرفوعًا: «**أن العبد إذا صلى الصلاة على وجهها صعدت إلى الله ولها برهان: كبرهان الشمس، وتقول لصاحبها: حفظك الله كما حفظتني. وإذا ضيَّعها لفت كما يلف الثوب الخلق، ثم يضرب بها وجه صاحبها، وتقول: ضيَّعك الله كما ضيَّعتني**»[(٢)].

وكان عمر ﷺ يقول في خطبته: اللهم اعصمنا بحفظك، وثبتنا على أمرك[(٣)].

ودعا رجل لبعض السلف بأن يحفظه الله، فقال: يا أخي لا تسأل عن حفظه، ولكن قل: يحفظ الإيمان. يعني: إن المهم هو الدعاء بحفظ الدين، فإن الحفظ الدنيوي قد يشترك فيه البر والفاجر، فالله تعالى يحفظ على المؤمن دينه، ويحول بينه وبين ما يفسده عليه بأسباب قد لا يشعر العبد ببعضها وقد يكون يكرهه، وهذا كما حفظ يوسف ﷺ قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فمن أخلص لله خلَّصه الله من السوء والفحشاء، وعصمه منها من حيث لا يشعر، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة، كما رأى معروف الكرخي شبابًا يتهيئون في الخروج إلى القتال في فتنة،

=

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ١٣٢ رقم ١٠٣٥٠، ١٠٣٥١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٧٣ رقم ١٨٣٥٨) والطبراني في الأوسط (٥/ ٦٠ رقم ٤٦٦٧) (٧/ ١٧- ١٨ رقم ٦٧٢٥) وفي الكبير (١٢/ ٤٢٧ رقم ١٣٥٧١) وأحمد (٢/ ٨٧) وعبد بن حميد (رقم ٨٥٥) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢١١ رقم ٣٣٤٢) والطبراني في الدعاء (رقم ٨٢٨)، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٢٦٣ رقم ٣٠٩٥) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٣٩ رقم ٤٢٧) والبزار في مسنده (٧/ ١٤٠ رقم ٢٦٩١) (٧/ ١٥١ رقم ٢٧٠٨) والطيالسي (رقم ٥٨٥) والبيهقي في الشعب (٣/ ١٤٣-١٤٤رقم ٣١٤٠) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٢٢): رواه الطبراني في الكبير والبزار بنحوه، وفيه الأحوص بن حكيم، وثقه ابن المديني والعجلي، وضعفه جماعة، وبقية رجاله موثقون.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (/ ٥٤)، وفيه: اعصمنا بحبلك.

فقال: اللهم احفظهم، فقيل له تدعو لهؤلاء فقال: إن حفظهم لم يخرجوا إلى القتال[١].

وسمع عمر رجلاً يقول: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحل بيني وبين معاصيك[٢]. فأعجب عمر ودعا له بخير.

وروى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿تَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار[٣].

حج بعض المتقدمين فبات بمكة مع قوم فهم بمعصية فسمع هاتفًا يهتف يقول: ويلك ألم تحج؟[٤] فعصمه الله مما هم به. وخرج بعضهم مع رفقة إلى معصية فلما هم بمواقعتها هتف به هاتف: كل نفس بما كسبت رهينة فتركها[٥].

ودخل رجل غيضة ذات شجر فقال: لو خلوت هاهنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع صوتًا ملأ ما بين حافتي الغيضة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤][٦]. وهم رجل بمعصية فخرج إليها فمر في طريقه بقاص يقص على الناس، فوقف على حلقة فسمعه يقول: أيها الهام بالمعصية، أما علمت أن خالق الهمة مطلع على همتك؟ فوقع مغشيًا عليه، فما أفاق إلا من توبة[٧].

كان بعض الملوك الصالحين قد تعلق قلبه بمملوك له جميل، فخشي على نفسه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص١١٤) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٤٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢١٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٨٠ رقم ٨٩٥٤، ٨٩٥٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٨ رقم ٣٢٦٥) وقال: هذا حديث صحيح. وانظر: الدر المنثور (٤/ ٤٤-٤٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا عن محمد بن مخلد في كتاب الهواتف (رقم ١٧٢) وفيه: ويلك ألم تحج. مرتين.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا عن عمرو بن جرير في كتاب الهواتف (رقم ٢٦).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (رقم ٢٧) والخطيب البغدادي في تاريخه (٦/ ٢٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١١ رقم ٨٧٧) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٦٢).

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥٩ رقم ٧٢٨٤).

فقام ليلة فاستغاث الله فمرض المملوك من ليلته ومات بعد ثلاث.

ومنهم من عصم نفسه بموعظة جرت على لسان من أراد منه الموافقة على المعصية، كما جرى لأحد الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة، فإنه لما جلس من تلك المرأة مجلس الرجل من امرأته قالت له: يا عبد الله اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقام عنها[(١)]، وكذلك الكفل من بني إسرائيل كان لا يتورع عن معصية فأعجبته امرأة فأعطاها ستين دينارًا، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت، وقال: أكرهتك؟ قالت: لا ولكن عمل ما عملته قط، وإنما حملني عليه الحاجة، فقال: تخافين الله ولا أخافه، ثم قام عنها ووهب لها الدنانير، وقال: والله لا يعصي اللهَ الكفلُ أبدًا. ومات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: قد غفر الله للكفَل[(٢)]، خرج الإمام أحمد والترمذي حديثه هذا من حديث ابن عمر مرفوعًا.

وراود رجل امرأة عن نفسها، وأمرها بغلق الأبواب ففعلت، وقالت له: قد بقي باب واحد. قال: أي باب؟ قالت: الباب الذي بيننا وبين الله تعالى. فلم يتعرض لها. وراود رجل أعرابية قال لها: ما يرانا إلا الكواكب. قالت: فأين مكوكبها؟![(٣)] وهذا كله من ألطاف الله تعالى وحيلولته بين العبد ومعصيته.

قال الحسن وذكر أهل المعاصي: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٢١٥) ومسلم (رقم ٢٧٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٦١ رقم ٣٤٢٠٩) وأبو يعلى (١٠/ ٩٠ - ٩١ رقم ٥٧٢٦) والبيهقي في الشعب (٥/ ٤١٣ رقم ٧١٠٩) والترمذي (رقم ٢٤٩٦) وقال: هذا حديث حسن، بينما ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٩٢) هكذا وقع في هذه الرواية: الكفل من غير إضافة والله أعلم، وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وإسناده غريب.

(٣) أخرج هذه القصة البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١١-٥١٢رقم ٨٧٨، ٨٧٩) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٦٢) وفيض القدير (١/ ٥٥١). وصفة الصفوة (٤/ ٣٩٥).

(٤) ذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٨) وأخرجه بلفظ قريب ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٤/ ١٥١) عن ابن المبارك وأبي سليمان الداراني. وأبو نعيم في الحلية عن أبي سليمان (٩/ ٢٦١) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٨).

وقال بشر: ما أصر على معصية الله كريم ولا آثر الدنيا على الآخرة حليم[١].

ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه أن العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا. إما الولايات أو التجارات أو غير ذلك، فيحول الله بينه وبين ما أراده لما يعلم له من الخيرة في ذلك، وهو لا يشعر مع كراهته لذلك.

قال ابن مسعود ﷺ: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة فينظر الله إليه، فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار. فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير، يقول: سبقني فلان، دهاني فلان. وما هو إلا فضل الله عز وجل[٢].

وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات ولا يكون فيه خيره، فيحول الله بينه وبينه صيانة له وهو لا يشعر.

وخرج الطبراني وغيره حديث أنس مرفوعًا، يقول الله عز وجل: **«إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من يطلب باباً من العبادة فأكفه عنه كيلا يدخله العجب، إني أدبر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني عليم خبير»**[٣].

كان بعض المتقدمين يكثر سؤال الشهادة، فهتف به هاتف: إنك إن غزوت أسرت، وإن أسرت تنصرت[٤] فكف عن سؤاله.

وفي الجملة فمن حفظ حدود الله وراعى حقوقه تولى الله حفظه في أمور دينه ودنياه

---

(١) ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٢١٤) بلفظ قريب عن هرم بن حيان رحمه الله.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٢٩) وذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨-٣١٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٧/ ٩٥-٩٦) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٤٠) وتاريخ بغداد (٦/ ١٤) وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٩) (٤/ ١١٦) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٨٨، ٣٥٩).

(٤) انظر: التدوين في أخبار قزوين (١/ ٣٩٩).

وفي دنياه وآخرته. وقد أخبر الله تعالى في كتابه: أنه ولي المؤمنين وأنه يتولى الصالحين، وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحهم في الدنيا والآخرة ولا يكلهم إلى غيره.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]. وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦].

فمن قام بحقوق الله عليه، فإن الله يتكفل له بالقيام بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، فمن أراد أن يتولى الله حفظه ورعايته في أموره كلها فليراع حقوق الله عليه، ومن أراد أن لا يصيبه شيء مما يكره فلا يأت شيئًا مما يكرهه الله.

كان بعض السلف يدور على المجالس، ويقول: من أحب أن تدوم له العافية فليتق الله. وقال العمري الزاهد لمن طلب منه الوصية: كما تحب أن يكون الله لك، فهكذا كن لله عز وجل(١). وفي بعض الآثار يقول الله: وعزتي وجلالي لا أطلع على قلب عبد، فأعلم أن الغالب عليه حب التمسك بطاعتي، إلا توليت سياسته وتقويمه(٢). وفي بعض الكتب المتقدمة يقول الله عز وجل: ابن آدم ألا تعلمني ما يضحكك، ابن آدم اتقني. ونم حيث شئت(٣).

والمعنى: أنك إذا قمت بما عليك لله من حقوق التقوى فلا تهتم بعد ذلك بمصالحك، فإن الله هو أعلم بها منك، وهو يوصلها إليك على أتم الوجوه من غير اهتمام منك بها.

وفي حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع بلفظ قريب (رقم ٢٣).

(٢) ذكره ابن قدامة المقدسي في المتحابين في الله (ص ٥٣) عن صالح بن عبد الكريم.

(٣) انظر: التدوين في أخبار قزوين (١/ ١٩٣) وكشف الخفاء (١/ ١٤٦ رقم ٣٧٩) والإرشاد (٣/ ٩٥٠ رقم ٢٤٥).

فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه»[١]، فهذا يدل على أنه على قدر اهتمام العبد بحقوق الله وبأداء حقوقه ومراعاة حدوده واعتنائه بذلك وحفظه له، يكون اعتناؤه به وحفظه له فمن كان غاية همه رضي الله عنه وطلب قربه ومعرفته ومحبته وخدمته، فإن الله يكون له على حسب ذلك، كما قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ [البقرة: ٤٠] بل هو سبحانه أكرم الأكرمين، فهو يجازي بالحسنة عشراً ويزيد، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة[٢]، ما يوتي الإنسان إلا من قبل نفسه، ولا يصيبه المكروه إلا من تفريطه في حق ربه عز وجل.

قال علي ﷺ: لا يرجونَّ عبد إلا ربه، ولا يخافَنَّ إلا ذنبه[٣].

وقال بعضهم: من صفى صُفي له، ومن خلط خُلط عليه[٤].

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٦٧١ رقم ١٨٢٠) والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٧ رقم ٢٥٠١) وأبو يعلى (٣/ ٣٩٠ رقم ١٨٦٥) وعبد بن حميد (رقم ١١٠٧) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٩٨ رقم ٥٢٨) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٧/ ١٩٤- ١٩٥) قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (١/ ٣٦٩ رقم ١١٥٤): قال الأزدي: حجاج مجهول ضعيف، وإسحاق هذا مجهول لا يكتب حديثه، وعمر وأيوب ضعيفان، فقد جمع الله على هذا الحديث الضعفاء، بينما حسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٦١ رقم ٢٣٢٥) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الهيثمي في المجمع: وفيه عمر بن عبد الله مولى عفرة، وقد وثقه غير واحد، وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح. وانظر: نوادر الأصول للحكيم الترمذي (٢/ ١٢٦).

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». أخرجه البخاري رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥).

(٣) انظر: صفة الصفوة (١/ ٣٢٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٩٥) عن مطرف بن الشخير، وذكره ابن الجوزي من قول أبي سليمان الداراني، وفيه: ومن كدر كدر عليه، انظر: صفة الصفوة (٤/ ٢٢٩).

وقال مسروق: من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه[١]. وبسط هذا المعنى يطول جدًّا، وفيما أشرنا إليه كفاية، ولله الحمد.

وقوله ﷺ: «**تجده أمامك**» وفي رواية أخرى: «**تجاهك**» معناه: أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في جميع الأحوال، يحوطه وينصره، ويحفظه ويوفقه، ويؤيده ويسدده، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت، وهو تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

قال قتادة: ومن يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل[٢].

كتب بعض السلف إلى أخ له: أما بعد: إن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو[٣]؟! والسلام.

وهذه المعية بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨]، فإن المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان النبي ﷺ قد قال لأبي بكر الصديق ﵁ في تلك الحال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[٤] فهذا غير المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ

---

(١) انظر: صفة الصفوة (٤/ ١٢٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٣٩-٣٤٠) وانظر: صفة الصفوة (٣/ ٢٥٩).
(٣) انظر: تاريخ مدينة دمشق (٤١/ ٢٥٤).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٦٣) ومسلم (رقم ٢٣٨١).

مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] الآية.

فإن ذلك عام لكل جماعة، ومن هذا المعنى الخاص الحديث الإلهي، وقوله فيه: **«ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»**(١) إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة، الدالة على قرب الرب سبحانه ممن أطاعه واتقاه، وحفظ حدوده وراعاه.

دخل بنان الحمال البرية على طريق تبوك فاستوحش فهتف به هاتف: لِمَ تستوحش؟ أليس حبيبك معك؟(٢). فمن حفظ الله وراعى حقوقه وجده أمامه وتجاهه على كل حال، فليستأنس به، وليستغن به عن خلقه.

وفي الحديث: أفضل الإيمان أن يعلم العبد أن الله معه حيث كان(٣)، خرجه الطبراني وغيره، وبسط هذا القول يطول جدًّا. كان بعض العلماء الربانيين كثير السفر وحده، فخرج الناس مرة معه يودعونه، فردهم، وأنشد.

إذا نحـــن أدلجنـــا وأنـــت أمامنـــا ... كفى لمطايانا بذكراك هاديـــــا(٤)

وكان الشبلي ينشد هذا البيت، وربما قطع مجلسه عليه.

قوله ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» المعنى: أن العبد إذا اتقى

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢).

(٢) انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٣٢٤)، وتاريخ بغداد (٧/ ٢٢٩) وصفة الصفوة (٢/ ٤٤٩) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٨٨).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٣٣٦ رقم ٨٧٩٦) وفي مسند الشاميين (١/ ٣٠٥ رقم ٥٣٥) (٢/ ٣١٨ رقم ١٤١٦). وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٤، ٣٧، ١٨٨) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٠): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وقال: تفرد به عثمان به كثير، قلت: ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح.

(٤) ذكره الذهبي في السير (١٨/ ١٣٧) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٦/ ٦٧) وابن حجر في الإصابة (٥/ ١٤٥ رقم ٦٤٩٢) وابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١١٨٢).

الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه وصحته، فقد تعرف بذلك إلى الله، وكان بينه وبينه معرفة، فعرفه ربه في الشدة، وعرف له عمله في الرخاء، فنجاه من الشدائد بتلك المعرفة، وهذه أيضًا معرفة خاصة تقتضي القرب من الله عز وجل، ومحبته لعبده، وإجابته لدعائه، وليس المراد بها المعرفة العامة، فإن الله لا يخفى عليه حال أحد من خلقه، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦].

وهذا التعرف الخاص هو المشار إليه في الحديث الإلهي: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**» إلى أن قال: «**ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه**».

اجتمع الفضيل بشعوانة العابدة فسألها الدعاء، فقالت: يا فضيل وما بينك وبينه؟ إن دعوته أجابك. فشهق الفضيل شهقة خرَّ مغشيًا عليه[(١)].

وقال أبو جعفر السايح: أتى الحسن إلى حبيب أبي محمد هاربًا من الحجاج، فقال: يا أبا محمد احفظني من الشرط هم على أثري. فقال: يا أبا سعيد أليس بينك وبينه من الثقة ما تدعوه فيسترك من هؤلاء؟ ادخل البيت، فدخل الشرط على أثره فلم يروه، فذكروا ذلك للحجاج، فقال: بل كان في بيته، إلا أن الله طمس على أعينهم، فلم يروه[(٢)]. ومتى حصل هذا التعرف الخاص للعبد حصل للعبد معرفة خاصة بربه، توجب له الأنس به والحياء منه، وهذه معرفة خاصة غير معرفة المؤمنين العامة، ومدار العارفين كلهم على هذه المعرفة وهذا التعرف، وإشاراتهم تومي إلى هذا.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٣) وانظر: صفة الصفوة (٤/ ٥٦).

(٢) ذكر القصة المزي في تهذيب الكمال (٥/ ٣٩٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٤٨). والمصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٩).

سمع أبو سليمان رجلاً يقول: سهرت البارحة في ذكر النساء. فقال: ويحك أما تستحي منه، يراك ساهراً في ذكر غيره، ولكن كيف تستحي ممن لا تعرف[١].

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي وليس معرفته: الإقرار به ولكن المعرفة: الذي إذا عرفته استحييت منه[٢]. وهذه المعرفة الخاصة والتعرف الخاص توجب طمأنينة العبد بربه وثقته به في إنجائه من كل شدة وكرب، وتوجب استجابة الرب دعاء عبده.

لما اختفى الحسن البصري من الحجاج قيل له: لو خرجت من البصرة فإنا نخاف أن يدل عليك. فبكى، ثم قال: أخرج من مصري وأهلي وإخواني، إن معرفتي بربي وبنعمه علي تدلني على أن سينجيني ويخلصني منه إن شاء الله تعالى. فما ضره الحجاج بشيء، ولقد كان يكرمه، بعد ذلك إكرامًا شديدًا.

وقال رجل لمعروف: ما الذي هيجك على الانقطاع والعبادة؟ ذكر الموت والبرزخ والجنة والنار؟ فقال معروف: أي شيء هذا؟! إن ملكًا هذا كله بيده إن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا[٣]. ومما يبين هذا ويوضحه الحديث الذي خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: **«من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد، فليكثر الدعاء في الرخاء»**[٤].

وخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم من حديث يزيد الرقاشي عن أنس يرفعه: **«أن يونس ﷺ لما دعا في بطن الحوت قالت الملائكة: يا**

---

(١) ذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٨٢). وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦٥) وانظر: صفة الصفوة (٤/ ٢٣٠).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم٣٣٨٢) وأبو يعلى (١١/ ٢٨٣-٢٨٤ رقم ٦٣٩٦، ٦٣٩٧) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣١٣ رقم ٢٥١٧): رواه الترمذي والحاكم من حديثه [أي: حديث أبي هريرة] ومن حديث سلمان، وقال في كل منهما: صحيح الإسناد، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٠).

رب هذا صوت معروف في بلاد غريبة، فقال الله: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة، قال: نعم، قالوا: يا ربِّ أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الله الحوت فطرحه بالعراء»[(١)].

وقال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس ﵇ كان يذكر الله، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [١٤٣، ١٤٤]، وإن فرعون كان طاغيًا، ناسيًا لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: آمنت، فقال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١][(٢)].

وقال رشدين بن سعد: قال رجل لأبي الدرداء ﵁: أوصني، فقال: اذكر الله في السراء، يذكرك في الضراء. فنزلت به ضراء: فدعا الله عز وجل، فقالت: الملائكة صوت معروف، فشفعوا له، وإذا كان ليس بدعاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله عز وجل قالت الملائكة: صوت ليس بمعروف فلا يشفعون له[(٣)]. وحديث الثلاثة الذي دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة[(٤)] يشهد لهذا أيضًا، فإن الله فرج عنهم بدعائهم بما كان سبق منهم من الأعمال الصالحة الخالصة في حال الرخاء من

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٠٠) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٢٨ رقم ١٨٢٨١) والطبراني في الدعاء (رقم ٤٧). وانظر: الدر المنثور (٥/ ٦٦٧-٦٦٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٩٣) (٤/ ٢٢، ٤١٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٠٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٣٨ رقم ٣٤٧٩٤) وانظر: الدر المنثور (٧/ ١٢٦) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٩٠).

(٣) انظر: الدر المنثور (١/ ٣٦٧) ومصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٦١ رقم ٢٩٤٨٠) (٧/ ١٢١ رقم ٣٤٦٦٤) والوابل الصيب (ص ٦٤) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٩٠) وشعب الإيمان (٢/ ٥١-٥٢ رقم ١١٤٠) والزهد للإمام أحمد (ص ٣١٣) كلهم عن سلمان.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٢١٥) ومسلم (رقم ٢٧٤٣).

بر الوالدين وترك الفجور وآداء الأمانة الخفية، فإذا علم أن التعرف إلى الله تعالى في الرخاء يوجب معرفة الله لعبده في الشدة، فلا شدة يلقاها العبد في الدنيا أعظم من شدة الموت، وهي أهون مما بعدها إن لم يكن مصير العبد إلى خير، وإن كان مصيره إلى خير فهي آخر شدة يلقاها، فالواجب على العبد الاستعداد للموت قبل نزوله بالأعمال الصالحة والمبادرة إلى ذلك، فإنه لا يدري المرء متى تنزل به هذه الشدة من ليل أو نهار. وذكر الأعمال الصالحة عند الموت مما يحسن ظن المؤمن بربه، ويهوِّن عليه شدة الموت، ويقوِّي رجاءه.

قال بعضهم: كانوا يستحبون أن يكون للمرء خبيئة من عمل صالح[١]. ليكون أهون عليه عند نزول الموت أو كما قال، وكانوا يستحبون أن يموت الرجل عقب طاعة عملها في حج أو جهاد أو صيام[٢].

وقال النخعي: كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه[٣].

قال أبو عبد الرحمن السلمي في مرضه: كيف لا أرجو ربي وقد صمت له ثمانين رمضان[٤].

---

(١) عن قيس بن أبي حازم قال: قال الزبير بن العوام: من استطاع منكم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل.
أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٧٧ رقم ٨٨٣) وأخرجه مرفوعًا إلى النبي ﷺ وضعفه محقق الأحاديث المختارة (رقم ٨٨٤) وكذا القضاعي في مسند الشهاب (رقم ٤٣٤) وأخرجه موقوفًا على الزبير، ابن الجعد في مسنده (رقم ٦٨٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٠٩).

(٢) عن طلحة قال خيثمة: كان يعجبهم أن يموت الرجل بعد خير يعمله، إما حج وإما عمرة وإما غزاة وإما صيام رمضان، أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (رقم ٨٢٠) وانظر: صفة الصفوة (٣/ ٩٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين (رقم ٢٧) وفي حسن الظن بالله (رقم ٣٠) والبيهقي في الشعب (٢/ ٦-٧ رقم ١٠٠٧)، وذكره الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٢/ ١٠٤)، وانظر: سبل السلام للصنعاني (٢/ ٩٠).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين (رقم ٢٩٠) وفي حسن الظن بالله (رقم ١٢٧) وانظر: =

ولما احتضر أبو بكر بن عياش وبكوا عليه، قال: لا تبكوا، فإني ختمت القرآن في هذه الزاوية ثلاثة عشر ألف ختمة[١]. وروي عنه أنه قال لابنه: أترى أن الله يضيع لأبيك أربعين سنة يختم كل ليلة[٢]؟

وقال بعض السلف لابنه عند موته ورآه يبكي، قال: لا تبكي، فما أتى أبوك فاحشة قط[٣].

وختم آدم ابن أبي إياس القرآن وهو مسجى للموت، ثم قال: بحبي لك إلا رفقت بي في هذا المصرع، كنت أؤملك لهذا، كنت أرجوك لهذا، لا إله إلا الله. ثم قضى رحمه الله[٤].

وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند موته: سيدي لهذه الساعة خبأتك، حقق حسن ظني بك[٥].

وقال ابن عقيل عند موته وقد بكى النسوة: قد وقفت عنه خمسين سنة فدعوني أتهنى بلقائه.

ولما هجم القرامطة على الحجاج وقتلوهم في الطواف وكان علي بن باكويه الصوفي يطوف فلم يقطع الطواف والسيوف تأخذه حتى وقع فأنشد:

ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وبعده بيت آخر:

=

جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٠).

(١) ذكره المزي في تهذيب الكمال (٣٣/ ١٣٤) إلا أن فيه: «أربعة وعشرين ألف ختمة» والخطيب البغدادي في تاريخه (١٤/ ٣٨٣) وفيه: ثمان عشرة ألف ختمة، وتبعه ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ١٦٦).

(٢) ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه (١/ ٤٠٧) (١٤/ ٣٨٣) وابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ١٦٦).

(٣) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٨٣).

(٤) صفة الصفوة (٤/ ٣٠٨).

(٥) صفة الصفوة (٢/ ٤٨١-٤٨٢).

تـالله لـو حلـف الأحـباب أنهـم موتى من البين يوم البين مـا حنثـوا

فمن أطاع الله واتقاه وحفظ حدوده في حياته تولاه الله عند وفاته، وتوفاه على الإيمان، وثبته بالقول الثابت في القبر عند سؤال الملكين، ودفع عنه عذاب القبر، وآنس وحشته في تلك الوحدة والظلمة.

ورؤي بعض العلماء الصالحين في النوم بعد موته، فسئل عن حاله؟ فقال: يؤنسني ربي عز وجل(١). فمن كان الله سبحانه وتعالى أنيسه في خلواته في الدنيا فإنه يرجى أن يكون أنيسه في ظلمات اللحود إذا فارق الدنيا وتخلى عنها، وفي هذا يقول بعضهم:

فيا رب كن لي مؤنسًا يـوم وحـشتي فـإني بـها أنـزلـته لمصـدق
ومـا ضرنـي أني إلـى الله صـائر ومن هـو من أهـلي أبـر وأرفـق

وكذلك أهوال القيامة وأفزاعها وشدائدها إذا تولى الله عبده المطيع له في الدنيا أنجاه من ذلك كله.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢] قال: من الكرب عند الموت، ومن أفزاع يوم القيامة(٢).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة(٣).

وقال زيد بن أسلم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] قال: يبشر في ذلك عند موته، وفي قبره، ويوم البعث، فإنه لفي الجنة

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٣٦) وتاريخ مدينة دمشق (٥/ ١٠٧) وطبقات المحدثين بأصبهان (٣/ ٣٨١) وتاريخ أصبهان (٢/ ١٠١).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩١).

(٣) انظر: الدر المنثور (٨/ ١٩٥- ١٩٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٨١)، وجامع العلوم والحكم (١/ ١٩١).

وما ذهبت فرحة البشارة من قلبه[(١)].

وقال ثابت البناني في هذه الآية: بلغنا أن المؤمن حين يبعثه الله من قبره يتلقاه ملكاه اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن. فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما من عظيمة تغشى الناس يوم القيامة إلا وهي للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل في الدنيا[(٢)]، خرج ذلك كله ابن أبي حاتم وغيره.

وأما من لم يتعرف إلى الله في الرخاء فليس له أن يعرفه في الشدة، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وشواهد هذا مشاهدة حالهم في الدنيا وحالهم في الآخرة أشد تبذله لغيري، وفي المعنى يقول بعضهم: وما لهم من ولي ولا نصير.

قوله ﷺ: **«إذا سألت فاسأل الله»**، أمر بإفراد الله تعالى بالسؤال، ونهى عن سؤال غيره من الخلق، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بسؤاله، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

وفي الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: **«من لا يسأل الله يغضب عليه»**[(٣)]، وفيه أيضًا عن أبي هريرة: **«اسألوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل»**[(٤)] وفيه

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩١).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩١)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٢٤) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٨٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٠)

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٣) والطبراني في الأوسط (٣/ ٤٧ رقم ٢٤٣١) وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ١٠ رقم ٦٦٥٥) وأحمد (٢/ ٤٤٢) والحاكم (١/ ٦٦٧ رقم ١٨٠٦) وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥ رقم ١٠٩٩) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٥٨) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٣).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٧١) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٠١ رقم ١٠٠٨٨) وفي الدعاء (رقم ٢٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٣ رقم ١١٢٤) (٧/ ٢٠٥ رقم ١٠٠٠٧) وعبد الغني المقدسي في الترغيب في الدعاء (رقم ١١) والطبري في تفسيره (٥/ ٤٩) وانظر: الدر المنثور (٢/ ٥٠٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٨٩) والاستذكار (٢/ ٥٢٥) والترغيب والترهيب (٢/ ٣١٦ رقم ٢٥٣٣).

أيضًا: «أن الله يحب الملحين في الدعاء»[١]. وفي حديث آخر: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»[٢]، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة، وفي النهي عن سؤال الخلق أحاديث كثيرة صحيحة.

وفي حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «لا يزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه، فما يكون له عند الله وجه»[٣].

وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا[٤]. منهم الصديق ﷺ وأبو ذر وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته، فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه ﷺ.

واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعًا، وذلك من وجوه متعددة، منها: أن السؤال فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل، وذلك لا يصلح إلا لله وحده، فلا يصلح الذل إلا له بالعبادة والمسألة، وذلك من غاية المحبة الصادقة.

سئل يوسف بن الحسين: ما بال المحبين يتلذذون بذلهم في المحبة، فأنشد:

ذل الفتى في الحب مكرمة   وخضوعه لحبيبه شرف

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٤٥ رقم ١٠٦٩) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٨٢) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥) وعمدة القاري (٢٢/ ٢٧٦) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/ ٤٨) وفيض القدير (٢/ ١٧٩، ٢٩٢).

(٢) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (٥/ ٩ رقم ١٦١٠) وصوّب إرساله، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٤٨ رقم ٨٦٦) (٣/ ١٧٦ رقم ٨٩٤، ٨٩٥) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٤٠٢) وأبو يعلى (٦/ ١٣٠ رقم ٣٤٠٣) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩١، ٢٢٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٠) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة.

(٣) أخرجه الطبراني من حديث مسعود بن عمرو (٢٠/ ٣٣٣ رقم ٧٩٠) فيكون ابن مسعود تصحيفًا أما حديث ابن عمر فلفظه: «ما يزال الرجل يسأل الناس، حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم» أخرجه البخاري (١٤٧٤) ومسلم (رقم ١٠٤٠) وانظر: الترغيب والترهيب (١/ ٣٢٣ رقم ١١٨٨) وفتح الباري (٣/ ٣٣٩) وعمدة القاري (٩/ ٥٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٠٤٣).

وهذا الذل وهذه المحبة لا تصلح إلا لله وحده، وهذا هو حقيقة العبادة، التي يختص بها الإله الحق، كان الإمام أحمد رحمه الله يقول في دعائه: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصنه عن المسألة لغيرك[١].

وقال أبو الحسين الأقطع: كنت بمكة سنة فأصابتني فاقة وضرر فكنت كلما أردت أن أخرج إلى المسألة هتف بي هاتف يقول: الوجه الذي تسجد لي به تبذله لغيري[٢] وفي المعنى يقول بعضهم:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... بدلاً وإن نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال وزنته ... رجح السؤال وخف كل نوال
فإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً ... فابذله للمتكرم المفضال[٣]

ولهذا المعنى كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم، كما ثبت ذلك في الصحيحين[٤]. لأنه أذهب عز وجهه وصيانته وماءه في الدنيا، فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي، فيصير عظماً بغير لحم، ويذهب جماله وبهاؤه المعنوي، فلا يبقى له عند الله وجاهة.

ومنها أن سؤال الله: عبودية عظيمة، لأنها إظهار الافتقار إليه واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها، فكيف يقدر على ذلك لغيره وسؤاله إقامة له مقام من يقدر، وليس هو بقادر.

ويشهد لهذا المعنى الحديث الذي في صحيح مسلم عن أبي ذر ﵁ عن النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٣٣)، وانظر: صفة الصفوة (٢/ ٣٤٩).
(٢) تاريخ مدينة دمشق (٦٦/ ١٦٧) وصفة الصفوة (٤/ ٢٨٣).
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٢١٠) وتاريخ مدينة دمشق (٥٨/ ٣٣٠) وصفة الصفوة (٣/ ٢٢٦). وفيض القدير (٣/ ٣٥).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٤) ومسلم (رقم ١٠٤٠).

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر»(١).

وفي الترمذي وغيره زيادة في هذا الحديث: «وذلك بأني جواد واجد ماجد، أفعل ما أريد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له: كن. فيكون»(٢) فكيف يسأل الفقير العاجز، ويُترك الغني القادر؟! إن هذا لأعجب العجب.

قال بعض السلف: إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو مالكها، فكيف أسألها من لا يملكها(٣). يعني المخلوق.

وحصل لبعض السلف ضيق في معيشته حتى هم أن يطلب من إخوانه، فرأى في منامه قائلاً يقول له:

أيحسن بالحر المريد، إذا وجد عند الله ما يريد، أن يميل بقلبه إلى العبيد(٤).

فاستيقظ وهو أغنى الناس قلبًا، وقال:

عذابه فيك عذب ... وبعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي ... بل أنت منها أحب
حسبي من الحب أني ... لما تحب أحب(٥)

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٩٥) وحسنه، وهناد السري في الزهد (٢/ ٤٥٦ رقم ٩٠٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٣، ٢٣٠).

(٣) انظر: فيض القدير (٥/ ٤٥٨) (٦/ ٣٩٧) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٦) وإسعاف المبطأ للسيوطي (ص١١) وتاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٦٤).

(٤) انظر: تاريخ جرجان (ص ١٩٥).

(٥) ذكر المصنف هذه الأبيات في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥) وانظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (١٨٠).

وأنشد أبو تراب:

لا تخـدعن فللمحـب دلائـل ... ولديه من تحف الحبيب وسـائل
منهـا تنعمـه بمـر بلائـه ... وسروره في كل مـا هـو فاعـل
فـالمنع منـه عطيـة مقبولـة ... والفقر إكـرام وبـر عـاجل

دخلوا على رجل قد قُتل ابنه في الجهاد يعزونه، فبكى وقال: ما أبكي على قتله، إنما أبكي: كيف كان رضاه عن الله حين أخذته السيوف:

إن كـان سـكان الغـضـا ... رضـوا بقـتلي فرضـا
والله لا كـنـت لـمـا ... يهـوي الحبيـب مبغـضـا
صرت لهـم عبـدًا ومـا ... للعبـد أن يعترضـا
هـم قلبـوا قلبـي مـن الـ ... ـشوق عـلى جمـر الغـضـا
يـا ليـت أيـام الحمـى ... يعـود مـا منهـا مـضـى
مـن لمـريض لا يـرى ... إلا الطبيـب المرضـا(١)

والمقصود أن النبي ﷺ أمر ابن عباس رضي الله عنهما بالعمل بالرضا إن استطاعه، ثم قال له: فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا.

وهذا يدل على أن الرضا بالأقدار المؤلمة ليس بحتم واجب، وإنما هو فضل مندوب إليه، فمن لم يستطع الرضا فليلزم الصبر، فإن الصبر واجب لابد منه، وفيه خير كثير، فإن الله تعالى أمر بالصبر، ووعد عليه جزيل الأجر، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

---

(١) ذكر الأبيات الثلاثة الأولى ومعها الأخير المصنف رحمه الله في كتابه: شرح حديث لبيك (٥٧).

وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

قال الحسن: الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن(١)، وقال سليمان الخواص: الصبر دون الرضا، فالرضا أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضيًا بأي شيء كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر(٢)، وحقيقة الفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر كف النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم، والرضا يوجب انشراح الصدر وسعته، وإن وجد الإحساس بأصل الألم، لكن الرضا يخفف الإحساس بالألم لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وقد يزيل الإحساس بالكلية، كما سبق تقرير هذا.

وقال طائفة من أكثر السلف منهم عمر بن عبد العزيز والفضيل وأبو سليمان وابن المبارك وغيرهم: إن الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها بخلاف الصابر.

وقد روي عن طائفة من الصحابة هذا المعنى أيضًا، وأنهم كانوا لا يتمنون غير ما هم عليه من الحال، منهم عمر وابن مسعود رضي الله عنهما، قال عبد العزيز بن أبي رواد: كان عابد يتعبد في بني إسرائيل فرأى في منامه أن فلانة زوجتك في الجنة، فاستضافها ثلاث ليال لينظر عملها، فكانت تنام وهو يقوم، وتفطر وهو يصوم، فلما فارقها سألها عن أوثق عملها عندها، قالت: هو ما رأيت إلا خصيلة واحدة، إن كنت في شدة لم أتمن أني في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمن أني في صحة، وإن كنت جائعة لم أتمن أني شبعانة، وإن كنت في شمس لم أتمن أني في فيء، فقال العابد: هذه والله خصلة يعجز عنها العباد(٣).

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ١٠٥) وحلية الأولياء (٥/ ٣٤٢).
(٢) حلية الأولياء (٨/ ٢٧٧).
(٣) حلية الأولياء (٨/ ١٩٣).

وكما أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى، كما صح ذلك عن النبي ﷺ[(١)]. فالرضا إنما يكون عند نزول البلاء، كما كان النبي ﷺ يقول في دعائه: **«وأسألك الرضا بعد القضاء»**[(٢)] لأن العبد قد يعزم على الرضا بالقضاء قبل وقوعه، فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة، فمن رضي بعد وقوع القضاء فهو الراضي حقيقة.

وفي الجملة فالصبر واجب لابد منه، وما بعده إلا التسخط، ومن سخط أقدار الله فله السخط، مع ما يتعجل له من الألم وشماتة الأعداء به أعظم من جزعه، كما قال بعضهم:

لا تجزعن من كل خطب عرى … ولا ترى الأعداء ما يشمتوا
يا قوم بالصبر ينال المنا … إذا لقيتم فئة فاثبتوا

وقال النبي ﷺ: «**من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا ولا أوسع من الصبر**»[(٣)].

وقال عمر: وجدنا خير عيشنا الصبر[(٤)]. وقال علي: إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له[(٥)].

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الجنة[(٦)] لا يعطيه الله إلا لمن كرم عليه[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٣) ومسلم (رقم ٩٢٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٥ رقم ١٩٧١) والحاكم (١/ ٦٩٧ رقم ١٩٠٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٥٠٩) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والطبراني في الأوسط (٦/ ١٦٥ رقم ٦٠٩١) وفي الكبير (١٨/ ٣١٩ رقم ٨٢٥) وفي مسند الشاميين (٢/ ٣٥١ رقم ١٤٨١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٤٦٩) ومسلم (رقم ١٠٥٣).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٥٠) وتغليق التعليق (٥/ ١٧٢) وتاريخ أصبهان (٢/ ١٦٥ رقم ١٣٦٥).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٤٦٩ رقم ٢١٠٣١) والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٢٤ رقم ٩٧١٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٥ـ٧٦)، وانظر: الدر المنثور (١/ ١٦١) وفيض القدير (٤/ ٢٣٤).

(٦) حلية الأولياء (١/ ٧٦) وتاريخ مدينة دمشق (٤٢/ ٥١٠، ٥١١) وصفة الصفوة (١/ ٣٢٦).

وقال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئًا من جسيم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر(٢).

وقال إبراهيم التيمي: ما من عبد وهبه الله صبرًا على الأذى، وصبرًا على البلاء، وصبراً على المصائب إلا وقد أوتي فضلاً ما أوتيه أحد بعد الإيمان بالله عز وجل.

وهذا منتزع من قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] والمراد بالبأساء الفقر ونحوه، وبالضراء المرض ونحوه، وحين البأس حال الجهاد.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكان ما انتزع منه الصبر، إلا كان ما عوضه خيرًا مما انتزع منه، ثم تلى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠](٣).

وكان بعض الصالحين في جيبه ورقة يفتحها كل ساعة فينظر فيها، وفيها مكتوب: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

والصبر الجميل: هو أن يكتم العبد المصيبة ولا يخبر بها.

قال طائفة من السلف في قوله تعالى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨] قال: لا شكوى معه. وكان الأحنف بن قيس قد ذهبت عينه من أربعين سنة لم يذكرها لأحد(٤).

=

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٠٩ رقم ٢١١١) (٢/ ٢٧ رقم ١٥٨٩). انظر: المصنوع للهروي (ص ١٧٠).

(٢) أخرجه أبو نعيمم في الحلية (٤/ ٩٠)، وانظر: الدر المنثور (١/ ١٦٣) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٧٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٩٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢١٢ رقم ١٠٠٣٨) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٧٥ رقم ٣٥٠٩٤) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٤٥/ ٢٣١).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٢).

وذهبت عينا عبد العزيز بن أبي رواد من عشرين سنة فتأمله ابنه يومًا فقال له: يا أبت قد ذهبت عيناك فقال: نعم، يا بني، الرضا عن الله اذهب عيني أبيك من عشرين سنة[١]، وكان الإمام أحمد رحمه الله لا يشتكي ما به من المرض لأحد. وذكر له أن مجاهداً كان يكره الأنين في المرض فتركه، فلم يئن حتى مات، وكان يقول لنفسه: يا نفس اصبري وإلا تندمي[٢].

ودخل بعض العارفين على مريض يقول: آه. فقال له ذلك العارف: ممن؟ وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

تفيض النفوس بأوصابها ... وتكتم عوادها ما بها
وما انصفت مهجة تشتكي ... هواها إلى غير أحبابها

قال يحيى بن معاذ: لو أحببت ربك ثم جوعك وأعراك لكان يجب أن تحتمله وتكتمه عن الخلق، فقد يحتمل الحبيب لحبيبه الأذى، فكيف وأنت تشكوه فيما لم يصنعه بك.

ويقبح من سواك الفعل عندي ... وتفعله فيحسن منك ذاكا[٣]

كان الرسول ﷺ وأصحابه يشدون على بطونهم الحجارة من الجوع.

كان أويس رحمه الله يلتقط الكسر من المزابل[٤]، والكلاب تزاحمه، فنبح عليه كلب يومًا، فقال: يا كلب لا تؤذي من لا يؤذيك، كل مما يليك، وآكل مما يليني، فإن دخلت الجنة فأنا خير منك، وإن دخلت النار فأنت خير مني.

وكان إبراهيم بن أدهم يلتقط السنبل مع المساكين، فرأى منهم كراهة المزاحمة،

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٩١).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٤١) وصفة الصفوة (٢/ ٣٥٧) وفيها أن الذي كان يكره الأنين هو طاوس وليس مجاهدًا.

(٣) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٣/ ٨٩).

(٤) انظر: المكاسب للحارث المحاسبي (ص ٦٩) وصفة الصفوة (٣/ ٥٥).

فقال: أنا تركت ملك بلخ أفأزاحم المساكين على لقاط السنبل. فكان بعد ذلك لا يلتقط إلا مع الدواب التي ترعى فيه(١).

وكان الإمام أحمد يلتقط السنبل مع المساكين أيضًا، وآجر سفيان الثوري نفسه من جمالين في طريق مكة، فطبخ لهم طعاماً فأفسده فضربوه.(٢)

كان فتح الموصلي يوقد النار للناس بالأجرة:

من أجلك قد أنزلت خدي أرضا ... للشامت والحسود حتى ترضى
مولاي إلى متى بهذا أحظى ... عمري يفنى وحاجتي ما تقضى

قال غيره:

كم أحمل في هواك ذلًّا وعنا ... كم أصبر فيك تحت سقم وضنا
لا تطردني فليس عنك غنا ... خذ روحي إن أردت الثمنا

***

من أجل هواكم هويت العشقا ... قلبي كلف ودمعتي ما ترقا
في حبكم يهون ما قد ألقى ... ما يسعد بالنعيم من لا يشقى

كانت مصائب الدنيا عندهم نعمًا، حتى قال بعضهم: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة(٣).

ومن الإسرائيليات: إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عُجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحبًا بشعار الصالحين(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع (رقم ١٩٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٧٥).

(٣) نُسِب هذا القول إلى سفيان الثوري والفضيل بن عياض ووهب بن منبه، انظر: الجرح والتعديل (١/ ٩٤) وحلية الأولياء (٧/ ٥٥) (٨/ ٩٤، ٢٤٢) وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٦) (٨/ ٤٣٤) وتاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٦٦).

(٤) انظر: حلية الأولياء (٢/ ١٣٧) (٦/ ٥، ٣٧، ٣١٤) وتاريخ مدينة دمشق (٦١/ ١٤٦، ١٤٧) والمعرفة والتاريخ (٣/ ٣٤٣).

وقال بعض السلف: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمد الله إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمد الله إذ رزقني الصبر عليها، وأحمد الله إذ وفقني للاسترجاع، وأحمد الله إذ لم يجعلها في ديني[(١)].

انتظار الفرج بالصبر عبادة فإن البلاء لا يدوم:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم بأن الضر غير مؤبد

واصبر كما صبر الكرام ... نوب تنوب اليوم تكشف في غد

إذا غُمس أعظم الناس بلاء كان في الدنيا في نعيم الجنة غمسة قيل له: هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك بؤس قط؟ قال: لا يا رب[(٢)].

يا نفس ما هي إلا صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام

يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة ... وخل عنها فإن العيش قدام

وقال غيره:

وما هي إلا ساعة ثم تنقضي ... ويذهب هذا كله ويزول

قوله ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر» هذا موافق لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث في الأمر بالصبر عند لقاء العدو كثيرة جدًّا.

---

(١) ينسب هذا إلى شريح رحمه الله، انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٥) وتاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٠٧).

وقال عمر لأشياخ من بني عبس: بم قاتلتم الناس؟ قالوا: بالصبر، لم نلق قومًا إلا صبرنا لهم، كما صبروا لنا[١].

وقال بعض السلف: كلنا نكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر.

وسئل ابن بطال عن الشجاعة؟ فقال: صبر ساعة، وهذا كله في جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار، وكذلك في جهاد العدو الباطن وهو جهاد النفس والهوى، فإن جهادهما من أعظم الجهاد، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله**»[٢]، وقال عبد الله بن عمر لما سأله عن الجهاد: «**ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فأعزها**»[٣]، ويروى بإسناد ضعيف من حديث جابر أن النبي ﷺ قال لقوم رجعوا من الغزو: «**قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»، قيل: وما الجهاد الأكبر قال: «**مجاهدة العبد لهواه**»[٤] وقال أبو بكر الصديق ﷺ في وصيته لعمر ﷺ حين استخلفه: إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك[٥].

ويروى من حديث سهل بن سنان عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ ومن حديث مالك الأشجعي عن النبي ﷺ مرسلاً قال: ليس عدوك الذي إذا قتلك أدخلك

---

(١) ذكر المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٨٤ رقم ٤٦٢٤) (١١/ ٥ رقم ٤٧٠٦) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ١٦٢٤، ٢٥١٩) والترمذي (رقم ١٦٢١) وقال: حديث حسن صحيح، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٩ رقم ٧٩٧) وأحمد (٦/ ٢٠، ٢٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٣٩ رقم ١٨٣، ١٨٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (١/ ١٥٢، رقم ١٤) وابن المبارك في الجهاد (رقم ١٧٥) وفي الزهد (رقم ١٤١) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٦٣ رقم ٣٦٩).

(٣) أخرجه الطيالسي في مسنده (رقم ٢٢٧٧) وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٩/ ٢٣٨ رقم ١٩٢٨) وانظر للمصنف: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٦)، وشرح حديث لبيك (ص ١٢٨).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٦) وشرح الزرقاني (١/ ٤٦٣) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٢) وفيض القدير (٣/ ١٠٩) (٤/ ٥١١) وضعفه الألباني ي صعيف الجامع رقم (٤٠٨٠).

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٦) وشرح حديث لبيك (ص ١٢٧).

الجنة وإذا قتلته كان لك نورًا، أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك[١]. وأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف.

قلـبي إلى مـا ضـرني داعـي ... يكـثر أوجـالي وأوجـاعي
وقلما أبقى عـلي مـا أرى ... يوشـك أن ينعـاني الـناعي
كيف احتراسي من عـدوي إذا ... كان عـدوي بين أضـلاعي[٢]

فهذا الجهاد أيضًا يحتاج إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلب وحصل له النصر، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غلب وقهر وأسر وصار ذليلاً أسيرًا في يد شيطانه وهواه، كما قيل:

إذا المرء لم يغلب هواه أقامه ... بمنزلة فيها العـزيز ذلـيلا[٣]

قال غيره:

رب مستور سبته صبـوة ... فتعـرى صبره فانتهـكا
صاحب الشهوة عبد فإذا ... غلب الشهوة صار الملكا

قال ابن المبارك رحمه الله: من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما أقل ما يتمتع[٤].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٥].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٩٤ رقم ٣٤٤٥) وفي مسند الشاميين (٢/ ٤٤٤ رقم ١٦٦٨) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٤٠٨ رقم ٥٢٤٨) وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٦) وشرح حديث لبيك (ص ١٣٠).

(٢) ذكر البيتين الأول والثالث ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٤٣٥)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٥٦ رقم ٣٤٢) ونسبهما إلى ذي النون المصري.

(٣) ذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٦).

(٤) ذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٩).

ووصف بعضهم الأحنف بن قيس، فقال: كان أشد الناس سلطانًا على نفسه[١].

قيل لبعضهم: إن فلاناً يمشي على الماء؟ فقال: من مكّنه الله من مخالفة هواه فهو أقوى ممن يمشي على الماء[٢].

واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك إن عرفت منك الجد جدت، وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك وطلبت منك حظوظها وشهواتها.

كان أبو سليمان الداراني يقول: كنت بالعراق أمر على تلك القصور والمراكب والملابس والمطاعم التي للملوك فلا تلتفت نفسي إلى شيء من ذلك، وأمر على التمرة فتكاد نفسي تقع عليها. فذكر ذلك لبعض العارفين، فقال: تلك الشهوات أيس نفسه منها فأيست، والتمرة أطمعها فيها فطمعت، كما قيل في المعنى:

صبرت على اللذات حتى تــولت — وألزمت نفسي هجرها فاستمرت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى — فإن أطمعت تاقــت وإلا تسلــت[٣]

وكانت على الأيام نفسي عزيــزة — فلما رأت عزمي عــلى الذي ذلــت

فقوله ﷺ: «إن النصر مع الصبر» يشمل الصبر على جهاد العبد العدو الظاهر وجهاده لعدوه الباطن وهو نفسه وهواه. وكان السلف يفضلون هذا الصبر على البلاء.

قال ميمون بن مهران: الصبر صبران: الصبر على المصيبة حسن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي.

وقال سعيد بن جبير: الصبر على نوعين، أحدهما: الصبر عما حرم الله، والصبر على ما افترض الله من عبادته، وذلك أفضل الصبر، والصبر الآخر في المصائب، وقد

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٢) وشرح حديث لبيك (ص ١٢٦).

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٤٦٣).

(٣) ذكر هذا البيت المناوي في فيض القدير (٤/ ٧٣).

ورد في هذا حديث مرفوع من حديث علي لكنه لا يثبت.

وقوله ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب» هذا يشهد له قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ...﴾ إلى قوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

وقوله ﷺ في حديث أبي رزين العقيلي: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره» خرجه الإمام أحمد، وخرج ابنه عبد الله من حديث أبي رزين أيضًا «أنه ليشرف عليكم أزلين قنطين فيظل يضحك، علم أن غيثكم قريب»(١) والمعنى أنه سبحانه يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر عنهم، وخوفهم وإشفاقهم ويأسهم من الرحمة، وقد قدر الله تغيير هذه الحال عن قرب بإنزال المطر، ولكنهم لا يشعرون، وهذا كما اشتكى الصحابة للنبي ﷺ وهو قائم يخطب يوم الجمعة احتباس المطر وجهد الناس، وسألوه أن يستسقي ربه، فرفع النبي ﷺ يديه فاستسقى لهم، فنشأ السحاب ومطروا إلى الجمعة الأخرى، حتى قاموا إليه ﷺ، وسألوه أن يستصحي لهم، ففعل فأقلعت السماء(٢).

وقد قص الله تعالى في كتابه قصصًا كثيرة، تتضمن وقوع الفرج بعد الكرب والشدة، كما قص نجاة نوح ومن معه في الفلك من الكرب العظيم مع إغراق سائر

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨١) وأحمد (٤/ ١١، ١٢) والطيالسي (١/ ١٤٧ رقم ١٠٩٢) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٤٣٠ رقم ٣٨٩٠) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٧٢٢، ٩٢٨) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٥٥٤) والدارقطني في الصفات (رقم ٣٠) قال في مصباح الزجاجة (١/ ٢٦): هذا إسناد فيه مقال، وضعفه الألباني في تخريجه لكتاب السنة (١/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٠١٤) ومسلم (رقم ٨٩٧).

أهل الأرض، وكما قص نجاة إبراهيم عليه السلام من النار التي ألقاه المشركون فيها، وأنه جعلها عليه بردًا وسلامًا، وكما قص قصة إبراهيم عليه السلام مع ولده الذي أمر بذبحه، ثم فداه الله بذبح عظيم، وكما قص قصة موسى عليه السلام أمه لما ألقته في اليم حتى التقطه آل فرعون، وقصته مع فرعون لما نجى الله سبحانه موسى في البحر وأغرق عدوه، وكما قص قصة أيوب ويونس ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وقصة قوم يونس لما آمنوا، وكما قص قصص محمد ﷺ ونصره على أعدائه وإنجائه منهم في عدة مواطن، مثل قصته في الغار، وقصة يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين.

وكما قص الله سبحانه قصة عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك، وبرأها منه مما رميت به، وقصة الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا.

وفي السنة من هذا المعنى شيء كثير، مثل قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم صخرة، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة ففرج عنهم. ومثل قصة إبراهيم وسارة عليهم السلام مع الجبار الذي طلبها من إبراهيم، ورد الله كيد الفاجر.

والحكايات في هذا المعنى في الإسلام وقبله كثيرة جدًّا لا يمكن استقصاؤها، وكثير منها مذكور في الكتب المصنفة في الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا وغيره، وكتاب مجابي الدعوات لابن أبي الدنيا، وكتاب المستغيثين بالله والمستصرخين به وكتب كرامات الأولياء وأخبار الصالحين وفي كتب التواريخ وغيرها.

ونحن نذكر طرفًا هاهنا يسيرًا من أظرف ما حُكي في هذا الباب، ليعتبر به.

ذكر بعض العلماء في مصنف له، وأظنه من المغاربة: أنه سمع من أبي ذر الهروي الحافظ يحكي: أنه كان ببغداد يقرأ على أبي حفص بن شاهين في دكان عطار، وأنه

شاهد رجلاً جاء إلى العطار، فدفع إليه عشرة دراهم، وأخذ منه حوائج وجعلها في طبق، ووضعه على رأسه، فزلق طبقه، وتفرقت حوائجه، فبكى واشتد بكاؤه، وقال: لقد ضاع مني في قافلة كذا وكذا هميان فيه أربعمائة دينار، أو قال: أربعة آلاف دينار، ومعها فصوص قيمتها أكثر من ذلك، فما جزعت لضياعها، ولكن ولد لي الليلة ولد فاحتجنا في البيت إلى ما تحتاج إليه النفساء، ولم يكن عندي غير هذه العشرة الدراهم، فلما قدر الله بما قدر جزعت، وقلت: لا أنا عندي ما أرجع به اليوم إلى أهلي، ولا ما أكتسب به غدًا، ولم يبق لي حيلة إلا الفرار عنهم، وتركهم على هذه الحال، فيهلكون بعدي فلم أملك نفسي أن جزعت هذا الجزع.

قال أبو ذر: ورجل من شيوخ الجند جالس على باب داره فسمع هذا كله، فسأل الجندي أبا حفص أن يدخل هو وأصحابه والرجل المصاب معه إلى بيته، ففعل وطلب من الرجل المصاب إعادة حكايته في الهميان، فأعاد ذلك عليه، وسأله عمن كان في تلك القافلة، وعن المكان الذي ضاع فيه الهميان، فأخبره ثم سأله عن صفة الهميان وعلامته، فأخبره بذلك، فقال: لو رأيته أكنت تعرفه؟ قال: نعم، قال: فأخرجه إليه، فلما رآه قال: هذا الهميان الذي سقط مني، وفيه من الأحجار ما صفته كذا وكذا. ففتح الهميان فوجد الأحجار على ما وصف، فدفعه إليه وخرج من عنده، وقد صار من الأغنياء، فلما خرج بكى الشيخ الجندي بكاء شديدًا، فسُئِلَ عن بكائه، فقال: إنه لم يكن بقي لي في الدنيا أمل ولا أمنية أتمناها إلا أن يأتي الله بصاحب هذا المال فيأخذه، فلما قضى الله بذلك بفضله ولم يبق لي أمل علمت أنه قد حان أجلي. قال أبو ذر: فما انقضى شهر حتى توفي وصلينا عليه رحمه الله.

وفي المعنى حكايات كثيرة عجيبة تركناها.

قوله ﷺ: «وإن مع العسر يسرًا» هذا منتزع من قوله تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧]. وقوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وروى حميد بن حماد بن الخوار، حدثنا عائذ بن شريح، سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ جالسًا وحياله حجر، فقال: «**لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه**» فأنزل الله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره[(١)] وخرجه البزار في مسنده ولفظه: «**لو جاء العسر حتى يدخل هذا الجحر لجاء إليه اليسر حتى يخرجه**» ثم قال: «**إن مع العسر يسراً**»[(٢)] وحميد بن حماد هذا ضعيف. وخرج ابن أبي حاتم من رواية مبارك بن أبي فضالة عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين[(٣)]. وخرج ابن جرير من رواية عمر عن الحسن قال: خرج النبي ﷺ يومًا مسرورًا فرحًا؛ وهو يقول: «**لن يغلب عسر يسرين، إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً**» وخرجه أيضًا من رواية عوف ويونس عن الحسن مرسلًا أيضًا، ومن حديث قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال: «**لن يغلب عسر يسرين**»[(٤)]. ومن حديث عبد الله بن زيد أسلم عن أبيه عن جده أن أبا عبيدة حصر فكتب إليه عمر يقول: مهما ينزل بامرئ شدة إلا جعل الله له بعدها فرجًا وأنه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٤٦ رقم ١٩٣٩٥).

(٢) أخرجه البزار في مسنده (رقم ٢٢٨٨) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (رقم ٩٣) والحاكم (٢/ ٢٨٠ رقم ٣٠١٠) وقال: هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٥٠) إلى البزار وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس. وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٤٦) رقم ١٩٣٩٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٦) والجهاد لابن المبارك (ص١٦٤) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٥) وتاريخ مدينة دمشق (٢٥/ ٤٧٧).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٢٢١) وعبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٨٠) وانظر الدر المنثور (٨/ ٥٥٠، ٥٥١) والاستذكار (٥/ ١٨، ٢٠) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٩٧) وجوّد إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٧١٢).

لن يغلب عسر يسرين[١] وأن الله تعالى يقول: ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وكذا قال ابن عباس وغيره من المفسرين في هذه الآية: لن يغلب عسر يسرين. كان بعض المتقدمين ليلة في بادية في غم شديد، فألقي في روعه بيت من الشعر قال:

أرى الموت لمن أصبح   مغمومًا له أصلح

فلما جن عليه الليل سمع هاتفًا يهتف:

ألا أيها المرء الذي به الهم لم يبرح   وقد أنشد بيتًا لم يزل في ذكره يسنح
إذا اشتد بك العسر ففكر في ألم نشرح   فعسر بين يسرين إذا أبصرته فافرح[٢]

قال فحفظت الأبيات ففرج الله غمي. وقد أكثر الشعراء من القول في هذا المعنى، ونذكر قطعة منتخبة من محاسن ما قيل في ذلك.

تصبر فإن عقبى الصبر خير   ولا تجزع لنائبة تنوب
فإن اليسر بعد العسر يأتي   وعند الضيق تنكشف الكروب
وكم جزعت نفوس من أمور   أتي من دونها فرج قريب

ولبعضهم:

فلا تجزع وإن أعسرت يومًا   فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تظن بربك ظن سوء   فإن الله أولى بالجميل

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٧١٢): وقال الحاكم: صح ذلك عن عمر وعلي.

(٢) أخرج البيهقي في الشعب (٧/ ٢٠٩ رقم ١٠٠٢٧) أن عبد بن حميد قال لرجل يشكي إليه العسرة في أمور:

ألا أيها المرء الذي في عسره أصبح   إذا اشتد بك الأمر فلا تنس ألم نشرح

ولا تيأس فإن اليأس كفر لعـــل الله يغني عن قليل
فـــإن العسر يتبعه يـــسار وقيل الله أصدق كل قيل[١]

ولبعضهم:

مفـتاح باب الفرج الصبر وكل عسر بعده يـــسر
والدهر لا يبقى على حالة والأمر يأتي بعـده الأمر[٢]

ولبعضهم:

عسى ما ترى أن لا يـدوم وأن تـرى لـه فرجـا ممـا يجـيء بـه الـدهر
عـسى فـرج يـأتي بـه الله أنـه لـه كـل يـوم في خليقتـه أمـر
إلا لاح عـسر فـارج يـسرًا فإنـه قـضى الله أن العـسر يتبعـه اليسر[٣]

ولنختم الكتاب بذكر نبذة يسيرة من لطائف البلايا وفوائدها وحكمها، فمنها تكفير الخطايا بها، والثواب على الصبر عليها، وهل يثاب على البلاء نفسه؟ فيه اختلاف بين العلماء، ومنها تذكير العبد بذنوبه، فربما تاب ورجع منها إلى الله عزوجل، ومنها زوال قسوة القلوب وحدوث رقتها.

قال بعض السلف: إن العبد ليمرض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له[٤].

---

(١) ذكر هذه الأبيات مع تقديم وتأخير في بعضها كل من البيهقي في الشعب (٧/ ٢٠٧ رقم ١٠٠١٧) ونسبها إلى جعفر بن محمد وكذلك فعل العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٩٦) بينما في التدوين في أخبار قزوين (١/ ٤٨٧) نسبها القزويني إلى أبي بكر بن أبي الدنيا.

(٢) ذكر البيتين البيهقي في الشعب (٧/ ٢٠٧ رقم ١٠٠١٥) ونسبها إلى أحمد بن يحيى.

(٣) ذكر الأبيات البيهقي في الشعب (٧/ ٢٠٧ رقم ١٠٠١٦) ونسبها إلى القاسم محمد بن جعفر، وذكرها المؤلف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٨).

(٤) أخرجه بلفظ قريب ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ١٧) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٤٠) ونسبه إلى يزيد بن ميسرة، وكذلك الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ١٢١).

ومنها: انكساره لله عز وجل وذله له، وذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين.

ومنها: أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله عز وجل، والوقوف ببابه، والتضرع له، والاستكانة، وذلك من أعظم فوائد البلاء.

وقد ذم الله من لا يستكين له عند الشدائد، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢] وفي بعض الكتب السابقة أن الله ليبتلي العبد وهو يحبه ليسمع تضرعه[(١)].

وقال سعيد بن عبد العزيز: قال داود عليه السلام: سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، وسبحان مستخرج الشكر بالرخاء[(٢)].

ومر أبو جعفر محمد بن علي بمحمد بن المنكدر وهو مغموم فسأل عن سبب غمه فقيل له: الدين قد فدحه فقال أبو جعفر: افتح له في الدعاء قيل نعم قال: لقد بورك لعبد في حاجة أكثر منها من دعاء ربه كائنة ما كانت.

وكان بعضهم إذا فتح له في الدعاء عند الشدائد لم يحب تعجيل إجابته خشية أن يقطع عما فتح له.

وقال ثابت: إذا دعا الله المؤمن بدعوة وكل الله جبريل بحاجته فيقول الله: لا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٦٠ رقم ١٢٤٥) من قول عمرو بن مرة، بينما ابن الجعد في مسنده (رقم ٧٩) جعله من قول كردوس بن عمرو، وكذلك فعل البيهقي في الشعب (٧/ ١٤٥ رقم ٩٧٨٧) وابن أبي الدنيا في الأولياء (رقم ٣٩) وانظر: التمهيد (٥/ ٣٤٦) والاستذكار (٢/ ٥٣٨) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/ ٥٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٢١١ رقم ١٠٠٣٣ مكرر) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٩٨).

تعجل بإجابته فإني أحب أن أسمع صوت عبدي المؤمن[١]. وروي مرفوعًا من وجوه ضعيفة.

رأى بعض السلف رب العزة في نومه فقال: يا رب كم أدعوك ولا تجيبني قال: إني أحب أن أسمع صوتك.

ومنها أن البلاء يوصل إلى قلبه لذة الصبر عليه والرضا به، وذلك مقام عظيم جدًّا وقد تقدمت الإشارة إلى فضل ذلك وشرفه.

ومنها أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوق، ويوجب له الإقبال على الخالق وحده.

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد فكيف بالمؤمن، فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه، وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات.

وفي الإسرائيليات يقول الله عز وجل: البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك.

فصل

وإذا اشتد الكرب وعظم الخطب

كان الفرج حينئذ قريباً في الغالب

قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وأخبر عن يعقوب عليه السلام أنه لم ييأس من لقاء يوسف، وقال لإخوته: اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله، وقال: عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٧ـ٣٢٨).

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الكرب: أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وجد الإياس من كشفه من جهة المخلوق، ووقع التعلق بالخالق استجاب له وكشف عنه، فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين. كما قال الإمام أحمد، واستدل عليه بقول إبراهيم ﷺ لما عرض له جبريل في الهواء وقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا[(١)].

والتوكل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه كما قال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، قال الفضيل: والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك كل ما تريد[(٢)].

ومنها أن العبد إذا اشتد عليه الكرب فإنه يحتاج حينئذ إلى مجاهدة الشيطان، لأنه يأتيه فيقنطه ويسخطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيكون في مجاهدة عدوه ودفعه دفع البلاء عنه ودفعه، ولهذا في الحديث الصحيح: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي فيدع الدعاء**»[(٣)].

ومنها أن المؤمن إذا استبطأ الفرج وأيس منه ولاسيما بعد كثرة دعائه وتضرعه، ولم يظهر له أثر الإجابة رجع إلى نفسه باللائمة، ويقول لها: إنما أتيت من قبلك، ولو كان فيك خير لأجبت. وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه ليس بأهل لإجابة دعائه، فلذلك يسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله، على

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٤٥) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٦٤١) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٤٠) وفيض القدير (١/ ١٠٩) (٢/ ٢٩٢) (٤/ ٧٨) وتاريخ مدينة دمشق (٦/ ١٨٢، ١٨٣).
(٢) ذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٧).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٤٠) ومسلم (رقم ٢٧٣٥).

قدر الكسر يكون الجبر[١].

قال وهب: تعبَّد رجل زماناً، ثم بدت له إلى الله حاجة، فصام سبعين سبتًا يأكل في كل سبت أحد عشرة تمرة، ثم سأل الله حاجته فلم يعطها، فرجع إلى نفسه، فقال: منك أتيت، لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك. فنزل إليه عند ذلك ملك، فقال: يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت، وقد قضى الله حاجتك[٢].

أهين لهم نفسي لكي يكرموها ... ولن تكرم النفس التي لا تهينها[٣]

فمن تحقق هذا وعرفه وشاهده بقلبه علم أن نعم الله على عبده المؤمن في البلاء أعظم من نعمه عليه في الرخاء، وهذا تحقيق معنى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: **«لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خير له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»**[٤].

ومن هاهنا كان العارفون بالله لا يختارون إحدى الحالتين على الأخرى، بل أيهما قدر الله رضوا به، وقاموا بعبوديته اللائقة.

وفي المسند والترمذي عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ: **«عرض عليَّ ربي بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا، يا رب ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»**[٥].

---

(١) انظر في ذلك رسالة للمصنف رحمه الله بعنوان: الخشوع وانكسار القلب للرب، تصدر قريبًا بإذن الله بتحقيقي وقد طبعت مرات عديدة باسم: الخشوع في الصلاة.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٤٣٣ رقم ٧١٧٠) وأحمد في الزهد (ص٩٧، ٣٧٤) وذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٨) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٣) كان الشافعي رحمه الله يكثر أن يتمثل بهذا البيت، انظر: مسند الشافعي (ص٣٧٥) وذكره أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٤٨) والذهبي في السير (١٢/ ٦١) والخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٣٠٢) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٣٧٦) وابن النديم في الفهرست (ص٢٩٨).

(٤) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٩٩٩).

(٥) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٤٧) وقال: هذا حديث حسن.

وقال عمر: ما أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره[١]. وقال عمر بن عبد العزيز: أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر[٢].

يا هذا لم نستدعك إلينا وأنت تفر منا، نسبغ عليك النعم فتشتغل بها عنا أو تنسانا فنفرغ عليك البلاء لترد إلينا، وتقف على بابنا ونسمع تضرعك، البلاء يجمع بيننا وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك كما قيل:

إن جرى بيننا وبينك عتب ... أو تناءت منا ومنك الديار
فالوداد الذي عهدت مقيم ... والأيادي الذي عهدت غزار
كم لنا في طي البلايا من منح ... وعطايا وفي الزوايا خبايا

يا هذا إن شكرت نعمنا عليك، فتوفيقك للشكر من جملة فضلنا فاذكره، فكل ما تتقلب فيه فهو من نعمنا فلا تكفره ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، كما قيل:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسرَّاء عمَّ سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة ... تضيق له الأوهام والبر والبحر[٣]

تم كتاب نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس تصنيف الإمام

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٤٣٥) وابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (رقم ٣٠) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢١٧).

(٢) ذكره المصنف في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥) وفي شرح حديث لبيك (ص٥٥).

(٣) ذكر هذه الأبيات القزويني في مختصر شعب الإيمان (ص٦٧) وانظر: فضيلة الشكر لأبي بكر السامري (رقم ٤٥) والشكر لابن أبي الدنيا (رقم ٨٣) وتاريخ مدينة دمشق (٥/ ١٩٠).

العالم الحافظ شهاب الدين ابن رجب الحنبلي عفا الله عنه وأدخله جنته بمنه وكرمه أنهاه كتابة بقلمه الراجي عفو ربه وكرمه محمد بن عثمان بن عيدان غفر الله له ولوالديه وإخوانه في الله ومشايخه والمسلمين آمين آمين ثم آمين.

وصلى الله علي سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وذلك في ٥ رمضان سنة ١٣١٦هـ

الرسالة السادسة:

بيان
فضل علم السلف على علم الخلف

للإمام الأصولي الحافظ الفقيه
أبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد
الشهير بابن رجب البغدادي الحنبلي
المتوفى سنة ٧٩٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فهذه كلمات مختصرة في معنى العلم وانقسامه إلى علم نافع، وعلم غير نافع، والتنبيه على فضل علم السلف على علم الخلف، فنقول والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قد ذكر الله تعالى في كتابه العلم تارةً في مقام المدح وهو العلم النافع، وتارةً في مقام الذم وهو العلم الذي لا ينفع، فأما الأول فمثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وما قص سبحانه من قصة آدم وتعليمه الأسماء، وعرضهم على الملائكة وقولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]. وما قصه ـ سبحانه وتعالى ـ من قصة موسى عليه السلام وقوله للخضر: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦] فهذا هو العلم النافع.

وقد أخبر عن قوم أنهم أوتوا علمًا ولم ينفعهم علمهم، فهذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به، قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، وقال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] الآية. وقال: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] على تأويل من تأول الآية على علم

عند من أضله الله[١].

وأما العلم الذي ذكره الله تعالى على جهة الذم له، فقوله في السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

ولذلك جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وإلى غير نافع، والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع، وسؤال العلم النافع، ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»[٢]. وخرَّجه أهل السنن من وجوه متعددة عن النبي ﷺ وفي بعضها: «ومن دعاء لا يسمع»[٣]. وفي بعضها: «**أعوذ بك من هؤلاء الأربع**»[٤]. وخرَّج النسائي من حديث جابر أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، وأعوذ بك من علم لا ينفع**»[٥]. وخرَّجه ابن ماجه ولفظه: أن النبي ﷺ قال: «**سلوا الله علمًا نافعًا، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع**»[٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١) وعمدة القاري (٢٣/ ١٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٢٢).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (رقم ٢١٥٣) وابن حبان في صحيحه (رقم ١٠١٥) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٤٥ رقم ٧٨٦٩) وأبو داود (رقم ١٥٤٨) وابن ماجه (رقم ٢٥٠، ٣٨٣٧).

(٤) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (رقم ١٨٩١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٤٥ رقم ٧٨٧٠) والترمذي (رقم ٣٤٨٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ٨٢) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٤٢٦) والطبراني في الأوسط (٧/ ١٥٤ رقم ٧١٣٩) (٩/ ٣٢ رقم ٩٠٥٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٨٤٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٤٢ رقم ٢٦٧١٢) (٦/ ١٧/ رقم ٢٩١٢٢) (٧/ ٨٢ رقم ٣٤٣٥٨) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٤٣٧ رقم ١٩٢٧) (٣/ ٤٦٩ رقم ١٩٨٠) (٤/ ١٣٩ رقم ٢١٩٦) وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٣٣٠ رقم ١٠٩٣) وأبو يعلى في معجمه (رقم ٢٢٦).

وخرَّجه الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا»[١].

وخرَّج النسائي من حديث أنس أن النبي ﷺ كان يدعو: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني وارزقني علمًا تنفعني به»[٢].

وخرَّج أبو نعيم من حديث أنس أن النبي ﷺكان يقول: «اللهم إنا نسألك إيمانًا دائمًا، فرب إيمان غير دائم، وأسألك علمًا نافعًا، فرب علم غير نافع»[٣].

وخرَّج أبو داود من حديث بريدة عن النبي ﷺ قال: «إن من البيان سحرًا، وإن من العلم جهلاً»[٤]، وإن صعصعة بن صوحان فسر قوله: «إن من العلم جهلاً»، أن يتكلف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهله ذلك. ويفسر أيضًا: بأن العلم الذي يضر ولا ينفع جهل، لأن الجهل به خير من العلم به، فإذا كان الجهل به خيرًا منه فهو شر من الجهل، وهذا كالسحر وغيره من العلوم المضرة في الدين أو في الدنيا[٥]. وقد روي عن النبي ﷺ تفسير بعض العلوم التي لا تنفع، ففي مراسيل أبي داود عن زيد ابن أسلم قال: قيل يا رسول الله، ما أعلم فلانًا قال: «بم؟» قالوا: بأنساب الناس، قال: «علم لا ينفع وجهالة لا تضر»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٩٩) وابن ماجه (رقم ٢٥١، ٣٨٣٣) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٠ رقم ٢٩٣٩٣) وعبد بن حميد (رقم ١٤١٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٩١ رقم ٤٣٧٦) والطبراني في الدعاء (رقم ١٤٠٤) وتمام في فوائده (رقم ٩٥٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٤٤ رقم ٧٨٦٨) والطبراني في الدعاء (رقم ١٤٠٥) والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية بلفظ قريب مختصرًا (٦/ ١٧٩).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٥٠١٢) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ١٥١).

(٥) انظر: فتح الباري (١٠/ ٥٤٠) وعمدة القاري (٢٠/ ١٣٥) والتمهيد (٥/ ١٨٠-١٨١) وتحفة الأحوذي (٨/ ١١٠) وعون المعبود (١٣/ ٢٤١-٢٤٢) وفيض القدير (٢/ ٥٢٥).

(٦) ذكره الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٣/ ١٠٣).

وخرجه أبو نعيم في كتاب رياض المتعلمين من حديث بقية عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة مرفوعًا، وفيه: أنهم قالوا أعلم الناس بأنساب العرب، وأعلم الناس بالشعر، وبما اختلفت فيه العرب، وزاد في آخره «**العلم ثلاثة ما خلاهن فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة**»(١)، وهذا الإسناد لا يصح، وبقية دلسه عن غير ثقة(٢)، وآخر الحديث خرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عبدالله ابن عمرو بن العاص مرفوعًا: «**العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة**»(٣)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، وفيه ضعف مشهور. وقد ورد الأمر بأن يتعلم من الأنساب ما توصل به الأرحام، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**» أخرجه الإمام أحمد والترمذي(٤).

وخرجه حميد بن زنجويه من طريق آخر عن أبي هريرة مرفوعًا: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا، وتعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا، وتعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم**

---

(١) انظر: البيان والتعريف (٢/ ٢٥٣) وفيض القدير (٤/ ٣٢٦).

(٢) انظر: فيض القدير (٤/ ٣٢٦).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٨٨٥) وابن ماجه (رقم ٥٤) والحاكم (٤/ ٣٦٩ رقم ٧٩٤٩) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢٠٨ رقم ١١٩٥٢) والدارقطني (٤/ ٦٧ رقم ٢) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٧٠ رقم ٤١٩٧) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٤) والتمهيد (٤/ ٢٦٦) وفيض القدير (٣/ ٢٥٤).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٩٧٩) وأحمد (٢/ ٣٧٤) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٨٢ رقم ٨٣٠٨) وفي الكبير (١٨/ ٩٨ رقم ١٧٦) وفي مسند الشاميين (٤/ ٢٤٩ رقم ٣٢٠٢) وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٢٥٢). قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٢٧ رقم ٣٧٩٢): رواه الطبراني من حديث العلاء بن خارجة، كلفظ الترمذي بإسناد لا بأس به، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩٣): رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون، وقال في (٨/ ١٥٢): رواه الطبراني ورجاله قد وثقوا، وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٦) وعمدة القاري (١٦/ ٦٨) وتحفة الأحوذي (٦/ ٩٦) وفيض القدير (٣/ ٢٥٢).

انتهوا»[١] وفي إسناد رواته ابن لهيعة.

وخرج أيضًا من رواية نعيم بن أبي هند قال: قال عمر: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم ثم أمسكوا، وتعلموا من النسب ما تصلون به أرحامكم، وتعلموا ما يحل لكم من النساء ويحرم عليكم ثم انتهوا»[٢].

وروى مسعر عن محمد بن عبيد الله، قال: قال عمر بن الخطاب: «تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة والطريق»[٣].

وكان النخعي لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به[٤]، ورخَّص في تعلم منازل القمر، أحمد وإسحاق، ونقله عنهما حرب، زاد إسحاق: ويتعلم من أسماء النجوم ما يهتدى به، وكره قتادة تعلّم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، وقال طاوس: رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق، خرَّجه حرب، وخرَّجه حميد بن زنجويه من رواية طاوس عن ابن عباس[٥]. وهذا محمول على علم التأثير لا علم التسيير، فإن علم التأثير باطل محرم، وفيه ورد الحديث المرفوع: **«ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»**، خرجه أبو داود من حديث ابن عباس مرفوعًا[٦].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٦٩ رقم ١٧٢٣) وانظر: فيض القدير (٣/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه هناد بن ا لسري في الزهد (٢/ ٤٨٧ رقم ٩٩٧) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٢٨) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر والخطيب في كتاب النجوم.

(٣) انظر: عون المعبود (١٠/ ٢٨٥).

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١١٩) إلى ابن المنذر عن إبراهيم النخعي. وعزاه أيضًا في الدر المنثور (٣/ ٣٢٩) إلى الخطيب عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤١ رقم ١٠٩٨٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١٧) فيه خالد بن يزيد العمري وهو كذاب، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ٤١٧): موضوع، وقال في ضعيف الجامع (رقم ٣٠٩٢): ضعيف، وانظر: فيض القدير (٤/ ١٧).

(٦) أخرجه أبو داود (رقم ٣٩٠٥) وابن ماجه (رقم ٣٧٢٦) وأحمد (١/ ٢٢٧) والبيهقي في الكبرى =

وخرَّج أيضًا من حديث قبيصة مرفوعاً: «**العيافة والطيرة والطرق من الجبت...**»[(١)]. والعيافة: زجر الطير، والطرق: الخط في الأرض.

فعلم تأثير النجوم باطل محرم، والعمل بمقتضاه كالتقرب إلى النجوم، وتقريب القرابين لها كفر، وأما علم التسيير فإذا تعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق كان جائزًا عند الجمهور، وما زاد عليه فلا حاجة إليه، وهو يشغل عما هو أهم منه، وربما أدى التدقيق فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين في أمصارهم، كما وقع ذلك كثيراً من أهل هذا العلم قديمًا وحديثًا، وذلك يفضي إلى اعتقاد خطأ الصحابة والتابعين في صلاتهم في كثير من الأمصار، وهو باطل.

وقد أنكر الإمام أحمد الاستدلال بالجدي، وقال: إنما ورد «**ما بين المشرق والمغرب قبلة**»[(٢)] يعني لم يرد اعتبار الجدي ونحوه من النجوم، وقد أنكر ابن مسعود على كعب قوله: إن الفلك تدور، وأنكر ذلك مالك وغيره، وأنكر الإمام أحمد على المنجمين قولهم: إن الزوال يختلف في البلدان، وقد يكون إنكارهم أو إنكار بعضهم لذلك لأن الرسل لم تتكلم في هذا، وأن أهله يقطعون به، وإن كان الاشتغال به ربما أدى إلى فساد عريض.

وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا على حديث النزول ثلث الليل الآخر،

=

(٨/ ١٣٨ رقم ١٦٢٩٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٣٩ رقم ٢٥٦٤٦) والطبراني في الكبير (١١/ ١٣٥ رقم ١١٢٧٨) وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٢٣٦ رقم ٧١٤) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ٣٨١).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٥٠٢ رقم ٦١٣١) وفي موارد الظمآن (رقم ١٤٢٦) وأبو داود (رقم ٣٩٠٧) والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٩ رقم ١٦٢٩٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣١١ رقم ٢٦٤٠٣) والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٣٦٩ رقم ٩٤٥) وأحمد (٣/ ٤٧٧) (٥/ ٦٠) وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص ٣٨٠).

(٢) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» أخرجه الترمذي رقم (٣٤٤) وقال: حديث حسن صحيح.

وقال: ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان، فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين. ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول ﷺ أو خلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا إلى عقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المكذبين.

وكذلك التوسع في علم الأنساب هو مما لا يحتاج إليه، وقد سبق عن عمر وغيره النهي عنه مع أن طائفة من الصحابة والتابعين كانوا يعرفونه ويعتنون به، وكذلك التوسع في علم العربية لغة ونحوًا هو مما يشغل عن العلم الأهم والوقوف معه يحرم علمًا نافعاً، وقد كره القاسم بن مخيمرة علم النحو، وقال: أوله شغل وآخره بغي، وأراد به التوسع فيه، ولذلك كره أحمد التوسع في معرفة اللغة وغريبها، وأنكر على أبي عبيدة توسعه في ذلك، وقال: هو يشغل عما هو أهم منه، ولهذا يقال: إن العربية في الكلام كالملح في الطعام، يعني أنه يؤخذ منها ما يصلح الكلام، كما يؤخذ من الملح ما يصلح الطعام، وما زاد على ذلك فإنه يفسده، وكذلك علم الحساب يحتاج منه إلى ما يعرف به حساب ما يقع من قسمة الفرائض والوصايا، والأموال التي تقسم بين المستحقين لها، والزائد على ذلك مما لا ينتفع به، إلا في مجرد رياضة الأذهان وصقالها، لا حاجة إليه، ويشغل عما هو أهم منه. وأما ما أحدث بعد الصحابة من العلوم التي توسع فيها أهلها وسموها علومًا، وظنوا أن من لم يكن عالمًا بها فهو جاهل أو ضال، فكلها بدعة، وهي من محدثات الأمور المنهي عنها، فمن ذلك ما أحدثته المعتزلة من الكلام في القدر وضرب الأمثال لله.

وقد ورد النهي عن الخوض في القدر، وفي صحيحي ابن حبان والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً: «**لا يزال أمر هذه الأمة موافيًا ومقاربًا ما لم يتكلَّموا في الولدان والقدر**»(١)، وقد روي موقوفًا ورجح بعضهم وقفه، وخرّج البيهقي من حديث ابن

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١١٨/١٥ رقم ٦٧٢٤) وفي موارد الظمآن (رقم ١٨٢٤) والطبراني في الأوسط (٢٤١/٤ رقم ٤٠٨٦) والحاكم (٨٨/١ رقم ٩٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط =

مسعود مرفوعًا: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا»[١].

وقد روي من وجوه متعددة في أسانيدها مقال، وروي عن ابن عباس أنه قال لميمون بن مهران: إيَّاك والنظر في النجوم، فإنها تدعو إلى الكهانة، والقدر فإنه يدعو إلى الزندقة، وإيَّاك وشتم أحد من أصحاب محمد ﷺ؛ فيكبك الله في النار على وجهك[٢]، وخرجه أبو نعيم مرفوعًا ولا يصح رفعه[٣].

والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه منها: ضرب كتاب الله بعضه ببعض، فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى، ويقع التجادل في ذلك، وهذا قد روي أنه وقع في عهد النبي ﷺ[٤]، وأن النبي ﷺ غضب من ذلك ونهى عنه، وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه[٥] وقد نهى عن ذلك.

ومنها الخوض في القدر إثباتًا ونفيًا بالأقيسة العقلية، كقول القدرية: لو قدر وقضى ثم عذب كان ظالمًا، وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم، ونحو

=

الشيخين ولا نعلم له علة ولم يخرجاه. وانظر: التمهيد (١٨/ ١٣١) وحاشية ابن القيم (١٢/ ٣٢٠).

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١/ ٣٣٦ رقم ١٣٣٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢١٠) وعبد الرزاق في الأمالي في آثار الصحابة (رقم ٥١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٢): رواه الطبراني وفيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١١٣٤) وأخرج أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٤/ ١٢٢٨ رقم ٧٠٣-٢٤) الجزء الأول منه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ﷺ (٤/ ١٠٨) وقال: غريب من حديث الأعمش تفرد به عنه مسهر.

(٤) فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: هجّرت إلى رسول الله ﷺ يومًا قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب». أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٦).

(٥) فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: «المراء في القرآن كفر» أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٢٥ رقم ١٤٦٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٥٩) وأبو داود (رقم ٤٦٠٣) والطبراني في الأوسط (٣/ ٦١ رقم ٢٤٧٨) (٤/ ٨١ رقم ٣٦٦٦) وفي الصغير (رقم ٤٩٦).

ذلك. ومنها الخوض في سر القدر، وقد ورد النهي عنه عن علي وغيره من السلف، فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك، ومن ذلك أعني: محدثات الأمور: ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته بأدلة العقول، وهو أشد خطرًا من الكلام في القدر، لأن الكلام في القدر كلام في أفعاله، وهذا كلام في ذاته وصفاته.

وانقسم هؤلاء إلى قسمين: أحدهما: من نفى كثيرًا مما ورد به الكتاب والسنة من ذلك، لاستلزامه عنده التشبيه بالمخلوقين، كقول المعتزلة: لو رؤي لكان جسمًا، لأنه لا يُرى إلا في جهة، وقولهم: لو كان له كلام يسمع لكان جسمًا. ووافقهم من نفى الاستواء فنفوه لهذه الشبهة، وهذا طريق المعتزلة والجهمية، وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم، وقد سلك سبيلهم في بعض الأمور كثير ممن انتسب إلى السنة والحديث من المتأخرين.

والثاني: من رام إثبات ذلك بأدلة العقول، التي لم يرد بها الأثر، ورد على أولئك مقالتهم، كما هي طريقة مقاتل بن سليمان ومن تابعه: كنوح بن أبي مريم، وتابعهم طائفة من المحدثين قديمًا وحديثًا، وهو أيضًا مسلك الكرامية، فمنهم من أثبت لإثبات هذه الصفات الجسم: أما لفظًا وإما معنى، ومنهم من أثبت لله صفات لم يأت بها الكتاب والسنة: كالحركة، وغير ذلك، كما هي عنده لازم الصفات الثابتة.

وقد أنكر السلف على مقاتل قوله في رده على جهم بأدلة العقل، وبالغوا في الطعن عليه، ومنهم من استحلَّ قتله، منهم مكي بن إبراهيم شيخ البخاري وغيره.

وقد أنكر السلف على مقاتل قوله في رده على جهم بأدلة العقل وبالغوا في الطعن عليه، ومنهم من استحلَّ قتله، منهم مكي بن إبراهيم شيخ البخاري وغيره.

والصواب ما عليه السلف الصالح من إمرار آيات الصفات وأحاديثها، كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل، ولا يصح من أحد منهم خلاف ذلك البتة، خصوصًا الإمام أحمد، ولا خوض في معانيها، ولا ضرب مثل من

الأمثال لها، وإن كان بعض من كان قريبًا من زمن الإمام أحمد فيهم من فعل شيئًا من ذلك، اتباعًا لطريقة مقاتل، فلا يقتدى به في ذلك، إنما الاقتداء بأئمة الإسلام: كابن المبارك، ومالك والثوري والأوزاعي، والشافعي، وأحمد وإسحاق، وأبي عبيد، ونحوهم. وكل هؤلاء لا يوجد في كلامهم شيء من جنس كلام المتكلمين، فضلاً عن كلام الفلاسفة، ولم يدخل ذلك في كلام من سلم من قدح وجرح، وقد قال أبو زرعة الرازي: كل من كان عنده علم فلم يصن علمه، واحتاج في نشره إلى شيء من الكلام فلستم منه.

ومن ذلك أعني محدثات العلوم ما أحدثه فقهاء أهل الرأي من ضوابط وقواعد عقلية، ورد فروع الفقه إليها، وسواء أخالفت السنن أم وافقتها، طردًا لتلك القواعد المقررة، وإن كان أصلها مما تأولوه على نصوص الكتاب والسنة، لكن بتأويلات يخالفهم غيرهم فيها، وهذا هو الذي أنكره أئمة الإسلام على من أنكروه على فقهاء أهل الرأي بالحجاز والعراق، وبالغوا في ذمه وإنكاره.

فأما الأئمة وفقهاء أهل الحديث فإنهم يتبعون الحديث الصحيح، حيث كان إذا كان معمولاً به عند الصحابة ومن بعدهم، أو عند طائفة منهم، فأما ما اتفق السلف على تركه فلا يجوز العمل به، لأنهم ما تركوه إلا على علم أنه لا يعمل به، قال عمر بن عبد العزيز: خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم، فإنهم كانوا أعلم منكم.

فأما ما خالف عمل أهل المدينة من الحديث، فهذا كان مالك يرى الأخذ بعمل أهل المدينة، والأكثرون أخذوا بالحديث.

ومما أنكره أئمة السلف الجدال والخصام والمراء في مسائل الحلال والحرام أيضًا، ولم يكن ذلك طريقة أئمة الإسلام، وإنما أحدث ذلك بعدهم كما أحدثه فقهاء العراقين في مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية، وصنفوا كتب الخلاف، ووسعوا البحث والجدال فيها، وكل ذلك محدث لا أصل له، وصار ذلك علمهم حتى شغلهم ذلك عن العلم النافع. وقد أنكر ذلك السلف، وورد في الحديث المرفوع في السنن: «ما ضلَّ قومٌ بعد هدًى إلا أوتوا الجدل» ثم قرأ: «﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَاۢ

بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]»[١].

وقال بعض السلف: إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًّا أغلق عنه باب العمل، وفتح له باب الجدل[٢].

وقال مالك: أدركت أهل هذه البلدة، وإنهم ليكرهون هذا الإكثار الذي فيه الناس اليوم: يريد المسائل، وكان يعيب كثرة الكلام والفتيا، ويقول: يتكلم أحدهم كأنه جمل مغتلم، يقول: هو كذا. هو كذا. يهدر في كلامه، وكان يكره الجواب في كثرة المسائل، ويقول: قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فلم يأته في ذلك جواب، وقيل له: الرجل يكون عالـمًا بالسنن يجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبل منه وإلا سكت. وقال: المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم. وقال: المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغن[٣]، وكان يقول في المسائل التي يسأل عنها كثيرًا: لا أدري، وكان الإمام أحمد يسلك سبيله في ذلك.

وقد ورد النهي عن كثرة المسائل وعن أغلوطات المسائل[٤]، وعن المسائل قبل وقوع الحوادث، وفي ذلك ما يطول ذكره، ومع هذا ففي كلام السلف والأئمة:

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٥٣) وابن ماجه (رقم ٤٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٤١ رقم ٨٤٣٨) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ١٣٥، ١٣٦) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وانظر: التمهيد (٢٤/ ٣٣٢) وتحفة الأحوذي (٩/ ٩٣) وفيض القدير (٥/ ٤٥٣).

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٠) من قول معروف الكرخي رحمه الله، وأبو نعيم في حلية الأولياء عنه أيضًا (٨/ ٣٦١) وابن مفلح في المقصد الأرشد (٣/ ٣٧).

(٣) هذا القول ينسب إلى الشافعي رحمه الله، ذكره عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٨) والنووي في تهذيب الأسماء (١/ ٧٤-٧٥) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٢٠١ رقم ٢٣٩)، وجاء فيها كلها: «الضغائن» بدل «الضغن».

(٤) فعن معاوية ﷺ أن النبي ﷺ نهى عن الغلوطات. أخرجه أبو داود (رقم ٣٦٥٦) وأحمد (٥/ ٤٣٥) والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٨٠ رقم ٨٩٢) وفي الأوسط (٨/ ١٣٧ رقم ٨٢٠٤) وتمام في فوائده (٢/ ٢٠٠ رقم ١٥٢٣). وانظر: عون المعبود (١٠/ ٦٤).

كمالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق التنبيه على مأخذ الفقه ومدارك الأحكام بكلام وجيز مختصر، يفهم به المقصود من غير إطالة ولا إسهاب، وفي كلامهم من رد الأقوال المخالفة للسنة بألطف إشارة وأحسن عبارة، بحيث يغني ذلك من فهمه عن إطالة المتكلمين في ذلك بعدهم، بل ربما لم يتضمن تطويل كلام من بعدهم من الصواب في ذلك ما تضمنه كلام السلف والأئمة مع اختصاره وإيجازه، فما سكت من سكت عن كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلاً ولا عجزًا، ولكن سكتوا عن علم وخشية لله، وما تكلَّم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلم دونهم، ولكن حبًّا للكلام وقلة ورع، كما قال الحسن وسمع قومًا يتجادلون: هؤلاء قوم ملوا العبادة، وخف عليهم القول، وقلّ ورعهم، فتكلموا[١].

وقال مهدي بن ميمون: سمعت محمد بن سيرين وما رآه رجل ففطن له، فقال: إني أعلم ما يريد، إني لو أردت أن أماريك كنت عالـمًا بأبواب المراء، وفي رواية قال: أنا أعلم بالمراء منك ولكني لا أماريك[٢]، وقال إبراهيم النخعي: ما خاصمت قط. وقال عبد الكريم الجزري: ما خاصم ورع قط. وقال جعفر بن محمد: إياكم والخصومات في الدين، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق[٣].

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: إذا سمعت المراء فأقصر، وقال: من جعل دينه عرضًا للخصومات أكثر التنقل[٤]. وقال: إن السابقين عن علم وقفوا، وببصرنا قد كفوا، وكانوا هم أقوى على البحث لو بحثوا[٥]. وكلام السلف في هذا المعنى كثير جدًّا. وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٥٧).
(٢) الطبقات الكبرى (٧/ ١٩٥)
(٣) حلية الأولياء (٣/ ١٩٨) وتذكرة الحفاظ (١/ ١٦٧) وسير أعلام النبلاء (٦/ ٢٦٤) وتهذيب الكمال (٥/ ٩٢).
(٤) حلية الأولياء (٩/ ٢١٨) والطبقات الكبرى (٥/ ٣٧١).
(٥) انظر: حلية الأولياء (٥/ ٣٣٩).

مسائل الدين، فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض، وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم: كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت كيف كانوا، كلامهم أقل من كلام ابن عباس وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعو التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم، فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد.

وقد كان النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم[١]، واختصر له الكلام اختصاراً، ولهذا ورد النهي: عن كثرة الكلام والتوسع في القيل والقال[٢].

وقد قال النبي ﷺ: «إن الله لم يبعث نبيًّا إلا مبلغًا، وإن تشقيق الكلام من الشيطان»[٣] يعني أن النبي إنما يتكلم بما يحصل به البلاغ، وأما كثرة القول وتشقيق الكلام فإنه مذموم، وكانت خطب النبي ﷺ قصدًا[٤]، وكان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه[٥]، وقال: «إن من البيان سحرًا»[٦]، وإنما قاله في ذم ذلك لا مدحًا له كما ظن ذلك من ظنه، ومن تأمّل سياق ألفاظ الحديث قطع بذلك، وفي الترمذي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٩٨) ومسلم (رقم ٥٢٣) ولفظه عند مسلم: «فضلت على الأنبياء بستٍّ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون».

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٧) ومسلم (رقم ٥٩٣) ولفظه عند البخاري: «إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

(٣) ذكره ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (٧/ ١٥ رقم ١١١) والذهبي في ميزان الاعتدال (٧/ ٣٣٤ رقم ١٠٠١١).

(٤) فعن جابر بن سمرة ﷺ قال: كنت أصلي مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصدًا، وخطبته قصدًا، أخرجه مسلم (رقم ٨٦٦).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٦٧) ومسلم (رقم ٢٤٩٣).

(٦) أخرجه البخاري (رقم ٥١٤٦) ومسلم (رقم ٨٦٩).

وغيره عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**إن الله ليبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها**»(١)، وفي المعنى أحاديث كثيرة مرفوعة وموقوفة على عمر وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم من الصحابة، فيجب أن يعتقد أنه ليس كل من كثر بسطه للقول وكلامه في العلم كان أعلم ممن ليس كذلك.

وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول: هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين، وهذا يلزم منه ما قبله لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولاً ممن كان قبلهم، فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله كان أعلم ممن كان أقل منهم قولاً بطريق الأولى: كالثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطبقتهم وممن قبلهم من التابعين والصحابة أيضًا.

فإن هؤلاء كلهم أقل كلامًا ممن جاء بعدهم، وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح، وإساءة ظن بهم، ونسبته لهم إلى الجهل وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولقد صدق ابن مسعود في قوله في الصحابة: إنهم أبر الأمة قلوبًا وأعمقها علومًا، وأقلها تكلفًا، وروي نحوه عن ابن عمر أيضًا(٢)، وفي هذا إشارة إلى أن من بعدهم أقل علومًا وأكثر تكلفًا.

وقال ابن مسعود أيضًا: إنكم في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه(٣). فمن كثر علمه وقل قوله فهو الممدوح، ومن كان بالعكس فهو مذموم، وقد شهد النبي ﷺ لأهل اليمن بالإيمان

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٥٣) وأبو داود (رقم ٥٠٠٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥).

(٣) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٥٨ رقم ١٠٣٨) موقوفًا على ابن مسعود ﷺ، بينما ذكره البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٣٧٤ رقم ٢٨١٩) مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

والفقه[١]، وأهل اليمن أقل الناس كلامًا وتوسعًا في العلوم، لكن علمهم علم نافع في قلوبهم، ويعبرون بألسنتهم عن القدر المحتاج إليه من ذلك، وهذا هو الفقه والعلم النافع؛ فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى أن ينتهي إلى أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم، الذين سميناهم فيما سبق.

فضبط ما روي عنهم في ذلك أفضل العلوم مع تفهمه وتعقله والتفقه فيه، وما حدث بعدهم من التوسع لا خير في كثير منه، إلا أن يكون شرحًا لكلام يتعلق بكلامهم، وأما ما كان مخالفًا لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه، وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة، فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدي إليه من بعدهم ولا يلم به.

فمن لم يأخذ العلم من كلامهم فاته ذلك الخير كله، مع ما يقع في كثير من الباطل، متابعة لمن تأخَّر عنهم، ويحتاج من أراد جمع كلامهم إلى معرفة صحيحه من سقيمه، وذلك بمعرفة الجرح والتعديل والعلل، فمن لم يعرف ذلك فهو غير واثق بما ينقله من ذلك، ويلتبس عليه حقه بباطله، ولا يثق بما عنده من ذلك، كما يرى من قل علمه بذلك، لا يثق بما يروى عن النبي ﷺ ولا عن السلف، لجهله بصحيحه من سقيمه، فهو لجهله يجوز أن يكون كله باطلاً لعدم معرفته بما يعرف به صحيح ذلك وسقيمه.

قال الأوزاعي: العلم ما جاء به أصحاب محمد ﷺ فما كان غير ذلك فليس بعلم[٢]. وكذا قال الإمام أحمد، وقال في التابعين: أنت مخيِّر. يعني مخيَّرًا في كتابته وتركه، وقد كان الزهري يكتب ذلك، وخالفه صالح بن كيسان، ثم ندم على تركه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٨٨) ومسلم (رقم ٥٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٢٠) وتاريخ مدينة دمشق (٣٥/ ٢٠١).

كلام التابعين.

وفي زماننا يتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد، وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم، فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة، وحدث من انتسب إلى متابعة السنة والحديث من الظاهرية ونحوهم، وهو أشد مخالفة لها لشذوذه عن الأئمة وانفراده عنهم بفهم يفهمه، أو يأخذ ما لم يأخذ به الأئمة من قبله.

فأما الدخول مع ذلك في كلام المتكلمين أو الفلاسفة فشر محض، وقل من دخل في شيء من ذلك إلا وتلطخ ببعض أوضارهم[١]، كما قال أحمد: لا يخلو من نظر في الكلام إلا تجهم، وكان هو وغيره من أئمة السلف يحذرون من أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة، وأما ما يوجد في كلام من أحب الكلام المحدث، واتبع أهله من ذم من لا يتوسع في الخصومات والجدال، ونسبته إلى الجهل أو إلى الحشو أو إلى أنه غير عارف بالله أو غير عارف بدينه، فكل ذلك من خطوات الشيطان، نعوذ بالله منه.

ومما أحدث من العلوم الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب، وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطر عظيم، وقد أنكره أعيان الأئمة: كالإمام أحمد وغيره، وكان أبو سليمان يقول: إنه لتمر بي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة[٢].

وقال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في علمنا هذا[٣]. وقد اتسع الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم

---

(١) انظر في ذلك: سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩٧) وتهذيب الكمال (٢٩/ ٤٢٥) وتاريخ بغداد (١٣/ ٣٣٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٣) وتاريخ مدينة دمشق (٣٤/ ١٢٧) وصفة الصفوة (٤/ ٢٢٩) ومفتاح الجنة (ص ٧١).

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٥) وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٧) ومفتاح الجنة (ص ٧١).

مستغنون عنهم، وإلى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع، وإلى دعوى الحلول والاتحاد أو القول بوحدة الوجود، وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان: كدعوى الإباحة، وحل محظورات الشرائع، وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء، فبعضها زعموا أنه يحصل به ترقيق القلوب: كالغناء والرقص، وبعضها زعموا أنه يراد لرياضة النفوس: كعشق الصور المحرمة ونظرها، وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع: كشهرة اللباس، وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة: كالغناء، والنظر إلى المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا.

فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف، وغير ذلك. والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولاً، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل وشغل لمن بالعلم النافع عنى واشتغل.

ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله ـ عز وجل ـ واستعان عليه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه، وحينئذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به، وهي خشية الله، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] قال ابن مسعود وغيره: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا[١]. وقال بعض السلف: ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية[٢]. وقال بعضهم: من خشي الله فهو عالم، ومن عصاه فهو جاهل. وكلامهم في هذا

(١) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٣١٤-٣١٥ رقم ٤٨٧).
(٢) حلية الأولياء (١/ ١٣١) وصفة الصفوة (١/ ٤١٦-٤١٧).

المعنى كثير جدًّا. وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله، وإعظامه، وخشيته، ومهابته، ومحبته، ورجاءه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه، من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه، والتباعد عما يكرهه ويسخطه، فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعًا ووقر في القلب، فقد خشع القلب لله وانكسر له، وذل: هيبة وإجلالًا وخشية ومحبة وتعظيما، ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا، وكل ما هو فانٍ لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش، الذي ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة، وإن كان كريمًا على الله، كما قال ذلك ابن عمر وغيره من السلف، وروي مرفوعًا، وأوجب ذلك أن يكون بين العبد وبين ربه ـ عز وجل ـ معرفة خاصة، فإن سأله أعطاه، وإن دعاه أجابه، كما قال في الحديث الإلهي: «**ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أحبّه**» ـ إلى قوله ـ: «**فلئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه**»(١) وفي رواية: «**ولئن دعاني لأجيبنَّه**»(٢)، وفي وصيته ﷺ لابن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرفك في الشِّدة**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥٦) وأبو يعلى (١٢/ ٥٢٠ رقم ٧٠٨٧) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ١٦٨ رقم ٤٤٤٥) وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ٣٥٦) وقال: هذا ضعيف. بينما ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٤٧) وقال: رواه أحمد وفيه عبد الواحد بن قيس بن عروة وثقه أبو زرعة والعجلي وابن معين في إحدى الروايتين، وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، وذكره في موضع آخر (١٠/ ٢٧٠) وقال: رواه أبو يعلى وفيه يوسف بن خالد السمتي وهو كذاب.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣) (١١/ ٢٢٣ رقم ١١٥٦٠) وأحمد (١/ ٣٠٧) =

فالشأن في أن العبد يكون بينه وبين ربه معرفة خاصة بقلبه بحيث يجده قريبًا منه، يستأنس به في خلوته، ويجد حلاوة ذكره ودعائه ومناجاته وخدمته، ولا يجد ذلك إلا من أطاعه في سره وعلانيته، كما قيل لوهيب بن الورد: أيجد حلاوة الطاعة من عصى، قال: لا، ولا من هَمَّ[(١)]. ومتى وجد العبد هذا فقد عرف ربه، وصار بينه وبينه معرفة خاصة، فإذا سأله أعطاه، وإذا دعاه أجابه، كما قالت شعوانة لفضيل: أما بينك وبين ربك ما إذا دعوته أجابك. فغشي عليه[(٢)].

والعبد لا يزال يقع في شدائد وكرب في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الموقف، فإذا كان بينه وبين ربه معرفة خاصة كفاه الله ذلك كله، وهذا هو المشار إليه في وصية ابن عباس بقوله ﷺ: «تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

وقيل لمعروف: ما الذي هيجك إلى الانقطاع وذكر له الموت والقبر والموقف والجنة والنار، فقال: إن ملكًا هذا كله بيده إذا كانت بينك وبينه معرفة كفاك هذا كله، فالعلم النافع ما عرَّف بين العبد وربه، ودلَّ عليه حتى عرف ربه، ووحّده، وأنس به، واستحيا من قربه، وعبده كأنه يراه.

ولهذا قالت طائفة من الصحابة: إن أول علم يرفع من الناس الخشوع[(٣)].

وقال ابن مسعود: إن أقوامًا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في

=

والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٣٤ رقم ٧٤٥) وعبد بن حميد (١/ ٢١٤ رقم ٦٣٦) والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٣٦١ رقم ٨٤٤٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧ رقم ١٠٧٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٠٩٦) وهناد في الزهد (١/ ٣٠٤ رقم ٥٣٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤).

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٤٤) وتهذيب التهذيب (١١/ ١٥٠) وتاريخ بغداد (٧/ ١٨٩) وكشف الخفاء (١/ ٢٨٠).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٩) وحلية الأولياء (٨/ ١١٣) وصفة الصفوة (٤/ ٥٦).

(٣) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٢/ ٤٣٤) وطبقات المحدثين بأصبهان (٣/ ٤٢١) والمدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٤٥٢ رقم ٨٥٤) وتاريخ أصبهان (٢/ ٣١٠ رقم ١٨٢١).

القلب فرسخ فيه نفع[١].

وقال الحسن: العلم علمان: فعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب فذاك العلم النافع[٢].

وكان السلف يقولون: إن العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعام بالله ليس بعالم بأمره، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله[٣]. وأكملهم الأول، وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه. فالشأن كله في أن العبد يستدل بالعلم على ربه فيعرفه، فإذا عرف ربه فقد وجده منه قريبًا، ومتى وجده منه قريبًا قربه إليه وأجاب دعاءه، كما في الأثر الإسرائيلي: «ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء»[٤]، وكان ذو النون يردد هذه الأبيات بالليل:

اطلبـــــوا لأنفـــسكـــم ... مثـــل مـــا وجـــدت أنـــا
قـــد وجـــدت لي سكــــنًا ... لـــيس في هـــواه عـــنا
إن بعـــــدت قـــربــــني ... أو قـــربت مـــنه دنـــا[٥]

وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقول عن معروف: أصل العلم خشية الله فأصل العلم: العلم بالله الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثم يتلوه العلم بأحكام الله وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد، فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علمًا نافعًا، وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفس القانعة والدعاء المسموع.

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في الوقوف على الموقوف (رقم ٤٥).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٤/ ١٠١ رقم ٥٦٦) مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

(٣) الجرح والتعديل (١/ ٩١) وحلية الأولياء (٧/ ٢٨٠) وتهذيب الكمال (١١/ ١٩٢) وتاريخ ابن معين (رواية الدوري) (٣/ ٥٣٧ رقم ٢٦٢٤) والمدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٣٢٩-٣٣٠ رقم ٥٢٩).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٢) وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٢).

(٥) تاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٤٣٦) وصفة الصفوة (٤/ ٣١٥).

ومـــن فـاته هـذا العلم الـنافع وقع في الأربع، التي استعـاذ منهـا النبي ﷺ[١]. وصار علمه وبالاً وحجة عليه، فلم ينتفع به، لأنه لم يخشع قلبه لربه، ولم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصًا ولها طلبًا، ولم يُسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه.

هذا إن كان علمه علمًا يمكن الانتفاع به وهو المتلقى عن الكتاب والسنة، فإن كان متلقى من غير ذلك، فهو غير نافع في نفسه، ولا يمكن الانتفاع به، بل ضره أكثر من نفعه. وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء وطلب العلو والرفعة في الدنيا. والمنافسة فيها، وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه. وقد ورد عن النبي ﷺ: «**أن من طلب العلم لذلك فالنار النار**»[٢]، وربما ادَّعى بعض أصحاب هذه العلوم معرفة الله وطلبه والإعراض عما سواه، وليس غرضهم بذلك إلا طلب التقدم في قلوب الناس من الملوك وغيرهم، وإحسان ظنهم بهم وكثرة أتباعهم، والتعظم بذلك على الناس.

وعلامة ذلك إظهار دعوى الولاية، كما كان يدعيه أهل الكتاب، وكما ادَّعاه القرامطة والباطنية ونحوهم، هذا بخلاف ما كان عليه السلف من احتقار نفوسهم

---

(١) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (٥/ ٢٦٢-٢٦٣ رقم ١٨٩١)، والترمذي (رقم ٣٤٨٢) وقال: حديث حسن صحيح غريب، والحاكم (١/ ١٨٥ رقم ٣٥٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٤٥ رقم ٧٨٧٠) وفي الصغرى (رقم ٥٤٧٠) والطبراني في الكبير (١١/ ٥٢ رقم ١١٠٢٠) وأحمد (٢/ ١٦٧) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٥ رقم ١٧٧٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٧٨ رقم ٧٧) وفي موارد الظمآن (رقم ٩٠) وابن ماجه (رقم ٢٥٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٢ر قم ١٧٧١) وتمام في فوائده (رقم ٨١٢). قال في مصباح الزجاجة (١/ ٣٧): هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٦ رقم ١٧٩) رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي كلهم من رواية يحيى بن أيوب الغافقي عن ابن جريج عن أبي الزبير عنه، ويحيى هذا ثقة، احتج به الشيخان وغيرهما، ولا يلتفت إلى من شذ فيه.

وازدرائها باطنًا وظاهرًا، وقال عمر: ومن قال: إنه عالم فهو جاهل، ومن قال: إنه مؤمن فهو كافر، ومن قال: هو في الجنة فهو في النار[(١)].

ومن علامات ذلك عدم قبول الحق والانقياد إليه والتكبُّر على من يقول الحق، خصوصًا إن كان دونهم في أعين الناس، والإصرار على الباطل خشية تفرُّق قلوب الناس عنهم بإظهار الرجوع إلى الحق، وربما أظهروا بألسنتهم ذم أنفسهم واحتقارها على رءوس الأشهاد، ليعتقد الناس فيهم أنهم عند أنفسهم متواضعون، فيمدحون بذلك، وهو من دقائق أبواب الرياء، كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء، ويظهر منهم قبول المدح واستجلابه مما ينافي الصدق والإخلاص، فإن الصادق يخاف النفاق على نفسه، ويخشى على نفسه من سوء الخاتمة، فهو في شغل شاغل عن قبول المدح واستحسانه.

فلهذا كان من علامات أهل العلم النافع أنهم لا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقامًا، ويكرهون بقلوبهم التزكية والمدح، ولا يتكبَّرون على أحد، قال الحسن: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة: البصير بدينه، المواظب على عبادة ربه[(٢)]. وفي رواية عنه قال: الذي لا يحسد من فوقه، ولا يسخر ممن دونه، ولا يأخذ على علم علَّمه الله أجرًا، وهذا الكلام الأخير قد روي معناه عن ابن عمر من قوله[(٣)]. وأهل

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٥٢ رقم ٢٥٥٧): من قال: أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال: أنا عالم فهو جاهل، رواه الطبراني في الأوسط بالشطر الثاني منه عن ابن عمر بسند فيه ليث بن أبي سليم، وفي الصغير بالشطر الأول من قول يحيى بن أبي كثير بلفظ: «من قال: أنا في الجنة فهو في النار» وسنده ضعيف، ورواه الديلمي عن جابر بسند ضعيف جدًّا. ورواه الحارث بن أبي أسامة عن عمر بن ا لخطاب موقوفًا عليه وهو منقطع، وقال ابن حجر الهيتمي في فتاواه: هذا على ضعف في سنده من كلام يحيى بن أبي كثير من صغار التابعين قال: ومن رفعه إلى النبي ﷺ فقد وهَّمه الحفاظ على أن رافعه لم يجزم برفعه مع أنه ضعيف مختلط.

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٤٧) (٦/ ١٧٨) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٦) وتهذيب الكمال (٦/ ١١٨).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٠٦).

العلم النافع كلما ازدادوا في هذا العلم ازدادوا تواضعًا لله وخشية وانكسارًا وذلًّا.

قال بعض السلف: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعًا لربه[1].

فإنه كلما ازداد علمًا بربه ومعرفة به ازداد منه خشية ومحبة، وازداد له ذلًّا وانكسارًا، ومن علامات العلم النافع أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح، فالتباعد عن ذلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العلم النافع، فإذا وقع شيء من ذلك من غير قصد واختيار كان صاحبه في خوف شديد من عاقبته، بحيث إنه يخشى أن يكون مكرًا واستدراجًا، كما كان الإمام أحمد يخاف ذلك على نفسه عند اشتهار اسمه وبعد صيته.

ومن علامات العلم النافع أن صاحبه لا يدعي العلم، ولا يفخر به على أحد، ولا ينسب غيره إلى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها، فإنه يتكلَّم فيه غضبًا لله، لا غضبًا لنفسه، ولا قصدًا لرفعتها على أحد. وأما من علمه غير نافع فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس، وإظهار فضل علمه عليهم، ونسبتهم إلى الجهل وتنقصهم، ليرتفع بذلك عليهم، وهذا من أقبح الخصال وأرداها.

وربما نسب من كان قبله من العلماء إلى الجهل والغفلة والسهو، فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها، وإحسان ظنه بها وإساءة ظنه بمن سلف، وأهل العلم النافع على ضد هذا، يسيئون الظن بأنفسهم، ويحسنون الظن بمن سلف من العلماء، ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم، وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم والوصول إليها أو مقاربتها، وما أحسن قول أبي حنيفة وقد سئل عن علقمة والأسود أيهما أفضل؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم، فكيف نفضِّل بينهم؟!

---

(١) ذكره الذهبي من قول الشافعي رحمه الله في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٣) وذكره البيهقي من قول أيوب السختياني في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٣٢٤ رقم ٥٠٩) وذكره الخطيب البغدادي من قول حماد بن زيد في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٣٥١ رقم ٨١٠) وكذا أبو يوسف يعقوب الفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ١٤٢).

وكان ابن المبارك إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد:

لا تعرضن بذكـرنا في ذكـرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد[(١)]

ومن علمه غير نافع إذا رأى لنفسه فضلًا على من تقدمه في المقال وتشقق الكلام ظن لنفسه عليهم فضلاً في العلوم أو الدرجة عند الله، لفضل خُصَّ به عمَّن سبق، فاحتقر من تقدمه واجترأ عليه بقلة العلم، ولا يعلم المسكين أن قلة كلام من سلف إنما كان ورعًا وخشية لله، ولو أراد الكلام وإطالته لما عجز عن ذلك، كما قال ابن عباس لقوم سمعهم يتمارون في الدين: أما علمتم أن لله عبادًا أسكتتهم خشية الله من غير عي ولا بكم، وأنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء، العلماء بأيام الله غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت لذلك عقولهم، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استفاقوا من ذلك يسارعون إلى الله بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم مع المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء، ومع الظَّالمين والخاطئين وإنهم لأبرار برآء، إلا أنَّهم لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون له بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال، هم حيثما لقيتهم مهتمون مشفقون وجلون خائفون، خرجه أبو نعيم وغيره[(٢)]، وخرَّج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «الحياء والعيّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»[(٣)] وحسنه الترمذي، وخرجه الحاكم وصححه.

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٢٦٦) وصفة الصفوة (٤/ ٢٦٦) في ترجمة مخلد بن الحسين.

(٢) تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٧٩، ٨٠) والمعرفة والتاريخ (١/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٢٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد (٥/ ٢٦٩) والروياني في مسنده (٢/ ٣٠٩ رقم ١٢٦٣) والبيهقي في الشعب (٦/ ١٣٣ رقم ٧٧٠٦) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٦٧٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٣٧ رقم ٤٤٦) والحاكم في مستدركه (١/ ٥١ رقم ١٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد احتجا برواته عن آخرهم، وفي (١/ ١١٨ رقم ١٧٠) وقال: وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرطهما.

وخرج ابن حبَّان في صحيحه عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**البيان من الله، والعي من الشيطان، وليس البيان بكثرة الكلام، ولكن البيان الفصل في الحقِّ، وليس العي قلة الكلام، ولكن من سفه الحق**»(١).

وفي مراسيل محمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث ينقص بهن العبد في الدنيا، ويزداد بهن في الآخرة، ما هو أعظم من ذلك، الرحم، والحياء، وعي اللسان**»(٢)، قال عون بن عبد الله: ثلاث من الإيمان: الحياء، والعفاف، والعي: عي اللسان، لا عي القلب، ولا عي العمل، وهن مما يزدن في الآخرة وينقصن في الدنيا، وما يزدن في الآخرة أكبر مما ينقصن من الدنيا، وروي هذا مرفوعًا من وجه ضعيف(٣).

وقال بعض السلف: إن كان الرجل ليجلس إلى القوم فيرون أن به عيًّا وما به من عي، إنه لفقيه مسلم، فمن عرف قدر السلف عرف أن سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام وكثرة الجدال والخصام والزيادة في البيان على مقدار الحاجة لم يكن عيًّا ولا جهلًا ولا قصورًا، وإنما كان ورعًا، وخشية لله، واشتغالاً عما لا ينفع بما ينفع، وسواء في ذلك كلامهم في أصول الدين وفروعه، وفي تفسير القرآن، والحديث، وفي الزهد والرقائق، والحكم والمواعظ، وغير ذلك مما تكلموا فيه، فمن سلك سبيلهم، فقد اهتدى، ومن سلك غير سبيلهم، ودخل في كثرة السؤال والبحث والجدال والقيل والقال، فإن اعترف لهم بالفضل وعلى نفسه بالنقص كان حاله قريبًا، وقد قال إياس بن معاوية: ما من أحد لا يعرف عيب نفسه إلا وهو أحمق، قيل له: فما عيبك؟ قال: كثرة الكلام(٤). وإن ادَّعى لنفسه الفضل ولمن سبقه

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ١١٣ رقم ٥٧٩٦) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٠١٠).

(٢) لم أقف عليه فيما لديَّ من مصادر.

(٣) انظر: التاريخ الكبير (٧/ ١٨٠ رقم ٨٠٩) وحلية الأولياء (٣/ ١٢٥) وتاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٧-٨) والمعرفة والتاريخ (١/ ١٤١).

(٤) تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٣٤، ٣٥) وتهذيب الكمال (٣/ ٤٣٦) والطبقات الكبرى (٧/ ٢٣٤).

النقص والجهل، فقد ضلّ ضلالاً مبينًا، وخسر خسرانًا عظيمًا.

وفي الجملة ففي هذه الأزمان الفاسدة: إما أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون عالمًا عند الله، أو لا يرضى إلا بأن يكون عند أهل الزمان عالمًا، فإن رضي بالأول فليكتف بعلم الله فيه، ومن كان بينه وبين الله معرفة اكتفى بمعرفة الله إيَّاه، ومن لم يرض إلا بأن يكون عالمًا عند الناس دخل في قوله ﷺ: **«من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوأ مقعده من النار»**[(١)].

قال وهيب بن الورد: رب عالم يقول له الناس عالم وهو معدود عند الله من الجاهلين[(٢)]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«إن أول من تسعر به النار ثلاثة: أحدهم من قرأ القرآن وتعلَّم العلم، ليقال: هو قارئ. وهو عالم. ويقال له: قد قيل ذلك، ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى ألقي في النار»**[(٣)] فإن لم تقنع نفسه بذلك حتى تصل إلى درجة الحكم بين الناس، حيث كان أهل الزمان لا يعظمون من لم يكن كذلك ولا يلتفتون إليه، فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وانتقل من درجة العلماء إلى درجة الظلمة.

ولهذا قال بعض السلف لما أريد على القضاء فأباه: إنما تعلَّمت العلم لأحشر به مع الأنبياء لا مع الملوك، فإن العلماء يحشرون مع الأنبياء، والقضاة يحشرون مع الملوك[(٤)]. ولابد للمؤمن من صبر قليل حتى يصل به إلى راحة طويلة، فإن جزع ولم يصبر فهو كما قال ابن المبارك: من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما أقل ما

---

(١) أخرجه الدارمي (رقم ٣٧٤) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٦ رقم ١٢١) والخطيب في اقتضاء العلم والعمل (رقم ١٠٠) والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (رقم ٢١). وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ١٩١) والضياء في الأحاديث المختارة (٧/ ٧٢ رقم ٢٤٨١).

(٢) انظر: حلية الأولياء (٨/ ١٥٧) وفيها: عبد الوهاب بن الورد.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠٥).

(٤) تهذيب الكمال (١٦/ ٢٨٥) وانظر: كشف الخفاء (٢/ ٨٤، ٥٣١) وسبل السلام (٤/ ١٢٣).

يتمتع، وكان الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ ينشد:

يا نفس ما هي إلا صبر أيام كأن مدتها أضغاث أحلام

يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة وخل عنها فإن العيش قدام

فنسأل الله ـ تعالى ـ علمًا نافعًا، ونعوذ به من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع، اللهم إنا نعوذ بك من هؤلاء الأربع الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

فصل

ليتدبر ما ذم الله به أهل الكتاب من قسوة القلوب بعد إتيانهم الكتاب ومشاهدتهم الآيات: كإحياء القتيل المضروب ببعض البقرة، ثم نهينا عن التشبه بهم في ذلك، فقيل لنا: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، وبيّن في موضع آخر سبب قسوة قلوبهم، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، فأخبر أن قسوة قلوبهم كان عقوبة لهم على نقضهم ميثاق الله وهو مخالفتهم لأمره وارتكابهم لنهيه، بعد أن أخذ عليهم مواثيق الله وعهوده: أن لا يفعلوا ذلك، ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]. فذكر أن قسوة قلوبهم أوجبت لهم خصلتين مذمومتين: إحداهما: تحريف الكلم من بعد مواضعه، والثانية نسيانهم حظًّا مما ذكروا به، والمراد تركهم وإهمالهم نصيبًا مما ذكروا به من الحكمة، والموعظة الحسنة، فنسوا ذلك وتركوا العمل به وأهملوه.

وهذان الأمران موجودان في الذين فسدوا من علمائنا لمشابهتهم لأهل الكتاب: أحدهما تحريف الكلم، فإن من تفقه لغير العمل يقسو قلبه، فلا يشتغل بالعمل، بل بتحريف الكلم، وصرف ألفاظ الكتاب والسنة عن مواضعها، والتلطف في ذلك بأنواع الحيل اللطيفة من حملها على مجازات اللغة المستبعدة ونحو ذلك، والطعن في

ألفاظ السنن، حيث لم يمكنهم الطعن في ألفاظ الكتاب، ويذمون من تمسك بالنصوص، وأجراها على ما يفهم منها ويسمونه جاهلًا أو حسودًا.

وهذا يوجد في المتكلمين في أصول الديانات وفي فقهاء الرأي، وفي صوفية الفلاسفة والمتكلمين، والثاني: نسيان حظ مما ذكروا به من العلم النافع، فلا تتعظ قلوبهم، بل يذمون من تعلَّم ما يبكيه ويرق به قلبه، ويسمونه قاصًّا.

ونقل أهل الرأي في كتبهم عن بعض شيوخهم: أن ثمرات العلوم تدل على شرفها، فمن اشتغل بالتفسير فغايته أن يقص على الناس ويذكرهم، ومن اشتغل برأيهم وعلمهم فإنه يفتي ويقضي ويحكم ويدرس، وهؤلاء لهم نصيب من الذين: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧]، والحامل لهم على هذا شدة محبتهم للدنيا وعلوها، ولو أنهم زهدوا في الدنيا، ورغبوا في الآخرة، ونصحوا أنفسهم وعباد الله، لتمسكوا بما أنزل الله على رسوله، وألزموا الناس بذلك، فكان الناس حينئذ أكثرهم لا يخرجون عن التقوى، فكان يكفيهم ما في نصوص الكتاب والسنة، ومن خرج منهم عنهما كان قليلاً، فكان الله يقيض من يفهم من معاني النصوص ما يرد به الخارج عنها إلى الرجوع إليها، ويستغني بذلك عما ولدوه من الفروع الباطلة. والحيل المحرَّمة، التي بسببها فتحت أبواب الرياء وغيره من المحرمات، واستحلت محارم الله بأدنى الحيل، كما فعل أهل الكتاب: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تم والحمد لله

الرسالة السابعة:

تطهير الاعتقاد
عن أدران الإلحاد

تأليف الإمام المحدث السلفي المجتهد الشهير
محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني
١٠٩٩ ـ ١١٨٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد، حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد، فلا يتخذون له ندًّا، ولا يدعون مع الله أحدًا، ولا يتكلون إلا عليه، ولا يفزعون في كل حال إلا إليه، ولا يدعونه بغير أسمائه الحسنى، ولا يتوصلون إليه بالشفعاء ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربًّا معبودًا؛ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي أمره أن يقول: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩]. صلى الله عليه وعلى آله والتابعين له في السلامة من العيوب، وتطهير القلوب عن اعتقاد كل شين يشوب..

وبعد: فهذا «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وجب عليَّ تأليفه، وتعين(١) عليَّ ترصيفه لما رأيته وعلمته يقينًا، من عموم اتخاذ العباد الأنداد(٢) في الأمصار والقرى وجميع البلاد، من اليمن والشام ومصر، ونجد، وتهامة، وجميع ديار الإسلام. وهو الاعتقاد في القبور(٣)، أو في الأحياء ممن يدعي العلم بالمغيبات والمكاشفات، وهو من أهل الفجور(٤)، لا يحضر للمسلمين مسجدًا، ولا يرى لله

---

(١) في الأصل: «وتضيّق».

(٢) الأنداد جمع نِد بالكسر، وهو مثل الشيء الذي يضاده في أموره ويناده: أي يخالفه، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ٣٥) ومجمع بحار الأنوار، لمحمد طاهر الفتني (٤/ ٦٧٧)، والغريبين للهروي (٦/ ١٨٢١).

(٣) كما هو الواقع والمشاهد في كثير من بلدان المسلمين من اعتقاد العامة في المقبور: أنه ينفع ويضر، لذا نجد كثيرًا من الجهلة يهرعون إلى قبور الأولياء والصالحين والمشايخ وقبور مجهولة، ظنًّا منهم واعتقادًا فيهم أن لديهم حلًّا لمعضلاتهم، وتلبيةً لرغباتهم، فيلجأون إليهم رغبًا ورهبًا من دون الله أو مع الله، تعالى الله عما يعمل الظالمون والجاهلون.

(٤) أمثال الدجالين والمشعوذين وآكلي أموال الناس بالباطل من السحرة الكهنة والعرافين، الذين زيَّن =

راكعًا ولا ساجدًا، ولا يعرف السنة ولا الكتاب، ولا يهاب البعث ولا الحساب.

فوجب عليَّ أن أنكر ما أوجب الله إنكاره[(١)]، ولا أكون من الذين يكتمون ما أوجب الله إظهاره[(٢)]. فاعلم: أن ههنا أصولاً، وهي من قواعد الدين، ومن أهم ما تجب معرفته على الموحدين.

الأصل الأول: إنه قد علم من ضرورة الدين؛ أن كل ما في القرآن فهو حق لا باطل؛ وصدق لا كذب، وهدى لا ضلالة، وعلم لا جهالة، ويقين لا شك فيه.

فهذا أصل لا يتم إسلام أحد ولا إيمانه إلا بالإقرار بهذا الأصل، وهذا أمر مجمع عليه لا خلاف فيه.

الأصل الثاني: إن رسل الله وأنبياءه - من أولهم إلى آخرهم - بعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، فكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه قوله: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٧٥]، ﴿ أن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود: ٢٦]، ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [نوح: ٣].

وهذا هو الذي تضمنه قول «لا إله إلا الله»، فإنما دعت الرسل أممها إلى قول هذه الكلمة، واعتقاد معناها، لا مجرد قولها باللسان[(٣)].

ومعناها: هو إفراد الله بالإلهية والعبادة، والنفي لما يعبد من دونه، والبراءة منه،

لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل، ويحسبون أنهم مهتدون.

(١) امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ الذي قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» أخرجه مسلم رقم (٤٩).

(٢) عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

(٣) هذا هو الموافق لروح الشريعة، فما كان لدين مثل هذا الدين العظيم أن يطالب المنتسبين إليه بقول هذه الأحرف: لا إله إلا الله، ثم هم بعد ذلك يعتقدون خلاف مدلولها، فينقضون معناها، ويهدمون أصولها، ثم لم تلبث أن تكون كلمات جوفاء فارغة، لا أثر لها في حياتهم، وها هم المنافقون على عهد رسول الله ﷺ يقولونها بألسنتهم صباح مساء، وهم في الدرك الأسفل من النار، عياذًا بالله من غضبه وعقابه وأليم عذابه.

وهذا الأصل لا مرية فيما تضمنه، ولاشك فيه، وأنه لا يتم إيمان أحد حتى يعلمه[١].

الأصل الثالث: التوحيد قسمان:

القسم الأول: توحيد الربوبية، والخالقية، والرازقية ونحوها.

ومعناه: أن الله وحده هو الخالق للعالم، وهو الرب لهم والرازق لهم. وهذا لا ينكره المشركون، ولا يجعلون لله فيه شريكًا، بل هم مقرون به، كما سيأتي.

والقسم الثاني: توحيد العبادة.

ومعناه: إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات الآتي بيانها. فهذا هو الذي جعلوا لله فيه الشركاء، ولفظ «الشريك» يشعر بالإقرار بالله تعالى.

فالرسل عليهم السلام بعثوا لتقرير الأول، ودعاء المشركين إلى الثاني، مثل قولهم[٢] في خطاب المشركين ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] وتنهاهم عن شرك العبادة، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] أي قائلين لأممهم: أن اعبدوا الله. فأفاد بقوله: ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أن جميع الأمم لم ترسل إليهم الرسل وتبعث إليهم إلا لطلب توحيد العبادة، لا للتعريف بأن الله هو الخالق للعالم، وأنه رب السماوات والأرض، فإنهم مقرون بهذا، ولهذا لم ترد الآيات في الغالب إلا بصيغة استفهام التقرير نحو ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]، ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٤] استفهام تقرير لهم، لأنهم به مقرون.

---

(١) في حاشية الأصل: في نسخة «يعمله».

(٢) في الأصل: ودعا المشركين الله عند قولهم.

بهذا تعرف أن المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان، ولم يعبدوها ولم يتخذوا المسيح وأمه، ولم يتخذوا الملائكة شركاء لله تعالى؛ لأجل أنهم أشركوهم في خلق السماوات والأرض وفي خلق أنفسهم؛ بل اتخذوهم لأنهم يقربونهم إلى الله زلفى كما قالوه، فهم مقرون بالله تعالى في نفس كلمات كفرهم، وأنهم شفعاء عند الله.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨] فجعل تعالى اتخاذهم للشفعاء شركًا، ونزه نفسه عنه، لأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكيف يثبتون شفعاء لهم لم يأذن الله لهم في شفاعة، ولا يغنون عنهم من الله شيئًا.

الأصل الرابع: إن المشركين الذين بُعِث الرسل إليهم، مقرون أن الله خالقهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩] وأنه الرازق الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وأنه الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وأنه الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]. ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

وهذا فرعون مع غلوه في كفره، ودعواه أقبح دعوى ونطقه بالكلمة الشنعاء،

يقول الله في حقه حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال إبليس: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] وقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ [ص: ٧٩]. وكل مشرك مقر بأن الله خالقه، وخالق السماوات والأرض، وربهم ورب ما فيهما، ورازقهم، ولذا تحتج عليهم الرسل بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]. وبقولهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] والمشركون مقرون بذلك ولا ينكرونه.

الأصل الخامس: إن العبادة أقصى باب الخضوع والتذلل، ولم تستعمل إلا في الخضوع لله، لأنه مولى أعظم النعم، وكان حقيقًا بأقصى غاية الخضوع كما في الكشاف[1].

ثم إن رأس العبادة وأساسها؛ التوحيد[2] الذي[3] تفيده كلمته، التي إليها دعت جميع الرسل، وهو قول: «لا إله إلا الله».

والمراد: اعتقاد معناه والعمل بمقتضاها، لا مجرد قولها باللسان.

ومعناها: إفراد الله بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كل معبود دونه.

وقد علم الكفار هذا المعنى؛ لأنهم أهل اللسان العربي، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

فصل

إذا عرفت هذه الأصول، فاعلم أن الله جعل العبادة له أنواعاً.

اعتقادية: وهي أساسها، وذلك أن يعتقد أنه الرب الواحد الأحد، الذي له

---

(١) للزمخشري (١/ ١٠).

(٢) قال النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم (٢/ ٤): وقد نبَّه ﷺ على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشُّعَبِ إلا بعد صحته.

(٣) في الأصل: «التي».

الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، وأنه الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحق غيره، وغير ذلك مما يجب من لوازم الإلهية.

ومنها لفظية: وهي النطق بكلمة التوحيد. فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها: لم يحقن دمه ولا ماله(١)، وكان كإبليس، فإنه يعتقد التوحيد، ويقر به كما أسلفنا عنه، إلا أنه لم يمتثل أمر الله بالسجود فكفر، ومن نطق ولم يعتقد حقن ماله ودمه وحسابه على الله وحكمه حكم المنافقين(٢).

وبدنية: كالقيام والركوع والسجود في الصلاة، ومنها الصوم والحج والطواف.

ومالية: كإخراج جزء من المال، امتثالاً لما أمر الله تعالى به.

وأنواع الواجبات والمندوبات: في الأبدان، والأموال، والأفعال، والأقوال كثيرة، لكن هذه أمهاتها.

وإذا تقررت هذه الأمور فاعلم أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم؛ يدعون العباد إلى إفراد الله بالعبادة، لا إلى إثبات أنه خلقهم ونحوه، إذ هم مقرون بذلك كما قررناه وكررناه، ولذا قالوا: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠] أي: لنفرده بالعبادة ويختص بها من دون الأوثان؟ فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا أنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا

---

(١) هذا المعنى مستفاد من قول رسولنا الكريم ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله». أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢).

(٢) حكم المنافقين أن يقبل منهم ظاهرهم، أما سرائرهم فهي موكولة إلى الله عز و جل، وليس لنا سبيل إلى معرفة المنافقين الذي يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وقد انقطع الوحي، وصدق حذيفة بن اليمان ﷺ حين قال: إنما كان النفاق على عهد النبي ﷺ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان، أخرجه البخاري (رقم ٧١١٤)، وصدق حين قال: إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي ﷺ، كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون، أخرجه البخاري (رقم ٧١١٣).

مع الله تعالى غيره، وأشركوا معه سواه، واتخذوا له أندادًا، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] أي: وأنتم تعلمون أنه لا ند له.

وكانوا يقولون في تلبيتهم للحج: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وكان يسمعهم النبي ﷺ عند قولهم: لا شريك لك، ويقول: «قدِ قدِ»[(١)] أي أفردوه جل جلاله بالعبادة لو تركوا قولهم: «إلا شريكًا هو لك». فنفس شركهم بالله تعالى إقرار به تعالى. كما قال: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢]، ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

فنفس اتخاذ الشريك إقرار بالله، ولم يعبدوا الأصنام بالخضوع لهم والتقرب وبالنذور والنحر لهم، إلا لاعتقادهم أنها تقربهم من الله، وتشفع لهم لديه.

فأرسل الله الرسل تأمرهم بترك عبادة كل ما سواه، وأن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، والتقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة، وقد كانوا مقرين ـ كما عرفت في الأصل الرابع ـ بتوحيد الربوبية، وأنه الخالق وحده، والرازق وحده.

ومن هذا تعرف أن التوحيد الذي دعتهم إليه الرسل من أولهم وهو نوح عليه السلام ـ إلى آخرهم ـ وهو محمد بن عبد الله ﷺ[(٢)]، هو توحيد العبادة[(٣)]، ولذا تقول

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٨٥) قال القاضي عياض: روي بإسكان الدال وكسرها مع التنوين، ومعناه: كفاكم هذا الكلام فاقتصروا عليه ولا تزيدوا، حاشية صحيح مسلم (١/ ٨٤٣).

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٩): قدِ قدِ بمعنى: حسب، وتكرارها لتأكيد الأمر، ويقول المتكلم: قَدْني، أي: حَسْبي. وللمخاطب: قَدْك. أي: حسبك.

(٢) أول الرسل هو نوح عليه السلام، وآخرهم هو محمد بن عبد الله ﷺ وخاتم النبيين، ثبت ذلك في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوحُ أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا...» إلى: «فيأتون محمدًا ﷺ، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك». أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٠) ومسلم (رقم١٩٤).

(٣) وهو أصل الدين الذي اتفقت عليه كل الشرائع من لدن نوح عليه السلام إلى آخرهم وأفضلهم محمد بن =

لهم الرسل: ﴿ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود: ٢٦]، ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقد كان المشركون، منهم من يعبد الملائكة ويناديهم عند الشدائد، ومنهم من يعبد أحجارًا ويهتف بها، وهي في الأصل صور رجال صالحين، كانوا يحبونهم ويعتقدون فيهم، فلما هلكوا صوروا صورهم تسليًا بها، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم، ثم زاد الأمد طولاً فعبدوا الأحجار(١). ومنهم من يعبد المسيح، ومنهم من يعبد الكواكب ويهتف بها عند الشدائد.

فبعث الله محمدًا ﷺ يدعوهم إلى الله بأن يفردوه بالعبادة، كما أفردوه بالربوبية، ربوبية السماوات والأرض، وأن يفردوه، بكلمة «لا إله إلا الله» معتقدين لمعناها، عاملين بمقتضاها(٢)، وأنهم لا يدعون مع الله أحدًا.

وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ ﴾ [الرعد: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

أي من شروط الصدق في الإيمان بالله أن لا يتوكلوا إلا عليه، وأن يفردوه بالتوكل، كما يجب أن يفردوه بالدعاء والاستغفار. وأمر عباده أن يقولوا: ﴿ إِيَّاكَ

=

عبد الله ﷺ، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»، أي أن شرائعهم مختلفة ومتباينة. أما أصل الدين: التوحيد فهو واحد لم يختلف من نبي إلى آخر، وهذا الحديث أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٣) ومسلم (رقم٢٣٦٥).

(١) قال الله عز وجل عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ وهؤلاء أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانون يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتنسَّخ العلم عُبدت، أخرجه البخاري (رقم٤٩٢٠).

(٢) وهذا هو معنى الإيمان كما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث: أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان، انظر: كتاب التوحيد لابن رجب الحنبلي بتحقيقي وهو من منشورات دار القاسم (ص ٨٦-٨٧) والشريعة، للآجري (٢/ ٦١١-٦٤٤).

نَعۡبُدُ﴾، ولا يصدق قائل هذا إلا إذا أفرد العبادة لله، وإلا كان كاذبًا منهياً عن أن يقول هذه الكلمة، إذ معناها: نخصك بالعبادة ونفردك بها، وهو معنى قوله: ﴿فَإِيَّىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

كما عرف من علم البيان، أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي لا تعبدوا إلا الله، ولا تعبدوا غيره، ولا تتقوا إلا الله، ولا تتقوا غيره، كما في (الكشاف)[١].

فإفراد الله تعالى بتوحيد العبادة لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله له، والنداء في الشدائد والرخاء لا يكون إلا لله وحده، والاستغاثة والاستعانة بالله وحده، واللجأ إلى الله والنذر والنحر له تعالى، وجميع أنواع العبادات: من الخضوع والقيام تذللاً لله والركوع والسجود والطواف والتجرد عن الثياب والحلق والتقصير كله لا يكون إلا لله، ومن فعل ذلك لمخلوق من حي أو ميت أو جماد أو غيره فقد أشرك في العبادة[٢]، وصار من تفعل له هذه الأمور إلهًا لعابديه، سواء كان ملكًا أو نبيًا أو وليًا أو شجرًا أو قبرًا أو جنيًا أو حيًا أو ميتًا، وصار بهذه العبادة أو بأي نوع منها عابدًا لذلك المخلوق، وإن أقر بالله وعبده.

فإن إقرار المشركين بالله وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك، وعن وجوب سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، ونهب أموالهم. فالله تعالى: «**أغنى الشركاء عن الشرك**»[٣] لا يقبل عملًا شورك فيه غيره، ولا يؤمن به من عبد معه غيره.

إذا تقرر عندك أن المشركين لم ينفعهم الإقرار بالله تعالى مع إشراكهم في العبادة، ولا يغني عنهم من الله شيئًا، وأن عبادتهم هي اعتقادهم فيهم: أنهم يضرون

---

(١) للزمخشري (١/ ٢٧٦).

(٢) انظر: كتاب مفيد الظلام للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن (ص ٣٧) والدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٥٠-٥١).

(٣) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥).

وينفعون، وأنهم يقربونهم إلى الله زلفى، وأنهم يشفعون لهم عنده تعالى، فنحروا لهم النحائر، وطافوا بهم، ونذروا النذور عليهم، وقاموا متذللين متواضعين في خدمتهم، وسجدوا لهم، ومع هذا كله، فهم مقرون لله بالربوبية وأنه الخالق، ولكنهم لما أشركوا في عبادتهم جعلهم مشركين؛ ولم يعتد بإقرارهم هذا؛ لأنه نافاه فعلهم. فلم تنفعهم الأقوال بتوحيد الربوبية[١]: فمن شأن من أقر بالله بتوحيد الربوبية: أن يفرده بتوحيد العبادة، فإذا لم يفعل ذلك، فالإقرار الأول باطل. وقد عرفوا ذلك وهم في طبقات النار، وقالوا: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨].

مع أنهم لم يسووهم به من كل وجه، ولا جعلوهم خالقين، ولا رازقين، لكن علموا في قعر جهنم أن خلطهم الإقرار بذرة من ذرات الإشراك في توحيد العبادة صيّرهم كمن سوّى بين الأصنام وبين رب الأنام. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، أي ما يقر أكثرهم في إقراره بالله، وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادة الأوثان.

بل سمى الله الرياء في الطاعات شركًا، مع أن فاعل الطاعة ما قصد بها إلا الله تعالى، وإنما أراد طلب المنزلة بالطاعة في قلوب الناس، فالمرائي عَبَدَ الله لا غيره، لكنه خلط عبادته بطلب المنزلة في قلوب الناس، فلم يقبل له عبادة، وسمّاها شركًا.

كما أخرجه مسلم: من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[٢].

بل سمى الله التسمية بعبدالحارث شركًا، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. فإنه أخرج الإمام أحمد بن حنبل والترمذي

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ١١٧-١١٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥).

من حديث سمرة أنه ﷺ قال: «لما حملت حواء ـ وكان لا يعيش لها ولد ـ طاف بها إبليس، وقال: لا يعيش لك ولد حتى تسميه عبد الحارث، فسمته، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»[١]، فأنزل الله الآيات وسمى هذه التسمية شركًا، وكان إبليس تسمى بالحارث[٢] والقصة في (الدر المنثور) وغيره[٣].

فصل

قد عرفت من هذا كله؛ أن من اعتقد في شجر أو حجر، أو قبر أو ملك أو حي أو ميت؛ أنه ينفع ويضر وأنه يقرب إلى الله، أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا بمجرد التشفع به؛ والتوصل إلى الرب تعالى ـ أو نحو ذلك ـ فإنه قد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لا يحل اعتقاده، كما اعتقد المشركون في الأوثان، فضلًا عمن ينذر بماله وولده لميت أو حي، يطلب من ذلك الميت ما لا يطلب إلا من الله من الحاجات: من عافية مريضه، أو قدوم غائبه، أو نيله لأي مطلب من المطالب، فإن هذا هو الشرك بعينه، الذي كان عليه عباد الأصنام.

والنذر بالمال على الميت ونحوه، والنحر على قبره والتوسل به، وطلب الحاجات منه، هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنًا وصنمًا، وفعله القبوريون لما يسمونه قبرًا ووليًّا ومشهدًا[٤]. والأسماء لا أثر لها، ولا تعتبر إلا المعاني[٥]،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١١) والترمذي (رقم٣٠٧٧) والطبراني في الكبير (٧/ ٢٦٠- ٢٦١ رقم٦٨٩٥) والحاكم (٢/ ٥٤٥)، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٩٦): رفعه إلى النبي ﷺ خطأ والصواب وقفه، بينما ضعّف الحديث الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ٣٤٢).

(٢) لا تصح تسمية إبليس بالحارث، حيث ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «إن خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن والحارث» أخرجه أحمد (٤/ ١٧٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٦٢).

(٣) انظر: الدر المنثور (٣/ ٦٢٣- ٦٢٥).

(٤) انظر: رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل للشوكاني (ص ٨٠) ودمعة على التوحيد، كتاب البيان (ص ٥٥-٥٨).

(٥) في الأصل: «ولا تعتبر المعاني» وجاء بالهامش: لعله: «إلا المعاني».

ضرورة لغوية وعقلية وشرعية: فإن من شرب الخمر وسماها ماء؛ ما شرب إلا خمرًا، وعقابه عقاب شارب الخمر، ولعله يزيد عقابه للتدليس والكذب في التسمية.

وقد ثبت في الأحاديث: أنه يأتي أقوام يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها(١)، وصدق ﷺ، قد أتى طوائف من الفسقة يشربون الخمر ويسمونها نبيذًا.

وأول من سمى ما فيه غضب الله وعصيانه بالأسماء المحبوبة عند السامعين؛ إبليس لعنه الله، فإنه قال لأبي البشر آدم عليه السلام: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠] فسمى الشجرة التي نهى الله آدم عن قربانها شجرة الخلد، جذبًا لطبعه إليها، وهزًّا لنشاطه إلى قربانها، وتدليسًا عليه بالاسم الذي اخترعه لها. كما يسمي إخوانه المقلدون له: الحشيشة: بلقمة الراحة. وكما يسمي الظلمة ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلمًا وعدوانًا: أدبًا. فيقولون: أدب القتل، أدب السرقة، أدب التهمة، بتحريف اسم الظلم إلى اسم الأدب. كما يحرفونه في بعض المقبوضات إلى اسم النفاعة، وفي بعضها إلى اسم السياقة، وفي بعضها أدب المكاييل والموازين. وكل ذلك اسمه عند الله ظلم وعدوان، كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسنة(٢)، وكل ذلك مأخوذ عن إبليس، حيث سمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد.

---

(١) فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب فيها طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها» أخرجه ابن ماجه (رقم٣٣٨٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٢٧٣) وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ليشربن ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها» أخرجه أبو داود (رقم٣٦٨٨) وابن ماجه (رقم ٤٠٢٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٥٤٥٣، ٥٤٥٤).

(٢) حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨] وقال رسول الله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٦/ ١٠٠ رقم ١١٣٢٥) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٤١) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٤٠ رقم ١٥٧٠) وأحمد (٥/ ٧٢، ١١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٦٦٢)، وانظر: المحلى لابن حزم (١٠/ ٣٦٥) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (٤/ ٤٥).

وكذلك تسمية القبر مشهدًا، ومن يعتقدون فيه وليًّا، لا تخرجه عن اسم الصنم والوثن؛ إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية، من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها، وكل قوم لهم رجل ينادونه. فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر. وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه يقولون: يا زيلعي يا ابن العجيل. وأهل مكة والطائف: يا ابن العباس. وأهل مصر: يا رفاعي، والسادة البكرية. وأهل الجبال: يا أبا طير. وأهل اليمن: يا ابن علوان.

وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم، ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهو بعينه فعل المشركين في الأصنام[1]، كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعـادوا بهـا معنـى سـواع ومثلـه	يغوث وود، بئس ذلـك مـن ود
وقد هتفوا عند الـشدائد باسـمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفـرد
وكم نحروا في سوحها من نحـيرة	أهلت لغير الله جهـرًا عـلى عمـد
وكم طائف حـول القبـور مقبـلاً	ويـستلم الأركـان مـنهن بالأيـد

فإن قال: إنما نحرت لله وذكرت اسم الله عليه. فقل: إن كان النحر لله فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم. فقل: هذا النحر لغير الله، بل أشركت معه غيره وإن لم ترد تعظيمه، فهل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه؟ أنت تعلم يقينًا: إنك ما أردت ذلك أصلًا، ولا أردت إلا الأول، ولا خرجت من بيتك إلا لقصده، ثم كذلك دعاؤهم له. فهذا الذي عليه هؤلاء شرك بلا ريب.

وقد يعتقدون في بعض فسقة الأحياء، وينادونه في شدتهم والرخاء، وهو عاكف على القبائح، لا يحضر حيث أمر الله عباده المؤمنين بالحضور، لا يحضر جمعة

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٢٤ - ١٢٦).

ولا جماعة، ولا يعود مريضًا، ولا يشيع جنازة، ويضم إلى ذلك دعوى علم الغيب، ويجلب إليه إبليس جماعة قد عشعش إبليس في قلوبهم، وباض فيها وفرخ، يصدقون بهتانه ويعظمون شأنه، ويجعلون هذا ندًّا لرب العالمين ومثلًا.

فيا للعقول أين ذهبت؟ وجهلت الشرائع؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

فإن قلت: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء والفسقة والخلعاء مشركين؛ كالذين يعتقدون في الأصنام؟

قلت: نعم، قد حصل فيهم ما حصل في أولئك، وساووهم في ذلك، بل زادوا في الاعتقاد والانقياد والاستعباد، فلا فرق بينهم.

فإن قلت: هؤلاء القبوريون يقولون: نحن لا نشرك بالله عز وجل، ولا نجعل له ندًّا، والالتجاء إلى الأولياء والاعتقاد فيهم ليس بشرك.

قلت: نعم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ [آل عمران: ١٦٧]. لكن هذا جهل منهم بمعنى الشرك، فإن تعظيمهم الأولياء، ونحرهم النحائر لهم شرك، والله يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾ [الكوثر: ٢] أي: لا لغيره، كما يفيده تقديم الظرف. ويقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقد عرفت بما قدمناه قريبًا أنه ﷺ قد سمى الرياء شركًا، فكيف بما ذكرناه؟ فهذا الذي يفعلونه لأوليائهم؛ هو عين ما فعله المشركون وصاروا به مشركين، ولا ينفعهم قولهم: نحن لا نشرك بالله شيئًا، لأن فعلهم أكذب قولهم.

فإن قلت: هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه.

قلت: قد صرح الفقهاء في كتب الفقه في باب الردة: أن من تكلم بكلمة الكفر يكفر، وإن لم يقصد معناها[1]، وهذا دل على أنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام، ولا

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٠): فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: =

ماهية التوحيد، فصاروا حينئذ كفارًا كفرًا أصليًا(١).

فإن الله قد فرض على عباده إفراده بالعبادة: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود: ٢٦] وإخلاصها له: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

ومن نادى الله ليلًا ونهاراً، وسرًّا وجهارًا، وخوفًا وطمعًا ثم نادى معه غيره، فقد أشرك في العبادة، فإن الدعاء من العبادة، وقد سماه الله عبادة في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ بعد قوله: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

فإن قلت: فإذا كانوا مشركين وجب جهادهم، والسلوك فيهم ما سلك رسول الله ﷺ في المشركين.

قلت: إلى هذا ذهب طائفة من أئمة العلم. فقالوا: يجب أولاً دعاؤهم إلى التوحيد، وإبانة أن ما يعتقدونه ينفع ويضر لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأنهم أمثالهم، وأن هذا الاعتقاد منهم فيهم شرك، لا يتم الإيمان بما جاءت به الرسل إلا بتركه

إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل إنما كنا نخوض ونلعب، وبيّن أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدرًا بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام. ثم قال رحمه الله في كتابه الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ (ص ١٧٧-١٧٨): وبالجملة فمن قال أو فعل ما هو كفر كفر بذلك، وإن لم يقصد أن يكون كافرًا، إذ لا يقصد الكفر أحد إلا ما شاء الله.

(١) لقد شرح هذه العبارة فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين شرحًا موفقًا بقوله: فمرادهم بذلك من تكلم بكلام كفر مازحًا وهازلاً، وهو عبارة كثير منهم في قولهم: من أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين وإن كان مازحًا، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦] وأما من تكلم بكلمة كفر لا يعلم أنها كفر يُعرَّف بذلك، فإن رجع فإنه لا يحكم بكفره، كالذين قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. وقوله: فصاروا كفارًا كفرًا أصليًّا، يعني أنهم نشأوا على ذلك، فليس حكمهم كالمرتدين الذين كانوا مسلمين، ثم صدرت منهم هذه الأمور الشركية، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على محمد وآل محمد وأصحاب محمد وسلم تسليمًا كثيرًا، انظر: مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٤/ ٣٧٤ -٣٧٥).

والتوبة منه، وإفراد التوحيد ـ اعتقادًا وعملاً ـ لله تعالى؛ وهذا واجب على العلماء؛ بيان أن ذلك الاعتقاد الذي تفرعت عنه النذور والنحائر والطواف بالقبور: شرك محرم؛ وأنه عين ما كان يفعله المشركون لأصنامهم، فإذا أبان العلماء للأئمة والملوك؛ وجب على الأئمة والملوك بعث دعاة إلى إخلاص التوحيد، فإن رجع وأقر حقن عليه دمه وماله وذراريه، ومن أصر فقد أباح الله منه ما أباح لرسوله ﷺ من المشركين.

فإن قلت: الاستغاثة قد ثبتت في الأحاديث، فإنه قد صح أن العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبي البشر، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، وينتهون إلى محمد ﷺ، بعد اعتذار كل واحد من الأنبياء(١)؛ فهذا دليل على أن الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر.

قلت: هذا تلبيس، فإن الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه لا ينكرها أحد، وقد قال الله تعالى في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

وإنما الكلام في استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم، وطلب أمور لا يقدر عليها إلا الله من عافية المريض وغيرها. بل أعجب من هذا أن القبوريين وغيرهم من الأحياء من أتباع من يعتقدون فيه: قد يجعلون له حظًّا من الولد إن عاش، ويشترون منه الحمل في بطن أمه ليعيش لهم، ويأتون بمنكرات ما بلغ إليها المشركون.

ولقد أخبرني بعض من يتولى قبض ما ينذر القبوريون لبعض أهل القبور: أنه جاء إنسان بدراهم وحلية نسائه، وقال: هذا لسيدي فلان ـ يريد صاحب القبر ـ نصف مهر ابنتي، لأني زوجتها وكنت ملكت نصفها فلانًا ـ يريد صاحب القبر ـ. وهذا شيء ما بلغ إليه عباد الأصنام.

نعم استغاثة العباد يوم القيامة وطلبهم من الأنبياء إنما يدعون الله ليفصل بين العباد بالحساب؛ حتى يريحهم من هول الموقف؛ وهذا لا شك في جوازه أعني طلب

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٠، ٤٧١٢، ٧٥١٠) ومسلم (رقم ١٩٣، ١٩٤).

دعاء الله من بعض عباده لبعض، بل قد قال ﷺ لعمر ﷺ لما خرج معتمرًا: «لا تنسنا يا أخي من دعائك»[(١)] وأمرنا الله أن ندعوا للمؤمنين ونستغفر لهم، وقد قالت أم سليم: يا رسول الله خادمك أنس، ادع الله له[(٢)]. وقد كان الصحابة ﷺ يطلبون الدعاء منه ﷺ وهو حي، وهذا أمر متفق على جوازه.

وإنما الكلام في طلب القبوريين من الأموات أو من الأحياء، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا: أن يشفوا أمراضهم، ويردوا غائبهم، وينفسوا عن حبلاهم، وأن يسقوا زرعهم، ويدروا ضروع مواشيهم، ويحفظوها[(٣)] من العين، ونحو ذلك من المطالب التي لا يقدر عليها أحد إلا الله تعالى، فكيف يُطلب من الجماد أو من حيٍّ؛ الجماد خير منه، لأنه لا تكليف عليه؟!

وهذا يبين ما فعله المشركون في عبادة الأصنام، وهذه بعينها العبادة، وهذه النذور بالأموال وجعل قسط منها للقبر كما يجعلون شيئًا من الزروع يسمونه تلمًا في بعض الجهات اليمنية للميت، وكذلك يجعلون لهم نصيبًا من أنعامهم هو بعينه الذي كان يفعله المشركون الذين حكى الله عنهم ذلك ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا...﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيــة. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩) وأبو داود (رقم ١٤٩٨) والترمذي (رقم٣٥٦٢) وابن ماجه (رقم٢٨٩٤) والبزار (رقم١١٩) والطيالسي (رقم ١٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٨٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه محقق عمل اليوم والليلة، بينما ضعفه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند، والشيخ الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح (رقم٢٢٤٨).

(٢) فعن أنس ﷺ قال: قالت أم سليم: أنس خادمك، قال: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته»، أخرجه البخاري (رقم ٦٣٨٠، ٦٣٨١) ومسلم (رقم ٢٤٨٠).

(٣) في الأصل: «يحفظونها» بإثبات النون والصواب حذف النون، لأنه الموافق لقواعد اللغة العربية، حيث إن الفعل المضارع هنا من الأفعال الخمسة منصوب بـ (أن) وعلامة نصبه حذف النون.

فهؤلاء القبوريون والمعتقدون في جهال الأحياء وضلالهم سلكوا مسالك المشركين، حذو القذَّة بالقذة، فاعتقدوا فيهم ما لا يجوز أن يعتقد إلا في الله، وجعلوا لهم جزءًا من المال، وقصدوا قبورهم من ديارهم للزيارة، وطافوا حول قبورهم، وقاموا خاضعين عند قبورهم، وهتفوا بهم عند الشدائد، ونحروا تقربًا إليهم، وهذه هي أنواع العبادات التي عرفناك.

ولا أدري: هل فيهم من يسجد لهم؟ لا أستبعد أن فيهم من يفعل ذلك. بل أخبرني من أثق به أنه رأى من يسجد على عتبة باب مشهد الولي الذي يقصده، تعظيمًا له وعبادة، ويقسمون بأسمائهم، بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يُقبل منه، فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه، وهكذا كان عباد الأصنام: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

وفي الحديث الصحيح: «من حلف فليحلف بالله أو ليصمت»[(١)]. وسمع ﷺ رجلاً يحلف باللات، فأمره أن يقول: «لا إله إلا الله»[(٢)].

فإن قلت: قد قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»، وقال لأسامة بن زيد: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟**» وهؤلاء يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، بخلاف المشركين. **قلت**: قد قال ﷺ: «**إلا بحقها**»[(٣)]. وحقها: إفراد الإلهية والعبودية لله.

والقبوريون لم يفردوا هذه العبادة، فلم تنفعهم كلمة الشهادة، فإنها لا تنفع إلا مع التزام معناها، ولم ينفع اليهود قولها لإنكارهم بعض الأنبياء، وكذلك من جعل

---

(١) أخرجه البخاري (رقم٢٦٧٩) ومسلم (رقم١٦٤٦).

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدق**» أخرجه البخاري (رقم ٤٨٦٠) ومسلم (رقم١٦٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٢) ومسلم (رقم٢١).

غير من أرسله الله نبيًّا: لم تنفعه كلمة الشهادة، ألا ترى أن بني حنيفة كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويصلون، ولكن قالوا: إن مسيلمة نبي، وقاتلهم الصحابة وسبوهم، فكيف من يجعل للولي خاصية الإلهية ويناديه للملمات، وهذا أمير المؤمنين علي عليه السلام حرّق أصحاب عبد الله بن سبأ، وكانوا يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله،ولكنهم غلوا في علي رضي الله عنه واعتقدوا فيه ما يعتقده القبوريون وأشباههم، بل عاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحدًا من العصاة، فإنه حفر لهم الحفائر، وأجج لهم نارًا وألقاهم فيها، وقال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا ... أججت ناري ودعوت قنبرًا[1]

وقال الشاعر في عصره:

لترم بي المنية حيث شاءت ... إذا لم ترم بي في الحفرتين
إذا ما أججوا فيهن نارًا ... رأيت الموت نقدًا غير دين[2]

والقصة في فتح الباري وغيره من كتب الحديث والسير. وقد وقع إجماع الأمة على أن من أنكر البعث كفر وقتل، ولو قال: «لا إله إلا الله»، فكيف بمن يجعلوا لله ندًّا؟

فإن قلت: قد أنكر ﷺ على أسامة قتله لمن قال: «لا إله إلا الله»[3] كما هو معروف في كتب الحديث والسير.

قلت: لا شك أن من قال: «لا إله إلا الله» من الكفار حقن دمه وماله، حتى يتبين منه ما يخالف ما قاله، ولذا أنزل الله في قصة مُحَلِّم بن جثَّامة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ...﴾ [النساء: ٩٤] الآية.

فأمرهم الله بالتثبت في شأن من قال كلمة التوحيد، فإن تبين التزامه لمعناها كان

(١) ذكر هذه القصة الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (١٢/ ٢٧٠) وقال: وهذا سند حسن، وانظر: نيل الأوطار للشوكاني (٧/ ١٩٣- ١٩٤).
(٢) أخرجه الحميدي في مسنده (١/ ٢٤٤- ٢٤٥ رقم ٥٣٣)، وانظر: فتح الباري (٦/ ١٥١).
(٣) أخرجه البخاري (رقم٤٢٦٩، ٦٨٧٢) ومسلم (رقم٩٦).

له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن تبين خلافه لم يحقن بمجرد التلفظ ماله ودمه. وهكذا كل من أظهر التوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يخالف ذلك، ولم تنفع هذه الكلمة بمجردها اليهود، ولا نفعت هذه الكلمة أيضًا الخوارج مع ما انضم إليها من العبادة، التي يحتقر الصحابة عبادتهم إلى جنبها، بل أمر ﷺ بقتلهم، وقال: «**لئن أدركتهم لأقتلنَّهم قتل عاد**»[(١)]، وذلك لما خالفوا بعض الشريعة؟ وكانوا شر القتلى تحت أديم السماء[(٢)]، كما ثبتت به الأحاديث. فثبت أن مجرد قول كلمة التوحيد غير مانع من ثبوت شرك من قالها، لارتكابه ما يخالفها من عبادة غير الله.

فإن قلت: القبوريون وغيرهم من الذين يعتقدون في فسقة الناس وجهالهم من الأحياء، يقولون: نحن لا نعبد هؤلاء، ولا نعبد إلا الله وحده؛ ولا نصلي لهم، ولا نصوم، ولا نحج.

قلت: هذا جهل بمعنى العبادة، فإنها ليست منحصرة فيما ذكرت، بل رأسها وأساسها الاعتقاد، وقد حصل في قلوبهم ذلك، بل يسمونه معتقدًا، ويصنعون له ما سمعته مما تفرع عن الاعتقاد: من دعائهم وندائهم، والتوسل بهم، والاستغاثة بهم والاستعانة، والحلف والنذر وغير ذلك.

وقد ذكر العلماء أن من تزيا بزي الكفار صار كافرًا[(٣)]، ومن تكلم بكلمة الكفر

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٤) ومسلم (رقم١٠٦٤).

(٢) فعن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسًا منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...﴾ [آل عمران: ١٠٦] إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا حتى عد سبعًا، ما حدثتكموه. أخرجه الحميدي (٢/ ٤٠٤ رقم ٩٠٨) وأحمد (٥/ ٢٥٦) والترمذي (رقم٣٠٠٠) وحسنه وابن ماجه (رقم ١٧٦).

(٣) فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**». أخرجه أحمد (٢/ ٥٠) وأبو داود (رقم ٤٠٣١) وقال شيخ =

صار كافرًا[١] فكيف بمن بلغ هذه الرتبة اعتقادًا وقولاً وفعلاً؟

فإن قلت: هذا النذر والنحائر ما حكمها؟

قلت: قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها، يسعون في جمعها ولو بارتكاب كل معصية، ويقطع الفيافي من أدنى الأرض والأقاصي، فلا يبذل أحد من ماله شيئًا إلا معتقدًا لجلب نفع أكثر منه؛ أو دفع ضرر، فالناذر للقبر ما أخرج ماله إلا لذلك، وهذا اعتقاد باطل، ولو عرف الناذر بطلان ما أراده: ما أخرج درهمًا، فإن الأموال عزيزة عند أهلها، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ [محمد: ٣٦- ٣٧].

فالواجب تعريف من أخرج النذر بأنه إضاعة لماله، وأنه لا ينفعه ما يخرجه، ولا يدفع عنه ضررًا، وقال: قال ﷺ: «إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به مال البخيل»[٢] ويجب رده إليه.

وأما القابض للنذر: فإنه حرام عليه قبضه، لأنه أكل لمال الناذر بالباطل، لا في مقابلة شيء، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

ولأنه تقرير للناذر على شركه وقبح اعتقاده، ورضاه بذلك، ولا يخفى حكم الراضي بالشرك[٣]، فهو مثل حلوان الكاهن ومهر البغي[٤]. ولأنه تدليس على

الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٣١): هذا حديث جيد، وقال في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤٠): وهذا إسناد جيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٨٣١).

(١) ينظر في ذلك: رسالة «ألفاظ الكفر» لبدر الرشيد، والكلمات النافعة في المكفرات الواقعة لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، وفتح الباري (١١/ ٣١٠- ٣١٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم٦٦٠٨، ٦٦٩٢) ومسلم (رقم١٦٣٩).

(٣) قال البدر الرشيد في رسالة: «ألفاظ الكفر» (١/ ب) مخطوط: «وأن من ضحك مع الرضا عمن يتكلم بالكفر كفر».

(٤) فعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحُلْوان

الناذر، وإيهام له أنه ينفعه الولي ويضره.

فأي تقرير لمنكر أعظم من قبض النذر على الميت؟ وأي تدليس أعظم، وأي رضى بالمعصية العظمى أبلغ من هذا؟ وأي تصيير للمنكر معروفًا أعجب من هذا؟ وما كانت النذور للأصنام والأوثان إلا على هذا الأسلوب. يعتقد الناذر جلب النفع في الصنم ودفع الضرر، فينذر له جزءًا من ماله، ويقاسمه في غلات أطيانه، ويأتي به إلى سدنة الأصنام فيقبضونه منه، ويوهمونه حقية عقيدته[١]، وكذلك يأتي بنحيرته، فينحرها بباب بيت الصنم. وهذه الأفعال هي التي بعث الله الرسل لإزالتها وإحراقها وإتلافها والنهي عنها.

فإن قلت: إن الناذر قد يدرك النفع ودفع الضرر بسبب إخراجه للنذر وبذله[٢].

قلت: كذلك الأصنام، كأن يدرك منها ما هو أبلغ من هذا، وهو الخطاب من جوفها، والإخبار ببعض ما يكتمه الإنسان[٣]، فإن كان هذا دليلاً على حقية القبور

= الكاهن. أخرجه البخاري (رقم٢٢٣٧) ومسلم (رقم ١٥٦٧).

(١) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٥١).

(٢) قد يكون ذلك واقعًا، ولكن لا يعني صحة ذلك وقبوله، بأن الله عز وجل قد يبتلي بعض العباد بمثل ذلك، حيث يتم لهم المراد، وتتحقق الرغبات بعد الوفاء بالنذور، فيظنون أن ذلك ببركة الشيخ ابتلاءً واختبارًا لهم وفتنةً، كما يحدث لبعض العصاة أن يمد الله لهم في النعيم والملذات الدنيوية وهم واقعون في شراك المعاصي، فيظنون أنهم بذلك على خير، وإلا لما جاءهم هذا الخير والنعيم الذي هم فيه، ونسوا قول رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج» صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٥٦١) والسلسلة الصحيحة (رقم٤١٤).

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٦٦٤): وهؤلاء المشركون قد يتمثل لأحدهم صورة الشيخ الذي استغاث به، فيظن أنه الشيخ أو ملك جاء على صورته، وإنما هو شيطان تمثل له ليضله ويغويه لما دعا غير الله، كما كان نصيب المشركين الذين يعبدون الأصنام تخاطبهم الشياطين وتتراءى لهم وتخبرهم ببعض الأمور الغائبة وإن كان فيما به من الكذب ما يبين أنهم شياطين، قال تعالى: =

وصحة الاعتقاد فيها: فليكن دليلاً على حقية الأصنام، وهذا هدم للإسلام، وتشييد لأركان الأصنام.

والتحقيق: أن لإبليس وجنوده من الجن والإنس أعظم العناية في إضلال العباد. وقد مكَّن الله إبليس من الدخول في الأبدان والوسوسة في الصدور(١)، والتقام القلب بخرطومه(٢)، وكذلك يدخل أجواف الأصنام، ويلقي الكلام في أسماع الأقوام، ومثله يصنعه في أهل عقائد القبوريين، فإن الله قد أذن له أن يجلب على بني آدم بخيله ورجله، وأن يشاركهم في الأموال والأولاد.

وثبت في الأحاديث: «**إن الشياطين تسترق السمع بالأمر الذي يحدثه الله، فتلقيه إلى الكهان ـ وهم الذين يخبرون بالمغيبات، ويزيدون فيما يلقيه الشيطان من عند أنفسهم مائة كذبة**»(٣) ويقصد شياطين الجن شياطين الإنس من سدنة القبور وغيرهم، فيقولون: إن الولي فعل وفعل، يرغبونهم فيه ويحذرونهم منه؛ ويرون ملوك الأقطار مقررين لذلك؛ ويولون العمال لقبض النذور، وقد يتولاها من يحسنون الظن فيه من عالم أو قاض فيتم التدليس لإبليس، وتقر عينه بهذا التلبيس.

فإن قلت: هذا أمر عم البلاد؛ وأجمعت عليه سكان الأغوار والأنجاد: وطبق الأرض شرقًا وغربًا؛ ويمنًا وشامًا، وجنوبًا وعدنًا: بحيث لا تجد بلدة من بلاد الإسلام

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢] وهؤلاء كثيرون في المشركين من الهند والترك والحبشة، وفي المتشبهين بهم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام.

(١) مصداق ذلك قول رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» أخرجه البخاري (رقم٧١٧١) ومسلم (رقم ٢١٧٥).

(٢) يروى: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله تعالى خنس، وإن نسي الله التقم قلبه». أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٧٨- ٢٧٩ رقم ٤٣٠١) وضعفه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٧٤٢) والألباني في ضعيف الجامع (رقم ١٤٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٢١٠) ومسلم (رقم٢٢٢٨).

إلا وفيها قبور ومشاهد وأحياء، يعتقدونها ويعظمونها؛ وينذرون لها، ويهتفون بأسمائها، ويحلفون بها، ويطوفون بفناء القبور؛ ويسرجون؛ ويصنعون كل أمر يقدرون عليه من العبادة لها، والتعظيم، بل هذه مساجد المسلمين، غالبها لا تخلو عن قبر، أو في قريب منها، أو مشهد يقصده المصلون في أوقات الصلاة، يصنعون فيه ما ذكر، أو بعضًا مما ذكر، ولا يتسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة، ويسكت عليه علماء الإسلام، الذين ثبتت لهم الوطأة في جميع جهات من الدنيا.

قلت: إن أردت الإنصاف، وتركت متابعة الأسلاف، وعلمت أن الحق: ما قام عليه الدليل، لا ما اتفق عليه العوالم جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل[1].

فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها، ونسعى في هدم منارها: صادرة من العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل، ومتابعة لهم من غير فرق بين دبير وقبيل، ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته، وأصحاب جلدته يلقنونه في الطفولية: أن يهتف باسم من يعتقدونه، ويراهم ينذرون عليه، ويعظمونه، ويرحلون به إلى محل قبره، ويلطخونه بترابه، ويجعلونه طائفًا على قبره، فينشأ وقد قر في قلبه عظمة ما يعظمونه، وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه، فنشأ على هذا الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير.

بل يرى ممن ينتمي بالعلم، ويدعي الفضل، وينصب للقضاء والفتيا والتدريس أو الولاية، أو الإمارة، معظمًا لما يعظمونه، مكرمًا لما يكرمونه، قابضًا للنذور، آكلاً ما ينحر على القبور، فيظن أن هذا دين الإسلام، وأنه على رأس الدين والسنام، ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر، ويعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر: أن سكوت العالم على وقوع منكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر.

ولنضرب لك مثلًا من ذلك، وهي هذه المكوس المسماة بالمجابي، المعلوم من

---

(١) في الأصل المخطوط: «جيل بعد جيل وقبيل بعد قبيل».

ضرورة الدين تحريمها، قد ملأت الديار والبقاع، وصارت أمرًا مأنوسًا لا يلج إنكارها إلى سمع من الأسماع، وقد امتدت أيدي المكاسين في أشرف البقاع، في مكة أم القرى، تقبض من القاصدين لأداء فريضة الإسلام، ويلقون في البلد الحرام، كل فعل حرام وسكانها من فضلاء الأنام والعلماء والحكام، ساكتون عن الإنكار، معرضون عن الإيراد والإصدار ـ أفيكون السكوت من العلماء، بل من العالم دليلاً على جوازها وأخذها وإحرازها؟ هذا لا يقوله من له أدنى إدراك. بل أضرب لك مثلاً آخر، هذا حرم الله الذي هو أفضل بقاع الدنيا بالاتفاق وإجماع العلماء؛ أحدث فيه بعض ملوك الشراكسة الجهلة الضلال هذه المقامات الأربعة، التي فرقت عبادة العباد، واشتملت على ما لا يحصيه إلا الله من الفساد، وفرّقت عبادات المسلمين، وصيرتهم كالملل المختلفة في الدين، بدعة قرّت بها عين إبليس اللعين، وصيّرت المسلمين ضحكة للشياطين، وقد سكت الناس عليها، ووفد علماء الآفاق والأبدال والأقطاب إليها، وشاهدها كل ذي عينين، وسمع بها كل ذي أذنين، أفهذا السكوت دليل على جوازها؟ هذا لا يقوله من له إلمام بشيء من المعارف[١].

فإن قلت: يلزم من هذا أن الأمة قد اجتمعت على ضلالة، حيث سكتت عن إنكارها لأعظم جهالة.

قلت: الإجماع حقيقة اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ على أمر بعد عصره، وفقهاء المذاهب الأربعة يحيلون الاجتهاد من بعد الأئمة الأربعة، وإن كان هذا قولاً باطلاً، وكلامًا لا يقوله إلا من كان للحقائق جاهلًا، فعلى زعمهم: لا إجماع أبدًا من بعد الأئمة الأربعة، فلا يرد السؤال، فإن هذا الابتداع والفتنة بالقبور لم يكن على عهد أئمة المذاهب الأربعة.

---

(١) لقد وفق الله عز وجل الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله للقضاء على هذه البدعة الشيطانية ووحّد المسلمين على إمام واحد، يصلون خلفه، فاجتمع الصف وزالت الفرقة وأقر الله أعين الموحدين المسلمين وخذل إبليس اللعين وجنوده من شياطين الجن والإنس، والحمد لله على توحيد الكلمة ونبذ الفرقة.

وعلى ما نحققه: فالإجماع وقوعه محال. فإن الأمة المحمدية قد ملأت الآفاق، وصارت في كل أرض وتحت كل نجم، فعلماؤها المحققون لا ينحصرون، ولا يتم لأحد معرفة أحوالهم، فمن ادعى الإجماع بعد انتشار الدين، وكثرة علماء المسلمين: فإنها دعوى كاذبة، كما قاله أئمة التحقيق.

ثم لو فرض أنهم علموا بالمنكر وما أنكروه بل سكتوا عن إنكاره، لما دل سكوتهم على جوازه، فإنه قد علم من قواعد الشريعة: أن وظائف الإنكار ثلاث:

أولها: الإنكار باليد، وذلك بتغيير المنكر وإزالته.

ثانيها: الإنكار باللسان مع عدم استطاعة التغيير باليد.

ثالثها: الإنكار بالقلب عند عدم استطاعة التغيير باليد واللسان، فإن انتفى أحدها لم ينتف الآخر[(١)].

ومثاله: مرور فرد من أفراد علماء الدين بأحدٍ من المكاسين، وهو يأخذ أموال المظلومين، فهذا الفرد من علماء الدين لا يستطيع التغيير على هذا الذي يأخذ أموال المساكين باليد ولا باللسان، لأنه إنما يكون سخرية لأهل العصيان، فانتفى شرط الإنكار بالوظيفتين، ولم يبق إلا الإنكار بالقلب الذي هو أضعف الإيمان، فيجب على من رأى ذلك العالم ساكتًا عن الإنكار مع مشاهدة ما يأخذه ذلك الجبار، أن يعتقد أنه تعذر عليه الإنكاران: باليد واللسان، وأنه قد أنكر بقلبه، فإن حسن الظن بالمسلمين أهل الدين واجب، التأويل لهم مهما أمكن ضربة لازب، فالداخلون إلى الحرم الشريف والمشاهدون لتلك الأبنية الشيطانية التي فرقت شمل الدين، وشتت صلوات المسلمين، معذورون عن الإنكار إلا بالقلب، كالمارين على المكّاسين وعلى القبوريين.

ومن هنا يعلم اختلال ما استمر عند أئمة الاستدلال من قولهم في بعض ما يستدلون عليه بالإجماع: إنه وقع ولم ينكر، وكان إجماعًا. ووجه اختلاله: أن قولهم: «ولم

---

(١) لحديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» أخرجه مسلم (رقم ٤٩).

ينكر» رجم بالغيب، فإنه قد يكون أنكرته قلوب كثيرة، تعذّر عليها الإنكار باليد واللسان، وأنت تشاهد في زمانك: أنه كم من أمر يقع لا تنكره بلسانك ولا بيدك، وأنت منكر له بقلبك، ويقول الجاهل، إذا رآك تشاهده: سكت فلان عن الإنكار، إما لائمًا أو متأسيًا بسكوته، فالسكوت لا يستدل به عارف، وكذا يعلم اختلال قولهم في استدلال فعل فلان كذا، وسكت الباقون، فكان إجماعًا؛ مختل من جهتين:

الأولى: دعوى أن سكوت الباقين تقرير لفعل فلان، لما عرفت من عدم دلالة السكوت على التقرير.

الثانية: قولهم: «وكان إجماعاً» فإن الإجماع اتفاق أمة محمد ﷺ، والساكت لا ينسب إليه وفاق ولا خلاف، حتى يعرب عنه لسانه.

قال بعض الملوك؛ وقد أثنى الحاضرون على شخص من عمّاله، وفيهم رجل ساكت: ما لك لا تقول كما يقولون؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم[1].

فما كل سكوت رضى، فإن هذه منكرات أسسها من بيده السيف والسنان، ودماء العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه، وقوله وكلمه، فكيف يقوى فرد من الأفراد على دفعه عما أراد.

فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد، غالب

---

(١) ذكر الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٥): أن زيادًا كان معظمًا للأحنف، فلما ولي بعده ابنه عبيد الله تغير أمر الأحنف، وقدَّم عليه من هو دونه، ثم وفد على معاوية في الأشراف، فقال لعبيد الله: أدخلهم عليَّ على قدر مراتبهم. فأخَّر الأحنف، فلما رآه معاوية أكرمه لمكان سيادته، وقال: إليَّ يا أبا بحر، وأجلسه معه وأعرض عنهم، فأخذوا في شكر عبيد الله بن زياد، وسكت الأحنف. فقال له: لِمَ لا تتكلم؟ قال: إن تكلمت خالفتهم، قال: اشهدوا أني قد عزلت عبيد الله. فلما خرجوا كان فيهم من يروم الإمارة، ثم أتوا معاوية بعد ثلاث. وذكر كل واحد شخصًا، وتنازعوا. فقال معاوية: ما تقول يا أبا بحر. قال: إن وليت أحدًا من أهل بيتك لم تجد مثل عبيد الله. فقال: قد أعدته. قال: فخلا معاوية بعبيد الله، وقال: كيف ضيّعت مثل هذا الرجل الذي عزلك وأعادك وهو ساكت. فلما رجع عبيد الله جعل الأحنف صاحب سره.

بل كل من يعمرها الملوك والسلاطين، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه، من فاضل أو عالم ويزوره الناس الذي يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم من يرى قبرًا قد شيد عليه البناء، وسرّجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضرر، ويأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضرر، وبفلان النفع، حتى يغرسوا في جبلته كل باطل[١]. ولأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية؛ اللعن على من أسرج على القبور وكتب عليه وبنى عليها، وأحاديث ذلك واسعة معروفة[٢]، فإن ذلك في نفسه منهي عنه، ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة.

فإن قلت: هذا قبر رسول الله ﷺ قد عمرت عليه قبة عظيمة، أنفقت فيها الأموال.

قلت: هذا جهل عظيم، فإن هذه القبة ليس بناؤها منه ﷺ ولا من صحابته ولا من علماء أمته، بل هذه القبة المعمولة على قبر سيد الأنبياء من أبينة بعض ملوك مصر المتأخرين، وهو قلاوون الصالحي، المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان

(١) هذه خطوات الشيطان، وهي ذاتها الخطوات التي سلكها أول مرة في تغيير معالم الدين وإحداث الشرك في قوم نوح عليه السلام، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبدَتْ. أخرج البخاري (رقم ٤٩٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٢٣٦) والترمذي (رقم ٣٢٠) والنسائي (رقم ٢٠٤٢) وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤/ ٣٤٨-٣٥١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه، أخرجه مسلم (رقم ٩٧٠) وزاد الترمذي: نهى النبي ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها، وأن توطأ (رقم ١٠٥٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وسبعين وستمائة، ذكره في «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» فهذه أمور دولية لا دليلية، يتبع فيها الآخر الأول.

وهذا آخر ما أردناه مما أوردناه لما عمت البلوى، واتبعت الأهواء، وأعرض العلماء عن النكير الذي يجب عليهم، ومالوا إلى ما مالت العامة إليه، وصار المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، ولم نجد من الأعيان ناهيًا عن ذلك ولا زاجراً.

فإن قلت: قد يتفق للأحياء أو للأموات اتصال جماعة بهم يفعلون خوارق من الأفعال، يتسمون بالمجاذيب، فما حكم ما يأتون به من تلك الأمور، فإنها مما جلبت القلوب إلى الاعتقاد بها؟

قلت: أما المتسمون بالمجاذيب الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم، ويقولونها بألسنتهم، ويخرجونها عن لفظها العربي: فهم من أجناد إبليس، ومن أعظم حمر الكون، الذين ألبستهم حلل التلبيس، فإن إطلاق الجلالة مفرد عن إخبار عنها بقولهم: «الله، الله» ليس بكلام ولا توحيد، وإنما هو تلعب بهذا اللفظ الشريف بإخراجه عن لفظه العربي، ثم إخلاؤه عن معنى من المعاني، ولو أن رجلًا عظيمًا صار يسمى زيدًا، وصار جماعة يقولون: زيد. زيد، لعد ذلك استهزاء وإهانة وسخرية، لاسيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ.

ثم انظر: هل أتى في لفظة في الكتاب والسنة عند ذكر الجلالة بانفرادها وتكريرها؟ والذي في الكتاب والسنة هو طالب الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل، وهذه أذكار رسول الله ﷺ، وأدعيته وآله وأصحابه خالية عن هذا الشهيق، الذي اعتاده من هو عن الله وعن هدي رسوله في مكان سحيق.

ثم قد يضيفون إلى الجلالة أسماء جماعة من الموتى مثل: ابن علوان، وأحمد بن الحسين، وعبدالقادر، والعيدروس، بل قد انتهى الحال إلى أنهم يعدون من القبور من أهل الظلم والجراءة كعلي رومان، وعلي الأحمر، وأشباههما، ولقد صان الله رسوله ﷺ وأهل الكساء وأعيان الصحابة عن إدخالهم في أفواه هؤلاء الجهلة

الضلال، فيجمعون أنواعًا من الجهل والشرك.

فإن قلت: إنه يتفق من هؤلاء الذين يلوكون الجلالة، ويضيفون إليها أهل الخلاعة والبطالة، خوارق، كطعن أنفسهم وحملهم لمثل الحنش والحية وأكلهم النار.

قلت: هذه أحوال شيطانية، وإنك لملبس عليك: أن ظننتها كرامات للأموات، لما هتف هذا الضال بأسمائهم وجعلهم أندادًا وشركاء، فهؤلاء الموتى أنت تفرض أنهم أولياء لله، فهل يرضى ولي الله أن يجعله المجذوب ندًّا لله وشريكًا له، إن زعمت ذلك فقد جئت شيئًا إدًّا، فصيرت هؤلاء الأموات مشركين، وأخرجتهم وحاشاهم عن دائرة الإسلام والدين، حيث جعلتهم أندادًا لله راضين، أو يزعم أن هذه كرامات لهؤلاء المجاذيب الضلال المشركين، التابعين لكل باطل، المنغمسين بين بحار الرذائل، الذين لا يسجدون لله سجدة، ولا يذكرون الله وحده؛ فإن زعمت هذا فقد أثبت الكرامات للمشركين، وهدمت بذلك قواعد الدين.

وإذا عرفت بطلان الأمرين علمت أن هذه أحوال شيطانية بفعل الشياطين لإخوانهم من هؤلاء الضالين، معاونة من الفريقين على إغواء العباد.

وقد ثبت في الأحاديث: إن الشياطين والجان يتشكلون بأشكال الحية والثعبان، وهذا أمر مقطوع بوقوعه(١)، فهم الثعابين الذي يشاهدها الإنسان في أيدي المجاذيب.

---

(١) عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة: أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته، قال: فوجدته يصلي، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكًا في عراجين في ناحية البيت، فالتفت فإذا حية فوثبت لأقتلها، فأشار إليَّ: أن اجلس، فجلست فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم، قال: كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس، قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يومًا، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ عليك سلاحك، فإني أخشى عليك قريظة»، فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة، فقالت له: اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه، فما يدري أيهما كان أسرع موتًا: الحية أم الفتى؟ قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع الله يحييه =

وقد يكون ذلك من باب السحر، وهو أنواع، وتعلمه ليس بالعسير، بل بابه الأعظم، هو الكفر بالله، وإهانة ما عظمه من جعل مصحف في كنيف ونحوه، فلا يغتر من يشاهد ما يعظم في عينيه من أحوال المجاذيب من الأمور، التي يراها خوارق، فإن للسحر تأثيرًا عظيمًا في الأفعال، وهكذا الذين يقلبون الأعيان بالأسحار وغيرها، وقد ملأ سحرة فرعون الوادي بالثعابين والحيات، حتى أوجس في نفسه خيفة موسى. وحتى وصفه الله بأنه سحر عظيم، والسحر[١] يفعل أعظم من هذا، فإنه قد ذكر ابن بطوطة وغيره: أنه شاهد في بلاد الهند قومًا توقد لهم النار ويخرجون وثيابهم كأنها لم يمسها شيء.

بل ذكر أنه رأى إنسانًا عند بعض ملوك الهند أتى بولدين معه ثم قطعهما عضوًا عضوًا، ثم رمى بكل عضو إلى جهة فرقًا، حتى لم ير أحد شيئًا من تلك الأعضاء، ثم صاح وبكى، فلم يشعر الحاضرون إلا وقد نزل كل عضو على انفراده، وانضم إلى الآخر، حتى قام كل واحد منهما على عادته حيًّا سويًّا، ذكر هذا في رحلته، وهي رحلة بسيطة، وقد اختصرت، طالعتها بمكة عام ست وثلاثين ومائة وألف، وأملاها علينا العلامة مفتي الحنفية في المدينة السيد محمد بن أسعد رحمه الله.

وفي الأغاني لأبي الفرج بسنده: أن ساحراً كان عند الوليد بن عقبة، فجعل يدخل في جوف بقرة ويخرج، فرآه جندب ﷺ فذهب إلى بيته، فاشتمل على سيفه، فلما دخل الساحر في البقرة قال: ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣]؟ ثم ضرب وسط البقرة، فقطعها وقطع الساحر، فسجنه الوليد، وكتب بذلك إلى عثمان، وكان على السجن رجل نصراني، فلما رأى جندبًا يقوم الليل ويصبح صائمًا، قال

=

لنا، فقال: «استغفروا لصاحبكم» ثم قال: «إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان» أخرجه مسلم (رقم ٢٢٣٦).

(١) جاء في الأصل «والسحر» وجاء في الهامش: لعله: والساحر.

النصراني: والله إن قومًا هذا شرهم لقوم صدق، فوكل بالسجن رجلاً ودخل الكوفة، فسأل عن أفضل أهلها، فقالوا: الأشعث بن قيس، فاستضافه فرأى أبا محمد ـ يعني الأشعث ـ ينام الليل، ويصبح فيدعو بغدائه، فخرج من عنده وسأل: أي أهل الكوفة أفضل؟ فقالوا: جرير بن عبد الله، فوجده ينام بالليل، ثم يصبح ويدعو بغدائه، فاستقبل القبلة، فقال: ربي رب جندب، وديني دين جندب، وأسلم.

وأخرجها البيهقي في السنن الكبرى بمغايرة في القصة، فذكر بسنده إلى أبي الأسود: أن الوليد بن عقبة كان بالعراق، يلعب بين يديه ساحر، وكان يضرب رأس الرجل، ثم يصيح به، فيقوم خارجًا فيرتد إليه رأسه. فقال الناس: سبحان الله! يحيي الموتى، ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان من الغد اشتمل على سيفه، فذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه، فقال: إن كان صادقًا فليحيي نفسه، فأمر به الوليد دينارًا صاحب السجن فسجنه[1]. انتهى.

بل أعجب من هذا: ما أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناده في قصة طويلة وفيها، أن امرأة تعلمت السحر من الملكين ببابل هاروت وماروت، وأنها أخذت قمحًا، فقالت له ـ بعد أن ألقته في الأرض ـ: اطلع، فطلع، فقالت: احقل، فحقل، ثم فركته ثم قالت: ايبس فيبس، ثم قالت له: اطحن فاطحن، ثم قالت له: اختبز فاختبز، وكانت لا تريد شيئًا إلا كان. والأحوال الشيطانية لا تنحصر، وكفى بما يأتي به الدجال، المعيار اتباع الكتاب والسنة ومخالفتهما.

انتهى ما أوردناه والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، كلما ذكره الذاكرون وكلما غفل عن ذكره الغافلون.

❁❁❁

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٦ رقم ١٦٢٧٩)، وذكر القصة المزي في تهذيب الكمال (٥/ ١٤٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١١/ ٣١٣).

الرسالة الثامنة:

كشف الشبهات

من كتابات شيخ الإسلام المصلح

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله آمين

١١١٥ - ١٢٠٦

قام بتفصيله وكتابة الترجمة والمقدمة والتعليق

فضيلة الشيخ: علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

وذيل عليه

فضيلة الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

بمناسبة طبع هذه المؤسسة لكتاب «كشف الشبهات» نذكر نبذة خاطفة عن ترجمة شيخ الإسلام **محمد بن عبد الوهاب** اقتباساً مما كتبه حفيده الشيخ عبداللطيف ابن إبراهيم آل الشيخ في العدد الأول والثاني والثالث من مجلة «راية الإسلام» مع زيادة قليلة.

ولد الشيخ سنة ١١١٥ في بلدة «العيينة». ونشأ في بيت علم وفضل، فقد كان أبوه عالـماً فقيهاً، وكان متوليًّا للقضاء في بلدة «العيينة» في وقته. أما جده سليمان فمن العلماء المبرزين، وفي زمانه إليه مرجع الفتيا.

أخذ الشيخ مبادئ العلوم عن والده، وأتم حفظ القرآن لعشر سنوات.. وشغف بطلب العلم وحب الاطلاع مع ما وهبه الله من صفاء النفس وقوة الذكاء، والعبقرية التي هيأته للزعامة الدينية.

رحل إلى مكة وحج، ثم إلى المدينة وتلقى فيها عن بعض المشائخ، ثم عاد إلى العيينة. ثم رحل إلى مكة وأقام بها وتلقى فيها عن بعض المشائخ ثم إلى المدينة وأطال المكث فيها، ورأى ما أفزعه من الأعمال المنافية للشرع عند حجرة النبي ﷺ مما كان أكبر حافز له على الدعوة. ثم رحل إلى البصرة وحاول الدعوة فيها، فحيل بينه وبينها وأخرج منها وقطع على نفسه ما كان ينويه من مواصلة الرحلات إلى بغداد والشام، فرجع إلى الأحساء واتصل بشيخها آنذاك الشيخ (عبد الله بن عبد اللطيف) الأحسائي وأخذ عنه، ثم عاد إلى حريملاء؛ لأن والده انتقل إليها.

نشأ شيخ الإسلام والحالة الدينية والدنيوية في نجد قد تدهورت، وعم الجهل والفوضى بسبب الاستعمار التركي، والتعصب القبلي، وانتشر في الناس الشرك حتى عبدت الأوثان من دون الله وعمت البلوى، وعاد الناس إلى الجاهلية الأولى، فقيض الله لهذه البلاد هذا الزعيم المصلح، فتخطى بصارم عزمه كل العقبات، ودعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة أحياناً وبالقوة والجهاد أحياناً.. وكرس جهوده على

الدعوة إلى تحقيق توحيد الله في العبادة وتحكيم كتاب الله ونصرة دينه، فحقق الله له أهدافه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وكان أول بذرة في بلده العيينة، وكان أميرها آن ذاك «عثمان بن أحمد بن معمر» مناصراً لهذه الدعوة في بدء الأمر، ثم تخاذل عن الشيخ لأسباب سياسية، وأجبر الشيخ على الخروج من غير زاد ولا استعداد، وأضمر الشر للشيخ فأوعز إلى من يقتله في الطريق، و لكن الله حماه.

وصل الشيخ إلى الدرعية، فوجد من أميرها (محمد بن سعود) وممن أهلها قبولاً واستعداداً لنصرته، وتقبل ما دعا إليه، وصفا له الجو من المكدرات فألف رسائل وجلس للتدريس.. وصارت الدرعية معقلاً للدعوة الصافية، وكثر الوافدون لطلب العلم من جميع أنحاء نجد.. وسارت الدعوة بسبب تلاميذه إذ رجعوا إلى بلادهم مرشدين ووعاظاً. ورغم ما لقيت هذه الدعوة من العقبات في الداخل والخارج فقد شقت طريقها.

ومجمل العقبات هي أسباب سياسية من الترك والأشراف وممن كان منتفعًا بظل استعمارهم، وهنا أسباب عقائدية من المخرفين والحساد في الداخل والخارج.. كما قال الشاعر في مثل هذه الحالة:

حسدوا الفتىٰ إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدًا وبغيًا إنه لذميم(١)

دأب المغرضون لصد هذه الدعوة بكل قواهم فباءوا بالفشل، وماتوا بغيظهم، وذهب سلطانهم.

وبسبب مناصرة محمد بن سعود وأولاده وأحفاده لهذه الدعوة وتطبيق شرائع الدين مكّن الله لهم في الأرض، فهيمنوا على الجزيرة بما فيها الحجاز، وعملوا على

---

(١) انظر شعب الإيمان للبيهقي (٥/ ٢٧٥ رقم ٦٦٤٥) وذكر البيت الأول منهما الإمام العيني في عمدة القاري (٦/ ١٢) وصديق حسن خان في أبجد العلوم (٣/ ٢٠٧).

تطبيق المبادئ الإسلامية، فشاهد وفود الله سيرة الحكام والعلماء من هذه الدولة، فنقلوا مبادئهم إلى بلادهم، وتبناها بعض العلماء، واعتنقها خلق كثير.

ولا تزال هذه الدعوة تسير سيرًا حثيثًا رغم ضعف وسائلها وضعف همم حماتها في الدعاية والكتابة في عصرنا مما يؤسف له، ويخشى من سوء مغبته؛ لأن أهل الحق إذا سكتوا أفسحوا المجال لأهل الباطل.. فعسى الله أن يوقظ الهمم من هذه الرقدة.

وصار لها معتنقون في الهند والباكستان والسودان.. وغيرها من الأقطار. وكتب عنها المؤرخون والشعراء والأدباء والكتاب الشيء الكثير.. ومنهم الجبرتي، والشيخ محمد رشيد رضا وغيرهم، ومن أولئك الدكتور (طه حسين) في كتابه «ألوان» ما نصه:

بعد ذكر نبذة قصيرة عن نشأة الشيخ وتعلمه وتعليمه.. (قلت إن هذا المذهب جديد قديم معاً.. والواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين، ولكنه قديم في حقيقة الأمر؛ لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية.

هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصة لله وحده، ملغيًا لكل واسطة بين الله وبين الناس.. هو إحياء للإسلام وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب.

فقد أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة، فأراد محمد بن عبد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قومًا مسلمين حقًّا على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً.

ومن الغريب أن ظهور هذا المذهب الجديد في نجد قد أحاطت به ظروف تذكر بظهور الإسلام في الحجاز.. فقد دعا صاحبه إليه باللين أول الأمر فتبعه بعض الناس.. ثم أظهر دعوته فأصابه الاضطراب وتعرض للخطر.. ثم أخذ يعرض

نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر.. كما عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل.. ثم هاجر إلى الدرعية وبايعه أهلها على النصر كما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة.. إلخ ما ذكره.

أقام في الدرعية خمسين عامًا، كلها جهاد ونضال وتعليم وبيان، وقد مدّ الله في عمره حتى رأى انتصار الدعوة ووفرة جندها، بفضل الله ثم بفضل دعوته وجهاده. والله يختص برحمته من يشاء. وقد وافته المنية عام ألف ومائتين وست هـ عن اثنتين وتسعين سنة. ودفن في الدرعية. طيب الله ثراه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل.

علي الحمد الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، نحمده ونشكره، ولا نعبد إلا إياه، ولا نلجأ لأحد سواه، ونشهد أن لا إله إلا هو، المتفرد بالنفع والضر، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فهدى به من الضلال، وبصَّر به من العمى، فاهتدى بنور هداه من أراد الله له السعادة رحمة منه وفضلاً، وتنكب سنته من أراد الله لهم الشقاوة حكمة منه وعدلاً.. وربك يخلق ما شاء ويختار.

وبعد: فإن رسالة (كشف الشبهات) في العقيدة قد نفع الله بها النفع الكثير ولكن القارئ قد لا يجد مفاصل البحوث؛ لأن المصنف جعلها سلسلة متصلة بعضها ببعض. وذلك مما يشق على المبتدئين، فرأيت أن أقوم بكتابة مقدمة لها وترتيبها على فصول، وربما كتبت بعض التعليقات. راجيًا من المولى أن ينفع بالجميع.

علي الحمد المحمد الصالحي

مُقَدِّمَة

اعلم أن التوحيد ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الربوبية: وهو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت.. وهذا قد أقر به المشركون، ولم يجحده إلا الدهرية وشواذ من الخلق: كفرعون وأمثاله من الملاحدة والزنادقة.

الثاني: توحيد الأسماء والصفات: وهو الإيمان بما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ: إثباتًا بلا تمثيل، ونفيًا بلا تعطيل.. وهذا القسم قد ضل فيه كثيرون من المبتدعة أتباع جهم بن صفوان، وهم فرق سلكوا عدة مسالك، نتيجتها: التشبيه والتمثيل والتعطيل.

الثالث: توحيد العبادة: وهذا القسم هو الذي بحثته هذه الرسالة.. وهو الإيمان بأن يفرد الله بجميع الطاعات، وأن لا يُقصد أحد سواه في كشف الشدائد والملمات، وهذا القسم هو الذي أرسل الله جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم لتحقيقه وتثبيته في القلوب، وفيه احتدمت الخصومة بين الرسل وأقوامهم، ولأجله شُرع الجهاد باليد واللسان والسنان.. ولأجله خلق الله الإنس والجان.

استمر نبينا ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو إليه بصبر ومثابرة وعدم يأس، فكتب الله له القبول، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.. وكبت الله الشرك وأهله، وسارت العقيدة الصحيحة إلى أقصى المعمورة، وما ذلك إلا بهمة حملتها في الدعوة إليها، بأقوالهم وأفعالهم، ومن ورائهم الولاة المخلصون لدينهم..

وليس معنى هذا أن كل العالمين اعتنقوها، بل هناك أناس مختفون عن جيوش الحق العاملة لدينها، لم يزالوا في مخابئهم، حتى رأوا الفرصة، فتقمصوا اسم الإسلام والدعوة إليه، وهم منه براء، كما برئ الذئب من دم يوسف.

ولم يزالوا في دأب في السر والعلن، حتى أظهروا الشرك في قالب الحق بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، بل حجج الحق تدمغها وتزيفها.. ولكن الجهل في العامة

وقوة أهل الباطل في عاديتهم روجتها حتى استفحل الأمر وعظم الخطب.

وفتح أهل الباطل جبهات هي: الجهمية وفروعها، وغير ذلك، فشغل أهل الحق بهم في الدفاع والرد عليهم بما اقتدروا عليه وامتحنوا بسببهم، كما جرى على الإمام أحمد وأقرانه(١)، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأمثاله(٢).. ولم يزل المخلصون لدينهم يدافعون عن الدين ويدعون إليه، فلم يستكينوا ولم يهنوا لما ينالهم في سبيل الله والذب عنه، والحرص على هداية الخلق، فكتب الله لهم الأجر والنصر

ولكنك تعجب حين يبلغك أن مهد الدعوة المحمدية دب إليه وإلى البلاد المجاورة له الشرك الأكبر، والنداء والدعاء لغير الله نتيجة الغفلة والجهل، ونشاط أعداء الدين، حتى شيدت القباب على القبور أمام بيت الله الحرام. فدأب الدعاة إلى الله، ونشطوا في الدعوة، وقيّض الله الولاة إلى مساندتهم؛ فهدمت القباب وارتفعت دعوة العقيدة الصحيحة على يد الدعاة والولاة، وكتبوا في الدعوة كتابات لها شأنها في الرواج والنفع، ومن ذلك هذه الرسالة التي بين أيدينا، فقد كتب الله لها القبول، ودرسها الموافقون والمخالفون، وحصل بها الهداية لخلق كثير، وما ذلك إلا أنها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، ولم تشبها نحاتات الأفكار.

احتوت هذه الرسالة على رد شبهات روجها المبتدعة، فقيّض الله لها من علماء المسلمين من كشف زيفها ومحقها.. وعلى الرغم من صغرها فهي تغني عن أسفار، ولما لها من المكانة فقد تناولتها أيدي القراء بالتعليق والنظم، والترجمة. وطبعت طبعات كثيرة جدًّا مفردة ومجموعة مع غيرها، ولكن جميع الطبعات لا تخلو من سقط أو أغلاط سوى هذه الطبعة، فقد حرصنا فيها على تدارك أخطاء الطبعات

---

(١) انظر: كتاب الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل بتحقيقي، وهو من منشورات دار الثبات، وهو الآن يعاد طباعته مرة ثانية في دار القبس.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، واجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن قيم الجوزية.

السابقة، وبذلنا فيها مجهودًا كبيرًا في التحري للصواب من جميع الطبعات.

وشاركنا في دراستها وتصحيحها كل من الشيخين: «عبد الرزاق عفيفي، وإسماعيل الأنصاري» وعلاوة على هذا فقد قرأناها على سماحة المفتي للبلاد السعودية: (الشيخ محمد بن إبراهيم) حفيد شيخ الإسلام (محمد بن عبد الوهاب) فأرشدنا إلى كثير من الألفاظ التي اختلفت فيها النسخ، مما جعل هذه الطبعة تفوق سوابقها من جهة الصحة والدقة، وحسن الإخراج.

وسأنقل لك الرسالة بحروفها، أما الفصول فستكون بين طياتها مفصولة بخط وبحروف بارزة عن أصل هذه الرسالة.

وهذا أوان الشروع في المقصود، راجيًا من الله المعونة والسداد إنه كريم جواد.. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

علي الحمد المحمد الصالحي

الفصل الأول

بيان أن مهمة الرسل الأولى تحقيق توحيد العبادة

اعلم رحمك الله.. أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة.. وهو دين الرسل، الذي أرسلهم الله به إلى عباده.. فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر(١).

وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذي كسَّر صور هؤلاء الصالحين؛ أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله. يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله. ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكة وعيسى ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين(٢).

فبعث الله محمدًا ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله، لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، فضلًا عن غيرهما. وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له.

وأنه لا يرزق إلا هو. ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

---

(١) هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، لما ماتوا دس الشيطان إلى قومهم دسيسة الشر، وهي تصويرهم حتى يكونوا مثالاً في السير على سيرتهم، ثم تدرج بهم على مر السنين حتى عُبِدَتْ من دون الله، بعد نسيان العلم، وما ذلك إلا بالإعراض عن شرع الله وتحكيم هوى النفوس: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠] وكنت كتبت على هذه الآية في «نواة التفسير» ما نصه: وأيضًا ما ورد في الأثر عن فعل قوم نوح في الصور يوجب البعد عن الصور بكل أنواعها، لأنها ذريعة إلى الشرك، وخاصة فيما لا حاجة له من تصوير الكبراء وغيرهم الخ.

(٢) أوضح المصنف بهذا أن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية، أي انفراد الله بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ولا يشركون به أحدًا في هذا، وأما توحيد الإلهية الذي هو توحيد العبادة فيشركون فيه مع الله غيره جهلاً منهم وتقليداً لدعاة السوء، ولا أدل على جهلهم بحق الله من قولهم في التلبية (لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك) فإن في هذه التلبية تناقضًا، ففي أولها نفي الشركة، وفي آخرها أن هذا الشريك مملوك لله.. والعجب من هذا العمل لا ينقضي، لأنه لا يتفق أيضاً مع العقل، إذ إنهم لا يرضون أن مماليكهم يشاركونهم في التصرف، فكيف (ولله المثل الأعلى) يجعلون عباد الله المملوكين له يشاركونه في حقه.

الفصل الثاني

بيان الأدلة على أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بتوحيد الربوبية ولم يخرجهم ذلك من الشرك في العبادة

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا، فاقرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١]. وقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] وغير ذلك من الآيات.

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا، ولم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ. وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلًا ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له، أو يدعو رجلاً صالحاً، مثل اللات أو نبيًّا مثل عيسى.

وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨]، وقال: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ [الرعد:١٤]، وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والنذر كله لله، والذبح كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادات كلها لله.

وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام، وأن قصدهم

الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم.

عرفت[١] حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون.

الفصل الثالث

بيان أن توحيد العبادة هو معنى لا إله إلا الله، وأن الكفار في زمنه ﷺ كانوا أعرف بمعناها من بعض من يدعي الإسلام

وهذا[٢] التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور، سواء كان ملكًا أو نبيًّا أو وليًّا، أو شجرة، أو قبرًا، أو جنيًّا، لم يريدوا أن الإله: هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)، فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها.

والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو (إفراد الله تعالى) بالتعلق، (والكفر) بما يعبدون من دونه والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝﴾[٣] [ص:٥].

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله).

---

(١) جواب فإذا تحققت وما بعده.

(٢) أي المذكور في الفصل الثاني في قوله دعاهم إلى إخلاص العبادة إلخ.

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٣٩٠-٣٩١ رقم ٤١٥) والحاكم (٢/ ٤٦٩ رقم ٣٦١٧) وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٧٩-٨٠ رقم ٦٦٨٦) وصححه الحاكم.

الفصل الرابع

معرفة المؤمن أن نعمة الله عليه بالتوحيد توجب عليه الفرح به والخوف من سلبه

إذا عرفت ما ذكرت لك معرفة قلب، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أولهم إلى آخرهم الذي لا يقبل الله من أحد سواه. وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا أفادك(١) فائدتين:

الأولى: الفرح بفضل الله ورحمته.. كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾(٢) [يونس: ٥٨].

وأفادك أيضًا الخوف العظيم، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى.. كما كان يفعل الكفار. خصوصاً إن ألهمك الله ما قص عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم، أنهم أتوه قائلين: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فحينئذ يعظم خوفك وحرصك من هذا وأمثاله.

---

(١) جواب إذا عرفت.

(٢) يقول الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بك وبما أنزل إليك من عند ربك بفضل الله: أيها الناس الذي تفضل به عليكم وهو الإسلام، فبينه لكم ودعاكم إليه، وبرحمته التي رحمكم بها فأنزلها إليكم فعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصَّركم بها معالم دينكم وذلك القرآن، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون، يقول: فإن الإسلام الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم خير مما يجمعون من حطام الدنيا وأموالها وكنوزها. وبنحوه الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ثم ذكر قول أبي سعيد الخدري: (بفضل الله): القرآن (وبرحمته): أن جعلكم من أهله. وذكر قول هلال بن يساف: بالإسلام الذي هداكم، وبالقرآن الذي علمكم. وذكر قول قتادة: أما فضله فالإسلام، وأما رحمته فالقرآن. وذكر قول الحسن: فضله الإسلام ورحمته القرآن. وذكر مثله عن ابن عباس. وقال آخرون: بل الفضل القرآن، والرحمة الإسلام.

الفصل الخامس
إن حكمة الله اقتضت أن يجعل لأنبيائه وأوليائه أعداء من الإنس والجن...

واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبيًّا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداءً، كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، وكتب وحجج، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾(١) [غافر: ٨٣].

الفصل السادس
إن الواجب على الموحد أن يتسلح بالكتاب والسنة لدحض شبهات الأعداء

إذا عرفت ذلك وعرفت أن الطريق إلى الله لابد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة وعلم وحجج.

فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين، الذين قال إمامهم ومقدمهم(٢) لربك عز وجل: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]. ولكن إذا أقبلت على الله وأصغيت إلى

---

(١) غرورًا؛ لأن العلم بغير إيمان فتنة تعمي وتطغي. وفرحهم هذا جرهم إلى الاستهزاء بمن يذكرهم بما خلقوا له من العبادة والسعادة.. قال الشيخ عبد الله البسام في تعليقه على هذا الكتاب ما نصه:

وما أشبه الليلة بالبارحة: فإن ما نراه من بعض شبابنا من افتخار بما تعلموه من لغات أجنبية وبعض علوم طبيعية ورياضية، لا تعدو أن تكون وسيلة لكسب معيشة. ومع هذا يتعالون بها على العلوم الشرعية التي جاءت لسعادة الإنسانية في دينها ودنياها.. إن ذلك يجعلنا نقرن حالهم بحال أولئك المجادلين للرسل، هدانا الله جميعاً لما فيه صلاح ديننا ودنيانا. اهـ.

(٢) أي إبليس ـ لعنه الله ـ أعاذنا الله والمسلمين من شره.

حجج الله وبيناته فلا تخف ولا تحزن: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]. فجند الله هم الغالبون، بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح.

وقد منَّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]. قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

الفصل السابع

«الرد على أهل الباطل إجمالاً وتفصيلاً»

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا.. فنقول: جواب أهل الباطل من طريقين.. مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو الأمر العظيم، والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧].

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم»(١) مثال ذلك إذا قال بعض المشركين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس:٦٢].

وإن الشفاعة حق، أو إن الأنبياء لهم جاه عند الله.

أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٤٧) ومسلم (رقم ٢٦٦٥).

الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك:

إن الله ذكر في كتابه: أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية، وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، هذا أمر محكم بين لا يقدر أحد أن يغير معناه.

وما ذكرت لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله.

وهذا جواب جيد سديد[١] ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهن به، فإنه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

وأما الجواب المفصل: فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل يصدون بها الناس عنه منها قولهم:

نحن لا نشرك بالله، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا فضلًا عن عبد القادر أو غيره، ولكن أنا مذنب، والصالحون لهم جاه عند الله وأطلب من الله بهم.

فجاوبه بما تقدم: وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكرت، ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة، واقرأ عليه ما ذكره الله في كتابه ووضحه.

فإن قال: هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام! كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام، أم كيف تجعلون الأنبياء أصناماً فجاوبه بما تقدم[٢].

فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله، وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة، ولكن إذا أراد أن يفرق بين فعله وفعلهم بما ذكر.

---

(١) أي من العامي الموحد الذي ابتلي بالبحث مع أهل هذه الشبهات، أما العالم فيجيب بالجواب المفصل الآتي.
(٢) في الفصل الثاني.

فاذكر له أن الكفار منهم من يدعو الأصنام. ومنهم من يدعو الأولياء، الذين قال الله فيهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقد قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المائدة:٧٥-٧٦].

واذكر له قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة:١١٦].

فقل له[1]: أعرفت أن الله كفّر من قصد الأصنام، وكفَّر أيضًا من قصد الصالحين، وقاتلهم رسول الله ﷺ.

فإن قال: الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار، المدبر، لا أريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم.

فالجواب: أن هذا قول الكفار سواءً بسواء، واقرأ عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨].واعلم أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم.

فإذا عرفت أن الله وضحها في كتابه وفهمتها فهمًا جيدًا فما بعدها أيسر منها.

---

(١) جواب لشرط محذوف تقديره إذا تلوت عليه هذه الآيات.

الفصل الثامن
«الرد على من زعم أن الدعاء ليس بعبادة»

فإن قال: أنا لا أعبد إلا الله، وهذا الالتجاء إلى الصالحين ودعاءهم ليس بعبادة، فقل له: أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك..

فإذا قال: نعم، فقل له: بين لي هذا الذي فرض عليك، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهو حقه عليك، فإن كان لا يعرف العبادة، ولا أنواعها فبينها له بقولك: قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[1] [الأعراف:٥٥].

فإذا أعلمته بهذا، فقل له: هل علمت هذا عبادة لله فلابد أن يقول: نعم، والدعاء مخ العبادة[2]، فقل له: إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلاً ونهاراً خوفاً وطمعاً ثم دعوت في تلك الحاجة نبيًّا أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلابد أن يقول: نعم.

فقل له: فإذا عملت بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]، وأطعت الله ونحرت له هل هذا عبادة؟ فلابد أن يقول: نعم.

فقل له: فإن نحرت لمخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلابد أن يقر ويقول: نعم.

---

(١) إن لم يكن سقط من النسخ شيء، فهذا تعريف للعبادة بأهم أفرادها ولأن الخصومة فيه. ومثل الشيخ أيضًا بالصلاة والذبح لزيادة الإيضاح، ويظهر لي من قول الشيخ: «فإن كان لا يعرف العبادة ولا أنواعها» أنه سقط شيء لأن الشيخ تعرض للأنواع ولم يتعرض للمعنى العام، يوضح هذا أنه هو وغيره يعرفون العبادة بمعناها العام بعدة تعريفات، منها قولهم: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

(٢) يروى هذا عن رسول الله ﷺ ولكنه ضعيف بهذا اللفظ، فقد أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧١) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٣ رقم ٣١٩٦) وفي الدعاء (رقم ٨)، والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٢٢٤ رقم ٣٠٨٧) وضعفه الترمذي بقوله: هذا حديث غريب، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٣٠٠٣). ولكن الوارد الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدعاء هو العبادة» أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٢ رقم ٨٩٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠ رقم ١١٤٦٤) وأبو داود (رقم ١٤٧٩) وصححه الحاكم (١/ ٦٦٧رقم١٨٠٢) وقال الترمذي (رقم ٢٩٦٩): حسن صحيح.

وقل له أيضًا: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك، فلابد أن يقول: نعم.

فقل له: وهل كان عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح، والالتجاء ونحو ذلك، وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دعوهم والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة، وهذا ظاهر جدًّا.

الفصل التاسع

الفرق بين الشفاعة الشرعية والشركية

فإن قال: أتنكر شفاعة النبي ﷺ وتتبرأ منها؟

فقل: لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل هو ﷺ الشافع المشفع، وأرجو شفاعته.

ولكن الشفاعة كلها لله، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٤].

ولا تكون إلا من بعد إذن الله، كما قال عز وجل: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥]. ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]. وهو لا يرضى إلا التوحيد، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥].

فإذا كانت الشفاعة كلها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد. تبين لك أن الشفاعة كلها لله، فأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه فيَّ. وأمثال هذا.

فإن قال: النبي ﷺ أعطي الشفاعة، وأنا أطلبه مما أعطاه الله.

فالجواب: أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا، فقال: ﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨]، فإذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه فيك فأطعه في قوله: ﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾. وأيضًا: فإن الشفاعة أعطيها غير النبي ﷺ، فصح أن الملائكة يشفعون والأولياء يشفعون والأفراط[1] يشفعون.

---

(١) الأفراط: الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل التكليف.

أتقول: إن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم، فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكر الله في كتابه، وإن قلت: لا، بطل قولك أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله[(١)].

الفصل العاشر
إثبات أن الالتجاء إلى الصالحين شرك وإلجاء من أنكر ذلك إلى الاعتراف به

فإن قال: أنا لا أشرك بالله شيئاً حاشا وكلا.. ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك.

فقل له: إذا كنت تقرأ أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا، وتقر أن الله لا يغفره، فما هذا الأمر الذي حرمه الله؟ وذكر أنه لا يغفره؟ فإنه لا يدري.

فقل له: كيف تبرئ نفسك من الشرك، وأنت لا تعرفه؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا، ويذكر أنه لا يغفره، ولا تسأل عنه، ولا تعرفه، أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟

فإن قال: الشرك عبادة الأصنام. ونحن لا نعبد الأصنام.

فقل له: ما معنى عبادة الأصنام؟ أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها؟ فهذا يكذبه القرآن.

وإن قال: هو من قصد خشبة أو حجرًا أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له، ويقولون: إنه يقربنا إلى الله زلفى، ويدفع الله عنا ببركته، أو يعطينا ببركته.

فقل: صدقت وهذا هو فعلكم عند الأحجار، والأبنية التي على القبور وغيرها، فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام، فهو المطلوب.

ويقال له أيضًا: قولك الشرك: عبادة الأصنام، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا، وأن الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لا يدخل في ذلك؟ فهذا يرده ما ذكره الله

---

(١) انظر: كتاب مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام، لعبد اللطيف بن عبد الرحمن ابن حسن آل الشيخ رحمهم الله (ص ١٩٥-٢٣١).

في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة وعيسى والصالحين فلابد أن يقر أن من أشرك في عبادة الله أحدًا من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن وهذا هو المطلوب.

وسر المسألة: أنه إذا قال: أنا لا أشرك بالله.

فقل له: وما الشرك بالله؟ فسره لي؟ فإن قال: هو عبادة الأصنام.

فقل: وما معنى عبادة الأصنام فسرها لي؟ فإن قال: أنا لا أعبد إلا الله وحده.

فقل: ما معنى عبادة الله وحده فسرها لي؟ فإن فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب، وإن لم يعرفه فكيف يدعي شيئاً وهو لا يعرفه، وإن فسر ذلك بغير معناه، بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان، وأنه الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون علينا، ويصيحون فيه كما صاح إخوانهم، حيث قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ ﴾ [ص:٥].

فإن[1] قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما يكفرون لما قالوا: الملائكة بنات الله، فإنا لم نقل عبد القادر ابن الله ولا غيره.

فالجواب: أن نسبة الولد إلى الله كفر مستقل، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ ﴾ [الإخلاص:١-٢] والأحد الذي لا نظير له.

والصمد المقصود في الحوائج، فمن جحد هذا فقد كفر، ولو لم يجحد السورة، وقال الله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] ففرق بين النوعين، وجعل كلا منهما كفرًا مستقلاً، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٠] ففرق بين كفرين.

والدليل على هذا أيضًا: أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجلًا صالحًا لم

---

(١) من هنا بدء السقط حتى نهاية الفصل العاشر. وقد سقط من جميع الطبعات، سوى هذه الطبعة وطبعة المطبعة السلفية لمحب الدين الخطيب ضمن مجموعة التوحيد التي طبعها صاحب السمو الأمير (مشعل بن عبد العزيز) ووزعها وقفًا لوجه الله كثّر الله من أمثاله.

يجعلوه ابن الله، والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك.

وكذلك أيضًا العلماء في جميع المذاهب الأربعة، يذكرون في (باب حكم المرتد)[١] أن المسلم إذا زعم أن لله ولدًا فهو مرتد، ويفرقون بين النوعين، وهذا في غاية الوضوح.

وإن قال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢] فقل: هذا هو الحق، ولكن لا يعبدون.

ونحن لم نذكر[٢] إلا عبادتهم مع الله وشركهم معه، وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكرامتهم.

ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال.

ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين[٣].

الفصل الحادي عشر

إثبات أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا (بأمرين)

فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد) هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه.

فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين:

أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء.

---

(١) قال ابن حزم رحمه الله في المحلى (١١/ ٤١٣): فصح بما ذكرنا: أن كل من سب الله تعالى أو استهزأ به أو سب ملكًا من الملائكة أو استهزأ به، أو سب نبيًا من الأنبياء أو استهزأ به، أو سب آية من آيات الله تعالى أو استهزأ بها، والشرائع كلها والقرآن من آيات الله تعالى فهو بذلك كافر مرتد، له حكم المرتد.

(٢) كذا في الطبعة السلفية، ولعله لم ننكر.

(٣) وذلك أن دين الإسلام يثبت كرامات الأولياء وينكر عبادتهم، فكان وسطًا بين من غلا فيهم فعبدهم، وبين من جفا وأنكر كراماتهم، فكان بذلك وسطًا بين الغلو والجفوة، وهدى بين ضلالتين وحقًا بين باطلين. وانظر: فيض القدير (٤/ ٣٨٥-٣٨٦).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٧]، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام:٤٠-٤١]، وقوله: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ...﴾ إلى قوله: ﴿...قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر:٨]، وقوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢].

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضراء والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له، وينسون ساداتهم، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً، والله المستعان.

الأمر الثاني: أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما أنبياء، وإما أولياء، وإما ملائكة، أو يدعون أشجاراً أو أحجاراً مطيعة لله ليست عاصية.

وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس.

والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك. والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به.

الفصل الثاني عشر

كشف شبهة من زعم أن من أدى بعض واجبات الدين لا يكون كافرا ولو أتى بما ينافي التوحيد وأدلة ذلك بالتفصيل

إذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أصح عقولاً، وأخف شركًا من هؤلاء:

فاعلم أن لهؤلاء (شبهة) يوردونها على ما ذكرنا، وهي من أعظم شبههم فأصغ سمعك لجوابها.

وهي أنهم يقولون: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول، وينكرون البعث، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحرًا.

ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ونصدق القرآن ونؤمن بالبعث، ونصلي، ونصوم.. فكيف تجعلوننا مثل أولئك.

فالجواب: أنه لا خلاف بين العلماء كلهم: أن الرجل إذا صدق رسول الله ﷺ في شيء وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد والصلاة، وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم أو أقر بهذا كله وجحد الحج. ولما لم ينقد أناس في زمن النبي ﷺ للحج، أنزل الله في حقهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧].

ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالإجماع، وحل دمه وماله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾[النساء:١٥٠-١٥١].

فإذا كان الله قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقًّا، وأنه يستحق ما ذكر، زالت الشبهة، وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الإحساء في كتابه الذي أرسله إلينا.

ويقال إذا كنت تقر أن من صدق الرسول في كل شيء، وجحد وجوب الصلاة أنه كافر حلال الدم والمال بالإجماع.

وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث، وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان وصدق بذلك كله لا تختلف المذاهب فيه، وقد نطق به القرآن كما قدمنا.

فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج، فكيف إذا جحد الإنسان شيئًا من هذه الأمور كفر، ولو

عمل بكل ما جاء به الرسول، وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر؟! سبحان الله ما أعجب هذا الجهل!!

ويقال أيضًا: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة[١]، وقد أسلموا مع النبي ﷺ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويؤذنون ويصلون.

فإن قال: إنهم يقولون: إن مسيلمة نبي، فقل: هذا هو المطلوب، إذا كان من رفع رجلًا إلى رتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة، فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف، أو صحابيًا أو نبيًا إلى مرتبة جبار السماوات والأرض، سبحان الله ما أعظم شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾ [الروم: ٥٩].

ويقال أيضًا: الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار[٢] كلهم يدعون الإسلام وهم من أصحاب علي، وتعلموا العلم من الصحابة، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف، وشمسان وأمثالهما، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم، أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين؟ أم تظنون أن الاعتقاد في تاجٍ وأمثاله لا يضر؟ والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفر.

ويقال أيضًا: بنو عبيد القداح[٣] الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦) وفتح الباري (٤/ ٤٧٠) وعمدة القاري (٨/ ٢٤٤) (١٤/ ١٣٩).

(٢) فعن عكرمة أن عليًا رضي الله عنه حرّق قومًا، فبلغ ابن عباس، فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم، لأن النبي ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله». ولقتلتهم، كما قال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» أخرجه البخاري (رقم ٣٠١٧). وانظر: فتح الباري (٦/ ١٥١).

(٣) بنو عبيد ادعوا الخلافة، وخطب لهم بمصر والشام والحجاز، ولبعضهم بالعراق أيضًا وأزيل الخلافة ببغداد قدر سنة، وكانت مدة بني عبيد بمصر سوى ما تقدم لهم بالمغرب تزيد على مائتي سنة. وكانوا يقولون: إنهم من ذرية الحسين بن علي، وكان والد عبيد من نسل القداح المجوسي الملحد، وكان زنديقًا خبيثًا، ونشأت ذريته على ذلك، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها. ولم يكن بمصر منذ تملك بنو عبيد أحد يكنى بأبي بكر، وكانت الدنيا تغلي بهم رفضًا وجهلاً. انظر: فتح الباري (١٣/ ١١٨) وسير أعلام النبلاء (١٥/ ١١٦-١١٧) (١٥/ ٢١٣) (١٧/ ٤٥٣).

العباس كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ويدعون الإسلام، ويصلون الجمعة والجماعة، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين.

ويقال أيضًا: إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن وإنكار البعث وغير ذلك، فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب؟ «باب حكم المرتد» وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه.

ثم ذكروا أنواعاً كثيرة؛ كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله، حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه، أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب.

ويقال أيضًا، الذين قال الله فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤]، أما سمعت الله كفَّرهم بكلمة مع كونهم في زمن رسول الله ﷺ يجاهدون معه ويصلون ويزكون ويحجون ويوحدون[١].

وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[٢] [التوبة:٦٥-٦٦].

فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزاح[٣]، فتأمل هذه الشبهة، وهي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٨٤-١٨٦) وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٣) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢).

(٢) قال الشيخ عبد الله البسام في تعليقه هنا ما نصه: وبهذه المناسبة يجدر بي أن أحذر بعض مغروري ناشئة المدارس من الاستهزاء بعلماء الدين وكتبه وعلومه، وألا يلتفتوا إلى ما يسمعون من بعض السفهاء، فإنه - مع الأسف - يوجد في بعض الشباب المتزندقين من يجاهر بالسخرية بشعائر الإسلام.. ولاشك أن هذا أكبر من سخرية الذين كفَّرهم الله، ولم يقبل عذرهم بقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ حينما قالوا كلمة بسيطة في ظاهر الأمر في بعض الصالحين على وجه المزاح، فالناصح يحاسب نفسه ويصون لسانه، والله الموفق اهـ.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٧٢-١٧٣).

قولهم: تكفرون المسلمين أناسًا يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون، ثم تأمل جوابها، فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق.

ومن الدليل على ذلك أيضًا ما حكى الله عن بني إسرائيل مع إسلامهم وعلمهم وصلاحهم، أنهم قالوا لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف:١٣٨]. وقول أناس من الصحابة: (اجعل لنا ذات أنواط)، فحلف ﷺ أن هذا نظير قول بني إسرائيل: اجعل لنا إلهًا[(١)].

الفصل الثالث عشر

حكم من وقع من المسلمين في نوع من الشرك جهلًا «ثم تاب منه»

ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة:

وهي أنهم يقولون: إن بني إسرائيل لم يكفروا، وكذلك الذين قالوا: اجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا.

فالجواب: أن نقول: إن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا ذلك، ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا.

وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب.

ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم، بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز، ومعرفة أن قول الجاهل (التوحيد فهمناه) أن هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان.

وتفيد أيضًا أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر وهو لا يدري، فنُبِّه على

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٩٤ رقم ٦٧٠٢) والترمذي (رقم ٢١٨٠) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٤ رقم ٣٢٩١) (١٧/ ٢١ رقم ٢٧) وأبو يعلى في المسند (٣/ ٣٠ رقم ١٤٤١) وقال الترمذي: حسن صحيح.

ذلك فتاب من ساعته أنه لا يكفر، كما فعل بنو إسرائيل، والذين سألوا النبي ﷺ.

وتفيد أيضًا أنه لو لم يكفر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظًا شديدًا، كما فعل رسول الله ﷺ.

الفصل الرابع عشر

الرد على من زعم الاكتفاء في التوحيد بقول لا إله إلا الله ولو أتى ما ينقضها

وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: لا إله إلا الله، وقال له: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله»؟(١) وكذلك قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»(٢) وأحاديث أخر في الكف عمن قالها.

ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر، ولا يقتل ولو فعل ما فعل.

فيقال لهؤلاء المشركين الجهال: معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله. وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويصلون ويدعون الإسلام، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار.

وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل، ولو قال: لا إله إلا الله(٣)، وأن من جحد شيئًا من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعًا من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه، ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٩) ومسلم (رقم ٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٢، ٢٩٤٦) ومسلم (رقم ٢١).

(٣) قال ابن عبد البر رحمه الله: وقد أجمع المسلمون على أن من أنكر البعث فلا إيمان له ولا شهادة، التمهيد (٩/ ١١٦).

(٤) لأنهم استكبروا عن الحق والرشاد، قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦]، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥].

فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفًا على دمه وماله.

والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤]، أي فتثبتوا، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت. فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وكذلك الحديث الآخر وأمثاله، معناه ما ذكرناه أن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه، إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك.

والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ الذي قال: **«أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله»** وقال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»** هو الذي قال في الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»(١) مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحًا، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم، وتعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم (لا إله إلا الله) ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام، لما ظهر منهم مخالفة الشريعة وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود، وقتال الصحابة بني حنيفة.

وكذلك أراد النبي ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة، حتى أنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦] وكان الرجل كاذبًا عليهم(٢).

وكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٤) ومسلم (رقم ١٠٦٤).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٢٣-١٢٤) والبيهقي في سننه الكبرى (٩/ ٥٤ رقم ١٧٧٥٤) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٤/ ٣١٠) والطبراني في الأوسط (٤/ ١٣٣-١٣٤ رقم ٣٧٩٧) وفي الكبير (٣/ ٢٧٤ رقم ٣٣٩٥) (١٨/ ٦ رقم ٤) (٢٣/ ٤٠١ رقم ٩٦٠) وأحمد (٤/ ٢٧٩) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٠٩) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات.

الفصل الخامس عشر

الفرق بين الاستغاثة بالحي الحاضر فيما يقدر عليه والاستغاثة بغيره

ولهم شبهة أخرى وهو ما ذكر النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى، فكلهم يعتذرون حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ[١]. قالوا: فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركًا.

والجواب أن نقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٥]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق.. ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبت ذلك: فاستغاثتهم الأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة، وذلك أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك، فتقول: ادع الله لي، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه ذلك في حياتهم[٢].

وأما بعد موته، فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السلف الصالح على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعائه نفسه.

ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم لما ألقي في النار اعترض له جبريل في الهواء، فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٦) ومسلم (رقم ١٩٣).

(٢) فقد ثبت عن عكاشة بن محصن الأسدي ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله لي يا رسول الله، أن يجعلني منهم، فقال: «اللهم اجعله منهم» وذلك حينما ذكر أوصاف أهل الجنة الذين تضيء وجوههم إضاءة القمر وهم السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا عذاب ولا حساب. أخرجه البخاري (رقم ٥٨١١) ومسلم (رقم ٢١٦).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/ ٤٥) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٦٤١) وتفسير ابن كثير =

قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم.

فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه، فإنه كما قال الله فيه: ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٥]، فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره أن يضع إبراهيم عنهم في مكان بعيد لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل.

وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلًا محتاجًا فيعرض عليه أن يقرضه أو أن يهبه شيئًا يقضي به حاجته، فيأبى ذلك المحتاج أن يأخذ ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد. فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون؟

الفصل السادس عشر

وجوب تطبيق التوحيد بالقلب واللسان والجوارح إلا لعذر شرعي

ولنختم الكلام إن شاء الله تعالى بمسألة عظيمة مهمة تفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها.

فنقول: لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا.

فإن عرف التوحيد ولم يعمل به، فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما.

وهذا يغلط فيه كثير من الناس، يقولون هذا حق، ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق، ولكنا لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، أو غير ذلك من الأعذار، كما قال تعالى: ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [التوبة:٩] وغير ذلك من الآيات كقوله: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦].

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهرًا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

=

(٣/ ١٨٥) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٤٠) وفيض القدير (١/ ١٠٩) (٢/ ٢٩٢) (٤/ ٧٨).

وهذه المسألة مسألة طويلة تتبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس.

ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة لأحد. وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطناً، فإذا سألته عما يعتقده بقلبه فإذا هو لا يعرفه.

ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولهما قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦]. فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب، تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص مال أو جاه، أو مداراة لأحد أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ الآية [النحل: ١٠٦، ١٠٧]. فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان.

وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفًا أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره، فالآية تدل على هذا من جهتين.

الأولى: قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ فلم يستثن الله تعالى إلا المكره. ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على الكلام أو الفعل، وأما عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فآثره على الدين، والله سبحانه وتعالى أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

«تم كتاب كشف الشبهات مفصلًا ولله الحمد والمنة» بتاريخ/ ١٥/ ٤/ ١٣٨٣هـ.

علي الحمد المحمد الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

تذييـــــل

بقلم فضيلة الشيخ: عبد الرحمن المحمد الدوسري

ـ رحمه الله ـ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد: فإن شيخنا المغفور له (محمد بن عبد الوهاب) قد نوَّر البصائر في (كشف الشبهات) وأزال كل إشكال يورده المبطلون والمخرفون.

وبما أن الشيخ عالج في رسالته هذه شرك التخريف بصوره المتمثلة في دعاء الأموات والغائبين، وتقديس القبور. فقد حدثت ضروب من الشرك في هذا الزمان، وبرزت بأسماء وألقاب ينخدع بها الجهلة، ويتعلق بها المغرضون والحاقدون.

ذلك أن أعداء الإسلام الموتورون به لما هالهم ما رأوا من عظمته وقوة إيمان أهله وزحفهم السريع الذي اكتسحوا به أغلب المعمورة في وقت قصير، صمموا على الكيد لأهله بشتى طرق الهدم والتخريب، والذي تولى كبره منهم هم اليهود والفرس. ثم تتابعوا (والكفر ملة واحدة)[1]، فبثوا بذور التفرقة بما انتحلوه من مذاهب هدامة يبرزوها بأسماء وألوان شتى ليدخلوا في الدين ما ليس منه، ويخرجوا منه ما لابد منه، حتى كثرت المذاهب، والطرق والمبتدعات التي فتت في عضد المسلمين، ومزقت وحدتهم، وأوقفت زحفهم، وعطلت طاقاتهم، وأقعدتهم عن حمل الرسالة والجهاد.

ثم لما تخوفوا أخيرًا من البعث الإسلامي الصحيح الذي ندب إليه (الشيخ) وقام به مع أعوانه البررة في كل مكان، أعادوا نعرتهم الأولى التي طمستها الأنوار

---

(١) هذه العبارة مأثورة عن الشافعي رحمه الله في الأم (٧/ ١٢٧) وعن الثوري رحمه الله كما في مصنف عبد الرزاق (٦/ ١٣٠ رقم ١٠٢٣٤)، وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٧٢) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١٩٦) وفيض القدير (٦/ ٩٥) وسبل السلام (٣/ ٢٦٥) ونيل الأوطار (٨/ ٥).

المحمدية حين حاولوا إشعالها بين الأنصار.

فوجدوا في هذا الوقت لها مرتعًا خصيبًا، وكسبوا أنصارًا لهم على الباطل من أبنائنا (من جلدتنا وينطقون بلغتنا)، فألهبوا حماس الجهلة بنعرات العصبيات القومية في كل أمة إسلامية، وعلى الأخص العرب، ليصرفوهم عن واجبهم ويقطعوا صلتهم بنبيهم وكتابهم، ويحولوا ما بقي لهم من طاقات الخير والهداية، إلى الوثنية وعبادة المادة والشهوات وتقديس الأشخاص، والرغبة إليهم بحجة الجنسية والوطنية، وعكسوا لذلك كل مفهوم، واستعملوا جميع وسائل الإغراء لحمل المسلمين على التمرد عن وحي الله، حتى تكونت في المحيط الإسلامي والعربي خاصة ردة جديدة، وجاهلية جديدة، أفظع من كل جاهلية سبقتها، بما انتحلوه من مبادئ وطنية ومذاهب مادية مزخرفة بألقاب ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب مما لا يُكْشَفُ إلا بالرجوع إلى أصل التوحيد الذي تكلم عليه الشيخ.

وأرى لزامًا عليّ في هذه العجالة أن أقرب معاني ذلك إلى القراء الكرام.. فأقول: اعلم أن توحيد الإلهية الذي تقتضيه كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) المركبة من النفي والإثبات، يستلزم أصلين لا تقوم إلا بهما.

(أحدهما): الكفر بكل معبود أو مألوه بالحب والتعظيم له، أو لخضوعٍ لأمره، وقبول حكمه، سوى الله تعالى كائنًا من كان بأي حجة ادعى، ولأي مصلحة تزعم وتصدى فمن ركن إلى أي أحد من أولئك فقد ناقض هذه الكلمة العظيمة، وكان خائنًا لما عاهد الله عليه من مدلولها.

(ثانيهما): إفراد الله بجميع أنواع العبادة والاستسلام لحكمه في كل شيء[1].

وحقيقة العبادة: إخلاص الحب لله مع خضوع القلب، وانقياد الجوارح بدافع

(١) يراجع في ذلك كتاب التوحيد للحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله وهو من منشورات دار القاسم، وشرحه لفضيلة الشيخ العلامة عبدالرحمن البراك حفظه الله، وهو أيضًا من منشورات دار القاسم، وهو بعنوانه: الفريد في شرح كتاب التوحيد.

الحب والتعظيم. وحقيقة الحب: هي عين موافقة الله، ومحبة ما يحبه؛ والمسارعة فيما يرضيه، وبغض ما يكرهه واجتنابه، ومحبة أوليائه وأهل طاعته وموالاتهم ومساندتهم حيثما كانوا ومن أي جنس كانوا؛ وبغض أعدائه وأهل معصيته؛ والمخالفين لحكمه النابذين لكتابه ومعاداتهم ولو كانوا أقرب قريب؛ وأن لا يؤثر محبة أي شيء على حب الله وما يحبه الله أبدًا، ولا تحصل موافقته على ما يحبه ويرضاه إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه وحفظ حدوده في ذلك؛ ولا يحصل هذا إلا باتباع شريعة رسوله ﷺ.

فالمحب لله الصادق معه المخلص له: هو الذي يكون اتجاهه اتجاهًا واحداً للواحد الأحد في طريق واحد بجميع أموره وظروفه وما عداه ليس محبًّا لله ولرسوله، مهما ادعى، إذ من أمحل المحال عقلًا وشرعًا؛ حصول المحبة أو قبول دعواها ممن يخالف ما يحبه محبوبه، ويسارع إلى ما يكرهه ويسخطه، أو يحب أعداءه ويواليهم ويساندهم، ويبغض أهل طاعته ويعاديهم وينابذهم ويقف في صف أعدائهم(١).

هذا شيء يقرره العرف والعقل فضلًا عن الشرع الذي هو حقيقة ملة إبراهيم.

ومن هنا تعرف مدى ما انغمس به غالب المحسوبين على الإسلام من الوثنية الجديدة، بل من أقبح أنواع الشرك بما استجلبوه من مبادئ الغرب ومذاهبه المادية التي بدلوا بها قولًا غير الذي قيل لهم، فجعلوا حدود الوطن فوق حدود الله، وآثروا محبوباتهم وجميع نزعاتهم على حب الله وطاعته، وجعلوا لأنفسهم الخيرة فيما يشرعون وينظمون خلافًا لما قضى الله ورسوله، واتبعوا ما يمليه رجال تألهوهم بالحب والتعظيم، وجعلوهم أندادًا من دون الله، زاعمين أن القومية والوطنية وما يستلزمها من المذاهب المادية تتمثل في تلك الأشخاص الذين يعملون لخيرهم، ويسطرون فلسفة مبادئهم ومذاهبهم فيما يزعمون، وزيادة شركهم وقبح وثنيتهم على الأوائل ظاهر مكشوف، لأنهم لم يسووا محبوبهم برب العالمين، فيكونوا كغيرهم

(١) يراجع في ذلك كتاب الولاء والبراء في الإسلام، لفضيلة الدكتور محمد بن سعيد القحطاني حفظه الله.

من المشركين الذين ﴿ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٠]، بل زادوا لهم حبًّا وانقيادًا في كل شيء، وكان أحدهم لا يبالي إذا انتهكت محارم الله وانتقص دينه ورسوله، ولا يطمئن قلبه لذكر الله وما نزل من الحق، بل ينفر ويشمئز.

أما إذا فعل ما يخل بمبادئهم وفلسفة مذاهبهم أو ذكر محبوبهم بسوء فمن ذلك يغضبوا وينتصروا لهم ما لا يغضبوا لله وينتصروا لدينه، وتجدهم قد زادوا وتمادوا في غيهم على كل ما فعله الكفرة الفجرة في غابر القرون بحيث انعدم في بعضهم توحيد الربوبية فضلًا عن توحيد الألوهية، وأصبحوا أقبح حالاً من المنافقين الذين يأمرون بالمنكر، لأنهم يشجعون عليه، فينال صاحبه منهم الجوائز والألقاب الرفيعة والوظائف العالية ويكفيك أنهم منحوا لقب القداسة للنصراني الملحد الذي قال أشنع مقالة وأقبحها، جعل فيها المبدأ والوطن ندًّا من دون الله بكل صراحة ووقاحة، إذ قال:

بــلادك قدمهــا عــلى كل ملـــة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم

(الخ) مما هو استدراك على الله ورسوله بزعمهم حصول الوحدة وطلبها في غير دين الله، وهذا مشاقة لله ومحادة له وتبديل لكلماته واستهانة بعزته وملكوته، إذ يقول: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقد أجلبوا على أبناء المسلمين بسائر أنواع التضليل والافتراء على الله، وتحبيب موالاة أعدائه بحجة الجنس والوطن، وتعطيل شريعته بحجة التطوير الفاسد، وعبادة كل طاغوت في سبيل ذلك كقولهم (الدين لله والوطن للجميع).

فهل انقادوا لله وحكموا الوطن على أسس دينه الصحيح وشريعته أو أطرحوا الدين الذي يلوكونه في هذه الكلمة وخططوا مناهجهم الوطنية على أساس المادة والكفر بالله. وما أكثر ما يموهون به على الرعاع والأوغاد بقولهم: (الدين علاقة بين العبد وربه فقط لا شأن له في الحياة) فما الفائدة من إرسال الله الرسل وإنزاله الكتب وشرعية الجهاد والأمر والنهي إذا كان الدين لا شأن له في الحياة؟

ولأي شيء يزخر القرآن بذكر الأحكام السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والأحوال الشخصية وأحكام السلم والحرب، بحيث لم يفرط في شيء من أمور الدنيا مع الوحي الثاني الذي هو السنة ـ أهذا ليعمل به أو يطرح ويتخذ هزوًا ولعباً، بل زادوا افتراء على الله بقولهم: (إرادة الشعب من إرادة الله) وهذا قول فاحش لم يجرأ عليه أبو جهل وقومه مع خبثهم وعنادهم، بل ولا إبليس رئيس الكفر والشر، لأنه بهتان معروف قبحه وفساده ببداهة العقول.

ذلك أن أذواق الشعوب ونزعاتها تختلف، فإذا جعلت (إرادة الشعب من إرادة الله) صارت نزعات الوجودية والشيوعية الإباحية بل ونزعات الصهيونية من إرادة الله التي يرضاها لعباده، وصارت جميع الأعمال الوحشية التي يرتكبها بعض الشعوب وما يعشقه مرضى القلوب من التفسخ والانحلال ولدغة الغرائز وإشباع الشهوات من إرادة الله التي يرضاها ويأمر بها.

فعلام ينتقدون على غيرهم ويصيحون عليه إذا اختار لنفسه نوعًا من الحكم ويسمحون لأنفسهم بغزوه وقصفه وترويعه؟ ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

تالله لقد زادوا في الشرك والضلال والفتنة والإغراء على قول من قال: ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام:٩٣]، لأنهم زعموا أن ما أنزل الله مدعاة للتخلف ووصفوه وأهله بالرجعية والألقاب الذميمة تنفيرًا عنه، ولا يزال خريجو المدارس الاستعمارية يركزوا هذه المفاهيم في طبقات الأمة الإسلامية.

وعلى الأخص في المدارس التي هي أول فرض فرضه الاستعمار علينا ثقافته بواسطتها، وأخذت تعمل الأصابع الخفية التي يحركها في هذا السبيل.

فعلى المسلمين شيبًا وشبانًا حكومات وشعوبًا أن ينتبهوا لما حل بهم من هذا الشرك الجديد والوثنية الجديدة، التي هي أفظع من كل وثنية سبقتها، والتي هي في مكان بعيد عن حب الله ورسوله والالتفات إلى شريعته وتنزيله تلك الوثنية الجديدة

التي استجلبت جميع الأحوال الرجعية التي أهلك الله أصحابها في القرون البالية، والتي صاغتها الثقافة الاستعمارية بألقاب جديدة وروجتها بكل فتنة وإغراء جعلت أبناء المسلمين يُلحدون في أسماء الله، وينبذون كتابه، ويقطعون صلتهم بنبيهم الذي أرسله مزكيًّا لهم، فجعلوا الأولوية لغيره في كل شيء، والله أوجب عليهم أن يجعلوا الأولوية له حتى على أنفسهم، وعدلوا بربهم غيره، بل زادوا عليه غيره حبًّا وتعظيمًا جهرًا على عمد دون غفلة أو نسيان.

وألحدوا في أسمائه بل في أعظمها وأجلها. فأسقطوا حدود الله بحجة قسوتها وبشاعتها، كأنه ليس رحمانًا ولا رحيمًا.

وعطلوا شريعته، واستبدلوها بالقوانين الوضعية بحجة تطور العصر، كأنه ليس عليمًا ولا حكيمًا.

وجعلوا لهم الخيرة من أمرهم، كأنه ليس ربًّا ولا ملكًا ولا حاكمًا ولا مهيمنًا.

وافتروا عليه في كل ناحية، وجاهروا بموالاة أعدائه من دونه ودون المؤمنين: استهانة بعزته، واستدراكًا على علمه وحكمته، وعدم مبالاة بوعده ووعيده وشدة بطشه وانتقامه.

وشابهوا الأنعام التي لا تعرف سوى العيش وتربية الأولاد، بل كانوا شرًّا منها وأضل سبيلًا، إذ الأنعام خير وبركة، وأغلب أعمال البشرية اليوم شر ونقمة، والأنعام لا تعقل وليس عليها تكليف، وهؤلاء وهبهم الله العقل وكلفهم حمل كتابه ورسالته للقيام بطاعته والجهاد في سبيله، لإعلاء كلمته وإصلاح الأرض على ضوء شريعته، فخانوا أمانة الله بإطراحهم أوامره ونبذهم كتابه ورسالته وإفسادهم في الأرض بدل إصلاحها وحملهم رسالة الجبت والطاغوت والجهاد في سبيلها، فهم بذلك قد ألحدوا إلحادًا ظاهراً عظيمًا في مدلول (لا إله إلا الله)، إذ قلبوا النفي فيها لما سواه إثباتًا لتأليههم بالحب والتعظيم والاستسلام لقوله، والتفاني في تنفيذ حكمه دون التفات لقول الله ورسوله.

وقلبوا الإثبات فيها نفيًا بجعلهم الله صفرًا على الشمال في كل شيء ونبذهم لكتابه والعمل على إشغال الناس عنه باللغو ولهو الحديث المتواصل في المطبوعات والإذاعات. ومنعوا عباده المسلمين من الانقياد لحكمه إلا في نواح ضيقة من صوم وصلاة محصورة ونحوها.

وأوجبوا عليهم الاستسلام لهم في كل ناحية وميدان، فهل يجدي اعترافهم بالله اعترافًا لفظيًا؟ أم لا فرق بينهم وبين الشيوعية سوى أن الشيوعيين صاروا شجعانًا فصرحوا بقول (لا إله) وهؤلاء ضلوا ثعالباً يراوغون وينافقون، والمنافقون أشد جرمًا وأفظع تأثيراً ونكاية بالأمة(١).

فعلى كل من يحب الله أن يخلص له ويصدق معه في كشف هؤلاء وهتك أستارهم كما كشف الشيخ حقيقة مشركي زمانه رحمه الله رحمة واسعة ووفق العاملين في سبيله للاستقامة على ما ينجيهم في الدنيا والآخرة والله يتولى الصالحين..

عبد الرحمن بن محمد الدوسري

❁❁❁

(١) للمصنف رحمه الله تعالى كتباً مفيدة، أعظمها تفسيره للقرآن الكريم الموسوم بصفوة الآثار، وله كتاب مفيد جدًّا على صغر حجمه وهو الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة.

الرسالة التاسعة:

الأصول الثلاثة

تأليف

شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم ـ رحمك الله ـ أنه يجبُ علينا تعلُّمُ أربع مسائل:

الأولى: العلمُ، وهو: معرفةُ الله، ومعرفة نبيِّه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة. الثَّانية: العملُ به. الثَّالثة: الدَّعوة إليه. الرَّابعة: الصَّبر على الأذى فيه.

والدَّليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر].

قال الشَّافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: «لو ما أنزل الله حُجَّةً على خلقه إلا هذه السُّورة لكفتهم»[1]. وقال البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: (بابٌ) «العلمُ قبل القول والعمل»، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل[2].

اعلم ـ رحمك الله ـ أنَّه يجب على كل مسلم ومسلمة، تعلُّمُ هذه الثلاث المسائل، والعملُ بهنَّ:

الأولى: أنَّ الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنَّة، ومن عصاه دخل النَّار، والدَّليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ۝ ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الثانية: أنَّ الله لا يرضى أن يُشرَك معه في عبادته أحدٌ ، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ؛ ولا نبيٌّ مرسل، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨].

الثالثة: أنَّ من أطاع الرَّسول ووحَّد الله لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٣) (٤/ ٥٤٨).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم بعد حديث (رقم ٦٧) وفتح الباري (١/ ١٦٠) وعمدة القاري (٢/ ٣٩).

ولو كان أقربَ قريب، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

اعلم ـ أرشدك الله لطاعته ـ أن الحنيفية ملة إبراهيم: أن تعبدَ الله وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر اللهُ جميعَ الناس وخلقهم لها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومعنى (يعبدون) يوحِّدون(١).

وأعظمُ ما أمر الله به: التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهى عنه: الشِّرك، وهو دعوة غيره معه، والدَّليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦].

الأصول الثلاثة

فإذا قيل لك: ما الأصول الثَّلاثة التي يجب على الإنسان معرفتُها؟

فقل: معرفة العبد ربَّه، ودينه، ونبيَّه محمَّداً ﷺ.

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤/ ٢٣٩): ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعًا أو كرهًا، وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن جريج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع، ومنها ما لا ينفع ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٣٥] هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك.

وقال البخاري رحمه الله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ما خلقت أهل السعادة من أهل الفريقين إلا ليوحدون. انظر: صحيح البخاري في كتاب التفسير، سورة الذاريات بعد حديث (رقم ٤٨٥١) وانظر: الاستذكار (٨/ ٢٦٤-٢٦٥).

الأصل الأول
معرفــــة الله

فإذا قيل لك: مَنْ ربُّك؟(١) فقل: ربِّي الله الذي ربَّاني، وربَّى جميع العالمين(٢) بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواه، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة:٢]، وكلُّ مَنْ سوى الله عالَمٌ، وأنا واحدٌ من ذلك العالم.

فإذا قيل لك: بم عرفت ربَّك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليلُ والنهار والشَّمس والقمر، ومن مخلوقاته السَّموات السبَّع، والأرَضون السَّبع ومن فيهنَّ وما بينهما، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

---

(١) قال الطبري رحمه الله في تفسيره (١/ ٦٢): وأما تأويل قوله: (رب) فإن الرب في كلام العرب متصرف على معان: فالسيد المطاع فيها يدعى ربًّا، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة:

وأهلكن يومًا رب كندة وابنه ... ورب معد بين خبت وعرعر

يعني: رب كندة: سيد كندة، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

تخب إلى النعمان حتى تنالــه ... فدى لك من رب طريفي وتالدي

والرجل المصلح للشيء يدعى ربًّا، فربنا جل ثناؤه السيد الذي لا شبه له ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر.

(٢) قال الطبري رحمه الله في تفسيره (١/ ٦٢): والعالمون جمع عالم، والعالم جمع لا واحد له من لفظه: كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماع لا واحد من لفظه. والعالم: اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان، فالإنس عالم وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان، والجن عالم وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه..

وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. والرَّبُّ هو: المعبود، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: الخالقُ لهذه الأشياء هو المستحقُّ للعبادة(١).

وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنها الدُّعاء، والخوف، والرَّجاء، والتَّوكل، والرَّغبة، والرَّهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذَّبح، والنَّذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها، كلُّها لله تعالى، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن:١٨].

فمن صرف منها شيئاً لغيرالله فهو مشركٌ كافرٌ، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. وفي الحديث: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»(٢)، والدليل

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٠، ٢١٢) (٤/ ٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧١) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٣ رقم ٣١٩٦) وفي الدعاء (رقم ٨) وقال الترمذي: حديث غريب.

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ٢١٩): قوله: الدعاء مخ العبادة، المخ بالضم نقي العظم والدماغ وشحمة العين وخالص كل شيء، والمعنى: أن الدعاء لب العبادة وخالصها، لأن الداعي إنما يدعو الله عند انقطاع أمله مما سواه، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص،ولا عبادة فوقها. قال ابن العربي: وبالمخ تكون القوة للأعضاء، فكذا الدعاء مخ العبادة، به تتقوى عبادة العابدين، فإنه روح العبادة، وانظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/ ١٢٢) وفيض القدير (٣/ ٥٤٠) والاستذكار (٣/ ٨٤) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٩١).

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

الخوف: ودليل الخوف: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١) [آل عمران:١٧٥].

الرجاء: ودليل الرَّجاء: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(٢) [الكهف:١١٠]

التوكل: ودليل التَّوكُّل: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣]. وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾(٣) [الطلاق:٣].

الرَّغبة والرَّهبة والخشوع: ودليل الرَّغبة والرَّهبة والخشوع: قولــه ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾(٤) [الأنبياء:٩٠].

الخشية: ودليل الخشية: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٨٣-١٨٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٣٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٣٩-٤٠) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٩-١١١).

وأخرج الحاكم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يُرى موطني. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا حتى نزلت: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وانظر: المستدرك (٢/ ١٢٢ رقم ٢٥٢٧) (٤/ ٣٦٦ رقم ٧٩٣٩).

(٣) انظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك (٣/ ٢٩٨) وفتح الباري (٤/ ٤٣) ومختصر شعب الإيمان (ص ٣٥) وجامع العلم والحكم (١/ ٣٢-٣٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٨٢-٨٤) والدر المنثور (٥/ ٦٧٠-٦٧١) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٩٤-١٩٥) (٤/ ٣٤٣).

عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[(١)] [البقرة:١٥٠].

الإنابة: ودليل الإنابة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[(٢)] [الزمر:٥٤].

الاستعانة: ودليل الاستعانة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]. وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله»[(٣)].

الاستعاذة: ودليل الاستعاذة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾[(٤)] [الناس:١-٢].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٠-٣٥) والدر المنثور (١/ ٣٥٨-٣٥٩) وتفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١٤، ١٧، ٢٠) والدر المنثور (٧/ ٢٣٦-٢٤٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ٦١) وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٦) والتمهيد (١٢/ ١٩١).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٢ رقم ١٢) والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٣) والترمذي (رقم ٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والطبراني في الأوسط (٥/ ٣١٦ رقم ٥٤١٧) وفي الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣) (١٢/ ٢٣٨ رقم ١٢٩٨٨) وأبو يعلى (٤/ ٤٣٠ رقم ٢٥٥٦) وابن الجعد في مسنده (رقم ٣٤٤٥) وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٣٤ رقم ٧٤٥) وعبد بن حميد (١/ ٢١٤ رقم ٦٣٦).

(٤) عن عقبة بن عامر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «يا عقبة قل» فقلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ فسكت عني ثم قال: «يا عقبة قل» قلت: ماذا أقول يا رسول الله، فسكت عني، فقلت: اللهم اردده عليَّ. فقال: «يا عقبة قل» قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ فقال: «﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾» فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال: «قل» قلت: فقلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: «﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾» فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «ما سأل سائل بمثلها، ولا استعاذ مستعيذ بمثلها» أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٣٧ رقم ٧٨٣٨) وفي رواية: «ما تعوذ الناس بأفضل منها» أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٢ رقم ٧٨٥٨) وفي السنن الصغرى (رقم ٥٤٢٩-٥٤٣١) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٦ رقم ٩٥٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥١٢ رقم ٢٥٦٤) وأخرج أحمد بسنده عن ابن عابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال له: «يا ابن عابس ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟» قال: قلت: بلى. فقال رسول الله ﷺ: «﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾» و«﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾» مسند أحمد بن حنبل (٤/ ١٥٢).

الاستغاثة: ودليل الاستغاثة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ ﴾[(١)] [الأنفال: ٩].

الذبح: ودليل الذَّبح: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. ومن السُّـنَّة: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»[(٢)].

النـذر: ودليل النَّـذر: قولـه ـ تعالى ـ: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ ﴾[(٣)] [الإنسان:٧].

الأصل الثاني

معرفة دين الإسلام بالأدلة

وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرك وأهله[(٤)]، وهو ثلاث مراتب: أ- الإسلام. ب- الإيمان. جـ -الإحسان.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٨٩-١٩٠) وعن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يده فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٩] فأمده الله بالملائكة. أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣) وابن حبان في صحيحه (رقم ٤٧٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٩٧٨).

(٣) عن عائشة رضي الله عنها عن ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» أخرجه البخاري (رقم ٦٦٩٦) وانظر: الأم (٤/ ١٨٤) والمحلى (٧/ ٢٦٤) وشعب الإيمان (٤/ ٧٥) وفتح الباري (٩/ ٣٨٧) (١١/ ٥٧٦-٥٧٩) وعمدة القاري (٢٣/ ٢٠٦) والتمهيد (٦/ ٩٩).

(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٣٠٩) والنبوات (ص ٧٣) ومجموع الفتاوى (٧/ ١٤١، ١٥٧) (١٠/ ١٤) (٢٠/ ١١٥).

المرتبة الأولى: الإسلام:

فأركان الإسلام خمسة: ١- شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله. ٢- وإقام الصلاة. ٣- وإيتاء الزكاة. ٤- وصوم رمضان. ٥- وحجُّ بيت الله الحرام.

فدليل الشهادة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، «لا إله» نافيًا جميع ما يعبد من دون الله، «إلا الله» مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه(١)، وتفسيرها الذي يوضِّحها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران:٦٤].

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨]. ومعنى شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتنابُ ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع(٢).

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/ ١٢٧) (٢/ ١٥٥) (٢٧/ ٦٦).

(٢) انظر: كتاب الصفدية لابن تيمية (١/ ٢٥٨) ومجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٦) (١٠/ ٤٨٦) (٢٧/ ٣١٩).

ودليل الصيام قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ودليل الحج قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧].

المرتبة الثانية: الإيمان:

وهو بضع وسبعون شعبةً، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان[1]. وأركانه ستة:

١- أن تؤمن بالله، ٢- وملائكته، ٣- وكتبه، ٤- ورسله، ٥- واليوم الآخر، ٦- وتؤمن بالقدر خيره وشره.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ودليل القدر قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩].

المرتبة الثالثة: الإحسان:

ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥) وانظر: عمدة القاري (١/ ١٢٣، ١٢٥، ١٧٧) وشرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ٥).

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾(١) [يونس:٦١].

والدليل من السنة حديث جبرائيل المشهور: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «بينما نحنُ جلوسٌ عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ:شديدُ بياض الثِّياب، شديدُ سواد الشَّعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفر ولا يعرفه منَّا أحدٌ، حتى جلس إلى النَّبيِّ ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فَخذَيه، وقال: يا مُحَمَّدُ، أخبرني عن الإسلام؟ فقال: أَنْ تَشْهَدَ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَّسُوْلُ الله، وَتُقِيْمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُوْمَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيْلاً، فقال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدِّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أَنْ تُؤْمِنَ: بالله، وَمَلَائكته، وَكُتُبه، وَرُسُله، وَالْيَوْمِ الآخر، وتؤمنَ بالْقَدَر خَيْره وَشَرِّه، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: مَا الْمَسْئُوْلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُوْنَ فِي الْبُنْيَانِ، قال: فمضى فلبثنا مليّاً، فقال: يَا عُمَرُ، أَتَدرِيْ مَنِ السَّائِلُ؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: هَذَا جِبْرِيْلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِيْنِكُمْ»(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٣) (٣/ ٤٥٥) (٤/ ٣٠٥) وجامع العلوم الحكم (٦/ ٢٢-٢٤) وفتح الباري (١٠/ ٢٧١، ٤٨٠) (١٣/ ٤٢٥) وشرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٥٧) وعمدة القاري (١/ ١٢٩، ٢٥٠) و(١/ ٢٨٣-٢٨٨) والديباج على صحيح مسلم (١/ ٨) وتحفة الأحوذي (٥/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨، ٩، ١٠).

الأصل الثالث
معرفة نبيكم محمد ﷺ

وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ. وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًا رسولاً، نبئ بـ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وأرسل بـ ﴿ ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾، وبلده مكة، وهاجر إلى المدينة، بعثه الله بالنِّذارة عن الشِّرك، ويدعو إلى التوحيد، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾ [المدثر: ١-٧].

ومعنى ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ ينذر عن الشِّرك ويدعو إلى التَّوحيد، ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾ أي عظِّمه بالتَّوحيد ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ أي طهِّر أعمالك عن الشِّرك، ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾ الرُّجز: الأصنام، وهجرُها: تركها والبراءةُ منها وأهلِها(١). أخذ على هذا عشرَ سنين يدعو إلى التَّوحيد، وبعد العشر عُرج به إلى السَّماء، وفُرضت عليه الصَّلواتُ الخمس، وصلَّى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة.

والهجرة: الانتقال من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام، والهجرةُ فريضةٌ على هذه الأمة من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام، وهي باقيةٌ إلى أن تقوم الساعة(٢)، والدليل:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٤٢-١٤٤) والدر المنثور (٨/ ٣٢٥-٣٢٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٤١) وفتح الباري (١/ ٢٨) (٨/ ٧١٨-٧٢٢) وشرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٢٠٧-٢٠٨) وعمدة القاري (١/ ٦٤-٦٦) (١٥/ ١٤٥) (١٩/ ٢٦٨) وتحفة الأحوذي (٩/ ١٢٧).

(٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (١/ ١٦): الهجرة: الترك، والهجرة إلى الشيء: الانتقال إليه عن غيره، وفي الشرع: ترك ما نهى الله عنه، وقد وقعت في الإسلام على وجهين:
الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن، كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.
=

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء:٩٧-٩٨]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت:٥٦]. قال البَغويُّ رحمه الله تعالى: (سببُ نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يُهاجِروا، ناداهم الله باسم الإيمان).

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١).

فلما استقرَّ في المدينة، أُمر ببقية شرائع الإسلام، مثل الزكاة، والصَّوم، والحج، والأذان، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام(٢). أخذ على هذا عشر سنين، وبعدها تُوُفِّي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

=

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص، وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقيًا.

انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ١٣٣) وأحكام القرآن للشافعي (٢/ ١٦) والأم (٤/ ١٦١). وفتح الباري (١/ ٥٣٥) (٦/ ٣٩) (٧/ ٢٣٠) (٨/ ٢٦٣) وشرح النووي (٩/ ١٠٤، ١٢٣) (١٣/ ٨) وعمدة القاري (٩/ ١٥).

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢١٧ رقم ٨٧١١) وأبو داود (رقم ٢٤٧٩) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٧ رقم ١٧٥٥٦) والدارمي (رقم ٢٥١٣) والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٨٧ رقم ٩٠٧) وأبو يعلى (١٣/ ٣٥٩ رقم ٧٣٧١) وأحمد (٤/ ٩٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٤٦٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٥٥) وعمدة القاري (١/ ٢٩) والتمهيد (٨/ ٣٨٩) وعون المعبود (٧/ ٣٣٩).

(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير.

ودينه باقٍ، وهذا دينه لا خيرَ إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرَّ إلا حذَّرها منه، والخيرُ الذي دلَّها عليه: التَّوحيد، وجميع ما يحبُّه الله ويرضاه، والشَّرُّ الذي حذَّرها منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه.

بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض طاعته على جميع الثَّقَلين: الجنِّ والإنس، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]. وكمَّل الله به الدِّين، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

والدَّليل على موته ﷺ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

والناس إذا ماتوا، يبعثون والدليل: قوله تعالي: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح:١٧، ١٨].

وبعد البعث محاسبون ومجزيُّون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم:٣١]. ومن كذب بالبعث كفر، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن:٧].

وأرسل الله جميع الرسل مبشِّرين ومنذرين، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]. وأولهم نوح عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين، والدليل على أن أولهم نوح قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء:١٦٣].

وكلُّ أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدَّليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

وافترض الله على جميع العباد الكفرَ بالطاغوت، والإيمانَ بالله.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: معنى الطَّاغوت ما تجاوز به العبدُ حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع[1]. والطَّواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة:

١- إبليس لعنه الله. ٢- ومن عُبد وهو راضٍ. ٣- ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه. ٤- ومن ادَّعى شيئًا من علم الغيب. ٥- ومن حكم بغير ما أنـزل الله[2].

والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وهذا معنى لا إله إلا الله.

وفي الحديث: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سِنَامِهِ الجِهَادُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ»[3]. والله أعلم. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

❁❁❁

---

(١) إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية (١/ ٥٠).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين (١/ ٢٤٤): وقد أمرنا الله برد ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله ﷺ، فلم يبح لنا قط أن نرد ذلك إلى رأي ولا قياس ولا تقليد إمام ولا منام ولا كشوف ولا إلهام ولا حديث قلب ولا استحسان ولا معقول ولا شريعة الديوان ولا سياسة الملوك ولا عوائد الناس التي ليس على شرائع المسلمين أضر منها، فكل هذه طواغيت من تحاكم إليها أو دعا منازعه إلى التحاكم إليها فقد حاكم إلى الطاغوت.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦١٦) وعبد بن حميد (رقم ١١٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الرسالة العاشرة:

تاج الدين
فيما يجب على الملوك والسلاطين

تأليف

أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم

ابن محمد المغيلي

رحمه الله

٩٠٩هـ

تعريف موجز بمؤلف هذا الكتاب

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني المراكشي المغربي، وكان يعيش في آخر القرن التاسع معاصرًا لجلال الدين السيوطي، إذ كانت بينهما مراسلات، و قد سافر إلى اليمن حتى انتهى إلى اهيراء عذبن وكنو وكتينة، حتى وصل إلى جاوا عاصمة مسكيا في سنة ٩٠٠، وله كتاب في الفرائض وكتاب في الأحكام، وألف هذا الكتاب أثناء تنقله، وطبع بالعربية والإنكليزية، وتوفي رحمه الله في سنة ٩٠٩ في توات.

[نقلاً عن مقدمة طويلة للكتاب أخذت من كتاب الابتهاج شرح الديباج]
ورد ذكره في كشف الظنون (١/ ٨٤٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم تاج الدين ومصباح المسلمين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ المرحوم عبد الكريم بن محمد المغيلي لطف الله به آمين ورحمه.

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على رسول الله خير خلق الله محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: وفَّقك الله للتقوى، وعصمك من نزع الهوى، فإن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسول الله، فما أعظم فضلها، وما أثقل حملها، إن عدل الأمير ذبحته التقوى، بقطع أوداج الهوى. وإن جار ذبحه الهوى بقطع أوداج التقوى، وعليك بتقوى الله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران:١٨٥].

وسأذكر لك من ذلك جملة مختصرة في ثمانية أبواب، والله الموفق للصواب.

الباب الأول

فيما يجب على الأمير من حسن النية(١)

الإمارة بلوى بين الهوى والتقوى، فعلى كل ذي عقل وأمانة أن يبعد عنها(٢) إلا إذا لم يكن له بُدٌّ منها، فتوكل على الله، واستعن في أمرك كله بالله، وليكن عملك كله لوجه الله.

وذكِّر نفسك أنك واحد من خلق الله، كثيرٌ أقوى منك لولا نصر الله، فليكن طمعك كله في الله، وخوفك كله من الله، وهمك كله في مصالح خلق الله، ما ولّاك الله عليهم لتكون سيدهم ومولاهم، وإنما ولّاك عليهم لتصلح لهم دينهم ودنياهم، واشكر نعمة الله عليك، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تقنط من رحمة الله، فكم من كرب فرجه الله، و[رأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية].

الباب الثاني

فيما يجب على الأمير من حسن الهيئة

الإمارة مقمعة للنفس الأمّارة، فعلى كل أمير أن يرتدي برداء الهيبة في الحضرة والغيبة، فأظهر حب الخير وأهله، وأبغض الشر وأهله، وزيِّن جسمك، وطيِّب

---

(١) فعن عمر رضي ﷺ قال: لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسْبَة له، يعني لا أجر لمن لم يحتسب ثواب عمله عند الله عز وجل، وعن ابن مسعود ﷺ قال: لا ينفع قول إلا بعمل ولا ينفع قول ولا عمل إلا بنية، ولا ينفع قول ولا عمل ولا نية إلا بما وافق السنة. وعن يحيى بن أبي كثير رحمه الله قال: تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل. وعن زيد الشامي قال: إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى الطعام والشراب. انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٣).

(٢) فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها...» أخرجه البخاري (رقم ٦٦٢٢، ٦٧٢٢) ومسلم (رقم ١٦٥).

ريحك، وحسِّن ثوبك بمباح من زينة الرجال[١] غير مشبه بالنساء[٢]، ولا مفسد لبيت المال، فلا تتزين بذهب ولا فضة ولا حرير بحال[٣].

فإن ذلك قبح ودناءة وضلال، وتربع إن جلست، واسكن ما استطعت، ولا تعبث ولو بيدك، واغضض من بصرك، وليكن نظرك تفرسًا، وإطراقك تفكرًا، وإقبالك على الخلق بوجه أداء الحق، ولا تفتح فمك ولو لتثاؤب على الخلق، فإن كاد أن يغلبك فاذكر ربك يذهب عنك، وإن غفلت حتى غلب عليك فسُدّ فاك بظاهر إحدى يديك[٤].

[شعر]

ولا تقهقه أبدًا فإنما ... يقهقه الأعمى ويزداد عمى

---

(١) فعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» أخرجه مسلم (رقم ٩١).

(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال، أخرجه البخاري (رقم ٥٨٨٥) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ٤١) والتمهيد (٥/ ٥١) وفيض القدير (٥/ ٢٧١) والمغني (١٠/ ١٧٤) ونيل الأوطار (٦/ ٣٤٣).

(٣) عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ أخذ ذهباً فجعله في يمينه، وأخذ حريرًا فجعله في شماله، ثم قال: «إن هذين حرام على ذكور أمتي» أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٢/ ٢٠٧ رقم ٥٩٠) وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢٥٠ رقم ٥٤٣٤) وفي الموارد (رقم ١٤٦٥) وأبو داود (رقم ٤٠٥٧) وابن ماجه (رقم ٣٥٩٥) والنسائي (رقم ٥١٤٤، ٥١٤٥) وفي الكبرى (٥/ ٤٣٦ رقم ٩٤٤٥، ٩٤٤٦) وانظر: الاستذكار (٨/ ٣٢٣) والمحلى (١/ ١٧٧، ٢١٩) وفتح الباري (١٠/ ٢٩٦)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٣٢، ٤٥).

(٤) فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا قال: ها. ضحك الشيطان» أخرجه البخاري (رقم ٣٢٨٩) ومسلم (رقم ٢٩٩٤)، و اللفظ للبخاري، وفي رواية عند مسلم (رقم ٢٩٩٥): «إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه، فإن الشيطان يدخل». وانظر: فتح الباري (١٠/ ٦٠٧-٦١٣) وشرح النووي (٣/ ١٢٧) (١٨/ ١٢٠-١٢٢).

وكن على الصمت حريصًا دائمًا   فقلما يسلم من تكلما
وإن يكن لابد فاختر محكمًا   واخفض من الصوت لئلا تندما

والمرء بأصغريه قلبه ولسانه(١). فقدم عقلك بين يدي لسانك، فإن لسانك مرآة قلبك، وقلبك مجمع شأنك.

أقبح القبائح اثنان: كِبر الفقيه، وكذب السلطان.

فإذا تحدثت فاصدق، وإذا وعدت فأوف(٢)، وإذا أمرت بشيء أو نهيت عن شيء فلا تغفل عنه حتى تبلغ المقصد منه، وإياك أن تقصر خطوتك عن مقالك، فتذهب هيبتك من قلوب رعيتك وعمالك.

[شعر]

إذا أهمل السلطان شأن مقاله   فقد بان منه الضعف في كل حاله
وأمسى كليل الأمر والنهي في الورى   ورامي بثوبي عزه وجماله

(١) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث (١/ ٥٩١) على أنه حديث. وكذا فعل العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩١ رقم ٢٧٠٥) بينما جعله ابن منظور من أمثال العرب في لسان العرب (٤/ ٤٥٨). وانظر: نوادر الأصول (٤/ ٢٧) وتحفة الأحوذي (٧/ ٧٥-٧٨) وفيض القدير (١/ ٢٨٧) وذكر ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٠/ ٨٣-٨٤) أن عبد الملك بن مروان كان يحب النظر إلى كثير عزة، إذ دخل آذنه يومًا فقال: هذا كثير بالباب. فاستبشر عبد الملك وقال: أدخله، فدخل، فإذا هو حقير قصير تزدريه العين، فسلّم بالخلافة، فقال عبد الملك: تسمع بالمعيدي لا أن تراه. فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن قال قال بجنان، وأنا الذي أقول يا أمير المؤمنين:

وجربت الأمور وجربتني   وقد أبدت عريكتي الأمور
وما يخفى الرجال عليّ إني   بهم لأخو مثاقبة خبير
ترى الرجل النحيف فتزدريه   وفي أثوابه أسد يزير
ويعجبك الطرير فتختبره   فيخلف ظنك الرجل الطرير

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» أخرجه البخاري (رقم ٣٣) ومسلم (رقم ٥٩).

ولا تقرب لمجلسك وخدمتك ناقصًا في أعين الناس، فإن دائرة المرء لباسه، فاختر خير لباس(١).

[شعــــر]

إذا قــرب الـسلطان أخيــار قومــه وأعرض عن أشرارهم فهو صالح
وإن قرب الـسلطان أشرار قومـه وأعرض عن أخيارهم فهو طـالح
وكـل امـرئ ينبيـك عنـه قرينـه وذلــك أمــر في البريــة واضــح

ولا تجعل نفسك عبد ثوب ولا حصان ولا عبد بساط ولا مكان(٢)، وبالجملة حال الرعية وحال السلطان كفتان، فتصرف في حالك بالزيادة والنقصان حتى يعتدل الميزان، [ورأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية].

الباب الثالث

فيما يجب على الأمير من ترتيب مملكته

الإمارة سياسة في ثوب رياسة، فعلى كل أمير أن يرتب نظام مملكته لسكونه وحركته، على ما يتمكن به من صلاح رعيته، فمن ذلك خدام بالحضرة يتصرفون، وعقلاء يشيرون، وأمناء يقبضون ويصرفون، وكتاب وحساب يحفظون، ورسل وجُسّاس، وحفظة وعساس(٣)، ومن ذلك أيضًا علماء تقاة يرشدون، وأئمة فضل

(١) قال الطبري رحمه الله في تفسيره (٨/ ١٤٨-١٤٩) في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]: فقال بعضهم: لباس التقوى هو الإيمان، وقال آخرون: هو الحياء. وقال آخرون: هو العمل الصالح. وقال آخرون: هو السمت الحسن، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٨).

(٢) فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش...» أخرجه البخاري (رقم ٢٨٨٧).

(٣) ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ليلاً، ليتفقد أحوال رعيته، فقد أخرج ذلك البخاري في تاريخه الكبير (٢/ ١٧٨ رقم ٢١٢٢) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٢٢) والذهبي في تذكرة الحفاظ (٢/ ٦٠٨) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٨٥) وكذا كان الحجاج بن يوسف الثقفي يعس بالليل، أخرج ذلك ابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (رقم ٤٦٧) وابن عساكر في =

يجمعون، وعدول يشهدون، ومحتسبون يكشفون ويصلحون، وأرباب شرطة يزجرون، وشفعاء يشفعون، وقضاة ثقاة يفصلون، ورجال معظمون لوجه الله، وعمال يجبون حق الله، ووزراء لا يخشون إلا الله.

ومن ذلك أيضًا حصن حصين مكفي بالخزائن، وخيل خديدة، وظهور شديدة، ورجال شجعان حاضرة في كل أوان، وعدد كثيرة متينة، وأطباء عارفة أمينة، ومن ذلك أيضًا في الحروب وزراء يجمعون الرجال ويخففون الأثقال، ويحملون على الحذر، وحمل السلاح، ويرتبون الجيش للكفاح، بصدر ثابت من الأبطال، وجناحين من سائر الخيل والرجال، وبلغاء ينشطون القلوب ويقبحون الهروب، وعرفاء بالحروب، برأيهم تنكشف الكروب، فإن الحرب خدعة ليس بالكثرة ولا بالسرعة[١] [ورأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية].

الباب الرابع

فيما يجب على الأمير من الحذر بالحضر والسفر

الإمارة غرر جنتها الحذر ـ فأظهر القوة والجلد والزهد في الصاحبة والولد، والرغبة في الأبطال والعُدد، وانهض عن مجاورة الهر والفأر لمساورة ليوث القفار.

[شعــر]

ألا قـبح الله الجبـان مـن الـورى ... وأكساه ثوب الخزي في طبق الثرى

أبالجبن كان الملـك يملـك قبلنـا ... وما الملـك إلا بالـشجاعة يـشترى

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا[٢]

=

تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ١٨٢) وكذا عسّى عبد الله بن قرط وهو والي على حمص، انظر: تاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ١٠).

(١) فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «الحرب خدعة» أخرجه البخاري (رقم ٣٠٣٠) ومسلم (رقم١٧٣٩).

(٢) ذكر الطبراني البيت الأخير من قول أبي ذويب في معجمه الكبير (١٠/ ٢٤٩) وانظر: مجمع الزوائد

=

ومقام السلطان في الحضر رأس كل فتنة وضرر.

[شعــر]

مجال عقاب الطير في الجو والفلا ... وأنــشط ديــك في البيــت يجــول
ومــا الملــك إلا للعقــاب بعزمــه ... وللديك صوت في الدجاج يصول

فاركب جياد العزم على سروج الحزم، وأحي البلاد من قحط الفساد بريح المضمار وسحاب الغبار، ورعد الصهيل وبرق الصقيل وصواعق السيوف، وأمطار الصفوف، فالملك بالسيف لا بالتسويف، وهل يندفع الخوف إلا بالتخويف؟ ولا يقرب من طعامك وشرابك وفراشك وثيابك إلا أقرب أحبابك، ولا تفارق الدرع والسلاح، ولا يقرب منك إلا أهل الأمانة والصلاح، ولا تنم بغير مكان أمين، وغير مرقدك في كل حين، واترك زيّك المعروف في كل مكان مخوف، وادن بحماك في حين وآن عصبة أمناء شجعان عساس ورماة، ورجال، وفرسان، وليس وقت الخوف كوقت الأمان.

واكتم سرك عن غيرك حتى تتمكن من أمرك(١)، وخذ حذرك من النمامين(٢) ولو كانوا أكثر من سبعين، ولا تغتر بظواهر الرجال، وكن كيِّسًا فطنًا في كل حال،

=

(٦/ ٣٠٤) (٩/ ٢٧٩) والاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ٨٧٣).

(١) أخرج البيهقي في الشعب (٧/ ٦٧ رقم ٩٤٩٨) عن الشافعي أنه قال: من كتم سره كانت الخيرة في يده. وأخرج ابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٧٤٧) عن عمر ﷺ قال: من كتم سره كانت الخيرة في يديه، وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٤٤/ ٣٥٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٦) وكشف الخفاء (٢/ ٣٥٩ رقم ٢٥٨٥): وعن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود» أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٥٥ رقم ٢٤٥٥) وفي الكبير (٢٠/ ٩٤ رقم ١٨٣) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٢٨ رقم ٤٠٨) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤١٢ رقم ٧٠٨) وانظر: فيض القدير (١/ ٤٩٣) والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٩٤٣).

(٢) أخرج أبو نعيم في الحلية (٣/ ٧٠) عن يحيى بن أبي كثير قال: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر.

رسل الهدية عيون، صرفهم كَيْس وإمساكهم جنون ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل:٣٥]، وأزل كل حصن لا تقدر عليه، لئلا تستند أعداؤك إليه، فتنقسم الرعية وتعظم البلية، وخف من الحبل لئلا تلسعك الحية، [ورأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية].

الباب الخامس

فيما يجب على الأمير من الكشف عن الأمور

الإمارة حلية في ديوان الحيلة، فعلى كل أمير أن يكشف عن بعض الأمور بحسب المقدور، وذلك كل أمر ولو أعفي عنه لخشي ضرورة منه، فمن ذلك أن يسأل عن كل ما جهل من العدول والأمناء والمتقين قِبَله والأوصياء، ويحجر على كل مهمل من يتيم وسفيه، ويأمر برفعه إليه ليولي عليه، ويكشف عن عدد ورثة كل من مات وعن شأن كل من ترك من ضعفاء البنين والبنات، وعن بيت المال وأرزاق العمال وعن كل ما هو موكول للنظر من مال وغير مال، لكن على الاستبصار والورع، لا على جهة الإضرار والطمع.

[شعـــر]

إذا أهمل الراعي المواشي في الخلا ... وألــوى إليهــا في المــراح وأهمــلا

فــما هــو إلا واحــد مــن أســودها ... وعــما قليــل تــنجلي عنــه أولاً

ومن ذلك أيضًا أن يحتفظ على عماله في جميع أعماله ويتدبر أقوالهم، ويختبر أحوالهم، ويحصي قبل الولاية أموالهم، ويتفقد في كل حين أعمالهم، فكل من ظهر عنه تقصير زجره، وكل من خشي منه ظلمًا عزله، وكل من تكررت فيه الشكوى من غير بيان أبدله إن وجد بدله، وإلا كان لهم كَسُلَّم الدار لربها، وكما سك قرون البقرة لحالبها، وكلما زاد على أموالهم أخذه، وإن شك فيه قسمه وليكن عليهم كراعي الماشية بين الأسود الضارية، فمن عمال السوء جميع الفساد في كل البلاد.

[شعـــر]

إذا كنت في أمر فكن فيـه ناصـحًا   وإن تـستنب فـاختر خيـارًا لأهلـه
ومن يأت بالكلـب العقـور لبابـه   فعقر جميع الناس مـن سـوء فعلـه

عاملك عملك، وفعله فعلك، إن أحسن فالثواب لكما، وإن أساء فالعقاب عليكما.

ومن ذلك أيضًا أن يكشف عمن قويت فيه تهمة الفساد إن شهد بوجود علاماته كشف الأمير عن بينة، فإن وجده فيه نكّله وكسره، وإلا توعده وزجزه، ومن ظهرت عليه علامات شرب من رائحة أو كلام أو مشي استثبته، فإن ثبت عليه رائحة خمر كثر به ولو لم يكن متهمًا بذنبه، وإن شك في رائحته زجر بحسب قربه وبعده، ومن وجد مع امرأة على حالة منكرة زجر بموجع الجلد إن لم يثبت عليه موجب الحد، ومن ذلك أن يكشف عن أخبار الأعداء بالجساس الأمناء في كل أوان، من فتنة وأمان، حتى لا يخفى عليه شيء من حركاتهم وسكناتهم في كل زمان، فإن الجهل عمى.

والبصير يغلب ألف أعمى، وأعظم كل بلية صيحة الغفلة على الرعية، وتدبر قول بلقيس: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل:٣٥]، ومن ذلك أيضًا أن يكشف عن ذم النمامين ومدح المداحين، فكم قربوا من بعيد، وكم بعدوا من قريب، وكم حببوا من عدو، وكم كرهوا من حبيب، وكم خرَّب النمام من قصر مشيد بشفتيه لا بفأس من حديد، فأبعد النمام عنك من بعيد، وكم سفه النمام من عقل رشيد، ومنهم من يمدح كثيرًا ثم يذم أو يذم كثيرًا ثم يمدح، لتنتفي التهمة عنه إن ذم أو مدح، فاكشف عن كل قضية، واحذر من أعوانك بالكلية، فكم حولت الهدية من ناسك إلى اليهودية والنصرانية [ورأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية].

الباب السادس

فيما يجب على الحكام من العدل في الأحكام

للسلطنة رِجْلان: العدل والإحسان.

فالعدل أن يوفى كل ذي حق حقه من نفسه وغيره. والإحسان أن يتفضل من نفسه لا من غيره، فمن العدل أن يُسَوِّي بين الخصمين في دخولهما وجلوسهما والنظر إليهما، والكلام معهما، وغير ذلك من شأنهما، وليكن في جميع شأنه بمعزل عن ظهور الميل لأحدهما أو غيرهما من قبض ينفر أو بسط يجسر، فلا يرد على من سلم عليه غير السلام، ولا ينبسط إليه ببشاشة ولا كلام، حتى يتبين له أنه ليس من أهل الخصام، وألَّا ذريعة فيه للحرام، فإن سأله أحد الخصمين أو كلاهما عن مسألة أو حال من أحواله، فليعرض عن سؤاله، وليقل لهما: اقبلا على شأنكما، واستويا فيما بينكما، لا أرجحية اليوم لأحدكما، فإن ظهرت أرجحية لأحدهما بدخول أو مكالمة أو نحوهما ـ فليبين للآخر تسويتهما، وليعدل بعد ذلك بينهما.

ومن العدل أيضًا أن يعطي كل واحد من الأخصام نوبته من الكلام، ثم لا يقبل من الشهود إلا عدلاً رضاً فيما سبق إليه، لا تهمة فيه على المشهود عليه، فإن تعذرت العدالة في كرفقة جهل أو قرية ضلالة فبأمثلهم في الصدق حالة، بعد كشف واستكثار وسياسة واستبصار، فإن على الشهادة مدار الأمور، وأكثر الشهداء بالضلالة مغرور، بالجهالة مغمور.

ثم لابد أن يُطلع المطلوب على أسباب الطالب، ويعذر إليه حيث لا يخاف من ظلمه عليه، فإذا انتهى الأمر إلى حده حكم بعد المشاورة في قصده، ولا يجوز له شيء من أحكامه إلا بمشهور مذهب إمامه، فإن الحكم بغير المعتمد جور وضلال، ويجب نقضه على كل حال، ويختص دعاوى الجنايات بأنواع من السياسات، فالمدعي عليه بكسرقة من غير بينة، ثلاثة أقسام:

قسم بعيد عما نسب إليه، فهذا لا يلتفت لدعوى المدعى عليه، بل يؤدب له إن كان من أهل الصلاح لأجل ما نسب إليه.

وقسم قريب من الدعوى، فهذا لابد له من البلوى يحبس ويهدد ويوهم ويجلد بحسب الجريمة وبعده من التقوى، وربما يغرم في كسرقة بالدعوى واليمين من غير تبيين، وذلك حيث علم بمثل الدعوى واشتهر، وتكرر منه الضرر، لأن شهرته بما نسب إليه يصير المدعي كالمدعى عليه، ومن تكررت منه الإذاية واشتهر وتكرر منه الضرر، حبس حتى تظهر توبته أو يقبر.

وقسم بين القسمين، لا يعلم من أي الجزئين، فهذا لابد أيضًا من اعتقاله، وكشف الحاكم عن حاله، فإن تبين قسمه من القسمين حكم له بحكم من الحكمين، وإلا أرسله بعد سياسة وتهديد وكشف ووعيد، بحسبما يقتضيه النظر من التشديد.

كل ذلك بالتقوى لا بالهوى، وليس كل الناس سواء، فهذا حكم من ادعى عليه في كسرقة من غير بينة.

أما من ادعى عليه بكنفس فلابد فيه أولاً من حبس، ومن رَبْط بالحديد ومن كشف وتهديد، فإن ظهر أمر عمل عليه، وإلا نظر في قربه أو بعده مما نسب إليه، فإن قَرُبَ طوِّل في اعتقاله، وإن بَعُد عُجِّلَ بإرساله، وكل أحد له حكم بحسب حاله.

ولابد للأمير الأعظم أن يجلس كل يوم للناس بحيث يصله النساء والأطفال، ولا يكفيه ما نصبه من القضاة وغيرهم من العمال، لأن شكوى الرعية قد تكون منهم، وواجب عليه أن يزجرهم عنهم، وإلا فهو كسُلّم الدار لأربابها أو ماسك قرون البقرة لحلابها، وقد عزل الخلفاء ـ رضي الله تعالى عنهم ـ الصالحين بسبب الشكوى لما فيه من تأليف قلوب الرعية وقرب التقوى [ورأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية].

الباب السابع

في مجبي الأموال من وجوه الحلال

يجب على كل أمير أن لا يجبي الأموال إلا من حيث أباح الله له: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق:١].

الكرم روح السلطنة، وعدمه نفس الشيطنة، وأول الكرم وأساسه الإمساك عما في أيدي الناس، والكف عن أموال الناس بقاء المملكة وجمالها، والطمع في أموالهم خراب المملكة وزلزالها، فمن الأموال التي أحل الله للأمراء قبضها وصرفها: زكاة العين والحرث والماشية، وزكاة المعدن، وزكاة الفطر، وخمس الركاز والمعادن، وخمس الغنيمة وأموال الجزية والصلح، وما يؤخذ من تجار أهلها، وتركة لا وارث لها، ومال أفاء الله به من أموال أهل الحرب بالحرب.

فإذا كان الأمير عادلًا في صرف مال الله وجب على كل من بيده شيء فيه زكاة عين أو غيرها أن يدفعه له ليصرفه.

وزكاة العين موكولة لأمانة أربابها، فليس للأمير أن يهتك في طلبها أستارهم، ولا أن يفتش ديارهم، ولا أن يحلّف إلا أشرارهم من ادعى عدم كمال نصابه أو حوله صُدِّق في قوله، كمسافر زعم أن قبل قدومه أخذت منه، أو أن عليه دينًا يسقط الزكاة عنه.

ومن الأموال التي حرم الله ـ عز وجل ـ على الأمراء وغيرهم كل ظلم.

ومن الظلم ما يأخذه الأمير على ولاية القضاء أو غيره وهو حرام بإجماع المسلمين وذريعة لإفساد الدين، وفتح لأبواب الرشوة وقهر المساكين.

ومن الظلم أيضًا «الرشوة»، وهي حرام بإجماع المسلمين، فلا يجوز للسلطان

ولا غيره من القضاة والعمال أن يأخذ من أحد الخصمين ولا من كليهما شيئًا، لا قبل الحكم ولا بعده ولا أن يقبل الهدية من الرعية، فإنها باب كل بلية، فإذا دخلت الهدية على ذي سلطان خرج عن العدل والإحسان، وكل ما يشتريه سلطان أو غيره ممن يتقي شره، فهو قطعة من نار وصاحبه بالخيار.

ومن الظلم أيضًا العقوبة بالمال: كأخذ مال السارق والزاني، وهي حرام على كل حال، إلا إذا كانت جناية الجاني متعلقة بذلك المال، كلبن خلط بماء، فالصدقة به حلال. ومن الظلم أيضًا المكس وهو حرام بالإجماع ومن زعم حليته فقد جاء في الخبر (لا يدخل الجنة مكاس)[(١)].

المكاسون إخوان الكلاب يلعنهم حتى الغراب، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب[(٢)]، ومن الظلم أيضًا أخذ العشر أو غيره من أرباب الحقوق أو التركات، وهو حرام بإجماع المسلمين ونصوص الآيات، فطوبى لمن تاب إلى الله قبل الممات، وويل لمن غرته شهواته حتى مات، فإن وقع بالناس مصيبة تفتقر لمال ولا شيء في بيت المال، ولا يمكن دفع ضررها إلا من أموالهم وجبت الإعانة عليهم بحسب أحوالهم من غير أن يستمر ذلك عليهم، وذلك

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٩٣٧) بلفظ: «لا يدخل الجنة صاحب مكس» وكذا أخرجه الدارمي (رقم ١٦٦) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٣٣٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ٣١) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣١٧ رقم ٨٧٨، ٨٧٩) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٢٩٣ رقم ١٧٥٦) وأحمد (٤/ ١٤٣) وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥٠١ رقم ٣١١٣) وصححه ابن خزيمة والحاكم، وانظر: فيض القدير (٦/ ٤٤٩) وغريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٣٦٩) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٢١٩) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٤٩).

(٢) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» أخرجه البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (رقم ١٠٤٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٥٦-٢٥٧) وشرح النووي (٧/ ١٣٩-١٤٠).

كسقوط حصن بمكان خوف لا كمصيبة نزلت بسلطان من قائم عليه لينزع عنه ما بيده، فقد روي عن مالك ﷺ أنه سئل عن الوالي إذا قام عليه قائم يطلب إزالة ما بيده هل يجب علينا أن ندفع عنه قال: «أما مثل عمر بن عبد العزيز فنعم، وأما غيره فلا، ودعه وما يريد منه ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما»[1] [ورأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية].

الباب الثامن

في مصارف أموال الله

يجب على كل من بيده شيء من مال الله ألا يصرفه إلا في المصارف التي شرع الله، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٧] الكرم دوام الملك، والبخل والتبذير خرابه، فالكرم بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة لمستحقيه بقدر الطاقة، فمن خرج عن هذا الحد فقد تعدى وظلم ولا حظ له من الكرم وهو إما بخيل أو مبذر في أرزاق بيت المال، وكل منهما خراب للمملكة على كل حال، فإن كان البخل أو التبذير من جبلة سلطان فعليه أن يستنيب في عطايا مملكته من ثقات خاصته أهلاً، لأن كلا من البخل والتبذير لا يليق بالملوك ولا يقترن بالمملكة أصلاً.

فمال الله الذي جعله الله رزقًا لعباده قسمان: قسم لأصناف معينة. وقسم فيء يصرفه الإمام في المصالح.

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٦٤ رقم ١٦٨٧): «الظالم عدل الله في الأرض ينتقم به، ثم ينتقم منه»، رواه الطبراني في الأوسط عن جابر رفعه بلفظ: «إن الله يقول: انتقم ممن أبغض بمن أبغض، ثم أصيّر كلا إلى النار»، وساقه الديلمي بلا إسناد عن جابر رفعه بلفظ: «يقول الله عز وجل: انتقم ممن أبغض بمن أبغض، ثم أصيرهما كلا إلى النار» وفي المجالسة للدينوري عن ابن المنكدر أنه قال: «يقول الله عز وجل: انتقم ممن أبغض ثم أصيرهما كلا إلى النار». ثم قال: ونظير ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

فالأول: زكاة العين والحرث والماشية وزكاة المعدن وزكاة الفطر، فمصرف غير زكاة الفطر إلى الأصناف الثمانية التي في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠].

ويجب صرفها في الوجوب ناجزًا إن وجد به مستحق، وإلا نُقلت لأقرب مكان فيه مستحق، وإن كان في محل وجوبها مستحق وفي غيره أحوج منه صرف في محل وجوبها بعضها ونقل للأحوج بعضها بحسب الاجتهاد، وأجرة نقلها من الفيء لا منها، ولا يجب تعميم الأصناف كلها، فإن أُخرِجت لبعضها أجزأت، إلا أن تعطى للعامل فقط فلا تجزئ، ويقدم الأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، ويفضل بعضهم على بعض بقدر الحاجة.

ومصرف زكاة الفطر، الصنفان الأولان فقط، فتصرف في محل وجوبها، ولا يعطى حارسها منها، فإن تعذر صرفها فيه، ففي أقرب مكان ممكن كالزكاة.

والثاني هو «الفيء» كخمس الركاز والمعادن وخمس الغنيمة، وما يؤخذ من أهل الذمة وأهل الصلح، وما يؤخذ من تجارهما وخراج الأرضين وتركة لا وارث لها، وما أفاء الله به من أموال أهل الحرب بلا حرب، وحكم ذلك كله للإمام يصرفه بالتقوى لا بالهوى على الأهم فالأهم من مصالح المسلمين وهو واحد منهم.

فقد اجتمعت حكماء العرب والهند والروم وفارس على أن سخاء الملك على نفسه مع البخل على رعيته عيب وفساد لملكته.

وأحق الناس بالتوسعة عليه من مال الفيء حماة الدين من قضاة المسلمين والعلماء الأتقياء المرشدين، وأهل بلد كل مال أحق به من غيرهم، إلا أن تنزل بهم حاجة، فينقل إليهم منها بعد إعطاء أهلها ما يغنيهم على وجه النظر، فإن كان غير أهل بلد المال أحوج من أهل بلده نقل لهم الأكثر بحسب النظر.

وسيرة أئمة العدل في قسمة الفيء، أن يبدأ الإمام بسد ما لابد من سده من

حصن وسلاح وغيره. ثم بأرزاق العلماء والقضاة والمؤذنين وكل من بيده شيء من مصالح المسلمين كالمقاتلين، ثم بالفقراء الأحوج فالأحوج، حتى يعمهم بأجمعهم من ذكر وأنثى وصغير وكبير بحسب احتياجهم وأنواع حوائجهم: كالطعام أو الثوب أو بناء البيت، ثم يعمم ما بقي جميع الناس بالسوية غنيهم وأغناهم، عربيهم ومولاهم، إلا أن يرى الإمام حبسه للنوائب بنية صادقة ونظر صائب.

فإن اتسع المال أبقى منه في بيت المال فضلة، لما يحدث من النوائب وبناء المساجد وفك الأسرى، وقضاء الديون، ومؤونة تزويج العزاب، وإعانة الحجاج وغير ذلك من وجوه الاحتياج.

ويفضل آل النبي ﷺ في قسم الأموال وجميع الأحوال، فقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يخص أولاد فاطمة - رضي الله عنها - كل عام باثني عشر ألف دينار سوى ما يعطي غيرهم من ذوي القربى.

فهذه سنة صرف أموال الله عز وجل للمسلمين، لكن الظالمين اليوم في ضلال مبين، قطعوا العدل والإحسان ووصلوا الظلم والبهتان، فقلَّت أرزاقهم وساءت أخلاقهم وجاءهم الموج من كل مكان، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٩١-١٩٤]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلامًا على الأنبياء والمرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

مختارات

قال عمر بن الخطاب ﷺ يوصي أبا موسى الأشعري:

آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

اجعل لمن ادعى حقًّا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهي إليه، فإذا أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فالنفي أنفى للشك[1].

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله:

«أما بعد، فلتجفّ يداك من دماء المسلمين، وبطنك من أموالهم، ولسانك من أعراضهم، فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل...»[2].

❁❁❁

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١٣٥ رقم ٢٠٢٤٧) والدارقطني في سننه (٤/ ٢٠٧ رقم ١٦) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ٧٠-٧٢) وابن شبة في أخبار المدينة (رقم ١٣٢٥) وانظر: سبل السلام (٤/ ١١٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٠٧).

الرسالة الحادية عشرة:

رسالة الإمام
عبد العزيز الأول

ابن الإمام محمد بن سعود
- رحمه الله -

١١٣٣- ١٢١٨هـ

قدم لها

فضيلة الشيخ/ علي الحمد الصالحي

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله وكفى، وصلاته وسلامه على عباده الذين اصطفى.. وبعد:

فقد قدر لي أن أقرأ هذه الرسالة التي وجهها الإمام (عبد العزيز بن محمد بن سعود) إلى كافة العلماء فرأيت فيها ما راقني من التفنن في الدعوة إلى الله بالحكمة، وقرع الحجة بالحجة، غير أن القارئ يتعثر فيها ببعض الأخطاء، التي يعسر فهم المقصود منها في مواضع، ويظهر أن مرجعها كثرة الأغلاط في الخطية الأولى، ورغم محاولة من طبعها أولاً إصلاحها لم يأت على كل ما فيها من الخطأ؛ كما أن فيها تكرارًا لبعض الألفاظ في مواضع.

لهذا رأيت أن أتولى تصحيحها في هذه الطبعة الجديدة، وأصلح منها ما رأيت إصلاحه، ولعلي بهذا أدخل في وعد الله بقوله: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وإنا بهذا العمل لم آخذ برأيي وحدي، بل قد استعنت برأي الشيخ عبد اللطيف ابن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبد الرزاق عفيفي، وأخذت بتوجيهاتهما النيرة، جزاهما الله خيرًا. وأملي بالله أن يكون في هذا العمل رضاه، ثم رضا الهداة المخلصين من قادة الأمور وعلماء المسلمين.

ولا يفوتني أن أقول: إن هذه الرسالة يجب أن يوسع نشرها هي ونظائرها باللغة العربية وغيرها من اللغات الحية، قيامًا ببعض الواجب علينا نحو العالم الملهوف المستغيث الحائر لعدم من يدله على سبيل الله الموجب رضاه.

وحذرًا من الوعيد في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩]. وإن هذا لأوجب واجب على سكان هذه الجزيرة، التي أضاءت منها مشاعل الهداية على العالم كله.

أفيليق بهم أن يتقاعسوا عن هذه الزعامة ويتركوها لغيرهم، هذا لا يرضى به عاقل فكيف بمسلم، إذا فالواجب التشمير عن ساعد الجد في سبيل الله والدعوة إليه بكل وسيلة من وسائل النشر، وهذا من الأمور التي حث الله عليها، وأول ما ينطبق عليه أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وكيف لا نعمل لديننا والعالم الإسلامي ينظر إلينا، ويترسم خطانا في تصرفاته وجميع أحواله، فهل لنا عذر إذا تركنا إرشاده وهدايته وأفسحنا المجال لأئمة الضلال. حقًا ما أعظم الواجب. وأفدح المصيبة في إهماله

والمسؤولية ملقاة على عاتق أصحاب المقدرات السلطانية والمواهب الفكرية، والله سيسأل الجميع عن مدى تمسكهم بالدين عملاً ودعوة.

وبقدر ما تمكسنا به ودعونا إليه نحصل على الذكرى وشرف السمعة، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وبقدر ما أهملنا وتقاعسنا نضيع بأنفسنا، ويضيع ذكرنا وشرفنا، ونتعرض للمسؤولية أمام الله. والله المستعان، وعليه نتوكل، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

الناشر

علي الحمد الصالحي

نبذة وجيزة
عن حياة الإمام «عبد العزيز الأول»

هو الإمام عبد العزيز ابن الإمام محمد بن سعود رحمه الله ولد ١١٣٣هـ في بلد الدرعية وتوفي ١٢١٨هـ شهيدًا وهو يصلي في المسجد صلاة العصر قتله رافضي.

أخذ العلم عن الشيخ (محمد بن عبد الوهاب وغيره) وتحلى بالعلم والعمل والفضيلة، ولي الخلافة بعد أبيه، وكان خير خليفة لوالده وخير عضد لإمام الدعوة (محمد بن عبد الوهاب).

وكان داعيًا إلى الله بالقول والعمل والسلطان، وكان مثالاً في الخوف من الله والذكر له، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، وفضائله كثيرة، وتأريخه حافل بشتى المآثر، فمن أراد الوقوف عليها فليطلع على الدرر السنية (الجزء الثاني عشر)[(١)].

ومما ينبغي أن يعلم أن هذا الإمام هو ووالده هما المؤسسان (للدولة السعودية) وعلى الأصح (الدولة السلفية) فكان لشعوره بالمسئولية يهمه رحمه الله إرشاد الناس في داخل دولته وخارجها، فلذا كتب هذه الرسالة العامة: التي تنبض بروح الإخلاص وحب الخير للناس أجمعين.

وليس هذا الإحساس بغريب ممن تربى في إحضان إمامين كبيرين، أولهما والده (محمد بن سعود) الذي ربى جسمه وروحه، وثانيهما شيخ الإسلام (محمد بن عبد الوهاب) الذي ربى روحه.

شعر هذا الإمام أن حاجة الناس إلى التمسك بالعقيدة والدين أحوج من حاجتهم إلى الطعام والشراب، فغذاهم بالعقيدة والدعوة، حرصًا منه على القيام بالواجب من النصيحة الواجبة في رعاية الخلق، وعلمًا منه أنه مسئول عن صلاحهم

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٢/ ٣٠- ٣٦) ط الأولى بمؤسسة النور للطباعة والتجليد وفي الطبعة الجديدة (١٦/ ٣٥٦- ٣٦٦).

وفسادهم أمام الله، الذي مكّن له من رقابهم، وعلمًا منه أيضًا أن الولاية القصد منها المحافظة على رضاء الله ومنع الفوضى في حقه وفي حقوق عباده.

ولعلمه أيضًا أن الناس كلما تمسكوا بدينهم قويت رابطتهم بقائدهم وإمامهم، فإذا ضعفت منهم الديانة أصبحوا عبّاد مادة، وانحلت منهم الأخلاق والفضائل، وصاروا لا يلوون على شيء، إذ لا رابط لهم من دينهم.

ولعلمه أيضًا بأن (الملك بالدين يبقى ويقوى) وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢] فرحمه الله رحمة واسعة، إنه جواد كريم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

علي الحمد الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء المشرق والمغرب:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد: فإن الله عز وجل شأنه وتعالى سلطانه لم يخلق الخلق عبثًا ولا تركهم سدىً، وإنما خلقهم لعبادته، فأمرهم بطاعته، وحذرهم مخالفته، وأخبرهم تعالى أن الجزاء واقع لا محالة: إما في ناره بعدله أو في جنته بفضله ورحمته، قد أخبر عز وجل بذلك في كل كتاب أنزله، وعلى لسان كل رسول أرسله، كما نطقت بذلك الآيات القرآنية، وأخبرتنا به الأحاديث النبوية قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال[1]، مختصة بجلالته وعظمته، فهي الغاية المحبوبة له والمرضية عنده، وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل كل قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. وذلك أن الإله يطلق على كل معبود بحق أو بباطل، والإله الحق

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ١٤٩) والتوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ص ٩٠) والضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، لسليمان بن سحمان (ص ٤٤٧) والمطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن (ص ٦٢) وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص ٢٩).

هو الله، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥][١].

فصل

فنحن لما علمنا وفهمنا من كلام الله وسنة رسوله وكلام الأئمة الأعلام رضي الله عنهم: كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة السلف أن «لا إله إلا الله» معناها ترك كل معبود سوى الله، وإخلاص الإلهية له تعالى وحده، وأن توحيد العبادة هو إفراد العباد ربهم بأفعالهم، التي أمرهم بها في كتابه على لسان رسوله، فإذا جعلت لغيره تعالى صار ذلك تأليهًا للغير مع الله، وإن لم يعتقد الفاعل ذلك، فالمشرك مشرك شاء أم أبى، وليس التوحيد خاصًّا بإفراد الله بأفعاله تعالى وتقدس: كخلقه السموات والأرض والليل والنهار ورزق العباد وتدبيره أمورهم، لأن هذا قد أقر به المشركون ولم يدخلهم في الإسلام، ويسمى توحيد الربوبية[٢].

العبادة لغة وشرعًا: معناها لغة: الذل والخضوع، وشرعًا: ما أمر به من غير اطراد عرفي، ولا اقتضاء عقلي من أفعال العباد وأقوالهم المختصة بجلال الله وعظمته، كدعائه تعالى بما لا يقدر عليه إلا هو من جلب نفع أو دفع ضر أو رجائه فيه والتوكل عليه، وذبح النسك والنذر والإنابة والخضوع، كل ذلك مختص بجلال الله كالسجود والتسبيح والتهليل، فكل ذلك مما قدمناه هو معنى قول لا إله إلا الله، ولا يغني أحد التوحيدين عن الآخر، بل صحة أحدهما مرتبطة بوجود الآخر[٣].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٤٣) ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٥٢-٥٣) (٣/ ١٠٤-١٠٥) وتفسير الطبري (١/ ١٦٠-١٦٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٣١، ١٨٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٤٨) (٤/ ٤٦).

(٣) قال المناوي في التعاريف (ص ٤٩٨): العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لربه.
=

لما فهمنا ذلك وعملنا به قام علينا أهل الأهواء فخرّجونا[١] وبدَّعونا، وجعلوا اليهود والنصارى أخف شرًّا منا ومن أتباعنا، ولم ننازع المخالف في سائر المعاصي بأنواعها ولا المسائل الاجتهادية، ولم يجر الاختلاف بيننا وبينهم في ذلك، بل في العبادة بأنواعها والشرك بأنواعه.

فصل

فنحن نقول: ليس للخلق من دون الله ولي ولا نصير، وجميع الشفعاء سيدهم وأفضلهم محمد ﷺ فمن دونه، لا يشفعون لأحد إلا بإذنه ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الكهف: ١٠٢]، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٤]، ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٦] الآية، وإذا كان كذلك فحقيقة الشفاعة كلها لله، ولا تسأل في هذه الدار إلا منه سبحانه وتعالى[٢].

فجميع الأنبياء والأولياء لا يجعلون وسائل ولا وسائط بين الله وبين الخلق في جلب الخير أو دفع الشر، ولا يجعل لهم من حقه شيء، لأن حقه تعالى وتقدس غير

=

وقيل: تعظيم الله وامتثال أوامره. وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض. وقال ابن الأثير في النهاية (٥/ ٦٤): العبادة قسمان: نسك وورع، فالنسك ما أمرت به الشريعة. والورع ما نهت عنه. وانظر: لسان العرب (٩/ ٣٣٠) والتعريفات للجرجاني (ص ١٨٩) والحدود الأنيقة (ص ٧٧).

(١) أي نسبونا إلى الخوارج الفرقة الضالة التي تكفر المسلمين بمطلق المعاصي والذنوب ونحن بحمد الله براء من الخوارج ومن سواهم من أهل البدع.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٨٣) (١٣/ ١٦١) (١٦/ ١٢٨-١٢٩) وتفسير ابن كثير (١/ ٣١٠) (٢/ ١٥٠، ٤٠٧، ٥٠٩) (٣/ ٥٦-٥٩) وفتح الباري (١/ ٨١، ٤٣٨، ٥٢٢) (٢/ ٩٥-٩٦) وشرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٣٢-٣٥) (٣/ ٥٦-٥٩) (٥/ ٤).

جنس حقهم، فإن حقه عبادته بأنواعها بما شرع في كتابه، وعلى لسان رسوله، وحق أنبيائه عليهم السلام الإيمان بهم وبما جاءوا به وموالاتهم وتوقيرهم، واتباع النور الذي أنزل معهم؛ وتقديم محبتهم على النفس والمال والبنين والناس أجمعين[(١)].

وعلامة الصدق في ذلك اتباع هديهم والإيمان بما جاءوا به من عند ربهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[(٢)] [آل عمران: ٣١] والإيمان بمعجزاتهم؛ وأنهم بلغوا رسالات ربهم؛ وأدوا الأمانة؛ ونصحوا الأمة؛ وأن محمدًا ﷺ خاتمهم وأفضلهم، وإثبات شفاعتهم التي أثبتها الله في كتابه؛ وهي من بعد إذنه لمن رضي عنه من أهل التوحيد، وأما المقام المحمود الذي ذكره الله في كتابه، وعظَّم شأنه فهو لنبينا محمد ﷺ[(٣)].

وكذلك حق أوليائه محبتهم والترضي عنهم والإيمان بكراماتهم؛ لا دعائهم ليجلبوا لمن دعاهم خيرًا لا يقدر على جلبه إلا الله تعالى؛ أو ليدفعوا عنهم سوءًا لا يقدر على دفعه إلا هو عز وجل؛ فإن ذلك عبادة مختصة بجلاله تعالى وتقدس، هذا إذا تحققت الولاية أو رجيت لشخص معين كظهور اتباع سنة وعمل بتقوى في جميع أحواله، وإلا فقد صار الولي في هذا الزمان من أطال سبحته، ووسع كمه، وأسبل إزاره ومد يده للتقبيل؛ ولبس شكلاً مخصوصًا؛ وجمع الطبول والبيارق؛ وأكل أموال عباد الله ظلمًا وادعاء؛ ورغب عن سنة المصطفى وأحكام شرعه.

---

(١) فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» أخرجه البخاري (رقم ١٥) ومسلم (رقم ٤٤) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٩) وشرح النووي (٢/ ١٥-١٦) وعمدة القاري (١/ ١٤٣-١٤٥) (٢٣/ ١٧٣) والديباج على مسلم (١/ ٦٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٣٢-٢٣٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٥٩) والاستذكار (٨/ ٤٤٥) وجامع العلوم والحكم (١/ ٧٥، ٢١١، ٣٨٩) وفتح الباري (١/ ٦٢) (٧/ ٧٢) (١٠/ ٥٨٨) وعمدة القاري (١/ ١٥٣).

(٣) انظر: جلاء الأفهام، (ص١٧٨ – ١٧٩) وبدائع الفوائد (٤/ ٩١٢) وزاد المعاد (١/ ٨٧) ثلاثتهم لابن القيم رحمه الله تعالى.

فصـــل

فنحن إنما ندعو إلى العمل بالقرآن العظيم؛ والذكر الحكيم؛ الذي فيه الكفاية لمن اعتبر وتدبر؛ وبعين بصيرته نظر وفكر؛ فإنه حجة الله وعهده؛ ووعده ووعيده؛ فمن اتبعه عاملاً بما فيه جد جده؛ وبان سعده، ومن خالفه واتبع هواه فقد ضل ضلالاً مبينًا[(١)]. والتوحيد ليس هو محل الاجتهاد؛ فلا تقليد فيه ولا عناد.

ولا نكفر[(٢)] إلا من أنكر أمرنا هذا ونهينا؛ فلم يعمل بما أنزل الله من التوحيد،

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٢/ ٥١٦): ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» أخرجه البخاري (رقم ٤٩٨١) ومسلم (رقم ١٥٢) معناه: أن معجزة كل نبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

(٢) قال الذهبي رحمه الله في الكبائر (ص١٥٦): ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة وإن عمل الكبائر إلا إن استحلوها.

وأخرج اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٣٢١) بسنده عن أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؟ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار: حجازًا وعراقًا وشامًا ويمنًا، فكان مذهبهم: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص.. إلى أن قال: ولا نكفر أهل القبلة بذنوبهم، ونكل سرائرهم إلى الله عز وجل.

وقال أبو أحمد محمد بن إسحاق الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص٣١): وأن لا ننزل أحدًا من أهل القبلة جنة ولا ناراً، ولا نقطع الشهادة على أحد من أهل التوحيد وإن عمل بالكبائر، ولا نكفر أحدًا بذنب إلا ترك الصلاة وإن عمل بالكبائر.

وقال القاري: قال ابن حجر يعني: المكي: الصواب عند الأكثرين من علماء السلف والخلف أنا لا نكفر أهل البدع والأهواء، إلا إن أتوا بمكفر صريح لا استلزامي، لأن الأصح أن لازم المذهب ليس بلازم، ومن ثم لم يزل العلماء يعاملونهم معاملة المسلمين في نكاحهم وإنكاحهم والصلاة على موتاهم ودفنهم في مقابرهم. تحفة الأحوذي (٦/ ٣٠٢) وانظر: قواعد التحديث (ص ١٩٤) =

بل عمل بضده الذي هو الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر، كما سنذكر أنواعه؛ وجعله دينًا، وسماه وسيلة عنادًا وبغيًا؛ ووالى أهله وظاهرهم علينا؛ ولم يقم أركان الدين، وامتنع من قبول دعوتنا، وأمر بقتالنا وإرجاعنا عن دين الله الحق إلى ما هم عليه من الشرك، والعمل بسائر ما لا يرضي رب العباد ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وما حجتهم علينا إلا أن المدعو يكون شفيعًا ووسيلة، ونحن نقول: إن هؤلاء الداعين الهاتفين بذكر الأموات والأحياء الغائبين، يطلبون كشف شدتهم؛ وتفريج كربتهم، وإبراء مريضهم، ومعافاة سقيمهم؛ وتكثير رزقهم؛ وإيجاده من العدم؛ ونصرهم على عدوهم برًّا وبحرًا؛ ولم يكفهم الاقتصار على مسألة الشفاعة والوسيلة.

وحقيقة قولنا: إن الشفاعة وإن كانت حقًّا في الآخرة، فلها أنواع مذكورة في محلها، ويجب على كل مسلم الإيمان بشفاعته ﷺ، بل وغيره من الشفعاء، فهي ثابتة بالوصف لا بالشخص، ما عدا الشفاعة العظمى، فإنها لأهل الموقف عامة وليس منها ما يقصدون، فالوصف من مات لا يشرك بالله شيئًا، كما في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لكل نبي دعوة مستجابة، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا**»[(١)] وحديث أنس بن مالك الذي في الشفاعة بطوله[(٢)]، وحديث الذراع الذي رواه أبو هريرة المتفق عليه[(٣)]، وإذا كانت بالوصف فرجاؤها من الله، ودعاؤه أن يُشفِّع فيه نبيه هو المطلوب.

=

والإحكام لابن حزم (٣/ ٤٠٢) (٧/ ٤٨١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٤، ٦٣٠٥) ومسلم (رقم ١٩٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٦) ومسلم (رقم ١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٠) ومسلم (رقم ١٩٤).

فصـــل

فالمتعين على كل مسلم صرف همته وعزائم أمره إلى ربه تبارك وتعالى بالإقبال إليه، والاتكال عليه، والقيام بحق العبودية لله عز وجل، فإذا مات موحدًا شفَّع الله فيه نبيه، بخلاف من أهمل ذلك وتركه وارتكب ضده من الإقبال إلى غير الله بالتوكل عليه ورجائه فيما لا يمكن وجوده إلا من عند الله، والالتجاء إلى ذلك الغير مقبلاً على شفاعته، متوكلاً عليها، طالبًا لها من النبي ﷺ أو غيره، راغبًا إليه فيها، تاركًا ما هو المطلوب المتعين عليه، من إخلاص العبادة لله وطلب الشفاعة منه، فهذا بعينه فعل المشركين واعتقادهم، ولم تنشأ فتنة في الوجود إلا بهذا الاعتقاد.

ولهذا حسم جل وعلا مادة الشفاعة عن كل أحد بغير إذنه وحده، فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، لا ملك ولا نبي ولا غيرهما، لأن من شفع عند غيره بغير إذنه فهو شريك له في حصول ذلك المطلوب لتأثيره فيه بشفاعته، ولاسيما إن كانت من غير إذنه، فجعله يفعل ما طلب منه، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد بوجه من الوجوه، ولهذا قال عز من قائل: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٤]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤] فمن طلبها من غير الله فقد زعم أنها مشروعة بغير إذن الله ورضاه عن المشفوع له، والله يقول: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١] والعبرة في النصوص بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، مع ملاحظته وعدم الاقتصار عليه[1].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ١٠، ٣٠٢) وفتح الباري (١/ ١٨، ٢٦١، ٣١٥) (٥/ ٢٢٨) (٨/ ١٩١) (٩/ ٥٠١، ٥٧١) وشرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٢٢٩) وعمدة القاري (١/ ١٢، ٢٩)
=

فصـــل

وأما دعاء الله عز وجل للغير فقد مضت السنة أن الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه، ودعوة المسلمين بعضهم لبعض مستحبة، قد وردت بها الآثار الصحيحة في مسلم وغيره، فإن كانت للميت فهي آكد، وكان النبي ﷺ يقف على القبر بعد الدفن، فيقول: «**استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل**»(١) فالميت أحوج بعد الدفن إلى الدعاء، فإذا قام المسلمون على جنازته دعوا الله له، وشفعوا له بالصلاة عليه دون أن يدعوه، فبدّل أهل الشرك والبدع الدعاء له بدعائه والاستغاثة به والهتف باسمه عند حلول الشدة، وتركوا من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه. كما بدلوا الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحسانًا إلى الميت وتذكيرًا بالآخرة بسؤال الميت نفسه، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء، الذي هو مخ العبادة، وحضور القلب وخشوعه عندها أعظم منه في الصلاة والمساجد.

وإذا كان الدعاء مشروعًا لسائر المؤمنين، فالنبي ﷺ أحق الناس بأن يُصلى ويُسلم عليه، ويُدعى له بالوسيلة، كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ مرة واحدة صلَّى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة، لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة**»(٢).

=

وتحفة الأحوذي (٢/ ١٥٦، ٢٨٢) (٣/ ٣٦٠) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (١/ ١٠٠) (٢/ ٥١٤) وعون المعبود (٥/ ٥٢) (١٠/ ٢٢١) وفيض القدير (١/ ٧٦، ٤٠٦).

(١) أخرجه الضياء في المختارة (١/ ٥٢٢ رقم ٣٨٨) والحاكم (١/ ٥٢٦ رقم ١٣٧٢) وأبو داود (رقم ٣٢٢١) والبزار (٢/ ٩ رقم ٤٤٥) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٢١٢) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢١٢٣) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٨٥) وصححه الحاكم.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٥٨٩ رقم ١٦٩١) والطبراني في مسند الشاميين (رقم ٢٤٦) وعبد بن حميد (رقم ٣٥٤).

واستشفاع العبد في الدنيا إنما هو فعل السبب لحصول شفاعته له يوم القيامة طبق ما جاء به قولاً واعتقادًا. وإنما سئلت له الوسيلة مع تحققها تنويها بقدره، ورفعًا لذكره، ويعود ثواب ذلك إلينا، فهذا هو الدعاء المأثور، وهو فارق بين الدعاء الذي أحبه والذي نهى عنه. ولم يذكر أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم من أئمة السلف فيما نعلمه أن النبي ﷺ يسأل بعد الموت الاستغفار ولا غيره.

قال الإمام مالك رحمه الله فيما ذكره إسماعيل بن إسحاق في المبسوط عنه والقاضي عياض في الشفاء والمشارق وغيرهما من أصحاب مالك عنه: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو ولكن يسلم ويمضي. وقال أيضًا في المبسوط عن مالك: لا بأس لمن قدم من السفر أو خرج إليه أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ويصلي ويسلم عليه، ويدعو له ولأبي بكر وعمر، فقيل له: إن أناسًا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه، وهم يفعلون ذلك في اليوم مرَّة أو أكثر، يأتون عند القبر فيسلِّمون عليه ويدعون ساعة؟ فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه في بلدنا، لا من الصحابة ولا غيرهم، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك: يكررون المجيء إلى القبر بل كانوا يكرهونه إلا لمن جاء من سفر أو أراده(1) انتهى.

فصل

وتلاوة الآية في قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٤] الآية والاستغفار بحضرة القبر وإن قال به جماعة من متأخري الفقهاء، فهم لم يقولوا: يُدعَى صاحب القبر. بل المحفوظ عنهم أن الميت والغائب لا يسأل منه شيء لا استغفار ولا غيره، واستغفارهم الله لا الرسول ﷺ، وحياته في قبره برزخية لا تقتضي

(١) ذكر ابن عبد الهادي الحنبلي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٤٢٣) (٣/ ٤٤٢) قول الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

دعاءه، وأصحابه أعلم بها منا، ولم يأت أحدهم إلى القبر، فيسأله ويستغيث به[١].

وقد ثبت النهي عنه عليه الصلاة والسلام أن يتخذ قبره عيدًا، قال أبو يعلى الموصلي في مسنده عن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**»[٢] رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختارته.

وروى سعيد بن منصور في السنن عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني**»[٣] روى هذا الحديث أبو داود عن أبي هريرة، ورواه سعيد بن منصور في سننه من حديث أبي سعيد مولى المهري، ورواه أيضًا من حديث الحسن ابن الحسن بن علي ﷺ، وهذان الحديثان وإن كانا مرسلين، فهما يقويهما حديث أبي هريرة المرفوع.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى،**

---

(١) انظر: المغني (٣/ ٢٩٣) وشعب الإيمان (٣/ ٤٩٥ رقم ٤١٧٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٢١) والدر المنثور (١/ ٥٧٠).

(٢) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (٢/ ٤٩ رقم ٤٢٨) وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٥٠ رقم ٧٥٤٢) وأبو يعلى (١/ ٣٦١ رقم ٤٦٩) والبزار في مسنده (٢/ ١٤٧ رقم ٥٠٩) وإسماعيل بن إسحاق القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (رقم ٢٠). وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣): رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفري، ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا، وبقية رجاله ثقات.

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٠٤٢) وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠ رقم ٧٥٤٣) (٣/ ٣٠ رقم ١١٨١٨) وعبد الرزاق (٣/ ٥٧٧ رقم ٦٧٢٦) والطبراني في الأوسط (٨/ ٨٢ رقم ٨٠٣٠) والبيهقي في الشعب (٣/ ٤٩١ رقم ٤١٦٢) صححه النووي في رياض الصالحين (ص ٣١٦) ونقل تصحيحه ابن كثير في التفسير (٣/ ٥١٦).

ومسجدي هذا»[١] وهو حديث ثابت باتفاق أهل العلم، يُتلقى بالقبول عنهم، وهو إن كان معناه: لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلا إلى الثلاثة التي قد ذكرت، فالسفر إلى هذه المساجد الثلاثة إنما هو للصلاة فيها والدعاء والذكر، وقراءة القرآن والاعتكاف، الذي هو من الأعمال الصالحة.

وما سوى هذه المساجد لا يشرع السفر إليه باتفاق أهل العلم حتى مسجد قباء، يستحب قصده من المكان القريب كالمدينة، ولا يشرع شد الرحل إليه من بعد، ولذلك كان النبي ﷺ يأتي إليه كل سبت ماشيًا وراكبًا، وكان ابن عمر يفعله كما في الصحيح[٢]، ولأنه أسس على التقوى، فمسجده ﷺ أعظم في تأسيسه على التقوى، فقال: «مسجدي هذا» فكلا المسجدين أسس على التقوى، ولكن اختص مسجده بأنه أكمل في هذا الوصف من غيره، فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة، ويأتي مسجد قباء يوم السبت، وإذا كان السفر إلى مسجد غير الثلاثة ممنوعًا شرعًا مع أن قصده لأهل مصره يجب تارة ويستحب أخرى، وقد جاء في قصد المساجد من الفضل ما لا يحصى فالسفر إلى مجرد القبور أولى بالمنع.

ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة التي أحدثها الملوك وأشباههم.

تنبيه: الأحاديث التي رواها الدارقطني في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام كلها مكذوبة موضوعة باتفاق غالب أهل المعرفة، منهم ابن الصلاح، وابن الجوزي، وابن عبد البر، وأبو القاسم السهيلي، وشيخه ابن العربي المالكي، والشيخ تقي الدين، وغيرهم، ولم يجعلها في درجة الضعيف إلا القليل، وكذلك تفرد بها الدارقطني عن بقية أهل السنن، والأئمة كلهم يرون بخلافه، وأجل حديث روي في هذا حديث أبي بكر البزار، ومحمد بن عساكر، حكاه أهل المعرفة بمصطلح

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٨٩) ومسلم (رقم ١٣٩٧).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١١٩٣) ومسلم (رقم ١٣٩٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٦-٧٠) وشرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٠٦، ١٦٩، ١٧٠).

الحديث كالقشيري والشيخ تقي الدين وغيرهما.

وإنما رخص ﷺ في زيارة القبور مطلقاً بعد أن نهى عنها كما ثبت في الصحيح[(١)]، لكن بلا شد رحل وسفر إليها، للأحاديث الواردة في النهي عن ذلك، كما تقدم.

فصل

وإذا كان السفر المشروع لقصد مسجد النبي ﷺ للصلاة فيه دخلت زيارة القبر تبعًا لأنها غير مقصودة استقلالاً، وحينئذ فالزيارة مشروعة مجمع على استحبابها بشرط عدم فعل محذور عند القبر، كما تقدم عن مالك، وما حكاه الغزالي رحمه الله ومن وافقه من متأخري الفقهاء من السفر لأجل زيارة القبر، فمرادهم السفر المجرد عن فعل العبادة من الصلاة والدعاء عنده، بل يصلي ويسلم عليه، ويسأل له الوسيلة، ثم يسلم على أبي بكر، ثم عمر.

ولا يقصد الصلاة عند القبر للعنه ﷺ المتخذين قبور أنبيائهم مساجد[(٢)]. واللعنة في كلام الله وكلام رسوله لا تجامع إلا الحرمة والإثم لا مجرد الكراهة، ولقوله: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[(٣)] قال ابن حجر رحمه الله في (الإمداد الموسوم بشرح الإرشاد) ينوي الزائر المتقرب السفر إلى مسجده ﷺ وشد الرحل إليه، لتكون زيارة القبر تابعة[(٤)]، انتهى.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٤٨) وشرح النووي (١/ ٣٥)، (٧/ ٤٥-٤٦).

(٢) عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا. أخرجه البخاري (رقم ٤٣٥، ٤٣٦) ومسلم (رقم ٥٢٩، ٥٣١).

(٣) أخرجه مالك (١/ ١٧٢ رقم ٤١٤) والحميدي (٢/ ٤٤٥ رقم ١٠٢٥) وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠ رقم ٧٥٤٤) (٣/ ٣٠ رقم ١١٨١٩) وعبد الرزاق (١/ ٤٠٦ رقم ١٥٨٧) وانظر: الاستذكار ٢/ ٣٥٩ رقم ٣٨٥) والتمهيد (٥/ ٤١-٤٥) وتحفة الأحوذي (٢/ ٢٢٦) وتنوير الحوالك (١/ ١٤٣) وشرح الزرقاني (١/ ٤٩٦-٤٩٧) وفيض القدير (٤/ ٤٦٦).

(٤) انظر: فتح الباري (٣/ ٦٦) وفيض القدير (٦/ ١٤٠).

واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد هو الموقع لكثير من الأمم: إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك الأصغر، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين: كود وسواع ويغوث، وتماثيل طلاسم الكواكب، ونحو ذلك، يزعمون أنها تخاطبهم وتشفع لهم. والشرك بقبر النبي ﷺ أو الرجل المعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر.

ولهذا تجد أهل الشرك كثيرًا ما يتضرعون ويخشون عندها، ما لا يخشون الله في الصلاة، ويعبدون أصحابها بدعائهم ورجائهم، والاستغاثة بهم، وسؤال النصر على الأعداء، وتكثير الرزق، وإيجاده، والعافية، وقضاء الديون، ويبذلون لهم النذور لجلب ما أملوه، أو دفع ما خافوه، مع اتخاذهم أعيادًا، والطواف بقبورهم، وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على تربتها، وغير ذلك من أنواع العبادات، والطلبات التي كان عليها عباد الأوثان، يسألون أوثانهم ليشفعوا لهم عند مليكهم، فهؤلاء يسأل كل منهم حاجته وتفريج كربته، ويهتفون عند الشدائد باسمه، كما يهتف المضطر بالفرد الصمد، ويعتقدون أن زيارته موجبة للغفران، والنجاة من النيران، وأنها تجب ما قبلها من الآثام، بل قد وجد هذا الاعتقاد في الأشجار والنيران، يهتفون باسمها واسم من ينسبونها إليه من المعتقدين بما لا يقدر عليه إلا رب العالمين؛ وأكثر ما يكون ذلك عند الشدائد.

فصل

والله تعالى عز شأنه قد فسر هذا الدعاء في مواضع أخر بأنه عبادة محضة كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعرا: ٩٢، ٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والأنبياء والملائكة والصالحون كل معبود من هؤلاء داخل في عموم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]

كما هو سبب النزول، وقوله عز شأنه: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون: ٢] فدعاؤهم آلهتهم هو عبادتهم لها، ولأنهم كانوا إذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها، ومع هذا فهم يسألونها بعض حوائجهم بواسطة قربهم من الله، ويطلبونها بشفاعتهم لهم، فأمر الله العباد بإخلاص تلك العبادة له وحده، فلا يدعونهم ولا يسألونهم الشفاعة، فإن ذلك دين المشركين، قال الله تعالى فيهم: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

وإنما ذكر الله تعالى ذلك عنهم لأنهم يدعون الملائكة والأنبياء، ويصورون صورهم ليشفعوا لهم فيما دعوهم فيه، وذلك بطرق مختلفة.

ففرقة قالت: ليس لنا أهلية مباشرة دعاء الله ورجائه بلا واسطة تقربنا إليه، وتشفع لنا لعظمته. وفرقة قالت: الأنبياء والملائكة لهم وجاهة ومنزلة عند الله؛ فاتخذوا صورهم من أجل حبهم لهم، ليقربوهم إلى الله زلفى. وفرقة جعلتهم قبلة في دعائهم وعبادتهم. وفرقة اعتقدت أن لكل صورة مصورة على صورة الملائكة والأنبياء وكيلاً موكلاً بأمر الله، فمن أقبل على دعائه ورجائه وتبتل إليه، قضى ذلك الوكيل ما طلب منه بأمر الله، وإلا أصابته نكبة بأمره تعالى.

فالمشرك إنما يدعو غير الله بما لا يقدر عليه إلا هو تعالى، ويلتجئ إليه فيه، ويرجوه منه بما يحصل له في زعمه من النفع، وهو لا يكون إلا فيمن وجدت فيه خصلة من أربع.

إما أن يكون مالكًا لما يريد منه داعيه، فإن لم يكن مالكًا كان معينًا، فإن لم يكن كان ظهيرًا، فإن لم يكن كان شفيعًا، فنفى الله سبحانه وتعالى هذه المراتب الأربع عن غيره: الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة، التي لأجلها وقعت العداوة والمخاصمة بالآية المتقدمة، وبقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الإسراء: ١١١] الآية. وقوله: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقوله: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]. وقوله: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩]. وقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]. وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه: ١٠٨، ١٠٩].

وأثبت سبحانه ما لا نصيب فيه لمشرك البتة، وهي الشفاعة بإذنه لمن رضي عنه، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولهذا لما قالت الصحابة ﷺ: أربُّنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ أنزل الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1] [البقرة:

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢/ ١٥٨) والبرني في فوائد العراقيين (رقم ١٧) وابن حبان في الثقات (٨/ ٤٣٦ رقم ١٤٢٨٩) وذكره المقدسي في أطراف الغرائب والأفراد (٤/ ٣٥٤ رقم ٤٤٦٤) وقال: غريب. وذكره أيضًا المناوي في الفتح السماوي (رقم ١٢٢) والزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ١١٤) والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٦٩-٤٧٠) وابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٩) (٢/ ٢٨٢).

ويروى عن كعب قال: قال موسى ؑ: أي ربِّ أقريبٌ أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى أنا جليس من ذكرني...الخ.

أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ١٠٨ رقم ١٢٢٤) (٧/ ٧٣ رقم ٣٤٢٨٧) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٥١
=

١٨٦] الآية. وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزمر: ٤٣].

فصل

الموحد من اجتمع قلبه ولسانه على الله مخلصًا له تعالى الألوهية، المقتضية لعبادته في محبته وخوفه ورجائه ودعائه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وحصر الدعاء بما يقدر على جلبه أو دفعه إلا الله وحده، والموالاة في ذلك والمعاداة فيه، وأمثال هذا ناظرًا إلى حق الخالق والمخلوق من الأنبياء والأولياء، مميزًا بين الحقين، وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته ومحبته وموالاته وطاعته؛ وهذا من تحقيق لا إله إلا الله، لأن معنى الإله عند الأولين ما تأله القلوب بالمحبة والتعظيم والإجلال والخضوع ونحو ذلك، لا يكون إلا لله قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، هم ما سووهم به لا في الصفات ولا في الذات ولا في الأفعال، كما حكى الله عنهم في الآيات؛ والشاهد الله بأنه لا إله إلا هو؛ وقائلها نافيًا قلبه ولسانه لألوهية كل ما سواه من الخلق؛ ومثبتًا به الألوهية لمستحقها، وهو الله المعبود بالحق، فيكون معرضًا عن ألوهية جميع المخلوقات، لا يتألههم بما لا يقدر عليه إلا الله، مقبلاً على عبادة رب الأرض والسماوات، وذلك يتضمن اجتماع القلب في عبادته ومعاملته على الله، ومفارقته في ذلك كل ما سواه، فيكون مفرقًا في عمله وقصده وشهادته وإرادته ومعرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا بالله، ذاكراً له، عارفًا به، وأنه تعالى مباين لخلقه، منفرد عنهم بعبادته وأفعاله وصفاته؛ فيكون محبًا فيه،

=

رقم ٦٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٧، ٤٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦١/ ٥٠، ١١٥-١١٧) وذكره العجلوني في كشف الخفاء (رقم ٦١١) والمناوي في التعاريف (ص ٥٧٩).

مستعينًا به لا بغيره، متوكلاً عليه لا على غيره، وهذا المقام هو المعنى في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهي من خصائص الألوهية، التي يشهد له بها تعالى عباده المؤمنون، كما أن رحمته بعبيده؛ وهدايته إياهم وخلقه السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من الآيات من خصائص الربوبية، التي يشترك في معرفتها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، حتى إبليس عليه اللعنة معترف بها في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر: ٣٦] وقوله: ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩] وأمثال هذا الخطاب الذي به يعرف ربه وخالقه ومليكه، وأن ملكوت كل شيء في يده تعالى وتقدس، وإنما كفر بعناده وتكبره عن الحق، وطعنه فيه، وزعمه أنه فيما ادعاه وقاله محق، وكذلك المشركون الأولون يعرفون ربوبيته تعالى، وهم له بها يعترفون، قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١]. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فمن دعا غيره تعالى لم يكن مخلصًا، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [العنكبوت: ٨٨، ٨٩]. وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٤] والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا.

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي من حديث حصين بن المنذر أن رسول

الله ﷺ قال: «يا حصين كم تعبد؟» قال: ستة في الأرض وواحدًا في السماء، قال: «فمن ذا الذي تعد لرغبتك؟» قال: الذي في السماء، فقال له رسول الله ﷺ: «أسلم حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بهنَّ» فأسلم فقال: قل: «اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي»(١) فمجرد معرفتهم بربوبيته تعالى واعترافهم بها لم تنفعهم، ولم تدخلهم في الإسلام، لما جعلوا مع الله آلهة أخرى يدعونها ويرجونها، لتقربهم الله زلفى، وتشفع لهم عنده، فبذلك كانوا مشركين في عبادته ومعاملته، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم: (لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك)(٢).

والمقصود من الأدلة السابقة ومما يأتي أن يفهم القارئ أن الدعاء هو العبادة.

روى النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»(٣) - وفي رواية - «مخ العبادة»(٤) ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٨٣) والبزار (٩/ ٥٣ رقم ٣٥٨٠) وذكره الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (٢/ ٣٣١ رقم ٦٦٦) في ترجمة حصين، وقال: الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي معاوية، وقال: حسن غريب وقال الطبراني: تفرد به أبو معاوية. قلت: وهو شاهد جيد لحديث إسرائيل. وذكره في الإصابة (٢/ ٨٦-٨٧ رقم ١٧٣٧) ونقل النووي في تهذيب الأسماء (٢/ ٣٥١) تحسين الترمذي للحديث.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١٨٥) وانظر: شرح النووي (٨/ ٩٠) وفيض القدير (٣/ ٦٣) وسبل السلام (٢/ ١٩٩).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٦٧ رقم ١٨٠٢) وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٢ رقم ٨٩٠) وفي الموارد (رقم ٢٣٩٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠ رقم ١١٤٦٤) وأبو داود (رقم ١٤٧٩) وابن ماجه (رقم ٣٨٢٨) والترمذي (رقم ٢٩٦٩، ٣٢٤٧) وابن أبي شيبة (٦/ ٢١ رقم ٢٩١٦٧) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٤١) وابن المبارك في المسند (رقم ٧١) وأحمد (٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) والبزار (٨/ ٢٠٥ رقم ٣٢٤٣) وصححه الحاكم وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/ ٤٩): أخرجه أصحاب السنن بسند جيد.

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧١) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٣ رقم ٣١٩٦) وفي الدعاء (رقم ٨) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٢٢٤ رقم ٣٠٨٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ١١٣) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ٢١٩): قال ابن العربي: وبالمخ تكون القوة =

لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] الآية. رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أيضًا النسائي وابن ماجه والحاكم والإمام أحمد وابن أبي شيبة بهذا اللفظ، وهذه الصيغة تفيد قصر الدعاء على العبادة، فلا يخرج عنها، لأنها من الصفات اللازمة، التي ليس لها مفهوم يخالف الظاهر، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، إذ كل مدعو فهو إله قصد الداعي أن يكون مدعوه إلهًا أم لا، اتخذه المشركون الأولون أم لا، وليس ثم دعاء إله آخر له برهان.

فصل

يوضح ما قدمنا أن الله سبحانه وتعالى وصف دين المشركين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] الآية، فبين في هذه الآية أن قصدهم الشفاعة، وفي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**. قال: فقلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»** قال: قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني بحليلة جارك»**[1] فأنزل الله تصديقها: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية. فبين النبي ﷺ أن أعظم الذنب الشرك بالله الذي هو

=

للأعضاء، فكذا الدعاء مخ العبادة، به تتقوى عبادة العابدين، فإنه روح العبادة. وانظر: شرح الزرقاني (٢/ ١١٢) وعون المعبود (٤/ ٢٤٧) وفيض القدير (٣/ ٥٤٠) وسبل السلام (٤/ ٢١٨) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٠٥) ولسان العرب (٣/ ٥٣).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٩١) وشرح النووي (٢/ ٨٠) وعمدة القاري (١٨/ ٨٦) (٢٢/ ١٠٢) وعون المعبود (٦/ ٣٠١) وفيض القدير (٥/ ٦١).

جعل الأنداد واتخاذهم من خلقه ليقربوهم إليه، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»(١) فدين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

فصل

والشرك شركان: أكبر وله أنواع، ومنه الذي تقدم بيانه آنفًا؛ وشرك أصغر كالريا والسمعة، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(٢).

ومنه الحلف بغير الله لما روى ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه وابن حبان. وقال ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»(٤) أخرجه الشيخان، وروى الإمام أحمد وأبو داود من

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧١٥) وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٨٢ رقم ٣٣٨٨) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١٠) والتمهيد (٢١/ ٢٦٩-٢٧١) والديباج على مسلم (٤/ ٣١٨) وتنوير الحوالك (١/ ٢٥٥) وشرح الزرقاني (٤/ ٥٢٧) وفيض القدير (٢/ ٣٠١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥) وانظر: شرح النووي (١٨/ ١١٥) والديباج على مسلم (٦/ ٢٩٢) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٣٢١) وفيض القدير (٤/ ٤٨٣) ونيل الأوطار (٨/ ٣٥) وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٥) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٦).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٥ رقم ٤٥) (٤/ ٣٣٠ رقم ٧٨١٤) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٩٩-٢٠٠ رقم ٤٣٥٨) وفي الموارد (رقم ١١٧٧) وأبو داود (رقم ٣١٥١) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٩ رقم ١٩٦١٤) والترمذي (رقم ١٥٣٥) وحسنه، وصححه الحاكم. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥١٦) (١١/ ٥٣١-٥٣٤) وعمدة القاري (٢٣/ ١٧٥) وتحفة الأحوذي (٥/ ١١٣) وشرح الزرقاني (٣/ ٨٤-٨٨).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٦١٠٨) ومسلم (رقم ١٦٤٦) وانظر: شرح النووي (١١/ ١٠٤) وعمدة =

حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله شئت، قال: «أجعلتني لله ندًّا؟ قل: ما شاء الله وحده»(١).

والشرك الأصغر لا يخرج عن الملة، وتجب التوبة منه ومن كل ذنب.

فصل

فلم يبق إلا التوسل بالأعمال الصالحة كتوسل المؤمنين بإيمانهم في قوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ ...﴾ [آل عمران: ١٩٣] وكتوسل أصحاب الصخرة المنطبقة عليهم، وهم ثلاثة نفر، توسلوا إلى الله بالأعمال الصالحة(٢) ـ الحديث في صحيح البخاري ـ والله سبحانه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله؛ وكسؤال الله بأسمائه الحسنى قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وكالأدعية المأثورة في السنن «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، الحنان المنان، بديع السماوات والأرض، ياذا الجلال والإكرام»(٣) وأمثال ذلك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] والوسيلة القرب التي يتقرب بها إلى الله، وتقرب فاعلها منه؛ وهي الأعمال الصالحة؛ لما روى البخاري في

=

القاري (١٦/ ٢٩٢) (٢٢/ ١٦٠) والديباج على مسلم (١/ ١٢).

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥ رقم ١٠٨٢٥) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٣٤٢). والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٧ رقم ٥٦٠٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٤٠ رقم ٢٦٦٩١) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٤ رقم ١٣٠٠٥) وأحمد (١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٧٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٢١٥) ومسلم (رقم ٢٧٤٣) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢٣-٢٤) (١٦/ ٥١).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٣٥١ رقم ١٥١٤) (٥/ ٢٥٦ رقم ١٨٨٤) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٧٥٦) والبيهقي في السنن الصغرى (رقم ٤٨٣) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) (٤/ ٤٠٤ رقم ٧٧٠١) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧ رقم ٢٩٣٦١) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٣٨) وفي الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢١).

صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب؛ وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه؛ وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به؛ وبصره الذي يبصر به؛ ويده التي يبطش بها؛ ورجله التي يمشي بها؛ ولئن سألني لأعطينه؛ ولئن استعاذني لأعيذنه»(١) الحديث. ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا أهمه أمر فزع إلى الصلاة(٢)، لأنها أعظم القرب إلى الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]. وأما التوسل بمخلوق وجعله واسطة بين الله وبين عبده، فهو عين ما نهى الله عنه في الآيات، وأنزل بقبحه الكتب، وأرسل الرسل.

فصل

وأما الأقسام على الله بمخلوق فهو منهي عنه باتفاق العلماء، وهل هو منهي عنه نهي تنزيه أو تحريم؟ على قولين: (أصحها) أنه كراهة تحريم، واختاره العز بن عبد السلام في فتاويه، قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة رحمها الله: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك(٣)، أو بحق خلقك،وهو قول لأبي يوسف، قال أبو يوسف: بمعاقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا، وأكره بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٤٢-٣٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٣١٩) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ١٨٩) وابن حبان في الثقات (٨/ ١٦٨ رقم ١٢٧٩٢) وابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٢٦٠) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٨٨) وفتح الباري (١/ ٢١١) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٢٧٦) وشرح الزرقاني (٤/ ٣٤٢) وعون المعبود (٤/ ٤٤) وفيض القدير (١/ ٤٥، ٣٦٠).

(٣) ورد هذا اللفظ ضمن حديث ذكره المنذري في الترغيب (١/ ٢٧٤ رقم ١٠٢١) وذكره ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٢٣٩ رقم ٩٧٥): وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات. والزيلعي في نصب الراية (٤/ ٢٧٢) وقال: رواه ابن الجوزي في الموضوعات... وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع بلاشك، وإسناده مخبط. وقال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٢٧٠-٢٧١): وأصحاب أبي حنيفة يكرهون هذا اللفظ من الدعاء. وانظر: لسان العرب (٣/ ٢٩٧).

وبحق البيت والمشعر الحرام.

قال القدوري رحمه الله: المسألة بحق المخلوق لا تجوز لهذا، فلا يقول: أسألك بفلان وبملائكتك وأنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق انتهى.

وأما قوله: «وبحق السائلين عليك»(١) ففيه عطية العوفي وفيه ضعف، ومع صحته فمعناه بأعمالهم لأن حقه تعالى عليهم طاعته، وحقهم عليه الثواب والإجابة، وهو تعالى وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، وإذا والى العبد ربه وحده أقام الله له وليًا من الشفعاء، وهي الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين؛ فصاروا أولياءه في الله، بخلاف من اتخذ مخلوقًا من دون الله أو معه، فهذا نوع، وذاك نوع آخر، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة نوع، والشفاعة الحقة الثابتة التي تنال بالتوحيد نوع آخر.

فصل

ومما يستدل به علينا أن دعوة غير الله وسيلة قوله: «اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة؛ يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه في»(٢) رواه الترمذي والحاكم وابن ماجه عن عمران بن

---

(١) هذه اللفظة وردت في حديث أخرجه ابن ماجه (رقم ٧٧٨) وابن أبي شيبة (٦/ ٢٥ رقم ٢٩٢٠٢) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٦٤ رقم ٨٠٢٧) وفي الدعاء (رقم ٤٢١) وابن الجعد في مسنده (رقم ٢٠٣١) وأحمد (٣/ ٢١). وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٨٤).
وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ٢٤٨٦): ذكره رزين ولم أره في شيء من الأصول التي جمعها، إنما رواه ابن ماجه بإسناد فيه مقال، وحسّنه شيخنا الحافظ أبو الحسن رحمه الله. بينما قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٩٨): هذا إسناد مسلسل بالضعفاء: عطية هو العوفي، وفضيل بن مرزوق والفضل بن موفق كلهم ضعفاء، لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٤٥٨ رقم ١١٨٠) (١/ ٧٠٠ رقم ١٩٠٩) وابن خزيمة (٢/ ٢٢٥ رقم ١٢١٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٦٩ رقم ١٠٤٩٥) والترمذي (رقم ٣٥٧٨) وأحمد (٤/ ١٣٨) وعبد بن حميد (رقم ٣٧٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٦٩) وصححه الحاكم وأقره الذهبي وقال
=

حصين، فجوابه من وجوه:

الأول: أنه في غير محل النزاع؛ إذ ليس فيه سؤال النبي ﷺ نفسه؛ وإنما فيه سؤال الله وحده أن يشفع فيه نبيه، فأين هذا من عمارة القبور؛ وإلقاء الستور عليها وتسريجها، التي وردت النصوص الصريحة الصحيحة في تحريمه، كما في الصحيحين أنه ﷺ لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج[(١)] وارتكاب هذه الكبائر والبناء على القبور ونحوه جنى على الأمة أعظم البلاء من دعاء أصحابها ورجائهم؛ والالتجاء إليهم؛ والنذر لهم؛ وكتب الرقاع لهم؛ وخطابهم: يا سيدي يا مولاي افعل كذا وكذا؛ وبهذا عبدت اللات والعزى؛ والويل كل الويل عندهم لمن عاب وأنكر عليهم.

ومن قارن بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وزيارتها، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه الناس اليوم ـ رأى أحدهما مضادًّا للآخر، مناقضًا له، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا كان سبب قول الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] مجيء حبر من اليهود إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، وقوله: نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله أندادًا، فتقولون: ما شاء الله وشاء فلان، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد قال حقًّا»[(٢)] وأنزل الله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وممن

=

الترمذي: حسن صحيح غريب. وانظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٤) وفيض القدير (٢/ ١٣٤).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٠) وأبو داود (رقم ٣٢٣٦) والنسائي في الكبرى (١/ ٦٥٧ رقم ٢١٧٠) وفي الصغرى (رقم ٢٠٤٣) والحاكم (١/ ٥٣٠ رقم ١٣٨٤) وابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٥٢ رقم ٣١٧٩) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٨٨) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٧٨ رقم٦٩٩٨) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٤٨ رقم ١٢٧٢٥) وأحمد (١/ ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧) والطيالسي (رقم ٢٧٣٣) وانظر: الاستذكار (١/ ١٨٤) (٥/ ٢٣٦) والتمهيد (٣/ ٢٣٢) وعمدة القاري (٨/ ٦٩) وتحفة الأحوذي (٤/ ١٣٧) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١٠٧) وعون المعبود (٩/ ٤١).

(٢) عن قتيلة بنت صيفي الجهني قالت: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون! قال: «سبحان الله وما ذلكم؟!» قال: تقولون إذا حلفتم بالكعبة:. فأمهل النبي ﷺ ثم قال: «من حلف فليحلف برب الكعبة» ثم قال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تقولون: ما

=

أخرج الحديث جلال الدين السيوطي في الدر المنثور في تفسيره، هؤلاء يحب أحدهم معتقده أكثر من حب الله، وإن زعم أنه لا يحبه كحبه، فشواهد الحال تشهد عليه بذلك، فإنه يعظم القبر أعظم من بيت الله، ويحلف بالله كاذبًا ولا يحلف بمعتقده، فلا جامع بين ما استدلوا به علينا وبين ما نهيناهم عنه.

الثاني: أن الحديث دليل لنا أنه لا يدعى غير الله عز وجل، فإن قوله: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة» سؤال لله عز وجل لا للمخلوق، وتوجه إليه بدعاء نبيه بدليل ما يأتي بعد. وقوله: «يا محمد إني أتوجه إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه فيّ» معناه: أتوجه إليك بدعاء نبيك وشفاعته، التي معناها في هذه الدار الدعاء؛ ولهذا قال في تمام الحديث «اللهم شفعه فيّ» أي استجب دعاءه، وهذا متفق على جوازه؛ إذ الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه، وأما الغائب والميت فلا يستغاث به؛ ولا يطلب منه ما لا يقدر عليه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] إنما غايته طلب الدعاء من الحي؛ وقبول شفاعته عند الله عز وجل؛ وهو ﷺ انتقل من هذه الدار إلى دار القرار بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

ولهذا استسقى أصحابه بعمه العباس بن عبد المطلب؛ وطلبوا منه أن يدعو لهم في الاستسقاء عام القحط؛ أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه[1]؛ ولم يأتوا إلى

=

شاء الله وشاء فلان. فأمهل رسول الله ﷺ ثم قال: «من قال: ما شاء الله فليجعل بينهما: ثم شئت». أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٦ رقم ٥٦٠٢) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٦/ ١٨٠ رقم ٣٤٠٨). والطبراني في الكبير (٢٥/ ١٣ رقم ٥) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٥/ ٢٥٤ رقم ٢٤٠٧)، وأحمد (٦/ ٣٧١) والمزي في تهذيب الكمال (٣٥/ ٢٧٠-٢٧١) وابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٠٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٤٠) والدر المنثور (١/ ٨٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٩).

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون.
=

قبره ولا وقفوا عنده مع أن حياته ﷺ في قبره برزخية.

والدعاء عبادة مبناها على التوقيف والاتباع، ولو كان هذا من العبادات لسنه الرسول ﷺ، ولكان أصحابه أعلم بذلك وأتبع، ولهذا لم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين مع شدة احتياجهم، وكثرة مدلهماتهم، وهم أعلم بمعاني كتاب الله وسنة رسوله، وأحرص على اتباع ملته من غيرهم، بل كانوا ينهون عن الوقوف عند القبر للدعاء عنده، وهم من خير القرون التي نص عليها النبي ﷺ في قوله: «**خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» قال عمران: لا أدري أذكر اثنتين أو ثلاثًا بعد قرنه[1]، أخرجه البخاري في صحيحه.

الثالث: أنهم زعموا أنه لا دليل للوسيلة إلى الله بغير محمد ﷺ، وخرجوا عن محل النزاع إلى شيء آخر، وهو التوسل بغير رسول الله ﷺ، ولا دليل فيه أصلاً، لأنه لا يقاس مع الفارق، فلا يجوز لنا أن نقول: اللهم إنا نسألك ونتوجه إليك برسولك نوح، يا رسول الله يا نوح ولا لنا أن نقول: إنا نسألك ونتوجه إليك بخليلك إبراهيم، ولا بكليمك موسى، ولا بروحك عيسى، مع أن الجامع في نوح عليه السلام الرسالة، وفي إبراهيم الخلة مع الرسالة، وفي موسى عليه السلام الكلام مع الرسالة وفي عيسى روح الله وكلمته مع الرسالة، فليس لنا أن نقول هذا لأنه لم يرد، لا حاجة لنا إلى فعل شيء لم يرد.

والقياس إنما يباح عند من يقول به للحاجة في حكم لا يوجد فيه نص، فإذا وجد النص فلا يحل القياس عند من يقول به، ولا حاجة لنا إلى قول مخترع يجر إلى

= أخرجه البخاري (رقم ١٠١٠) وانظر: عمدة القاري (٧/ ٣٢-٣٣) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٢٧-٢٨) وفيض القدير (٤/ ٣٧٣).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٥١) ومسلم (رقم ٢٥٣٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٨٩) وشرح النووي (٣/ ١٣٨) وعمدة القاري (١٣/ ٢١٢) (٢٣/ ٢٠٧) وشرح السيوطي لسنن النسائي (٧/ ٣) وفيض القدير (٣/ ٤٩٧).

الشرك، خصوصًا مع ما ورد فيه، وأنه في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل(١)، وأن هذه الأمة افترقت على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فالناجية من اتبع ما كان عليه ﷺ وأصحابه(٢).

الرابع: إن الوسيلة ليست هي أن ينادي العبد غير الله، ويطلب حاجته التي لا يقدر على وجودها إلا الرب تبارك وتعالى ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشورًا؛ وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه.

فصـــل

ومما استدل به في جواز دعوة غير الله في المهمات قوله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن مسعود: «**إذا انفلتت دابة أحدكم في أرض فلاة فليناد يا عباد الله أحبسوها**»(٣).

---

(١) فعن أبي بكر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**» أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٧١٦) وهناد في الزهد (٢/ ٤٣٤ رقم ٨٤٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٢٨٦) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٤٢-١٥٠) والضياء في المختارة (١/ ١٤٩-١٥٠ رقم ٦٢) وأبو يعلى (١/ ٦٠ رقم ٥٨، ٦٠، ٦١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٧٣١).

(٢) فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**» وفي رواية: قالوا: وما تلك الفرقة؟ قال: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**» وفي رواية: فقلنا: انعتهم لنا. قال: «**السواد الأعظم**» أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (٧/ ٩٠ رقم ٢٥٠٠) وابن ماجه (رقم ٣٩٩٢) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٧ رقم ٤٨٨٦) وفي الصغير (٢/ ٢٩ رقم ٧٢٤) وفي الكبير (٨/ ٢٧٣ رقم ٨٠٥١) (١٨/ ٧٠ رقم ١٢٩) وفي مسند الشاميين (٢/ ١٠٠ رقم ٩٨٨) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٤٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٤٩، ١٥١) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧ رقم ٢) (١/ ٣٢ رقم ٦٣، ٦٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٧ رقم ١٠٥١٨) وفيه: «**يا عباد الله احبسوا عليَّ. يا عباد الله احبسوا عليَّ، فإن في الأرض حاضرًا، سيحبسه عليكم**». وأخرجه أيضًا أبو يعلى (٩/ ١٧٧ رقم ٥٢٦٩) والديلمي في مسند الفردوس (رقم ١٣١١) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٠٨) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٢): رواه أبو يعلى والطبراني ... وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٤٠٤) وانظر: فيض القدير (١/ ٣٠٧).

وفي رواية: «إذا أعيت فليناد يا عباد الله أعينوا»[١] وهذا من جملة الجهل والضلال؛ وإخراج المعاني عن مقاصدها من وجوه:

الأول: أن هذه ليست بوسيلة أصلاً، إذ معنى الوسيلة ما يتقرب به من الأعمال إلى الله عز وجل، وهذا ليس بقربة.

الثاني: أن الحديثين غير صحيحين، أما الأول فرواه الطبراني في الكبير بسند منقطع عن عتبة ﷺ؛ وحديث انفلات الدابة عزاه النووي رحمه الله لابن السني؛ وفي إسناده معروف بن حسان. قال ابن عدي: هو منكر الحديث[٢] ولا دليل في هذين الحديثين مع ضعفهما ولا في الحديث المتقدم قبلهما على دعاء أصحاب القبور كعبد القادر الجيلاني من قطر شاسع؛ بل ولا من عند قبره، ولا ينادى غيره لا الأنبياء؛ ولا الأولياء، إنما غايته أن الله عز وجل جعل من عباده من لا يعلمهم إلا هو سبحانه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] وإذا نادى شخصًا باسمه معينًا فقد كذب على رسول الله ﷺ، ونادى من لا يؤمر بندائه؛ وليس معنى الحديث في كل حركة وسكون وقيام وقعود، وإنما أبيح له ذلك إن أراد عونًا على حمل متاعه أو انفلتت دابته؛ هذا مع تقدير صحة الحديث.

الثالث: إن الله تعالى قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فبعد أن أكمله بفضله ورحمته؛ لا يحل أن

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٢): رواه الطبراني ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم، إلا أن يزيد بن علي لم يدرك عتبة. وانظر: فيض القدير (١/ ٣٠٧).

(٢) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي (٦/ ٣٢٥ر قم ١٨٠٥) وقال العيني في عمدة القاري (٩/ ٨٨): قال الدارقطني: في إسناده معروف بن حسان منكر الحديث. وقال المناوي في فيض القدير (١/ ٣٠٧): ومعروف. قالوا: منكر الحديث. وقال في (٦/ ٢٩١): فقال عقبة: معروف بن حسان. أي أحد رجاله ضعيف. وانظر: المغني في الضعفاء ٢/ ٦٦٨ رقم ٦٣٤٠) ولسان الميزان (٦/ ٦١ رقم ٢٣١) وميزان الاعتدال (٦/ ٤٦٧ رقم ٨٦٦٠).

نخترع فيه ما ليس منه؛ ونقيس ما لا يقاس عليه.

الرابع: إن الحديث الصحيح إذا شذ عن قواعد الشرع لا يعمل به؛ فإنهم قالوا: إن الحديث الصحيح الذي يعمل به إذا رواه العدل الضابط عن مثله من غير شذوذ ولا علة؛ فكيف العمل بالحديث المتكلم فيه بما يدل عليه دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام؟ فهذا هو البهتان.

الخامس: أنهم زعموا إجابتهم بذكر من يعتقدونه، ونسبوا الأفعال إليهم، وكل أحد يذكر ما وقع له من الاستغاثة بفلان، وإنه أنجده؛ وكشف شدته؛ فإذا قال أحد سبحان الذي بيده ملكوت كل شيء؛ سبحانك هذا بهتان عظيم قاموا عليه وخرجوه وبدعوه وقالوا: معلوم أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإذا قال: نعم، ولكن ليس لأحد منهم ملكوت خردلة، والله يقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٣،١٤] يكون جواب من يدعي العلم والإنصاف: إن هذه الآية نزلت في عبادة الأصنام، فيقال له العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن المكابرة أن يعمل شخص كعمل المشركين أو أشد، ثم يقول: أنا لست بمشرك. فلم يبق لهذا الزاعم ما يتشبث به إلا قوله بأن الأمة مطبقة على هذا، والأمة لا تجتمع على ضلالة فيلزم تضليل الأمة وتسفيه الآباء، وجوابه: أن هذا كذب على الأمة، وهذه كتب الحديث والتفسير كلها تنص على أن لا يجوز أن يدعى غير الله عز وجل بما لا يقدر عليه إلا هو تعالى ولا يباح، بل الآيات البينات والأحاديث وأقوال العلماء ترشد أن هذا شرك محقق، والله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]. ويقول: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] والأحاديث ونصوص العلماء لا تخالف الكتاب.

السادس: أنهم اختلفوا في التوسل إليه بشيء من مخلوقاته تعالى وتقدس: هل هو

مكروه أو حرام؟ والأشهر الحرمة كما قال به أبو محمد العز بن عبد السلام في فتاويه: إنه لا يجوز التوسل إليه بشيء من مخلوقاته لا الأنبياء ولا غيرهم. وتوقف في حق نبينا محمد ﷺ هل فيه الحرمة أو الكراهة[1]؛ وتقدم قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله.

السابع: أنهم يشترون أولادهم ممن يعتقدون فيه السر والبركة، ويُعبِّدونهم لهم، ويبنون لهم الزوايا، ويعمرونها بآلات الطرب واللهو ومطارق الحديد، يضربون بها أنفسهم، ومن أولئك جماعة يعرفون بالعلوانية، والقادرية والرفاعية وأشباههم، وهذه أسماء ما أنزل الله بها من سلطان؛ والله قد سمانا المسلمين، قال الله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا ﴾ [الحج: ٧٨] فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإذا مرض أحد منهم نذر أهله لمن يعتقدون فيه النذور؛ ودأبوا في الاستغاثة به أن يشفي سقمه، ويكشف شدته؛ وهذا الأمر سرى في العلماء والجهال؛ إذ قد غلبت عليهم العوائد، وسلبت عقولهم عن تفهم الكتاب والسنة، وكلام الأئمة.

فصـــل

فهذا يتبين أن الشيطان اللعين خدع أهل البدعة والجهل، فنصبوا قبورًا يعظمونها ويعبدونها من دون الله؛ ثم أوحى إلى أوليائه أن من نهى عن عبادتهم واتخاذها أعياداً فقد انتقصها وغمصها حقها؛ فيسعى الجاهلون في قتالهم وعقوبتهم، وما ذنبهم عند هؤلاء إلا أنهم أمروهم بإخلاص التوحيد؛ ونهوهم عن الشرك بأنواعه، وقالوا بتبطيله، فعند ذلك غضب أولئك المشركون، واشمأزت

(١) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٥): وقال في رسالته: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد (أي الشوكاني): وأما التوسل إلى الله سبحانه بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربه، فقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي، إن صح الحديث فيه. ولعله يشير إلى الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه والترمذي وصححه وابن ماجه وغيرهم أن أعمى أتى النبي، فذكر الحديث.

قلوبهم، وقالوا: قد انتقصوا أهل المقامات والرتب؛ وزعموا أنا لا نحترم الصالحين ولا نحبهم، حتى سرى ذلك في نفوس الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، وبسبب ذلك عادونا، ورمونا بالعظائم والجرائم، ونسبوا كل قبيح إلينا، ونفّروا الناس عنا وعما ندعوا إليه، ووالوا أهل الشرك وظاهروهم علينا، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله وكتابه وبما جاء به، والعاملون به والداعون إليه، لا المتشبعون بما لم يعطوا اللابسون ثياب الزور، الذين يصدون الناس عن دين نبيهم وهديه وسنته، ويبغونها عوجًا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وتعظيم الأنبياء والأولياء واحترامهم ومحبتهم متابعتهم فيما يحبونه ويأمرون به، وتجنب ما يكرهونه وما ينهون عنه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٣١] فأهل التوحيد أين كانوا أولى بهم وبمحبتهم، ونصرة طريقتهم وسنتهم وهديهم ومنهاجهم، وأولى بالحق قولاً وعملاً من هؤلاء المبتدعة، الذين هم أعصى الناس لهم، وأبعدهم عن هديهم ومتابعتهم، وصنيعهم معهم: كصنيع النصارى مع المسيح، وكاليهود مع موسى، والرافضة مع علي.

ومن أصغى إلى كلام الله وتدبره وتفهمه أغناه عن اتباع الشياطين وشركهم، الذي يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وينبت النفاق في القلب.

وكذلك من أصغى إلى حديث الرسول، واجتهد في اقتباس الهدى والعلم منها أغناه عن البدع والشرك والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات، التي هي وساوس الشيطان.

وكذلك من عمّر قلبه بمحبة الله وخشيته والتوكل عليه أغناه أيضًا عن عشق الصور، وإذا خلا عن ذلك صار عبد هواه، أي شيء استحسنه ملكه واستعبده.

فالمعرض عن التوحيد عابد للشيطان مشرك شاء أم أبى، كما في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي واسمه حيان بن حصين قال: قال لي علي بن أبي طالب ﷺ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبرًا

مشرفًا إلا سويته[١].

وفي الصحيح أيضًا عن ثمامة بن شفي الهمداني قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[٢]، وقد أمر به وفعله الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون.

قال الشافعي في «الأم» ورأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنون على القبور، ويؤيد الهدم قوله: «ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[٣] وحديث جابر الذي في صحيح مسلم نهى ﷺ عن النباء على القبور[٤]، ولأنها أسست على معصية الرسول، لنهيه عن البناء عليها وأمره بتسويتها، فبناء أسس على معصية الرسول ومخالفته بناء غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعًا، وأولى من هدم مسجد الضرار المأمور بهدمه شرعًا إذ إزالة المفسدة أعظم حماية للتوحيد، والله المستعان، وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلى الله على أفضل الخلق أجمعين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

فرغ من طبعته ١/ ٤/ ١٣٨٢هـ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٩) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٥٧) وشرح النووي (٧/ ٣٦) وعمدة القاري (٨/ ٢٢٥) وتحفة الأحوذي (٤/ ١٢٩-١٣٠).

(٣) انظر: شرح النووي (٧/ ٢٧-٢٨) وتحفة الأحوذي (٤/ ١٣٣) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١١٢) ونيل الأوطار (٤/ ١٣٣).

(٤) فعن جابر ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه، أخرجه مسلم (رقم ٩٧٠).

الرسالة الثانية عشرة:

رسالة الإمام/ عبد العزيز الثاني
أو
حقيقة دعوة الشيخ/ محمد بن عبد الوهاب

بقلم حفيده

العلامة الشيخ / محمد بن عبد اللطيف

رحمهم الله آمين

قدم لها

فضيلة الشيخ: علي الحمد الصالحي

رحمه الله

اقرأ في هذه الرسالة البحوث الآتية

مقدمة موجزة عن دوافع نشر هذه الرسالة.

ذكر المؤلف تاريخ وأسباب تأليفها في عهد الإمام «عبد العزيز الثاني».

ذكر العبادة وبيان أصولها وأنواعها وما يفسدها.

ذكر أساليب الشيطان في إغواء بني آدم وأدلة ذلك.

ذكر أن النبي ﷺ حمى جناب التوحيد وسد ذرائع الشرك.

تشهير المؤلف بمن نسب إلى الوهابية خلاف ما ذكره.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

(طبق الأولى إلا بتغيير قليل)

نشرت هذه المؤسسة في بدء مضمار حياتها رسالة الإمام عبد العزيز ابن الإمام محمد بن سعود المؤسس الأول لهذه الدولة الموجهة إلى عموم المسلمين المحتوية على الدعوة إلى التوحيد.

قصد الإمام بهذه الرسالة وأمثالها التأسي بالرسول ﷺ، في بعثه الكتب إلى الممالك المجاورة له، حرصًا منه على هداية الخلق.

ومعروف ما قام به هذا الإمام وأولاده وأحفاده من نصرة دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وأولاده وأحفاده، وشد أزرهم في الدعوة إلى الدين، حتى حصل لهذه الدولة العزة والتمكين. ورغم ما حصل لهذه الدولة بعد ذلك من فتور نتيجة تكالب الأعداء والمستعمرين، ابتلاءً وتمحيصًا من الله لعباده المؤمنين، وعقوبة لما حصل من التهاون في حق الله.

فقد شاء الله أن تعود من جديد في ثوب العزة والفخار، حاملة لواء الجهاد، والدعوة إلى الله، في ظل الملك «عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل» المؤسس الثاني لهذه الدولة، فسار على منهاج سابقه، وكان رحمه الله قدوة في التمسك بكتاب الله وشرعه، أصله وفرعه، مبالغًا في إعزاز كلمة الله، وفي إعزاز حملة الدين وأنصاره من أهل البلاد والوافدين، مثالاً في كل أحواله العملية والسياسية، صارمًا على من تعدَّى الحدود.

وتاريخه حافل بشتى المآثر، وخاصة فيما نشر من الكتب العلمية والأدبية، المنتشرة في جميع أقطار العالم، وهو بهذا العمل المجيد شاعر بعظيم المسؤولية عليه، لأن له الزعامة والقوامة في البقاع التي شعت منها الأنوار على العالم، فعزَّ عليه أن تنطفئ في عهده، فبذل ما تتعب الأقلام في حصره من الأموال الطائلة في طبع

الكتب الكثيرة، قيامًا منه بواجب رعاية الأمة، وحرصًا منه على تمسيك الناس بدينهم، الذي هم أحوج إليه من الطعام والشراب، وحفاظًا منه على بقاء ملكه بأقوى سبب يربط الناس بإمامهم. وذلك لعلمه أن (الملك بالدين يبقى ويقوى).

وصدق الله العظيم: ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه:١٣٢].

مات عبد العزيز جسمًا، وبقي حيًّا في الاسم والمعنى، ذكره في كل محفل، وفي كل لحظة له عمل مسجل.

ومن جملة أعماله أنه أرسل الشيخ (محمد بن عبد اللطيف) إلى اليمن وما جاورها من القرى لتعليم الناس دينهم، فشاهد الشيخ في تلك الرحلة ما دعاه إلى تأليف هذه الرسالة النافعة، التي دحض فيها افتراءات أعداء دعوة جده الإمام المجدد الشيخ: «محمد بن عبد الوهاب»، وبيَّن فيها حقيقة دعوته، وأنها مستقاة من كتاب الله وسنة رسوله، اللذين هما أعذب مورد، واللذين هما سبيل الله الموصل إلى كرامته، واللذين يكفلان لمن سار عليهما الحياة السعيدة في الدنيا، والجزاء الوافر في الأخرى.

فأنت أيها القارئ تعرف مما قدمته أن الله قيض لهذه الدولة هذين البيتين «الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأبناءه وأحفاده» والإمام: «محمد بن سعود وأولاده وأحفاده» وكانا متآزرين في الدفاع عن العقيدة وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي المحافظة على حدود الله، فبقيت دولة كريمة مرهوبة الجناب رافعة الرأس، ولم يجر عليها ولن يجر عليها أي حدث أو هبوط إلا جزاء التفريط والإخلال. وحادث الدرعية شاهد عيان، وفيه العظة والذكرى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٢٣]، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

علي الحمد الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخليله الصادق الأمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيراً..

من محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ إلى من يراه من أهل القرى ورؤساء القبائل من أهل اليمن وعسير وتهامة وشهران، وبني شهر وغامد وزهران، وكافة أهل الحجاز وغيرهم، هدانا الله وإياهم لدين الإسلام، وجعلنا الله وإياهم من أتباع سيد الأنام، آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد: فإنه لما كان في هذه السنة (وهي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف) من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية، بعثنا الإمام المقدم، والرئيس المفضَّل المفخَّم، صاحب السعادة والسيادة «**عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود**» أعلى الله سعوده، وأدام للمسلمين وجوده، لأجل تعليمكم ما أوجبه الله عليكم، وتعبدكم به من دين الإسلام، الذي معرفته والعمل به، والبصيرة فيه، سبب لدخول الجنة، والجهل به، والإعراض عنه، وعدم قبوله، والانقياد له: سبب لدخول النار، فلما قدمنا بعض جهاتكم رأينا أهلها قد جال بهم الشيطان والهوى، وتمادوا في الطغيان، والإعراض عن النور والهدى وفرقوا أمرهم وكانوا شيعًا، وغلب عليهم الجهل وإيثار الشهوات، واستجابوا لداعي الشبهات، فوقعوا في وادي جهل خطير، فهم على شفا حفرة من السعير، وغلب على أكثرهم الاعتقاد في أهل القبور والأحجار والغيران، وتعظيم أهل الصلاح من المقبورين؟ وهذا هو دين أهل الجاهلية الأولين، الذي بعث فيهم سيد المرسلين وإمام المتقين.

فلما رأينا ذلك وجب علينا الدعوة إلى الله بالحجج والبراهين، وهي طريقة النبي الأمين، وسبيل من اتبعه من الصحابة والتابعين، ومن سلك مناهجهم إلى يوم الدين. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨]، وكتبنا من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والعقائد السلفية، إلى القبائل والبلدان، بعد ما سفت عليها السوافي، وقل من يعرفها من أهل القرى والبوادي، نصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين، وصار بعض الناس يسمع بنا معشر الوهابية، ولا يعرف حقيقة ما نحن عليه، وينسب إلينا، ويضيف إلى ديننا ما لا ندعو إليه، فبعضهم يتقوّل علينا، وينسب إلينا السفاسف والأباطيل، تنفيرًا للناس عن قبول هذا الدين، وصدًّا لهم عن توحيد رب العالمين، فأوجب لنا تسويد هذه العجالة، بيانًا لما نعتقده، وندين الله به، وندعوا إليه، ونجاهد الناس عليه.

فاعلموا أن حقيقة ما نحن عليه، ونجاهد على التزامه والعمل به دين الإسلام، والتزام أركانه وأحكامه الذي أصله وأساسه: «**شهادة أن لا إله إلا الله**» والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. وهذه العبادة مبنية على أصلين: كمال الحب لله مع كمال الخضوع والذلة له[(١)]، والعبادة لها أنواع كثيرة:

فمن أنواعها الدعاء، وهو من أجل أنواع العبادة، وسماه الله عبادة في عدة مواضع من كتابه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠]، ونظائر هذا في القرآن كثيرة. وفي الحديث «**الدعاء مخ العبادة**»[(٢)].

---

(١) انظر: دقائق التفسير (٢/ ٢٠١ رقم ٣٦٥) والجواب الكافي (ص ١٥٠، ١٦٤) ودرء التعارض (٦/ ٦٢) ومجموع الفتاوى (٨/ ١٤١) ومنهاج السنة النبوية (٢/ ٤٤٨) وطريق الهجرتين (ص ٥١٠) ومدارج السالكين (٣/ ٤٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧١) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٣ رقم ٣١٩٦) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٢٢٤ رقم ٣٠٨٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ١٣٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٨).
قال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٣٠٥): مخ الشيء: خالصه، وإنما كان مخها لأمرين: أحدهما: أنه امتثال أمر الله تعالى، حيث قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فهو محض العبادة وخالصها، الثاني: أنه إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع أمله عما سواه ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة، ولأن الغرض من العبادة الثواب عليها، وهو المطلوب بالدعاء. وانظر: سبل السلام للصنعاني (٤/ ٢١٨) وفيض
=

فنقول: لا يدعى إلا الله، ولا يستغاث في الشدائد وجلب الفوائد إلا به، ولا يذبح القربان إلا لله ولا ينذر إلا له، ولا يخاف خوف السر إلا منه وحده، ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعان ولا يستعاذ إلا به، وليس لأحد من الخلق شيء من ذلك، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا الأولياء ولا الصالحين ولا غيرهم، فلله حق لا يكون لغيره، وحقه تعالى إفراده بجميع أنواع العبادة، فلا تأله القلوب محبة وإجلالًا وتعظيمًا وخوفًا ورجاء إلا الله، فهذه الحكمة الشرعية الدينية، والأمر المقصود في إيجاد البرية.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦]، ومعنى يعبدون: يوحدون[1]، والعبادة هي التوحيد، لأن الخصومة بين الرسل وأممهم فيه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن:١٨].

فمن دعا غير الله من ميت أو غائب أو استغاث به فهو مشرك كافر[2]، وإن لم يقصد إلا مجرد التقرب إلى الله وطلب الشفاعة عنده، وقد دخل كثير من هذه الأمة في الشرك بالله والتعلق على سواه، ويسمون ذلك توسلاً وتشفعًا، وتغيير الأسماء لا اعتبار به، ولا تزول حقيقة الشيء ولا حكمه بزوال اسمه وانتقاله في عرف الناس باسم آخر. ولما علم الشيطان أن النفوس تنفر من تسمية ما يفعله المشركون تألهًا أخرجه في قالب آخر تقبله النفوس، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها**»[3]، وكذلك من زنى وسمّى ما يفعله نكاحًا،

= القدير (٣/ ٥٤٠) (٤/ ٤٩٦) وتحفة الأحوذي (٩/ ٢١٩).

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة الذاريات. (ص ٩٥٣) بعد حديث (رقم ٤٨٥٢).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٤٠).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٣٦٨٨) وابن حبان في صحيحه (١٥/ ١٦٠ رقم ٦٧٥٨) وفي موارد الظمآن (رقم =

فتغيير الأسماء لا يزيل الحقائق، وكذا من ارتكب شيئًا من الأمور الشركية فهو مشرك، وإن سمّى ذلك توسلاً وتشفعًا.

يوضح ذلك ما ذكر الله في كتابه عن اليهود والنصارى بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] الآية. وروى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما أن عدي بن حاتم قدم على النبي ﷺ وكان قد تنصّر في الجاهلية، فسمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية. قال: يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم، فقال النبي ﷺ: «**بلى إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وحلَّلوا الحرام، فذلك عبادتهم إياهم**»[(١)].

وقال ابن عباس وحذيفة بن اليمان في تفسير هذه الآية: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرَّموا[(٢)]. فهؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية لم يسموا أحبارهم ورهبانهم أربابًا، ولا آلهة، ولا كانوا يظنون أن فعلهم هذا معهم عبادة لهم، ولهذا قال عدي: إنهم لم يعبدوهم. وحكم الشيء تابع لحقيقته لا لاسمه، ولا لاعتقاد فاعله. فهؤلاء كانوا يعتقدون أن طاعتهم في ذلك ليست بعبادة لهم، فلم يكن ذلك عذرًا لهم، ولا مزيلاً لاسم فعلهم، ولا لحقيقته وحكمه.

يوضح ذلك ما روى الترمذي وصححه عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون

=

١٣٨٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٢٧ رقم ٥١٦٨) وابن ماجه (رقم ٣٣٨٤) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٩٤ رقم ١٧١٥٩) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٣ رقم ٣٤١٩) (١١/ ١١٨ رقم ١١٢٢٨) وأبو يعلى (٧/ ٣٥٢ رقم ٤٣٩٠) وأحمد في المسند (٤/ ٢٣٧) (٥/ ٣٤٢) قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٥٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات. وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥١): وصححه ابن حبان وله شواهد كثيرة.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٩٥) والطبري في تفسيره (١٠/ ١١٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٨٤ رقم ١٠٠٥٧) والبيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١١٦ رقم ٢٠١٣٧) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢ رقم ٢١٨) ونقل الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٦٥-٦٦ رقم ٥٣٧) تحسين الترمذي له.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٠).

عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتتبعن سنن من كان قبلكم»(١).

فهؤلاء ما كانوا يظنون أن الذي طلبوه مما تنفيه «لا إله إلا الله» فلم يكن جهلهم مغيرًا لحقيقة هذا الأمر وحكمه.

ومن كان له معرفة بما بعث الله به رسوله علم أن ما يفعل عند القبور من دعاء أصحابها والاستغاثة بهم، والعكوف عند ضرائحهم والسجود لهم، والنذر لهم أعظم وأكبر من فعل الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

وأقبح وأشنع من قول الذين قالوا: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط.

قال بعض العلماء المحققين ـ رحمهم الله تعالى ـ: وإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عليها اتخاذ إله، مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده، فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر، لو كان أهل الشرك والبدع يعلمون؟ انتهى.

ولقد حمى النبي ﷺ جناب التوحيد، وسد الذرائع التي تفضي إلى الشرك والتنديد، فقال فيما صح عنه ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢)، ونهى عن إيقاد السرج عليها، فقال ﷺ: «لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»(٣). ونهى أن تتخذ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٤٥-٤٦) وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٩٤ رقم ٦٧٠٢) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٤ رقم ٣٢٩١) وأحمد (٥/ ٢١٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٧ رقم ٧٦) والمروزي في السنة (رقم٣٩، ٤٠).

(٢) أخرجه مالك (١/ ١٧٢ رقم ٤١٤) وعبد الرزاق (١/ ٤٠٦ رقم ١٥٨٧). وانظر: التمهيد (٥/ ٤١-٤٣) وتنوير الحوالك (١/ ١٤٣) وشرح الزرقاني (١/ ٤٩٦) (٤/ ٢٩٠) وفيض القدير (٤/ ٤٦٦).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٠ رقم ١٣٨٤) وابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٥٢-٤٥٣ رقم ٣١٧٩، =

عيدًا، ونهى عن البناء عليها، وأمر بتسويتها بالأرض، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي ﷺ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفًا إلا سويته[1]، ونهى عن تجصيص القبور وعن الكتابة عليها.

فنحن ننكر الغلو في أهل القبور، والإطراء والتعظيم، ونهدم البنايات التي على قبور الأموات، لما فيها من الغلو والتعظيم، الذي هو أعظم وسائل الشرك بالله.

وهذه الأمور التي أوجبت عبادتها من دون الله ابتدعها أناس أرادوا بها التعظيم وإظهار تشريفهم، فجاء من بعدهم فعبدوهم من دون الله، وقصدوا منهم كشف الملمات، وسألوهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، واعتقدوا هذا الشرك الوخيم قربة ودينًا يدينون به، واشتد نكيرهم على من أنكر ذلك وحذَّر عنه، ورموه بالزور والبهتان والله ناصر دينه في كل زمان ومكان، ولكنه يمتحن حزبه منذ كانت الفئتان.

ومما نعتقده وندين الله به الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، ونؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته، ونثبت ذلك على ما يليق بجلاله وعظمته: إثباتًا بلا تمثيل، وننزه الله عما لا يليق بجلاله: تنزيهًا بلا تعطيل. ونعتقد بأن الله سبحانه وتعالى مستو على عرشه، عال على خلقه، وعرشه فوق السموات، وهو بائن عن مخلوقاته، ولا يخلو مكان من علمه، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه:٥].

=

٣١٨٠) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٨٨) والنسائي في الكبرى (١/ ٦٥٧ رقم ٢١٧٠) وأبو داود (رقم ٣٢٣٦) والترمذي (رقم ٣٢٠) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٧٨ رقم ٦٩٩٨) وابن أبي شيبة (٢/ ١٥١ رقم ٧٥٤٩) (٣/ ٣٠ رقم ١١٨١٤) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٤٨ رقم ١٢٧٢٥) وابن الجعد في مسنده (رقم ١٥٠٠) وأحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤).

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٩) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٢٤) وتحفة الأحوذي (٤/ ١٢٨) والمغني (٢/ ١٩١) وسبل السلام (٢/ ١١١) ونيل الأوطار (٤/ ١٣٠-١٣١).

فنؤمن باللفظ، ونثبت حقيقة الاستواء، ولا نكيف ولا نمثل؛ لأنه لا يعلم كيف هو إلا هو. قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله، وبقوله نقول، وقد سأله رجل عن الاستواء؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة(١).

فأثبت مالك رحمه الله الاستواء، ونفى علم الكيفية. وكذلك اعتقادنا في جميع أسماء الرب وصفاته من الإيمان باللفظ وإثبات الحقيقة، ونفي علم الكيفية.

والقول الشامل في ذلك: أنا نصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث. فمن شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]. فسبحان من لا سمي له ولا كفو له، وهو أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثًا من خلقه.

ونؤمن بما ورد من أن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: «**هل من سائل فأعطيه سؤله؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟**»(٢).

ونعتقد أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود؛ وأن الله تكلَّم به حقيقة وسمعه جبريل من الباري سبحانه، ونزل به على رسول الله ﷺ. ولا نقول بقول الأشاعرة ولا غيرهم من أهل البدع. ونؤمن أن الله فعّال لما يريد، لا يكون شيء إلا بقضائه وقدره، ولا محيد لأحد عن القدر، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٦٤) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١١٦)، انظر: حاشية ابن القيم (١٣/ ٢٥) وحاشية السندي (٦/ ٣٨) وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٩) وحلية الأولياء (٦/ ٣٢٦) وعون المعبود (٩/ ٧٧) وذم التأويل لابن قدامة (رقم ١١) وفتح الباري (١٣/ ٤٠٧). وسير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٠) وطبقات المحدثين بأصبهان (٢/ ٢١٤) والحطة في ذكر الصحاح الستة لصديق حسن خان (ص ٢٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٥٨) وانظر: حاشية ابن القيم (١٣/ ٤٣-٤٦).

ونؤمن بآيات الوعيد والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ.

ولا نقول بتخليد أحد من المسلمين من أهل الكبائر في النار، كما تقول الخوارج والمعتزلة، لما ثبت عنه ﷺ في الأحاديث الصحيحة أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان(١). وإخراجهم من النار بشفاعة نبينا محمد ﷺ فيمن يشفع لهن من أهل الكبائر من أمته، وشفاعة غيره من الملائكة والأنبياء(٢).

ولا نقف في الأحكام المطلقة، بل نعلم أن الله يدخل النار من يدخلها من أهل الكبائر، وآخرون لا يدخلونها لأسباب تمنع من دخولها: كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة ونحوها. ونعتقد أن الله يفعل ما يفعله لحكمة وأسباب، وهو تبارك وتعالى خالق الأسباب ومسبباتها.

ولا نشهد لشخص معين بجنة ولا نار، لأن حقيقة باطنه وما مات عليه لا نحيط به، ولكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء، إلا من شهد له رسول الله ﷺ.

ولا نكفر أحدًا من أهل الإسلام بكل ذنب دون الشرك، ولا نخرجه من دائرة الإسلام بارتكاب كبيرة(٣). ونؤمن بما أخبر به النبي ﷺ بما يكون بعد الموت.

ونؤمن بفتنة القبر وعذابه ونعيمه، وبإعادة الأرواح إلى أجسادها، فيقوم الناس

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا؟» قلنا: لا. وفيه «فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم على النار. فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا. ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه. فيخرجون من عرفوا. ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا»، قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرؤوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ [النساء: ٤٠].

(٢) قال رسول الله ﷺ: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي. فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقوامًا قد امتحشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة، يقال له: ماء الحياة، فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل» أخرجه البخاري رقم ٧٤٣٩).

(٣) انظر: الكبائر (ص ١٥٦) وشعار أصحاب الحديث (ص٣١).

لرب العالمين في موقف القيامة: حفاة عراة غرلاً، وتدنو منهم الشمس، فيلجمهم العرق، وتنصب الموازين، وتنشر الدواوين، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، ونؤمن بحوض نبينا محمد ﷺ.

ونؤمن بأن الصراط ينصب على متن جهنم، ويمر الناس على قدر أعمالهم.

ونؤمن بشفاعة النبي ﷺ، وأنه أول شافع وأول مشفع، ولا ينكرها إلا مبتدع ضال، وأنها لا تقع إلا بعد الإذن والرضا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦].

وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد، ولا يأذن إلا لأهله، قال أبو هريرة ﷺ للنبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»[(١)]، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨].

ونؤمن أن الله تعالى خلق الجنة، وأنها موجودة الآن، وأن الله أعدها لمن أطاعه واتَّقاه. وأن الله خلق النار. وأنها موجودة الآن، وأن الله أعدَّها لمن كفر به وعصاه.

ونؤمن أن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم في الجنة، كما يُرى القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه تعالى»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٩).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٠٥-١٠٧) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٥ رقم ١٠٣٤١) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٧٩٤ رقم ١٤٢٥) واللالكائي (رقم ٧٨٠، ٧٨٢، ٧٨٩) والهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (رقم ٣٤).

ونؤمن أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين والمرسلين. وأن أفضل أمته أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم بقية العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان، ثم سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ونتولى أصحاب رسول الله ﷺ، ونترضَّى عنهم، ونستغفر لهم، ونذكر محاسنهم وفضائلهم، ونكف عما شجر بينهم. ونترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات المبرآت من كل سوء، وإن فضلاهن عائشة، ونبرأ من قول الزيدية وغيرهم من أهل البدع.

ونرى الجهاد مع كل إمام برًّا كان أو فاجرًا منذ بعث الله محمدًا ﷺ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال(١).

ونرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين، برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية، ونرى هجر أهل البدع ومباينتهم. ونرى أن كل محدثة في الدين بدعة.

ونرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل قادر بحسب قدرته واستطاعته: إما بيده، فإن تعذَّر فبلسانه، فإن تعذَّر فبقلبه، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**(٢).

ونعتقد أن الإيمان قول باللسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(٣)، كما في الحديث الصحيح: **«الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله؛ وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**(٤).

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٨/ ٥١٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٩).

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٤٠) وعقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ٦٦-٦٧) وكتاب الإيمان لابن تيمية (ص ٢٦٤) وتفسير السيوطي (٤/ ١٢) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٢) (٢/ ٤٠٣) (٣/ ٧٥، ٤٧٤) والاستذكار (٨/ ٢٨٣) والمعجم الأوسط (٦/ ١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري مختصرًا (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥).

ونعتقد أن الله أكمل الدين، وأتم نعمته على العالمين، ببعثة محمد الرسول الأمين، خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. فلما أكمل الله به الدين، وبلّغ البلاغ المبين، قبضه الله إليه وتوفاه، فاختار له الرفيق الأعلى. ونعتقد أن رتبته ﷺ أعلى رتب المخلوقين على الإطلاق، وأنه حي في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في التنزيل، إذ هو أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلام المسلِّم عليه، وأما الحياة التي تقتضي العلم والتصرف والحركة في التدبير فهي منفية عنه ﷺ.

وبالجملة فعقيدتنا في جميع الصفات الثابتة في الكتاب والسنة عقيدة أهل السنة والجماعة، نؤمن بها ونمرها كما جاءت مع إثبات حقائقها، وما دلّت عليه من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تعطيل ولا تبديل ولا تأويل.

وأما مذهبنا فمذهب الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة في الفروع والأحكام، ولا ندعي الاجتهاد، وإذا بانت لنا سنة صحيحة عن رسول الله ﷺ، عملنا بها، ولا نقدم عليها قول أحد كائنًا من كان، بل نتلقاها بالقبول والتسليم، لأن سنة رسول الله ﷺ في صدورنا أجل وأعظم من أن نقدم عليها قول أحد.

فهذا الذي نعتقده وندين الله به، فمن نسب عنا خلاف ذلك أو تقول علينا ما لم نقل غير ما ذكرنا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، وحسابنا وحسابه عند الله، الذي تنكشف عنده السرائر، وتظهر لديه مخبآت الصدور والضمائر: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤].

وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أهـ.

❁❁❁

الرسالة الثالثة عشرة:

الفواكه العذاب
في
الرد على من لم يحكم السنة والكتاب

للشيخ

حمد بن ناصر بن عثمان المعمري

رحمه الله آمين

١٢٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إله وصحبه وسلم، الحمد لله الذي نصر الدين، بالحجة والسيف والتمكين، وجعل لدينه من ينفي عنه غلو الغالين، وتحريف المحرفين، بالدلائل القاطعة والبراهين.

أما بعد: فلما كان في السنة الحادية عشرة بعد المائتين والألف من هجرته ﷺ طلب (غالب) والي مكة المشرفة من عبد العزيز ابن سعود والي نجد رحمه الله أن يبعث إليه عالمًا ليناظر علماء الحرم في شيء من أمور الدين، فبعث إليه عبد العزيز الإمام الشيخ حمد بن ناصر بن عثمان الحنبلي[1] في ركب، فلما وصلوا إلى مكة جمع (غالب) علماء الحرم الشريف وأرباب مذاهب الأئمة الأربعة خلا الحنابلة، فوقعت مناظرة عظيمة بين يدي الشيخ حمد المذكور وعلماء الحرم الشريف، ومقدمهم يومئذ في الكلام الشيخ عبد الملك الحنفي، فوقعت المناظرة في مجالس عديدة لدى والي مكة بمشهد عظيم من أهلها، وذلك في شهر رجب من سنة (١٢١١) من هجرته ﷺ، فظهر الحق وبان، وانخفض الباطل واستكان، وأقر الخصم بعد البيان.

ومما سألوه عنه ثلاث مسائل، فأجاب أيده الله بروح منه بما يشفي العليل، ويبتهج به من يتبع الدليل، وسميت هذه الأجوبة (الفواكه العذاب، في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب).

---

(١) انظر ترجمته رحمه الله في الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٣٨٢-٣٨٤).

المسألة الأولى

قالوا: ما قولكم فيمن دعا نبيًّا أو وليًّا، واستغاث به في تفريج الكربات، كقوله: يا رسول الله، أو يا ابن عباس، أو يا محجوب، أو غيرهم من الأولياء والصالحين؟

الجواب: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره، وأعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وقفى أثرهم إلى آخر الزمان.

أما بعد: فإن الله تعالى قد أكمل لنا الدين، ورسوله قد بلَّغ البلاغ المبين، وأنزل عليه الكتاب هدًى وذكرى للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٣،١٢٤].

قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[1]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف:٣٧،٣٦].

وروى مالك في الموطأ: أن رسول الله ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين ـ لن تضلوا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٢٢٥) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٣٦ رقم ٣٤٧٨١) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٦٠٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٦٩).

ما تمسكتم بهما ـ كتاب الله وسنة رسوله»(١).

وعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»(٢).

وقال ﷺ: «ما تركت من شيء يقرِّب إلى الجنة إلا وحدثتكم به ولا من شيء يقرب إلى النار، إلا وقد حدثتكم به»(٣).

وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»(٤)، فمن أصغى إلى كتاب الله وسنة رسوله وجد فيهما الهدى والشفاء، وقد ذم الله تعالى من أعرض عن كتابه، ودعا عند التنازع إلى حكم غيره، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦١].

إذا عرف هذا فنقول: الذي شرعه رسول الله ﷺ عند زيارة القبور: إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى الميت بالدعاء له، والترحم والاستغفار له وسؤال العافية، كما في صحيح مسلم عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٩ رقم ١٥٩٤) وانظر: الاستذكار (٨/ ٢٦٥) والتمهيد (٢٤/ ٣٣١) وتنوير الحوالك (١/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٣) والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥٧ رقم ٦٤٢) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٧٣ر قم ٢٠١٧) وأحمد (٤/ ١٢٦) والحاكم (١/ ١٧٥ رقم ٣٣١) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٤٩) وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤٧ رقم ٩٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٥ رقم ٢١٣٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (١/ ٣٥-٣٧ رقم ١-٤) وابن حبان في صحيحه (١/ ١٧٨-١٧٩ رقم ٥) وفي الموارد (رقم ١٠٢) وأبو داود (رقم ٤٦٠٧) وابن ماجه (رقم ٤٢) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٤٤ رقم ٢٠١٢٥) والترمذي (رقم ٢٦٧٦) والدارمي (رقم ٩٥) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٨ رقم ٦٦) وفي الكبير (١٨/ ٢٤٥ رقم ٦١٧) وأحمد (٤/ ١٢٦) والحاكم (١/ ١٧٤ رقم ٣٢٩) وقال: هذا حديث صحيح ليس له علة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

المقابر أن يقولوا: «**السلام على أهل الديار - وفي لفظ: عليكم أهل الديار - من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية**»[١].

وفي سنن أبي داود: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**»[٢]، وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: «**ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين، يبلغون مائة، كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه**»[٣] رواه مسلم، فإذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعوه، ونشفع له لا نستشفع به، فبعد الدفن أولى وأحرى.

فبدَّل أهل الشرك قولًا غير الذي قيل لهم، بدَّلوا الدعاء له بدعائه، والشفاعة له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحسانًا إلى الميت بسؤال الميت، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة بنص رسول الله ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة**»[٤] رواه الترمذي، وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[٥]، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٤، ٩٧٥) وابن حبان (١٦/ ٤٥-٤٦ رقم ٧١١٠).

(٢) أخرجه ابن حبان كما في الموارد (رقم ٧٥٥) وابن ماجه (رقم ١٤٩٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٤٠ رقم ٦٧٥٥) وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ٩٥) وعون المعبود (٨/ ٣٤٤) وفيض القدير (١/ ٣٩٣) والمغني (٢/ ١٨١) وسبل السلام (٢/ ١٠٥) ونيل الأوطار (٤/ ١٠٥-١٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٩٤٧) والضياء في الأحاديث المختارة (٥/ ٤٧ رقم ١٦٦١).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧١) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٣ رقم ٣١٩٦) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٢٤٤ رقم ٣٠٨٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ١١٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٤) وعمدة القاري (٢٢/ ٢٧٦) وتحفة الأحوذي (٩/ ٢١٩) وفيض القدير (٣/ ٥٤٠).

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٢ رقم ٨٩٠) وفي الموارد (رقم ٢٣٩٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠ رقم ١١٤٦٤) وأبو داود (رقم ١٤٧٩) والترمذي (رقم ٢٩٦٩، ٣٢٤٧) وابن ماجه (رقم ٣٨٢٨) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٤١) وابن المبارك في مسنده (رقم ٧١) وأحمد (٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) والبزار (٨/ ٢٠٥ رقم ٣٢٤٣) والقضاعي في مسند الشهاب (رقم ٢٩) والطيالسي (رقم ٨٠١).

لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه، ومن المحال أن يكون دعاء الموتى مشروعًا ويصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله ﷺ، ثم يوفق له الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون.

فهذه سنة رسول الله ﷺ، وهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل نقل عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها، وتمسحوا بها، فضلًا عن أن يسألوا أصحابها جلب الفوائد، وكشف الشدائد؟ ومعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ بالأمصار عدد كثير وهم متوافرون، فما منهم من استغاث بالنبي ﷺ بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا الصلاة عندها، فإن كان عندكم في هذا أثر صحيح أو حسن فأوقفونا عليه، بل الذي صحَّ عنهم خلاف ما ذهبتم إليه.

ولما قحط الناس في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس، وتوسل بدعائه، وقال: اللهم إنّا كنّا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون[1]، ثبت ذلك في صحيح البخاري ذكره في كتاب الاستسقاء من صحيحه.

ونحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأمته أن يدعوا أحدًا من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الأكبر الذي حرّمه الله ورسوله.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٠١٠) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٩٤) وعمدة القاري (٧/ ٣٢) (١٦/ ٢٢١) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٢٨) وفيض القدير (٤/ ٣٧٣) ونيل الأوطار (٤/ ٣٢).

بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف:٥، ٦]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ الآية [الرعد:١٤]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦]. وقال تعالى: الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر:١٣، ١٤]. وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء:٥٦، ٥٧].

قال مجاهد: يبتغون إلى ربهم الوسيلة هو عيسى وعزير والملائكة[١]، وقال إبراهيم النخعي: كان ابن عباس يقول في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ هو عزير والمسيح والشمس والقمر[٢].

وعن السدي وعن أبي هريرة، وعن ابن عباس قال: عيسى وأمه والعزير[٣]، وعن عبد الله بن مسعود قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم[٤]، فنزلت هذه الآية، ثبت ذلك عنه في صحيح البخاري ذكره في كتاب التفسير، وهذه الأقوال

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٠٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨) ومعتصر المختصر (٢/ ١٧٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٠٦) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٠٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٠٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٤، ٤٧١٥) ومسلم (رقم ٣٠٣٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧).

في معنى الآية كلها حق، فإن الآية تعم كل من كان معبوده عابدًا لله سواء كان من الملائكة، أو من الجن، أو من البشر، فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوًّا، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتًا، أو غائبًا من الأنبياء والصالحين فقد تناولته هذه الآية.

ومعلوم أن المشركين يسألون الصالحين بمعنى أنهم وسائط بينهم وبين الله، ومع هذا فقد نهى الله عن دعائهم وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعي ولا تحويله، ولا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع: كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَحْوِيلاً ﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل، فكل من دعا ميتًا من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة أو الجن فقد دعا من لا يغيثه، ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله، وهؤلاء المشركون اليوم منهم من إذا نزلت به شدة لا يدعو إلا شيخه، ولا يذكر إلا اسمه، قد لهج به كما لهج الصبي بذكر أمه، فإذا تعس أحدهم قال: يا ابن عباس، أو يا محجوب، ومنهم من يحلف بالله ويكذب، ويحلف بابن عباس أو غيره فيصدق ولا يكذب، فيكون المخلوق في صدره أعظم من الخالق.

وإذا كان دعاء الموتى يتضمن هذا الاستهزاء بالدين، وهذه المحادة لرب العالمين، فأي الفريقين أحق بالاستهزاء والمحادة لله؟ من كان يدعو الموتى ويستغيث بهم ويأمر بذلك؟ أو من كان لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له كما أمرت به رسله ويوجب طاعة الرسول ومتابعته في كل ما جاء به؟

ونحن بحمد الله من أعظم الناس إيجابًا لرعاية جانب الرسول: تصديقًا له فيما أخبر، وطاعة له فيما أمر، واعتناء بمعرفة ما بعث به، واتِّباع ذلك دون ما خالفه، عملًا بقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ ﴾ [الأنعام:١٥٥]. ومعنا ولله الحمد أصلان عظيمان:

أحدهما: أن لا نعبد إلا الله فلا ندعو إلا هو، ولا نذبح النسك إلا لوجهه، ولا

نرجو إلا هو، ولا نتوكل إلا عليه.

والأصل الثاني: أن لا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بعبادة مبتدعة.

وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن شهادة أن لا إله إلا الله تتضمَّن إخلاص الإلهية لله، فلا يتأله القلب، ولا اللسان، ولا الجوارح بغيره تعالى، لا بحب، ولا خشية، ولا إجلال ولا رغبة، ولا رهبة، وشهادة أن محمدًا عبده ورسوله تتضمن تصديقه في جميع ما أخبر به، وطاعته واتباعه في كل ما أمر به، فما أثبته وجب اتباعه، وما نفاه وجب نفيه[(١)].

وقد روي عن البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[(٢)].

إذا تمهد هذا: فنقول الذي نعتقده وندين لله به: إن من دعا نبيًّا أو وليًّا أو غيرهما وسأل منهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، فقد ارتكب أعظم الشرك الذي كفّر الله به المشركين؛ حيث اتخذوا أولياء وشفعاء يستجلبون بهم المنافع، ويستدفعون بهم المضار بزعمهم، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس:١٨]، فمن جعل الأنبياء أو غيرهم كابن عباس، أو المحجوب أو أبي طالب، وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار - بمعنى أن الخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك حوائج الناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدبًا منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لكونهم أقرب إلى الملك -

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٠٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٧٢) (٤/ ٤٩٧) وعمدة القاري (١/ ٧٨، ٩٣، ١١٧) (٣/ ٢٦٠) (١٤/ ٢١٢) (١٨/ ١٤٢-١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٢٨٠).

فمن جعلهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك حلال المال والدم.

وقد نص العلماء ـ رحمهم الله ـ على ذلك وحكوا عليه الإجماع قال في الإقناع وشرحه: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا؛ لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾(1) [الزمر:٣] انتهى.

وقال الإمام أبو الوفا علي بن عقيل الحنبلي رحمه الله: لما صعبت التكاليف على الطغام والجهال عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم؛ فسهلت عليهم إذا لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع مثل: تعظيم القبور وإكرامها والتزامها بما نهى عنه الشرع من: إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع عليها.

يا مولاي! افعل لي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركًا، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى(2). انتهى كلامه.

وقال الإمام البكري الشافعي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾: وكانت الكفار إذا سئلوا: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا سئلوا عن عبادة الأصنام قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾، لأجل طلب شفاعتهم عند الله،

---

(١) انظر: البراهين الإسلامية في رد الشبهة الفارسية، لعبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ص ٥٤) والتوضيح عن توحيد الخلاق، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ص ٣٧) والصواعق المرسلة الشهابية على الشبه الداحضة الشامية لسليمان بن سحمان (ص ١٤٧) والضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، لسليمان بن سحمان (ص ٣٥٣).

(٢) انظر: الانتصار لحزب الله الموحدين، لعبد الله أبا بطين (ص ٧٤) والمطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن (ص ٩٤) وتأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس لعبد الله أبابطين (ص ١٠٧) وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص ١٨٧).

وهذا كفر منهم[١]. انتهى كلامه.

فتأمَّل ما ذكره صاحب الإقناع، وما ذكره ابن عقيل من تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج، وأن ذلك كفر، وقال الحافظ العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ : إنما يحملهم على عبادتهم أنهم عمدوا إلى الإصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين بزعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له، كافرين به.

قال قتادة والسدِّي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾: أي ليشفعوا لنا عنده ويقربونا، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك)، وهذه الشبهة هي التي اعتقدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بردها، والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقربين وغيرهم كلهم عبيد، خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وكرهوه:

(١) انظر: كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأفهام، لسليمان بن سحمان (ص ٤٥-٤٦).

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] تعالى عن ذلك[١]. انتهى كلامه.

وقال الإمام البكري رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ الآية [يونس:٣١].

فإن قلت: إذا أقروا بذلك فكيف عبدوا الأصنام؟

قلت: كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه، لكن بطرق مختلفة.

ففرقة قالت: ليس لنا أهلية عبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته، فعبدناها لتقربنا إليه زلفى.

وفرقة قالت: الملائكة ذو وجاهة ومنزلة عند الله، فاتخذنا أصنامًا على هيئتها لتقربنا إلى الله زلفى.

وفرقة قالت: جعلنا الأصنام قبلة لنا في العبادة، كما أن الكعبة قبلة في عبادته.

وفرقة قالت: اعتقدت أن لكل ملك شيطانًا موكلًا بأمر الله، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ولا أصابه شيطان بنكبة بأمر الله تعالى[٢]. انتهى كلامه.

فانظر إلى كلام هؤلاء الأئمة وتصريحهم بأن المشركين ما أرادوا ممن عبدوا؛ إلا التقرب إلى الله وطلب شفاعتهم عند الله، وتأمَّل ما ذكره ابن كثير وما حكاه عن زيد ابن أسلم وابن زيد، ثم قال: وهذه الشبهة هي التي اعتقدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بردها والنهي عنها، وتأمَّل ما ذكره البكري رحمه الله عند آية الزمر: أن الكفار ما أرادوا إلا الشفاعة، ثم صرّح بأن هذا كفر.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٦).

(٢) انظر: كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأفهام، لابن سحمان (ص ٤٧).

فمن تأمَّل ما ذكره الله في كتابه تبين له: أن الكفَّار ما أرادوا ممن عبدوا إلا التقرب إلى الله، وطلب شفاعتهم عند الله، فإنهم لم يعتقدوا فيها أنها تخلق الخلائق وتنزل المطر وتنبت النبات، بل كانوا مقرين أن الفاعل لذلك هو الله وحده لا شريك له في ذلك. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت:٦١]. وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] إلى غير ذلك من الآيات التي أخبر الله فيها أن المشركين معترفون: أن الله هو الخالق الرازق، وإنما كانوا يعبدونهم ليقربوهم ويشفعوا لهم، كما ذكره سبحانه في قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، فبعث الله الرسل، وأنزل الكتب ليعبد وحده، ولا يُجعل معه إلٰه آخر، وأخبر سبحانه أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، وأنه لا يرضى إلا التوحيد، والشفاعة مقيدة بهذه القيود.

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٣، ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة:٤]. وقال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه:١٠٩]. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى

شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم:٢٦]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ:٢٣].

وفي الصحيحين من غير وجه: عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلق على الله أنه قال: «**آتي تحت العرش فأخر لله ساجدًا، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثمَّ يقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع ـ قال ـ فيحد لي حدًّا ثم أدخلهم الجنَّة ثم أعود**»(١) فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

وقال الإمام البكري ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام: ٥١]: نفي الشفيع وإن كانت الشفاعة واقعة في الآخرة، لأنها من حيث إنها لا تقع إلا بإذنه، كأنها غير موجودة من غيره، وهو كذلك لكن جعل ذلك لتبيين الرتب، وجملة النفي حال من ضمير يحشروا، وهي محل الخوف، والمراد به المؤمنون العاصمون، انتهى.

وقال أيضًا عند قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه:١٠٩]: دل على أن الشفاعة تكون للمؤمنين فقط، وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الرعد:١٦]: يقرر تعالى أنه لا إلٰه إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السمٰوات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك). وكما أخبر عنهم في قوله: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، فأنكر

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٦) ومسلم (رقم ١٩٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٧، ٤٥٦) وعمدة القاري (١٨/ ٨٣) (٢٣/ ١٢٦-١٢٧).

تعالى ذلك عليهم حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه: ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [طه:١٠٩]، وقد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم يزجرون عن ذلك، وينهونهم عن عبادة من سوى الله فكذبوهم(١).. انتهى كلامه.

والمقصود بيان شرك المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ، وأنهم ما أرادوا ممن عبدوا، إلا التقرب إلى الله، وطلب شفاعتهم عند الله.

وبيان أن طلب الحوائج من الموتى والاستعانة بهم في الشدائد، أنه من الشرك الأكبر، الذي كفّر الله به المشركين، وبيان أن الشفاعة كلها لله، ليس لأحد معه فيها شيء، وأنه لا شفاعة إلا بعد إذن الله تعالى، وأنه تعالى لا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، وأنه لا يرضى إلا التوحيد، كما تقدمت الأدلة الدالة على ذلك.

ومعلوم أن أعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عند ا لله الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم وأمره، فيأذن سبحانه لمن يشاء أن يشفع فيه، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له تعالى، والذي شفع عنده إنما شفع بإذنه له، وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته أن يرحم عبيده، وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها سبحانه في كتابه بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ [البقرة:١٢٣]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة؛ أهل التوحيد كما صرحت بذلك النصوص، فروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٨-٥٠٩)

«أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»(١).

وعن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آتٍ من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا»(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.

فأسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد لله، وأخلصوه من التعلقات الشركية، وهم الذين ارتضى الله سبحانه(٣)، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩]، فأخبر سبحانه أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاه قول المشفوع له، وإذنه للشافع.

فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع. فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه سبحانه، فإنه الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع له، والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة. فالرب تبارك وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٤٤٢-٤٤٣ رقم ٢١١) (١٤/ ٣٧٦ رقم ٦٤٦٣) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٥٩٢) والترمذي (رقم ٢٤٤١) والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٣ رقم ١٣٤) (٢٠/ ١٦٣ رقم ٣٤٣) وأحمد (٤/ ٤٠٤) (٦/ ٢٣، ٢٩) وابن منده في الإيمان (٢/ ٨٧٠) وصححه. وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٨٩، رقم ٨١٨) (٢/ ٣٩١ رقم ٨٢١) وهناد في الزهد (رقم ١٨١).

(٣) فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه» أخرجه البخاري (رقم ٩٩).

شرك، ولهذا أثبتها الله سبحانه بإذنه في مواضع من كتابه، وبيّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد، كما تقدم من حديث أبي هريرة وعوف بن مالك.

فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته، ولا يشفع فيه، ومتخذ الرب إلهه ومعبوده هو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيه، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝﴾ [يونس:١٨].

فبين أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم إنما تحصل بإذنه سبحانه للشافع ورضاه عن المشفوع له، كما تقدم بيانه.

والمقصود أن الكتاب والسنة، دلا على أن من جعل الملائكة أو الأنبياء أو ابن عباس أو أبا طالب أو المحجوب، وسائط بينهم وبين الله ليشفعوا لهم عند الله لأجل قربهم من الله، كما يفعل عند الملوك؛ أنه كافر مشرك حلال الدم والمال؛ وإن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وصلى وصام، وزعم أنه مسلم، بل هو من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ومن تأمَّل القرآن العزيز وجده مصرحًا، بأن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون: بأن الله هو الخالق الرازق، وأن السموات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن: كلهم عبيده، وتحت قهره وتصريفه، كما حكاه تعالى عنهم في سورة يونس وسورة المؤمنين والعنكبوت وغيرها من السور ـ وجده مصرحًا، بأن المشركين يدعون الصالحين، كما ذكر تعالى ذلك عنهم في سورة سبحان والمائدة وغيرهما من السور، وكذلك ذكر عنهم أنهم يعبدون الملائكة كما ذكر ذلك في سورة الفرقان والنجم، ووجده مصرحًا بأن المشركين ما أرادوا ممن عبدوا إلا الشفاعة

والتقرب إلى الله، كما ذكر تعالى عنهم في سورة يونس والزمر وغيرهما من السور.

فإذا تبين لكم أن القرآن قد صرح بهذه المسائل الثلاث أعني: اعتراف المشركين بتوحيد الربوبية، وأنهم يدعون الصالحين، وأنهم ما أرادوا منهم إلا الشفاعة، تبين لكم أن الذي يفعل عند القبور اليوم من سؤالهم جلب الفوائد، وكشف الشدائد، أنه الشرك الأكبر الذي كفَّر الله به المشركين، فإن هؤلاء المشركين مشبهون، شبهوا الخالق تعالى بالمخلوق.

وفي القرآن العزيز وكلام أهل العلم من الرد على هؤلاء؛ ما لا يتسع له هذا الموضع، فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس تكون على أحد وجوه ثلاثة:

إما لإخبارهم عن أحوال الناس ما لا يعرفونه، ومن قال: إن الله لا يعرف أحوال العباد حتى يخبره بذلك بعض الأنبياء أو غيرهم من الأولياء والصالحين فهو كافر؛ بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

الثاني: أن يكون الملك عاجزًا عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يعاونونه، فلابد له من أعوان يعاونونه وأنصار لذله وعجزه، والله سبحانه ليس له ظهير ولا ولي من الذل، وكل ما في الوجود من الأسباب فهو سبحانه ربه وخالقه، وهو الغني عن كل ما سواه وكل ما سواه، فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم، وهم في الحقيقة شركاؤهم، والله سبحانه ليس له شريك في الملك، بل لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، ولهذا لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فضلًا عن غيرهما، فإن من شفع عنده بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب أثر بشفاعته حتى يفعل ما يطلب منه، والله تعالى لا شريك له بوجه من الوجوه.

الثالث: أن لا يكون الملك مريدًا لنفع رعيته والإحسان إليهم، إلا بمحرك يحركه

من خارج، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظه أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته(١).

والله تعالى رب كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأسباب إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه إذا أراد إجراء نفع العباد بعضهم على يد بعض، جعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له أو يشفع له، فهو الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن والداعي إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده، أو يعلمه ما لم يكن يعلمه، والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه، كما تقدم بيانه، بخلاف الملوك المحتاجين، فإن الشافع عندهم يكون شريكًا لهم في الملك، وقد يكون مظاهرًا لهم على ملكهم، وهم يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك.

والملك يقبل شفاعتهم؛ تارة لحاجته إليهم، وتارة لجزاء إحسانهم ومكافئتهم، حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك، فإنه محتاج إلى الزوجة والولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه فإنه إذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه، ويقبل شفاعة أخيه مخافة أن يسعى في ضرره وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو لرهبة.

والله تعالى لا يرجو أحدًا ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد، هو الغني سبحانه عما سواه وكل ما سواه فقير إليه، والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعدونه عند المخلوق، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس:١٨]. وقال تعالى:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٢٦-١٢٧).

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء:٥٦، ٥٧].

فأخبر سبحانه أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف الضر عن الداعي ولا تحويله، فإنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويتقربون إلى الله، فقد نفى الله سبحانه ما أثبتوه من توسط الملائكة والأنبياء، وفيما ذكرنا كفاية لمن هداه الله، وأما من أراد الله فتنته فلا حيلة فيه ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف:١٧].

المسألة الثانية

وأما المسألة الثانية، فقالوا: من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ولم يصل ولم يزك هل يكون مؤمنًا؟

فنقول: أما من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهو مقيم على شركه يدعو الموتى، ويستغيث بهم ويسألهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، فهذا كافر مشرك حلال الدم والمال، وإن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وصلى وصام وزعم أنه مسلم كما تقدَّم بيانه، وأما إن وحّد الله تعالى ولم يشرك به، ولكنه ترك الصلاة ومنع الزكاة، فإن كان جاحدًا للوجوب فهو كافر إجماعًا، وأما إن أقر بالوجوب ولكنه ترك الصلاة تكاسلاً، فهذا قد اختلف العلماء في كفره، والعلماء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة، لا يجتمعون على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، والواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ[1] قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٥٥ رقم ١٩٦١): كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ. هو من قول مالك، بل في الطبراني عن ابن عباس رفعه: ما من أحد إلا يؤخذ =

وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، قال العلماء: الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إلى السنة بعد وفاته(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]. وقد ذم الله تعالى من أعرض عن كتابه ودعا عند التنازع إلى غيره، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾﴾ [النساء:٦١] إذا عرف هذا فنقول:

اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في تارك الصلاة كسلًا من غير جحود لوجوبها، فذهب الإمام أبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه ومالك إلى أنه لا يحكم بكفره، واحتجوا بما رواه عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خمس صلوات كتبهن الله على العباد من أتى بهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد: إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»**(٢).. وذهب إمامنا أحمد بن حنبل والشافعي في أحد قوليه وإسحاق بن راهويه وعبد الله بن المبارك والنخعي وأيوب السختياني وأبو داود الطيالسي وغيرهم من كبار الأئمة والتابعين إلى أنه كافر، وحكاه إسحاق بن راهويه إجماعًا ذكره عنه الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي في شرح الأربعين، وذكره في كتاب: «الزواجر عن اقتراف الكبائر»

=

من قوله أو يدع، وذكره في الإحياء بلفظ: ما من أحد إلا يؤخذ من عمله ويترك إلا رسول الله ﷺ. ومعناه صحيح، كذا في المقاصد، والله أعلم.

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٥١) والدر المنثور (٢/ ٥٧٩) والاعتقاد للبيهقي (١/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٢) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (٨/ ٣٦٥ رقم ٤٤٩) والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٢ رقم ٣٢٢) وأبو داود (رقم ١٤٢٠) والبيهقي في الكبرى (١/ ٣٦١ رقم ١٥٧٣) والدارمي (رقم ١٥٧٧) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٢٤٦ رقم ٢١٨١) وابن أبي عاصم (٢/ ٤٦٨ رقم ٩٦٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٤٢) (١٢/ ٢٠٣) والتمهيد (٤/ ٢٣٩) (٢٣/ ٢٨٨-٢٩١) وتحفة الأحوذي (٢/ ٤٤٢).

عن جمهور الصحابة رضي الله عنهم[١].

وقال الإمام أبو محمد بن حزم: سائر الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من التابعين يكفرون تارك الصلاة مطلقًا، ويحكمون عليه بالارتداد، منهم: أبو بكر، وعمر، وابنه عبد الله، وعبد الله بن عباس، ومعاذ بن جبل، وجابر بن عبد الله، وعبد الرحمن ابن عوف، وأبو الدرداء، وأبو هريرة وغيرهم من الصحابة[٢].

ولا نعلم لهؤلاء مخالفًا من الصحابة، وأجابوا عن قوله ﷺ: «**من لم يأت بهن فليس له عند الله عهد: إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له**»، إن المراد عدم المحافظة عليهن في أوقاتهن بدليل الآيات والأحاديث الواردة فيها وفي تركها، واحتجوا على كفر تاركها بما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[٣].

وعن بريدة بن الحصيب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»[٤] رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح إسناده على شرط مسلم.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بين العبد والكفر والإيمان الصلاة، فإذا تركها فقد كفر وأشرك**»[٥] وإسناده صحيح على شرط مسلم.

---

(١) انظر: الزواجر (١/ ١٣١-١٣٢).

(٢) انظر: المحلى (١/ ٢٤٢) والترغيب والترهيب (١/ ٢٢١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٨٢).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٠٥ رقم ١٤٥٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٥٥) والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٥ رقم ٣٢٩) وابن ماجه (رقم ١٠٧٩) والترمذي (رقم ٢٦٢١) وأحمد (٥/ ٣٤٦) والحاكم (١/ ٤٨ رقم ١١) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٦ رقم ٦٢٩١) وانظر: الاستذكار (١/ ٢٣٥) (٢/ ١٥٠) والكبائر (ص ١٨-٢٢) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لا تُعرف له علة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (١/ ١٦٠ رقم ٢٤٥) وأبو يعلى (٧/ ١٣٧ رقم ٤١٠٠) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٦ رقم ٦٢٨٨) وقال المنذري في الترغيب والترهيب =

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا، فقال: «من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا ولا برهانًا ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي ابن خلف»(١) رواه الإمام أحمد وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه.

وعن عبادة بن الصامت قال: أوصاني رسول الله ﷺ فقال: «لا تشرك بالله شيئًا، ولا تترك الصلاة عمدًا، فمن تركها عمداً، فقد خرج من الملة»(٢) رواه عبد الرحمن ابن أبي حاتم في سننه.

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله»(٣) وورواه الإمام أحمد.

وعن أبي الدرداء قال: أوصاني أبو القاسم عن رسول الله ﷺ «أن لا أترك الصلاة

=

(١/ ٢١٥ رقم ٨١٦): رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به. وقال أيضًا في (١/ ٢١٤ رقم ٨١١): رواه هبة الله الطبري بإسناد صحيح. وانظر: تحفة الأحوذي (٧/ ٣٠٧-٣٠٩) وعون المعبود (١٢/ ٢٨٤).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٢٩ رقم ١٤٦٧) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٥٤) والدارمي (رقم ٢٧٢١) وأحمد (٢/ ١٦٩) وعبد بن حميد (رقم ٣٥٣) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٢١٧ رقم ٨٣٢): رواه أحمد بإسناد جيد، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٩٢): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد ثقات.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٢٨٧-٢٨٨ رقم ٣٥١) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٨٩ رقم ٩٢٠). وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٦): رواه الطبراني وفيه سلمة بن شريح، قال الذهبي: لا يعرف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢١٤ رقم ٨٠٩): وورواه الطبراني ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة بإسنادين لا بأس بهما.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٥٨ رقم ٧٩٥٦) وفي الكبير (٢٠/ ١١٧ رقم ٢٣٣) وأحمد (٥/ ٢٣٨) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٢١٥ رقم ٨١٨): الحديث رواه الطبراني في الأوسط ولا بأس بإسناده في المتابعات، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٥): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات.

متعمدًا فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذمة»[١]، رواه ابن أبي حاتم.

وعن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ أنه قال: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة...**»[٢] الحديث.

وعن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة[٣]، رواه الترمذي.

فهذه الأحاديث كما ترى صريحة في كفر تارك الصلاة مع ما تقدم مع إجماع الصحابة، كما حكاه إسحاق بن راهويه وابن حزم وعبد الله بن شقيق، وهو مذهب جمهور العلماء من التابعين ومن بعدهم.

ثم اعلم أن العلماء كلهم مجمعون على قتل تارك الصلاة كسلاً إلا أبا حنيفة ومحمد ابن شهاب الزهري وداود فإنهم قالوا: يحبس تارك الصلاة المفروضة حتى يموت أو يتوب[٤]، ومن احتج لهذا القول بقوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»[٥] فقد أبعد النجعة، فإن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ١٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٥٢٤) وابن ماجه (رقم ٤٠٣٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١١/ رقم ٥٥٨٩) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٦-٢١٧): رواه الطبراني وفيه شهر بن حوشب وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩٠): هذا إسناد حسن، شهر مختلف فيه.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨ رقم ١١٣٩٤) والترمذي (رقم ٢٦١٦) وعبد بن حميد (رقم ١١٢)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢١٩-٢٢٠ رقم ١٩٦) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وانظر: الترغيب والترهيب (٣/ ٣٣٩) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٤-٤٦).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٤٨ رقم ١٢) والترمذي (رقم٢٦٢٢) وذكره النووي في رياض الصالحين (ص٢٦٣) وقال: رواه الترمذي في كتاب الإيمان بإسناد صحيح. وانظر: شرح سنن ابن ماجه (١/ ٧٥) وعون المعبود (١٢/ ٢٤٨) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق لابن عبد الهادي الحنبلي (٢/ ١١٧) وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٢٠٤) وهؤلاء رجال الصحيح.

(٤) انظر: فتح الباري (١/ ٤٩٦) (٢/ ١٣٠) و(١٢/ ٢٠٢-٢٠٤) وعمدة القاري (١/ ١٨١) و(٥/ ١٦٥) (٢٤/ ٤١) وتحفة الأحوذي (٦/ ٣١٢) ونيل الأوطار (١/ ٣٦٤-٣٧١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢).

هذا الحديث لا حجة فيه لمن لا يقول بقتله كما سيأتي بيانه وبسطه إن شاء الله.

واحتج الجمهور على قتله بالكتاب والسنة.. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة:٥]، فشرط الكف بالتوبة من الشرك وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإذا لم توجد هذه الثلاث لم يكف عن قتلهم، ولم يخل سبيلهم.

قال ابن ماجه: حدَّثنا نصر بن علي حدَّثنا أبو أحمد حدَّثنا الربيع بن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راض**»(١)، قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل الله: ﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ قال: خلعوا الأوثان وعبادتها، ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾، وقال في آية آخرى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾(٢) [التوبة:١١].

وأما السنة فثبت في الصحيحين: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(٣) فعلق العصمة على الشهادتين والصلاة والزكاة.

وقد بعث النبي ﷺ كتابًا فيه: «**من محمد رسول الله إلى أهل عمان، أما بعد: فأقروا بشهادة أن لا إله إلا الله والنبي رسول الله وأدوا الزكاة، وخطوا المساجد، وإلا**

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٦/ ١٢٦رقم ٢١٢٢) والحاكم (٢/ ٣٦٢ رقم ٣٢٧٧) وابن ماجه (رقم ٧٠) والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٤١ رقم ٦٨٥٦) وصححه الحاكم.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٧٨) والدر المنثور (٤/ ١٣٢) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٧-٣٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢).

غزوتكم»[(١)] خرّجه الطبراني والبزار وغيرهما، ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي في شرح الأربعين[(٢)].

وروى ابن شهاب: عن حنظلة، عن علي بن الأشجع؛ أن أبا بكر الصديق بعث خالد بن الوليد وأمره أن يقاتل الناس على خمس: فمن ترك واحدة تقاتله عليها كما تقاتله على الخمس، شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام[(٣)]. فقال سعيد بن جبير: قال عمر بن الخطاب: لو أن الناس تركوا الحج لقاتلناهم على تركه كما نقاتل على الصلاة والزكاة[(٤)].

وبالجملة فالكتاب والسنة يدلان على أن القتال ممدود إلى الشهادتين والصلاة والزكاة، وقد أجمع العلماء على ذلك، قال في شرح الإقناع: أجمع العلماء على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله كالمحاربين وأولى[(٥)]... انتهى.

وأما حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»** فهذا لا إشكال فيه بحمد الله، وليس لكم فيه حجة، بل هو حجة عليكم، ولو لم يكن إلا قوله: «إلا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٦٠ رقم ٦٨٤٩) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٩): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده لم أر أحدًا ذكرهم إلا أن الطبراني قال: تفرد به موسى بن إسماعيل. قلت: وليس بالتبوذكي، لأن هذا يروى عن التابعين والله أعلم. وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ٢١١).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٨٥).

(٣) أخرجه العدني في الإيمان (رقم ١) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٢٣ رقم ٩٧٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٨٧).

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٧٦) إلى سعيد بن منصور، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٨٧).

(٥) انظر: السياسة الشرعية، لابن تيمية (٦٤-٦٥) (ص ١٠٦) ومجموع الفتاوى (٧/ ٦٠٤-٦٠٥).

بحقها» لكان كافيًا في إبطال قولكم.

وقد قال علماؤنا ـ رحمهم الله ـ: إذا قال الكافر: لا إله إلا الله فقد شرع في العاصم لدمه، فيجب الكف عنه، فإن تم ذلك تحققت العصمة، وإلا بطلت، ويكون النبي ﷺ قد قال كل حديث في وقت، فقال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» ليعلم المسلمون أن الكافر المحارب إذا قالها كف عنه، وصار دمه وماله معصومًا، ثم بيَّن ﷺ في الحديث الآخر أن القتال ممدود إلى الشهادتين والعبادتين، فقال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**» فبيَّن أن تمام العصمة وكمالها إنما يحصل بذلك، ولئلا تقع الشبهة بأن مجرد الإقرار يعصم على الدوام، كما وقعت لبعض الصحابة حتى جلاها أبو بكر الصديق، ثم وافقوه ﷺ.

ومما يبين فساد قولكم وخطأ فهمكم في معنى حديث أبي هريرة؛ أن الصحابة ﷺ أجمعوا على قتال مانعي الزكاة بعد مناظرة وقعت بين أبي بكر وعمر، استدل عمر على أبي بكر بحديث أبي هريرة، فبيَّن صديق الأمة ﷺ أن الحديث حجة على قتال من منع الزكاة، فوافقه عمر وسائر الصحابة على قتال مانعي الزكاة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويصلون، ونحن نسوق الحديث بتمامه، ثم نذكر ما قاله العلماء في شرحه، ليتبين أن فهمكم الفاسد لم يقل به أحد من العلماء، وأنه فهم مشؤوم مذموم، مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة(١)، فنقول:

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**» فقال أبو بكر: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٧) وفتح الباري (١/ ٧٦) (٣/ ٢٦٣-٢٦٦) وعمدة القاري (١/ ١٨٢-١٨٣) والإحكام للآمدي (١/ ٣٢٦-٣٢٨).

فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق[(١)].

وهذا الحديث خرَّجه البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم في كتاب الإيمان وهو من أعظم الأدلة على فساد قولكم، فإن الصديق ﷺ جعل المبيح للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب: وقد تكلم النووي رحمه الله على هذا الحديث في شرح صحيح مسلم فقال: [(باب) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ، وأن من قال ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها، ووكلت سريرته إلى الله تعالى: وقتال من منع الزكاة وغيرها من حقوق الإسلام، واهتمام الإمام بشرائع الإسلام] ثم ساق الحديث، ثم قال: قال الخطابي في شرح هذا الكلام كلامًا حسنًا لابد من ذكره لما فيه من الفوائد قال رحمه الله.

«مما يجب تقديمه في هذا أن يعلم أن أهل الردة كانوا صنفين: صنف ارتدوا عن الدين، ونابذوا الملة وعادوا إلى الكفر، وهم الذين عناهم أبو هريرة بقوله: وكفر من كفر من العرب، والصنف الآخر فرقوا بين الصلاة والزكاة، فأقروا بالصلاة وأنكروا فرض الزكاة، ووجوب أدائها إلى الإمام... وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين الزكاة من كان يسمح بالزكاة ولا يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي، وقبضوا على أيديهم في ذلك كبني يربوع، فإنهم جمعوا صدقاتهم، وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك، وفرقها فيهم.

وفي أمر هؤلاء عرض الخلاف، ووقعت الشبهة لعمر ﷺ، وناظره واحتج عليه بقول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم نفسه وماله» فكان لهذا من عمر ﷺ تعلقًا بظاهر الكلام قبل أن ينظر في آخره، ويتأمل شرائطه، فقال له أبو بكر: الزكاة حق المال، يريد أن القضية التي قد تضمنت عصمة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٩٩، ١٤٠٠) ومسلم (رقم ٢٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٧٦-٢٧٧) وشرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢٠١-٢٠٢).

دمه وماله، معلقة بإيفاء شرائطها، والحكم المعلق بشرطين لا يحصل بأحدهما والآخر معلوم، ثم قايسه بالصلاة ورد الزكاة إليها، وكان في ذلك من قوله دليل على أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعاً من الصحابة ﷺ، ولذلك ردوا المختلف فيه إلى المتفق عليه... فلما استقر عند عمر صحة رأي أبي بكر ﷺ وبان له صوابه تابعه على قتال القوم وهو معنى قوله: «فلما رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال عرفت أنه الحق»، يريد انشراح صدره بالحجة التي أدلى بها، والبرهان الذي أقامه نصًّا ودلالة»(١) انتهى.

فتأمل ما ذكره الخطابي أن الذين منعوا الزكاة منهم من كان يسمح بها ولا يمنعها؛ إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي وقبضوا على أيديهم كبني يربوع، فإنهم أرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم(٢)، وأنهم عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر في أمر هؤلاء، ثم إن عمر وافق أبا بكر على قتالهم.

وتأمل قوله: واحتج عمر بقول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، وكان هذا من عمر تعلقًا بظاهر الكلام قبل أن ينظر في آخره ويتأمل في شرائطه، وتأمَّل قوله: إن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعًا من الصحابة.

وقد أشار الخطابي إلى أن حديث أبي هريرة مختصر، قال النووي رحمه الله: «قال الخطابي: ويبين لك أن حديث أبي هريرة مختصر أن عبد الله بن عمر وأنسًا روياه بزيادة لم يذكرها أبو هريرة، ففي حديث ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماؤهم وأموالهم إلا بحقها».

وفي رواية أنس: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢٠١-٢٠٢).
(٢) انظر: عمدة القاري (٨/ ٢٤٣-٢٤٤).

رسول الله، وأن يستقبلوا قبلتنا، وأن يأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين»[(١)(٢)]. انتهى.

قلت: وقد ثبت في الطريق الثالث المذكور في الكتاب والسنة من رواية أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»[(٣)].

وفي استدلال أبي بكر واعتراض عمر رضي الله عنهما، دليل على أنهما لم يحفظا عن رسول الله ﷺ ما رواه ابن عمر وأنس وأبو هريرة، وكان هؤلاء الثلاثة سمعوا هذه الزيادة في روايتهم في مجلس آخر، فإن عمر لو سمع ذلك لما خالف ولما كان احتج بالحديث، فإن هذه الزيادة حجة عليه، ولو سمع أبو بكر هذه الزيادة لاحتج بها ولما كان احتج بالقياس والعموم، والله أعلم»[(٤)] انتهى كلام النووي.

فتأمل ما ذكره الخطابي تجده صريحًا في رد قولكم، وتأمل قوله: فإن عمر لو سمع ذلك لما خالف، ولما كان احتج بالحديث، فإن هذه الزيادة حجة عليه.

وبالجملة فحديث أبي هريرة حجة عليكم لا لكم، ولو لم يكن فيه إلا قوله: «**بحقها**» لكان كافيًا في بطلان شبهتكم، فإن الصلاة والزكاة من أعظم حقوق لا إله إلا الله، بل هما أعظمها على الإطلاق، ومما يدل على بطلان قولكم وفساد فهمكم في معنى الحديث أعني حديث أبي هريرة: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لاإله إلا الله**» أن جميع الشراح والمحشين لم يتأولوه على هذا التأويل الذي ذهبتم إليه، فإنه حديث صحيح مخرج في الصحاح، وهؤلاء شراح البخاري ومحشوه نحوًا من

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٢).
(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٣) أخرجه مسلم (رقم٢١).
(٤) انظر: شرح النووي على مسلم (١/ ٢٠٦).

أربعين، كما نبه عليه القسطلاني في خطبة شرح البخاري ـ وكذا شرح مسلم ـ هل أحد منهم استدل به على ترك قتال من ترك الفرائض؟ بل الذي ذكروه خلاف ما ذهبتم إليه، ولو يكن إلا احتجاج عمر به على أبي بكر، واستدلال أبي بكر على قتال مانعي الزكاة لكان كافيًا، ونحن نذكر لكم كلام الشراح عذرًا أو نذرًا.

قال النووي رحمه الله: «قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله، فمن قال: لا إلٰه إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله عز وجل**»، قال الخطابي: ومعلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إلٰه إلا الله، ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف، قال: ومعنى «**حسابه على الله**» أي: فيما يسرون به ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر، قال: ففيه أن من أظهر الإسلام وأسر الكفر يقبل منه إسلامه في الظاهر. وهذا قول أكثر العلماء، وذهب مالك إلى أن توبة الزنديق لا تقبل، ويحكى ذلك أيضًا عن أحمد بن حنبل هذا كلام الخطابي.

وذكر القاضي عياض ـ رحمه الله ـ معنى هذا وزاد عليه وأوضحه فقال: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إلٰه إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحد، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله: «**لا إلٰه إلا الله**» إذا كان يقولها في كفره وهي من اعتقاده ولذلك جاء في الحديث الآخر: «**وأني رسول الله، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة**» هذا كلام القاضي عياض.

قال النووي: قلت: ولابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء في الرواية الأخرى لأبي هريرة: «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به**»[(١)] انتهى كلام النووي.

فتأمل ما ذكره الخطابي وما ذكره القاضي عياض: أن المراد بقول لا إلٰه إلا الله التعبير عن الإجابة إلى الإيمان، واستدل لذلك بالحديث الآخر، الذي فيه: «وأني

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة».

وتأمَّل قوله: إن المراد بحديث أبي هريرة: مشركو العرب وغيرهم ممن لا يوحد، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقول: لا إله إلا الله إذا كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده.

وتأمل قول النووي: ولابد من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ.

وبالجملة فقوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»، لا نعلم أحدًا من العلماء أجراه على ظاهره، وقال: إن من قال لا إله إلا الله يكف عنه ولا يجوز قتاله، وإن ترك الصلاة ومنع الزكاة، هذا لم يقل به أحد من العلماء - ولازم قولكم أن اليهود لا يجوز قتالهم، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، وأن الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب لا يجوز قتالهم، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، وأن الصحابة مخطئون في قتالهم لمانعي الزكاة، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله... سبحان الله ما أعظم هذا الجهل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٩].

ومن العجب أنكم تقرءون في صحيح البخاري في هذا الباب الذي ذكره في كتاب الإيمان حيث قال: باب: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥]، حدثنا عبد الله المسندي: أنبأنا أبو روح الحرمي قال: حدثنا شعبة، عن واقد بن محمد: سمعت أبي يحدِّث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا هم فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(١). ثم بعد ذلك نقول: من قال: لا إله إلا الله حرم ماله ودمه، ولا أدري بماذا تجيبون به عن هذه الآية والحديثين، اللذين ذكرهما البخاري، وبأي شيء تدفعون به هذه الأدلة؟؟

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢).

وقال الإمام أبو عيسى الترمذي في سننه: «**باب أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» حدثنا هناد وأنبأنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»[1] الحديث. ثم أردفه بحديث أبي هريرة في قتال أبي بكر لمانعي الزكاة، وساق الحديث بتمامه، ثم قال: «**باب ما جاء «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة**» حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني حدثنا ابن المبارك: أنبأني حميد الطويل، عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن يستقبلوا قبلتنا، وأن يأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها لهم، ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين**» وفي الباب عن معاذ بن جبل وأبي هريرة، هذا حديث حسن صحيح[2].

والمقصود فساد هذه الشبهة التي دسها من يدعي أنه من العلماء على الجهلة من الناس أن من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله أنه مسلم، ولا يجوز قتله وإن ترك فرائض الإسلام، فهذا كلام الله وهذا كلام رسوله وهذا كلام العلماء صريحًا في رد هذه الشبهة؛ بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على أن الطائفة الممتنعة تقاتل على ترك الصلاة ومنع الزكاة وإن أقروا بالوجوب، كما تقدمت النصوص الدالة على ذلك، بل قد صرح العلماء أن أهل البلد إذا تركوا الأذان والإقامة يقاتلون كما سيأتي، وصرحوا أيضًا بأنهم لو تركوا إقامة صلاة الجماعة يقاتلون، وكذلك لو تركوا صلاة العيد، وعلماء حرم الله الشريف يقولون: من قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه وإن لم يصل ولم يزك، فسبحان الله مقلب القلوب والأبصار كيف يشاء.

وهل هذا إلا معارضة لكلام الله وكلام رسوله وكلام أئمة المذاهب، وهذا

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٠٦) وهو عند البخاري (رقم ٢٩٤٦) ومسلم (رقم ٢١).
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٠٨) وهو عند البخاري (رقم ٣٩١، ٣٩٣).

كلامهم موجود في كتبهم، يصرحون بأن من ترك الصلاة قتل، وأن الطائفة الممتنعة من فعل الصلاة والزكاة والصيام والحج تقاتل حتى يكون الدين كله لله، ويحكون عليه الإجماع، كما صرح بذلك أئمة الحنابلة في كتبهم، فإذا كانوا مصرحين بأن من ترك بعض شعائر الإسلام كأهل القرية إذا تركوا الأذان أو تركوا صلاة العيد أنهم يقاتلون فكيف بمن ترك الصلاة رأسًا؟

وهؤلاء يقولون: من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم ماله ودمه، وإن كان طائفة ممتنعين من فعل الصلاة، بل يصرحون بأن (أهل) البوادي مسلمون، حرام علينا دماؤهم وأموالهم، مع العلم القطعي بأنهم لا يؤذنون ولا يصلون ولا يزكون، بل الظاهر عنهم أنهم كافرون بالشرائع، وينكرون البعث بعد الموت، فسبحان الله ما أعظم هذا الجهل!!.

وقد ذكرنا من كلام الله وكلام رسوله وكلام شرّاح الحديث ما فيه الهدى لمن هداه الله، وبينا أن العصمة شرطها التوحيد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فمن لم يأت بهذه الثلاث لم يكف عنهم، ولم يخل سبيلهم، وقد قال تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة:٥]، وقال النبي ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**(١).

وأما كلام الفقهاء فنذكره على التفصيل إن شاء الله! أما كلام المالكية فقال الشيخ علي الأجهوري في شرح المختصر: «من ترك فرضًا آخر لبقاء ركعة بسجدتيها من الضروري قتله بالسيف حدًّا على المشهور... وقال ابن حبيب وجماعة خارج

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢).

المذهب: كفرًا، واختاره ابن عبد السلام انتهى.

وقال في فضل الأذان، قال المازري: في الأذان معنيان: أحدهما: إظهار الشعائر والتعريف بأن الدار دار إسلام، وهو فرض كفاية، يقاتل أهل القرية حتى يفعلوه، فإن عجز عن قهرهم على إقامته إلا بقتال قوتلوا، والثاني: الدعاء للصلاة والإعلام بوقتها.

وقال الأبي في شرح مسلم: والمشهور أن الأذان فرض كفاية على أهل المصر، لأنه شعار الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ إذا لم يسمع الأذان أغار وإلا أمسك(١)، وقال المصنف: يقاتلون عليه(٢) ليس القتال من خصائص القول بالوجوب، لأنه نص عن عياض، وفي قول المصنف: والوتر غير واجب إلا أنهم اختلفوا في التمالئ على ترك السنن هل يقاتلون عليها؟ والصحيح قتالهم وإكراههم، لأن في التمالئ على تركها أماتتها(٣) انتهى. وقال في فضل صلاة الجماعة، قال ابن رشد: صلاة الجماعة مستحبة للرجل في نفسه، فرض كفاية في الجملة، ويعني بقوله: في الجملة: أنها فرض كفاية، على أهل المصر ولو تركوها قوتلوا كما تقدم انتهى. وعبارة غيره: وإن تركها أهل بلد قوتلوا وأهل حارة أجبروا عليها...» انتهى كلام الشيخ علي الأجهوري.

فانظر تصريحهم بأن تارك الصلاة يقتل باتفاق أصحاب مالك، وإنما اختلفوا في كفره، وأن ابن حبيب وابن عبد السلام اختاروا أنه يقتل كافرًا. وتأمّل كلامهم في الطائفة الممتنعة عن الأذان أو عن إقامة الجماعة في المساجد أنهم يقاتلون، فأين هذا من قولكم: إن من ترك الفرائض مع الإقرار بوجوبها لا يحل قتالهم؛ لأنهم يقولون:

---

(١) عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا، لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم.. الحديث أخرجه البخاري (رقم ٦١٠) وانظر: عمدة القاري (٥/ ١١٦) والاستذكار (٥/ ١٤٣).

(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٩٠) وتنوير الحوالك (١/ ٦٩) وشرح الزرقاني (١/ ٢١٥) وتحفة الأحوذي (١/ ٥٢٠).

(٣) انظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٥) (١٢/ ٤١٩) وشرح النووي (١/ ١٦٧) وشرح الزرقاني (١/ ٥٠٧).

لا إله إلا الله[١].

وأما كلام الشافعية، فقال الشيخ الإمام العلامة أحمد بن حمدان الأذرعي رحمه الله في كتاب: «قوت المحتاج في شرح المنهاج»: من ترك الصلاة جاحدًا لوجوبها كفر بالإجماع، وذلك جار في كل جحود مجمع عليه، معلوم من الدين بالضرورة، فإن تركها كسلًا قتل حدًا على الصحيح أو المشهور، أما قتله فلأن الله أمر بقتل المشركين، ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥].

فدل على أن القتل لا يرفع إلا بالإيمان وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولما في الصحيحين: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا هم فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»[٢] ثم قال: «إشارات» منها: جعل قتله ردة، ووجد لشرذمة منهم: منصور التميمي، وابن خزيمة، وقضية كلام الرونق أنه كلام منصوص حيث قال: فإذا قتل ففي ماله ودفنه بين المسلمين قولان: أحدهما: ما رواه الربيع عن الشافعي: أن ماله يكون فيئًا ولا يدفن في مقابر المسلمين. والثاني: ما رواه المزني عن الشافعي: أن ماله يكون لورثته ويدفن في مقابر المسلمين.

قال منصور في المستعمل: سألت الربيع ما نصنع بماله إذا قتلناه؟ قال: يكون فيئًا، (ومنها) قال في الروضة: تارك الوضوء يقتل على الصحيح، جزم به الشيخ أبو حامد، وفي البيان: لو صلى عريانًا مع القدرة على الستر أو الفريضة قاعدًا بلا عذر قتل، وكذلك لو ترك التشهد والاعتدال، حكاه ابن الأستاذ عن البحر، فإن صح طرد في سائر الأركان والشروط، ويجب أن يكون محله فيما أجمع عليه، ومنها لو امتنع من الصوم والزكاة حبس ومنع المفطرات، وقال إمام الحرمين: يجوز أن يجعل الممتنع مما يضيق عليه كالممتنع من الصلاة يجبر عليه، فإن أبى ضربت عنقه، قال

(١) انظر: الأم (٤/ ٢١٦) وجامع العلوم والحكم (١/ ٨٧).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢).

المصنف: والصحيح قتله بصلاة واحدة بشرط إخراجها عن وقت الضرورة انتهى كلام الأذرعي.

فانظر كلامه في قتل من ترك الصلاة كسلًا، وأن الربيع روى عن الشافعي أن ماله يكون فيئًا ولا يدفن في مقابر المسلمين.

وتأمَّل كلام أبي حامد، وكلام صاحب الروضة في قتل تارك الوضوء، وكلام صاحب البيان فيمن صلى عريانًا مع القدرة على التستر، وصلى الفريضة قاعدًا بلا عذر أنه يقتل، فأين هذا من قولكم: إن من قال: لا إله إلا الله. كف عنه، ولا يجوز قتاله بوجه من الوجوه.

وقال الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي في التحفة في باب حكم تارك الصلاة: إن ترك الصلاة جاحدًا وجوبها كفر بالإجماع، أو ترك كسلاً مع اعتقاده بوجوبها قتل للآية: ﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ وخبر: «أمرت أن أقاتل الناس»، لأنهما شرطا في الكف عن القتل والمقاتلة: الإسلام، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، لأن الزكاة يمكن الإمام أخذها ولو بالمقاتلة ممن امتنعوا وقاتلوا، فكانت فيها على حقيقتها بخلافها في الصلاة، فإنه لا يمكن فعلها بالمقاتلة.

وقال في باب صلاة الجماعة: قيل: وهي فرض للرجال فتجب بحيث تظهر بها الشعائر في ذلك المحل في البادية أو غيرها، فإن لم يظهر الشعائر بأن امتنعوا كلهم أو بعضهم - كأهل محلة من قرية كبيرة ولم يظهر الشعائر إلا بهم - قوتلوا، يقاتلهم الإمام أو نائبه لإظهار هذه الشعيرة الكبيرة.

وقال في باب الأذان: والإقامة سنة وقيل: فرض كفاية، فيقاتل أهل بلد تركوهما أو أحدهما بحيث لم يظهروا الشعائر، وقال في باب صلاة العيد: هي سنة وقيل فرض كفاية فعليه يقاتل أهل بلد تركوها، انتهى كلامه في التحفة.

فانظر كلامهم في قتل تارك الصلاة كسلاً، وتأمَّل قوله: إن الآية والحديث شرطا في الكف عن القتل والمقاتلة: الإسلام، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن الإمام يأخذ الزكاة بالمقاتلة ممن امتنعوا وقاتلوا.

وتأمل كلامه في باب صلاة الجماعة، وأنها تجب بحيث يظهر الشعار في ذلك المحل حتى في البادية، وأنهم يقاتلون إذا امتنعوا.

وتأمّل كلامه في الأذان والإقامة، وأن الإمام يقاتل على تركهما وعلى ترك أحدهما على القول بأنهما فرض كفاية.

وتأمّل كلامه في الطائفة إذا امتنعوا من صلاة العيدين، فأين هذا من كلام من يقول: إن أهل البلد والبوادي إذا قالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ لم يجز قتالهم وإن لم يصلوا ولم يزكوا، سبحان الله ما أعظم هذا الجهل.

وأما كلام الحنابلة فقال في الإقناع وشرحه في كتاب الصلاة: ومن جحد وجوبها كفر، فإن تركها تهاونًا وكسلاً لا جحودًا دعاه الإمام أو نائبه إلى فعلها لاحتمال أن يكون تركها لعذر يعتقد سقوطها به كالمرض ونحوه، فيهدده فإن أبى أن يصليها حتى تضايق وقت التي بعدها وجب قتله(١)؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ ﴾ [التوبة:٥] فمن ترك الصلاة لم يأت بشرط التخلية فيبقى على إباحة القتل، ولقوله ﷺ: «ومن ترك الصلاة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله ورسوله»(٢) رواه الإمام أحمد عن مكحول، وهو مرسل جيد.

ولا يقتل حتى يستتاب ثلاثة أيام كمرتد نصًا، فإن تاب بفعلها وإلا قتل بضرب عنقه بالسيف، لما رواه جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «بين الرجل وبين الكفر ترك

---

(١) انظر: الإقناع (١/ ١١٥-١١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢١) قال المنذري في الترغيب (١/ ٢١٦ رقم ٨٢٥): رواه أحمد والبيهقي ورجال أحمد رجال الصحيح، إلا أن مكحولاً لم يسمع من أم أيمن، وكذا قال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٩٥) وقال ابن عبد الهادي الحنبلي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ١١٧): وهذا منقطع، فإن مكحولاً لم يدرك أم أيمن.

الصلاة»[١] رواه مسلم.

روى بريدة أن النبي ﷺ قال: «من تركها فقد كفر»[٢] رواه الخمسة وصححه الترمذي، انتهى.

وقال رحمه الله في باب الأذان والإقامة: فإن تركهما أي الأذان والإقامة أهل بلد قوتلوا، أي يقاتلهم الإمام أو نائبه حتى يفعلوهما، لأنهما من أعلام الدين الظاهر، فقتلوا على تركهما كصلاة العيد[٣].

وقال رحمه الله في باب صلاة الجماعة: وهي واجبة وجوب عين، فيقاتل تاركها كالأذان، لكن الأذان إنما يقاتل على تركه أهل البلد كلهم، بخلاف الجماعة فإنه يقاتل تاركها وإن أقامها غيره، لأن وجوبها على الأعيان بخلافه[٤].

وقال رحمه الله في باب صلاة العيدين: وهي فرض كفاية إن تركها أهل بلد يبلغون أربعين بلا عذر قاتلهم الإمام كالأذان، لأنها من شعائر الإسلام الظاهرة، وفي تركها تهاون بالدين[٥].

وقال رحمه الله في «باب إخراج الزكاة»: ومن منعها بخلًا أو تهاونًا أخذت منه قهرًا كدين الآدمي، وإن غيب ماله أو كتمه وأمكن أخذها استتيب ثلاثة أيام وجوبًا، فإن تاب وأخرج كف عنه وإلا قتل لاتفاق الصحابة في قتال مانعيها، وإن لم

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٠٥ رقم ١٤٥٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٥٥) والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٥ رقم ٣٢٩) وابن ماجه (رقم ١٠٧٩) والترمذي (رقم ٢٦٢١) وأحمد (٥/ ٣٤٦) والحاكم (١/ ٤٨ رقم ١١) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٦ رقم ٦٢٩١) وانظر: الاستذكار (١/ ٢٣٥) (٢/ ١٥٠) والكبائر (ص١٨-٢٢) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لا تعرف له علة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) انظر: الإقناع لطالب الانتفاع، للحجاوي المقدسي (١/ ١١٧-١٢٢).

(٤) انظر: الإقناع لطالب الانتفاع، للحجاوي المقدسي (١/ ٢٤٥-٢٤٨).

(٥) انظر: الإقناع لطالب الانتفاع، للحجاوي المقدسي (١/ ٣٠٧-٣١٢).

يمكن أخذها إلا بقتال وجب على الإمام قتله إن وضعها موضعها[١]، انتهى كلامه في الإقناع وشرحه.

فتأمل كلامه فيمن ترك الصلاة كسلاً من غير جحود أنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافرًا، وتأمل كلامه في أهل البد إذا تركوا الأذان والإقامة وصلاة العيد أنهم يقاتلون بمجرد ترك ذلك، فهذا كلام المالكية، وهذا كلام الشافعية، وهذا كلام الحنابلة، الكل منهم قد صرح بما ذكرناه، فإذا كانوا مصرحين بقتال من التزم شرائع الإسلام، إلا أنهم تركوا الأذان أو تركوا صلاة الجماعة أو تركوا صلاة العيد، فكيف بمن ترك الصلاة رأسًا كالبوادي الذين لا يصلون ولا يزكون ولا يصومون، بل ينكرون الشرائع، وينكرون البعث بعد الموت، هذا هو الغالب عليهم إلا من شاء الله وهم القليل، وإلا فأكثرهم ليس معهم من الإسلام إلا أنهم يقولون: لا إله إلا الله، ومع هذا يجادل عنهم علماء مكة المشرفة، ويقولون: إنهم مسلمون، وإن دماءهم وأموالهم حرام بحرمة الإسلام، وإن لم يزكوا ولم يصوموا، إلا أنهم يقولون: لا إله إلا الله، وهل هذا إلا رد على الله تعالى، حيث قال: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ ﴾ وهؤلاء يقولون: يخلى سبيلهم وإن لم يصلوا ولم يزكوا.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام**»[٢] وهؤلاء يقولون: من قال لا إله إلا الله عصم دمه وماله وإن لم يصل ولم يزك: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم:٥٩]، فهذا كتاب الله، وهذه سنة رسوله، وهذا

---

(١) انظر: الإقناع لطالب الانتفاع، للحجاوي المقدسي (١/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢).

إجماع الصحابة على قتل من ترك الصلاة أو منع الزكاة.

قال صديق الأمة أبو بكر ﷺ: والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ - وفي رواية - عناقًا لقاتلتهم على منعها[١]، وهذا أيضًا إجماع العلماء.

قال في شرح الإقناع: أجمع العلماء على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله كالمحاربين وأولى[٢]... انتهى.

وقال أبو العباس رحمه الله: القتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب، فأيما طائفة ممتنعة عن بعض الصلوات المفروضات أو الزكاة أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء والأموال، والخمر والزنا والميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفّار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء، وإنما اختلف الفقهاء في الطائفة ا لممتنعة إذا أصرت على ترك بعض السنن كركعتي الفجر أو الأذان أو الإقامة عند من يقول بوجوبها ونحو ذلك من الشعائر، فهل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا؟ فأما الواجبات أو المحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف في القتال عليها، انتهى كلامه.

فتأمل كلام إمام الحنابلة وتصريحه بأن من امتنع من شرائع الإسلام الظاهرة كالصلوات الخمس والصيام أو الزكاة أو الحج، وعن ترك المحرمات كالزنا أو شرب الخمر أو المسكرات أو غير ذلك؛ فإنه يجب قتال الطائفة الممتنعة عن ذلكم حتى يكون الدين كله لله، ويلتزمون بعض شرائع الإسلام، وأن ذلك مما اتفق عليه

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٠٠) ومسلم (رقم ٢٠).

(٢) انظر: السياسة الشرعية (ص ٦٤-٦٥) ومجموع الفتاوى (٧/ ٦٠٤-٦٠٥).

الفقهاء من سائر الطوائف من الصحابة فمن بعدهم.

فأين هذا من قولكم: إن من قال: لا إله إلا الله فقد عصم ماله ودمه وإن ترك الفرائض وارتكب المحرمات، بل من تأمّل سيرة النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده عرف أن قولكم هذا مضاد، لما فعله النبي ﷺ وما فعله الخلفاء الراشدون ومن بعدهم.

فيا سبحان الله أما علمتم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وهم يقولون: لا إله إلا الله، وسبى نساءهم، واستحل دماءهم وأموالهم؟ أما علمتم أن رسول الله ﷺ أراد أن يغزو بني المصطلق لما قيل له: إنهم منعوا الزكاة، وكان الذي قاله كاذبًا، والقصة مشهورة في كتب الحديث والتفسير، وذكرها المفسرون عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[1] [الحجرات:٦].

أما علمتم أن علي بن أبي طالب ﷺ حرّق الغالية مع أنهم يقولون: لا إله إلا الله[2]؟ أما علمتم أن الصحابة ﷺ قاتلوا الخوارج بأمر نبيهم ﷺ مع أنه ﷺ أخبر أن الصحابة يحقرون صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم؛ وقراءتهم مع قراءتهم، وقال: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم»[3] أما علمتم أن الصحابة قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويصلون ويؤذنون ويصومون؟

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٢٤—١٢٥) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٠١ رقم ٩٦٠).

(٢) أخرج الذهبي بسنده عن عثمان بن أبي عثمان قال: جاء ناس إلى علي ﷺ، فقالوا: أنت هو، قال: من أنا؟ قالوا: أنت هو. قال: ويلكم، من أنا؟ قالوا: أنت ربنا. أنت ربنا. قال: ارجعوا. فأبوا، فضرب أعناقهم، ثم خد لهم في الأرض، ثم قال: يا قنبر ائتني بحزم الحطب وأحرقهم، ثم قال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكراً   أججت نارًا ودعوت قنبرًا

انظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٤٠٤). وانظر: أيضًا فتح الباري (٦/ ١٥١) (١٢/ ٢٧٠) والتمهيد (٥/ ٣١٧-٣١٧) وشرح الزرقاني (١٨/٤) وتاريخ مدينة دمشق (٤٢/ ٤٧٥-٤٧٦) وطبقات المحدثين بأصبهان (٢/ ٣٤٢-٣٤٣). وقال الحافظ في الفتح: وهذا سند حسن، بينما قال الشوكاني في نيل الأوطار (٨/ ٦): قال الحافظ: إن إسناد هذا صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٦١١) ومسلم (رقم ١٠٦٦).

أما علمتم أن الصحابة قاتلوا بني يربوع لما منعوا الزكاة، مع أنهم مقرون بوجوبها، وكانوا قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر، فمنعهم مالك بن نويرة، وفي أمر هؤلاء عرضت ا لشبهة لعمر ﷺ حتى جلاها الصديق أبو بكر ﷺ، وقال: والله لو منعوني عقالاً - وفي رواية عناقًا - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق(١). وقد تقدّم ذلك مبسوطًا، وذكرنا لفظه في شرح مسلم في: «باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة».

أما علمتم أن رسول الله ﷺ بعث البراء إلى رجل تزوج امرأة أبيه كما روى الترمذي في سننه حيث قال: «باب فيما جاء فيمن تزوج امرأة أبيه» حدثنا أبو سعيد الأشجع: أخبرنا حفص بن غياث عن أشعث، عن عدي بن ثابت عن البراء قال: مرَّ بي خالي أبو بردة ومعه لواء، فقلت: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوَّج امرأة أبيه أن آتيه برأسه، حديث حسن غريب(٢). انتهى.

ولو تتبعنا الآيات والأحاديث والآثار وكلام العلماء في قتال من قال: لا إله إلا الله إذا ترك بعض حقوقها لطال الكلام جدًّا، فكيف بمن جحد الإسلام كله، وكذب به، واستهزأ به على عمد إلا أنهم يقولون: لا إله إلا الله كهؤلاء البوادي؟

وفيما ذكرنا كفاية لمن طلب الإنصاف، فقد ذكرنا الأدلة من كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، وكلام الصحابة، وإجماع العلماء بعدهم، فإن كان هذا الذي ذكرنا له معنى آخر ما فهمناه بينوه لنا من كلام الله وكلام العلماء، فرحم الله امرءًا نظر لنفسه، وعرف أنه ملاق الله الذي عنده الجنة والنار.

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) وعمدة القاري (٨/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٠٨ رقم ٢٧٧٦) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٢٣ رقم ٤١١٢) وفي موارد الظمآن (رقم ١٥١٦) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٠٧ رقم ٥٤٨٨) وابن ماجه (رقم ٢٦٠٧) والترمذي (رقم ١٣٦٢، ١٤٦٢) وحسنه، وصححه الحاكم، وانظر: فتح الباري (١٢/ ١١٨).

المسألة الثالثة

وأما المسألة الثالثة فقالوا: فهل يجوز البناء على القبور؟

فنقول: ثبت في الصحيحين والسنن، عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن البناء على القبور وأمر بهدمه، كما رواه مسلم في صحيحه حيث قال: حدثنا يحيى حدثنا وكيع، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي وائل، عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته[١].

وقال أيضًا: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة: قال حدثنا حفص بن غياث، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يبنى عليه، وأن يكتب عليه[٢].

قال أيضًا: حدثنا ابن شفي هارون بن سعيد الأيلي قال: حدثنا وهب قال: حدثني عمرو بن الحارث؛ أن ثمامة حدثه قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفى صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوي ثم قال: سمعت رسول الله يأمر بتسويتها[٣].

وقال الترمذي: (باب ما جاء في تسوية القبور) حدثنا محمد بن بشّار: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي: حدثنا سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي وائل؛ أن عليًا ﷺ قال لأبي الهياج الأسدي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته، قال: وفي الباب عن جابر[٤].

وقال ابن ماجه في: (باب ما جاء في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٨).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٠٤٩) وقال أبو عيسى: حديث علي حديث حسن.

والكتابة عليها): حدثنا أزهر بن مروان ومحمد بن زياد، حدثنا عبد الوارث، عن أيوب، عن أبي الزبير، عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور[١].

وحدثنا عبد الله بن سعيد: حدثنا حفص بن غياث، عن ابن جريج، عن سليمان ابن موسى، عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يكتب على القبور شيء[٢].

وحدثنا محمد بن يحيى، حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي: حدثنا وهب: حدثنا عبد الرحمن بن زيد، عن القاسم بن مخيمرة، عن أبي سعيد، أن النبي ﷺ نهى أن يبنى على القبور[٣].

وقال النووي رحمه الله في شرح مسلم: قال الشافعي رحمه الله في الأم: رأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنى، ويؤيد الهدم قوله: ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته[٤]، وقال الأذرعي رحمه الله في (قوت المحتاج): ثبت في صحيح مسلم النهي عن التجصيص والبناء، وفي الترمذي وغيره: النهي عن الكتابة، وقال القاضي ابن كج[٥]: ولا يجوز أن يبنى عليها قباب ولا غيرها، والوصية عليها باطلة.

قال الأذرعي: ولا يبعد الجزم بالتحريم في ملكه وغيره من غير حاجة على من علم النهي، بل هو القياس الحق، والوجه في البناء على القبور المباهاة والمضاهاة للجبابرة والكفار، والتحريم يثبت بدون ذلك، وأما بطلان الوصية ببناء القباب

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٥٦٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٥٦٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٥٦٤).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٢٧) وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ١٣٣) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١١٢) ونيل الأوطار (٤/ ١٣٣).

(٥) هو القاضي العلامة شيخ الشافعية أبو القاسم يوسف بن أحمد بن كج الدينوري تلميذ أبي الحسين ابن القطان، وكان يضرب به المثل في حفظ المذهب وله وجه وتصانيف كثيرة وأموال وحشمة، ارتحل إليه الناس من الآفاق، قتل ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة خمس وأربعمائة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٨٤).

وغيرها من الأبنية العظيمة، وإنفاق الأموال الكثيرة عليه فلا ريب في تحريمه، والعجب كل العجب ممن يلزم ذلك الورثة من حكام العصر ويعمل بالوصية بذلك! انتهى كلام الأذرعي رحمه الله.

ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به، وما نهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما أنتم عليه من فعلكم مع قبر أبي طالب والمحجوب وغيرهما وجد أحدهما مضادًا للآخر، مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا، فنهى رسول الله ﷺ عن البناء على القبور كما تقدّم ذكره، وأنتم تبنون عليها القباب العظيمة، والذي رأيته في (المعلاة) أكثر من عشرين قبة، ونهى رسول الله ﷺ أن يزاد عليها غير ترابها وأنتم تزيدون عليها غير التراب والتابوت الذي عليه ولباس الجوخ، ومن فوق ذلك القبة العظيمة المبنية بالأحجار والجص.

وقد روى أبو داود: من حديث جابر: أن رسول الله نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه، ونهى رسول الله ﷺ عن الكتابة عليها كما تقدم في صحيح مسلم[1].

وقال أبو عيسى الترمذي: (باب ما جاء في تجصيص القبور والكتابة عليها) حدثنا عبد الرحمن بن الأسود: حدثنا محمد بن ربيعة، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها، وأن توطأ، هذا حديث حسن صحيح[2]، وهذه القبور عندكم مكتوب عليها القرآن والأشعار.

وقال أبو داود (باب البناء على القبور) قال: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرني ابن جريج قال: حدثني أبو الزبير أنه سمع جابرًا يقول:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٠٥٢).

سمعت النبي ﷺ نهى أن يقعد على القبر، وأن يجصص، وأن يبنى عليها(١). انتهى.

ولعن رسول الله ﷺ من أسرجها، والذي رأيته ليلة دخولنا مكة شرفها الله في المقبرة أكثر من مائة قنديل، هذا مع علمكم أن رسول الله ﷺ لعن فاعله، فقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ لعن زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج(٢)، رواه أهل السنن.

وأعظم من هذا كله وأشد تحريمًا الشرك الأكبر الذي يفعل عندها، وهو دعاء المقبورين وسؤالهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، لكن تقولون لنا: إن هذا لا يفعل عندها، وليس عندها أحد يدعوها ويسألها، ونقول: اللهم اجعل ما ذكرناه حقًّا وصدقًا، ونسأل الله أن يطهر حرمه من الشرك.. ولا ريب أن دعاء الموتى وسؤالهم جلب الفوائد وكشف الشدائد أنه من الشرك الأكبر الذي كفَّر الله به المشركين، كما تقدّم بيانه في المسألة الأولى، وقد قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن:١٨]. وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس:١٠٦]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر:١٣، ١٤]. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٢٢٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٥٣ رقم ٣١٨٠) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٨٨) والنسائي في الكبرى (١/ ٦٥٧ رقم ٢١٧٠) وأبو داود (رقم ٣٢٣٦) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٧٨ رقم ٦٩٩٨) والترمذي (رقم ٣٢٠) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٤٨ رقم ١٢٧٢٥) وأحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧) وحسنه الترمذي. وانظر: عمدة القاري (٨/ ٦٩) والتمهيد (٣/ ٢٣٢) وتحفة الأحوذي (٢/ ٢٢٦) وفيض القدير (٥/ ٢٧٤).

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف:٥، ٦]. وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ۝١٤ ﴾ [الرعد:١٤].

وقد روى الترمذي: عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء مخ العبادة»(١) وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»(٢) ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ﴾ [غافر:٦٠] رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

قال العلقمي في شرح الجامع الصغير حديث: «الدعاء مخ العبادة»: وقال شيخنا قال في النهاية: مخ الشيء خالصه، وإنما كان مخها لأمرين:

أحدهما: أنه امتثال أمر الله ـ تعالى ـ حيث قال: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فهو محض العبادة وخالصها...

والثاني: إذا رأى نجاح الأمور من الله تعالى قطع أمله عما سواه، ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة(٣).

ولأن الغرض من العبادة الثواب عليها، وهذا هو المطلوب من الدعاء، وقوله: «الدعاء هو العبادة» قال شيخنا: قال الطيالسي: أتي بالخبر المعروف باللام ليدل على الحصر، وأن العبادة ليست غير الدعاء، وقال شيخنا: قال البيضاوي: لما حكم بأن

(١) تقدم تخريجه في أول هذه الرسالة.
(٢) تقدم تخريجه في أول هذه الرسالة.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٠٥) وانظر: لسان العرب (٣/ ٥٣) وسبل السلام (٤/ ٢١٨).

الدعاء هو العبادة الحقيقية التي تتأهل أن تسمى عبادة من حيث يدل على أن فاعله مقبل على الله معرض عما سواه لا يرجو إلا إياه، ولا يخاف إلا منه، واستدل عليه بالآية يعني قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فإنها تدل على أنه أمر مأمور به إذا أتى به المكلف قبل منه لا محالة، وترتب عليه المقصود ترتب الجزاء على الشرط، والسبب على المسبب، وما كان كذلك كان أتم العبادة، انتهى كلام العلقمي رحمه الله.

وليكن هذا آخر الكلام على هذه المسائل الثلاث، فإن وافقتمونا على أن هذا هو الحق فهو المطلوب، وإن زعمتم أن الحق خلافه فأجيبونا بعلم من الكتاب والسنة، فإنهما الحاكمان بين الناس فيما تنازعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩] وقد ذكرنا لكم الأدلة من الكتاب والسنة وكلام الأئمة، فإن لم تسلموا لهذه الأدلة فاذكروا لنا جوابها من الكتاب والسنة وكلام الأئمة، فإذا أجبتم على هذه المسائل الثلاث أجبناكم عن بقية المسائل.

ولنختم الكلام بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

والحمد لله أولًا وآخرًا كما يحب ربنا ويرضى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁❁❁

الرسالة الرابعة عشرة:

تحذير أهل الإيمان
عن
الحكم بغير ما أنزل الرحمن

تأليف

الشيخ أبي هبة الله إسماعيل بن إبراهيم
الخطيب الحسني الأسعردي الأزهري السلفي
رحمه الله

قدم له

فضيلة الشيخ: علي الحمد المحمد الصالحي
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

بقلم علي الحمد المحمد الصالحي

الحمد لله الذي بفضله أكمل لنا الدين، وأتم علينا برحمته النعمة ببعثة النبي الأمين، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، صلى الله وسلم عليه وعلى أصحابه أولي النهي وأقمار الدجى، ومن سار على نهجه واقتفى أثره.. وبعد:

فقد وقعت بيدي هذه الرسالة المباركة العظيمة النفع في بابها، وكيفية وجودها:

ذلك أني وجدت أوراقًا منوعة موضوعة في المسجد فقلبتها فوجدت منها ورقتان أول ملزمة وآخرها ٤ صفحات فقط، فراقني ما احتوت عليه، فبحثت مع بعض إخواني فلم أجد من يفيدني عنها، فصادف وجودي بمكة فسألت الشيخ عبدالعزيز بن سبيل رحمه الله، فأفادني أنها ضمن المجموعة المنيرية، فصورتها من مكتبة الحرم، وساهمت في نشرها، وطبعت منها عشرة آلاف بذاك التاريخ.

وكان من فضل الله أن قام بطبعها الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة مرتين زادها الله توفيقًا وسدادًا.

وعلى ضوء ما وقع من وجود هذه الرسالة الفذة في بابها، فهو دليل على أن طلبة العلم والدعاة إلى تمسك الناس بالكتاب وأهداب الدين أن يدونوا ما تجود به قرائحهم، والتنفيذ بيد الله.

وأذكر لك أيها الأخ الكريم ما كتبه الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني الذي عاصر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في رسالته تطهير الاعتقاد، حيث انتقد أمورًا منكرة من أعمال القبوريين وغيرهم مبتدعة في دين الله.

منها المقامات الأربعة في الحرم، المكي إذ كان يقوم في الصلاة الواحدة أربعة أئمة، كل إمام يصلي بأهل مذهبه على طريقة تعرض لها المؤرخون، ومنهم صاحب الجامع اللطيف في فضل مكة وبقيت هذه البدعة أكثر من خمسمائة سنة رغم استنكار

العلماء لها في وقتها وبعده، حتى قيَّض الله الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فأزالها بحكمة فائقة فريدة، فيما ذكر لي أنه كتب لمثله بمصر أن يختار له عالمًا عاقلاً سنيًا، فاختار له الشيخ عبد الظاهر أبو السمح ـ رحمه الله ـ فكان إمامًا للحرم لعموم المسلمين فأدركته. وبهذا التصرف الحكيم أزال هذه البدعة المشينة، كما وصفها الصنعاني ـ رحمه الله ـ بقوله: إنها قرت بها عين إبليس اللعين، وفرقت المسلمين، إلخ ما ذكره، وللملك عبد العزيز مآثر كثيرة لقي الله بها، ونرجو الله أن يقوم أولاده وأحفاده بما قام به، ليحوزوا شرف الدنيا والآخرة، وينتظموا في سلك من قال الله عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وما ذلك على الله بعزيز، وهذه الرسالة رغم أنها صغيرة الحجم فهي فريدة غالية تشع بنور الإيمان والحكمة، لأن أدلتها من الكتاب والسنة، وقد حرصت على نشرها رجاء أن ينفع الله بها في هذا الزمن، الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، وانتشرت فيه الفوضى والعبث في أمور الدين في كثير من الأقطار، وأصبح الناهي لهم عن الوقوع في متاهات الضلالة، كمن ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، فهم صم عن سماع داعي الهدى، عمي عن السير وراء من يحمل مشعل النور، ويهرعون كالخفاش وراء داعي الردى، قد استولى عليهم الشيطان الغرور، وزين لهم عملهم الذي سيجنون من ورائه الويل والخيبة والثبور، قد هجروا القرآن ودراسته، فحرموا الأمن والاستقرار، وحصلوا على الخيبة والدمار، ويوم القيامة سيعضون على أيديهم، حيث جانبوا سبيل الرشاد، واقتفوا سبل دعاة الباطل والعناد من الكفرة وأذنابهم في تعلمهم وثقافتهم دعاة الفساد، فيا ويلهم ثم ويلهم حين السؤال، من الملك الكبير المتعال، ويا خيبتهم حين الورود على الحوض فيذادون عنه كما تذاد الضوال، وما ذاك إلا لميلهم عن الحق، وتضليلهم لغيرهم من الخلق.

وقد ذكر لي الشيخ محمد نصيف ـ رحمه الله وجمعنا به مع الطيبين في دار كرامته ـ في معرض الحديث عن مؤلف هذه الرسالة: أنه هاجر من مصر إلى مكة، وقضى

آخر حياتها فيها. ومن هذا نفهم أن أم القرى من حولها هي المعقل الأول والأخير، والله المستعان.

فهل من يسمع لدعوة هذا المؤلف الذي أبدى نصحه وبذل وسعه بأسلوب الداعي الحكيم والمربي الرحيم. وهل يهب زعيم مخلص لله ناصح للأمة فيقودها إلى ساحات النجاة قبل الفوات.

هذا ما نرجوه من الرب العظيم، وعليه المعول، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الناشر

علي الحمد المحمد الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق المبين، والحبل المديد المتين، الذي من اعتصم به فقد تمسك بالعروة الوثقى، وكان من الناجين، ومن أعرض عنه ولم يرفع له رأسًا فقد خاب وخسر ذلك الأبعد الأشقى، وكان من النادمين الندامة الكبرى، الداعين على أنفسهم بالويل والثبور، حيث لا ينفع ندم ولا أنين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاءنا من ربه، بتلك الشريعة الوافية، الكافية الشافية، الناجعة النافعة، الجامعة المانعة، المغنية الغنى التام عن جميع الشرائع والقوانين، وعلى آله وأصحابه، وأحبابه وأحزابه، الذين جاهدوا والذين يجاهدون في نصر دين الله، وإعلاء كلمة الله، جميع المعارضين والمضادين، من المشركين والمارقين المنافقين المعاندين المعادين، المحادين المشاقين لله ولرسوله الصادق المصدوق الأمين.

بيان أعظم أسباب التأخر والتقهقر

أما بعد: فإني أرى أن الجهل قد عم الحاضر والبادي، وخيم بأطنابه على القاصي والداني، وعلم الكتاب والسنة، الذي هو من كل شر جُنة، مع أنه المنار الذي يهتدي به المجدون، ويسترشد به المسترشدون، ومن لا نصيب له وافر منه فهو راكب متن عمياء، وخابط خبط عشواء، وهو إلى الضلال أقرب منه إلى الهدى، وإلى الردى أقرب منه إلى السلامة والنجاة، قد خبت ناره، وولت الأدبار أنصاره، ورأوه شيئًا هينًا أو فريًا، واتخذوه وراءهم ظهريًا.

قد أهملوه وضيعوه وهجروه هجر القلى، وقطعوه وأولعوا بعلوم لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تنفع للظمآن لهاة، وأكبوا عليها إكباب المقامر على ملهاة، ووقفوا أعمارهم العزيزة على نحو كتب الفلاسفة وكتب القيل والقال، وفضول العلوم التي لا تأتي بطائل ونوال، لا في دين ولا في دنيا أصلًا وقطعًا، وهم مع هذا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فهم ولا شك من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، فلذلك أظلمت منهم القلوب والبصائر، وعميت منهم

السرائر، فلا يتنبهون للخطوب التي تحل بهم، وإن تنبهوا فقلما تجد فيهم من يفدي نفسه في سبيل دفع ذلك الملم المدلهم، فكل يقول: أنا ما لي، حسبي مراقبة حالي، والدين له رب يحميه، يحوطه ويعليه.

وهذه كلمة حق أريد بها باطل، أفما قرأ عمره القرآن هذا القائل، فيرى أمر ربه بالدفاع عن دينه وشرعه، وبذل الجهد المستطاع في إعلاء كلمته، نعم قال عبد المطلب: البيت له رب يحميه[1]، لما لم يجد عنده من الأسباب الظاهرة ما يقاوم به أبرهة والفيلة ويكفيه، فالتجأ في المعنى إلى ربه، وأظهر له عجزه عن ذبه، حتى كان ما كان، أما والإنسان يتمكن من نصر الحق أدنى تمكن ولو بالبيان بالقلم أو اللسان، فلا يسوغ له التأخر عن ذلك كيفما كان.

لماذا إذا اهتضم في شيء من حقوقه يسعى أقصى جهده، ويبذل غاية وسعه في الحصول على مطلوبه ويدأب الليل والنهار، ويتوسل بكل الوسائل حتى البعيدة المتوهمة للوصول إلى مرغوبه.

ما ذاك إلا لنقص وضعف في الإيمان، وانحطاط في الهداية والعرفان، فلا يتألم أدنى تألم إذا أصيب بأكبر شيء في دين الله، ويتألم أشد التألم إذا أصيب بأحقر شيء في دنياه، فهؤلاء هم كما قال القائل لابنه كما أنشده في المدخل:

أَبُنَـــيَّ إن مـــن الرجـــال بهيمـــة ... في صـورة الرجـل الـسميع المبـصر
فطـــن بكـــل مـــصيبة في مالـــه ... فـــإذا أصـــيب بدينـــه لم يـــشعر[2]

هذا حال أغلب خواصنا إلا القليل الذي وفقه الله وقليل ما هم: فما بالك بعوامنا؟ فهم كما قال القائل:

---

(١) ذكره علي بن محمد بن سلطان الهروي في المصنوع (ص ٢٤٤) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٨١ رقم ٢٠٣٧).

(٢) ذكر البيتين ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٧/ ١١٨) ونسبهما إلى أبي عمرو بن العلاء، وانظر: التدوين في أخبار قزوين (٤/ ٨٣).

لم يبق من جل هذا الناس باقية ... ينالها الوهم إلا هذه الصور

وكما قال الثاني:

واعلم بأن عصبة الجهال ... بهائم في صور الرجال

وكما قال الثالث:

لا تخدعنك اللحى ولا الصور ... تسعة أعشار من ترى بقر

تراهم كالسحاب منتشرًا ... وليس فيه لطالب مطر

في شجر السرو منهم شبه ... له رواء وما له ثمر

وكما قال الرابع:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ ... جسم البغال وأحلام العصافير[(١)]

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقين: ٤] فلذلك ترى غالب الناس اليوم إلى أوضاع القوانين البشرية الشيطانية أميل وأطوع منهم إلى أوضاع القانون الإلهي، والوحي السماوي، وترى المتشدقين المتحذلقين الذين يزعمون أنهم يريدون ترقية الأمة ولمّ شعثها، وضمّ شملها، بأفكارهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، وسياساتهم المخالفة المنابذة لسياسات الشريعة الحقة الصادقة، لا يقومون مقامًا ولا يجلسون مجلسًا إلا حثوا فيه الناس اتباع كل صادق وناعق، الذين يميلون مع كل ريح، ولم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق[(٢)] على ما يتمكنون به من مقتضيات أهوائهم

---

(١) ذكره ابن منظور في لسان العرب (١٥/ ٢٠٨) وفيه: (عظم) بدل من (غلظ).

(٢) وصّى علي بن أبي طالب ﷺ كميل بن زياد رحمه الله فقال له: ياكميل بن زياد القلوب أوعية، فخيرها أوعها، أحفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.. إلخ وصيته ﷺ أخرجها أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٩-٨٠) وانظر: تذكرة الحفاظ (١/ ١١) وتهذيب الكمال =

النفسانية ومشتهيات أطباعهم البهيمية الشيطانية، من قوانين أهل الكفر والصليب والتشبه بهم في الأفعال والأقوال، فترى لذلك قلوب الناس من قريب وبعيد وحاضر وباد، إلا من عصمه الله من الأفراد، متمالئة على قبولها غير مكترثين بالقانون الذي نزل من عند الله، وبينه لنا رسول الله المعصوم الصادق المصدوق، الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﷺ، حتى جعلوا التحاكم إليها والتعويل في الأحكام عليها، وجعلوا لهم محاكم سموها بأسماء ليست من حقيقتها في شيء، بل هي معها على طرفي نقيض. فسموا شرعية، وعدلية، وحقوقية، وغير ذلك من الأسماء التي لا حقيقة لها، بل هي الغول أو العنقاء. فالشرعية في الحقيقة هي الخدعية. والعدلية هي العدلية، لكن عن نهج الشريعة المحمدية. والحقوقية هي الحقوقية، لكن بمعنى كونها محل ضياع الحقوق الخالقية والمخلوقية، قد نسوا القرآن وأطرحوه خلف ظهورهم بالكلية، واعتاضوا عنه بقوانين الكفار وآراء ابتدعوها تقولاً على الشريعة الغراء الأحمدية، ولم يرضوا بحكم الله ورسوله فيهم، ورضوا بأحكام الكفار وآرائهم، فتعسًا لها من عقول، لا تُشترىٰ ولا بالبقول، وهم مع هذا يزعمون أنهم من العقل على جانب عظيم، لا يلحقهم فيه الحديث ولا القديم.

وليت شعري أي عقل يكون لمن لا يرضى بحكم أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، وأعدل العادلين، ويرضى بحكم الجاهلين وأظلم الظالمين.

وما أرى مثل هؤلاء القوم من ذوي الأبصار المطموسة والبصائر المعكوسة، إلا مثل الجعل يتأذى من رائحة المسك والورد الفواح، ويحيا بالعذرة والغائط في المستراح. فسحقًا لأمثال هذه العقول، سحقًا، ومحقًا لهن اللهم محقًا.

فلما تمادى بنا ذلك الحال، ومرت به علينا سنون وأحوال، حتى فتح الله تعالى لعباده باب حرية المقال، بعد ما قد كانوا ألجمهم الاستبداد المفرط بلجوم السكوت على مر الأحوال، وألقمهم حجر الصمت على ما هو أعيا من الداء العضال، غير أنه

=

(٢٤/ ٢٢٠) وتاريخ بغداد (٦/ ٣٧٩) وتاريخ مدينة دمشق (١٤/ ١٨).

وقع الناس في اضطراب وارتباك وجدال، وتفرق الناس فرقًا مختلفة المسالك والمذاهب، وتحزبوا أحزابًا غير مؤتلفة المشارب.

وكان من تلك الفرق جمعية الاتحاد المحمدي المتجمعة لطلب العمل بالشرع الأحمدي، قوَّى الله عضدها، وأيَّد ساعدها، وأخذ بأيديها، وبدَّد شمل أعاديها، ألهمني الله تعالى أن أكتب نبذة شافية صدور الذين أوتوا العلم، والذين يريدون أنهم بهدي ربهم يهتدون، على شريطة الاختصار في المقال، حذرًا من السآمة والملال، وأبين اضطرار الناس إلى الشريعة جدًّا، وأجمع بعض الآيات الدالة على إغناء القرآن بالسنة النبوية المبينة عن جميع الشرائع السابقة والقوانين البشرية الشيطانية اللاحقة، ليكونوا على بصيرة من أمرهم، ويحذروا من كيد عدوهم ومكرهم.

[فأقول] وأنا أبرأ إلى الله من القوة والحول، وأستغفره من زلل الفعل والقول.

معلوم لكل من عنده أدنى مسكة من عقل: أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذا الخلق عبثًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وكما قال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] أي مهملاً هملًا لا يؤمر ولا ينهى، كما قال الشافعي ـ أو لا يثاب ولا يعاقب، كما قال غيره[(١)]، والقولان معناهما واحد، لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي، فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهي في الدنيا، والثواب والعقاب في الآخرة ـ وكما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] ولا فرق بين إبقاء العبادة على ظاهر معناها أو تفسيرها بالمعرفة، كما يروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فإنهما متلازمان، فالمعرفة لا تكون بدون عبادة، والعبادة لا تكون بدون معرفة.

---

(١) انظر: الأم (٧/ ٢٩٨) والرسالة (ص ٢٥) وأحكام القرآن للشافعي (١/ ٣٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٣) وسنن البيهقي الكبرى (١٠/ ١١٣) وتفسير الطبري (٢٩/ ٢٠٠-٢٠١) وتفسير السيوطي (٨/ ٣٦٣).

وأما ما يستدل به بعض من لا إلمام له بعلم الحديث مما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**كنت كنزًا لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقًا فعرفتهم بي فعرفوني**» فقد قال حفاظ الحديث ونقاده: إنه لا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف[(١)].

إذا تمهد هذا فنقول: ليعلم أن حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية جدًّا فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها. ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة، وأما أهل البدو كلهم وأهل الكفور كلهم وعامة بني آدم فلا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصح أبدانًا وأقوى طبيعة، ممن هو متقيد بالطبيب، ولعل أعمارهم متقاربة.

وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم، وجعل لكل قوم عادة وعرفًا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء، حتى إن كثيرًا من أصول الطب إنما أخذت من عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم.

وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض، بخلاف الطب فمبناها على تعريف المنافع والمضار التي للبدن وعليه، مما قد لا تمس الحاجة إليه، وغاية ما يقدر في عدمه موت البدن وتعطل الروح عنه.

وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد.

وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة، ولا سبيل إلى

---

(١) ذكره الهروي في المصنوع (ص ٢٣١) وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٧٣ رقم ٢٠١٦): قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلي والسيوطي وغيرهم، وقال القاري: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليعرفوني كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر: الإحكام للآمدي (١/ ٣١) والتعاريف (ص ٥٦٨) والتعريفات (ص ٢١٨) وأبجد العلوم (٢/ ١٥٩).

الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على[١] هذا الجسر.

ثم لفظ الشريعة يتكلم به كثير من الناس ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى، وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله، فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق كائنًا من كان الخروج عنه، ولا يخرج عنه إلا كافر ـ وبين الشرع الذي هو أقوال أئمة الفقه وآراؤهم التي أدى إليها اجتهادهم ووصلت إليها أفهامهم: كأبي حنيفة، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من الأئمة المجتهدين، رضي الله عنهم أجمعين.

فهؤلاء أقوالهم تعرض على الكتاب والسنة، ويحتج لها بهما[٢] لما هو معلوم من حديث الحاكم والثابت من طرق في الصحيح: أن المجتهد يصيب ويخطئ، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر على اجتهاده، والله يغفر له خطأه، لكنه لا يتابع عليه[٣]. فما وافقهما أو كان أشبه بهما فهو الصواب، وما خالفهما فهو خطأ لا يجوز لمن تبينه واطلع عليه متابعة من ذهب إليه، وإذا قلد المقلد أحدهم حيث يجوز له التقليد كان جائزًا، وليس اتباع أحدهم بعينه واجبًا على جميع الأمة كاتباع الرسول ﷺ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم.

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة، أو تأويل النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك، فهذا من نوع التبديل، فيجب الفرق بين

---

(١) في المطبوعة (إلى) وصوَّبها الشيخ الصالحي رحمه الله في هامش المطبوعة.

(٢) فقد ثبت عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: إذا قلت قولًا يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولي: وقال مالك رحمه الله: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه، وقال الشافعي رحمه الله: ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصّلت من أصل، فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي، وقال أحمد رحمه الله: من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة. كل هذه الأقوال وغيرها ذكرها الألباني رحمه الله في صفة صلاة النبي ﷺ (٢١-٢٩).

(٣) فعن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» أخرجه البخاري (رقم ٧٣٥٢) ومسلم (رقم ١٧١٦).

الشرع المنزل، والشرع المؤول والشرع المبدل.

ولأتحفك هنا بقاعدة عظيمة، وفائدة جسمية، تتعرف فيها حال كل قول يرد عليك ينسب إلى الشرع.

وهي أنه إما أن يكون هذا القول موافقًا لقول الرسول، أو لا يكون.

والثاني: إما أن يكون موافقًا لشرع من قبله، إما أن لا يكون.

وهذا الثالث إن كان لا عن شبه دليل بل محض اتباع الهوى، فهو المبدل: كالأديان التي شرعها الشياطين على ألسنة أوليائهم.

قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وإن كان عن شبه دليلٍ فهو المؤول، وفي هذا كان الصحابة ﷺ إذا قال أحدهم برأيه شيئًا مما لم يجد فيه نص كتاب أو سنة عن النبي، واضطر لمعرفة الحكم الذي يرضاه الله ورسوله، يقول: إن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريء منه، كما قال ذلك ابن مسعود، وروي عن أبي بكر وعمر[(١)]. وما كان شرعًا لغيره وهو لا يوافق شرعه فقد نسخ كالسبت، وتحريم كل ذي ظفر وشحم الثرب والكليتين، فإن اتخاذ السبت عيدًا، وتحريم هذه الطيبات قد كان شرعًا ثم نسخ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٨٤) وتفسير السيوطي (١/ ٧٠١) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٨٥) (٣/ ٥٤٥). وأثر ابن مسعود أخرجه الحاكم (٢/ ١٩٦ رقم ٢٧٣٧) وابن الجارود (١/ ١٧٩ رقم ٧١٨) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٠٩ رقم ٤١٠٠) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣١٦ رقم ٥٥١٥) وأبو داود (رقم ٢١١٦).

فالأقسام ثلاثة إجمالاً، وأربعة تفصيلاً، فاحتفظ كل الاحتفاظ على هذه القاعدة تنفعك. ثم دين الأنبياء كلهم الإسلام، كما أخبر الله بذلك عنهم في غير موضع من القرآن، وكما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»(١)، وهو الاستسلام لله وحده، وذلك إنما يكون بطاعته فيما أمر به في ذلك الوقت، فطاعة كل نبي هي من دين الإسلام إذ ذاك، فاستقبال صخرة بيت المقدس مثلاً كان من دين الإسلام، قبل النسخ، ثم لما أمر باستقبال الكعبة صار استقبالها من دين الإسلام، ولم يبق استقبال الصخرة من دين الإسلام، ولهذا خرج اليهود والنصارى عن دين الإسلام فإنهم تركوا طاعة الله وتصديق رسوله، واعتاضوا عن ذلك بمبدل أو منسوخ.

وبالجملة فدين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [عمران: ٨٥]، عام في كل زمان ومكان.

فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون: كلهم دينهم الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والاستسلام له ظاهرًا وباطنًا، وعدم الاستسلام لغيره، كما قد بين ذلك عنهم القرآن، فدينهم كلهم واحد، وإن تنوعت شرائعهم، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]. والله تبارك وتعالى قد بعث محمدًا ﷺ بشرائع الإسلام الظاهرة وحقائق الإيمان الباطنة. ففي مسند أحمد عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»(٢).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٣) ومسلم رقم ٢٣٦٥).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٤) وأبو يعلى (٥/ ٣٠١-٣٠٢ رقم ٢٩٢٣) وابن أبي شيبة (٦/ ١٥٩ رقم =

وفي البخاري أن جبريل أتى النبي ﷺ فسأله عن الإيمان والإسلام، والإحسان[١]، فمن لم يقم بشرائع الإسلام الظاهرة امتنع أن يحصل له حقائق الإيمان الباطنة، ومن حصلت له حقائق الإيمان الباطنة فلابد أن يحصل له حقائق شرائع الإسلام الظاهرة، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فمتى استقام الملك وصلح استقامت جنوده وصلحت، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب»**[٢].

فإذا كان في القلب حقائق الإيمان الباطنة فقد صلح، فلابد أن يكون سائر جسده صالحًا، فإن لم يكن جسده صالحًا امتنع أن يكون في باطنه حقائق الإيمان: كإخلاص الدين لله، وحبه، وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه.

وأصل الإيمان والتقوى، الإيمان برسل الله، وجماع ذلك الإيمان بخاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسله.

وأصل الكفر والنفاق، هو الكفر بالرسل وبما جاءوا به، فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب الأكبر في الآخرة، فإن الله تعالى أخبر في كتابه أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد بلوغ الرسالة.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِنَا ﴾

=

٣٠٣١٩) والديلمي في الفردوس (رقم ٣٩٣) وانظر: الدر المنثور (٧/ ٥٨٣) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤١١) وجامع العلوم والحكم (١/ ٢٩) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢): رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه، والبزار باختصار ورجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسي وأبو حاتم وابن معين وضعفه آخرون.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (قم ٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢) ومسلم (رقم ١٥٩٩).

[القصص: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: ٥٤-٥٩]. وقال تعالى في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٧٦]. وقال تعالى فيهم: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨-٩].

فأخبر أنه كلما ألقي في النار فوج وسئلوا عن النذير أقروا بأنه جاءهم فكذبوه، فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها إلا من كذب النذير. وقال تعالى في خطابه لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٥] فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن تبعه، فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم، فعلم أنه لا يدخل النار إلا من تبع الشيطان، وهذا يدل على أنه لا يدخلها من لا ذنب له فإن من لا يتبع الشيطان لا يكون مذنبًا، وما تقدم يدل على أنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسل، وهذا المعنى في القرآن كثير.

وإذا أحطت علمًا بهذه المقدمات التي مهدناها لك علمت علم اليقين: أن الاعتياض عن القانون السماوي، الذي جاء به الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وآله بالقانون الأرضي الإنساني الشيطاني: الذي لا يخلو مهما توافقت عليه الآراء، وتطابقت عليه الأملا، من غلط وخطأ، لاسيما إذا كان ممن لا علم عندهم بمعاني كتاب الله وسنة نبيه، الداعي على بصيرة إلى الله، بل غاية أحدهم أن يكون قد تعلم بعض العلوم الآلية، وفضول العلوم التي قد لا يحتاج إليها في الدين بالكلية، هو من أعظم أسباب المقت والحرمان، وأكبر موجبات العقوبة والخذلان، كيف لا وهو اتخاذ لدين الله هزوًا ولهوًا ولعبًا، وتبديل لنعمة الله بالنقمة، وللشكران بالكفران، وشرع دين لم يأذن به الله، واتباع لغير سبيل المؤمنين، ومشاقة ومحادة ومحاربة وخيانة لله ولرسوله، وعشو عن ذكر الرحمن، وإعراض عنه.

إلى غير ذلك من المفاسد والمحاذير، التي لا تدخل تحت الحساب، ولا تضبطها أقلام الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]. وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ

ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

فإذا كان هذا حكم الباغين المحاربين الخارجين عن طاعة الإمام، الذين شقوا عصا الجماعة(١)، فما بالك بمن دعا الناس كافة: عربًا وعجمًا، مؤمنهم وكافرهم، إلى قانون اخترعه هو أو غيره من جنس الخيالات الباطلة، فخرج هو وأخرج به عن طاعة الله وطاعة رسوله، وحاربهما وحادهما وشاقهما بمخالفة أمرهما، أليس هو أولى بذلك؟ بلى وربك، فإنه رأس الفساد وأم الشرور والخبائث، وما يعقله إلا العالمون.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وأضله به، إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانًا يقارنه، فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد، حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٨]. وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله، فلابد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠](٢).

---

(١) وهم الخوارج الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» وفي رواية: «قتل ثمود» أخرجه البخاري (رقم ٤٣٥١) ومسلم (رقم ١٠٦٤).

(٢) قال الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان (٢/ ٢٢٤): وبين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، ومن تلك الموالاة طاعتهم لهم فيما يخالف ما شرعه الله تعالى،

=

(قيل:) لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي، الذي جاء به الرسول ﷺ، ولو ظن أنه مهتد، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل أوتي من تفريطه وإعراضه.

وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر، والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول المعرض، وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قدمنا.

وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ [طه: ٩٩- ١٠١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٦- ١٧]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ [طه: ١٢٤] أي لم يتبع الذكر الذي أنزلته، وهو القرآن.

وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكرني، بل هذا لازم المعنى، فالذكر هنا مضاف إضافة الأسماء، لا إضافة المصادر إلى معمولاتها ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ٢٤- ٢٦].

فأخبر سبحانه أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى، الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى، فإن له معيشة ضنكًا. عكس من حفظ عهده، فإنه قد تكفل له أن يحييه حياة

=

ومع ذلك يظنون أنفسهم على هدىً، وبيّن في موضوع آخر: أن من كان كذلك فهو أخسر الناس عملًا، والعياذ بالله تعالى، وهو قوله جل وعلا: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] هذه النصوص القرآنية تدل على أن الكافر لا ينفعه ظنه أنه على هدى، لأن الأدلة التي جاءت بها الرسل لم تترك في الحق لبسًا ولا شبهة، ولكن الكافر لشدة تعصبه للكفر لا يكاد يفكر في الأدلة التي هي كالشمس في رابعة النهار لجاجًا في الباطل وعنادًا، فلذلك كان غير معذور، والعلم عند الله تعالى.

طيبة، ويجزيه أجره في الآخرة بقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦٠- ٦١].

قال أهل التحقيق من أهل التفسير: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله.

قال المحقق ابن القيم في كتابه «أعلام الموقعين عن رب العالمين» بعد هذه العبارة، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها، رأيت أكثرهم منحرف عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة الله ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت، ومتابعة هؤلاء انحراف، لأنهم لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة، وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا[1].

(١) إعلام المؤقعين (١/ ٥٠-٥١) وانظر: تفسير الطبري (٥/ ١٥٢-١٦١) وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٩١-٩٩٢) وتفسير السيوطي (٢/ ٢٢-٢٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٣١٢-٣١٣).

ولقد صدق والله فيما نطق، هذا حال جلنا إن لم يكن كلنا، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى من فساد قلوبنا ونياتنا وأحوالنا وأخلاقنا، فقد بلغ الفساد بنا مبلغًا، لا يمكن أن ينهض بنا ناهض لشيء من معالي الأمور، إلا من ساعدته يد التوفيق وما أقلهم، بل هم أعز من الكبريت الأحمر.

ثم لو لم يكن في القرآن المجيد في الزجر عن اتباع القوانين البشرية غير هذه الآية الكريمة لكفت العاقل اللبيب، الذي أوتي رشده، وأهمه صلاح قلبه عن تطلب غيرها، فكيف والقرآن كله يدعو إلى تحكيم ما أنزل الله، وعدم تحكيم ما عداه، إما تصريحًا وإما تلويحًا، وله جاهد من جاهد، ويجاهد من يجاهد من عباد الله المتقين من لدن بعث سيدنا محمد ﷺ إلى يوم تقوم الساعة. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا خلاف من خالفهم، حتى يأتي أمر الله**»(١) وأنه قال: «**لا تجتمع أمتي على ضلالة**»(٢).

فعلمنا بذلك أن من الممتنع بالسمع أن يتمالأ العالم كلهم شرقًا وغربًا من أمة سيدنا محمد ﷺ على اتباع القوانين البشرية وعدم المبالاة بالقانون الإلهي؛ بل لابد أن يكون فيهم ولو واحد ينكر على هؤلاء الكل: إما بلسانه إن أمكنه ذلك ولم يفتكوا به، وإما بقلبه إن لم يمكنه وظن الفتك به، كما قد كان أيام الاستبداد.

والغرض بيان أن طائفة الحق لا تزال تقاتل وتجاهد على تحكيم ما أنزل الله باللسان، والبيان، والبدن والسنان والمال، وكل ممكن لنوع الإنسان وأن به يتم نظام العدل، والملك، والدين والدنيا، وبه يستقيم أمر المعاش والمعاد، وتكمل لهم الراحة والأمن، والحرية التامة، والسياسة العامة لجميع الملل والرعايا المختلفة الأصناف والألسنة والأمزجة (ومن شك في هذا فلينظر الفرق بين حال الإسلام في هذه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧١، ٣١١٦) ومسلم (رقم ١٩٢٠).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٢١-٢٢٢): رواه أحمد والطبراني وفيه راوٍ لم يسم، وضعفه العيني في عمدة القاري (٢/ ٥٢) (١٦/ ١٦٤) والنووي كما نقله عنه العظيم آبادي في عون المعبود (٧/ ١١٧).

القرون المتأخرة، التي عطلت فيها حدود الشريعة وأحكامها، وحاله في القرون المتقدمة التي ما كانت على شيء أحفظ منها على أحكام الشريعة وأرعى لها؛ يجد الفرق كما بين الثرى والثريا، وكما بين الأرض والسماء، وكما قال الشاعر:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ... ونزلت بالبيـداء أبعد منزل

ألا ترى أن الصحابة ﷺ بعد وفاة نبيهم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فتحوا ما فتحوا من الأقاليم والبلدان، ونشروا الإسلام والإيمان والقرآن، في مدة نحو مائة سنة مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وضيق ذات يدهم.

ونحن مع كثرة عَدَدنا، ووفرة عُدَدنا، وهائل ثروتنا، وطائل قوتنا، لا نزداد إلا ضعفًا وتقهقرًا إلى وراء، وذلًا وحقارة في عيون الأعداء، وذلك لأن من لا ينصر دين الله لا ينصره، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ [محمد: ٧].

فرتب نصرَه على نصرِه بإقامة طاعته وطاعة رسوله، فأفهم أنه لا ينصر من لا ينصره،وهو كذلك، كما جرت به عادته وسنته في عباده، والمفهوم المخالف وإن كان في حجيته خلاف مبين في أصول الفقه[1] ليس هذا موضع بسطه، فهذا المفهوم لا خلاف في صحته واعتماده، لاعتضاده بدلائل أخرى وشهادة الواقع له، وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

فأخبر تعالى بأنه ينصر من ينصر دينه.

ثم بين تعالى الذين ينصرون دينه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤٠]. فمن لم يكن موصوفًا بهذه الصفات الأربع ممن مكنه الله تعالى في الأرض، فلا حظَّ له بنصرة الله تعالى. وقال تعالى لأهل بدر: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن

---

(١) انظر: الإحكام للآمدي (٣/ ٦٦-٧٢) وإرشاد الفحول للشوكاني (٢/ ٣٨-٣٩).

فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [عمران: ١٢٥]. فعلق إمداده لهم على شيئين: هما عماد النصر: الصبر، وتقوى الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١] فوعد ووعده حق بنصرة الرسل والمؤمنين في الدنيا والآخرة بالحجة والظفر والغلبة على مخالفيهم وأعاديهم، وهذا كقوله الآخر: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] فوعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢]. وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ فأخبر سبحانه عن نفسه أنه كتب وجعل الغلبة له ولرسله وأتباعهم. وقال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

فخص المؤمنين بدفاعه عنهم ونصره لهم، وجعل العلة في ذلك: أنه لا يحب أضدادهم. فإذا كان قد كتبها له ولرسوله وأتباعهم وأوليائهم، وخصهم بالدفاع عنهم، وعلل ذلك بأنه لا يحب الخوان والكفور، وكان من المحال أن تكون الغلبة لأعدائه وأعداء رسله، وهم الخونة الذين يخونون الله والرسول، ويخونون أماناتهم، ويكفرون نعم الله عليهم ويغمطونها.

ولا ينافي ذلك انهزامهم في بعض المشاهد، وما جرى عليهم من القتل في بعض المغازي، فإن الغلبة كانت لهم ولمن بعدهم في العاقبة، وكفى بمشاهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلاً يحتذى عليها، وعبرًا يعتبر بها.

وعن الحسن ؓ: «ما غُلِبَ نبي في حرب ولا قتل فيها»، ولأن قاعدة أمرهم وأساسهم والغالب منه هو الظفر والنصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة: لرفع درجاتهم، وزيادة أجورهم ومثوباتهم، والحكم للغالب.

وبالجملة فقد ضمن الله تبارك وتعالى لكل من نصر دينه المبين، وأطاع رسوله الأمين؛ أن ينصره في الدنيا والآخرة، فمن خذل دينه وخالف رسوله؛ استحق أكبر العذاب وأشد النكال في الدارين، ولم يغن عنه لا مال ولا أحد من الله فتيلاً.

ألا ترى أن أهل أحد لما أمرهم رسول الله ﷺ أن يثبتوا في مكانهم عند الجبل ولا يزايلوه، سواء كانت الدولة للمسلمين أو عليهم، فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم السيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم، يقتلونهم قتلًا ذريعًا، فلما فشلوا وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون، فما موقفنا ههنا؟ وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله ﷺ، فثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة، ونفر ينهبون أعقابهم؛ كر عند ذلك المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير ﷺ، وأقبلوا على المسلمين وحالت الريح دبورًا وكانت صبًا، حتى هزموا وقتل من قتل، وذلك كله بشؤم مخالفة بعضهم أمر رسول الله ﷺ وعصيانهم له. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وألا ترى أن أهل المدينة كانوا في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي؛ أفضل أهل الدنيا والآخرة لتمسكهم بطاعة الرسول ﷺ، ثم تغيروا بعض التغير فقتل عثمان، وخرجت الخلافة خلافة النبوة من عندهم، وصاروا رعية لغيرهم، ثم تغيروا بعض التغير؛ فجرى عليهم عام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصايب ما لم يجر عليهم قبل ذلك.

والذي فعل بهم ذلك وإن كان ظالمًا متعديًا؛ فليس هو أظلم ممن فعل بالنبي ﷺ وأصحابه ما فعل. وقد قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وكذلك الشام كان أهله في أول الإسلام في سعادة الدنيا والدين، ثم جرت فتن وخرج الملك من أيديهم، ثم سلط عليهم المنافقون الملاحدة والنصارى بذنوبهم، واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل، وفتحوا البناء الذي كان عليه، وجعلوه كنيسة، ثم صلح دينهم فأعزهم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم.

وكذلك أهل الأندلس كانوا رقودًا في ظلال الأمن وخفض العيش والدعة، فغمطوا النعمة، وقابلوها بالأشر والبطر، فاشتغلوا بمعاصي الله تعالى، وأكبوا على لهوهم، ولم يتقوا مواقع سخط ربهم ومقته؛ ففعل الله بهم ما لا يحصره قلم كاتب، ولا يحصيه حساب حاسب؛ بتسليط عدوهم عليهم حتى مزّقهم الله كل ممزق، وفرّقهم أيادي سبأ، وارتد بعضهم على عقبه ركونًا إلى الدنيا الفانية والحظوظ العاجلة.

ومن قرأ تاريخهم علم ما كان القوم عليه، وما صاروا إليه، وفي التاريخ أكبر عبرة لمن اعتبر، دعك من هذا ولا أطول عليك المسافة، ففي كتاب ربنا ما فيه غنية عن كل شيء؛ لمن تدبره وعقله وصرف فيه شطرًا من عمره، كما صرف في تلك العلوم التي لا طائل تحتها، ولا محصل لها، ولا تقوم على ساق، وسيرد عليك إن شاء الله في هذا المعنى الذي حمنا حوله جملة آيات متعددة، فانتظر قليلاً.

والغرض المقصود لنا الآن هنا: بيان أن الصلاح والنجاح والفوز والفلاح وسعادة الدين والدنيا معًا منوط ومربوط بنصرة دين الله؛ لا سبيل له غير ذلك أبدًا، ولذلك قال سيدنا مالك بن أنس إمام دار الهجرة ﷺ: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»[(١)] أو كما قال: والأمر والله كما قال، وشاهد العيان يغني من له عينان عن البيان هذا. ثم لنذكر بعض الآيات الصريحة لمن له نظر وفهم وتدبر في التحذير عن اتباع غير ما أنزل الله، فنقول: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] فجعل ما

(١) انظر: التمهيد (٢٣/ ١٠) وذكره ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٤٢٣) (٣/ ٤٤٢).

خالف حكم الكتاب ضلالة. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١]. وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

فجعل الله تعالى في الآيتين المنزل هو الحق، وإذا كان هو الحق لا غير، كان ما عداه هو الباطل لا مرية. وقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

فقسم الله تعالى الأمر إلى شيئين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول ﷺ فهو من الهوى. وقال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق، وهو الوحي الذي أنزله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه. وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال الشافعي في الأم: وأهواءهم يحتمل سبيلهم في أحكامهم، ويحتمل ما يهوون، وأيهما كان فقد نهى عنه وأمر أن يحكم بينهم بما أنزل الله على نبيه ﷺ[(١)]. أهـ.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩- ٥٠]. فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالحكم بين أهل الكتاب بما أنزله الله عليه، ونهاه عن اتباع أهوائهم لما فيه من مخالفة المنزل إليه، وحذره أن يفتنوه فيحولوا بينه وبين بعض ما أنزله إليه، وأعلمه أنهم إن تولوا عن الحكم الذي أنزل الله إليه فإنما يريد أن يصيبهم ويبتليهم بسبب بعض ذنوبهم.

فعلم منه أن التولي عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الأهواء؛ سبب لإصابة الله بالمصائب، وهذا كقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ [الزمر: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزمر: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ

(١) الأم (٧/ ٣١) وانظر: أحكام القرآن للشافعي (٢/ ١٢١-١٢٢).

فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٣]. وقوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [القصص: ٥٨- ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل: ١١٢- ١١٣].

وأخرج الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: لما فتحت قبرس فرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟! فقال: ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى(١).

وأخرج عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل بهم بلاء، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»** ورواه أبو داود بإسناد حسن(٢).

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٢/ ٢٩٠-٢٩١ رقم ٢٦٦٠) وأحمد في الزهد (ص ١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨) والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٢ رقم ١٣٥٨٣) والروياني في مسنده (٢/ ٤١٤ رقم ١٤٢٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٣٤ رقم ١٠٨١٧). وقال ابن القيم في حاشيته =

وفي سنن ابن ماجه في باب العقوبات من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «**يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء؛ فلولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلَّط عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**»(١).

وفي شرح الموطأ عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلّط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر**»(٢)، قال: رواه ابن ماجه والطبراني، وله شاهد عن ابن عمر مرفوعًا نحوه عند ابن إسحاق. أهـ.

وفي نهج البلاغة من كلام سيدنا علي كرم الله وجهه: لا يترك الناس شيئًا من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم، إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه.

ومن كلام بعض السلف الصالح: «كلما أحدثتم ذنبًا أحدث الله لكم من

=

على سنن أبي داود (٩/ ٢٤٥): ورواه أبو داود بإسناد صحيح إلى حيوة بن شريح المصري عن إسحاق أبي عبد الرحمن الخراساني أن عطاء الخراساني حدثه أن نافعًا حدثه عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فذكره، وهذان إسنادان حسنان، يشد أحدهما الآخر.

(١) أخرجه ابن ماجة (رقم ٤٠١٩) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٨٦): رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ في كتابه المستدرك في آخر كتاب الفتن مطولاً من طريق عطاء بن أبي رباح به، قال: هذا حديث صحيح الإسناد، هذا حديث صالح للعمل به.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٥ رقم ١٠٩٩٢) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٣٠٩-٣١٠) رواه الطبراني في الكبير وسنده قريب من الحسن وله شواهد.

سلطانه عقوبة»[1]، وفي المشهور على الألسنة الجاري مجرى المثل السائر قولهم: (لو استقمنا ما انتقمنا). وقال قائل:

بذا قضى الله بين الخلق مذ خلقوا إن المخاوف والإجرام في قرن

ولهذا المعنى الذي ألممنا الآن بساحل بحره العميق شواهد من القرآن والسنة، وكلام السلف الصالح لا تحصى، ولو ذهبنا إلى تتبعها واستقصائها لطال بنا الكلام.

والقصد هنا بيان أن التولي عن حكم الله وحكم رسوله من أكبر الذنوب، وأنه سبب لانصباب المصايب وتتابع النوائب «فإن الجزاء يكون من جنس العمل» فمن تولى عن حكم الله وحكم رسوله تولى الله ورسوله عنه، ومن تولى الله ورسوله عنه فهيهات أن يفلح ويعز، بل يتركه الله أذل وأحقر ما يكون.

قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [عمران: ١٦٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٠].

وفي مسند أحمد من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها»** قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: **«أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن»** قالوا: وما الوهن؟ قال: **«حب الحياة، وكراهية الموت»**[2].

فأخبر ﷺ أنه يوشك أن يتداعى عليكم من فرق الكفر وأمم الضلالة بعضهم بعضًا؛ ليقاتلوكم، ويكسروا شوكتكم، ويغلبوا على ما ملكتموه من الديار والأموال، كما تتداعى الفئة الآكلة بعضهم بعضًا على قصعتهم، التي يتناولونها من

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦١٨) إلى أبي الشيخ عن مالك بن دينار.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨) وأبو داود الطيالسي (رقم ٩٩٢) وانظر: الفتح (١٣/ ١٠٧) وفيض القدير (٦/ ٣٦٧).

غير بأس ولا مانع، فيأكلونها عفوًا صفوًا، فيستفرغون ما في صحفتكم من غير تعب ينالهم أو ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم، ثم لما سألوه عن سبب ذلك: هل هو من قلة عددهم، أخبر بأنهم كثير، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، الذي هو ما يجيء فوق السيل مما يحتمله من البزورات والأوساخ، لقلة نفعهم وغنائهم ودناءة أقدارهم وخفة أحلامهم(١)، ثم أخبر بأن الله ينزع المهابة من قلوب عدوهم، ويجعل في قلوبهم الوهن، وبين لهم سببه بأنه حبهم البقاء في الدنيا وكراهتهم الموت، يدعوهم ذلك إلى إعطاء الدنية في الدين، واحتمال الذل من العدو، نسأل الله العافية، فقد ابتلينا به، وكنا نحن المعنيين بذلك.

[**حكاية لطيفة**] ساقها الإمام محمد بن قتيبة الدينوري في كتابه (تأويل مختلف الحديث) قال: وحدثني رجل من أصحاب الأخبار أن المنصور سمر ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسيرتهم، وأنهم لم يزالوا على استقامة، حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكان همهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره؛ قصد الشهوات وإيثار اللذات والدخول في معاصي الله عز وجل ومساخطه، جهلاً منهم باستدراج الله تعالى، وأمنًا من مكره تعالى، فسلبهم الله تعالى الملك والعز، ونقل عنهم النعمة، فقال له صالح بن علي: يا أمير المؤمنين إن عبيد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هاربًا فيمن اتبعه، سأل ملك النوبة عنهم فأخبر، فركب إلى عبيد الله، فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو، لا أحفظه، وأزعجه عن بلده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك، فأمر المنصور بإحضاره، وسأله عن القصة، فقال: يا أمير المؤمنين قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي، فافترشه بها، وأقمت

(١) قال الشيخ الصالحي رحمه الله في حاشية المطبوع (٣٦): هذا تمثيل من الرسول ﷺ يدل على هوان من هم بهذه الصفة التي استحقوا بها من الله هذه المهانة عنده أولاً وعند الخلق ثانيًا، حيث وصفهم بغثاء السيل، وما هو غثاء السيل؟ إنه بزور وجيف وحشائش وأقذار منوعة الصفات، الخفيفة القدر والوزن، استخفت بهم الأمم، فهل من تراجع وعودة إلى العزة والكرامة، اللهم حقق ذلك يا لطيف.

ثلاثًا فأتاني ملك النوبة، وقد خبر أمرنا، فدخل علي رجل طوال أقنى حسن الوجه، فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب، فقلت: ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا، فقال: إني ملك، وحق على كل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله، ثم أقبل عليَّ فقال لي: لم تشربون الخمور وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وسفهاؤنا، قال: فلم تطؤون الزروع بدوابكم، والفساد محرم عليكم في كتابكم؟ قلت: يفعل ذلك جهالنا، قال: فلم تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وهو محرم عليكم؟ فقلت: زال عنا الملك، وقل أنصارنا، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك على الكره منا، فأطرق مليًّا، وجعل يقلب يده، وينكث في الأرض، ثم قال: ليس ذلك كما ذكرت، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم عليكم، وركبتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله تعالى العز، وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله تعالى فيكم نقمة لم تبلغ نهايتها، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاث، فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي. ففعلت ذلك[1]. اهـ.

وفي هذه الحكاية مقنع وكفاية لمن رزقه الله الهداية، وجنَّبه طريق الغواية، وفيما رأيتم وسمعتم به مما جرى بأولئك الظالمين المستبدين الخاسرين الأبعدين أكبر عبرة لمن اعتبر، وتبصرة لمن تبصر، قال الشاعر:

ما مر يـوم على حـي ولا ابتكـــرا   إلا رأى عبـــرة فـيـــه إن اعتــــبرا

ولنرجع الآن لذكر بقية الآيات التي نحن بصددها فنقول: وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٢٥١-٢٥٣).

فقسم سبحانه الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها، وأوحى إليه العمل بها وأمر الأمة بها، وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون، فأمر بالأول، ونهى عن الثاني. وقال تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ [الأعراف: ١- ٣].

فأمر باتباع المنزل منه خاصة، ونهى عن اتباع أولياء من دونه، فدل على أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩].

فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلامًا بأن طاعةَ الرسول تجب استقلالاً، من غير حاجة إلى عرض ما أمر به على الكتاب؛ بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقًا، سواء كان ما أمر به في الكتاب، أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه[(١)]. وقال قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]. وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

وصح عنه ﷺ من حديث أبي رافع أنه قال: «**لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه**»[(٢)].

بخلاف أولي الأمر فإنهم أيًا كانوا العلماء والأمراء، أو العلماء فقط أو الأمراء

---

(١) عن المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه...» الحديث أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٥) وابن ماجة (رقم ١٣) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٦ رقم ١٣٢١٩) والترمذي (رقم ٢٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والطبراني في الكبير (١/ ٣١٦ رقم ٩٣٤).

فقط لا تجب طاعتهم، إلا تبعًا لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة.

كما صح عنه ﷺ أنه قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(١). وقال: «إنما الطاعة في المعروف»(٢) وهو ما وافق ما جاء به الرسول، ولهذا لم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول، إيذانًا بأنهم إنما يطاعون تبعًا لطاعة الرسول. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣٠].

فأفاد أن آية محبة الله اتباعه ﷺ فيما جاء به، فمن لم تتحقق فيه هذه العلامة فهو ليس بمحب لله وهو كذلك، فإن دعوى المحبة مع المخالفة من الحماقات الظاهرة والأكاذيب التي لا تخفى على أحد. ولذلك يقول القائل وقد أجاد فيما أفاد:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقًا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع(٣)

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»(٤)

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ١٨١-١٨٢ رقم ٣٩١٧) وفي الكبير (١٨/ ١٦٥ رقم ٣٦٧) وأحمد (١/ ١٣١) والقضاعي في الشهاب (٢/ ٥٥ رقم ٨٧٣) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٢٦): ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧١٤٥) ومسلم (رقم ١٨٤٠).

(٣) ذكر البيتين الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٩) والحافظ المزي في تهذيبه (١٦/ ٣٢٠) ونسبهما إلى الحسن بن محمد ابن الحنفية، وكذا الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٣٧٩) بينما ذكرهما في (٣٢/ ٤٦٩) ونسبهما لعبد الله بن المبارك، وذكرهما في (٦٩/ ١١٨) وجعلهما من قول رابعة، وانظر: كشف الخفاء (٢/ ٢٦٥).

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٥) وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم (١/ ٣٨٦): حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٨٩) ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين وانظر: فيض القدير.

ولا يزيغ عنه»[١]. وفي الصحيحين عنه ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسِهِ وولده وأهله والناس أجمعين»[٢]. وفيهما: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»[٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فالواجب على كل أحدٍ آمن بالله واليوم الآخر محبة الله ورسوله المحبة الصحيحة الصادقة، التي تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات.

قال أبويعقوب النهرجوري: (كل من ادعى محبته تعالى ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة)[٤].

وقال يحيى بن معاذ الرازي: ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدود الله[٥]. فمن ادعى أنه يحب الله ورسوله فيفترض عليه: أن يبذل وسعه، ويسعى جهده في إقامة حدود الله، ونصرة دينه بالقول والفعل والمال وكل ممكن، فإن علامة

---

(١) ذكره الحافظ ابن رجب في جامع العلوم (١/ ٣٨٧) بهذا اللفظ، وقال: ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني عن ابن واره عن نعيم بن حماد حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا بعض مشائخنا هشام أو غيره عن ابن سيرين، فذكره، وليس عنده «ولا يزيغ عنه» قال الحافظ أبو موسى المديني: هذا الحديث مختلف فيه على نعيم، وقيل فيه: حدثنا بعض مشيختنا مثل هشام وغيره، قلت: تصحيح هذا الحديث بعيد جدًا من وجوه، وذكرها الحافظ ابن رجب رحمه الله.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٥) ومسلم (رقم ٤٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٦، ٢١) ومسلم (رقم ٤٣).

(٤) ذكره الحافظ ابن رجب في كتاب التوحيد (ص ٦١) وجامع العلوم والحكم (١/ ٧٥).

(٥) حلية الأولياء (١٠/ ٦٧).

المحب الصادق أن يسعى في حصول محبوبات محبوبه، ويبذل جهده وطاقته فيها، وإلا فلو رأى محارم الله تنتهك وهو ساكت لا يغار ولا يغضب، كما لو تعدى على أدنى حقوقه، فهو حينئذ كذاب كذاب، لا نصيب له من المحبة إلا مجرد الدعوى.

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. أفادت الآية بطريق عكس النقيض الموافق المعلوم عند أرباب فن المنطق: أن من لا أسوة له حسنة في رسوله ﷺ فهو ليس ممن يرجو الله واليوم الآخر، وكفى بهذا التهديد العظيم في التحذير للعاقل.

وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣]. ولا فرق في الاستدلال بهذه الآية الكريمة على ما نحن بصدده؛ بين رجوع الضمير إلى الله، أو إلى الرسول.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف أيضًا بذلك حتى يسلموا تسليمًا وينقادوا انقيادًا لحكمه.

فما بالك بمن حكم بغير ما أنزل الله؟! فإنه أولى بسلب الإيمان عنه.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ

لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله حيًّا أو ميتًا، ومن تخير فقد عصى الله ورسوله، ومن عصاهما فقد ضل ضلالًا مبينًا.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات: ١].

روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسيرها: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة(١). وقال مجاهد: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ ﴾ لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ حتى يقضي الله على لسانه(٢).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الحجرات: ٢].

فلينظر فإنه إذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم، ومعارفهم، وقوانينهم، وأوضاعهم عامدين عالمين على ما جاء به ورفعها عليه، أليس هذا أولى أن يكون محبطًا لأعمالهم؟ بلى وربك.

فالله عز وجل لولا أنه علم أن نظام العالم في الدين والدنيا معًا لا يقوم إلا بهذه الشريعة الجامعة المانعة العادلة تمام العدل؛ لبعث رسولاً ينسخ منها ما لا يوافق هذا الزمان، بزعم المارقين، كما قد كان يفعل قبل، فلما جعل نبينا محمدًا ﷺ خاتم النبيين فلم يرسل بعده من رسول؛ كان ذلك دليلاً أي دليل على أن هذه الشريعة وافية كافية، كاملة شافية، كافلة بجميع المصالح دينًا ودنياً، لا نحتاج معها إلى شيء من

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٦/ ١١٦) وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٠٢ رقم ١٨٦٠٤) والدر المنثور (٧/ ٥٤٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١١٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٩٥ رقم ١٥١٦) وذكره البخاري في صحيحه في كتاب التفسير (ص ٩٥١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٨٩) وعمدة القاري (١٩/ ١٨١).

آراء الرجال وسياستهم، إلا فيما يكون استيضاحًا للحق الذي يرضاه الله ورسوله بعد معرفة مقاصد الشارع تمام المعرفة.

ولذلك كان تقديم آراء الغير وعقولهم وأذواقهم ووجداناتهم وسياستهم المخالفة المنابذة لسياسة الشريعة الحقة الصحيحة محبطًا للعمل البتة، وربما كان ردة ومروقًا عن الأمة الإسلامية والملة الحنفية، أعاذنا الله منها. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٨]. فليحذر السياسيون أن يسوسوا الناس بغير ما أنزل الله، فإنهم مع أنه لا يتم لهم أمر ولا يستقيم لهم حال؛ يخشى عليهم من الردة والمروق من الدين، فيكونون ممن خسر الدنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢].

فجعل من لوازم الإيمان أن لا يذهبوا مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فما بالك بالذهاب في دين الله والحكم بين الناس؟! فإنه أولى أن يكون من لوازم الإيمان أن لا يذهبوا ذلك المذهب إلا بعد استئذانه بدلالة ما جاء به ﷺ على أنه أذن فيه. وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النور: ٤٧- ٤٨]. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١]. فبين أن المؤمنين ليس لهم إلا السمع والطاعة لحكم الله ورسوله، وأنه ليس لهم إلى المخالفة سبيل أبدًا. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أخرج ابن ماجه في سننه: عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ فخط خطًّا، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال: «هذا سبيل الله» ثم تلا هذه الآية(١).

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٥].

فإذا كان قد أمرهم باتباع أحسن ما أنزل إليهم فيما يعترضهم فيه الأمران: الوجوب والندب، أو الندب والإباحة، على ما قيل في التفسير، وأنذرهم مفاجأتهم العذاب إن لم يفعلوا ذلك، فما الشأن فيما سبيله القطع فيه بالافتراض والتحتيم قولاً واحدًا كالحكم بين الناس بما أنزل الله.

وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]. فنبه على أن التولي عن حكم الله ورسوله إلى غيره كفر.

وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [النساء:

---

(١) أخرجه ابن ماجة (رقم ١١) وأحمد (٣/ ٣٩٧) وعبد بن حميد (رقم ١١٤١) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٦) والمروزي في السنة (رقم ١٢، ١٣) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٦): هذا إسناد فيه مقال من أجل مجالد بن سعيد، وقال الألباني في ظلال الجنة (١/ ١٣): حديث صحيح، إسناده ضعيف، رجاله ثقات غير مجالد، وهو ابن سعيد فهو ضعيف، لكن قد توبع كما في الطريق التالية، فالحديث بهما صحيح.

١٣- ١٤]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧]. وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾ [التغابن: ١٢]. وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [طه: ٩٩- ١٠١]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي: صد الناس وصرفهم عنها ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]. فأمر بالائتمار والانتهاء، وحذر عن المخالفة.

(هذا) وكم من أمثال هذه الآيات الجليلة المحذرة عن مخالفة الكتاب والسنة، وكفى بواحدة منها لمن أوتي رشده، ومن لا فلا تغنيه قراءة جميع الكتب الإلهية عليه.

ثم ليس العجب من قوم يدعون الإسلام يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، وغلب عليهم هواهم، فأصمهم وأعماهم، حتى رفضوا العمل بقانون ربهم الذي أنزله على نبيه، وعملوا بقوانين أهل الكفر والصليب إقامة لرياستهم وقضاء لشهواتهم، غفلة منهم عن اليوم الموعود، الذي تجد فيه كل نفس ما عملت من خير أو شر محضرًا بين يديها.

وإنما العجب العجاب ممن يتزيون بزي أهل القرآن، ويتسمون بأسماء أهل الإيمان، يختلقون الإفك والفشار، ولا يخشون المسبة والعار، بلغوا من الجهل مبلغًا دونه جهل اليهود والنصارى، فيزعمون أن الشريعة المحمدية مانعة لهم من ترقيهم، أو معوقة عن مرامهم ومراميهم، فلا تصلح لأهل هذا الزمان، وانقطع حكمها

ووقع في حيز خبر كان، فنسخوها بآرائهم الكاسدة، وأهوائهم الفاسدة، ومشتهيات أطباعهم الخبيثة العاطلة، ومقتضيات أميالهم الخسيسة الباطلة، مسخهم الله تعالى ظاهرًا، كما قد مسخهم باطنًا، ليكونوا عبرة للغابرين، ومثلة في الحاضرين.

فهؤلاء المردة المارقون لا دواء أنجع فيهم من تمكين الصوارم البواتر من رقابهم، وقطع دابرهم حتى لا يقوى حزبهم، ولا يكثر جمعهم، أبادهم الله ودمرهم، وشتت شملهم، ومزقهم كل ممزق.

وهؤلاء الأوغاد لم يقدروا الشريعة حق قدرها، ولم يعلموا أن مبناها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وأنها عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون وحياة القلوب ولذة الأرواح، فيها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم.

وهي العصمة للناس وقوام العالم، وبها يمسك الله السموات والأرض أن تزولا. فإذا أراد الله تبارك وتعالى خراب الدنيا وطيَّ العالم رفع إليه ما بقي من رسومها، فهي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

والعجب أيضًا من قوم لا يرون تمام الترقي إلا في التشبه بالكفار وعبدة الأصنام؛ لزعمهم أنهم بلغوا من التمدن والترقي مبلغًا لم يبلغه غيرهم من الأنام، فإن هؤلاء أيضًا قوم لا خلاق لهم، قد قصروا نظرهم على النعيم الفاني العاجل، ونسوا النعيم المقيم الآجل، فهم أشبه بالأنعام، بل هم أضل وإن لبسوا ثياب الأنام، دينهم وديدنهم تقليد أولئك والتزيي بزيهم، والاحتذاء بهم في أقوالهم وأفعالهم ومطاعمهم ومشاربهم وملابسهم، فلهم في أولئك الأسوة التامة، لا في رسول الله ﷺ، فهم ليسوا ممن يرجو الله واليوم الآخر، وهذا مصداق قوله ﷺ الثابت من طرق في الصحيح:

«لتتبعن سنن من قبلكم: شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»(١) فإن لله وإنا إليه راجعون.

فإياكم إياكم عباد الله ومخالفة الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ من عند ربه قيد شبر؛ فإن المخالفة ـ والله الذي لا إله غيره ـ عين الهلاك والعمى والخسران المبين.

وإياكم إياكم أن تظنوا أن الكتاب والسنة اللذين هما الشريعة لم يفيا بجميع أحكام الحوادث؛ فإن هذا خطأ جسيم وبهتان عظيم.

فقد قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]. وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١]. وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥٢- ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] أي: للحالة أو للملة أو للطريقة التي هي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٥٦) ومسلم (رقم ٢٦٦٩).

أقوم الحالات أو الملل أو الطرق. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢].

إذا تأمل المتأمل قوله: ﴿ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ ﴾ وعرف عظم موقعه وبلاغته، وعلم أن علوم العالمين أجمعين كلها تتلاشى وتضمحل في جنب علم الله تعالى بما ينفع ويصلح وما يضره ويفسد؛ لم يشك أن القرآن قد تكفل ببيان ما فيه صلاح المعاش والمعاد ونظام الدين والدنيا معًا على أكمل وجه وأبلغه، حيث تولى تفصيله العليم الخبير الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض مما كان أو يكون.

وقال تعالى: ﴿ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠- ١١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ۝ ﴾ [النساء: ١٧٤]. وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝ ﴾ [الشورى: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] فبين سبحانه للعباد جميع ما يتقونه؛ لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل. وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].

قال أهل التفسير عمومًا: الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول الرد إليه ذاته في حياته، والرد إلى سنته وهي أقواله وأفعاله وتقريراته بعد وفاته.

فأمر الله بالرد إليه وإلى الرسول ليس إلا؛ لأن كتاب الله ببيان الرسول فاصل للنزاع وقاطع للخلاف ولابد. هذا فيما تنازع فيه المؤمنون، فما بالك بما اتفقوا عليه، فالرد فيه أوجب وأوجب.

وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فأنتم ترون أنه سبحانه أخبر في هذه الآيات، أنه أنزل الكتاب لبيان حكم ما يختلف فيه الناس، وجعله هدى وجعله رحمة، وجعله شفاء للقلوب والصدور من الظلمات، وجعله مخرجًا من الظلمات إلى النور، وجعله نورًا، وجعل إليه التنازع والتحاكم، إلى غير ذلك من أوصافه التي لا تحصى.

فكيف يكون بهذه الأوصاف التي وصفه الله سبحانه بها، وبالناس حاجة إلى قوانين البشر وأوضاعهم وسياساتهم؛ فما دام في الناس حاجة ما في أية جزئية إلى أي قانون ورأي، لم يكن بتلك الأوصاف، والله أصدق القائلين.

فتبين بذلك أنه ما غادر صغيرة ولا كبيرة من أمور الدين والدنيا وما يتعلق بصلاح المعاش والمعاد؛ إلا وتكفل بها واحدة واحدة، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله، قال الشرف البوصيري في آيات القرآن.

لها معان كموج البحر في مدد وفوق جوهره في الحسن والقيم

فما تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم

قرت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم

ولكن الأفهام والعقول متفاوتة، فمن يصادف فهمه المحز ويطبق المفصل، فهذا هو الذي له أجران، ومن يخطئه ولا يصيبه بعد بذل الوسع، هذا هو الذي له

أجر واحد، كما ثبت ذلك في الصحيح[(١)]، ومن فاهم ومستنبط من آية حكمًا، ومن فاهم ومستنبط حكمين، ومن فاهم ومستنبط أكثر، ففضل الله تعالى ليس بمحظور عن أحد، يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ولذلك قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي**»[(٢)].

وبالجملة فالقرآن متكفل بنظام المعاد والمعاش في التفرق والاجتماع على أكمل وجه وأجمله، لمن كحل بنور التوفيق بصيرته، وطهر بماء الإيمان سريرته، ووجه إليه همته، وصرف فيه مدته.

قال الإمام الشافعي في سورة العصر: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم[(٣)]. وفي لفظ عنه: لو لم ينزل الله على خلقه حجة إلا هذه السورة لكفتهم.

وقد بين معناه وأوضح مغزاه الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة بأبلغ وجه وأعلاه، فقال ما نصه: وبيان ذلك أن المراتب أربعة، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:

إحداها: معرفة الحق. **الثانية**: عمله به. **الثالثة**: تعليمه من لا يحسنه. **الرابعة**: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه. فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة.

وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر: أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا، وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة، وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق وصَّى به بعضهم بعضًا: تعليمًا وإرشادًا فهذه مرتبة، وتواصوا بالصبر، صبروا على الحق، ووصَّى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة، وهذا نهاية الكمال.

---

(١) عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**» أخرجه البخاري (رقم ٧٣٥٢)، ومسلم (رقم ١٧١٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧١) ومسلم (رقم ١٠٣٧).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٦٣).

فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية.

فصلاح القوة العلمية بالإيمان. وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره: بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء، هاديًا إلى كل خير[(1)]. اهـ.

وأخرج الترمذي في جامعه: عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم» قيل: فما النجاة منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو فصل ليس بالهزل، من تركه تجبرا (وفي رواية من جبار) قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواءُ، ولا تتشعب معه الآراء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تمله الأتقياء، من علمه سبق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم»[(2)].

وفي مراسيل أبي داود السجستاني: عن يحيى بن جعدة أن النبي ﷺ أُتِيَ بكتاب في كتف، قال: «كفى بقوم ضلالة أن يبتغوا كتابًا غير كتابهم إلى نبي غير نبيهم»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[(3)] [العنكبوت: ٢٩].

وعن أبي قلابة؛ أن عمر مر بقوم من اليهود، فسمعهم يذكرون دعاء من التوراة

---

(١) مفتاح دار السعادة (ص ٥٦-٥٧).

(٢) أخرجه الدارمي (رقم ٣٣٣١) والبزار (٣/ ٧١-٧٢ رقم ٨٣٦) والترمذي (رقم ٢٩٠٦) وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥ رقم ٣٠٠٠٧) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٢٥٨ رقم ٢٢٠٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٢٥-٣٢٦ رقم ١٩٣٥) وضعفه الترمذي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٧٢ رقم ١٧٣٨٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨).

فانتسخه، ثم جاء به إلى النبي ﷺ فجعل يقرؤه ووجه النبي ﷺ يتغير، فقال رجل: يا ابن الخطاب ألا ترى ما في وجه رسول الله ﷺ؟ فوضع عمر الكتاب، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ـ عز وجل ـ بعثني خاتمًا، وأُعطيت جوامع الكلم، وخواتمه واختصر لي الحديث اختصارًا، فلا يلهينكم المتهوكون» فقلت لأبي قلابة: ما المتهوكون؟ قال: المتحيرون(١). اهـ.

وأخرج البخاري في كتاب الاعتصام في باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»: عن عبيد الله بن عبد الله أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضًا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله، وغيّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم(٢).

وأخرج البخاري فيه، ومسلم في الوصايا: عنه عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، وفيهم عمر بن الخطاب قال: «هلم أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده» فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، فحسبنا كتاب الله تعالى، واختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب رسول الله ﷺ كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبي ﷺ قال: «قوموا عني» قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم(٣).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١١٢-١١٣ رقم ١٠١٦٣) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٠٧-٣٠٨ رقم ٥٢٠٢) وانظر: فيض القدير (٢/ ٥٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٣٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٣٦٦) ومسلم (رقم ١٦٣٧).

فتأمل هذه الأحاديث وأعطها حقها من التأمل الصادق؛ تعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يحوجنا معشر أهل القرآن إلى كتاب آخر من الكتب السماوية؛ بل اشتمل كتابنا على جميع ما فيها من المحاسن وعلى زيادات كثيرة لا توجد فيها؛ فلهذا كان مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، يقرر ما فيها من الحق، ويبطل ما حُرِّف منها، وينسخ ما نسخه الله؛ فيقر الدين الحق وهو جمهور ما فيها، ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها والقليل الذي نسخ منها.

وأما قول ابن عباس رضي الله عنهما: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم فقد قال المتكلمون في شرح الحديث: إن عمر ﷺ كان أفقه من ابن عباس وأدق نظرًا لاكتفائه بالقرآن، وعلمه أن الله تعالى أكمل دينه بقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٣] وأمنه الضلال على الأمة(١).

ولا يقال: إن عمر ﷺ لم يرتض أمره ﷺ بكتابة الكتاب فخالفه وعصاه؛ لأنه ﷺ فهم أن الكتاب الذي أراد أن يكتبه لا يخرج عن كتاب الله، لعلمه أنه معصوم في تبليغه عن ربه، وتثبيت الله له، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٣- ٤] وعلمه أنه لم يترك بيان شيء مما أنزله إليه ربه، فخرج ذلك الأمر منه في حال اشتداد الوجع به ﷺ مخرج كلام النصوح الحريص على هداية شخص، فهو لا يزال ينصحه بالعبارات المختلفة والأساليب المتعددة حتى يرسخ في فؤاده ما يريده منه، فلذلك رأى عدم التثقيل عليه ﷺ في كتابة ذلك الكتاب مع الاستغناء عنه بالقرآن، فافهم هذا المعنى فلعله أحسن شيء يندفع به الاعتراض على سيدنا عمر فيما صورته صورة المخالفة.

وفي تركه ﷺ الإنكار على عمر؛ دلالة على حسن فهم عمر وتيقظه لمراده ﷺ،

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ١٣٤).

الذي هو الأخذ بكتاب الله بعده حتى لا يضلوا، وإلا فلو كان مراده ﷺ أن يكتب لهم ما لا يستغنون عنه مما لم يبينه لهم من قبل؛ لم يتركه لاختلافهم ولا لغيره، لقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧] كما لم يترك تبليغ غير ذلك لمخالفة من خالفه، ومعاداة من عاداه، كما أمرهم في تلك الحال بثلاث:

كما أخرجه مسلم عن سعيد بن جبير، أمرهم بإخراج المشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفد بنحو ما كان يجيزهم، وسكت عن الثالثة أو ذكرها ونسيها سعيد الراوي، قالوا: الثالثة هي تجهيز جيش أسامة ﷺ. ويحتمل أنها قوله: «لا تتخذوا قبري وثنًا يعبد»(١).

فانظر فإنه لم يرجعه تنازعهم واختلافهم ولغطهم عنده؛ عن بيان هذه الثلاث التي ما كان بينها لهم قبل، فلو كان مضمون الكتاب الذي أراد أن يكتبه لهم مما لم يسبق بيانه ما كان ليسكت عن بيانه؛ بحال، فرضي الله عن عمر ما أدق نظره وأحفظ فهمه وأصوب فكره!!

والقصد هنا أن الله لم يحوجنا بمنه وكرمه إلى شيء آخر من الكتب السالفة؛ كما كان أحوج أهل الإنجيل لفهم التوراة واتباعها لكون المسيح ﷺ كان متبعًا في الأكثر لشريعة التوراة، ولذا قال: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠]. فكيف يحوجنا إلى شيء من قوانين البشر وأوضاعهم وسياستهم؟! حاشا لله ومعاذ الله. ومن ظن ذلك فإن كان جاهلاً؛ بين له وفهم؛ وإلا فهو كافر حلال الدم والمال في جميع مذاهب علماء المسلمين قولاً واحدًا.

فإن من ظن أن هذه الشريعة الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها؛ ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها، فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٣١) ومسلم (رقم ١٦٣٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٣٥) وشرح النووي (١١/ ٩٤) وعمدة القاري (١٤/ ٢٩٩) (١٨/ ٦٢).

رسول آخر غير رسولهم الذي يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

وكذلك من ظن أن شيئًا من أحكام الكتاب والسنة النبوية الثابتة الصحيحة بخلاف السياسة والمصلحة التي يقتضيها نظام الدنيا فهو كافر قطعًا، ولا يظن ذلك إلا من بلغ به الجهل بمرتبة الشريعة الغراء وأحكامه الحقة النقية البيضاء إلى أسفل سافلين.

وأيما فرد ظن ذلك أو تخالج الشك في صدره في حكم من أحكامها؛ فليعرض ذلك على أهل العلم بالكتاب والسنة حقيقة؛ دون أهل الفلسفة وفضول العلوم، حتى تتبين له حقيقة الحال، وتنقشع عن سماء قلبه سحائب الأوهام والضلال.

قال الحافظ ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» ما نصه:

«وتأمل حكمته تبارك وتعالى في إرسال الرسل في الأمم واحدًا بعد واحد، كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء، لضعف عقولها، وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق، فلما انتهت النبوة إلى سيدنا محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكمل الأمم عقولاً ومعارف، وأصحها أذهانًا، وأغزرها علومًا، وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه، فأغنى الله الأمة بكمال رسولها وكمال شريعته وكمال عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده، أقام له من أمته ورثة، يحفظون شريعته، ووكلهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث ولهذا قال ﷺ: «إنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي فعمر»[1]. فجزم بوجود المحدثين في الأمم وعلق وجودهم في أمته بحرف الشرط، وليس هذا بنقصان في الأمة عمن قبلهم، بل هذا من كمال أمته على من قبلها، فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلى محدث، بل إن وجد فهو صالح للمتابعة

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٣١٧ رقم ٦٨٩٤) والترمذي (رقم ٣٦٩٣) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٤٧٩ رقم ١٠٥٨) وأحمد (٦/ ٥٥) والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٨ رقم ٥٧٣٤) والحاكم (٣/ ٩٢ رقم ٤٤٩٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، وانظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ١٢٥).

والاستشهاد، لا أنه عمدة، لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث: وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون. اهـ.

وإذا ثبت أن الله تعالى قد أغنانا أهل الإيمان والقرآن بكتابه وسنة نبيه عن جميع الشرائع وقوانين أهل الإفك والبهتان، فما وافقهما فهو العدل.

كما قال تعالى: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢]. قال تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

فأمره أن يحكم بينهم بالقسط، وأن يحكم بما أنزل الله، فدل ذلك على أن القسط هو ما أنزل الله، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] وما خالفهما فهو عين الظلم والبغي والعدوان، وإن ظن أنه عدل ومصلحة قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

ولله در البوصيري حيث قال في آيات القرآن:

ر كالصراط وكالميزان معدلة   فالقسط من غيرها في الناس لم يقم

ثم الشرع الذي أنزل الله ويجب على حكام المسلمين العمل به، كما أنه عدل كله، ورحمة كله، ومصلحة كله، وحكمة كله، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشرع وإن دخلت فيه بشبهة، فليس في الشرع ظلم أو قسوة أو عبث أصلاً، بل حكم الله أحسن الأحكام، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ

يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل، وكل من حكم بغيره فقد ظلم، ومن لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله، واستحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله، فهو كافر، فإنه لا عبرة بما يراه عدلاً من غير أن يكون موافقًا لما أنزل الله، إذ ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، لكن قد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم الجارية بينهم التي لم ينزلها الله، كسوالف البادية، وكأوامر المطاعين فيهم، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر. فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار، وإلا كانوا جهالاً ضلالاً لا يعلمون.

والحاصل، أن الحكم بالعدل واجب مطلقًا في كل زمان ومكان على كل أحد ولكل أحد، والحكم بما أنزل الله على محمد ﷺ هو أكمل أنواع العدل وأحسنها، والحكم به واجب على النبي ﷺ وكل من اتبعه. ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر.

ومن اعتقد أن يحكم بين الناس بقول أي أحد كان، ولا يحكم بينهم بالكتاب والسنة فهو كافر وظالم لنفسه ولغيره من المحكوم له وعليه، ولله حسن الختام.

وجملة القول: إنا معشر أهل الإيمان والقرآن لا يجوز لنا أن نتبع قانونًا سوى قانون ربنا تبارك وتعالى، ولا نرضاه ولا نقبله؛ بل هو رد على من جاء به بحكم الله ورسوله. هذا ما وجب علينا كتابته شرعًا بحكم وجوب أداء الأمانة التي ائتمننا الله عليها معشر أهل العلم، وما علينا إلا البلاغ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً آمين، والحمد لله رب العالمين.

(تمت الرسالة)

الرسالة الخامسة عشرة:

التوضيح والبيان
لشجرة الإيمان

تأليف الشيخ الفاضل

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

المتوفى سنة ١٣٧٦هـ

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان في قلوب عباده الأخيار، وسقاها وغذاها بالعلوم النافعة والمعارف الصادقة واللهج بذكره آناء الليل والنهار؛ وجعلها تؤتي أكلها وبركتها كل حين من الخيرات والنعم الغزار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الكريم الرحيم الغفار؛ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الرسول المصطفى المختار، اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار.

أما بعد: فهذا كتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين؛ مستمدًا ذلك من كتاب الله الكريم ـ الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقًا لا مزيد عليه ـ ومن سنة نبيه محمد ﷺ، التي توافق الكتاب وتفسره، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيرًا من مطلقاته، مبتدئًا بتفسيره، مثنيًا بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد؟ مثلثًا بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]. فمثل الله كلمة الإيمان ـ التي هي أطيب الكلمات ـ بشجرة هي أطيب الأشجار موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة: أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة. وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتاً عظيمًا، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها، فعلى العبد الموفق أن يسعى لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأصولها وفروعها؛ ويجتهد في التحقق بها: علمًا وعملًا فإن نصيبه من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة ـ بحسب نصيبه من هذه الشجرة[(١)].

---

(١) انظر: إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (١/ ١٧١-١٧٢) حيث قال رحمه الله: فشبَّه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر =

الفصل الأول

في حد الإيمان وتفسيره

حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامها؛ فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها، فمن حكم على أمر من الأمور ـ قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصورًا يميزه عن غيره ـ أخطأ خطأ فاحشًا.

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو: التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به؛ والانقياد ظاهرًا وباطنًا، فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله.

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وهو: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه وأعماله(١).

فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى: ـ من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته ـ هو من أعظم أصول الإيمان.

وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة ـ وهو: التأله والتعبد لله ظاهرًا

=

النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي: شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوًا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها.

(١) انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية (ص ١٤٧، ٢٦٤) وفتح الباري (١/ ٤٧) وعقيدة أبي حاتم الرازي وأبي زرعة الرازي (ص ٣٧-٣٨، ١٥٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٢) وحاشية ابن القيم (١٣/ ٣٥) وتحفة الأحوذي (٧/ ٢٩٧) والاستذكار (٨/ ٢٨٣) والتمهيد (٩/ ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٥٢) والاعتقاد للبيهقي (ص ١٨١-١٨٣) وشعار أصحاب الحديث (ص ٢٨-٢٩) وعمدة القاري (١/ ١٠٨، ١١١).

وباطنًا ـ من أصول الإيمان. والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر ـ كل هذا من أصول الإيمان.

وكذلك الإيمان بجميع الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة؛ كل هذا من أصول الإيمان.

كما أن من أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة، كل هذا من أصول الإيمان(١).

ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة، ولا يكون ذلك إلا بما ذكرناه: من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، لأنه متى فات شيء من ذلك: حصل ـ من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب ـ بحسبه.

بل أخبر الله تعالى: أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء: في الدنيا، وفي منازل الآخرة، وأخبر في هذه الآية، أن من حقق الإيمان به وبرسله، نال هذه الدرجة.

ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة، كما تراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق، لتفاضل ما بينهم**»، فقالوا: يا رسول الله؛ تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى ـ والذي نفسي بيده ـ رجالٌ آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين**»(٢). وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم

---

(١) انظر: عمدة القاري (١/ ١٢٨) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣٠٢) وشرح حديث لبيك (ص ١١٧) وفيض القدير (١/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٦) ومسلم (رقم ٢٨٣١).

لله ولرسله، فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين.

وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه: من الانقياد والاستسلام؛ وأثنى على من قام به؛ فقال في أعظم آيات الإيمان: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة؛ والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله؛ وبالإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده ـ بقوله: ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ . كما أثنى على المؤمنين ـ في آخر السورة ـ بالقيام بذلك؛ فقال: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

فأخبر أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء؛ بل آمنوا بهم جميعًا، وبما أوتوه من عند الله؛ وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا: سمعنا وأطعنا؛ وطلبوا من ربهم: أن يحقق لهم ذلك وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان؛ وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله: يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها، كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء ـ عيسى وغيره ـ أنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [آل عمران:٥٣] فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم؛ وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد، وأن يحقق لهم القيام به: قولًا، وعملًا، واعتقادًا. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ

﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، فإنه وصفهم بالإيمان به إيمانًا: ظهرت آثاره في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأنه - مع ثبوت الإيمان في قلوبهم - يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله: وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون على الله، ومعتمدون في أمورهم كلها عليه، ومفوضون أمورهم إليه، وهم مع ذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها: يقيمونها ظاهرًا وباطنًا؛ ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة، ومن كان على هذا الوصف: فلم يبق من الخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا، ولهذا قال: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهرًا وباطناً، ثم ذكر ثوابهم الجزيل - المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور، ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

ففسر الله الإيمان - في هذه الآيات - بجميع هذه الخصال، فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ إلى آخر الآيات المذكورة، فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقًّا، ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات، وبتكميلهم للإيمان استحقوا

وراثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات؛ كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات. وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة، ويترتب على ذلك: أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها؛ وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف.

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم: الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، ومقتصدون، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات، وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات، كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾(١) [فاطر:٣٢].

وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف، لئلا يظن الظان: أن الإيمان يُكتفىٰ فيه بما في القلب، فكم في القرآن من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

ثم يذكر خبرًا عنهم، والأعمال الصالحات: من الإيمان، ومن لوازم الإيمان، وهي التي يتحقق بها الإيمان، فمن ادعى أنه مؤمن - وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله: من الواجبات، ومن ترك المحرمات - فليس بصادق في إيمانه. كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣].

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب: من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة، ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله: من الكفر والفسوق والعصيان، ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ كما وصف الله بذلك

(١) انظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول، للحكيم الترمذي (١/ ١٤٠).

خيار خلقه، بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾ [الحجرات:٧، ٨].

فهذه أكبر المنن: أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته؛ وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام؛ ويبغض الله إليه أصناف المحرمات، والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به.

كما ثبت في الصحيح ـ من حديث أنس ﷺ ـ أنه ﷺ قال: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف في النار»[(١)].

فذكر أصل الإيمان الذي هو: محبة الله ورسوله ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لابد أن تكون محبة الله مقدمة على جميع المحاب، وذكر تفريعها: بأن يحب لله، ويبغض لله، فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، لأنهم قاموا بمحاب الله، واختصهم من بين خلقه، وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

وأخبر في هذا الحديث: أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأغراض النفسية؛ وأوجبت له الحياة الطيبة، فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعًا ـ فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره ـ واجتهد في متابعة الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها، من كان كذلك: فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه، وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية ﴿ وَلِكُلٍّ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٦، ٢١) ومسلم (رقم ٤٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٢-٨٣) (١٢/ ٣١٦) وعمدة القاري (١/ ١٤٦-١٤٨) (١٤/ ٩٨) وشرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٣) وحاشية ابن القيم (١٤/ ٢١) وشرح السيوطي لسنن النسائي (٨/ ٩٣-٩٦).

دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام:١٣٢، الأحقاف:١٩].

وكذلك في الصحيحين ـ من حديث أبي هريرة ـ أنه ﷺ قال: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1]. وهذا صريح: أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته ـ وهو قول: لا إله إلا الله، اعتقادًا، وتألهًا وإخلاصًا لله ـ وبين أدناه، وهو: إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي عن الطريق، فكيف بما فوق ذلك: من الإحسان، وذكر الحياء ـ والله أعلم ـ لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح، كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب ـ المذكورة في هذا الحديث ـ هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وهذا أيضًا صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتًا كثيرًا، فمن زعم: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ فقد خالف الحس مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى.

وقد ذكر النبي ﷺ الإسلام والإيمان في حديث جبريل المشهور، حيث سأله جبريل بحضرة الصحابة عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر»[2]، وفسر الإسلام بالشرائع الخمس الظاهرة، لأنه ـ كما تقدم ـ إذا قرن بالإيمان غيره، فسر الإيمان بما في القلب من العقائد الدينية؛ والإسلام أو الأعمال الصالحة بالشرائع الظاهرة، وأما عند الإطلاق إذا أطلق الإيمان، فقد تقدم أنه يشمل ذلك أجمع.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥) وانظر: عمدة القاري (١/ ١٢٣-١٢٧) والتمهيد (٩/ ٢٣٥) (٢٢/ ١٢) والديباج على مسلم (١/ ٥٢) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣٠١) وحاشية ابن القيم (١٢/ ٢٨٢) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (١/ ٣٨٥) وعون المعبود (١٢/ ٢٨٢) وفيض القدير (١/ ٤٨٥) (٣/ ١٨٦، ٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٩، ١٠).

وفي الصحيحين ـ من حديث أنس ـ أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم: حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١). فأخبر ﷺ: أنه إذا تعارضت المحبتان؛ فإن قدم ما يحبه الرسول: كان صادق الإيمان؛ وإلا: فهو ناقص الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

فأقسم تعالى: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه، وينقادوا له انقيادًا، وينشرحوا لحكمه، وهذا شامل في تحكيمه: في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية.

وفي الصحيحين أيضًا ـ عن أنس مرفوعًا ـ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة، فإنه من الإيمان، ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه.

وفي صحيح مسلم ـ من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا»(٢).

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأقضيته عليه، وأن يرضى بالإسلام دينًا، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن، حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه، ويرضى بمحمد ﷺ نبيًّا، إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال، وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤، ١٥) ومسلم (رقم ٤٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١/ ٢١٧) (٢/ ٢، ١٣) وعمدة القاري (١/ ١٠٩) والديباج على مسلم (١/ ٥١، ٥٩) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣١١-٣١٢) وفيض القدير (٣/ ٥٥٧).

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، واتباعه ـ من أعظم ما يثمر الإيمان ويذوق به العبد حلاوته، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم، الرؤوف الرحيم؛ الذي أقسم الله أنه لعلى خلق عظيم؛ وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه؛ وهذا علامة محبة الله؛ وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان؟! قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١].

وفي صحيح مسلم ـ من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي ـ قال: قلت: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحدًا بعدك قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم»[(١)]. فبيّن ﷺ ـ بهذه الوصية الجامعة ـ أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهرًا وباطنًا، ثم استقام عليه ـ قولًا وعملًا، فعلًا وتركًا ـ: فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له أن يدخل مع من قال الله عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي حديث ابن عباس ـ المتفق عليه ـ في وفد عبد القيس، حين وفدوا على النبي ﷺ؛ حيث قالوا: مرنا بأمر فصل: نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع، أمرهم: بالإيمان بالله وحده؛ وقال:

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٨) وانظر: شرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ٨-٩) وفيض القدير (٤/ ٥٢٤) وجامع العلوم والحكم (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

«أتدرون: ما الإيمان بالله وحده؟»؛ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»؛ ونهاهم عن أربع: «عن الحنتم، والدُّبَّاء، والنَّقير، والمُزَفَّت»؛ وقال: «احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم»(١).

فهذا - أيضًا - صريح في إدخاله الشرائع الظاهرة بالإيمان؛ مثل الصلاة والزكاة والصيام، وإعطاء الخمس من المغنم، وكل هذا يفسر لنا الإيمان تفسيرًا يزيل الإشكال، وأنه كما يدخل فيه العقائد القلبية، فتدخل فيه الأعمال البدنية، فكل ما قرب إلى الله - من قول وعمل واعتقاد - فإنه من الإيمان.

وفي سنن أبي داود، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومَنَعَ لله: فقد استكمل الإيمان»(٢).

فالحب والبغض: في القلب والباطن؛ والعطاء والمنع: في الظاهر، واشترط فيها كلها: الإخلاص الذي هو روح الإيمان ولبه وسره.

فالحب في الله: أن يحب الله، ويحب ما يحبه: من الأعمال والأقوال والأزمان والأحوال؛ ويحب من يحبه: من أنبيائه وأتباعهم.

والبغض في الله: أن يبغض كل ما أبغضه الله: من كفر وفسوق وعصيان؛ ويبغض من يتصف بها، أو يدعو إليها.

والعطاء يشمل عطاء العبد من نفسه كل ما أمر به؛ مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ ﴾ [الليل: ٥-٧].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٣) ومسلم (رقم ١٧) وانظر: فتح الباري (١/ ١٧) وعمدة القاري (١/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٨١) والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٤ رقم ٧٦١٣) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٣٩ رقم ١٢٦٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٩٢ رقم ٩٠٢١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٦١٨) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٧) وعمدة القاري (١/ ١١٣) وفيض القدير (١/ ١٦٧).

وهذا يشمل جميع ما أمر به العبد: لا يختص بالعطاء المالي؛ بل هو جزء من العطاء، وكذلك مقابله المنع. وبهذه الأمور الأربعة، يتم للعبد إيمانه ودينه.

وكذلك ما رواه الترمذي والنسائي - من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[1]؛ يدل: على أن الإيمان الصحيح يحمل صاحبه على رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة؛ حتى يطمئن إليه الناس، ويأمنوه على أنفس الأشياء عندهم، وهي: الدماء، والأموال.

وهذه النصوص كلها تبين معنى الإيمان وحقيقته، وأنه كما قال الحسن وغيره: «ليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه: ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال»[2].

فالأعمال الظاهرة والباطنة تصدق الإيمان، وبها يتحقق، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]. فالعبد إذا أصابته المصيبة، فآمن: أنها من عند الله، وأن الله حكيم رحيم في تقديرها، وأنه أعلم بمصالح عبده: هدى الله قلبه هداية خاصة للرضا والصبر والتسليم والطمأنينة[3]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس:٩]، فحذف المتعلق:

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٢٧) والنسائي (رقم ٤٩٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٩٣٤) وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٠٦ رقم ١٨٠) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٩٣ رقم ٣٤٤٤) وفي مسند الشاميين (٢/ ٤٤٣ رقم ١٦٦٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١١٠ رقم ١٣٤٢) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٦٤): هذا إسناد صحيح، وانظر: التمهيد (٩/ ٢٤٤) وفيض القدير (٦/ ٢٧٠).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ١٠) إلى عبد بن حميد والبيهقي عن الحسن، وانظر: فيض القدير (٥/ ٣٥٥) والفتح السماوي، للمناوي (٢/ ٥٢٦ رقم ٤٠٧) وقال: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف عن الحسن موقوفًا عليه، وغريب الحديث للخطابي (٣/ ١٠١) والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/ ٣٦٧)، بينما ذكره ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٦/ ٢٨٨) مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١٢٣) وتفسير السيوطي (٨/ ١٨٤) وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٩٤).

ليشمل هدايتهم لكل خير، وهدايتهم لترك كل شر؛ وذلك بسبب إيمانهم، فالأعمال من الإيمان من جهة، ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من جهة أخرى، والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. كثير من المفسرين فسروا الإيمان هنا: بالصلاة إلى القبلة التي كانوا عليها، بيت المقدس، قبل النسخ؛ حيث مات أناس من المسلمين قبل أن تنقل القبلة إلى الكعبة، فحصل عند بعضهم اشتباه في شأنهم؛ فأنزل الله هذه الآية[١]، وذلك: أن صلاتهم إلى بيت المقدس في ذلك الوقت، التزام منهم لطاعة الله ورسوله: وذلك هو الإيمان. وهذه الآية فيها بشارة كبرى وهي: أن الله لا يضيع إيمان المؤمنين: قل ذلك الإيمان، أو كثر، كما ورد في الصحيح: **«أن الله يخرج من النار من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان»**[٢].

وبشارة لكل من عمل عملًا قصده طاعة الله ورسوله، وهو متأول أو مخطئ، أو نسخ ذلك العمل، فإنه إنما عمل ذلك العمل: إيماناً بالله، وقصدًا لطاعته؛ ولكنه تأول تأويلاً أخطأ فيه، أو أخطأ بلا تأويل؛ فخطؤه معفو عنه، وأجر القصد والتوجه إلى الله وإلى طاعته، لا يضيعه الله. ولهذا قال الله عن المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله على لسان نبيه: **«قد فعلت»**[٣].

وفي الحديث الصحيح: **«إذا اجتهد الحاكم فحكم، فأصاب: فله أجران؛ وإذا اجتهد، فأخطأ: فله أجرٌ واحد، وخطؤه مغفور له»**[٤].

وكذلك: من نوى عملًا صالحًا، وحرص على فعله ومنعه مانع ـ: من مرض أو

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ١٢ - ١٨) وتفسير السيوطي (١/ ٣٤٢-٣٤٤) وتفسير ابن كثير (١/ ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٥١٠) ومسلم (رقم ١٩٣).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٢٦) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٧٣٥٢) ومسلم (رقم ١٧١٦)، وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٠٩) وشرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٩١) (١٢/ ١٣-١٤).

سفر أو عجز أو غيرها - كتب له ما نواه من ذلك العمل، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم - من حديث أبي موسى مرفوعًا -: «من مرض أو سافر كُتِبَ له ما كان يعملُ: صحيحًا مقيمًا»(١)، ويدخل في ذلك من أقعده الكبر عن عمله المعتاد.

فصل

إذا ثبت بدلالة الكتاب والسنة معنى الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإسلام وأصول الإيمان، وحقائق الإحسان؛ وتوابع ذلك من أمور الدين - بل هو اسم للدين كله -: علم أنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه: لا شرعًا، ولا حسًّا ولا واقعًا.

وذلك: أن نصوص الكتاب والسنة صريحة في زيادته ونقصانه؛ مثل قوله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ﴾ [المدثر:٣١]، ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة:١٢٤]، وغيرها من الآيات.

وكذلك الحس والواقع يشهد بذلك من جميع وجوه الإيمان؛ فإن الناس في علوم الإيمان، وفي معارفه، وفي أخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة - متفاوتون تفاوتًا عظيمًا: في القوة والكثرة، ووجود الآثار، ووجود الموانع، وغير ذلك، فالمؤمنون الكمل عندهم من تفاصيل علوم الإيمان ومعارفه وأعماله، ما لا نسبة إليه من علوم عموم كثير من المؤمنين، وأعمالهم وأخلاقهم، فعند كثير منهم علوم ضعيفة مجملة، وأعمال قليلة ضعيفة، وعند كثير منهم، من المعارضات والشبهات والشهوات، ما

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٦) بلفظ: «إذا مرض العبد أو سافر، كُتِبَ له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا».

يضعف الإيمان، وينقصه درجات كثيرة، بل تجد المؤمنين يتفاوتون تفاوتًا كثيرًا في نفس العلم الذي عرفوه من علوم الإيمان؛ أحدهما علمه فيه قوي صحيح لا ريب فيه ولا شبهة؛ والآخر: علمه فيه ضعيف، وعنده معارضات كثيرة تضعفه أيضًا، وكذلك أخلاق الإيمان يتفاوتون فيها تفاوتًا كثيرًا: صفات الحلم والصبر والخلق وغيرها، وكذلك في العبادات الظاهرة: كالصلاة؛ يصلي اثنان صلاة واحدة، وأحدهما: يؤدي حقوقها الظاهرة والباطنة، ويعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[1]، والآخر يصليها بظاهره، وباطنه مشغول بغيرها، وكذلك بقية العبادات.

ولهذا كان المؤمنون ثلاث مراتب، مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين ومرتبة الظالمين، وكل واحدة من هذه المراتب أيضًا، أهلها متفاوتون تفاوتًا كثيرًا، والعبد المؤمن ـ في نفسه ـ له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحيانًا بالعكس، وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه، وكان خيار الأمة، والمعتنون بالإيمان منهم ـ يتعاهدون إيمانهم كل وقت ويجتهدون في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المنقصة له؛ ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله: أن يثبت إيمانهم، ويزيدهم منه: من علومه وأعماله وأحواله، فنسأل الله: أن يزيدنا علمًا ويقيناً، وطمأنينةً به وبذكره، وإيمانًا صادقًا.

وخيار الخلق ـ أيضًا يطلبون ويتنافسون في الوصول إلى عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلى حق اليقين[2]، كما قال الله عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٩، ١٠).

(٢) أخرج البيهقي في كتابه الزهد الكبير (٢/ ٣٣٧ رقم ٩١١) عن الحسن بن علي: «من اتقى الكفر والنفاق نال من الله معرفة يقال لها: علم اليقين. ومن اتقى الكبائر نال من الله معرفة يقال لها: عين اليقين. ومن اتقى الصغائر نال من الله معرفة يقال لها: حق اليقين.

يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

والحواريون خواص أتباع المسيح ابن مريم ـ حين طلبوا نزول المائدة ووعظهم عيسى عن هذا الطلب: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [المائدة: ١١٣] فذكروا حاجتهم الدنيوية، وحاجتهم العلمية الإيمانية؛ إلى ذلك(١).

الفصل الثاني

في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان

وهذا فصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية به، معرفة واتصافًا ـ وذلك: أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل، ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد، وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سببًا وطريقًا يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه. ومواده التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل.

أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة؛ والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق، فجميع الأسباب مرجعها إلى الأصل العظيم(٢).

وأما التفصيل، فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة:

منها ـ بل أعظمها ـ: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١١٧).

(٢) انظر: مفاتيح تدبر القرآن، للدكتور خالد بن عبد الكريم اللاحم.

والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا - مائة إلا واحدًا - من أحصاها: دخل الجنة»(١) أي: من حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد لله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون.

فعلم: أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته؛ ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي رُوح الإيمان ورَوْحه، وأصله وغايته فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوي يقينه، فينبغي للمؤمن: أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول؛ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله(٢).

ومنها: تدبر القرآن على وجه العموم، فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وكذلك: إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه؛ وأنه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، ليس في تناقض ولا اختلاف: تيقن أنه: «تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»، وأنه لو كان من عند غير الله لوجد فيه - من التناقض

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣٦) ومسلم (رقم ٢٦٧٧).

(٢) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لابن عثيمين، ضمن مجموع فتاويه (٣/ ٢٦٣-٣٣٤).

والاختلاف - أمورًا كبيرة، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة، فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة - يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره؟! ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وكذلك معرفة أحاديث النبي ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله - كلها من محصلات الإيمان ومقوياته، فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه، وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين، فقد وصف الله الراسخين في العلم، الذين حصل لهم العلم التام القوي، الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام، ولهذا كانوا سادة المؤمنين: الذين استشهد الله بهم، واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]، فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات؛ وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع، فكلّها من عند الله، وما منه، وما تكلم به وحكم به كله حق وصدق.

وقال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [النساء: ١٦٢]. وقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح - استشهد بهم في الدنيا

والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم: ٥٦].

وأخبر تعالى في عدة آيات: أن القرآن آيات للمؤمنين، وآيات للموقنين، لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره ـ: من العلم واليقين والإيمان ـ بحسب ما فتح الله عليهم منه، فلا يزالون يزدادون علمًا وإيمانًا ويقينًا.

فالتدبر للقرآن من أعظم الطرق والوسائل: الجالبة للإيمان، والمقوية له، قال تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩]. فاستخرج بركة القرآن ـ التي من أهمها حصول الإيمان ـ سبيله وطريقه: تدبر آياته وتأملها؛ كما ذكر: «أن تدبره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي على الدين من اعتدائه». قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، أي: فلو تدبروه حق تدبره، لمنعهم مما هم عليه: من الكفر والتكذيب؛ وأوجب لهم الإيمان واتباع من جاء به. وقال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٩]، أي: فلو حصل لهم الإحاطة بعلمه، لمنعهم من التكذيب، وأوجب لهم الإيمان.

ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه ـ معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه: من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة. فإن من عرفه حق المعرفة لم يَرْتَبْ في صدقه، وصدق ما جاء به: من الكتاب والسنة، والدين الحق، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به. وقال تعالى حاثًا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ: ٤٦].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق ـ بقولـه:

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم: ١-٤].

فهو ﷺ أكبر داعٍ للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة، فهو: الإمام الأعظم والقدوة الأكمل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا ﴾ وهو: هذا الرسول الكريم: ﴿ يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ بقوله وخلقه، وعمله ودينه، وجميع أحواله ﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾ أي: إيمانًا لا يدخله ريب(١).

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله ـ توسلوا بإيمانهم: أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات، فقالوا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف ـ الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه ـ يتبادر إلى الإيمان به ﷺ، ولا يرتاب في رسالته؛ بل كثير منهم ـ مجرد ما يرى وجهه الكريم ـ يعرف: أنه ليس بوجه كذاب(٢).

---

(١) من أفضل الكتب التي تعينك أيها القارئ النجيب على فهم سيرة الرسول ﷺ والوقوف على شمائله وفضائله وصفاته كتاب السيرة النبوية لابن هشام، والفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير، وأخلاق النبي ﷺ لأبي الشيخ الأصفهاني، والشمائل المحمدية للترمذي، والأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي، والصحيح المسند من الشمائل المحمدية لأم عبد الله الوادعية، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، والرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري، ومحبة الرسول ﷺ وطاعته للدكتور إبراهيم خليل ملا خاطر وغيرها.

(٢) فعن عبد الله بن سلام ﷺ قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فجئته لأنظر في =

وقيل لبعضهم: لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟ فقال: ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به، فاستدل هذا العاقل الموفق ـ بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة ـ على رسالته؛ فبادر إلى الإيمان به.

ولهذا استدل ملك الروم هرقل ـ لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهى عنه ـ استدل بذلك: أنه من أعظم الرسل، واعترف بذلك اعترافًا جليًّا، ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه[1]، كما منع كثيرًا ممن اتضح له: أنه رسول الله حقًّا، وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات تضمحل، ولا يرون لها قيمة: حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة: عاجلًا وآجلًا.

ولهذا السبب الأعظم، كان المعتنون بالقرآن حفظًا ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة ـ أعظم إيمانًا ويقينًا من غيرهم، وأحسن عملًا في الغالب.

=

وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٨٥) والضياء المقدسي في أحاديثه المختارة (٩/ ٤٣٢ رقم ٤٠٣) والحاكم (٣/ ١٤ رقم ٤٢٨٣) (٤/ ١٧٦ رقم ٧٢٧٧) وابن ماجه (رقم ١٣٣٤، ٣٢٥١) والبيهقي في سننه الكبرى (٢/ ٥٠٢ رقم ٤٤٢٢) والدارمي (رقم ١٤٦٠، ٢٦٣٢) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣١٣ رقم ٥٤١٠) وأحمد (٥/ ٤٥١) وصححه الترمذي والحاكم وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٥٢) وعمدة القاري (١/ ١٣٩) والتمهيد (١٣/ ٢٠٩) وتحفة الأحوذي (٧/ ١٥٨).

(١) فقال هرقل لأبي سفيان: فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.
وقال هرقل لقومه: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم؟ فتابعوا هذا النبي، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب. فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليَّ،وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل. أخرجه البخاري (رقم ٧) ومسلم (رقم ١٧٧٣).

ومن أسباب الإيمان ودواعيه: التفكر في الكون، في خلق السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات.

فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات: من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها: من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب؛ الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها: من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره؛ وإخلاص الدين له، وهذا هو روح الإيمان وسره.

وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين، خصوصًا ما تشاهده في نفسك: من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار، وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله: في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوي التعبد، فإن الدعاء مخ العبادة[1] وخالصها.

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين، فإن هذا يدعو إلى الإيمان. ولهذا دعا الله الرسل والمؤمنين إلى

(١) فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٢ رقم ٨٩٠) والنسائي في سننه الكبرى (٦/ ٤٥٠ رقم ١١٤٦٤) وأبو داود (رقم ١٤٧٩) والحاكم (١/ ٦٦٧ رقم ١٨٠٢) وصححه والترمذي (رقم ٢٩٦٩) وقال: حسن صحيح. أما ما يروى بلفظ: الدعاء مخ العبادة. فقد أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧١). والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٣ رقم ٣١٩٦) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٢٢٤ رقم ٣٠٨٧) والطبراني في الدعاء (رقم ٨) وضعفه الترمذي بقوله: هذا حديث غريب وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٣٠٠٣).

شكره، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة:١٧٢]، فالإيمان يدعو إلى الشكر؛ والشكر ينمو به الإيمان، فكل منهما ملازم وملزوم للآخر.

فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكرًا لله، قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي: الإيمان، بل هي روحه.

ومن الأسباب الجالبة للإيمان: معرفة محاسن الدين.

فإن الدين الإسلامي كله محاسن: عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها.

وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه، كما امتن به على خيار خلقه، بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:٧]، فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء، وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان، وفي الدعاء المأثور: «**اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»[(١)].

من أعظم مقويات الإيمان الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان، في عبادة الله، والإحسان إلى خلقه، فيجتهد: أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه: وإتقانه، ولا يزال العبد يجاهد نفسه: ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل في ذلك إلى حق اليقين ـ الذي هو أعلى مراتب اليقين ـ فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات، وهذا هو الإيمان الكامل.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٤ - ٣٠٥ رقم ١٩٧١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي المجتبى (رقم ١٣٠٥) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٩٥ رقم ١٦٢٤) وأحمد (٤/ ٢٦٤) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) والحاكم في المستدرك (١/ ٧٠٥ رقم ١٩٢٣) وصححه.

وكذلك الإحسان إلى الخلق ـ بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع ـ هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان، والجزاء من جنس العمل، فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره، ما يقدر عليه ـ: أحسن الله إليه أنواعًا من الإحسان: ومن أفضلها: أن يقوى إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له[١]. وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله ولعباده، فإن الدين: النصيحة[٢]؛ ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق ـ: فقد تحقق نصحه. ولذلك قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»[٣] متفق عليه.

ومنها قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ...﴾ إلى قوله: ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝﴾ الآية [المؤمنون: ١-١٠]، فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره، كما تقدم.

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله ـ: من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود ـ من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

وتقدم: أن الله سمى الصلاة إيمانًا، بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فهي أكبر ناهٍ عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان؛ كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه؛ لقوله: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧) (٤/ ٢٨٤) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦، ٣٣٨) وحاشية ابن القيم (١٢/ ١٧٦).

(٢) فعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثًا، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» أخرجه مسلم (رقم ٥٥) بينما أخرجه البخاري تعليقًا بعد حديث (رقم ٥٦) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٥-٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٣) ومسلم (رقم ٤٥).

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها؛ كما قال النبي ﷺ: «**والصدقة برهانٌ**»[(١)] أي: على إيمان صاحبها، فهي دليل الإيمان، وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو: كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه ـ بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولًا وفعلًا ـ لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان.

ولهذا كان الصحابة ﷺ ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: «**اجلس بنا نؤمن ساعة**»[(٢)]، فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية، فيتجدد بذلك إيمانهم.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصًا فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته، فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠]، إجابة لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان. ورعاية الأمانات والعهود وحفظها: من علائم الإيمان، وفي الحديث: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[(٣)].

وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه، فانظر حاله: هل يرعى الأمانات كلها مالية، أو قولية؛ أو أمانات الحقوق؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٣).

(٢) ثبت هذا من قول معاذ بن جبل ﷺ كما في صحيح البخاري في كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**» بعد حديث (رقم ٧). وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٤ رقم ٣٠٣٦٣) (٧/ ١٢٦ رقم ٣٤٦٩٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٧٠٧) وانظر: عمدة القاري (١/ ١١٥) وحاشية ابن القيم. (١٢/ ٢٩١).

(٣) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (٥/ ٧٤ رقم ١٦٩٩) (٧/ ٢٢٣ رقم ٢٦٦١) وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٢٢ رقم ١٩٤) وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٥١ رقم ٢٣٣٥) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٩٧ رقم ٧٠٧٣) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٨٣ رقم ٢٢٩٢) وفي الصغير (رقم ١٦٢) وفي الكبير (٨/ ١٩٥ رقم ٧٧٩٨) وأبو يعلى (٤/ ٣٤٣ رقم ٢٤٥٨) وأحمد (٣/ ١٣٥).

وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟ فإن كان كذلك: فهو صاحب دين وإيمان، وإن لم يكن كذلك: نقص من دينه وإيمانه، بمقدار ما انتقص من ذلك. وختمها بالمحافظة على الصلوات ـ على حدودها، وحقوقها، وأوقاتها ـ: لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه ويؤتي أكله كل حين.

وشجرة الإيمان ـ كما تقدم ـ محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي ـ وهو المحافظة على أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات ـ وإلى إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة؛ وهو: العفة عن المحرمات قولًا وفعلاً، فمتى تمت هذه الأمور حيَّ هذا البستان وزها، وأخرج الثمار المتنوعة.

ومن دواعي الإيمان وأسبابه الدعوة إلى الله وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره، كما أقسم تعالى بالعصر: أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس، والتواصي بالحق ـ الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق ـ وبالصبر على ذلك كله؛ وبهما يكمل غيره.

وذلك: أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقويات الإيمان وصاحب الدعوة لابد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضًا: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق؛ وصبر على ذلك ـ لابد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه، وروح وقوة إيمان، وقوة التوكل، فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل به النصر على الأعداء: من شياطين الإنس، وشياطين الجن، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

وأيضًا: فإنه متصد لنصر الحق: ومن تصدى لشيء، فلابد أن يفتح عليه فيه ـ: من الفتوحات العلمية والإيمانية ـ بمقدار صدقه وإخلاصه.

ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته: توطين النفس على مقاومات جميع ما ينافي الإيمان: من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان.

فإنه كما أنه لابد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلابد مع ذلك ـ من دفع الموانع والعوائق؛ وهي: الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة له؛ والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان، فإن الإرادات التي أصلها: الرغبة في الخير ومحبته، والسعي فيه ـ لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها: من رغبة النفس في الشر؛ ومقاومة النفس الأمَّارة بالسوء.

فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات: تم إيمانه، وقوي يقينه: وصار مثل بستان إيمانه: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ومتى كان الأمر بالعكس: بأن استولت عليه النفس الأمَّارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما ـ انطبق عليه هذا المثل، وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها: علمًا وعملًا، وحالًا.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها: من الفتن الظاهرة والباطنة؛ ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح وتدارك الأمر قبل فواته. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ

ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان. فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه، فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيرًا ذليلاً ﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك؛ والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا؛ وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان؛ واجعلنا من الراشدين؛ بفضلك ومنتك؛ إنك أنت العليم الحكيم.

الفصل الثالث

في فوائد الإيمان وثمراته

كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة، وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجني اللذيذ، والأكل الدائم، والخير المستمر؛ أمور لا تحصى.

وفوائد لا تستقصى ومجملها: أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة. وذلك: أن هذه الشجرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها ـ: عادت على صاحبها وعلى غيره، بكل خير عاجل وآجل.

فمن أعظم ثمارها: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون. قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

فكل مؤمن تقي، فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿ ٱللَّهُ

وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر، وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة، إلى ما يرفعها: من أنوار الخير العاجل والآجل. وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل: بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى، فإن التقوى من تمام الإيمان، كما تقدم تحقيقه.

ومن ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة ـ بإيمانهم الذي كملوا به نفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات، وذلك فضل الله.

ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار، والإيمان ـ ولو قليلاً ـ يمنع من الخلود فيها. فإن من آمن إيمانًا ـ أدى به الواجبات، وترك المحرمات ـ فإنه لا يدخل النار، كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في هذا الأصل، كما تواتر عنه: أنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيرًا[(١)].

---

(١) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء» أخرجه مسلم (رقم ٩١)، قال ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٤٩٣): وقوله: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل
=

ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨]، أي: يدافع عنهم كل مكروه، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها.

ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه: نادَى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين قال: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٨] إذا وقعوا في الشدائد؛ كما أنجينا يونس، قال النبي ﷺ: «دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾»(١).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي: بالقيام بالإيمان ولوازمه: ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٢] أي: من كل ما ضاق على الناس: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤]. فالمؤمن المتقي: ييسر الله أموره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب، ويجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وشواهد هذا كثير من الكتاب والسنة.

ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح ـ الذي هو فرعه ـ يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار. قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

= من إيمان». أراد به على سبيل الخلود. وقال أبو المحاسن يوسف بن موسى الحنفي في كتابه معتصر المختصر (٢/ ٣٥٨-٣٥٩): «لا يدخل النار». دخول تخليد: كالكافر، لأن الآثار تظاهرت بدخول المؤمنين المذنبين، وخروجهم منها بالشفاعة، يؤيده حديث أنس قال رسول الله ﷺ: «يخرج من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من خير ما يزن ذرة».

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٠٥) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٢٣٣-٢٣٤ رقم ١٠٤١) وقال: إسناده صحيح، والحاكم (١/ ٦٨٤ رقم ١٨٦٢) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، (٢/ ٦٣٧ رقم ٤١٢١) وصححه أيضًا.

فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وذلك: أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره، وهذه هي الحياة الطيبة، فإن أصل الحياة الطيبة: راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها: من الإيمان والإخلاص. ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل(١)؛ مثل قوله: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، أي لا يجحد سعيه، ولا يضيع عمله، بل يضاعف بحسب قوة إيمانه.

وقال: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩]، والسعي للآخرة: هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدني منها؛ من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ.

فإذا تأسست على الإيمان، وأبنت عليه: كان السعي مشكورًا مقبولاً مضاعفًا، لا يضيع منه مثقال ذرة. وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره: فإنه غير مقبول: قال تعالى ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان:٢٣]، وذلك: لأنه أسست على غير الإيمان بالله ورسله، الذي روحه: الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول(٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ

---

(١) قال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ٤): وقد نبه ﷺ على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته. وانظر: عمدة القاري (١/ ١٢٨) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣٠٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٩/ ٤) وتفسير ابن كثير (١/ ١٥٥، ٢٠٤) (٣/ ١٠٨).

رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥] فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم[١].

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجب ما قبله: من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه، والمنقصة له ـ تجب ما قبلها[٢].

ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، ويهديه الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به؛ وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس:٩] وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال بعض السلف: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم»[٣].

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره: التي كل أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها...؛ وذلك: لقوة إيمانه، وقوة توكله؛ ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله، فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٣٢-٣٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٨).

(٢) قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: «يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها» أخرجه أحمد (٤/ ١٩٩-٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥١٠) (١١/ ٥٧٤) وعمدة القاري (١٣/ ٢٠٧) وشرح الزرقاني (٢/ ١١٩) وفيض القدير (٦/ ٤٣).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٦٦ رقم ٦٩٢٥) وفي شعب الإيمان (٧/ ١٩٦ رقم ٩٩٧٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦).

يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

ولهذا تجد اثنين: تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربة ـ وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له ـ تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما، وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه.

وكما أنه يسلي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلي عند فقد المحاب، فإذا فقد المؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه ـ: من أهل وولد، ومال، وصديق، وشبهها ـ: تسلى بحلاوة إيمانه؛ والإيمان خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب.

وفقد المحبوب ـ في الحقيقة ـ معدود من المصائب، ولولا أن يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنده من الإيمان ما يهون عليه مصيبته في فقد يوسف مع شدة حبه العظيم: بحيث قال لإخوته ـ لما طلبوا منه بعض يوم، أن يذهب معهم ليرتع ويلعب ـ «قال إني ليحزنني أن تذهبوا به» فأخبر أن المانع له من إرساله: أنه لا يصبر على فراقه ولا ساعة من نهار، ولكنهم عالجوه، وذكروا له الأسباب التي توجب له أن يرسله معهم؛ فأرسله ﴿ لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال:٤٢]، فمن هذه حاله، وهذا حبه البليغ الذي لا يمكن المعبر أن يعبر عنه ـ هل يدخل في الذهن أنه يبقى هذه المدة الطويلة على الوجود؟! بل يغلب على الظن أن الحب يفتت كبده بأسرع وقت، ولكن: قوة الإيمان، وقوة الرجاء بالله ـ أوجب له أن يتماسك كل هذه المدة، حتى جاء الله بالفرج الذي وُعِد به المؤمنون.

وكذلك أم موسى حين ذهب اليم بموسى، وأصبح فؤادها فارغًا من كل شيء إلا من الحزن على موسى، لولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وعلمت أن وعد الله حق: لكادت تبدي بما في قلبها، وتصرح بمصيبتها، ولكن هو الإيمان: المثبت عند الشدائد، المسلي عند المصائب، المقوي إذا وهنت القوى، المعزي إذا عز العزاء.

وقال النبي ﷺ، في وصيته العظيمة ـ في حديث ابن عباس، الصحيح الذي في

السنن ـ: «تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»[1]؛ أي تعرف إلى الله بالإيمان وأعمال الإيمان ـ وأنت صحيح غني قوي ـ يعرفك الله في الشدة؛ يقويك الله على مباشرتها، ويعينك على معالجتها، وأعظم شدة ـ تنزل بالمؤمن ـ شدة الموت وسكراته.

فهذا الحديث بشرى لكل مؤمن قد تعرف إلى ربه في رخائه: أن يعينه في ذلك المقام الحرج، والشدة المزعجة، وضعف القوى، وتكاثف الشياطين الذين يريدون أن يحولوا بين العبد وبين ختم حياته بالخير، فإن الله يعينه بتأييده وروحه ورحمته؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم:٩٦] أي بسبب إيمانهم وأعمالهم الإيمان، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده: حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين: من الثناء والدعاء له حيًّا وميتًا، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين.

وهذا أيضًا من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله للمؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق، ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين ـ اللذين هما رأس الإيمان وكماله ـ نالوا الإمامة في الدين، ومنها: قوله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١].

فأهل الإيمان والعلم يرفعهم الله في الدنيا والآخرة؛ فهم أعلى الخلق درجة عند الله، وعند عباده: في الدنيا والآخرة. وإنما نالوا هذه الرفعة: بإيمانهم الصحيح

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٤ رقم ١٤) والحاكم (٣/ ٢٣ رقم ٦٣٠٣) والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣رقم ١١٢٤٣) وأحمد (١/ ٣٠٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٣٤ رقم ٧٤٥) وعبد بن حميد (١/ ٢١٤ رقم ٦٣٦) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٣- ١٨٤).

وعلمهم ويقينهم: والعلم واليقين من أصول الإيمان.

ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]؛ فأطلقها: ليعم الخير العاجل والآجل؛ وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة: أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور، وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤]، ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨]، فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

[الحديد:١٢]، فالمؤمن يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه؛ وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة مشى بنوره على الصراط، حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم. وكذلك رتب المغفرة على الإيمان؛ ومن غفرت سيئاته، سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب.

ومن ثمرات الإيمان: حصول الفلاح الذي هو: إدراك غاية الغايات؛ فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب، والهدى الذي هو: أشرف الوسائل، كما قال تعالى ـ بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد وما أنزل على من قبله؛ والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: اللتين هما من أعظم آثار الإيمان ـ قال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:٥] فهذا هو الهدى التام، والفلاح الكامل. فلا سبيل إلى الهدى والفلاح ـ اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما ـ إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات.

ومن ثمرات الإيمان، الانتفاع بالمواعظ والتذكير بالآيات. قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٧٧].

وهذا: لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه؛ علمًا وعملًا، وكذلك معه الآلة العظيمة، والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق؛ وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضًا: فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات. ومن لم يكن كذلك، فلا يستغرب عدم قبوله للحق، واتباعه له، ولهذا يذكر الله ـ في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول، وقبول الحق الذي جاء به ـ السبب الذي أوجب لهم ذلك، وهو: الكفر الذي في قلوبهم، يعني: لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة؛ والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه، فلا تستغربوا هذه الحالة؛ فإنها لم تزل دأب كل كافر.

ومنها: أن الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة

الضراء؛ وكسب الخير في كل أوقاته.

كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»(١)، والشكر والصبر هما جماع كل خير؛ فالمؤمن مغتنم للخيارات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته. وفي الصحيح عنه ﷺ: «**لا يصيب المؤمن من هم، ولا غم، ولا أذىً - إلا كفر الله عنه بها من خطاياه**»(٢).

فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء، نعمتان: نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك، وبذلك تتم عليه النعمة.

ويجتمع له عند الضراء، ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه؛ لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر - هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها.

ومنها: أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥] أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود، وأزاله بالكلية: وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن؛ والنفوس الأمارة بالسوء، فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان.

ولهذا ثبت في الصحيحين - من حديث أبي هريرة - أن النبي ﷺ، قال: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا: الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك، فليقل: آمنت بالله، ولينته، وليتعوذ بالله من الشيطان**»(٣).

فذكر ﷺ هذا الدواء النافع لهذا الداء المهلك،وهي ثلاثة أشياء: الانتهاء عن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٩٩) وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٥٥ رقم ٢٨٩٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٢٩٦) ومسلم (رقم ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦).

هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الآمنين.

وذلك: لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة؛ أعظمها: العلم أنه مناف للحق؛ وكل ما ناقض الحق فهو باطل ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم: من سرور وحزن وخوف وأمن؛ وطاعة ومعصية؛ وغير ذلك من الأمور التي لابد لكل أحد منها، فعند المحاب والسرور، يلجؤون إلى الإيمان، فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجؤون إلى الإيمان من جهات عديدة: يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك: من الثواب ويقابلون الأحزان والقلق: براحة القلب، والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الخوف: فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيمانًا وثباتًا، وقوة وشجاعة، ويضمحل الخوف الذي أصابهم، كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار؛ وخلفه قوة الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الأمن: فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء، بل يتواضعون، ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره، فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب، الأمن وأسبابه، ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز، أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة: فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق.

وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعدم ردها أو

نقصها، ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها: أن يتم عليهم نعمته بقبولها؛ والذي تفضل عليهم بحصول أصلها: أن يتمم لهم منها ما انتقصوه منها.

ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي -: بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات - لجبر نقصها. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال ﷺ: «**مثل المؤمن ومثل الإيمان كالفرس المربوط في آخيَّته: يجول ما يجولُ، ثم يعود إلى آخيته**»[1]. كذلك المؤمن: يجول ما يجول في الغفلة والتجرئ على بعض الآثام، ثم يعود سريعًا إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها.

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم - ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليه، ومنِّه.

ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة.

كما ثبت في الصحيح - عن النبي ﷺ - أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن**»[2] الحديث.

فأخبر: أن الإيمان إذا صحبه - عند وجود أسباب هذه الفواحش - فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق، ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله - الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك - يمنع من مواقعة هذه الفواحش، ومن وقعت منه: فإنه لضعف إيمانه وذهاب نوره،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨١ رقم ٦١٦) وفي موارد الظمآن (١/ ٦٠٧ رقم ٢٤٥١) وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٣٥٧ رقم ١١٠٦) وأحمد (٣/ ٣٨، ٥٥) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٧٨ رقم ١٣٥٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠١): رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح غير أبي سليمان الليثي وعبد الله بن الوليد التميمي وكلاهما ثقة.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧٥) ومسلم (رقم ٥٧).

وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه، وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة، وهذه الأمور - التي هي من مكملات الإيمان - لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

ومنها: أنه ثبت عنه ﷺ، في الصحيحين من حديث أبي موسى ﷺ أنه قال: **«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجة طعمها طيبٌ، وريحها طيبٌ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، كمثل التمرة: طعمها طيبٌ، ولا ريح لها»**(١).

وهؤلاء القسمان هم خير الخليقة؛ فإن الناس أربعة أقسام.

الأول: خير في نفسه، متعد خيره إلى غيره، وهو خير الأقسام: فهذا: المؤمن الذي قرأ القرآن، وتعلم علوم الدين، فهو نافع لنفسه، متعد نفعه إلى غيره؛ مبارك أينما كان، كما قال الله تعالى: عن عيسى ﵇: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١].

(والثاني): طيب في نفسه، صاحب خير، وهو: المؤمن الذي ليس عنده من العلم، ما يعود به على غيره.

فهذان القسمان هما خير الخليقة؛ والخير الذي فيهم عائد إلى ما معهم: من الإيمان القاصر، والمتعدي نفعه إلى الغير بحسب أحوال المؤمنين.

(والقسم الثالث): من هو عادم للخير؛ ولكنه لا يتعدى ضرره إلى غيره.

(والرابع): من هو صاحب شر على نفسه، وعلى غيره، فهذا شر الأقسام: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨].

فعاد الخير كله إلى الإيمان وتوابعه؛ وعاد الشر إلى فقد الإيمان، والاتصاف بضده، والله الموفق. وشبيه بهذا المعنى، قوله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله**

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٢٧) ومسلم (رقم ٧٩٧).

من المؤمن الضعيف؛ وفي كل خير»[١]. فقسم ﷺ المؤمنين إلى قسمين: قسم قوي في عمله وقوة إيمانه، وفي نفعه لغيره، وقسم ضعيف في هذه الأشياء.

ومع ذلك، ففي كل من القسمين خير: لأن الإيمان وآثاره كله خير، وإن تفاوت المؤمنون في هذا الخير. ومثل هذا قوله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»[٢].

ومفهوم هذه النصوص الصحيحة المحكمة: أن فاقد الإيمان لا خير فيه؛ لأنه إذا عدم الإيمان: فإما أن يكون الشخص أحواله كلها شر وضرر على نفسه، وعلى المجتمع من جميع الوجوه؛ وإما أن يكون فيه بعض الخير الذي قد انغمر بالشر، وغلب شره خيره، والمصالح إذا انغمرت واضمحلت في المفاسد، صارت شرًّا، لأن الخير الذي معه، يقابله شر نظيره: فيتساقطان، ويبقى الشر ـ الذي لا مقابل له من الخير ـ يعمل عمله. ومن تأمل الواقع في الخلق، رأى الأمر كما ذكر النبي ﷺ.

فتبين مما تقدم: أن هذه الشجرة المباركة ـ شجرة الإيمان ـ أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها.

وأن عروقها وأصولها وقواعدها: الإيمان وعلومه ومعارفه؛ وساقها وأفنانها: شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة؛ المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله.

وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر: السمت الحسن، والهدي الصالح، والخلق الحسن، واللهج بذكر الله وشكره، والثناء عليه؛ والنفع لعباد الله ـ بحسب القدرة ـ نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن،ونفع المال، وجميع طرق النفع، وحقيقة ذلك

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٠٣٢) البيهقي في الكبرى (١٠/ ٨٩ رقم ١٩٩٦١) والترمذي (رقم ٢٥٠٧) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٩٣ رقم ٢٦٢٢٠) والطبراني في الأوسط (٦/ ١٠٩-١١٠ رقم ٥٩٥٣) وابن الجعد في مسنده (رقم ٧٤٥) وأحمد (٢/ ٤٣) (٥/ ٣٦٥) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٣٨٨).

كله: القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه.

وأن هذه الشجرة - في قلوب المؤمنين - متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، بحسب ما قام بهم، واتصفوا به من هذه الصفات، وأن منازلهم في الآخرة تابعة لهذا كله.

وأن الفضل في ذلك كله لله وحده، والمنة كلها له سبحانه ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها، وتبوءوا منازلها - معترفين بفضل ربهم العظيم -: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣]. فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بنعمه وفضله حيث وصلوا إلى هذه المنازل العالية؛ وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنة الله عليهم به؛ وهو: العمل الصالح الذي هو: الإيمان وأعماله.

فنسأل الله تعالى: أن يمن علينا بالإيمان الصادق؛ وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا؛ ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي؛ غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

حرر: في ٨ من شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٤هـ، والحمد لله رب العالمين، وتم نقله: في ١٤ من جمادى الثانية سنة ١٣٧٦هـ بقلم عبد الله السليمان السلمان فلله الحمد من قبل ومن بعد.

❁❁❁

الرسالة السادسة عشرة:

الدرة المختصرة
في محاسن دين الإسلام

تأليف

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

من أفاضل علماء عنيزة

المتوفى سنة ١٣٧٦هـ

رحمه الله تعالى

قدم لها فضيلة الشيخ:

علي بن حمد بن محمد الصالحي

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة محاسن الإسلام

بقلم

علي الحمد المحمد الصالحي

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ثم الحمد لله الذي أرسل رسوله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

ثم الحمد لله على نعمٍ لا تحصى، ثم الحمد لربي كما هو أهله وكما يحب ويرضى، ثم الصلاة والسلام على إمام الداعين إلى الله، المصطفى الذي أرسله الله رحمة للعالمين، والذي قام بما كُلِّف به من الدعوة إلى الله خير قيام، ووقف جُهده في سبيل الدعوة إلى الله ثلاثًا وعشرين سنة بدأب وتحمل لمصاعب عظمى، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وما ذاك إلا بنصره ﷺ دين الله.

وبعد: فلما كانت الدعوة إلى الله هي سبيل الرسول ﷺ وسبيل أتباعه، وهي السبيل الموصلة إلى القصد من خلق الله لعباده من الإنس والجان، حيث يقول تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فصلت: ٣٣] فلما أكمل الله الدين وأتم نعمته على المسلمين اختار الرسول ﷺ لقاء ربه(١)، فقام بالدعوة إلى الله أصحابه الكرام خير قيام، ففتحوا البلاد، وأرشدوا العباد بالدعوة إلى الله قولًا وعملاً، وأقاموا العدل والشرع في كل أرض وطئتها أقدامهم، وتحقق لهم النصر الذي لم

(١) فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: خطب النبي ﷺ فقال: «إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» فبكى أبو بكر ﷺ فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله، فكان رسول الله هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، إلخ. أخرجه البخاري (رقم ٤٦٦) ومسلم (رقم ٢٣٨٢).

يسجل التاريخ مثله.

وما ذاك إلا بتحقيق الامتثال لما وصَّى الله به في كتابه، فحملوا إلى العالم الهائم كتاب الله وسنة رسوله بألسنتهم وأفعالهم، يهدون بالحق وبه يعدلون، فبذروا بذورًا آتت ثمارها في أنحاء المعمورة.

ثم تتابع ملوك المسلمين قرونًا متتالية، فرفعوا راية الإسلام والجهاد في سبيل الله، متمسكين بها وصاهم الله به في كتابه من الاعتصام بحبله، مجتمعين على الحق ونصره، لا تقوم لهم أي قوة في الأرض.

فلما عدلوا عما هم مجتمعين عليه من الدعوة إلى الله، ووضعوا راية الجهاد في سبيل الله والتمسك بدينه، فشلوا وذهبت ريحهم ودبت بينهم الفرقة ودخل فيهم الدخيل، فكان ما سجله التاريخ من النكبات والانحطاط وظفر العدو بهم وفي بلادهم، مما يدمي القلوب ويفتت الأكباد، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ثم إنه في القرن الثامن شع نور يحمله العلماء، وهم أفراد حملوا مشعل الهداية وحملوا راية الجهاد، وتبعهم ولاة البلاد واستمر هذا العمل فترات يطفأ مرة ويضيء مرة في أنحاء من بلاد الإسلام حتى القرن الثاني عشر.

ثم شع نور أضاء الجزيرة العربية وما حولها، وكان محدودًا بما رسمه أعداء الدين والمنتسبين إلى الإسلام من التفريق وبث أسبابه، مما أوجد الفتن، فتخلل العدو في الصفوف، وما ذاك إلا بتجنب ما أرشد الله إليه من الاعتصام بحبله والاجتماع عليه والجهاد في سبيله.

ثم وصلت الحال في وقتنا الحاضر إلى ما وصلت إليه من الذل والهوان والمصائب، التي نرجو من الله أن يكشفها، ولا حول ولا قوة إلا الله.

أيها الأخ المسلم هل الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والذي مضى على بعثته أربعة عشر قرنًا حين يقول محذرًا: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم» الحديث. يعني واقع المسلمين الحالي؟ حيث يقول ﷺ: **«يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما**

تتداعى الأكلة على القصعة» قالوا: يا رسول الله، أمن قلة؟ قال: **«لا، إنكم لكثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل»**(١).

هذا الحديث صحيح في الواقع المحزن، المخزي وبتحليل بعضه في التمثيل: هل القصعة المليئة بالطعام الشهي تدفع عن نفسها، بالطبع لا، وواقع كثير من بلاد المسلمين يمثلها وهل الوهن ونزع المهابة من قلوب الأعداء من الكثرة في أعداد المسلمين إلا واقع مسلم به؟

زد على ذلك التمثيل بغثاء السيل الذي يأنف منه من له كرامة وشيمة ومروءة.

أتدري ما غثاء السيل؟ إنه مجموع عدة خبائث منوعة.

إنه رجيع بني آدم، إنه رجيع البهائم المنوعة من الحمير والأبقار والإبل والأغنام، وإنه جيف البهائم بأنواعها، إنه مجموعة من الحشائش ومن الحطام الذي لا قيمة له، والذي يمثل الخفة وعدم القوة، إنه الزبد الذي يطفو فوق الماء العكر، فيلعب به السيل كما يلعب الصبيان بالكرة، وبالتالي يتلاشى عن الوجود.

فهل يربأ المسلمون بأنفسهم أمام تحذير الرسول ﷺ لهم من هذا الواقع المشين؟

ثم إنه يحذرهم بواقعهم اليوم عما يبيت لهم بعد هذا الخنوع والركون المنافي للدين والعقل والحكمة.

إن الواقع أنه لا قيمة للدول الإسلامية عامة، تقام الدنيا وتقعد دون الأخذ برأيهم شاءوا أم أبوا. يا ليت قومي يعلمون، فيعودوا إلى مصدر عزهم وكرامتهم، وإلا يفعلوا فليترقبوا العظائم، وأن يساقوا كما تساق البهائم، والشاهد الحالي منذر بأن مصيرهم مصير إخوانهم مما يعرفه الجميع.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٢٩٧) وأحمد (٥/ ٢٧٨) والطبراني في مسند الشاميين (رقم ٦٠٠) والطيالسي (رقم ٩٩٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٧ رقم ١٠٣٧٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٥٦) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٣ رقم ٣٧٢٤٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٨١٨٣).

وبما أننا نقدم لرسالة شيخنا (عبد الرحمن الناصر السعدي) المليئة بالإرشادات النيرة، والتي سماها «محاسن الإسلام وواجب المسلمين» والتي تحدث فيها لدعوة المسلمين إلى الاجتماع والاستعداد للدعوة والدفاع؛ لأنه بفكره الثاقب ونور عقله الواسع، عالم بأن الإسلام بتعاليمه الموافقة للعقول السليمة كفيلة بأن تجر معتنقي الديانات إلى الإسلام قهرًا، حيث إنه يوافق كل عقل سليم ولأنه بتعاليمه الحكيمة مشعل وضَّاء لمن أراد الله له الهداية من المسلمين وغيرهم، ولأن تعاليم الإسلام والعمل بها قارب من قوارب النجاة، حيث يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٩]، ولكن الإيمان ليس بالتمني والدعوى، وإنما هو بالعمل قولاً وفعلاً، والسير على الصراط المستقيم، أما الدعوى فهي عنوان المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، كما قال الله عنهم، بل الأمر أعظم وأطم، فعسى الله أن يأتي بأمر من عنده إنه هو القادر والناصر.

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وبقدرتك العظمى، ونتوسل إليك بكل الأعمال التي ترضيك أن تنصر الإسلام وأهله، وأن تعيذهم من الشيطان، وأن تجمعهم على الحق، وأن تعيذهم من التفرق، فأنت الكريم الجواد، وأنت المستعان وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك يا رحمن، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

علي الحمد المحمد الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.. أما بعد:

فإن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ أكمل الأديان وأفضلها، وأعلاها وأجلها، وقد حوى من المحاسن والكمال والصلاح والرحمة والعدل والحكمة ما يشهد لله تعالى بالكمال المطلق، وسعة العلم والحكمة.

ويشهد لنبيه ﷺ أنه رسول الله حقًّا، وأنه الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤]. فهذا الدين الإسلامي أعظم برهان، وأجل شاهد لله بالتفرد بالكمال المطلق كله، ولنبيه ﷺ بالرسالة والصدق.

وغرضي من هذا التعليق إبداء ما وصل إليه علمي من بيان أصول محاسن هذا الدين العظيم. فإني وإن كان علمي ومعرفتي تقصر كل القصور عن إبداء بعض ما احتوى عليه هذا الدين من الجلال والجمال والكمال، وعبارتي تضعف عن شرحه على وجه الإجمال فضلاً عن التفصيل في المقال، وكان ما لا يدرك جميعه ولا يوصل إلى غايته ومعظمه، فلا ينبغي أن يترك منه ما يعرفه الإنسان لعجزه عما لا يعرفه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

وذلك: أن في معرفة هذا العلم فوائد متعددة: منها: أن الاشتغال في هذا الموضوع الذي هو أشرف المواضيع وأجلها من أفضل الأعمال الصالحة، فمعرفته والبحث عنه، والتفكير فيه وسلوك كل طريق يحصل إلى معرفته خير ما شغل العبد به نفسه، والوقت الذي تنفقه في ذلك هو الوقت الذي لك لا عليك.

ومنها: أن معرفة النعم والتحدث بها قد أمر الله به ورسوله، وهو من أكبر الأعمال الصالحة. ولا شك أن البحث في هذا اعترافٌ وتحدث وتفكر في أجل نعمه ـ سبحانه ـ على عباده، وهو الدين الإسلامي الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه،

فيكون هذا التحدث شكرًا لله، واستدعاءً للمزيد من هذه النعمة.

ومنها: أن الناس يتفاوتون في الإيمان وكماله تفاوتًا عظيمًا، وكلما كان العبد أعرف بهذا الدين وأشد تعظيمًا له وسرورًا به وابتهاجًا، كان أكمل إيمانًا، وأصح يقينًا، فإنه برهانٌ على جميع أصول الإيمان وقواعده.

ومنها: من أكبر الدعوة إلى دين الإسلام شرح ما احتوى عليه من المحاسن، التي يقبلها ويتقبلها كل صاحب عقل وفطرة سليمة.

فلو تصدق للدعوة إلى هذا الدين رجالٌ يشرحون حقائقه، ويبينون للخلق مصالحه، لكان ذلك كافيًا كفايةً تامة في جذب الخلق إليه، لما يرون من موافقته للمصالح الدينية والدنيوية، ولصلاح الظاهر والباطن من غير حاجة إلى التعرض لدفع شبه المعارضين، والطعن في أديان المخالفين. فإنه في نفسه يدفع كل شبهة تعارضه؛ لأنه حقٌّ مقرون بالبيان الواضح، والبراهين الموصلة إلى اليقين، فإذا كشف عن بعض حقائق هذا الدين صار أكبر داعٍ إلى قبوله ورجحانه على غيره.

واعلم أن محاسن الدين الإسلامي عامة في جميع مسائله ودلائله، وفي أصوله وفروعه، وفيما يدل عليه من علوم الشرع والأحكام، وما دل عليه من علوم الكون والاجتماع، وليس القصد هنا استيعاب ذلك وتتبعه، فإنه يستدعي بسطًا كثيرًا، وإنما الغرض ذكر أمثلة نافعة، يستدل بها على سواها، وينفتح بها الباب لمن أراد الدخول، وهي أمثلة منتشرة في الأصول والفروع، والعبادات والمعاملات.

فنقول مستعينين بالله، راجين منه أن يهدينا، ويعلمنا، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما تصلح به أحوالنا، وتستقيم به أقوالنا وأفعالنا.

المثال الأول

دين الإسلام مبني على أصول الإيمان المذكورة في قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فهذه الأصول العظيمة التي أمر الله عباده بها هي الأصول التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وهي محتوية على أجل المعارف والاعتقادات، من الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه على ألسنة رسله، وعلى بذل الجهد في سلوك مرضاته.

فدينٌ أصله الإيمان بالله، وثمرته السعي في كل ما يحبه ويرضاه، وإخلاص ذلك لله، هل يتصور أن يكون دين أحسن منه وأجل وأفضل؟

ودين أمر بالإيمان بكل ما أوتيه الأنبياء، والتصديق برسالاتهم، والاعتراف بالحق الذي جاءوا به من عند ربهم، وعدم التفريق بينهم، وأنهم كلهم رسل الله الصادقون، وأمناؤه المخلصون ـ يستحيل أن يتوجه إليه أي اعتراض وقدح. فهو يأمر بكل حق، ويعترف بكل صدق، ويقر الحقائق الدينية المستندة إلى وحي الله لرسله، ويجري مع الحقائق العقلية الفطرية النافعة، ولا يرد حقًّا بوجه من الوجوه، ولا يصدق بكذب، ولا يروج عليه الباطل، فهو مهيمن على سائر الأديان، يأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، ومصالح العباد، ويحث على العدل والفضل والرحمة والخير، ويزجر عن الظلم والبغي ومساوئ الأخلاق، ما من خصلة كمالٍ قررها الأنبياء والمرسلون إلا وقررها وأثبتها، وما من مصلحة دينية ودنيوية دعت إليها الشرائع إلا حثَّ عليها، ولا مفسدة إلا نهى عنها وأمر بمجانبتها.

والمقصود: أن عقائد هذا الدين هي التي تزكو بها القلوب، وتصلح الأرواح، وتتأصل بها مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال[1].

المثال الثاني

شرائع الإسلام الكبار بعد الإيمان هي: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام.

تأمل هذه الشرائع العظيمة، وجليل منافعها، وما توجبه من السعي في مرضاة

---

(١) انظر: عمدة القاري (١/ ١٢٨) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣٠٢) وشرح حديث لبيك (١/ ١١٧) وفيض القدير (١/ ١٦٧).

الله، والفوز بثوابه العاجل والآجل. وتأمل ما في الصلاة من الإخلاص لله، والإقبال التام عليه، والثناء والدعاء والخضوع، وأنها من شجرة الإيمان بمنزلة الملاحظة والسقي للبستان، فلولا تكرر الصلاة في اليوم والليلة ليبست شجرة الإيمان، وذوى عوده، ولكنها تنمو وتتجدد بعبوديات الصلاة.

وانظر إلى ما تحتوي عليه الصلاة من الاشتغال بذكر الله، الذي هو أكبر من كل شيء، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وانظر إلى حكم الزكاة وما فيها من التخلق بأخلاق الكرام، من السخاء والجود، والبعد عن أخلاق اللئام، والشكر لله على ما أولاه من الإنعام، وحفظ المال من المنغصات الحسية والمعنوية، وما فيها من الإحسان إلى الخلق ومواساة المحتاجين، وسداد المصالح المحتاج إليها.

فإن في الزكاة دفع حاجة المضطرين المحتاجين. وفيها الاستعانة على الجهاد والمصالح الكلية، التي لا يستغني عنها المسلمون، وفيها دفع صولة الفقر والفقراء. وفيها الثقة بخلف الله، والرجاء لثوابه، وتصديق موعوده(١).

وفي الصوم من تمرين النفوس على ترك محبوبها، الذي ألفته، حبًّا لله، وتقربًا إليه، وتعويد النفوس وتمرينها على قوة العزيمة والصبر وفيه تقوية داعي الإخلاص، وتحقيق محبته على محبة النفس، ولذلك كان الصوم لله، اختصه لنفسه من بين سائر الأعمال(٢).

وأما ما في الحج من بذل الأموال، وتحمل المشاقات، والتعرض للأخطار والصعوبات، طلبًا لرضا الله، والوفادة على الله والتملق له في بيته وفي عرصاته والتنوع في عبوديات الله في تلك المشاعر التي هي موائد مدها الله لعباده ووفود بيته.

---

(١) فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا» أخرجه البخاري (رقم ١٤٤٢) ومسلم (رقم ١٠١٠).

(٢) فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به...» الخ الحديث. أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٤) ومسلم (رقم ١١٥١).

وما فيها من التعظيم والخضوع التام لله، والتذكر لأحوال الأنبياء والمرسلين، والأصفياء والمخلصين، وتقوية الإيمان بهم، وشدة التعلق بمحبتهم.

وما فيه من التعارف بين المسلمين، والسعي في جمع كلمتهم، واتفاقهم على مصالحهم الخاصة والعامة مما لا يمكن تعداده، فإنه من أعظم محاسن الدين، وأجل الفوائد الحاصلة للمؤمنين، وهذا على وجه التنبيه والاختصار.

المثال الثالث

ما أمر به الشارع وحث عليه من وجوب الاجتماع والائتلاف، ونهيه وتحذيره عن التفرق والاختلاف، على هذا الأصل الكبير من نصوص الكتاب والسنة شيء كبير[(١)].

وقد علم كل من له أدنى عقل منفعة هذا الأمر، وما يترتب عليه من المصالح الدينية والدنيوية، وما يندفع به من المضار والمفاسد. ولا يخفى - أيضًا - أن القوة المعنوية المبنية على الحق، هذا أصلها الذي تدور عليه. كما أنه قد علم ما كان عليه المسلمون في صدر الإسلام من استقامة الدين، وصلاح الأحوال، والعزة التي لم يصل إليها أحدٌ سواهم، إذ كانوا مستمسكين بهذا الأصل، قائمين به حق القيام، موقنين أشد اليقين أنه روح دينهم ومنهاجه الصحيح يزيد هذا بيانًا وإيضاحًا.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] وقال سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].
وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب» أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (رقم ٩٣، ٨٩٥) والقضاعي في مسند الشهاب (رقم ١٥) والديلمي في الفردوس (٣/ ٦٢٨ رقم ٥٩٦٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣١٠٩).
وقال ﷺ: «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن» أخرجه الترمذي (رقم ٢١٦٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٨٨ رقم ٩٢٢٥) والضياء في المختارة (١/ ٢٩٤-٢٩٥ رقم ١٨٥) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٨٨ رقم ١١٠٨٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣١٦).

المثال الرابع

إن دين الإسلام دين رحمة وبركة وإحسان[١]، وحث على منفعة نوع الإنسان[٢]، فما اشتمل عليه هذا الدين من الرحمة، وحسن المعاملة، والدعوة إلى الإحسان، والنهي عن كل ما يضاد ذلك هو الذي صيره نورًا وضياءً بين ظلمات الظلم والبغي، وسوء المعاملة، وانتهاك الحرمات.

وهو الذي جذب قلوب من كانوا قبل معرفته ألدَّ أعدائه، حتى استظلوا بظله الظليل. وهو الذي عطف وحنىٰ على أهله، حتىٰ صارت الرحمة والعفو والإحسان يتدفق من قلوبهم على أقوالهم وأعمالهم، وتخطاهم إلى أعدائه، حتى صاروا من أعظم أوليائه. فمنه من دخل فيه بحسن بصيرة وقوة وجدان. ومنهم من خضع له ورغب في أحكامه وفضلها على أحكام أهل دينه، لما فيها من العدل والرحمة.

المثال الخامس

دين الإسلام هو دين الحكمة، ودين الفطرة، ودين العقل والصلاح والفلاح[٣].

يوضح هذا الأصل: ما هو محتوٍ عليه من الأحكام الأصولية والفرعية، التي تقبلها الفطر والعقول، وتنقاد لها نوازع الحق والصواب، وما هي عليه من الإحكام، وحسن الانتظام، وأنها صالحة لكل زمان ومكان.

فأخباره كلها حق وصدق، لم يأت ويستحيل أن يأتي علمٌ سابق أو لاحق بما

---

(١) فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: اثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته» أخرجه مسلم (رقم ١٩٥٥).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه» أخرجه مسلم (رقم ٢١٩٩).

(٣) فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] أخرجه البخاري (رقم ١٣٥٩) ومسلم (رقم ٢٦٥٨).

ينقضها أو يكذبها، وإنما العلوم الحقة كلها تؤازرها وتؤيدها، وهي أعظم برهان على صدقها.

وقد حقق المحققون المنصفون أن كل علم نافع ديني أو دنيوي أو سياسي فقد دل عليه القرآن دلالة لا ريب فيها. فليس في شريعة الإسلام ما تحيله العقول، وإنما فيه ما تشهد العقول الزكية بصدقه ونفعه وصلاحه[١].

وكذلك أوامره ونواهيه كلها عدل لا ظلم فيها، فما أمر بشيء إلا وهو خيرٌ خالصٌ، أو راجحٌ، وما نهى إلا عن الشر الخالص، أو الذي مفسدته تزيد على مصلحته. وكلما تدبر اللبيب أحكامه ازداد إيمانًا بهذا الأصل، وعلم أنه تنزيل من حكيمٍ حميدٍ.

المثال السادس

ما جاء به هذا الدين من الجهاد، والأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

فإن الجهاد الذي جاء به مقصود به دفع عدوان المعتدين على حقوق هذا الدين، وعلى رد دعوته، وهو أفضل أنواع الجهاد، لم يقصد به جشع ولا طمع، ولا أغراض نفسية. ومن نظر إلى أدلة هذا الأصل، وسيرة النبي ﷺ وأصحابه مع أعدائهم؛ عرف بلاشك أن الجهاد يدخل في الضروريات، ودفع عادية المعتدين[٢].

وكذلك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لما كان لا يستقيم هذا الدين إلا باستقامة أهله على أصوله وشرائعه، وامتثال أوامره التي هي الغاية في الصلاح،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢/ ٢٢٩) ودرء التعارض (٩/ ٣٣٥) وطريق الهجرتين (ص ٢٤٨، ٣٦٢).

(٢) فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر**» أخرجه أبو داود (رقم ٤٣٤٤) وابن ماجه (رقم ٤٠١١) والترمذي (رقم ٢١٧٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٢ رقم ٨٠٨١) وأبو يعلى في المسند (٢/ ٣٥٣ رقم ١١٠١) وابن الجعد (رقم ٣٣٢٦) وأحمد (٣/ ١٩).

وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٢٣) وفتح الباري (١٣/ ٥٣) وعمدة القاري (٧/ ٢٢٤).

واجتناب نواهيه التي هي شرٌّ وفسادٌ، وكان أهله ملتزمين لهذه الأمور، ولكيلا تزين لبعضهم نفوسهم الظالمة التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير عن أداء المقدور عليه من الواجبات، وكان ذلك لا يتم إلا بأمر ونهي بحسب ذلك ـ كان ذلك من أجل محاسن الدين، ومن أعظم الضروريات لقيامه، كما أن في ذلك تقويم المعوجين من أهله وتهذيبهم، وقمعهم عن رذائل الأمور، وحملهم على معاليها.

وأما إطلاق الحرية لهم ـ وهم قد التزموه ودخلوا تحت حكمه وتقيدوا بشرائعه ـ فمن أعظم الظلم والضرر عليهم، وعلى المجتمع، خصوصًا الحقوق الواجبة المطلوبة شرعًا وعقلاً وعرفاً[1].

المثال السابع

ما جاءت به الشريعة من إباحة البيوع، والإجارات، والشركات، وأنواع المعاملات التي تتبادل فيها المعاوضات بين الناس في الأعيان والديون والمنافع وغيرها. فقد جاءت الشريعة الكاملة بحل هذا النوع، وإطلاقه للعباد لاشتماله على المصالح في الضروريات والحاجيات والكماليات، وفسحت للعباد فسحًا صلحت به أمورهم وأحوالهم، واستقامت معايشهم.

وشرطت الشريعة في حل هذه الأشياء الرضا من الطرفين، واشتمال العقود على

---

(١) فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» أخرجه مسلم (رقم ٤٩) وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعزيرًا، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه، فلما رأى ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». ثم قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي المسيء، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم». أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٣١٨) وأبو داود (رقم ٤٣٣٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٩٣ رقم ١٩٩٨٣) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٤٦ رقم ١٠٢٦٨) وأبو يعلى (٨/ ٤٤٨ رقم ٥٠٣٥) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٦٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

العلم، ومعرفة المعقود عليه، وموضوع العقد، ومعرفة ما يترتب عليه من الشروط، ومنعت من كل ما فيه ضرر وظلم منه أقسام الميسر والربا والجهالة.

فمن تأمل المعاملات الشرعية رأى ارتباطها بصلاح الدين والدنيا، وشهد لله بسعة الرحمة وتمام الحكمة، حيث أباح سبحانه لعباده جميع الطيبات، من مكاسب ومطاعم ومشارب، وطرق المنافع المنظمة المحكمة[١].

المثال الثامن

ما جاءت به الشريعة من إباحة الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وغيرها. فكل طيب نافع فقد أباحه الشارع من أصناف الحبوب والثمار، ولحوم الحيوانات البحرية مطلقًا، والحيوانات البرية، ولم يمنع من هذا إلا كل خبيثٍ ضار على الدين أو العقل أو البدن أو المال.

فما أباحه فإنه من إحسانه سبحانه، ومحاسن دينه. وما منعه فإنه من إحسانه، حيث منعهم مما يضرهم، ومن محاسن دينه، حيث إن الحسن تابع للحكمة والمصلحة، ومراعاة المضار[٢].

وكذلك ما أباحه من الأنكحة، وأن للعبد أن ينكح ما طاب له من النساء مثنى وثلاث ورباع، لما في ذلك من مصلحة الطرفين، ودفع ضرر الجانبين. ولم يبح للعبد الجمع بين أكثر من أربع حرائر لما يترتب على ذلك من الظلم وترك العدل.

مع أنه حثه عند خوف الظلم، وعدم القدرة على إقامة حدود الله في الزوجية؛

---

(١) ويشهد لذلك القاعدة التي استخلصها العلماء من الكتاب والسنة: أن الأصل في الأشياء الإباحة، حتى يرد الشرع بخلاف ذلك، لأن التحريم عارض. انظر: فتح الباري (٩/ ٦٥٦) (١٣/ ٢٦٩) وعمدة القاري (٥/ ٤٩، ٥٣) (٨/ ٢١، ١١٨) (١١/ ٢٠٤) (١٢/ ٦٠) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/ ٢٧٩) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٨٨-١٠٠) والدر المنثور (٣/ ٢١-٢٤) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٠-٢٠) والأم (٢/ ٢٤١) وفتح الباري (٩/ ٥١٨، ٦٣٧) (١٠/ ٧٨-٨٠) وعمدة القاري (٢١/ ٩٩، ١١٨، ١٩١) والمحلى (٧/ ٤٨٤).

على الاقتصار على واحدة، حرصًا على نيل هذا المقصود[١].

وكما أن الزواج من أكبر النعم ومن الضروريات؛ فإباحة الطلاق كذلك، خشية عيشة الإنسان مع من لا تلائمه ولا توافقه، واضطراره للبقاء في ضنك الحال، وشدة العسر: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠].

المثال التاسع

ما شرعه الله ورسوله بين الخلق من الحقوق التي هي صلاحٌ وخير وإحسان وعدل وقسط وترك للظلم. وذلك كالحقوق التي أوجبها وشرعها للوالدين، والأولاد، والأقارب، والجيران، والأصحاب، والعاملين، ولكل واحد من الزوجين على الآخر، وكلها حقوق ضروريات وكماليات، تستحسنها الفطر والعقول الزاكية، وتتم بها المخالطة وتتبادل فيها المصالح والمنافع، بحسب حال صاحب الحق ومرتبته.

وكلما تفكرت فيها رأيت فيها من الخير وزوال الشر، ووجدت فيها من المنافع العامة والخاصة، والإلفة وتمام العشرة ـ ما يشهدك أن هذه الشريعة كفيلة بسعادة الدارين. وترى فيها هذه الحقوق تجري مع الزمان والمكان والأحوال والعرف، وتراها محصلةً للمصالح، حاصلاً فيها التعاون التام على أمور الدين والدنيا، جالبة للخواطر، مزيلة للبغضاء والشحناء.

وهذه الجمل تعرف بالاستقراء والتتبع لها في مصادرها ومواردها[٢].

---

(١) انظر: تفسر الطبري (٤/ ٢٣١-٢٣٨) (٥/ ٤، ٣٠١) وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٧-٨٥٩) والدر المنثور (٢/ ٤٢٨-٤٢٩) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٥٠، ٥٦٢) والاستذكار (٥/ ٤٨١، ٥١٢) (٨/ ١٤٠) والمحلى (٩/ ٤٤١-٤٤٤) وفتح الباري (٥/ ٣٩١) (٨/ ٢٤٠) (٩/ ١٠٤، ١٣٩) وشرح النووي (٧/ ١٣٠) (٨/ ١٨٣) (١٨/ ١٥٤) وعمدة القاري (١٣/ ٥٨-٥٩) (١٤/ ٥٧-٥٨) (٢٠/ ٦٤-٦٦) والديباج على مسلم (٣/ ٣٢٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٣٤-٥٣٥) (٣/ ٣) (٤/ ٢٣٦) (٨/ ٥٢) (١٢/ ٩٩) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧) والاستذكار (٥/ ٩، ٤٤٢) (٦/ ١٢٩) وفتح الباري (٤/ ٢١٢، ٢٢٤) (٥/ ٣٥٩) (٦/ ٦٠٥) (١٣/ ٨٣) وشرح النووي (١/ ٥٥) (٧/ ٨٣) (١٠/ ٢٢٠، ٢٤٢).

المثال العاشر

ما جاءت به الشريعة من انتقال المال والتركات بعد الموت، وكيفية توزيع المال على الورثة. وقد أشار - تعالى - إلى حكمة ذلك بقوله: ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ [النساء:١١] فوضعها الله بنفسه بحسب ما يعلمه من قرب النفع، وما يحب العبد عادة أن يصل إليه ماله، وما هو أولى ببره وفضله؛ مرتبًا ذلك ترتيباً تشهد العقول الصحيحة بحسنه، وأنه لو وكل الأمر إلى آراء الناس وأهوائهم وإراداتهم لحصل بسبب ذلك من الخلل والاختلال وزوال الانتظام وسوء الاختيار ما يشبه الفوضى.

وجعل الشارع للعبد أن يوصي في جهات البر والتقوى بشيء من ماله فيما ينفعه لآخرته، وقيد ذلك بالثلث فأقل لغير وارثٍ، لئلا تصير الأمور التي جعلها الله قياماً للناس ملعبةً يتلاعب بها قاصرو العقل والديانة عند انتقالهم من الدنيا(١).

أما حالهم في حالة صحة الأجسام والعقول، فما يخشونه من الفقر والإفلاس مانعٌ لهم من صرفه فيما يضرهم غالبًا.

المثال الحادي عشر

ما جاءت به الشريعة الإسلامية من الحدود وتنوعها بحسب الجرائم.

وهذا لأن الجرائم والتعدي على حقوق الله وحقوق عباده من أعظم الظلم الذي يخل بالنظام، ويختل به الدين والدنيا، فوضع الشارع للجرائم والتجرآت حدودًا تردع عن مواقعتها، وتخفف من وطأتها، من القتل، والقطع، والجلد، وأنواع التعزيرات، وكلها فيها من المنافع والمصالح الخاصة والعامة ما يعرف به العاقل حسن الشريعة، وأن الشرور لا يمكن أن تقاوم وتدفع دفعًا كاملاً إلا بالحدود الشرعية التي رتبها الشارع بحسب الجرائم قلة وكثرة، وشدة وضعفًا(٢).

---

(١) انظر: الأم (٤/ ١١٠) وشرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٧٧) وعمدة القاري (١/ ١٨٤) (١٤/ ٤٢، ٧٥) (٢٣/ ٢٣٠) والتمهيد (٩/ ٢٧) وتحفة الأحوذي (٦/ ٢٢٦) وفيض القدير (٣/ ٤٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٨٣) (٥/ ٢١) (٦/ ٢١٢، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٦٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٧٣) =

المثال الثاني عشر

ما جاءت به الشريعة من الأمر بالحجر على الإنسان عن التصرف في ماله إذا كان تصرفه مضرًا به أو بغيره. وذلك كالحجر على المجنون والصغير والسفيه ونحوهم، والحجر على الغريم لمصلحة غرمائه.

وكل هذا من محاسن الشريعة، حيث منعت الإنسان من التصرف في ماله الذي كان في الأصل مطلق التصرف فيه، ولكن لما كان تصرفه ضرره أكثر من نفعه، وشره أكبر من خيره حجر عليه الشارع حجرًا للتصرفات في ميدان المصالح، وإرشادًا للعباد أن يسعوا في كل تصرف نافع غير ضار(١).

المثال الثالث عشر

ما جاءت به الشريعة من مشروعية الوثائق التي يتوثق بها أهل الحقوق.

وذلك كالشهادة التي تستوفي بها الحقوق، وتمنع التجاحد، ويزول بها الارتياب، وكالرهن، والضمان، والكفالة، التي إذا تعذر الاستيفاء ممن عليه الحق رجع صاحب الحق إلى الوثيقة التي يستوفى منها.

ولا يخفى ما في ذلك من المنافع المتنوعة، وحفظ الحقوق، وتوسيع المعاملات، وردها إلى القسط والعدل، وصلاح الأحوال، واستقامة المعاملات.

فلولا الوثائق لتعطل القسم الأكبر من المعلامات، فإنها نافعةٌ للمتوثق، ونافعةٌ لمن عليه الحق من وجوه متعددة معروفة(٢).

=

(٢/ ٧١) (٣/ ٢٦٢-٢٦٣) (٣/ ٤٣٦) والأم (٤/ ٢٥٠-٢٦٠) والاستذكار (٧/ ٤٥٨-٤٦٧) وفتح الباري (١/ ٥٣-٥٤) (١٢/ ٥٨-١١٥) وشرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ١٨٠-١٩٥).

(١) انظر: الأم (٣/ ٩٣-١٠٠) والاستذكار (٧/ ٢٧٠) والمحلى (٨/ ٢٧٨) والمغني (٤/ ٢٩٥) وبداية المجتهد (٢/ ٢١٠).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ٣١٠)، (٥/ ١٤٠)، وتفسير الطبري (٣/ ١٤١) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٣٨) والأم (٣/ ٨٩-٩٤) (٦/ ٢٢٤-٢٢٩)، وشرح النووي (١١/ ٣٩-٤٠) والاستذكار (٧/ ٥-١٤) والمحلى (٨/ ٢٧٧-٢٧٨) (٨/ ١١٠-١٢١) وعمدة القاري (١٢/ ١١٣-١٢٠) (١٨/ ١٧٠).

المثال الرابع عشر

ما حث الشارع عليه من الإحسان الذي يكسب صاحبه الأجر عند الله والمعروف عند الناس، ثم يرجع إليه ماله بعينه أو بدله، فيكون مكسب هذا النوع أجل المكاسب دون أن يلحق صاحبه ضرر. وذلك كالقرض، والعارية، ونحوهما(١).

فإن في ذلك من المصالح، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وحصول الخير والمبرات، ما لا يعد ولا يحصى. وصاحبه يرجع إليه ماله، وقد استفاد من ربه أجرًا جزيلاً، وبذر عند أخيه إحسانًا جميلاً، مع ما يتبع ذلك من الخير والبركة، وانشراح الصدر، وحصول الألفة والمودة(٢).

وأما الإحسان المحض الذي يعطيه صاحبه مجاناً ولا يرجع إليه؛ فقد تقدمت الإشارة إلى حكمته في الزكاة والصدقة.

المثال الخامس عشر

الأصول والقواعد التي جعلها الشارع أسسًا لفصل الخصومات، وحل المشاكل، وترجيح أحد المتداعيين على الآخر، فإنها أصولٌ مبنية على العدل والبرهان، وإطراد العرف، وموافقة الفطر.

فإنه جعل البينة على كل من ادعى شيئًا أو حقًّا من الحقوق، فإذا أتى بالبينة التي ترجح جانبه وتقويه ـ ثبت له الحق الذي ادعى به، ومتى لم يأت إلا بمجرد الدعوى حلف المدعى عليه على نفي الدعوى، ولم يتوجه للمدعى عليه حق(٣).

---

(١) فعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «من أقرض مرتين كان له مثل أجر أحدهما لو تصدق به» أخرجه الشاشي في مسنده (١/ ٤٢٢ رقم ٤٣٩) قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٧/ ٣٥٩ رقم ١٤٣٩): صححه ابن حبان، وأخرجه عن أبي يعلى بهذا الإسناد. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٠٨٠) ولفظه: «من أقرض ورِقًا مرتين كان كعدل صدقة مرة». وأخرج البيهقي في الشعب (٣/ ٢٨٣ رقم ٣٥٦١) بلفظ: «من أقرض رجلًا مسلمًا دراهم مرتين كان له أجر صدقتها مرة واحدة».

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٩٢-٥٩٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٣٤-٤٥٥) والاستذكار (٦/ ٤٠٦) والمحلى (٩/ ١٢١-١٢٣) وفتح الباري (٤/ ٤٦٩-٤٧٧)، وعمدة القاري (٩/ ٩٨).

(٣) فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه» =

وجعل الشارع البينات بحسب مراتب الأشياء، وجعل القرائن المبينة والعرف المطرد بين الناس من البينات.

فالبينة اسم جامع لكل ما يبين الحق ويدل عليه.

وجعل عند الاشتباه وتساوي الخصمين طريق الصلح العادل المناسب لكل قضية طريقًا إلى حل المشاكل والمنازعات.

فكل طريق لا ظلم فيه ولا يدخل العباد في معصية الله، وهو نافع لهم ـ فقد حثَّ عليه إذا كان وسيلةً إلى فصل الخصومات، وقطع المشاجرات. وساوى في هذا بين القوي والضعيف، والرئيس والمرءوس في جميع الحقوق، وأرضى الخصوم بسلوك طرق العدل، وعدم الحيف(١).

المثال السادس عشر

ما جاءت به الشريعة من الأمر بالشورى، والثناء على المؤمنين بأن جميع أمورهم الدينية والدنيوية الداخلية والخارجية شورى بينهم.

وهذا الأصل الكبير قد أجمع العقلاء على استحسانه، وعلى أنه هو السبب الوحيد في سلوك أصلح الأحوال، وأحسن الوسائل لحصول المقاصد وإصابة الصواب، وسلوك طرق العدل.

وأنه أرقى للأمم العاملة عليه في تحصيل كل خير وصلاح، وكلما ازدادت معارف الناس، واتسعت أفكارهم عرفوا شدة الحاجة لهذا ومقداره.

ولما كان المسلمون قد طبقوا هذا الأصل في صدر الإسلام على أمورهم الدينية

=

أخرجه الترمذي (رقم ١٣٤١) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٧٩ رقم ١٧٠٦٥) والدارقطني (٤/ ٢١٨ رقم ٥٣، ٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٨٩٧).

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣١٠-٣١٨) وفتح الباري (٥/ ٢٤٨، ٢٨٢) (١٢/ ٢٣٦) وعمدة القاري (١٢/ ١٩٩، ٢٦٧) (١٣/ ١٩١) والتمهيد (٢٣/ ٢٠٤-٢٠٦) وتحفة الأحوذي (٤/ ٤٧٥-٤٧٦).

والدنيوية كانت الأمور مستقيمة، والأحوال في رقي وازدياد، فلما انحرفوا عن هذا الأصل ما زالوا في انحطاط في دينهم ودنياهم، حتى وصلت بهم الحال إلى ما ترى، فلو راجعوا دينهم في هذا الأصل وغيره لأفلحوا ونجحوا[١].

المثال السابع عشر

إن هذه الشريعة جاءت بإصلاح الدين، وإصلاح الدنيا، والجمع بين مصلحة الروح والجسد. وهذا الأصل في الكتاب والسنة منه شيء كثيرٌ، يحث الله ورسوله على القيام بالأمرين، وأن كل واحد منهما ممد للآخر، ومعين عليه[٢].

والله ـ تعالى ـ خلق الخلق لعبادته، والقيام بحقوقه، وأدر عليهم الأرزاق، ونوع لهم أسباب الرزق، وطرق المعيشة ليستعينوا بذلك على عبادته، وليكون ذلك قيامًا لداخليتهم وخارجيتهم. ولم يأمر بتغذية الروح وحدها وإهمال الجسد.

كما أنه نهى عن الاشتغال باللذات والشهوات، وتقوية مصالح القلب والروح ويتضح هذا في أصل آخر، وهو هذا:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٥٢-١٥٣) (٢٥/ ٣٦-٣٧) وفتح الباري (١٣/ ٣٤٠-٣٤٦) وفيض القدير (١/ ٢٧٥).

(٢) فعن النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فَسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، أخرجه البخاري (رقم ٥٢) ومسلم (رقم ١٥٩٩) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٢٩): وقد عظم العلماء أمر هذا الحديث، فعدوه رابع أربعة تدور عليها الأحكام، كما نقل عن أبي داود، وفيه البيتان المشهوران، وهما:

عمدة الدين عندنا كلمات ... مسندات من قول خير البرية
اترك المشبهات وازهد ودع ... ما ليس يعنيك واعملن بنية

والمعروف عن أبي داود عد: ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، الحديث بدل: ازهد فيما في أيدي الناس، وجعله بعضهم ثالث ثلاثة، حذف الثاني، وأشار ابن العربي إلى أنه يمكن أن ينتزع منه وحده جميع الأحكام، قال القرطبي: لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره، وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب، فمن هنا يمكن أن ترد جميع الاحكام إليه، والله المستعان، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٧-٢٨) وعمدة القاري (١/ ٢٩٥) والديباج على مسلم (٤/ ١٩٠) وتحفة الأحوذي (٤/ ٣٣٢).

المثال الثامن عشر

إن الشرع جعل العلم، والدين، والولاية، والحكم متآزرات متعاضدات.

فالعلم والدين يقوم الولايات، وتنبني عليه السلطة والأحكام. والولايات كلها مقيدة بالعلم والدين الذي هو الحكمة، وهو الصراط المستقيم، وهو الصلاح والفلاح والنجاح.

فحيث كان الدين والسلطة مقترنين متصاعدين؛ فإن الأمور تصلح والأحوال تستقيم. وحيث فصل أحدهما عن الآخر اختل النظام، وفقد الصلاح والإصلاح، ووقعت الفرقة، وتباعدت القلوب، وأخذ أمر الناس في الانحطاط.

يؤيد هذا: أن العلوم مهما اتسعت، والمعارف مهما تنوعت، والاختراعات مهما عظمت وكثرت فإنه لم يرد منها شيءٌ ينافي ما دل عليه القرآن أو يناقض ما جاءت به الشريعة فالشرع لا يأتي بما تحيله العقول، وإنما يأتي بما تشهد العقول الصحيحة بحسنه، أو بما لا يهتدي العقل إلى معرفته جملةً أو تفصيلاً[1]، وهذا ينبغي أن يكون مثالاً آخر، وهو:

المثال التاسع عشر

إن الشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولا بما ينقضه العلم الصحيح.

وهذا من أكبر الأدلة على أن ما عند الله محكمٌ ثابت، صالح لكل زمان ومكان.

وهذه الجمل المختصرة تعرف على وجه التفصيل بالتتبع والاستقراء لجميع الحوادث الكونية، وحوادث علوم الاجتماع، وتطبيق ذلك إذا كان من الحقائق الصحيحة على ما جاء به الشرع، فبذلك يعرف أنه تبيان لكل شيء، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

المثال العشرون

نظرة مجملة في فتوحات الإسلام المتسعة الخارقة للعوائد، ثم لبقائه محترمًا مع تكالب الأعداء، ومقاوماتهم العنيفة، ومواقفهم المعروفة معه.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٢، ٣١٥).

وذلك أن من نظر إلى منبع هذا الدين، وكيف ألف جزيرة العرب على افتراق قلوبها، وكثرة ضغائنها وتعاديها، وكيف ألفهم وجمع قاصيهم لدانيهم، وأزال تلك العداوات، وأحل الأخوة الإيمانية محلها.

ثم اندفعوا في أقطار الأرض يفتحونها قطرًا قطرًا، وفي مقدمة هذه الأقطار أمة فارس والروم أقوى الأمم وأعظمها ملكًا وأشدها قوة وأكثرها عددًا وعدة، ففتحوهما وما وراءهما بفضل دينهم، وقوة إيمانهم، ونصرة الله ومعونته لهم، حتى وصل الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها. فصار هذا يعد من آيات الله، وبراهين دينه، ومعجزات نبيه، وبهذا دخل الخلق فيه أفواجًا ببصيرة وطمأنينة، لا بقهر ولا إزعاج.

فمن نظر نظرة إجمالية إلى هذا الأمر عرف أن هذا هو الحق الذي لا يقوم له الباطل، مهما عظمت قوته وتعاظمت سطوته، هذا يعرف ببداهة العقول، ولا يرتاب فيه منصف، وهو من الضروريات.

بخلاف ما يقوله طائفةٌ من كتاب هذا العصر الذي دفعهم الرضوخ الفكري إلى مشايعة أعداء الإسلام، فزعموا أن انتشار الإسلام وفتوحه الخارقة للعادة مبني على أمور مادية محضةٍ، حللوها بمزاعمهم الخاطئة، ويرجع تحليلها إلى ضعف دولة الأكاسرة ودولة الرومان، وقوة المادة في العرب، وهذا مجرد تصوره كاف في إبطاله.

فأي قوة في العرب تؤهلهم لمقاومة أدنى حكومة من الحكومات الصغيرة في ذلك الوقت؟ فضلاً عن الحكومات الكبيرة الضخمة، فضلاً عن مقاومة أضخم الأمم في وقتها على الإطلاق وأقواها وأعظمها عددًا وعدة في وقت واحد، حتى مزقوا الجميع كل ممزقٍ، وحلت محل أحكام هؤلاء الملوك الجبابرة أحكام القرآن والدين العادلة، التي قبلها وتلقاها بالقبول كل منصف مريد للحق.

فهل يمكن تفسير هذا الفتح المنتشر المتسع الأرجاء بتفوق العرب في الأمور المادية المحضة؟

وإنما يتكلم بهذا من يريد القدح في الدين الإسلامي، أو من راج عليهم كلام

الأعداء من غير معرفة للحقائق. ثم بقاء هذا الدين على توالي النكبات، وتكالب الأعداء على محقه وإبطاله بالكلية، من آيات هذا الدين، وأنه دين الله الحق، فلو ساعدته قوةٌ كافية ترد عنه عادية العادين وطغيان الطاغين، لم يبق على وجه الأرض دين سواه، ولقبله الخلق من غير إكراه ولا إلزام، لأنه دين الحق، ودين الفطرة، ودين الصلاح والإصلاح، لكن تقصير أهله وضعفهم، وتفرقهم، وضغط أعدائهم عليهم هو الذي أوقف سيره، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

المثال الحادي والعشرون

دين الإسلام مبني على العقائد الصحيحة النافعة، وعلى الأخلاق الكريمة المهذبة للأرواح والعقول، وعلى الأعمال المصلحة للأحوال، وعلى البراهين في أصوله وفروعه، وعلى نبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين والمخلوقات، وإخلاص الدين لله رب العالمين، وعلى نبذ الخرافات والخزعبلات المنافية للحس والعقل، المحيرة للفكر، وعلى الصلاح المطلق، وعلى دفع كل شر وفساد، وعلى العدل ورفع الظلم بكل طريق، وعلى الحث على الرقي لأنواع الكمالات.

وهذه الجمل يطول تفصيلها، وكل من له أدنى معرفة يهتدي إلى تفصيلها على وجه الوضوح والبيان الذي لا إشكال فيه.

ولنقتصر على هذا الكلام على اختصاره، فإنه يحتوي على أصول وقواعد يعرف بها ما للإسلام من الكمال والعظمة والإصلاح الحقيقي لكل شيء. وبالله التوفيق.

وقع الفراغ من تعليقها غرة جمادى الأولى سنة ١٣٦٤هـ وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بقلم معلقها

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

الرسالة السابعة عشرة:

واجب المسلمين

الشيخ الفاضل العالم
عبد الرحمن بن ناصر سعدي
المتوفى سنة ١٣٧٦هـ
رحمه الله

قدم له فضيلة الشيخ:
علي الحمد المحمد الصالحي
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم علي الحمد المحمد الصالحي

في كل يوم من تأريخنا تبرز مآثر أسلافنا الأفاضل، الذين كرسوا جهودهم ومقدراتهم على النصح لله ولعباده(١)، والذين سمت نفوسهم إلى معالي الأخلاق(٢) فأصبحت آثارهم كالنجوم في الهداية والإشراق(٣)، وهكذا ينبغي أن تكون همم الرجال، والله يختص برحمته من يشاء.

نزف إليك أيها القارئ هذه الرسالة التي تعتبر في الحقيقة سياسية شرعية لسلوك الأمة والفرد من كتابات الشيخ الفاضل العالم (عبد الرحمن الناصر بن سعدي) وجدها أبناؤه ضمن أوراقه بخطه وهي غير مؤرخة، كان ـ رحمة الله عليه ـ كثير الكتابة، يكتب كل ما يدور بخاطره على ضوء الكتاب والسنة، فتحول دون إبراز ما كتبه ظروف قاهرة، ذلك لأنه كان مثال العفة والورع في زمانه، وليس لنا حاجة في تعداد فضائله، فهو معروف لدى الجميع بما قدمه في حياته، وها نحن الآن

---

(١) فعن تميم الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» أخرجه البخاري معلقًا بعد حديث (رقم ٥٦) ومسلم (رقم ٥٥).

(٢) عن سهل بن سعد الساعدي أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها» أخرجه الحاكم (١/ ١١١ رقم ١٥١) والطبراني في الكبير (٦/ ١٨١ رقم ٥٩٢٨) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٤١ رقم ٨٠١٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٨): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه، إلا أنه قال: «يحب معالي الأخلاق». ورجال الكبير ثقات.

(٣) يروى عن رسول الله ﷺ حديث: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة (رقم ١٩٢). قال ابن حجر: في لسان الميزان (٢/ ١٣٧): أخرجه الدارقطني في غرائب مالك والخطيب في الرواة عن مالك.. ثم قال: الدارقطني: لا يثبت عن مالك، ورواته مجهولون، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٨/ ٧٣): قال ابن عبد البر في العلم: هذا إسناد لا تقوم به حجة، لأن الحارث بن غصين مجهول. وقال ابن الملقن في تذكرة المحتاج إلى أحاديث المنهاج (ص ٦٧-٦٨): وروي أيضًا من طريق والده عمر بن الخطاب وأبي هريرة وجابر، وكلها معلولة. وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٢٣٠): قال البيهقي: هذا حديث مشهور، وأسانيده كلها ضعيفة، لم يثبت منها شيء. وانظر: تلخيص الحبير (٤/ ١٩٠ رقم ٢٠٩٨).

ننشر هذه الرسالة النادرة الوجود في مغزاها، وحاجة الناس اليوم إلى العمل بها كحاجة الأرض العطشى إلى الماء، وهي جديرة بأن تكتب بماء الذهب، ولو كانت فكرة القومية العربية موجودة في وقته، لقلنا إنه يرد عليها من طرف خفي.

أما وقد كانت هذه الفكرة الكاذبة الخاطئة قد جاءت بعد وفاته، وأرغى دعاتها وأزبدوا، وملأوا الجو صياحًا وعويلاً، ثم لم يلبثوا أمام عواصف الحق إلا قليلاً فكانت نهايتهم الانهزام أمام الحجج القواطع، وبالتالي عرف الناس مضرتها بذاتها، وعرفوا أيضًا أهداف دعاتها، وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

أيها القارئ بين يديك هذه الرسالة النيرة، التي تدعو إلى الوحدة الإسلامية بين حكومات المسلمين وأفرادهم، وتخطط لهم المخططات التي توصلهم إلى ساحل النجاة والسعادة على ضوء قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولئن كانت هذه الرسالة مسودة غير منقحة، فهي نجم الهداية لطلاب الحق، وحسن النهاية في أمر الدين والدنيا، ولا يسعنا إلا أن نبرزها على ما هي عليه، لأن العلم أمانة.

والله المسؤول أن يجزي كاتبها عن الأمة الإسلامية خير الجزاء بما أبداه من النصح، وأن يوفقنا جميعًا لقبول نصحه جماعات وأفرادًا، وأن ينصر الأمة الإسلامية وأن يقيض لها الزعماء الناصحين لدينهم وأمتهم، وأن ينصر من في نصره نصرة الإسلام والمسلمين، ويخذل من في خذلانه صلاح الإسلام والمسلمين، إنه سميع الدعاء، وصلى الله على هادينا ونبينا سيد الأولين والآخرين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الناشر

علي الحمد الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

الجهاد في سبيل الله

أو واجب المسلمين وما فرضه الله عليهم في كتابه نحو دينهم وهيئتهم الاجتماعية

قد أوجب الله على المؤمنين الجهاد في سبيله والاعتصام بدينه، الذي هو حبله، والدعوة إلى ذلك والألفة والاجتماع والتعاون على الخير والتقوى والاستعانة بالله في جميع أمورهم وقوة التوكل عليه والقيام بالمستطاع المقدور عليه من الدين والتقوى، وتعلم ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم من العلوم والفنون النافعة، التي يحصل بها قيام الدين والأمة، والتمرن على القوة المعنوية والشجاعة الإيمانية، وبالأسباب المقوية للإيمان كلها، وبالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة المبطلين والضالين بالتي هي أحسن، والجهاد في الله حق جهاده[١].

فهذه الأوامر الإلهية في القرآن في مواضع كثيرة، وكلها داخلة في الجهاد في سبيله لأن معنى الجهاد في سبيل الله بذل المجهود في تقوية المسلمين، والسعي في إزالة الضغائن والعداوة الواقعة بين أفرادهم وجماعاتهم وحكوماتهم بالدعايات والمواعظ المناسبة للحال، وأن يكون صوت المسلمين واحدًا يتكلم ويدعو إليه العلماء والأمراء والكبراء وجميع طبقات الناس كلهم، يتفقون لهذه الدعوة بحسب إمكانهم.

ومما يسهل عليهم هذا الأمر مع صعوبته في بادئ الأمر أن يعلموا أن هذا السعي والدعوة إلى جمع المسلمين وإلى إصلاح ذات بينهم هو أفضل الأعمال، وأنه أفضل من استغراق الزمان بالصوم والصلاة[٢]، وأنه من أعظم وأجل الجهاد في

---

(١) عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله» أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥) وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٣ رقم ٧٨٨٥) عن أبي أمامة وفيه زيادة في آخره: «لا يناله إلا أفضلهم». وانظر: فيض القدير (٣/ ٤٥، ٥٦١).

(٢) فعن أبي الدرداء ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام» قالوا: بلى
=

سبيل الله، فإن أصل الجهاد الذي لا يستقيم إلا به اتفاق الكلمة وارتباط المسلمين بالإخوة الدينية ارتباطاً وثيقًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] وبه يحصل أسباب النصر قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

فبين أنه يجب على المؤمنين الارتباط بالأخوة الدينية[١]، وأن تحقيق هذا الأمر من مقتضيات الإيمان وشروطه، وأنه كلما قوي إيمان العبد عرف مقدار نفع هذا الأمر، وعمل واجتهد عليه، وأن الله نصر نبيه بأمرين:

ـ أمر سماوي، وهو نصره الذي ينزله على المتقين القائمين بدينهم.

ـ أمر معنوي، وهو اجتماع كلمة المسلمين، وتألف قلوبهم، وحصول التحاب[٢]، الذي يوجب لكل منهم أن يرى مصلحته ومصلحة إخوانه واحدة والغاية واحدة.

فالواجب على جميع طبقات الأمة لاسيما الرؤساء: رؤساء الدين ورؤساء الدنيا أن يجاهدوا أنفسهم وإخوانهم المسلمين لتحقيق الأخوة الإيمانية، وإذا سلكت طرقه وأبوابه التي تسهله وتشعر كل واحد بما يجب عليه لربه ودينه واستعانوا بالله ولم

=

يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة». أخرجه ابن حبان في صحيحه (١١/ ٤٨٩ رقم ٥٠٩٢) وفي الموارد (رقم ١٩٨٢) وأبو داود (رقم ٤٩١٩) وأحمد (٦/ ٤٤٤) ونقل المنذري تصحيح الترمذي في الترغيب (٣/ ٣٢٠ رقم ٤٢٥٥).

(١) فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يعلن أخوة المؤمن لأخيه المؤمن في مواضع كثيرة، فقد أخرج مسلم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، حتى يذر» أخرجه مسلم (رقم ١٤١٤) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٢) ومسلم (رقم ٢٥٨٠).

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم» أخرجه مسلم (رقم ٥٤).

يخلدوا إلى الكسل والخور واليأس أفلحوا.

فإن هذين الأمرين أعظم الموانع لحصول المصالح ودفع المضار، فَإِن الكسل والخور ينافي الرغبة في الدين، وينافي الجهاد الحقيقي[(١)]. وأما اليأس من حصول المصالح ومن دفع المضار فإنه الهلاك بعينه[(٢)].

وهل أخَّر المسلمين عن الأمم إلا تفرقهم وكسلهم وجبنهم وخورهم ويأسهم من القيام بشؤنهم، حتى صاروا بذلك عالة على غيرهم، ودينهم حذرهم عن هذه الأمور أشد التحذير، وأمرهم أن يكونوا في مقدمة الخلق في القوة والشجاعة والصبر والملازمة للسعي في كل أمر نافع، والعزم والحزم والرجاء وحسن الثقة بالله في تحقيق مطالبهم، والدواعي لهم في ذلك متوفرة، فإن مجرد السعي في ذلك بحسب الإمكان من أفضل الأعمال المقربة إلى الله، والقوة الإيمانية والإخوة الدينية ووجوب النصيحة وارتقاب الأجر والثواب وارتقاب مواعيد المولى الصادقة، التي لا تتخلف عن أسبابها، حيث وعد المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان بالعون والنصر والتسديد والتأييد، كل واحد من هذه الأمور يكفي وحده في حث المؤمنين على القيام التام بشؤنهم ومصالحهم الكلية، فكيف وهي كلها حاصلة.

ثم إن الكسلان الذي ملكه الخور واليأس أي شيء يرتقب وأي خير ينتظر، أليس الوهن والضعف والجبن أكبر سلاح للأعداء[(٣)]، وهي الطريق الوحيد للذل

(١) فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر» أخرجه البخاري (رقم ٢٨٢٣) ومسلم (رقم ٢٧٠٦).

(٢) أخرج الطبري بسنده عن ابن مسعود ﷺ قال: الكبائر ثلاث: اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. انظر: تفسير الطبري (٥/ ٤١). وصدق القائل:

ولا تيأس فإن اليأس كفر ... لعل الله يغني عن قليل
ولا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل

انظر: شعب الإيمان (٧/ ٢٠٧) والإشراف في منازل الأشراف (ص ٣٤٠).

(٣) فعن ثوبان ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»
=

والإهانة والسقوط إلى أسفل سافلين، من تسفل النفس وهبوط الأخلاق، فأين الأنفة النفسية وأين الحمية الدينية وأين الشهامة الإنسانية، فوالله إن موت هؤلاء خير من حياتهم حياة الذل وموت الأخلاق الطيبة، أليس هذا ميراث تلقوه عن المنافقين، الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢].

أين هؤلاء ممن قال فيهم وفي نفوسهم الجميلة الجليلة: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ولكل قوم وارث، فقد ورثهم في هذه الأوقات رجال من المؤمنين من ملوكهم ورؤسائهم وعلمائهم وأشرافهم وذوي النجدات منهم، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حيث عاهدوا ربهم على التمسك بدينه والقيام به أتم القيام والجهاد في سبيله، فمنهم الباذل لنفسه، ومنهم الباذل لماله، ومنهم الحاث لإخوانه المسلمين على القيام بما يقدرون عليه، ومنهم الساعي بينهم بالنصيحة والتأليف، ومنهم المنشط للمؤمنين بقوله وماله وجاهه، ومنهم الفذ الجامع لذلك كله.

فهؤلاء رجالات المؤمنين وخيار المسلمين، الذين بهم قام الدين وبه قاموا، وهم الرواسي في إيمانهم وجهادهم، لا يردهم عن مرادهم راد، ولا يصدهم عن المضي في سبيلهم صاد، لا تزعزعهم الحوادث، ولا تفزعهم الكوارث، تتوالى عليهم المصائب فيثبتون لها ثبوت الجبال، وتتناهم الأهوال المفظعة فيتلقونها بصدور منشرحة وأنفس مطمئنة فعل الكمل من الرجال[1]. فواهًا لهؤلاء الأبطال ما أعلى

=

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟! قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت» أخرجه أبو داود (رقم ٤٢٩٧) وأحمد (٥/ ٢٧٨) والروياني في مسنده (١/ ٤٢٧ رقم ٦٥٤) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٢).

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد
=

قدرهم، ولله درهم، ما أعظم ثوابهم وأجزل أجرهم!!

ومما يجب على المؤمنين أن يحذروا غاية الحذر من المخذلين المرجفين ومن المفسدين بينهم في السعي في الفتن والتفريق بينهم، فإن هؤلاء أضر عليهم من العدو المحارب، قال تعالى في وصف أمثال هـؤلاء: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي مستجيبون لهؤلاء المفسدين، لا يفهمون مغزى مرادهم، فيغترون بهم، فتحصل الفرقة بين المؤمنين. فعلى المؤمنين أن ينتبهوا لهؤلاء المفسدين.

وعلى المسلمين أيضًا أن لا يجعلوا الاختلاف بينهم في الأقوال والمذاهب وفي الملك والسياسات والأغراض الشخصية حائلًا يحول بينهم وبين تحقيق الإخوة الدينية والرابطة الإيمانية، بل يجعلون الخلافات كلها والأغراض الجزئية تبعًا لهذا الأصل الكبير[(١)]، لأن مصلحة ذلك الكلية وما يطلبه دينهم منهم من الوحدة والألفة وما يمنعهم منه من التفرق المفكك لوحدتهم وقوتهم يأتي على ذلك أجمع، ويقدم على كل شيء، فالمصالح الكلية تندرج فيها الأغراض الجزئية، فمتى صار الغرض الوحيد المصالح العامة تبعتها المصالح الخاصة، وقال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠] الآية.

=

فيها راحلة» أخرجه البخاري (رقم ٦٤٩٨) ومسلم (رقم ٢٥٤٧).

(١) رحم الله ابن مسعود ﷺ، فقد كان فقيهًا كبير الشأن حريصًا على الألفة واجتماع الكلمة ونبذ الفرقة والاختلاف، فقد قال: صليت مع النبي ﷺ ركعتين (أي في منى) ومع أبي بكر ركعتين، ومع عمر ركعتين، ومع عثمان صدرًا من إمارته، ثم أتمها (أي عثمان) ولما صلى خلف عثمان أربعًا قيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعًا؟! فقال ﷺ: الخلاف شر. أخرجه أبو داود (رقم ١٩٦٠) والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٤٣ رقم ٥٢١٩) وفي السنن الصغرى (رقم ٥٩٨، ٥٩٩) والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٦٨ رقم ٦٦٣٧) وأبو يعلى في المسند (٩/ ٢٥٦ رقم ٥٣٧٧) والبزار (٥/ ٧١ رقم ١٦٤١) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٠١، ٥٦٤) وعمدة القاري (٧/ ١٢٢) والتمهيد (١١/ ١٧٢) (١٦/ ٣٠٦-٣٠٧) وعون المعبود (٥/ ٣٠٧) واختلاف الحديث (ص ٤٩٢).

فهذه الآية وما أشبهها من الآيات بينت أن أمثال هؤلاء المرجفين ضررهم عظيم وشرهم مستطير، وما أكثر وارثهم في هذه الأوقات، التي اضطر المسلمون فيها إلى نصرة الأولياء، حيث يوجد طائفة من الناس يثبطون عن الجهاد في سبيله ومقاومة الأعداء، ويخدرون أعصابهم، ويؤيسون المسلمين، ويوهمونهم أن كل عمل يعملونه لا فائدة فيه، فهؤلاء لا خير فيهم، لا دين صحيح، ولا مروءة إنسانية، ولا حمية قومية وطنية، ومع ذلك فهم صاروا أضر على المسلمين من الأعداء(١).

فليعلم أمثال هؤلاء ومن يستجيب لهم أن الله لم يكلف المؤمنين إلا وسعهم وطاقتهم، وأن لهم في رسول الله أسوة حسنة.

فقد كان ﷺ له في الجهاد والدعوة أمر في كل حال بما يليق بها ويناسبها أمر لما كان في مكة والمسلمون قليل والقوة ضعيفة والأعداء كثيرون بالاقتصار على الدعوة إلى الدين وبيان محاسنه وجذب الناس إليه وجهادهم بالدعوة.

وأمر أن يكف يده عن القتال باليد لما فيه من الضرر وخلاف الحكمة، كما هو ظاهر لكل أحد، وأن يسالم الأعداء، ويستدفع ضررهم بكل طريق، ويتحمل كثيرًا مما يعملون معه ومع الإسلام.

فلما هاجر إلى المدينة وقوي المسلمون وكثروا، وعظمت وطأة الأعداء ومقاوماتهم العنيفة للإسلام والمسلمين أمر بجهاد اليد مع جهاد الدعوة، فللمسلمين برسول الله أسوة حسنة، من كانت المصلحة تقتضي مهادنتهم ومسالمتهم من الأعداء سالموه وهادنوه وتحملوا أضرارهم القليلة لدفع ما هو أعظم منها، ومن تعينت المصلحة في قتالهم بالسلاح لعدوانهم وشرهم وضررهم الكبير قاوموه بالسلاح والقوة، فيتبعون ما تعينت مصلحته الدينية، ويستعينون على المضي في أحد الأمرين بالمشاورة والمراودة.

---

(١) أكاد أجزم بأن الشيخ رحمه الله لو عاش إلى وقتنا هذا، وسمع ما نسمع، لقال قولاً شديدًا في هؤلاء المرجفين.

والمشاورة أحد أصول السياسة الدينية، بل هي أهم قواعدها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] هذا من أهم ما فرضه الله على المؤمنين في إصلاح وتدبير أمورهم الكلية، وله من الفوائد ما لا يحصى.

منها: امتثال أمر الله والاقتداء برسول الله ﷺ، إذ كان يشاور أصحابه في كل أمر مهم.

ومنها: أن المشاورة من أكبر الأسباب لإصابة الصواب وسلوك الطرق النافعة لاجتماع آراء المؤمنين وأفكارهم وتنقيحها وتصفيتها، مع أن الله معهم في هذه الحال يسددهم ويؤيدهم.

ومنها: أن المشاورة تتنور فيها الأفكار، وتترقى فيها العقول والآراء، لأنها تمرين للأذهان، واستعمال للقوة العقلية فيما خلقت له وهيئت، واقتباس لبعضهم من آراء بعض.

ومنها: أنه قد يكون الصواب من مجموع رأيين أو ثلاثة أو عدة آراء، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمشاورة.

ومنها: أن المشاورة من أسباب المحبة بين المؤمنين وتألف قلوبهم وشعور جميعهم أن مصلحتهم واحدة، وتنبه الأذهان للفكر في ذلك، فإن من لا يشاور في الغالب أنه لا يعمل فكره في هذه الأمور، فضلاً أن يهتدي إلى الصواب.

ففتح باب المشاورة بين المؤمنين في تعيين مصالحهم الكلية ودفع مضارهم وفي أنسب الوسائل والطرق التي يسلكونها لتحصيل ذلك عون كبير على القوة والصلاح والفلاح والنجاح. وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى(١).

---

(١) قال البخاري رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وأن المشاورة قبل العزم والتبين لقوله: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]
=

فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يسعوا إلى مصالحهم، وعلّمهم كيفية الوصول إليها بأعمالهم لأفكارهم مجتمعين، فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا ظهرت المضرة في أمر من ا لأمور سعوا إلى دفعها ومدافعتها، وإذا اشتبهت المصالح بما ينافيها من المضار وتعارضت، قدموا راجحها على مرجوحها، فلا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية صغيرة ولا كبيرة إلا تشاوروا فيها، وقدموا ما تقتضيه المصلحة. وقد أوجب الله على المسلمين أمرين عظيمين عليهما مدار الجهاد:

ـ الاستعداد لعدوهم بما يستطيعون من قوة عقلية ومعنوية ومادية، ويدخل في ذلك تعلم الفنون الحربية من الرمي والركوب وعمل السلاح المناسب للوقت والمكان، وبما لا تتم هذه الأمور إلا به من تعلم الصناعات المعينة على هذا الأمر(١).

=

فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله، وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج.. وشاور عليا وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة، فسمع منهما حتى نزل القرآن.. وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ.. وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً أو شبانًا. انظر: فتح الباري (١٣/ ٣٣٩). وعن الحسن البصري رحمه الله قال: إن كان النبي ﷺ لغنيا عن المشاورة، ولكنه أراد أن يستن بذلك الحكام بعده. سنن البيهقي الكبرى (٧/ ٤٦ رقم ١٣٠٨٣). وقال أبو هريرة ﷺ: ما رأيت أحدًا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ. انظر: الأم للشافعي (٧/ ٩٥). وقال ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٣٤٠): فأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي حاتم بسند قوي عن الحسن قال: ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم. وفي لفظ: إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع.

(١) أخرج الطبري بسنده أن أبا علي الهمداني سمع عقبة بن عامر على المنبر يقول: قال الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ألا وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «قال الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» ثلاثًا. انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٣٠) والحديث أخرجه مسلم (رقم ١٩١٧) وقال الطبري رحمه الله في تفسيره (١٠/ ٣٢): فليس في الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم؛ فإن الرمي أحد معاني القوة، لأنه إنما قيل في الخبر ألا إن القوة الرمي. ولم يقل: دون غيرها، ومن القوة أيضًا السيف والرمح والحربة، وكل ما كان معونة على قتال المشركين كمعونة الرمي أو أبلغ من
=

ـ وأمرهم بأخذ الحذر من عدوهم، وهو التحرز والتحصن منهم، وأن يكونوا منهم أبدًا على حذر في وقت السلم، فضلًا عن وقت الحرب[1]، وأن تكون لنا العيون والإرصاد عليهم، لنعلم كل حركاتهم العلمية والحربية، حتى لا يسبقونا إلى الأعمال والصنائع النافعة لنا، فإن ضعف المسلمين وقصورهم وجهلهم بالصنائع وعمل الأسلحة من فرص الأعداء، فلنأخذ عليهم هذا الطريق الذي منه يدخلون علينا، لعل الله أن يكف بأس الذين كفروا، ولا نكون عالة فيها وفي غيرها عليهم، فإنهم بذلك يتمكنون مما يريدون، فإن لله في هذه الدنيا سننًا لا تتغير، وأن الحياة العزيزة لا تكون لمن أذل نفسه وخذلها وتسول غيره.

ولئن قال متحذلق مخذل: إن أمة المسلمين الآن متعذر عليهم أن يسلكوا هذا الطريق. فذاك من جهله وجبنه وخوره، فالله ـ تعالى ـ حكيم، وأمرنا بسلوك طريق الحكمة، وليست الأمور العظيمة يقفز إليها قفزاً.

وقد علمنا تعالى أن نبدأ بما نقدر عليه، ولا نترك المقدور لعجزنا عن الكمال، فمتى أدينا ما علينا، وقمنا بما فرض علينا وما نستطيعه، كنا مجاهدين ومحمودين وعزيزين، فإن من يسعى لعزه ولغاية مجده فطريقه وإن كان ضعيفًا فهو طريق المجد وطريق الحزم وطريق القوة والشجاعة. فرحم الله من أعان على الإسلام ولو بشطر كلمة.

وقد أمر الله بالجهاد بالنفس والمال وبالأقوال والأفعال وبالمباشرة وإعانة

=
الرمي فيهم وفي النكاية منهم. وانظر: فتح الباري (٦/ ٩١) وعمدة القاري (١٤/ ١٤٥) وتحفة الأحوذي (٥/ ٢٧٨) (٨/ ٣٧٦) وعون المعبود (٧/ ١٣٧) والمغني (٩/ ٣٦٨) وسبل السلام (٤/ ٧١-٧٢) ونيل الأوطار (٨/ ٢٤٦).

(١) وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «الحرب خدعة» أخرجه البخاري (رقم ٣٠٣٠) ومسلم (رقم ١٧٣٩) قال ابن حجر في الفتح (٦/ ١٥٨): وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب، والندب إلى خداع الكفار، وأن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه، قال النووي: واتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز. وانظر: نيل الأوطار (٨/ ٥٧).

المباشرين بالمال والدعوة والتشجيع والتحريض، فكل من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق كما صح الحديث بذلك(١).

فأهل الحل والعقد والرياسة من الملوك والأمراء والوزراء ورجال الدول الإسلامية عليهم أن يسعوا أحث السعي لتحصيل القوتين: القوة المعنوية والقوة المادية بإزالة جميع الحواجز والموانع، التي حالت بين المسلمين وبين اتفاقهم واجتماع كلمتهم وتألف قلوبهم، وأن يفهموا الأسباب التي فرقتهم من الأغراض الشخصية والمطامع والأغراض الردية والأيدي الأجنبية، فإنهم متى فهموها حق الفهم عرفوا أنها تنافي مصالحهم الدينية والدنيوية ومنافعهم الكلية، وتنافي ما يحث عليه العقل والحزم من وجوب تقديم المصالح العامة على الأغراض الخاصة، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤]. فتوعد الله من كانت هذه الأمور أحب إليه من الله ورسوله ومنعتهم من الجهاد في سبيله وقدمها عليه.

وهذه المذكورات في هذه الآية الكريمة هي الموانع والحواجز عن القيام بالجهاد في سبيله قولًا وفعلًا. ومن أكبر أسباب الجبن فلا يتحقق الإيمان إلا بتقديم حب الله ورسوله والجهاد في سبيله عليها، فإن الله قد وعد على الجهاد في سبيله مغفرة الذنوب والسيئات، وحصول الخيرات، ودخول الجنات، والفتح في الدنيا، والعز والنصر القريب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ... ﴾ إلى قوله: ﴿ ...وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٢، ١٣]، فأخبر تعالى أن من قام بالإيمان والجهاد فقد حصل التجارة الرابحة، وأدرك الصفقة والغنيمة

(١) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق» أخرجه مسلم (رقم ١٩١٠) وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٥٦).

والخيرات المتتابعة.

تالله لقد حرم الناكلون عن الجهاد خيرًا كثيرًا، ولقد سعوا فيما يكسب الذل، وخسروا خسرانًا كبيرًا، فأين الشهامة الدينية وأين الغيرة الإيمانية وأين الرغبة في الخير؟! يا عجبًا لمؤمن يرى أهل الباطل يجهدون ويألمون في نصر باطلهم، وهم لا غاية لهم شريفة يطلبونها، وهو مخلد إلى الكسل عن نصر الحق، الذي يترتب على نصره من الخيرات العاجلة والآجلة، ما لا يمكن التعبير عنه، كل ذلك خوفًا من المشقة، وزهدًا في إعانة إخوانه المسلمين في ماله أو بدنه وقوله وفعله، بل زهدًا في مصالح نفسه الحقيقية، قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

وعلى أهل العلم من بيان فضل الجهاد ووجوبه، وتبيين منافعه ومصالحه الضرورية، وحض الناس على ذلك أعظم مما على غيرهم، وعليهم أن يوضحوا للمسلمين أن جميع حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم ونفقاتهم المقوية للدين ودفع ضرر الأعداء كلها داخلة في هذا الواجب العظيم، وأن يفهموهم أن الاختلاف في المذاهب والتباين في المشارب لا يمنع من اتفاقهم جميعًا على هذا الأصل، الذي يجمع قاصيهم لدانيهم، وأن المصالح العامة الكلية مقدمة على الأغراض الجزئية والمنافع الشخصية، وأن هذا العمل مصلح لدين المسلمين ودنياهم، ثم على كل فرد أن يبدي مجهوده في نصر الدين وتقوية المسلمين بما استطاع من نفقة أو قول، وأن ينهض المسلمين ويقوي عزائمهم ويبعث هممهم.

وعلى الرؤساء والمرؤسين الترغيب في تعلم الفنون الحربية والصناعات النافعة وعمل الأسلحة والحصون الواقية، واستجلاب ما تعذرت صناعته، والسعي في تنمية المصالح والمنافع الاقتصادية بالعمل بالأسباب الميسرة لها المعينة على تحصيلها، فإن المصالح الاقتصادية هي العون على المصالح الدينية، فكل ما فيه تقوية المسلمين ودفع الأضرار والشرور من الأعداء عنهم فهو من الجهاد، وعليهم أن يدرسوا أحوال الأمم الأجنبية وسياساتهم، فإن معرفة ذلك من أسباب أخذ الحذر منهم

والتوقي لشرهم، وعليهم مع فعل الأسباب النافعة أن يتوكلوا على الله ويستعينوا به، ولا يتكلوا على حولهم وقوتهم، ولا يغتروا بحالهم ويعجبوا بأنفسهم، ولا يستهونوا بأعدائهم، بل يحسبون لهم كل حساب.

ومن أعظم الجهاد الجهاد المالي، والله تعالى قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، فإن النفقة في سبيل الله أفضل النفقات على الإطلاق، وبها يستعان على قتال الأعداء بتحصيل الأسلحة وصناعتها، والمراكب المناسبة لزمانهم، وإقامة جميع مؤن الجهاد، حتى إن دفع المال الذي يدفع للأعداء لوقاية شرهم من الجهاد بالمال، فبذل المال للأجانب عند الإضرار مقدم على ما هو أخطر منه وأشد ضرراً.

وقد أمرهم الله أن يتعاونوا على البر والتقوى. فالبر اسم جامع لفعل الخير كله ووسائله وطرقه[(١)]. كما أن التقوى اسم جامع للتعاون على اتقاء ما يخشى ضرره في الدين والدنيا والآخرة، أي تعاونوا على فعل الخيرات وعلى ترك المنكرات[(٢)].

وتعاونوا على كل وسيلة تعين على كل ذلك، فالمعلم بوعظه وتذكيره وتعليمه، والغني بماله، وذي السداد برأيه وعقله وتدبيره وسياسته، وأهل النجدة والشهامة بقوتهم وتحضيضهم لغيرهم، والعامل يعين بعمله وصناعته، وكل فرد يعين بنفسه ورعايته وتشجيعه، وصاحب الجاه بجاهه، فيكون المؤمنون كالجسد الواحد والبنيان الذي يشد بعضه بعضًا[(٣)]، قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] وهذا يشمل جميع الأوامر الدينية، فليس لأحد عذر في القيام بالمستطاع منها، وقال ـ تعالى: ـ ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٦٠) وعمدة القاري (١/ ١٢٢) (٩/ ١٣٣) وتحفة الأحوذي (٦/ ٩١) وشرح الزرقاني (٤/ ٥٢٤) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٢٧٤) وفيض القدير (٤/ ٣٤٣) وسبل السلام (٤/ ٢٠٤)

(٢) انظر: الاستذكار (٨/ ٥٨٧).

(٣) مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن يشد بعضه بعضًا» وشبك بين أصابعه. أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٦) ومسلم (رقم ٢٥٨٥).

عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

فإنه لما أمر بالجهاد أخبر بالطريق التي تسهله، والدواعي التي تدعو إليه، فكون الله اختار المؤمنين واجتباهم، واختار لهم الدين العظيم الذي هو دينه، الذي يوصل إليه وإلى كل كرامة، وهذا من أكبر الدواعي إلى الجهاد، حيث كان هذا العمل الجليل يوصل إلى كل خير، ويدفع كل شر، ومع ذلك فما جعل عليكم في الدين من حرج، فلم تكلفوا من الجهاد إلا ما تستطيعون، ويهون عليكم كل على قدر حاله ومقدرته. وقد أمرهم الله بالقيام بالقسط والوفاء بالعهود، قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

فهذان الأصلان العظيمان، وهما القيام بالقسط الذي هو العدل التام على الأنفس والأقربين والأبعدين.

والوفاء بالعهود كلها من أكبر أصول الدين ومصالحه، وبالقيام بهما يتم الدين وتحصل الهداية والإعانة من الله والنصر والمدافعة، فما ارتفع أحد إلا بالعدل والوفاء، ولا سقط أحد إلا بالظلم والجور والغدر.

وهذه الأمور كلها مضطرة إلى قوة التوكل على الله، والاقتداء بسيد المرسلين فيه، فهو سيد المتوكلين، ومع ذلك فقد كان يعمل بجميع الأسباب النافعة ويحض عليها، فالتوكل هو الثقة بالله والاعتماد على قوته وحوله في تيسير الأمور التي يباشرها العبد والالتجاء إلى الله في حصولها وطمأنينة القلب، فيكون المتوكل عمل بجد واجتهاد مطمئنًا بالله واثقًا به، لا يخاف سواه، ولا يرجو غيره، لا يملكه اليأس، ولا يساوره القنوط، غير هيَّاب ولا وجل ولا متردد، لأنه يعلم أن الأمور بيد الله، وأن نواصي العباد وأزمَّة أمورهم تحت تدبيره ومشيئته، فإنه القوي العزيز.

بهذا التوكل نال المسلمون الأولون العز والشرف والسلطان وصلاح الأحوال، ولم يكن زادهم في مضيهم في سبيلهم إلا قوة التوكل على الله، فهذه حال المسلمين لا

الخور والمهانة والتواكل والتخاذل والإخلاد إلى البطالة، فإنه ينافي التوكل كل المنافاة: كحال كثير من الناس في هذه الأوقات، يرون عدوهم يحاربهم وهم ساكتون لا يدفعونه بوسيلة من الوسائل ولا يقاومونه، فتكون النتيجة ضياع استقلالهم وذهاب ملكهم وأموالهم وحلول المصائب المتنوعة عليهم من كل جانب، ويزعمون أنهم متوكلون، كلا والله.

ومن أعظم وسائل الجهاد في هذه الأوقات عقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية المحتوية على كمال الصداقة وعدم الاعتداء واحتفاظ كل حكومة بشخصيتها الدولية وإدارتها داخلاً وخارجًا والتكافل بينها والتضامن، وأن يكونوا يدًا واحدةً على من تعدى عليهم أو على حقوقهم، وتسهيل الأمور الاقتصادية فيما بينها، طلبًا لمصلحة الكل وتقريبًا لقلوبهم، وأن يجعلوا لهذه الأسس والأصول أعمالها اللائقة بها والمناسبة لها، ويسعوا أحث السعي لتحقيقه وإزالة العقبات الحائلة دونه، وهذه وإن كانت في بادئ الرأي صعبة، فإنها يسيرة بتيسير الله والتوكل عليه.

واليوم وإن كان المسلمون مصابين بضعف شديد، والأعداء يتربصون بهم الدوائر، هذه الحالة أوجدت من بينهم أناسًا ضعيفي الإيمان ضعيفي الرأي والقوة يتشاءمون أن الأمل في رفعة الإسلام قد ضاع، وأن المسلمين إلى ذهاب واضمحلال، ولقد غلطوا في هذا أعظم غلط، فإن هذا الضعف عارض له أسباب، وبالسعي في زوال أسبابه تعود صحة الإسلام كما كانت، كما تعود إليه قوته التي فقدها منذ أجيال.

ما ضعف المسلمون إلا لأنهم خالفوا كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، وتنكبوا السنن الكونية، التي جعلها الله مادة حياة الأمم ورقيها، فإذا رجعوا إلى ما مهده لهم دينهم فإنهم لابد أن يصلوا إلى الغاية كلها أو بعضها.

وهذا المذهب المهين وهو التشاؤم والكسل لا يعرفه الإسلام ولا يرتضيه، بل يحذر عنه أشد تحذير، ويبين للناس أن النجاح مأمول، وأن مع العسر يسراً، وأنه سيجعل الله بعد عسر يسرًا، ويبين أنه لا أضر عليهم من اليأس والقنوط، فليتق هؤلاء المتشائمون ربهم، وليعلموا أن المسلمين أقرب الأمم إلى النجاح الحقيقي.

ويقابل هؤلاء طائفة يؤملون آمالاً عظيمة، ويقولون ولا يفعلون، فتراهم يتحدثون بمجد الإسلام ورفعته، وأن له العاقبة الحميدة، وأن الرجوع إلى تعاليمه وهدايته هو السبب الوحيد لعلو أهله ورفعتهم، ولكن لا يقدمون لدينهم أدنى منفعة بدنية ولا مالية، ولا يقدمون مساعدة جدية لتحقيق ما يقولون، فإن الأقوال لا تقوم إلا إذا قارنها الأفعال.

ويا طوبى لطائفة هم عزة المسلمين، وهم رجال الدنيا والدين، قرنوا بين الأقوال والأفعال، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وبأقوالهم وبإنهاض إخوانهم، وتبرءوا من مذهب المتشائمين ومن أهل الأقوال دون الأفعال، فهؤلاء هم الذين يناط بهم الأمل، وتدرك المطالب العالية بمساعيهم المشكورة وأعمالهم المبرورة.

ومن أعظم أصول الجهاد والتربية الاعتناء والاهتمام التام بشبان الأمة، فإنهم محل رجائها وموضع أملها ومادة قوتها وعزتها، وبصلاح تربيتهم تصلح الأحوال كلها، فعليهم أن يعنوا بتربيتهم التربية العالية، وأن يبثوا فيهم روح الدين وأخلاقه الجميلة والحزم والعزم، وجميع مبادئ الرجولة، وتدريبهم على المصاعب والمشاق والصبر على الأمور النافعة والثبات عليها، وتحذيرهم من الجبن والخور والسير وراء المادة والطمع، والانطلاق في المجون والهزل والدعة، فإن ذلك مدعاة للتأخر العظيم، وشباب الحاضر هم رجال المستقبل، وبهم تعقد الآمال وتدرك الأمور المهمة، فاجتهدوا أن يكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى وبأوصاف الحزم والمروءة والكمال القدوة المثلى.

ومن أهم أمور الجهاد خصوصًا في هذه الأوقات التعاون بين المسلمين في جميع شؤونهم الدينية والسياسية والاقتصادية، واتصال بعضهم ببعض في تحقيق ذلك، لأن عددهم كثير وأعداءهم جادون في الحيلولة بينهم في هذه الأمور، وقد تفننوا في تفريقهم، وأقاموا الحواجز والسدود في اتصال بعضهم ببعض، حتى أوهنوا قواهم وساءت حالهم، وهم مجدون في هذا الأمر.

فمن أكبر الجهاد السعي في الأسباب التي بها يتعارف المسلمون ويتفاهمون،

حتى يعرفوا كيف يتعاونون على الحصول على حقوقهم، ودفع المعتدين عنهم بكل وسيلة، ولا ينبغي إذا رأوا أنهم لا يدركون كل ما يريدون أن يضعفوا عن بعض ما ينفعهم، ويحصل به الدفاع، فمن جد واجتهد واستعان فلابد له من النجاح.

ومن أهم الجهاد السعي في إصلاح التعليم، وأن تكون المدارس يعلم فيها الأهم فالأهم من العلوم النافعة للدنيا والدين، وأن يكون الدين هو الأصل الأعظم فيها والأساس الأقوم، وأن يكون غيره وسيلة وتبعًا له، وأن يكون الغرض الوحيد من الناجحين فيها المتخرجين أن يكونوا صالحين في أنفسهم مصلحين لغيرهم مترببين بالأخلاق النافعة مهتمين بتربية الأمة، فإن أكثر المدارس الآن إنما هي بالعكس من هذا الأمر، الفنون الدنيوية هي الأصل، وعلوم الدين يجعل لها جزء ضعيف من التعليم، ولا يعتنى بأخلاق التلاميذ وآدابهم، وإنما الغرض منها المادة، وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة، وهذا أكبر نقص وأكبر الدواعي للضعف والانحلال.

ولا شك أن السعي في إصلاح التعليم من أهم الأمور، وبه ترتفع الأمة الإسلامية، وتنتفع بعلمائها وعلومهم، فالتعاليم النافعة والتربية الصالحة تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون العلوم مقصودًا بها حصول المنافع والصلاح والإصلاح.

ومن أهم أمور الجهاد، بل هو أصله وقاعدته: أنه كما يلزم الاستعداد بالحصون المنيعة والسلاح القوي والجيوش العاملة والأهب الوافرة، فينبغي أن تولى الأكفاء من ذوي الرأي والحكمة والخبرة والتدبير والحزم والحذق، وأن يكونوا أهل دين وأصل راسخ على شؤون المملكة، يوطئون بساط الأمن وطرق الراحة، ويرفعون بناء الملك على طريق العدل، ويوقفون الرعية على حدود الشريعة، ويراقبون مع ذلك روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية، ليحفوا لها المنزلة التي تليق بها بينها بالمعاهدات السلمية والاقتصادية وغيرها.

ومن أكبر الخيانات تولية غير أهل الحمية الناجحين أو غير الأكفاء الخيرين،

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

وأعظم الأمانات أمانة الولايات كلها صغيرها وكبيرها.

والحذر من تولية الأجانب، فإنهم إذا ائتمنوا خانوا، وإذا عزوا أهانوا، يقابلون الإحسان بضده، ويتحينون الفرص، ويكونون أعوانًا لأبناء قومهم عند أول حادث ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وأهم صفات قواد المسلمين الاقتداء بنبيهم ﷺ، والاهتداء بسنته وهديه في الجد الكامل لتقوية الإسلام والمسلمين، وتكوين الأمة، وتربية أخلاقهم، وأن يكون على جانب من العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة بتاريخ الإسلام ورجاله ومعرفة الأسباب المضعفة للأمة والسعي في إزالتها وتحقيقها حسب الإمكان والسعي في طرق الإصلاح كلها، وأن يكون ذا قوة وأمل ورجاء واسع، لا يملكه اليأس، ولا يتطرقه الفتور، وأن يتصل بأفراد المسلمين وجميع طبقاتهم اتصالاً وثيقًا، ويتعرف شؤنهم، ويسأل عن أحوالهم، ويأخذ بآرائهم الصائبة، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، وأن يكون ذا فكر ثاقب، وسياسة تامة وانتهاز للفرص النافعة، وأن لا يزال نصب عينيه نفع المسلمين وإصلاح دينهم ودنياهم ودفع الشر عنهم بكل طريق، وأن يكون خاليًا من الطمع والجشع، موصوفًا بالكرم والجود في محله في إعلاء كلمة الحق ورفعة الإسلام، وأن يكون حسن العلاقات مع جميع العاملين من المسلمين في أنحاء العالم، يبدي لهم وده ويستشيرهم، ويأخذ بالناضج من آرائهم، وأن يكون بصيرًا بسياسات الأجانب، عارفًا لحقوقهم، آخذ الحذر من مكرهم وخداعهم، يعاملهم لمصلحة المسلمين، ويأخذ حذره منهم خوف الضرر، وأن يكون في ذلك كله مخلصًا لله مستعينًا به متوكلاً عليه.

ومن أعظم وأجل الجهاد في سبيل الله الدعوة إلى الدين والإسلام بشرح محاسنه وإظهار جماله في عقائده وأخلاقه وآدابه وتعاليمه العالية الراقية؛ فإن في ذلك قوة معنوية للمسلمين، فإنهم كلما فهموا دينهم وعرفوا ما يحتوي عليه من المحاسن التي

تفوق الحد والإحصاء ازداد إيمانهم وقوي يقينهم، واندفعت عنهم شبه الملحدين، وعظم تمسكهم التام به، وعلموا أن السعادة والفوز منوط بإرشاداته وهدايته، وكان ذلك أيضًا جهادًا للأعداء من جهتين:

أحدهما: أن المنصف منهم أو من لم يملكه التعصب الشديد إذا أبصر حقائق الدين وهدايته، التي فاقت كل هداية وصلاحه وإصلاحه للبشر كان من أكبر الدواعي لدخوله به إذا لم يحصل له موانع قوية.

الثاني: أن في ذلك إقامة الحجة على المعاندين من الأجانب، وعلى الملحدين الذين قلدوهم وخضعوا لهم، وفي ذلك من كف شرهم كله أو بعضه من المصالح ما لا يعد ولا يحصى.

فأكبر الجهاد الجهاد بالدين، وهو أعظم سلاح للمسلمين، وأكبر جيش إليه يلجأون، وبه يعتصمون، تبين أصوله الكلية ومصالحه العامة، وأنه يدعو إلى كل خير وصلاح وسعادة في المعاش والمعاد وفي الظاهر والباطن، ويحث على إقامة العدل والقسط بكل طريق، وينهى عن كل شر وضرر وفساد، ويدعو إلى المقاصد النافعة وإلى جميع وسائلها، وأن جميع أصوله وفروعه في غاية الإحكام والحسن ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] ومن تتبع أصول الدين وفروعه وآدابه وأخلاقه وتعاليمه، وعرف إرشاداته العالية وجدها تدعو إلى كل خير وصلاح وفلاح، وعرف أنه لا يمكن الصلاح والإصلاح البشري إلا بالدين، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

قال ذلك وكتبه
عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الرسالة الثامنة عشرة:

الهدية الثمينة

فيما يحفظ به المرء دينه

بقلم الأستاذ

عبد الله السليمان بن حميد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، والصلاة والسلام على نبيه محمد المجاهد للمنافقين والمشركين بسيف الحق البتار، وعلى آله وأصحابه المهاجرين منهم والأنصار، الذين نعتهم الله بأنهم رحماء بينهم، أشداء على الكفار، وعلى من اتبعهم بإحسان ومن على هذا الدين يغار.

أما بعد:

فاعلموا ـ رحمني الله وإياكم ـ أن أكثر الناس في هذا الزمان نبذوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وراءهم ظهريًا، وزهدوا فيما فيهما من العلم النافع والعمل به، حتى صار الإسلام في هذا الوقت إلى ما إليه صار، وذلك لالتفات غالب الخلق لأمر الدنيا وإصلاحها، ولو بفساد الدين وذهابه، ونسوا دينهم الصحيح المقرر بكتاب الله وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، فعميت البصائر، واستحكمت غربة الدين، وعمت الفتن وانتشرت، حتى اجتمع الصالح بالفاسد، والفاسق بالعابد، واختلط الحابل بالنابل(١)، وخالط المسلمون الكفار والمشركين، والرافضة والملحدين، وكانوا عندهم خدامًا، ولهم عمالاً، ومنهم متعلمين، وفي التجارة وسائر المعاملات معاملين، وفي شركاتهم مشتركين، وبمجالسهم مستأنسين، ولطعامهم وشرابهم آكلين شاربين، ولهم مؤانسين، وحصل بهذا الاختلاط فساد الاعتقاد وفساد الأخلاق، وظهر الإلحاد والتكذيب في تعاليم الدين، وانتشر هذا الداء إلى المقيمين بأوطانهم من بادية وحاضرة بتلقي أولادهم وأقربائهم المتلبسين بالمشركين الموالين لهم بإكرامهم وتحسين أعمالهم، والذب عنهم(٢).

---

(١) قال الفيروزآبادي رحمه الله في القاموس (ص ٨٥٩): واختلط الليل بالتراب، والحابل بالنابل، والمرعى بالهمل، والخاثر بالزباد. أمثال تضرب في استبهام الأمر وارتباكه.

(٢) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجلُ يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك =

والحامل على هذا للجميع؛ الجهل بدين الإسلام ومحبة الدنيا، والافتتان بها وتقديمها على ما يرضي الله، ونسوا أن الرزق والأجل قرينان، فما دام الأجل باقيًا فالرزق جاريًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وفي حديث: «إذا عظمت أمتي الدنيا نُزعت منها هيبة الإسلام، وإذا تركتِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حُرمت بركة الوحي، وإذا تسابت أمتي سقطت من عين الله»(١). وقال ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل»(٢). وقال: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ من الحلال أم من الحرام»(٣) رواه البخاري.

أوحى الله إلى داود عليه السلام: «يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من

=

أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوه ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ...﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]، ثم قال: «والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا». أخرجه أبو داود (رقم ٤٣٣٦) وابن ماجه (رقم ٤٠٠٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٩٣ رقم ١٩٩٨٣) والترمذي (رقم ٣٠٤٨) ونقل المنذري في ترغيبه تحسين الترمذي (٣/ ١٦٠) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٣٢٨) وعون المعبود (١١/ ٣٢٧).

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٧٠) وذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٧٢-٤٧٣) وانظر: الدر المنثور (٣/ ١٢٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٣٢ رقم ٧٦٥٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٢٧ رقم ١٠٨٤٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ٥) وقال المنذري في ترغيبه (٤/ ٧٦ رقم ٤٨٦٢): رواه الطبراني وإسناده محتمل للتحسين ومتنه غريب، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٨٦): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم، انظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٧) وعمدة القاري (٢٣/ ٣٤) وفيض القدير (٤/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٥٩، ٢٠٨٣).

عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه من طاعتي»[(١)].

والله يقول: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى: ٢٠]، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ [الإسراء: ١٨]، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. والآيات والأحاديث في ذم الدنيا والمشتغلين بها أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، ومع هذا فقد تحكم حبها في القلوب، وحصل بسببها ما يسخط علام الغيوب.

أيها المسلمون: الدنيا لا تدوم نعمتها، ولا يستمر خيرها، بل هي مجمع الآفات ومستودع المصائب، لا يركن إليها إلا مغرور، ولا ينخدع بها إلا مفتون.

أما المؤمن الحقيقي فهي مطيته إلى الآخرة: إن أصابته سراء شكر الله عليها، وإن أصابته ضراء صبر لها[(٢)]، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يقربه، لا يداهن العصاة والفاسقين، ولا يجامل الرؤساء والأعيان بما يسخط الله.

عباد الله: ليست المصيبة أن يصاب الإنسان بنفسه أو ماله أو ولده، وإنما المصيبة العظيمة والكسر الذي لا ينجبر أن يصاب الإنسان بدينه[(٣)]، فيحل الشك محل

---

(١) أخرجه أبو نعيم مختصرًا في الحلية (٩/ ٢٦٠) عن أبي الأشهب العطاردي، بينما ذكره تامًّا ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٢٩).

(٢) فعن صهيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»، أخرجه مسلم (رقم ٢٩٩٩) وابن حبان (٧/ ١٥٥ رقم ٢٨٩٦).

(٣) فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء =

اليقين، فيرى الباطل حقًّا والحق باطلًا، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا.

أيها المسلمون: لا يفتننكم الذين كفروا عن دينكم بعرض من الدنيا فتصبحوا خاسرين، الله الله في حفظ دينكم والعمل بتعاليمه، فإنه من يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه.

أيها المسلمون: ليس الإسلام مقصورًا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، ولكنه ذلك والكف عن محارم الله، ومحبة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله والبعد عنهم، وإنكار ما هم عليه وعدم مخالطتهم ومشابهتهم وتقليدهم(١)، إلى غير ذلك من حقوق الإسلام وشروطه ولوازمه، ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن هو ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال(٢)، أكثر الناس يقولون آمنا بالله وما هم

=

الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا». أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٠٢) وقال: هذا حديث حسن غريب. والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٦ رقم ١٠٢٣٤) والطبراني في الدعاء (رقم ١٩١١) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٣١) وانظر: تحفة الأحوذي (٩/ ٣٣٤).

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» أخرجه أبو داود (رقم ٤٠٣١) وسعيد بن منصور (رقم ٢٣٧٠) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٧٩ رقم ٨٣٢٧) وأحمد (٢/ ٥٠، ٩٢) والبزار (٧/ ٣٦٨ رقم ٢٩٦٦) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ١٣٥ رقم ٢١٦) (٣/ ٩٤ رقم ١٨٦٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٤٤ رقم ٣٩٠) وعبد بن حميد (١/ ٢٦٧ رقم ٨٤٨). قال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤٠): وهذا إسناد جيد. وقال في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٣١): وهو حديث جيد. وقال في الفتاوى الكبرى (٣/ ٢٥٩): لأن المشابهة في بعض الهدي الظاهر يوجب المقاربة ونوعًا من المناسبة يفضي إلى المشاركة في خصائصهم التي انفردوا بها عن المسلمين، وذلك يجر إلى فساد عريض.

(٢) أخرجه البيهقي من قول الحسن البصري رحمه الله في شعب الإيمان (١/ ٨٠ رقم ٦٦) والحكيم =

بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض بحب الشهوات وأكل الحرام، إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، لكنهم عن الحق معرضون، ولأهله معادون مبغضون، ولأعداء الله محبون موالون.

والحقيقة أن من خالف أمر القرآن ونهيه لم يؤمن به شاء أم أبى، ومن لم يتبع شريعة محمد ﷺ لم يصدقه شاء أم أبى، لا تقبل دعوى بلا حقيقة قد انتشر بين المسلمين، ويحاول إخوان الشياطين أن يقضوا على بقية الدين، ولا أحد ينكر أو يغار أو يحزن، لما يرى ويسمع من الأشرار، وينتحب على موت السنن وظهور البدع، ولا شك أن هذا علامة موت القلوب.

رحم الله ابن عقيل حيث يقول في زمانه: من عجيب ما نقدت من أحوال الناس كثرة ما ناحوا على خراب الديار وموت الأقارب والأسلاف، والتحسر على الأرزاق، وذم الزمن وأهله، وذكر نكد العيش فيه، وقد رأوا من انهدام الإسلام، وتشعث الأديان، وموت السنن، وظهور البدع، وارتكاب المعاصي، وتقضي الأعمار في الفارغ الذي لا يجدي، والقبيح الذي يوبق ويؤذي، فلا أجد منهم من ناح على دينه، ولا بكى على ما فرط من عمره، ولا آسى على فائت دهره، وما أرى لذلك سببًا إلا قلة مبالاتهم بالأديان، وعظم الدنيا في عيونهم، ضد ما كان عليه السلف الصالح، يرضون بالبلاغ من الدنيا، وينوحون على الدين. أهـ.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ عرض لهم في ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في

= الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ١٦)، بينما رفعه إلى النبي ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه كل من: اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٥١٦) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٨٨).

قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم حتى ربا فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكرًا، فجاءتهم دولة أخرى أقامت فيها البدع مكان السنن، والنفس مكان العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم[١]، إلى أن قال رحمه الله:

اقشعرت الأرض، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلّت الخيرات، وهزلت الوحوش، وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكى الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح؛ وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه، فأعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح، ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح، وكأنكم بالباب وقد أُغلق، وبالجناح وقد علق ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].[٢]

وقال رحمه الله: علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالوا للناس: هلموا. قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا لكانوا أول المستجيبين له منهم، فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع الطريق[٣] اهـ.

فكيف لو رأى ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الزمان الذي انهدم فيه جانب الحق،

(١) الفوائد (ص ٤٨-٤٩).
(٢) الفوائد (ص ٤٩).
(٣) الفوائد (ص ٦١).

وتُرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في غالب الناس، واختلط الخبيث بالطيب، وظهر الفاسد وتكلم بملء شدقيه بلا خفية، وسكت المحق، فإن تكلم فبينه وبين نفسه، وانعكست الأمور، وتغيرت الأحوال، وكثر العلم، وقل العمل، وتُعلِّم العلم للدنيا، واتصف غالب أهله بالعقائد الفاسدة، والأعمال الخبيثة: إلحاد وزندقة واستهزاء بالسنن وأهلها، وخلاعة وفجور وزنا ولواط وشرب مسكرات وترك للصلوات ومروق من الدين والآداب العربية بكل الكلمة، لا خوف من الله ولا حياء من خلقه، همهم القيل والقال والعكوف على آلات اللهو والشهوات المحرمة، وأكل أموال الناس بالباطل والربا، وأنواع الحيل المحرمة، والتفاخر في المآكل والملابس، والمباهاة في البنيان والأثاث، وصار الحب للدنيا والبغض لها، والموالاة فيها والمعاداة عليها، شرابين للقهوات (أي الخمور) تراكين للصلوات، لعابين بالكعبات، رقادين عن العتمات، مفرطين في الغدوات، تاركين للجماعات.

ومن صفتهم يقرءون القرآن، وهم بين كافر به وفاجر يتأكل به. وفي حديث لأبي سعيد: «**ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم**»[(١)]. وفي حديث آخر: «**وأما القرآن فيتعلمه المنافق فيجادل به المؤمنين**»[(٢)]، كما هو الواقع.

فهذه والله صفات غالب أهل زماننا هذا، ورحم الله ابن القيم حيث قال: الزنادقة قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، وهؤلاء هم المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار[(٣)].

وذكر - رحمه الله - من صفاتهم ما ينطبق على غالب أهل هذا الزمان، فراجعه في

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٦ رقم ٣٤١٦) وابن حبان في صحيحه (٣/ ٣٢ رقم ٧٥٥) وأحمد (٣/ ٣٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٣٣ رقم ٢٦٢٦) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢١٣): رواه أحمد ورجاله ثقات، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، رواته حجازيون وشاميون أثبات ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٨): رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه دراج أبو السمح وهو ثقة مختلف في الاحتجاج به. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٩).

(٣) طريق الهجرتين، لابن القيم (ص ٤٠٢).

كتابه (طريق الهجرتين وباب السعادتين) في الطبقة الخامسة عشرة يتبين لك أحوال الناس، وما أخلوا به، وضيعوه من تعاليم دينهم، وسنة نبيهم، وهلاك الأكثرين بانغماسهم في الشهوات المحرمة، وموالاتهم لأعداء الله ورسوله، وتركهم الصلاة التي هي عمود الإسلام، والذين يصلون منهم يؤخرونها عن أوقاتها.

وتأمل ذلك تجده عامًا في القرى والأمصار والبوادي، إلا بقايا ممن رسخت في التوحيد عقائدهم، واستنارت بالعلم قلوبهم وبصائرهم، فهم في سبيل الحق يجاهدون، وإلى دين الإسلام يدعون، وعن الشر يحذرون، وبالأدلة يرشدون، وعلى الأذى في الله يصبرون، وهذا مصداق قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله»[1] لكنهم قليل.

وأنا وإن كنت لست من أهل هذا الشأن، وقاصر العلم واللسان، لكن لما رأيت ما عم وطم من انقلاب الأكثرين عن دين الإسلام، وموالاتهم لعبدة الأوثان وأعداء الشريعة من النصارى والملحدين والرافضة، حملتني الغيرة الدينية، والشفقة الإنسانية: أن أجمع بعض آيات قرآنية وأحاديث نبوية، ومن كلام علماء السنة المقتدى بهم، نبذة يسيرة في بيان تحريم مخالطة المشركين، ووجوب البعد عنهم، وحكم التولي والموالاة والسفر إلى بلادهم، وما يجب على من اضطر إلى العمل مع الشركات الأجنبية، لتكون تذكرة للمؤمنين، وحجة على المعاندين، وسميتها (الهدية الثمينة، لمن يهمه أمر دينه) والله أسأل التوفيق وحسن النية، وأن يدفع عنا وعن عموم المسلمين كل بلية ورزية، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فأقول: قال العلماء: إن الله حرم على المؤمنين في كتابه وعلى لسان نبيه ورسوله محمد ﷺ أن يوالوا المشركين، ويظهروا لهم المودة ولو بأدنى شيء من أنواع الانبساط، وتوعدهم بأعظم وعيد، وزجرهم بأكبر زجر وتهديد، كما في الآيات التي

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١١٦) (رقم ١٩٢٠).

تسمعها الآن من كلام الله المحكم المبين، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ [آل عمران: ٢٨]. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧]. ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨- ١٣٩]. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤]. ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه مستلزم بعدم ولايتهم، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان، لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم(١).

وقال بعض المحققين، رتب الله على موالاتهم سخطه والخلود في العذاب، وأخبر أن ولايتهم لا تحصل إلا ممن ليس بمؤمن. وأما أهل الإيمان بالله وكتابه ورسوله، فإنهم لا يوالونهم بل يعادونهم، كما أخبر الله عن خليله إبراهيم والذين معه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: ١٣]. ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [التوبة: ٢٣]. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١]

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٩٠).

الآية. ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] الآية. ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة:٥١- ٥٢] الآية. ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٨٠]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران:١٤٩]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

وقال في حق نبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥]. وقال عن خليله إبراهيم ومن معه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقال عنه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]. وقال عنه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

قال العلماء: فهذه البراءة وهذه الموالاة، هي معنى: لا إله إلا الله، لاشتمالها على إثبات العبادة لله وحده، ونفيها عمن سواه حقيقة الإسلام، وهي ملة إبراهيم، التي أُمرنا باتباعها بقوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

فهذه أيها المسلمون بعضًا من آيات الله ظاهرة الدلالة، بينة الحجة، واضحة البرهان، حاكمة بمنطوقها على كل مسلم يوالي الكفار والمشركين واليهود والنصارى، ولا ينكر عليهم شركهم، ويحسِّن أفعالهم أو يشك في كفرهم، أنه كافر

ولو عرف التوحيد وعمل بشرائع الإسلام الظاهرة، ولو تتبعنا أقوال العلماء على هذه الآيات لطال الكلام، وخرجنا عن مقصود الاختصار.

وأما الأحاديث الواردة في النهي عن مشابهة المشركين والكفار فهي كثيرة معروفة، منها قوله ﷺ في حديث ابن عمر: «من تشبه بقوم فهو منهم»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: أقل أحواله «أي هذا الحديث» أن يقتضي تحريم التشبه، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم[(٢)].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وفيه النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نقر عليه[(٣)].

وقد رأى النبي ﷺ على عبد الله بن عمرو ثوبين معصفرين فقال: «إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها»[(٤)] الحديث في مسلم نهى عن لبسها بأنها من ثياب الكفار، وفي كتاب عمر إلى عتبة بن فرقد: وإياك وزي أهل الشرك، وهو في الصحيحين[(٥)].

ورُوي عن حذيفة أنه أتى بيتًا فرأى فيه شيئًا من زي الأعاجم فخرج وقال: من تشبه بقوم فهو منهم[(٦)].

ويروى عن الإمام أحمد أنه دُعي إلى وليمة عُرْس فنظر إلى كرسي في الدار عليه فضة، فخرج، فلحقه صاحب الدار، فنفض يده في وجهه فقال: زي المجوس زي

(١) سبق تخريجه.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤١).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٩).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٠٧٧).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٨٢٨) ومسلم (رقم ٢٠٦٩) واللفظ لمسلم.

(٦) ذكره الإمام أحمد في الورع (ص ١٧٨).

المجوس[١]. وقال عمر: لا تعلموا رطانة الأعاجم[٢]، إلى آخر ما قال رحمه الله، وقد كتب عمر إلى المسلمين المقيمين في بلاد فارس: إياكم وزي أهل الشرك[٣].

وما ورد في ذلك أكثر من أن يحصر، ولم يحذر الله عن مشابهتهم إلا لقطع المودة بينهم وبين المسلمين. وقال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود، الآية: ١١٣] قال: الركون هو الميل في المحبة ولين الكلام، وقال: إن من الركون إلى الكفار أن تبري لهم قلمًا[٤].

وقال عكرمة: أن تطيعوهم أو تودوهم أو تولوهم الأعمال، كمن يولي الفساق والفجار[٥]، وقال الثوري: من لاث لهم دواة أو برى لهم قلمًا أو ناولهم قرطاسًا دخل في هذا يعني في الوعيد[٦].

وقال بعض المفسرين: فيها النهي عن اتباع أهوائهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم[٧].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾ والركون هو الميل اليسير فكيف بمن جالس الكافرين وآكلهم وألان لهم الكلام. ويذكر عن عيسى عليه السلام أنه قال تحببوا إلى الله

---

(١) ذكره ابن مفلح في المقصد الأرشد (٢/ ٢٢٨ رقم ٧٢٢) وفيه: عليه صورة.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٩/ ٢٣٤ رقم ١٨٦٤٠) ومالك في المدونة (١/ ٦٣) وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٤١١ رقم ١٦٠٩) كلهم عن عمر بن الخطاب ﷺ. بينما أخرجه ابن أبي شيبة من قول عطاء في مصنفه (٥/ ٩٩ رقم ٢٦٢٨١).

(٣) انظر: كشف الخفاء (١/ ٣٢١ رقم ٨٥٧) والدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٢٢٠ رقم ٩٤٢) ونصب الراية (٤/ ٢٢٦).

(٤) انظر: الكبائر (ص١١٢) والورع (ص ٩٣) وفيض القدير (٤/ ٢٩٦).

(٥) انظر: الدر المنثور (٤/ ٤٨٠).

(٦) انظر: الورع لأحمد بن حنبل (ص ٩٣).

(٧) انظر: فيض القدير (٤/ ١٣٢).

ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالبعد عنهم، واطلبوا رضوان الله بسخطهم[١]. فإذا كان هذا مع أهل المعاصي، فكيف بالمشركين والكافرين والمنافقين والملحدين. وفي الحديث: «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[٢]، وفيه «المرء مع من أحب يوم القيامة»[٣]، وفي حديث: «لا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم»[٤].

ومما تقدم من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء، يتبين أنه يجب على المؤمنين إظهار العداوة للكفار والمشركين، والبراءة منهم، والبعد عنهم، وأن ذلك هو حقيقة الإسلام. ويتبين أن المسلم إذا والى المشركين وأطاعهم، ووافقهم على رغبتهم لأجل مال أو غيره من غير إكراه أنه كافر، ولو كان يعرف كفرهم ويبغضهم.

وقد جاء الأمر بمجاهدة الكفار والمشركين والغلظة عليهم في غير موضع من كتاب الله، بل جاء الأمر بالإنكار على المجاهر بالمعاصي ولو كان مسلمًا، فكيف بمن يوالي المشركين ويحبهم ويرى سبيلهم أهدى من المسلمين؟

فيجب على المسلم معرفة أمورٍ مَنْ فعَلها دخل في الوعيد، وتعرض لمسيس النار. «التولي العام، الركون القليل، مداهنة الكفار ومداراتهم، طاعتهم فيما يقولون ويشيرون، تقريبهم في الجلوس وتقديمهم في الدخول على أمراء الإسلام،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٥٧ رقم ٩٤٤٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٥٥) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٧/ ٤٥٢-٤٥٤) وانظر: الدر المنثور (٢/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨٣٣) والترمذي (رقم ٢٣٧٨) وأحمد (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤) والقضاعي في مسند الشهاب (رقم ١٨٧) وعبد بن حميد (رقم ١٤٣١) والطيالسي (رقم ٢٥٧٣) والبيهقي في الشعب (٧/ ٥٥ رقم ٩٤٣٦، ٩٤٣٨) والخطابي في العزلة (ص ٤٦) وحسنه الترمذي، وكذا الحافظ ابن حجر العسقلاني في الأمالي المطلقة (ص ١٥١) وانظر: عمدة القاري (١١/ ٢٢١) وتحفة الأحوذي (٧/ ٤٢) وعون المعبود (١٣/ ١٢٣) وليس فيه قوله: «يحشر».

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦١٦٨، ٦١٦٩، ٦١٧٠) ومسلم (رقم ٢٦٤٠، ٢٦٤١).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٣) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٢٣ رقم ٧٩٦٢) والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٧٥ رقم ٧٤٩٩) وهناد في الزهد (٢/ ٤٨٩ رقم ١٠٠٥) والمروزي في البر والصلة (رقم ١٣٥) و إسناده ضعيف.

مشاورتهم في الأمور، استعمالهم في الوظائف، اتخاذهم بطانة، مجالستهم ومزاورتهم والدخول عليهم، البشاشة لهم والطلاقة، الإكرام العام، استئمانهم وقد خونهم الله، معاونتهم في أمورهم ولو بأدنى شيء، مناصحتهم، اتباع أهوائهم، مصاحبتهم ومعاشرتهم، الرضا بأعمالهم، التشبه بهم والتزيي بزيهم، ذكر ما فيه تعظيمهم كتسميتهم سادات وحكام وحكماء، والسكنى معهم في ديارهم.

إذا تبين هذا فلا فرق بين أن يفعل ذلك مع أقربائه منهم أو مع غيرهم، ولا تجتمع محبة الله ومحبة أعدائه في قلب مسلم، قال ابن القيم:

تحب أعداء الحبيب وتدعي ... حبًّا له ما ذاك في إمكان[1]

إذا فهمت ما تقدم تبين لك انحراف كثير من أهالي هذا الزمان عن الدين، وردتهم الصريحة لمبادرتهم إلى موالاة المشركين ومحبتهم، وتحسين أعمالهم مع تركهم الواجبات، وانتهاكهم المحرمات. فيجب ويتعين على كل مسلم ناصح لنفسه أن يعرف ما قرره العلماء ـ رحمهم الله ـ من الفرق بين التولي والموالاة.

قالوا ـ رحمهم الله ـ: الموالاة مثل لين الكلام، وإظهار شيء من البشاشة أو ليائة الدواة وما أشبه ذلك من الأمور اليسيرة مع إظهار البراءة منهم ومن دينهم وعلمهم بذلك منهم، فهذا مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وهو على خطر.

وأما التولي فهو إكرامهم والثناء عليهم والنصرة والمعاونة لهم على المسلمين والمعاشرة وعدم البراءة منهم ظاهرًا، فهذا ردة من فاعله، يجب أن تجري عليه أحكام المرتدين، كما يدل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة المقتدى بهم. ومن كلام لعلامة القصيم محمد بن عبد الله بن سليم[2] في هذا المعنى قال رحمه الله:

النوع الأول: أن يودهم ويود ما هم عليه من الكفر، ويطمئن إلى ذلك ويرضى به، فهذا كفر بلا ريب.

---

(١) انظر: شرح قصيدة ابن القيم (٢/ ٢٦٤).

(٢) انظر: ترجمته في علماء نجد خلال ثمانية قرون (٦/ ١٥٠-١٥٩ رقم ٧٣٧).

النوع الثاني: أن يودهم لغرض دنيوي مع كراهته لما هم عليه وتضليلهم، فهذا قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب متعرض للوعيد:

وأما السفر إلى بلاد المشركين والإقامة عندهم فقد قال ﷺ: «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين لا تراءى ناراهما**»(١). وعن سمرة بن جندب قال رسول الله ﷺ: «**من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله**»(٢). وأخذ النبي ﷺ على بعض أصحابه أن لا تراءى نارك نار المشركين، إلا أن تكون حربًا لهم.

وقد عاتب الله المسلمين الذين تخلفوا عن الهجرة بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية. قيل: لما نزلت هذه الآية كتب بها إلى من بمكة من المسلمين: أنه لا عذر لهم بالإقامة فخرجوا. وهذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا. قال القرطبي في شرح مسلم: ولا يختلف في أنه لا يحل لمسلم المقام في بلاد الكفر مع التمكن من الخروج منها لجريان أحكام الكفر عليه، ولخوف الفتنة على نفسه، وهذا حكم ثابت مؤبد إلى يوم القيامة.

وعلى هذا فلا يجوز لمسلم دخول بلاد الكفر لتجارة ولا غيرها مما لا يكون ضروريًّا في الدين كرسل وفكاك الأسير المسلم: وقد أبطل الإمام مالك ـ رحمه الله ـ شهادة من دخل بلاد الهند للتجارة(٣). انتهى.

وقال الشيخ سليمان بن سحمان: واجب على كل مسلم عداوة الكفار

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٦٤٥) والترمذي (رقم ١٦٠٤) والطبراني في الكبير (٢/ ٣٠٣ رقم ٢٢٦٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٩) وتحفة الأحوذي (٥/ ١٧٨) وعون المعبود (٧/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٧٨٧) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٥٥٩ رقم ٥٧٥٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٠، ٥٤٣) (٢/ ٣٣١) وتحفة الأحوذي (٥/ ١٩٠) وحاشية ابن القيم (٧/ ٢١٩) وعون المعبود (٧/ ٣٣٧).

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٢/ ١/ ١١٧).

والمشركين وبغضهم وهجرهم ومفارقتهم بالقلب واللسان والبدن (إلى أن قال) فتبين أن إظهار الدين هو التصريح بالعداوة والبغضاء وأن قول من أعمى الله بصيرة قلبه أن إظهار الدين كون الكفار لا يمنعون أحدًا من الصلاة ولا من الحج والأذان قول باطل مردود شرعًا وعقلاً.

وقال الشيخ حمد بن عتيق ـ رحمه الله ـ: فمن أعظم الواجبات على المؤمنين محبة الله، ومحبة من يحبه من الأشخاص: كالملائكة وصالحي بني آدم، وموالاتهم، وبغض ما يبغضه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وبغض من فعل ذلك.

فإذا رسخ هذا الأصل في قلب المؤمن لم يطمئن إلى عدو الله، ولم يجالسه أو يلفت النظر إليه. فلما ضعف هذا الأصل في قلوب كثير من الناس واضمحل، صار حال كثير منهم مع أعداء الله كحاله مع أوليائه، يلقى كلا بوجه طلق، وصارت بلاد الحرب عنده كبلاد الإسلام، ولم يخش غضب الله الذي لا تطيقه الأرض والسموات والجبال الراسيات.

ولما عظمت فتنة الدنيا في صدور كثير من الناس، وصارت أكبر همهم ومبلغ علمهم، حملهم ذلك على التماسها، ولو بوجه يسخط الله، فسافروا إلى أعداء الله في بلادهم، وخالطوهم في أوطانهم، ولبَّس الشيطان عليهم أمر دينهم، فنسوا عهد الله الذي أخذه عليهم في مثل قوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] إلى آخر ما قال ـ رحمه الله ـ:

ومن كلام لبعض المحققين قالوا: رحمهم الله: يحرم السفر إلى بلاد المشركين للتجارة إلا أن يكون المسلم قويًا له منعة يقدر على إظهار دينه وتكفيرهم وعيب دينهم والطعن عليهم والبراءة منهم والتحفظ من مودتهم والركون إليهم: وليس فعل الصلاة فقط إظهار الدين: وقول القائل: إنا نعتزلهم في الصلاة ولا نأكل

ذبيحتهم لا يكفي في إظهار الدين بل لابد مما ذكر(١).

قلت: هو كما تقدم أن يتبرأ من المشركين والكفار، وأن يصرح لهم بأنهم كفار، وأنه عدو لهم، ويعلمون ذلك منهم، فإن لم يحصل ذلك لم يكن مظهرًا للدين، وقول بعضهم: إنهم لا ينكرون علينا، قول فاسد، فالكلام على من يظن به الخير ممن يخالطهم يخاف عليه إن سلم من الردة، أن لا يسلم من الكبيرة الموبقة، وأما من يظن به مودة الكافرين وموالاتهم أو يرى دينهم أهدى سبيلاً من المؤمنين كحال أكثر الناس اليوم، فهذا مرتد عن دينه بإجماع المسلمين.

وقال بعض العلماء رحمهم الله: اعلموا أن المعاصي أنواع بعضها أكبر من بعض، فأعظمها الشرك بالله في عبادته ـ إلى أن قال: وهذا الذنب له وسائل وذرائع توصل إليه، فأعظمها موالاة أعداء الله على اختلاف أنواعها، وقد أصبح أهل هذا الزمان في غفلة منها، وأكثرهم يواليهم أو يوالي من يواليهم، يقرءون القرآن، وفيه تحريم موالاتهم، ونفي الإيمان عمن يفعل ذلك. إلى أن قال: وأكثر الناس لا يفرق بين الإسلام وضده، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، ومن كفر ببعض كمن كفر بالكل.

وقال بعضهم: أصل الموالاة هو الحب والنصرة والصداقة، ودون ذلك مراتب متعددة، ولكل ذنب من الوعيد والذم ما هو معروف، ونواقض الإسلام تقارب أربعمائة ناقض، كما هو معروف في مصنفات العلماء، والمجمع عليه منه عشرة.

الثالث «من العشرة» من لم يُكفر المشركين، أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم واستحسنه كفر، والثامن منها مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١](٢).

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ

(١) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٢/ ١٣٦-١٣٨).

(٢) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١/ ٣٨٥).

أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣] أمر الله نبيه بالإعراض عن المنافقين وإغلاظ القول عليهم، ولا يلقاهم بوجه طلق، بل يلقاهم بوجه عابس، مكفهر متغير من الغيظ.

فإذا كان هذا مع المنافقين الذين هم بين أظهر المسلمين يصلون ويصومون ويحجون ويجاهدون، فكيف بمن سافر إلى المشركين وأقام بين أظهرهم أيامًا وليالي.

قلت: بل أشهرًا وسنين مطمئنًا، مستأذنًا عليهم في بيوتهم، متعلمًا منهم، مكثرًا لهم التحية، ملينًا لهم الكلام، وليس له عذر إلا طلب العاجلة، ولم يجعل الله الدنيا عذرًا لمن اعتذر بها، كما نبه الله على ذلك في كتابه.

وفي حديث طويل قال: «لا يحملنكم الشيطان باستبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»[1]، ولما نهى الله أن يقرب المشركون المسجد الحرام قال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٢٨]، فلم يعذر الله بالفقر والفاقة والحاجة إلى ما في أيدي الكفار، وأخبر أنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وغاية ما عند الموالين الاعتذار بالحاجة، وما كان ذلك عذرًا صحيحًا، كما بين الله في كتابه وعلى لسان رسوله.

فيا حسرة على العباد الذين عرفوا التوحيد ونشأوا فيه ودانوا به زمانًا، كيف خرجوا عن ولاية رب العالمين إلى ولاية المشركين والنصارى والملحدين، ورضوا بها ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]. ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٨١]. ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فالله الله عباد الله انتبهوا من هذه البلية العظيمة التي صيَّرت أهل الإسلام والضلال جماعة واحدة، ويجب على من نوَّر الله بصيرته إذا عرف إنسانًا من أقاربه

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٩ رقم ١٠٣٧٦) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩ رقم ٣٤٣٣٢) والدارقطني في العلل الواردة في الأحاديث النبوية (٥/ ٢٧٣ رقم ٨٧٥).

وجماعته بهذا الأمر أن ينصحه يدعوه إلى الله ـ سبحانه ـ، ويعرفه قبح ما ارتكبه، فإن تاب وأناب فهذا هو المطلوب، وإن أصر وعاند فيعاديه ويبتعد عنه، ولكل فاسق حكم ما ارتكبه، ومن أراد الله فتنته وضلاله فلن تجد له وليًّا مرشدًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

ومن أراد الوقوف على هذه المباحث القيمة بأدلتها فليطالع (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الإسلام ابن تيمية، ورسالة حكم موالاة أهل الإشراك، ورسالة بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك، فإنه يجد ما يكفي ويشفي، والله ولي التوفيق والهادي لأقوم طريق.

اعلموا أيها المسلمون أن العمل مع الشركات الأجنبية من أعظم الخطر على العمال المسلمين، لما يحصل من تغيير العقائد، وفساد الأخلاق، وانتشار الفوضى، ونقض عروة الإسلام، وقد فاهوا من الآن بسب الخير وأهله، وبغضهم، واستنكار السنن، وخالفوها علنًا، ومالوا إلى الدنيا وزخارفها، وأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وضلوا وأضلوا إلا القليل منهم.

وإن العمال الموجودين الآن عند الشركات الأجنبية على قسمين:

الأول: المستخدمين في بيوتهم ومكاتبهم وأشغالهم الخاصة، المحبوسين تحت أوامرهم وسيطرتهم، خاضعين لهم ذليلين حقيرين، يتصرفون فيهم كيف شاءوا، ومع ذلك هم تاركين لكثير من الواجبات، فاعلين لكثير من المحرمات، لا يفرقون بين الحق والباطل، ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا لفظها، فهؤلاء مثلهم، ومن شك في ردتهم عن الإسلام فهو لم يعرف الدين الصحيح، ولم يشم رائحة العلم النافع، ومثل هذه الخدمة محرمة بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

القسم الثاني: الأجراء على أعمال معينة: كبناء البيوت وحفر الآبار وإصلاح

السكك، وما أشبه ذلك في أجور معينة يومية أو شهرية: فمثل هذه الإجارة جائزة مع الضرورة، بشرط بعدهم عنهم، وعدم الخضوع والاستذلال لهم، والقيام بواجبات الإسلام وأدائها على الوجه المشروع.

إذا فهمتم ما تقدم: من استحكام غربة الدين، وانتهاك الحرمات، وانتشار الفسوق والعقائد الفاسدة، والفرق بين التولي والموالاة، وحكم السفر إلى بلاد المشركين، وبيان كيفية إظهار الدين، والفرق بين الخدمة عند المشركين والإجارة معهم. فواجب عليكم أن تتعلموا الدين الصحيح لتعملوا به، وتعرفوا أهله فتوالوهم، وتعرفوا الشر لتجتنبوه، وتعرفوا أهلها فتبغضوهم، وتبتعدوا عنهم وإن كانوا آباءكم أو أبناءكم أو إخوانكم، ولا تكونوا كالأنعام يقودكم الشيطان إلى الآثام، ويتحكم الكفرة فيكم بما شاءوا، حتى يخرجوكم من دينكم وأنتم لا تشعرون.

قفوا عند حدود الله، وقوموا بفرائض الله «**فالكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»[(١)]، يا من يهمهم أمر دينهم نصيحتي لكم بالبعد عن المشركين والمنافقين والفاسقين، قال الله لنبيه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

إن مرافقة الأشرار عار وهلاك، إنكم في زمان شره كثير وخيره قليل، ابتعدوا عن قرناء السوء، فإنكم إن لم تشاركوهم في عملهم، أخذتم بنصيب من الرضا عنهم والسكوت عن الإنكار عليهم، فتكونوا أنتم وإياهم في الإثم سواء، ومن أعان على معصية ولو بشطر كلمة كان شريكًا فيها، والساكت عن المعصية يقع في

(١) أخرجه مرفوعًا إلى النبي ﷺ ابن ماجه (رقم ٤٢٦٠) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٩ رقم ٦٣٠٦) والترمذي (رقم ٢٤٥٩) والطبراني في الصغير (٢/ ١٠٧ رقم ٨٦٣) وفي الكبير (٧/ ٢٨١ رقم ٧١٤١) وأحمد (٤/ ١٢٤) والبزار (٨/ ٤١٧ رقم ٣٤٨٩) والطيالسي (رقم ١١٢٢) والحاكم (١/ ١٢٥ رقم ١٩١) (٤/ ٢٨٠ رقم ٧٦٣٩) وصححه في الموضعين. ونقل المنذري تحسين الترمذي في ترغيبه (٤/ ١٢٥ رقم ٥٠٨٣).

معصيتين (السكوت على الباطل، ومرافقة أهله) وخير لكم البعد عنهم ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ولو أخذ الإنسان حبله وجاء بحزمة حطب أو كان حمالاً أو محترفًا بقريته خير له من الدخول والعمل في هذه الشركات الأجنبية.

ومن المعصية أن أكثر العمال اليوم تهاونوا بالدين، وضيعوا الصلاة التي هي عمود الإسلام، ولا دين لمن لا صلاة له[١] وإذا ضاعت الصلاة لم يبق دين ولا إسلام، فالصلاة فرض لازم لا تسقط بحال مادام العقل موجودًا وهي فرض عين على الحر والعبد والذكر والأنثى والحاضر والمسافر والصحيح والسقيم والغني والفقير. وتارك الصلاة كافر، لا حظَّ له في الإسلام[٢]، بعيد عن كل خير، قريب من كل شر، تقرر كفره بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وإجماع علماء الأمة المقتدى بهم، ولا نطيل بذكر الأدلة، لأنها معروفة، والذين يصلون منهم غالبهم يؤخرونها عن أوقاتها، ولا يؤدون الواجب فيها، قال الله في حقهم: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ [مريم: ٥٩] فالإضاعة تأخيرها عن وقتها. وقال تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤-٥].

وقال النبي ﷺ: «**هم الذين يؤخرون الصلاة عن أوقاتها**»[٣] فمن يؤخر الصلاة عن وقتها فهو سفيه، معرض عن الله، قد أضله الهوى والشيطان وأغواه، لا دين له

---

(١) ذكره المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٢/ ١٠٠٣).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى عن عمر رضي الله عنه (١/ ٣٥٧ رقم ١٥٥٩) (٣/ ٢٦٦ رقم ٦٢٩١) ومالك في الموطأ (١/ ٣٩ رقم ٨٢) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٣٠ رقم ٨١٨١) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٩٥): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٢/ ٢١٤ رقم ٢٩٨٢) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٨٧ رقم ١٠٨١) وأبو يعلى (٢/ ١٤٠ رقم ٨٢٢) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٤ رقم ٤٢) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤/ ٥٥٦): وقد ضعف البيهقي رفعه وصحح وقفه، وكذلك الحاكم. وانظر: الدر المنثور (٨/ ٦٤٢).

ينهاه عن سيئات الذنوب، ولا حياء له يردعه عن العيوب، فمثل هذا ليس له عدالة، ولا يقبل له (قول) شهادة، يجب على المسلمين هجره والبعد عنه حتى يتوب. ومثل هؤلاء الذين يتعلمون في مدارس الإفرنج، فإن التلميذ على عقيدة أستاذه ودينه وأخلاقه، فهم أضر شيء على المجتمع الإسلامي، ولا يغتر بهم إلا جاهل، فإن أعداء الله ورسوله قد علموا أن أعظم ما يبطل إلحادهم دين الإسلام، فنحوا الدين عن المتعلمين، وأبعدوه عن مدارسهم بالكلية، أو يجعلون التعليم في الدين شيئًا ضعيفًا اسمًا بلا مسمى.

وهذه العلوم العصرية هي مبادئ الإلحاد ومقدماته، ولهذا ترى النشء الجديد المتعلم في مدارس الشركات لا قدر للدين عندهم، ولا بصيرة لهم فيه لضعف تعليمه عندهم، ومتى ضعفت البصيرة في الدين والقلوب وتعلقت بغيره انهارت الأديان والأخلاق، كما هو مشاهد، وهذا النشء المتعلم في مدارس الشركات في الداخل أو الخارج، وبعض العمال هم أكبر سلاح على أمتهم في إفساد الأخلاق والأديان، فلا يغتر بهم.

أيها المسلمون: العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، لا تذلوا أنفسكم لأعداء الله، ولا تبيعوا دينكم بعرض من الدنيا.

هل من سامع للنصيحة؟ هل من مطيع لأوامر الله ورسوله؟

هل من منتهٍ عما نهى الله ورسوله عنه؟ فيسعد في الدنيا والآخرة، فإن اضطررتم أيها المسلمون إلى العمل بالأجرة في معامل هذه الشركات الأجنبية، وبليتم بمخالطة هؤلاء الأجناس الأرجاس، الذين لا دين لهم مستقيم ولا أخلاق شريفة، فإن حكومتكم أيدها الله قد أخذت لكم الحقوق منهم تامة، ورفعت لكم الأجور، وحفظت لكم المصالح، وميزتكم عمن سواكم لشرف الإسلام، فعليكم بتقوى الله ـ سبحانه وتعالى ـ والقيام بواجبات الإسلام والعمل بتعاليمه، وأعظمها

بعد الشهادتين الصلاة في أوقاتها جماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لجماعتكم المسلمين، وأداء النصيحة لهم، والبعد عمن أخل بدينه منهم.

اهجروهم، لا تؤاكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تجالسوهم، واحذروا منهم، وبينوا حالهم ليعاملوا بما يستحقونه، ولا تخضعوا للكافرين، ولا تبدأوهم بالسلام، ولا تعظموهم في شيء من الأمور، وأظهروا لهم البغضاء والعداوة، وأدوا الأمانة لمن ائتمنكم، ولا تخونوا من خانكم[(١)]، وخذوا ما لكم من الحقوق، وأدوا ما عليكم منها، ولا تطيعوا في معصية الله أحدًا أبدًا كائنًا من كان **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**[(٢)]، لا تبدأوهم بالسلام، ولا تقوموا لهم، وإذا لقوكم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه، ولا تقلدوهم في شيء من أمورهم وأفعالهم، خالفوا اليهود، يقول نبيكم ﷺ: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**[(٣)]، واحذروا شرب شيء من المسكرات، واستماع الغناء وآلات اللهو كالسينما والصندوق والربابة والسمسمية والمزامير، سواء أكانت من الراديو أو غيره.

وبالجملة، فيجب عليكم الاحتراز التام والتحفظ من كل ما يخل بالدين والمروءة **«والحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ**

---

(١) فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»** أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (٧/ ٢٨١-٢٨٢ رقم ٢٧٣٨) وأبو داود (رقم ٣٥٣٤، ٣٥٣٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٧٠ رقم ٢١٠٩١) والترمذي (رقم ١٢٦٤) والدارمي (رقم ٢٥٩٧) وانظر: الأم (٥/ ١٠٤) والاستذكار (٧/ ١٩١) والمحلى (٨/ ١٨١-١٨٢) والحديث حسنه الترمذي وصححه الحاكم (٢/ ٥٣ رقم ٢٢٩٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٣٢١ رقم ٤٣٢٢) وفي الكبير (١٨/ ١٦٥ رقم ٣٦٧) وأحمد (١/ ١٣١، ٤٠٩) (٥/ ٦٦) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٥٥ رقم ٨٧٣) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٢٦): ورجال أحمد رجال الصحيح ... ورواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح. وانظر: عمدة القاري (٧/ ٢٨٢) والتمهيد (٨/ ٥٨) وتحفة الأحوذي (٣/ ١٩٣) (٥/ ٢٩٨) وفيض القدير (٣/ ٢٠، ٣٠٩) (٤/ ١٠٠، ١٤٦).

(٣) تقدم تخريجه.

لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام: كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه»(١) ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت: ٤٦].

اللهم اهدنا صراطك المستقيم، واختم لنا بالسعادة يا كريم وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

❁❁❁

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٩٩).

الرسالة التاسعة عشرة:

البراهين الإنجيلية
على
أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية
ولا حظ له في الألوهية

بقلم

الأستاذ الدكتور/ محمد تقي الدين الهلالي

المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

رحمه الله

١٣١١هـ - ١٤٠٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي العزة والجلال، المتفرد بصفات الكمال، لم يلد ولم يولد وما له من ند ولا مثال، بل هو الكبير المتعال، أرسل رسله ليدلوا الناس على إفراده بالعبادة، ويحذروهم من الشرك المفضي بهم إلى الإبادة، وصلاته وسلامه على جميع الأنبياء والمرسلين، خصوصًا محمدًا خاتم النبيين، وعلى جميع من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد كتب إليَّ تلميذي السيد منذر إسماعيل الدوربي البغدادي، الذي كان يدرس الهندسة في إحدى جامعات الولايات المتحدة منذ أربع سنين تقريبًا، وأخبرني أن النصارى تجمعوا عليه، وأخذوا يجادلونه في الدين، ويتطاولون عليه، فلم يدر ما يجيبهم به، فألفت له هذا الجزء، وسميته «**البراهين الإنجيلية على أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية، ولا حظ له في الألوهية**» وأعطيته أرقام الآيات وفصولها من الأناجيل الأربعة؛ ليستخرجها بالإنجليزية، ويدافعهم بها بعدما يفهم ما شرحت له بالعربية، فعكف على الرسالة حتى قتلها فهمًا، ودعاهم للمناظرة، فلما ناظرهم أفحمهم، وهزموا شر هزيمة، فيما أخبرني به بعد ذلك.

وسأعقب هذه الرسالة بقصة أخرى مشابهة لها وقعت في بغداد، وكانت النتيجة كالنتيجة المتقدمة الذكر، ولا يعوز المسلم البرهان على صحة دينه، وفساد دين أعدائه. ولكن الذي يعوزه الإخوة الصادقون، الذين ينصرون الله ورسوله، وصدق من قال: إن الإسلام في هذا العصر دين بلا رجال، وأن النصرانية رجال بلا دين، فبجهودهم وأموالهم وشجاعتهم وصبرهم يجعلون الحق باطلاً والباطل حقًّا، وأكثر البشر في هذا الزمان عبيد الدينار والدرهم، والثياب الفاخرة، والقصور الشامخة، وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود، لا إله إلا هو عليه توكلت، وإليه أنيب.

اقرأ من أول الفصل الرابع من إنجيل متى إلى الرقم السادس والسابع، ففيهما

التصريح بأن عيسى عبد، والله سيد ورب، لقوله في الآية السابعة، قد كتب أيضًا: (لا تمتحن الرب إلهك).

وفي هذا الفصل نفسه أن الشيطان حمل المسيح، وأخذ يطوف به من مكان إلى مكان، فكيف يستطيع الشيطان أن يحمل الرحمن، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ثم أمره الشيطان أن يسجد له ويعبده، وأطمعه بمال الدنيا، فكيف يتجرأ الشيطان على الله بمثل هذه الجرأة، ولما أراد منه الشيطان ذلك أجابه المسيح بقوله: قد جاء في الكتب السابقة: (لا تسجد إلا للرب إلهك) وهو وحده تعبده انظر الآية العاشرة لم يسم المسيح نفسه ابن الله، فيما أعلم، وإنما كان يسمي نفسه ابن الإنسان، إلا أنه سمع تسميته بذلك فلم ينكرها ـ بزعم الأناجيل ـ ولا خصوصية له في ذلك.

ففي لغة التوراة والأناجيل: كل تقي بر يسمى ابن الله.

وفي الآية التاسعة من الفصل الخامس من إنجيل متى: طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون.

وجاء في الفصل نفسه رقم (٤٥) لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء.

وفي رقم (٤٨) فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السماء كامل، وفي الفصل السادس رقم (١) وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماء.

وفي فصل (٧) رقم (٢١) ترجمة كلمة (لورد LORD هنا بلفظة رب) إيهامًا للناس أن المسيح هو الله، ولكن من تأمل بقية الآية يجدها تشهد على المسيح بالعبودية، فالترجمة الصحيحة هكذا (ليس كل أحد يقول لي: يا سيدي يدخل ملكوت السماء، ولكن الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماء) انتهت ترجمة الآية.

وقد تقدم أن إطلاق الأب على الله جاء في مواضع لا تحصى في الإنجيل، وليس خاصًّا بالمسيح.

وجاء في الفصل (١١) رقم (٢٥): (أحمدك أيها الرب رب السماء والأرض،

لأنك أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء والفهماء، وألهمتها الأطفال).

وفي الفصل (١٤) رقم (٢٣) (وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفردًا ليصلي).

أقول: إذا كان هو الله أو جزءًا من الله، فكيف يصلي، فالصلاة لا تكون إلا من العبد الفقير المحتاج إلى رحمة الله، كما قال تعالى في سورة [فاطر: ١٥]: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ وقال تعالى في سورة مريم: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

وفي الفصل (١٥) من رقم (٢١) إلى (٢٨) قصة المرأة الكنعانية، وفيها أمور:

الأول: نفي الرحمة والمحبة عن عيسى، لو صحت الحكاية.

الثاني: التعصب الممقوت بحيث يعالج أبناء قومه، ولا يعالج غيرهم، مع أنه لا يخسر شيئًا.

الثالث: التكبر القومي والافتخار بالنسب، وانتقاص الآخرين، وجعلهم كلابًا.

الرابع: أن امرأة مشركة جاهلة ناظرته فغلبته.

وفي الفصل (١٩) رقم (١٦ و١٧) أن شابًا جاء إلى المسيح، فقال له: (أيها الرجل الصالح، فقال له: لِـمَ تسميني صالحًا؟ لا صالح إلا الله) وفي هذا اعتراف بالعبودية أيضًا.

وفي الفصل (٢١) رقم (٤٥ و٤٦) لما أرادوا أن يقبضوا عليه خافوا من الجموع، لأنه كان عندهم نبيًا، ففيه دليل على أن جموع المؤمنين بعيسى في زمانه لم يكونوا يعتقدون أنه إله أو ابن الله أو أحد الأقانيم الثلاثة، بل كانوا يعتقدون أنه نبي فقط، وهذا من أقوى الحجج على القائلين بألوهيته لو كانوا يعقلون.

وفي الفصل (٢٣) رقم (٨) (أما أنتم فلا تدعوا أحدًا سيدكم، فإن سيدكم حتى

المسيح واحد) ففيه دليل على أن المسيح عبد وأن السيد واحد وهو الله، وقد ترجموا هذه الآية بالعربية وحرفوها على عمد، فأوهموا أن المسيح هو السيد، أما الترجمة الإنكليزية فهي سالمة من هذا الفساد.

وفيه أيضًا رقم (٩) (ولا تدعوا لكم أبا على الأرض، لأن أباكم واحد وهو الذي في السماء)، ومن ذلك تعرف أن الأبوة والبنوة بمعنى العلاقة بين الرب والعبد ثابتة في الإنجيل في جميع الناس، لا خصوصية للمسيح في ذلك.

وفي فصل (٢٤) رقم (٣٦) (أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها أحد من الناس ولا ملائكة السماء، ولكن أبي وحده هو يعلمها) فهذا دليل قاطع على أن تلك الساعة لا يعلمها أحد إلا الله، ففيه دليل على أن علم المسيح قاصر كسائر البشر، والله وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً.

وفي الفصل (٢٦) رقم (٣٩) فيه أن المسيح (خر ساجدًا لله) وقال: يا أبت إن أمكن أن تصرف عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت، إن ثبت هذا فإن الشخص الذي قاله كان جاهلًا بقدرة الله ومعترفًا بأنه عبد الله، وهو الذي يتصرف فيه.

وفي الفصل (٢٧) رقم (٧ و٨) فتشاوروا واشتروا بها أرض الخازف لإحراق جثث الغرباء فيها، ولذلك سميت تلك الأرض أرض الدم إلى هذا اليوم، ومن هذا نفهم أن الإنجيل لم يكتب في زمان المسيح وإنما كتب بعده بزمان طويل من الحكايات التي كانت عالقة بأذهان الناس.

وفي رقم (٤٦) (أن المسيح بزعمهم صاح بأعلى صوته وهو على الصليب يا إلهي يا إلهي لما أسلمتني) وهذا من أعظم الأدلة على أن الذي قال هذا الكلام ليس من المؤمنين بالله فضلًا عن أن يكون من أنبياء الله، لأن الله لا يخلف وعده، وأنبياؤه لا يشكون في وعده.

وفي إنجيل يوحنا الفصل (١٤) رقم (١٥ و١٦) (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد).

قال علماء الإسلام: وهذا المعزي الآخر هو محمد رسول الله، وبقاؤه إلى الأبد معناه: بقاء شريعته والكتاب الذي أنزل عليه.

وفي الفصل (١٥) رقم (٢٦ و٢٧) ما نصه: (ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضًا لأنكم معي من الابتداء).

وفي الفصل (١٦) رقم (٥ إلى ٨) (وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي؟ لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم، لكوني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية على بردينونة).

ومن (١٢ إلى ١٤) (أن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم). و(١٦) (بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضًا ترونني، لأني ذاهب إلى الأب).

قال علماء الإسلام: وهذه الصفات التي ذكرها المسيح في الذي يأتي بعده لم تجتمع في شخص إلا في محمد رسول الله، وقد سمي هذا الشخص الذي بشر به المسيح في الإنجيل (يارقليطا)، وحذفها المترجمون المتأخرون، وأبدلوها تارة بروح الحق، وتارةً بالمعزي، وتارة بروح القدس، وهي كلمة يونانية، ومعناها الذي يحمد كثيرًا، وذلك ينطبق على لفظ محمد.

وفي الفصل (١٧) رقم (٣) (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله

الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته).

وفي إنجيل مرقس الفصل (١٢) رقم (٢٨ إلى ٣٠) وما بعده ما نصه: (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنًا سأله: أية وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك) هذه هي الوصية الأولى.

وفي رقم (٣٢) ما نصه: (فقال له الكاتب: جيد يا معلم قلت وقد نطقت بالحق، لأن الله واحد ولا إله غيره).

وفي رقم (٣٤) (قال يسوع: لست بعيدًا عن ملكوت الله) أقول: فقد شهد المسيح عليه السلام بأن الله إله واحد لا إله غيره وأن من وحده فهو قريب من ملكوت الله، إذن فيكون من أشرك به أو جعله ثالث ثلاثة بعيدًا عن ملكوت الله، ومن كان بعيدًا عن ملكوت الله فهو عدو الله.

وفي الفصل (١٦) رقم (١٢) (وأما ذلك اليوم، وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب) أقول: وقد تقدم مثل هذا من إنجيل متى، وهو عين ما نطق به القرآن في أن الساعة لا يعلمها إلا الله، وبذلك تثبت عبودية عيسى، وتستحيل إلهيته وتضمحل خرافة الأقانيم.

وفي (٢٠) رقم (١٦) من إنجيل يوحنا (قال لها يسوع: يا مريم، فالتفتت تلك، وقالت له: ربوني ـ ومعناه يا معلم ـ قال يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي، وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم، فجاءت مريم المجدلية، وأخبرت التلاميذ أنها رأت السيد، وأنه قال لها ذلك).

أقول: فقد شهد المسيح أن الله إلهه وإلههم، ولا فرق بينه وبينهم في العبودية، فمن زعم أن المسيح إله فقد كذب المسيح، وكذب جميع الأنبياء والمرسلين.

خاتمة
في الأدلة على أن قصة الصلب موضوعة

الدليل الأول: أن الإنجيل يشهد بأن عيسى كان معروفًا عندهم، وكان يخطب في المسجد الأقصى الذي كانوا يسمونه بهيكل سليمان، فلا حاجة أن يستأجر اليهود من يدلهم عليه بثلاثين درهمًا.

الدليل الثاني: أنهم حكوا أن التلميذ الثاني عشر يهوذا (الأسخريوطي) أخذ من اليهود ثلاثين درهمًا على أن يدلهم عليه، فلما دلهم عليه وقضوا عليه، رد لهم الدراهم وندم، وتبرأ من علمهم، وخنق نفسه، كل هذا وقع في أقل من أربع وعشرين ساعة، وفيه متناقضات لا تخفى.

الدليل الثالث: وهو أعظمها، بل هو وحده كاف في بطلان هذه القصة، وذلك أنه عندما حكم عليه اليهود بالقتل، وأرادوا موافقة الحاكم - بيلاطس - وبعثوه إليه، ففي الفصل (٢٧) من إنجيل متى رقم (١١) أن الحاكم سأله فقال له: هل أنت ملك اليهود؟ فقال له: أنت تقول، ولما اشتكاه رؤساء اليهود ورجال الدين عندهم بأنه كفر، وقال في الدين ما استوجب به القتل، سأله - بيلاطس - ألا تسمع إلى ما يقولون وما يشهدون به عليك فأبى أن يتكلم أو ينطق ولو بكلمة واحدة.

فسيأوِّل ذلك النصارى على أنه كان يريد الصلب لأجل فداء الناس ومغفرة ذنوبهم؛ إذن فلماذا سأل الله أن يصرف عنه تلك الكأس، يعني القتل؟! ولماذا صاح وهو على الصليب يا إلهي لماذا غدرتني؟! كيف يسكت عن بيان الحق، ولو لم تكن فيه تبرئة نفسه وأتباعه وتبرئة الحق، وهو الفصيح اللسان الذي كان يخطب الخطب الطويلة، ويملؤها تقريعًا وتوبيخًا لعلماء اليهود؟! لا يستطيع عاقل أن يصدق ذلك، وإذا بطلت قصة الصلب والفداء انهدم جميع ما يبني عليه النصارى عقيدتهم من الأساس.

تعصب النصارى
وعدوانهم على المسلمين

ذكرني ما قرأته في صحيفة ـ الميثاق ـ الغراء من تعصب النصارى وتعسفهم، ونظرهم للإسلام بعين حولاء تعكس المرئيات، وتقلبها رأسًا على عقب، ذكرني بما حصل لي من ذلك، فمن ذلك أني كنت في الهند أستاذًا في كلية (ندوة العلماء) بدعوة من السيد سليمان الندوي والدكتور عبد العلي ـ رحمهما الله ـ ورأيت أنه لابد لي من تعلم لغة أجنبية، إذ لا تتم الثقافة في هذا العصر بدون تلك، واللغة السائدة في الهند هي ـ الإنكليزية ـ فبدأت أتعلم اللغة الإنكليزية من تلاميذي وغيرهم، فظهر لي ـ وأنا بعد في البداية ـ أن لغة أهل الهند ـ الإنكليزية ـ لا تتفق مع نطق الإنجليزية وفصاحتهم، فذهبت إلى إرسالية نصرانية صاحبها كندي، والتمست منه أن يعطيني دروسًا في اللغة الإنكليزية وأدفع له الأجرة، فقال لي: أنا لا آخذ أجرة، ولكن إذا التزمت أن تحضر مجالس الوعظ التي ألقيتها في الإرسالية تتقدم في اللغة الإنكليزية، فقلت له: أنا لا أزال بعد مبتدئًا لا أفهم الوعظ، فقال لي: احضر وأنا أعطيك ثلاثة دروس في كل أسبوع، مدة الدرس الواحد نصف ساعة، فالتزمت الحضور، وكان رجلاً كهلًا قد تجاوز الخمسين، وليس عنده نشاط ولا تحمس للدعوة، وإنما يسعى للمعيشة، فلم يستجب له إلا قليل، ولم يكن يحضر دروس وعظه إلا ثلاثة أشخاص وزوجته الرابعة فصرت أنا الخامس، فلما كان رأس السنة الميلادية وما يسمونه ـ عيد الميلاد ـ نشر إعلانات في الصحف، وأنه سيعرض قصة حياة عيسى ابن مريم وسيرته بالفانوس السحري، فحضر كثير من الناس حتى امتلأت الإرسالية، ودعا قسيسًا آخر يساعده في الوعظ، فكانا يتعاقبان على منصة الوعظ، وشرح الصور حتى انتهى الاحتفال، فهجم عليَّ القسيس الآخر، وهو شاب من الولايات المتحدة الأمريكية اسمه (سميث)، وكان ذلك سنة ١٣٤٩هـ، الموافق ١٩٣٠م.

فقال لي (سميث): أنت مسلم؟ قلت: نعم، فقال لي: إن محمدًا لم يكن يعرف التاريخ، فقلت له: وكيف عرفت ذلك؟ فقال لي: إنه قال في القرآن في [سورة مريم: ٢٨] ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ فقلت له: أنت لا تبلغ في العلم بمكايد النصارى ولا في عداوة الإسلام مثل ما بلغ (جورج سيل) أول من ترجم القرآن الكريم بالإنجليزية، وقد قال في حاشية ترجمته لهذه الآية: إنَّ ما يعترض به أصحابنا النصارى على ما جاء به في هذه الآية ساقط، لأنه لم يفسر أحد من المسلمين (هارون) المذكور هنا بأنه أخو موسى، حتى يقال: إن بين زمان موسى وأخيه هارون، وزمان عيسى أمه قرونًا كثيرة، قال: إن السيد أحمد مؤسس جامعة ـ عليكر الإسلامية ـ سلم هذا الاعتراض، فقلت له: أنا لا أعترف بالسيد أحمد خان، ولا أعرفه، وقد سمعت الجواب على لسان أحد أسلافك في عداوة الإسلام، فما بقي لك كلام.

فقال لي: وفي القرآن تناقض، فإنه يقول في سورة [المائدة: ٤٧] ﴿ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾، ويقول في سورة [آل عمران: ٨٥] ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ فكيف نستطيع أن نعمل بهما جميعًا، ففكرت قليلاً ثم قلت بإلهام من الله تعالى: قبل أن نجيب عن هذا الاعتراض يجب علينا أن نفكر في الخصومة التي كانت بين النبي ﷺ وبين النصارى، وفي أي شيء كانت؟ فقال لي: قل أنت، فقلت: كانت في عيسى ابن مريم، فإن نصارى نجران جاءوا إلى النبي ﷺ واتهموه بأنه تنقص صاحبهم، فقال: «ومن صاحبكم؟» قالوا: عيسى ابن مريم، قال: «وما تنقصي له؟» قالوا: نفيت أن يكون ابن الله، وقلت: إنه بشر كسائر البشر فناظرهم في ذلك، وأقام عليهم الحجة، فعاندوا[1]

(١) ذكر القصة المناوي في الفتح السماوي (٢/ ٥٤٣-٥٤٤ رقم ٤٢٤) والزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٣٦٩ رقم ٣٨٧) وجاء فيهما: عزاه الواحدي في أسباب النزول إلى الكلبي.

وأنزل الله تعالى في شأن عيسى في سورة [آل عمران:٥٩، ٦٠] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

فلما أصروا على العناد وزعموا أنه ابن الله وأنه ثالث ثلاثة أمره الله بمباهلتهم، فلما خرج لمباهلتهم خافوا أن يباهلوه وتصالحوا معه(١)، ففي هذه الخصومة قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [مريم: ٤٧]، وقصة مجيء وفد نجران إلى النبي ﷺ وصلاتهم النصرانية في مسجده بإذن منه عليه الصلاة والسلام مذكورة في كتب الحديث وكتب السير(٢)، فقال (سميث): ولكن الأناجيل تدل على أنه ابن الله، وأنه ثالث ثلاثة، فقلت له: أنا ما قرأت الإنجيل، ولكني أعتقد جازمًا أن الإنجيل حق وأنه من الله، وما كان من الله لا يختلف، فلابد أن يكون موافقًا للقرآن في توحيد الله، وعبوديته عيسى ابن مريم، فقال لي: هذا شأنكم يمنعكم التعصب عن قراءة التوراة والإنجيل، وأما أنا فإن القرآن عندي بثلاث لغات، فقلت له: أما الإنجيل بالعربية فلغته ركيكة لا تفهم، وأما بالإنكليزية فأنا أدرسها لأقرأه بها، فقال لي: عدني أن تقرأه وأنا أطلب لك نسخة من لندن تصلك بعد شهر

---

(١) خبر مباهلة رسول الله ﷺ لوفد نجران أخرجه الحاكم (٢/ ٦٤٩ رقم ٤١٥٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وانظر: الإصابة (٣/ ٢٣٦) والطبقات الكبرى (١/ ٣٥٧).

(٢) قال ابن إسحاق: قد وفد نصارى نجران ستون راكبًا، منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، وثلاثة منهم يؤول إليهم أمرهم، وهم العاقب والسيد وأبو حارثة أحد بني بكر ابن وائل أسقفهم وصاحب مدراسهم، ولما دخلوا المسجد النبوي دخلوا في تجمل وثياب حسان، وقد حانت صلاة العصر، فقاموا يصلون إلى المشرق، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» وكان المتكلم أبا حارثة والسيد والعاقب، وسألوه أن يرسل معهم أمينًا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح. وكان أبو حارثة يعرف أمر رسول الله ﷺ ولكن صده الشرف والجاه من اتباع الحق. انظر: عمدة القاري (١٦/ ٢٣٩) والإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٥٨٥) والطبقات الكبرى (١/ ٣٥٧).

فوعدته، فلما وصلته النسخة كتب إلي معها كتابًا بالإنجليزية جاء فيه: أسأل الله أن يعطيك في هذا الكتاب بركات كثيرة، فأخذت في قراءته واستخرجت الكلمات التي لم أفهمها من المعاجم، ثم قرأته المرة الثالثة، وذكرت تلك المسائل في جزء سميته (حواش شتى على إنجيل متى) ونشرت هذا الجزء في مجلة الشبان المسلمين التي تصدر في البصرة، كان يصدرها صديقنا الحاج طه الفياض ـ رحمة الله عليه ـ ولما أخبرت بهذه الحواشي الأمير شكيب أرسلان ـ رحمه الله ـ سألني عنها فقلت: ضاعت في المطبعة فتأسف كثيرًا على ضياعها وأنا الآن مستعد أن أؤلف حواشي مثلها أو أحسن منها، ولكن الكثير من إخواننا المسلمين لا يهتمون بالدفاع عن دينهم، ولا يعينون من أراد أن يدافع عنه بل يخذلونه، ففي مثلهم ينشد:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا[١]

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا[٢]

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانًا

فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانا وركبانا[٣]

ولما وصلني الكتاب أجبت (سميث) بالشكر، فلما قرأته وفهمت معناه كتبت إليه كتابًا آخر، وقلت له فيه: إن الله قد استجاب دعاءك وأعطاني في هذا الكتاب بركات كثيرة؛ ولكنها تخالف ما عندك وتبطله، فقد قلت لي في أثناء المناظرة: كذا وكذا

---

(١) ذكر هذا البيت الزرقاني في شرح الموطأ (٣/ ٢٩) وابن منظور في لسان العرب (٧/ ٣٩٣)، بينما ذكر صدر البيت كل من ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٣٨) والشوكاني في نيل الأوطار (٨/ ٩٤).

(٢) ذكر هذين البيتين مع تقديم البيت الثاني على الأول أبو الحسن الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ١٠٤) وذكر ابن قدامة في المغني (٧/ ٣٤٣) البيت الأول.

(٣) ذكر هذا البيت الأخير ابن منظور في لسان العرب (١/ ٤٢٩) ونسبه إلى العنبري.

ووجدت في الكتاب في الفصل الفلاني برقم كذا وكذا أنما قلت غير صحيح، وأن الإنجيل يدل كما يدل القرآن على توحيد الله تعالى وبشرية عيسى وعبوديته دلالة في غاية الوضوح في مواضع كثيرة عددت له منها سبعة، فكان ذلك آخر العهد به.

وأشهد لهذا القسيس الشاب أنه كان مخلصًا لدعوته متحمسًا غاية التحمس، وكنت كلما قلت له: إن هذا يخالف العقل، يقول لي: إن العقل ناقص وكلام الله كامل، والله يعلم ما لا نعلم، وزرته مرة في إرساليته قبل أن يصلني الكتاب فوجدته لا يأكل اللحم لا في الخلوة ولا أمام الناس، فكان يأمر طباخه أن يصنع له طعامًا نباتيًّا، ويصنع لزوجته وابنه أطعمة اللحوم، فقلت له في ذلك، فقال لي: إن هؤلاء الوثنيين الذين أدعوهم إلى الدخول في النصرانية يكرهون أكل اللحوم كراهة شديدة، فأنا أتألفهم، وقد تركت أكل اللحم لأجل المسيح، فقلت له: ولكنهم لا يرونك في دارك، فقال: ولكن لا أستطيع أن أكذبهم، فأدعي أني لا آكل اللحم وأنا آكله.

ولذلك أثرت دعوته فيهم، فرأيت معه ثلاثين رجلًا بنسائهم وأطفالهم يأتمرون بأمره، أمرهم أن يبنوا بيعة فبنوها بأيديهم مع شدة فقرهم، بخلاف ذلك القسيس الذي كان يعلمني الأنكليزية في مدينة لكناؤ، فإنه لم يؤمن له أحد، لأنه هو نفسه لم يكن مؤمنًا، والإخلاص سر النجاح ولو في الباطل، ومن جملة ما يغالط به دعاة النصرانية في هذا الزمان أنهم يقولون لشبان المسلمين الأغمار: إن القرآن ضمن لنا النصر والعزة، ففي سورة [آل عمران: ٥٥] ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. فقد أخبرني شاب مغربي أن قسيسًا في الرباط عنده غرف مؤثثة يسكن فيها الشبان المغاربة مجانًا، ليجذبهم إليه، ويفتنهم في دينهم، وقد قال لهم: إذا رأيتم النصارى أعزة أغنياء أقوياء سعداء غالبين في كل مكان، فلا تستغربوا ذلك، فإن القرآن وعدهم بذلك، وذكر لهم الآية السابقة الذكر، فصدقوه، ولم يوجد

فيهم أحد يعرف معنى الآية.

فقلت له: لقد كذبكم وخدعكم، فلو كان الأمر كما يقول لانتصر النصارى من أهل نجران، وكان عندهم مائة وعشرون ألف مقاتل، ففضلوا مصالحة النبي ﷺ ودفع الجزية، ولو كان ما يقول حقًا ما انتصر النبي ﷺ في غزوة تبوك وخافه الروم وجبنوا عن قتاله. ولو كان ما يقول حقًا ما انهزم الروم البيزنطيون من بلاد الشام التي يسمونها سورية، وتركوها بعدما حكموها دهرًا طويلاً.

ولو كان ما يقول حقًا ما انتصر أصحاب رسول الله ﷺ على أهل مصر وكانوا نصارى. ولو كان ما يقول حقًا ما انتصر المغاربة على أهل أسبانيا وجنوب فرنسا وحكموا أسبانيا بمشاركة العرب ثمانمائة سنة.

ولو كان ما يقول حقًا ما انهزم النصارى في معارك القسطنطينية وفتحها المسلمون، ولا تزال بأيدي أبنائهم إلى يومنا هذا، ومعنى الآية ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ ﴾ وهم المسلمون الموحدون لله الذين يؤمنون بجميع رسل الله وبجميع كتب الله فوقَ الذين كفروا، وهم الذين لا يؤمنون بالله أو لا يوحدونه أو يكفرون ببعض الكتب أو ببعض الرسل، فالآية حجة للمسلمين في هذا الزمان لا لأعدائهم، فتعجب ذلك الشاب، وكان في غمرة فانجلت عنه وأكثر المسلمين في هذا الزمان ينشدون بلسان حالهم:

زعم العواذل إنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

والعجيب من النصارى إذا نظروا في القرآن لا ينظرون بقصد معرفة الحق البتة، بل ينظرون فيه بقصد البحث عن العيوب بزعمهم، فيقولون ـ مثلاً ـ: من أين جاء محمد بهذه القصة؟ فلا يزالون ينقبون، فإن وجدوا قصة مشابهة لها في التوراة أو في الإنجيل أو في التلمود فرحوا فرحًا عظيمًا، وظنوا أنهم ظفروا بضالتهم المنشودة، وجزموا أنها مأخوذة من ذلك المصدر، ولا يبالون بالمخالفات الكثيرة التي تكون

بين القصتين أو بين الشريعتين.

فمن ذلك ـ مثلاً ـ قصة نوح، فإنهم يجزمون أن القرآن أخذها من التوراة، مع أنه في زمان نزولها لم يكن في مكة يهودي واحد، والأشخاص الذين كانوا يعرفون الكتابة والقراءة كان عددهم قليلاً جدًّا، ولم يكن بينهم وبين النبي ﷺ إلا العداوة والبغضاء، ولم يكن النبي ﷺ يعرف قراءة ولا كتابة. وكان أعداؤه له بالمرصاد فلو رأوا قارئًا يتردد عليه أو رأوه يتردد على قارئ لشنعوا عليه.

وقصة نوح في التوراة محكية بأسلوب تفصيلي، وصفت فيه السفينة طولها وعرضها وارتفاعها، وقد اتخذ الملاحدة ذلك ذريعة إلى الطعن في التوراة، وقالوا: إن سفينة بتلك الصورة لا يمكن أن تستقر في البحر دقيقة واحدة، وحكاية القرآن للقصة لم يستطيعوا أن يوردوا عليها شيئًا من ذلك.

وهكذا اتخذوا ما في التوراة من وصف أجزاء الأرض وجغرافيتها ذريعة إلى الطعن في صحتها، ولم يجدوا في القرآن شيئًا يجعلونه هدفًا لتعنتهم، ثم إنك تقرأ القصة في القرآن، وتقرأ مثيلتها في التوراة، فتجد البون بينهما شاسعًا، تجد أسلوب القصة في القرآن أسلوبًا ربانيًّا جذابًا تتخلله المواعظ والإنذار والبشارة بعيدًا عن أساليب كلام البشر، وتجدها في التوراة بخلاف ذلك.

وإذا لم يجدوا للقصة القرآنية أثرًا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في التلمود كقصة لقمان قالوا: هذا من أساطير العرب وخرافاتهم.

أما إذا جاءوا إلى التوراة والإنجيل فإنهم يكتبون عليها بماء الذهب (الكتاب المقدس) حتى يجعلوا قارئها أمام الأمر الواقع، ولكن ذلك كله لا يروج على أعداء الكنيسة فإنهم ينتقدون كتب اليهود والنصارى انتقادًا مرًّا.

كنت في جامعة (بن) طالبًا ومحاضرًا، وكان هنالك طالب يسمى (يعقوبي) (يكوبي) وكان نصف يهودي، وهذا اصطلاح هتلري يطلق على من كان أحد أبويه

يهوديًّا والثاني ألمانيًّا، وكان لأنصاف اليهود في وقت تضييق الخناق على اليهود من الحرية ما لم يكن لليهود فكانت الأحكام المفروضة على اليهود.

ومنها: عدم الدراسة في المدارس الألمانية لا يجب تطبيقها عليهم، إلا أن معظم مديري المدارس كانوا يطبقونها عليهم بغضًا واحتقارًا لا قانونًا، والمتساهلون منهم يقبلونهم، وكان رئيس القسم الشرقي من جامعة (بن) من المتساهلين، ولم أبدأ بالعداوة هذا الشخص فكنت أسمح له أن يحضر دروسي العربية والإسلامية، ولكنه هو بدأ بالعداوة لا لشيء إلا لكوني عربيًّا، وكان مدير القسم بالنيابة أستاذًا كاثوليكيًّا اسمه (هفنينك)، وكان يبغضني لأمرين:

أحدهما: أننا اختلفنا على غرفة الدراسة، فحكم لي المدير السابق عليه، فأسرها في نفسه.

والثاني: أنه هو أستاذ العبرانية، ولكن الطالب يعقوبي هو أستاذه، لأنه كان يعرف العبرانية أحسن منه، لأنه نصف يهودي.

وهناك أمر ثالث: وهو أن الكاثوليكيين في زمان حكم الناتي كانوا متضامنين مع اليهود، فأحس يعقوبي بأنه قادر على أن يؤذيني فأخذ يؤذيني، ومن جملة ذلك أننا كنا يومًا نطالع في قسم خزانة الكتب فقام يعقوبي، وأخذ القرآن ووضعه على منضدة وقال للحاضرين: انظروا هذا كلام الله. وأخذ يضحك ليضحكوا معه، فلم يستفز أحد منهم ولم يضحك معه أحد.

قمت أنا، وأخذت مجموعة التوراة والإنجيل، وقد كتب عليها باللغة الألمانية ما معناه (الكتاب المقدس) أما القرآن فكان مكتوبًا عليه (القرآن لمحمد)، ووضعت مجموعة التوراة والإنجيل إلى جانب القرآن، ثم التفت إليه، وقلت: أيها اليهودي إن كان هذا كلام الله ـ وأشرت إلى التوراة والإنجيل ـ فهذا أيضًا كلام الله ـ وأشرت إلى القرآن ـ ونحن لسنا أطفالاً ولا عوام جهالاً، فنحن طلاب في الجامعات، نتعلم

طرق البحث والتحقيق، فهذان الكتابان جاء بهما رجلان من البشر، وهذا كذلك، فلماذا يجب أن يكون هذان الكتابان مقطوعًا بأنهما كلام الله، وهذا الكتاب يكون مقطوعًا بأنه كذب على الله، والصورة التي جاءتنا بها الكتب واحدة، فهذا منطق عجائز، فقال لي يعقوبي: أعرف ما تقول، أنا نصراني (بروتستانتي) ولست يهوديًّا بأي وجه من الوجوه، إن القانون سيعاقبك على هذه التهمة، فقلت له: إن لم تكن أنت يهوديًّا فأنا يهودي، فضحك الحاضرون، ولم ينجح في إضحاكهم علي؛ بل دارت عليه الدائرة، وقد انتقم الله منهم من هفنينك شر انتقام، وكان يسكن في كولونيا، فنزلت علي بيته قنبلة من قنابل الأنكليز وهدمته عليه ومات أهل الدار كلهم، وإذا قلنا الدار في المدن الكبرى، فكما نقول قرية في بلادنا، فإن سكانها يعدون بالمئات.

ومن جملة عدوانه عليّ أنه حين تولى إدارة القسم رفض رسالة الدكتوراة التي اقترحها عليّ سلفه، واشتغلت فيها أكثر من سنة تحت إرشاده، فجاء هفنينك، وادعى أن موضوع الرسالة قد ألف فيه عالم إنكليزي في كيمبرج، فقلت له: ليس لي علم بتأليف ذلك الإنكليزي، ولم يؤلفه باللغة الألمانية التي ألفت أنا كتابي بها، وكل أساتذة القسم الشرقي أنكروا عليه ذلك، وبينما أنا كذلك إذ جاءتني دعوة من الإذاعة الألمانية في (برلين) بواسطة مدير إذاعة كولونا للاستشارة في تأسيس إذاعة عربية ألمانية، فنقلت إلى برلين طالبًا ومحاضرًا ومصححًا للإذاعة، أو مراجعًا لغويًّا ـ كما يسمى بالألمانية ـ وأتممت دراستي على يد الأستاذ هارتمن، وكفاني الله شر هفنينك وصاحبه يعقوبي. فهذا من تعصب أهل الأديان بعضهم على بعض، ولا تزال عندي أحاديث منه طريفة.

ومنها أنه جاءني أحد الإخوان الشباب، الذين يحضرون دروس وعظي، وهو مهندس في مديرية الأوقاف ببغداد ـ أظن أن اسمه تحسين ـ واسم أبيه عبد القادر

بيقين، وكان سنة ٥٥ أو ١٩٥٦م ـ على حسب التقدير والظن ـ وقال لي: إن والده موظف في دائرة من دوائر الحكومة، ومعه نصراني في تلك الدائرة، فكان دائمًا يطعن في الإسلام ليغيظ عبد القادر، وفي يوم من الأيام قال له: ما رأيت طائفة أقل عقلاً منكم معشر المسلمين، قال له: وكيف ذلك؟ فقال: أنتم تزعمون أن المسيح لم يقتله اليهود، واليهود مجمعون على أنهم قتلوه، ونحن معاشر النصارى على اختلاف طوائفنا مجمعون على ذلك، وجميع الطوائف في الدنيا يسلمون هذا ويعتقدونه، لأنه خبر متواتر وأنتم تجحدونه، فأنتم كالذي ينطح الجدار برأسه، فلم يجد أبو تحسين ما يجيبه به، ورجع إلى بيته حزينًا مغمومًا، ولما قدم له العشاء امتنع من الأكل، وحكى لأهل بيته الحكاية، فالتمس مني تحسين أن أعطيه دليلاً على كذب النصارى واليهود وصدق المسلمين من الإنجيل، الذي يزعمون أنهم يؤمنون به، فأجبته بالمسائل التالية:

ففي إنجيل متى الفصل (٢٦ و٢٧) أن أحبار اليهود حكموا على عيسى ابن مريم بأنه كفر، وهو يستحق القتل في شريعة التوراة، وحكايتهم لقصة قتله تشهد على دعواهم بالبطلان، ويتلخص ذلك في مسائل يجب على النصراني الطاعن في الإسلام أن يجيب عنها:

١- هل كان الذين قبضوا على عيسى ـ بزعمكم ـ يعرفون شخصه أو لا يعرفونه؟ إنجيل متى يشهد بأنهم لم يكونوا يعرفونه.

٢- هل كان ذلك ليلاً أو نهارًا؟ يقول إنجيل متى إنه كان ليلاً.

٣- من هو الذي دلهم عليه؟ يقول إنجيل متى: إنه تلميذه الثاني عشر (يهوذ الأسخريوطي).

٤- هل دلهم على ذلك مجانًا أو بجعل جعلوه له؟ يقول إنجيل متى: إنه دلهم عليه بجعل جعلوه له، ومقداره ثلاثون درهمًا من الفضة.

٥- كيف كانت حال المسيح في تلك الليلة؟ يقول إنجيل متى: إنه كان مضطربًا خائفًا، يدعو الله ويقول في دعائه: اللهم إن كنت تقدر أن تصرف عني هذه الكأس فاصرفها، وهذا مستحيل أن يقوله مؤمن بالله، فضلاً عن نبي الله، لأن المؤمنين يعتقدون أن الله على كل شيء قدير.

٦- كيف كانت حال تلاميذه الأحد عشر؟ يقول إنجيل متى: إن النوم غلبهم في تلك الليلة مع ما كان فيه أستاذهم بزعمكم من الفزع.

٧- هل كان عيسى عليه السلام راضيًا عن حالهم؟ يقول إنجيل متى: إنه لم يكن راضيًا، وكان يجيء إليهم فيوقظهم، ويقول: قوموا ادعوا الله، واسألوه العافية من البلاء والفتن، ثم يجيء مرة أخرى فيجدهم نائمين فيوقظهم، ويقول لهم مثل ذلك، وهذه الصفة لا تنطبق على التلاميذ الأبرار، وإن كانوا تلاميذ عالم من العلماء الصالحين فكيف بتلاميذ المسيح عليه السلام؟

٨- هل نصروه حين قبض الأوباش عليه؟ يقول إنجيل متى: إنهم خذلوه وهربوا.

٩- هل كان عيسى يحسن الظن بتلاميذه في تلك الليلة؟ يقول إنجيل متى: إنه أخبرهم أنهم سيخذلونه، ولما قال له أحدهم ـ وهو بطرس ـ: أنا لا أتبرأ منك ولو اضطررت أن أموت، قال له المسيح: إنك ستتبرأ مني قبل أن يصيح الديك في هذه الليلة ثلاث مرات، قال إنجيل متى: وكذلك وقع.

١٠- كيف أخذه أولئك الأوباش؟ يقول إنجيل متى: إنهم جاءوه بسيوف وعصي، وبعدما دلهم عليه يهوذا الأسخريوطي قبضوا عليه، وأخذوه إلى رئيس الأحبار، فحكم عليه بالموت ووافقه أحبار اليهود فأخذه الأوباش، وبصقوا في وجهه، ولكموه، وبعد ذلك جردوه من ثيابه، وألبسوه ثوبًا أحمر، ووضعوا على رأسه أكليلاً من شوك، وأخذوا يستهزئون به، وقالوا له: أنت ملك إسرائيل

بزعمك. وأهانوه أشد الإهانة.

١١- من الذي بت في حكم قتله؟ يقول إنجيل متى: إنه بلاطوس اليوناني الرومي، الذي كان حاكمًا على فلسطين في ذلك الزمان.

١٢- لما جاء الأوباش إلى الحاكم بذلك الرجل، وأخبروه بأن أحبار اليهود حكموا عليه حكم التوراة بالقتل مصلوبًا، هل صدقهم في قولهم بدون بحث؟ يقول إنجيل متى: إنه لم يصدقهم بل سأل ذلك الرجل: أصحيح ما يقول هؤلاء؟ فسكت ولم يجب بشيء، وكرر عليه السؤال فاستمر على الصمت، وسكت عن قول الحق، وكان الواجب عليه ـ ولو لم يكن نبيًا ولا رسولاً ـ أن يصرح بالحق وينفي ما زعمه اليهود، وأرسلت زوجته إليه وقالت: إياك أن توافقهم على قتل ذلك الرجل الصالح، فإني تألمت اليوم في حلم بسببه، وقد قال الإنجيل: إنه كان يخطب في جموع اليهود الخطب الطويلة، ويقرعهم ويوبخهم توبيخًا يبلغ حد الشتم والقذف، فما باله يسكت اليوم، وقد سأله الحاكم وهو يريد نصرة الحق.

١٣- كيف كان صلب بزعمهم؟ يقول إنجيل متى: إنهم صلبوه بين لصين، وكانا يشتمانه، ويقولان له: إن كنت صادقًا فخلص نفسك.

١٤- وهي الطامة الكبرى، ماذا قال وهو مصلوب بزعمكم؟ يقول إنجيل متى: إنهم سمعوه يقول بصوت عال: «إيلي إيلي لما شبقتني» وهذا اللفظ سرياني ومعناه: إلهي إلهي لماذا خذلتني، وهذا كفر بإجماع أهل الملل، ومن نسبه إلى نبي فهو كافر بجميع الأديان السماوية.

فذهب تحسين إلى أبيه وسلم له الأسئلة، وقال له: يقول لك الدكتور الهلالي ـ أستاذنا ـ قل له: إن كنت صادقًا فيما تدعي فأجب عن هذه الأسئلة جوابًا يقبله العقل، ويرضاه المنصفون، وإن كنت تريد مناظرة أطول من هذا فهلم إليه، فأخذ أبو تحسين الأسئلة بعدما قرأها هو وابنه مراراً فرحًا مسرورًا، وذهب إلى النصراني

وناوله إياها، فلما قرأها سقط في يده وأظهر الندم، ووعد عبد القادر أنه لن يعود إلى الطعن في الإسلام أبدًا.

هذا ما علق ببالي مما كنت قرأته في إنجيل متى منذ زمان طويل. والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وعلى جميع من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرسالة العشرون:

العطار والقاسم

في

الميزان

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ صدق الله العظيم

تأليف

فضيلة الشيخ علي الحمد الصالحي

رحمه الله

١٣٣٣ـ ١٤١٥هـ

قدم له

فضيلة الشيخ/ عبد الله بن حميد

رحمه الله

تقديم

الحمد لله وحده: اطلعت على هذه الرسالة لعلي الحمد الصالحي في الرد على (عبد الرحمن القاسم) المتضمنة لوجوب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونبذ القوانين الوضعية، وأن الخلق لا غناء لهم البتة عن الشريعة الإسلامية الكاملة في مصادرها ومواردها.

وما قاله هو الحق الذي لا مرية فيه، بارك الله فيه وفي علومه.

أملاه الفقير إلى الله عز شأنه

عبد الله بن محمد بن حميد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما يستحق أن يحمد. وأصلي وأسلم على نبيه وخاتم رسله محمد، وعلى آله وأصحابه ومن بشرعه تعبد.

وبعد: فقد أتيح لي قراءة الأعداد التي كتب فيها الأستاذ (أحمد عبد الغفور العطار) في جريدة الندوة عدد ١٦٨٢ وتاريخ ٧/ ٤/ ١٣٨٤، وعدد ١٦٨٤ وتاريخ ٩/ ٤/ ١٣٨٤، وعدد ١٦٨٥ وتاريخ ١٠/ ٤/ ١٣٨٤ حول نظام العمل والعمال.

وبينما أنا أنتظر نشر بقية هذا البحث فوجئت بنشر الصحيفة ردًّا على الأستاذ العطار بقلم (عبد الرحمن القاسم) ليسانس حقوق في عدد ١٦٩٠ وتاريخ ١٦/ ٤/ ١٣٨٤.

فرأيت الكتابة حول ما طرقاه من البحوث والوقوف في جانب الحق جهاداً في سبيل الله ضد المعتدين، وبياناً لمن يهمه الأمر، وسأحاول الاختصار وعدم التكرار إلا ما رأيت الضرورة داعية إليه. حيث إن القاسم كرر في مواضع سأضطر إلى مناقشتها بالدليل والتعليل.

مع العلم أني لم أحاول مناقشة ما كتبه بكامله، لأن هذا شيء يحتاج إلى وقت طويل لكثرة الهفوات في مقاله في اللفظ والمعنى، فاقتصرت على ما رأيته ضرورياً في المعنى، وأما في اللفظ فهذا شيء يفهمه القراء إلا ندوراً للضرورة، وخاصة الأغلاط التي في الألفاظ القرآنية.

قال القاسم في بدء كلامه بعد تقديمه كلاماً معسولاً:

(إن رأي العطار قد يخالفه الكثيرون)

هذا الكلام من القاسم مجرد دعوى؛ ونحن نطالبه بواحد من هذه الكثرة يكون محسوباً من أهل العلم الصحيح، وأظنه لو عرف واحداً لصرح به، ولٰكنه ظن الجو خالياً فجازف بدعواه، وقال ما قال مقابل قول العطار (إن نظام التعويض مخالف لصريح نصوص الشريعة الإسلامية وهدم لأحكامها) ولو كان عند القاسم علم يعتد

به في هذا الميدان لنقض ما يدعيه العطار بالدليل، ولكنه فارغ من العلم فجاء بفارغ. وقديماً قيل: (فاقد الشيء لا يعطيه) ثم قال القاسم: (ولما كنا في مطلع نهضة تنظيمية، **ونتنظر من دولتنا الفتية خطوات إيجابية في مجال التنظيم والتشريع**) الخ كلامه.

ذكر في هذا الكلام: أن الدولة في نظره مطالبة بالعمل إيجابياً على التنظيم والتشريع، لتحدد الحقوق والواجبات، وتفرض العقوبات، وفي هذا الكلام إجمال لا يوافق عليه، إذ إنه يقصد كما صرح به فيما يأتي التحليل والتحريم في المعاملات ولو خالف الشرع، وهذا شيء لا يرضاه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر. ولا صحة له: لأن الدولة لا ترضى بهذا السلوك، ومن يسمع كلامه يظن أن الدولة لم تكن عاملة بشيء مما ذكره إلا من جديد، والأمر بعكس ذلك.

والقاسم حين يقول: (ونتنظر من دولتنا) لا ندري ماذا ينتظر؟ أينتظر خروج الدولة عن الشريعة، وأن تأتي بأحكام جديدة وتشريعات مستوردة، أو ماذا يريد؟

وإذا تأولنا له من بعيد وفهمنا من كلامه أن الدولة تريد أن تطبق ما سارت عليه وسار عليه أسلافها وسابقوهم فهذا حسن، وهو ما يهدف إليه العطار، فلماذا يرد عليه؟

أما مصلحة العمل والعمال فقد لاحظ عليها العطار ملاحظات سديدة، وهي التي انتصب القاسم للرد عليها فلم يفلح.

والأمل في القائمين على المصلحة النظر فيما كتبه العطار بعين التقدير والاعتبار(١)، والعمل على إصلاح الخطأ، وهذا واجب لا محيد عنه، كما رسمه الله بقوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١].

---

(١) لم ينفرد العطار بالكتابة في هذا الشأن، بل إن إمام الحرم المكي فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله له كتابة رائعة قوية في تفنيد نظام العمل والعمال تدل على غيرته الدينية لما علم ما فيه من أغلاط وأخطاء شرعية، فلم يأل جهدًا أن وجه كلمة نصح وإرشاد وتوجيه للمسؤولين يبين فيها التناقضات والسلبيات في هذا النظام الدخيل على الشريعة الإسلامية، انظر في ذلك غير مأمور: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٢٣٣-٣١٣).

والقاسم أجمل في ذكره عن الحكومة فيما ينتظره من الإصلاح فيما سبق، فإذا كان يقصد الإصلاح العمراني والتنظيم فيه وفي وسائله فصحيح هذا، وإن كان يقصد الإصلاح في تغيير حكم الله في الأمور الشرعية في الحقوق والمعاملات فليس صحيحاً في الواقع، وليس لها هذا شرعاً.

ولا زالت الحكومة بفضل الله تناصر الحق وأهله، وتدافع عنه، وتعتز بالحكم بالشريعة وتحميها، وللحكومة الحق في مناقشته على فريته عليها، وليس علينا سوى البيان لما وقع في كلامه من التلبيس وتدنيس سمعة الحكومة، وقد حاول تغطية كلامه هذا بقوله: (**فمن واجبنا أن نكون عوناً للدولة في تنفيذ سياستها الإصلاحية**). ونحن نوافقه على هذا الشعور في حدود الشرع، ونرى ما دعا إليه العطار في مسائل خاصة في قسم خاص من أجهزة الحكومة إصلاحاً ونصحاً للدولة في الحقيقة.

والغريب أنه من يسمع كلام القاسم يظن أن العطار وقف في طريق الإصلاح، ولكن هناك من يفهم الحقائق فلا تروج عليه الأباطيل، وسنة الله أنه لا يضيع أجر المصلحين كالعطار.

ثم قال القاسم: (**لم يأت (أي العطار) بنص من الكتاب والسنة**).

إلى أن قال: (**وهي آراء فقهاء مجتهدين وجدوا في عصر فأوجدوا الحلول لمشاكل عصرهم بحسب متطلبات الأمة**). كلام القاسم هذا على عدة أمور:

الأول: الطعن في الدين بعدم الكمال.

الثاني: الطعن في النبي ﷺ بعدم البلاغ والبيان.

الثالث: الطعن في الفقهاء والحكام الذين عاصروهم بأنهم أوجد لهم الحلول طيلة القرون حتى ظهر الحق والعدل أواخر القرن الرابع عشر، فيلزم عليه تكذيب الرسول ﷺ فيما وصفهم به من العدالة كما يأتي.

الرابع: يلزم عليه إلغاء ما سبق من الأحكام الشرعية، وبالتالي الحكم على الشريعة المحمدية أنها ليست صالحة لكل زمان ومكان وغير ذلك من اللوازم

كتسفيه الفقهاء الذين هم كبار العلماء والحكام: مما سيتضح لك فيما يأتي.

والرد على هذا معلوم لك أيها القارئ، غير أننا مضطرون لذكر شيء من الأدلة.

أما بطلان الأول: فبقول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، حيث إنها نزلت في حجة الوداع على النبي ﷺ في عرفة يوم عرفة[١].

وبقول الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ثم قال بعدها: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩] أي ظلمات الجهل والشك والحيرة: والعياذ بالله. وبقول الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]. وبقول الله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٥-١١٦]، وقال بعدها بقليل: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال بعدها بقليل: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فالمؤمن بهذه الآيات تأبى نفسه أن ينطق بمثل ما نطق به القاسم.

وأما بطلان الثاني فبما ورد عن النبي ﷺ من قوله: «**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**»[٢]، وبما صح عنه في خطبته بعرفة في حجة الوداع وقوله للصحابة: «**ألا هل بلغت**»[٣]؟ فشهدوا له بذلك، وأشهد الله عليهم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥) ومسلم (رقم ٣٠١٧).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٥ رقم ٣٣١) وأبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (١/ ٣٦-٣٧) وابن ماجه (رقم ٤٣) والطبراني في معجمه الكبير (١٨/ ٢٤٧ رقم ٦١٩) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٧٣ رقم ٢٠١٧) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٤٨، ٤٩) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤٧ رقم ٩٣): رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد حسن.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٠٥) (رقم ١٦٧٩).

بذلك، وهذا أمر لا يرتاب فيه إلا جاهل أو مفتون.

وأما بطلان الثالث فبعدة أدلة.

منها: أن الله عدلهم وجعلهم من الشهود على وحدانيته بقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨] وغير ذلك من الثناء عليهم في مواضع كثيرة.

ومنها: أن الله أمرنا بالرجوع إليهم عند الجهل لما نزل بنا بقوله: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

ومنها: أن الله قال في معرض الثناء على هذه الأمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولا يعرف المعروف من المنكر إلا العلماء الفقهاء الذين يسفههم القاسم.

ومنها: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال في حقهم معدلا لهم بالنص: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له»[(١)] الخ الحديث.

ومنها: أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[(٢)]، وقال: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم»[(٣)] الحديث.

فإذا كان الله عدَّلهم، والرسول ﷺ عدَّلهم، والتاريخ يفوح عطراً بمآثرهم وفضائلهم، والأمم سعدت بالاتصال بهم، وهم الذين نقلوا لنا هذه العلوم الدينية من عقائد وعبادات ومعاملات وهم عدول كما عرفت.

أفليق بنا أن نقول: إنهم أوجدوا الحلول بحسب متطلبات العصر؟! وهل

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ٢٠٩ رقم ٢٠٧٠٠) والطبراني في مسند الشاميين (رقم ٥٩٩) وتمام في فوائده (رقم ٨٩٩) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ١١، ٢٩) وانظر: التمهيد (١/ ٥٩) وفيض القدير (٦/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧١) ومسلم (رقم ١٠٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٥٢) ومسلم (رقم ٢٥٣٣).

يصح هذا عبر القرون السالفة؟! ويلزم عليه مواطئة الحكام لهم على هذه الخيانة للأمة، ولٰكن ماذا نقول إزاء هذه المقالة السمجة الوبيئة.

ولو كان الأمر كما قال القاسم لكان الأمر أعظم وأعظم، ولٰكن كلامه فضحه، ونادى عليه أنه لا يعرف من العلم الصحيح شيئاً، وإنما عنده عبارات لقنها، ففاه بها تقليداً لغيره، أو أنها مقالة لغيره انتحلها مغروراً بنتائجها، فليته ستر نفسه(١).

وأما بطلان الرابع فأمر بديهي بالاستناد إلى كمال الدين ووصوله إلينا كاملاً غير منقوص، واتفاق القرون على ذلك إلا القاسم وأساتذته.

وأما طعنه على العطار فمردود بما دلل به العطار من الحديث والإجماع، وإذا كان القاسم طعن في شرع فاطر السموات وخاتم الرسل، وطعن في خيار الأمة فليس بغريب منه أن يطعن في العطار، فسبيل العطار سبيل الذين نصروا الحق وفدوه بالغالي والرخيص، وكفى به فخراً وشرفاً، كما قيل:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

والسفه والغرور والجهل في القاسم صفات ماثلة لكل ناقد، يدل على هذا أن المسائل التي أرشد إليها العطار مصلحة العمل والعمال ليست من متطلبات العصر، بل هي من الواقعيات في عهد الرسول ﷺ وعهد الأمة في عصورها، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «المعدن جبار»(٢) الخ الحديث.

فثبت أن هذا تشريع سماوي ومن أنكر شرع الله كفر، وسنطرق البحث عند تعرضه للحديث في عرض هذه الرسالة إن شاء الله.

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٨٧ رقم ٢١١): «إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا» قال السخاوي: يأتي فيمن أتى من هذه القاذورات شيئًا، فينبغي للعبد أن يتوب منها ولا يظهرها للناس، حيث سترها الله عليه، وهذا الحديث رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر وقال: إنه على شرطهما بلفظ: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألمَّ منها بشيء فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله» قاله ﷺ بعد أن رجم ماعزًا رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤٩٩) ومسلم (رقم ١٧١٠).

الفرية الكبرى

ننتقل بك أيها القارئ إلى الفرية الكبرى والداهية العظمى من كلام القاسم مقسماً للشريعة تقسيماً جائراً، غايته تقليد النصارى، قال: (**خصوصاً في مسائل المعاملات التي تتغير وتتطور زيادة ونقصاً**).

ثم قال: (**وذلك على خلاف العبادات والاعتقادات، فهي التي لا تقبل تعديلاً ولا تبديلاً**).

سبحان الله ما أعظم هذا الجهل، من أين للقاسم أنه يجوز التبديل والتغيير في المعاملات بتطور العصر والمدنية، لقد قال قولاً عظيماً، يدل على أنه جاهل بدينه لا يعرف عنه شيئاً، وإلا فكيف يقول مثل هذا، أو أنه مدفوع من جهات وأفراد مغرضة للدين والدنيا، والحدث التي أحدثه عظيم النكر، فهو ينظر إلى الشرع نظرة مزدرٍ، فيزعم أن الفقه الإسلامي مجرد آراء فقهاء مجتهدين، ويهدف من هذا الزعم الباطل أن يجعل الفقه الإسلامي المبني على الكتاب والسنة آراء يجوز عليها التغيير والتبديل، وما دام يجوز التصرف فيه فهو غير صالح لكل زمان ومكان، وما دام غير صالح فلابد من تركه ومن الاستبدال به ما يصلح بنسبة هذا الزمان الذي تطور فيه كل شيء.

وينظر إلى الشرع الحكيم أيضاً نظرة الشيوعيين والملحدين، وذلك أن الطعن في البعض طعن في الكل، لكنه أراد بعمله هذا الخطوة الأولى للتشكيك في الدين، فإذا كان مشكوكاً في قسم منه تطرق الشك إلى القسم الثاني ولابد، ولكن الله القوي العزيز سيكبته كما كبت من قبله ممن حاده، ويخزيه ومن ناصره.

وإنه لمن العجب أن يظهر بيننا من ينتقص الدين والفقه الإسلامي، ويحاول التغيير والتبديل في الوقت الذي قرر فيه مؤتمر باريس في ٧ يوليو ١٩٥١م أن الفقه الإسلامي ثروة تشريعية ضخمة لا يمارى فيها، وأن الفقه الإسلامي صالح لكل زمان ومكان، وأن الفقه الإسلامي مستجيب لكل عصر وكل مكان؛ لأنه فقه عظيم صالح.

هذا ما قرره من لا يدين بالإسلام عن الفقه الإسلامي في مؤتمر اشترك فيه

أقطاب العالم في القانون والتشريع الوضعي.

وهذا التقسيم الذي يريده القاسم الجائر، وهو فصل المعاملات عن الدين وقصره على العقيدة والعبادة الغرض منه تقليد النصارى، حيث حبسوا دينهم في الكنيسة، أما المعاملات والحياة العامة فجعلوا السيادة عليهما في يد القانون.

هذا ما يريده القاسم، وغاية هدفه السير في هذا الركاب، لتكون السيطرة على مجتمعنا للقانون الذي هو (الطاغوت) وزنا ومعنى، ونحن لا نريد بالإسلام والفقه الإسلامي بديلاً: لأنه مستمد من الكتاب والسنة السمحة، لم تنحته الأفكار العفنة.

وهو الدين الذي ارتضاه الله لنا، وختم به الشرائع، والذي قال عنه أعداؤه ما سمعت. أفيليق بنا أن نستجيب لمن يدعونا لتركه في المعاملات إلى غيره من المحدثات، هذه والله المصيبة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان: ١٢].

أيها القارئ قد علمت أن الله أكمل الدين لنا ورضيه، كما نص عليه بقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. وقد علمت أيضًا أن ما نزل إلينا فيه الكفاية والذكرى كما نص عليه بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

والقاسم لا يعرف ولا يعقل شيئاً عن كمال هذا الدين وكفايته للذكرى وتنظيم العلاقات بين العبد وربه، وتنظيم العلاقات بين العبد وبين المجتمعات المسلمة والكافرة، شاء القاسم أم أبى.

وليس على حماته ودارسيه إلا التدبر له والاستنباط منه لكل ما جدَّ في الحياة من الحوادث عامة، فما وافقه قبلناه، وما رده رفضناه.

هذا ما يحتمه علينا ديننا، لأن الله يقول: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وهذا عام في الدقيق والجليل. ومن المحال أن يحيلنا الله بالرد عند التنازع على من لا يوجد عنده فصل النزاع، هذا ما لا يكون.

وقد أجمع المسلمون على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته، وقد جعل الله الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، وإذا انتفى انتفى الإيمان.

قال القاسم الآيات القرآنية: إلى أن قال فهي لا تسعفه الخ كلامه:

وهذا من القاسم إما عدم فهم، أو تجاهل ومكابرة.

وعلى أي حال فنحن بدورنا نلمع عن قصد العطار بهذه الآيات التي أعقبها بالأحاديث في معناها (رغم وضوح كلام العطار) لا يغتر أحد بكلام القاسم، وخشية الإطالة بخمل القول في ذلك.

وأنت معي أيها القارئ تعلم أن العطار أورد هذه الآيات والأحاديث لغرض الاستدلال على وجوب امتثال أمر الله ورسوله والوعيد على من خالف ذلك، ووصفه بالضلال المبين، كما في سورة الأحزاب (٣٦) وآية النساء (٦٥) وغيرها.

وجميع الآيات التي ساقها العطار دالة على هذا المعنى الذي أشرنا إليه.

والله قد عظم هذا الأمر من المعاصي، والعظيم لا يعظم إلا عظيماً.

وذلك أن من استجاز مخالفة قضاء الله أو قضاء رسوله في أي حكم من الأحكام فقد هوى في مكان سحيق من الضلال، ولقد شاهدنا الفتنة والعذاب الأليم في الدنيا لمن تعدوا حدود الله، وأحاطت بهم خطيئاتهم، وسنة الله ماضية، وأمرهم إلى الله في الآخرة، عافانا الله والمسلمين. وما لم يذكره العطار أكثر وأكثر وأشد وقعاً في الوعيد والنكاية لمن خالف قضاء الله ورسوله.

ولكنه - عفا الله عنه - أراد أن يلمس المشاعر، لأنه يعرف أن المسئولين لم يقصدوا مخالفة شرع الله، وإنما وقعت هذه الأمور من فعل أناس يدعون أنهم ينظمون وهم في الحقيقة يخربون بالقصد أو بدونه. ولا يبعد أن يوجد في صفوفنا

من يكيد لنا في خراب الملك وسياسته. وهؤلاء في بادئ الرأي لا يعدون أمرين:

إما أن يكونوا قد فسدت ضمائرهم كما فسد ضمير القاسم، أو يكونوا متصفين بالأمر.

الثاني: وهو أنهم مأجورون على العمل على إفساد الملك والدين من جهات مغرضة، تعمل في الخفاء والظلام، وما ذلك ببعيد.

وهناك أدلة على غشهم، وإذا لم تنتبه الحكومة لهؤلاء وتقضي عليهم في المهد فستكون الكارثة والخسار المبين. ونهيب بالحكومة أن تنتبه لهم قبل أن ينجحوا في أهدافهم الرامية للفساد، ذلك أن من خالف شرع الله، فالناس في حقه قسمان.

أهل الغيرة على الدين وأهل الغيرة على الدنيا، ومخالفة شرع الله تسخط الجميع، وفوق ذلك سخط الله وشديد نكاله.

وهذه الحكومة سجل التاريخ لأولها القيام بالدين والدعوة إليه والدفاع عنده فسادت، فلما قصرت فيه أصابها ما أصابها، ثم تزعمت به أيضاً على نهج أسلافها واستقامت لها الأمور به مرة ثانية، وستكون في عزة ومنعة ما دامت معتصمة به أصلاً وفرعاً، فإن قصرت في حقه فقد مضت سنة الله فيمن عصاه.

ثم قال القاسم: **(فتقرير حق العامل في التعويض لا يصطدم. بآية مما ذكر ولا يخالفها، بل افترض الأستاذ العطار المخالفة، ثم أورد آيات الوعيد على المخالفة رغم عدمها).**

أقول: سبحان الله! كيف يصح هذا الكلام من القاسم، إزاء ما ذكره العطار من الآيات والأحاديث التي فيها الوعيد لمن خالف حكم الله ورسوله، مستدلاً على ذلك الحكم بقول الرسول ﷺ: «البئر جبار، والمعدن جبار، والعجماء وجرحها جبار»[1] والحديث صحيح مقطوع بصحته.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٩٩) ومسلم (رقم ١٧١٠).

ثم يقول القاسم: إن العطار افترض المخالفة، فلا أدري هل هو جاد في كلامه فأحكم عليه بأنه جاهل لا يدري ما طحاها وليس ببعيد، أو هو مكابر للحق مفتون بها يحاول نصره من الباطل، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً.

والعطار يستدل أيضاً بإجماع الأمة الإسلامية المستند إلى السنة النبوية، على أن ما يقضي به مصلحة العمل والعمال في مسائل خاصة مخالف لنصوص الشرع وهادم لها. وما دام الحكم مستنداً إلى السنة والإجماع فلا يكون افتراضاً، بل هو حكم مقطوع به، شاء القاسم أم أبى.

ورأينا الصريح: أن العطار نبه لما فيه المصلحة الدينية والاقتصادية. وعهدنا في حكومتنا الرشيدة طلب الأصلح.

ونقترح عليها أن توجد في مصالح العمل والعمال قضاة يحكمون بالشرع، وبذلك تبرأ الذمة، وتسود العدالة وتزول المفاسد، ونحصل على تقوية اقتصادنا، كما ستقف عليه في آخر هذا النقد.

قال القاسم: (**الأحاديث النبوية**)

كما أن ما ذكره من أحاديث وأقوال الفقهاء فهي بدورها ليست حجة، بل قد تكون مغالطة، فذكر الأحاديث التي أوردها، إلى أن قال: (**وليس حجة له، لأن التعويض لا يناقض نصًّا صريحاً، ومن ثم لا يجوز أن نحرمه ما لم يحرم بنص قاطع**).

سبق لك أن القاسم لا يهدف إلى الحق: إما جهلاً أو مكابرة، فتراه يحاول صرف القراء عن هدف العطار بما ذكر من الأحاديث، التي تحث على وجوب الامتثال لأوامر الرسول ﷺ، ودأب على هذا بأقصى جهده، ولكن القراء يتمتعون بمواهبهم، وعلى ما فهموا يحكمون، ومهما حاول في التضليل فليس بناجح، ولذلك يقول: تضليلاً: (**لأن التعويض لا يناقض نصًّا صريحاً**) الخ كلامه.

ورغم أن العطار هنا في معرض الاستدلال على وجوب الامتثال يحاول القاسم

جر القارئ قسراً إلى هدفه، كأنه ينعق لسائمة من الأنعام، ولذا نترك البحث معه هنا في مناقشته على عبارته هذه، اعتماداً على ما سبق وعلى ما يأتي إن شاء الله.

ثم يبالغ في التضليل فيقول: (**وقد أمر به ولي الأمر، فهو واجب الطاعة بأمر الله سبحانه وتعالى**).

ذكر هذا الكلام في مقابل استدلال العطار بالأحاديث على وجوب امتثال أمر الرسول ﷺ جهلاً أو تضليلاً، ونود هنا إفهامه تفسير الآية، وكيفية الاستدلال بالآيات.

ظاهر كلامه أنه يقصد الاستدلال بآية النساء، وهي قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]. والآية فسرت بالعلماء وفسرت بالأمراء، وفسرت بأن المراد بهم العلماء والأمراء أهل الرأي مجتمعين. يؤيد هذا

أولاً: أنه لا يتولى الإمارة في صدر الأمة إلا أهل العلم والبصيرة، إذ كانوا يترسمون التنزيل، وتكون الإمامة والإمارات بالاختيار والمشورة، كما وصفهم الله بقوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثانياً: أن الآية فيها ذكر (أولي) بلفظ الجمع.

ثالثاً: فهم الصحابة ﷺ وعلى رأسهم الخلفاء ومن سار على نهجهم أن القصد بأولي الأمر هم العلماء، الذين حباهم الله بالعلم الذي يستضيئون به، والذين خصهم الله بالعقول والبصائر النيرة، التي يطبقون بها قواعد الكتاب والسنة.

كما ورد أنهم يجمعون العلماء عند نزول الحوادث والمشكلات، ويحلونها في حال اجتماعهم وتبادلهم وجهات النظر على ضوء الكتاب والسنة، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ ﴾ لا كما يقول القاسم ولي الأمر وما ذكرناه هو الحق بدليله، فإن كان عنده دليل غير ما ذكرناه فليسعف به القراء، وأنّى له ذلك؟!

فإذا علمت أيها القارئ أن الخلفاء ومن سار على نهجهم عندما يكون عندهم أي مشكلة يجمعون العلماء لدرسها وتطبيقها على قواعد الشرع من الكتاب والسنة.

عرفت أن هذا الناعق من الخفافيش التي أعشاها بريق المدنية فعميت بصيرته،

وراح يخبط خبط عشواء بتفسير الآيات والأحاديث وتسفيه الفقهاء، والتشهير بنفسه بالجهل أو المكابرة مما وقفت عليه ومما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

ومن غلطه في كيفية الاستدلال بالأحاديث، فقد قال قريباً: (ومن ثم لا يجوز أن نحرمه ما لم يحرم بنص قاطع).

وأنت معي أيها القارئ تعرف أن الشرع فيه نصوص كلية وقواعد عامة من الكتاب والسنة يستنبط منها ما دخل في عمومها عند أهل الذكر، كما قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] والقاسم لا يعرف هذا.

ويكفي في الرد على قوله هنا قول الرسول ﷺ: «البئر جبار والمعدن جبار، والعجماء جبار» وهو حديث صحيح ونص قاطع، ترسمته جميع القرون وسارت عليه حتى جاء القاسم، ومثل هذا الدليل لا ينقض بمجرد القول والتقليد الأعمى.

وقد مضى الناس الذين عندهم أثارة من العلم أن ينقضوا الحجة بالحجة نقضاً علميًّا يقتنع به القراء، ولكن القاسم لا يعرف هذا.

أما قوله: (وقد أمر به ولي الأمر).

فهذه دعوى من القاسم يحتاج إلى دليل عليها، ولو قال إن هذا قانون مصلحة العمل والعمال لكان متحرياً للواقع، إذ ليس كل التصرفات التي يجريها الموظفون يحمل تبعتها ولي الأمر.

وهذه مسألة أقحمها القاسم في البحث، ليحاول كسب من يساعده على باطله، ويأبى الله وأهل العلم والحكومة الحامية للشرع أن تساعد أهل الباطل، وخاصة في المسائل التي تصادم النصوص الصحيحة، مثل التعويض القهري لإصابات العمال، ومنه التفريق بينهم مما ليس له مستند من الشرع بل هو مصادمة له ولإجماع الأمة.

وعلى فرض أن الحكومة أمرت بهذا، فالنبي ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(١)، فلذا نجزم أنه باطل بلا شك، والواجب الرد إلى حكم الله

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٤/ ٣٢١ رقم ٤٣٢٢) وفي الكبير (١٨/ ١٦٥ رقم ٣٦٧)
=

ورسوله، والتقيد بذلك قولاً وعملاً، وهو أحسن طريق لنا في العاجل والآجل، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ ، وهذا من لوازم الإيمان وبانتفائه ينتفي الإيمان، وفي هذا المعنى أدلة كثيرة.

والقاسم يريد منا الرد إلى قوانينه بدافع الهوى والرغبة في الفساد، والله يقول: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠].

جناية القاسم على الفقهاء

قال القاسم: (**أقوال الفقهاء**).أما ما سرده الأستاذ العطار من أقوال الفقهاء، حول قضاء الرسول ﷺ الوارد عن عبادة بن الصامت من أن المعدن جبار، والبئر جبار، والعجماء جبار، هذا كله يدور على مسائل (إلى أن قال) وما تدل عليه بعض الأقوال التي أوردها من أن الأجير دمه هدر هي كما سبق اجتهاد منهم كانت تلائم عصرها بخلاف عصرنا الحاضر الخ كلامه.

وكلامه صريح في عدم رضاه بما استدل به الفقهاء من الحديث الذي ذكره معترفاً به، ولنا عليه عدة مطالب:

الأول: عليه أن يطعن في الحديث، ولا يمكنه هذا.

ثانياً: إذا لم يتمكن من الطعن في الحديث، فعليه أن يحدد معناه تحديداً مفهوماً.

ثالثاً: ما هو سبب عدم رضاه بمسلك الفقهاء المستند إلى حكم الرسول ﷺ وقضائه.

رابعاً: عليه أن يحدد المسائل التي قال عنها في كلامه هنا تحديداً مفهوماً.

=

(١٨/ ١٧٠ رقم ٣٨١) وأحمد (١/ ١٣١، ٤٠٩) (٥/ ٦٦) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٥٥ رقم ٨٧٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٢٦): ورجال أحمد رجال الصحيح.

خامساً: تخصيص الأعمال التي فيها التعويض والتي لا تعويض فيها، والدليل على هذا التخصيص من الشرع.

سادساً: عليه أن يبرز الدليل الذي يفسح المجال لولي الأمر بمخالفة ما جاءت به الشريعة من الأحكام.

وبعد هذا فاعلم أيها القارئ أن القاسم قد ألغى الفقهاء كلهم بجرة قلم من أبي بكر الصديق حتى يومنا هذا. فليته إذا كان يريد الكفر بفقهاء الصحابة فمن بعدهم المستدلين بالكتاب والسنة، أعلمنا بمن يريد أن نأخذ عنهم وعن مراجعهم.

وكما أنه بهذا جنى على الصحابة ومن تبعهم وعلى الحكام السابقين، فقد جنى أيضاً وجانب الأنفة والشيمة بتسفيه آبائه وأجداده ومن سار على نهجهم ممن اعتنق الإسلام من الأمم، ورضي لهم بما لم يرضه العرب في الجاهلية لآبائهم، وهم كفار وعلى باطل، حيث قالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢]. فلا خير في رجل مثل هذا القاسم الذي تضمن كلامه أن ما جاءت به القوانين هو الحق والعدالة، وما جاء به الشرع المطهر هو الظلم والباطل.

أما إنه لم يجنح إلى المسلمين لأنهم على حق، ولا إلى رأي من قبلهم من العرب أهل الأنفة والحمية فله اختياره لنفسه.

لكن الغريب كل الغرابة أنه يدعونا ويريد منا الانسلاخ من عقيدتنا في المعاملات وتقليد غيرنا من الغربيين والشرقيين وأذنابهم فنكون مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، هذا ما يريده لنا مستمطر قوم عاد.

ونحن أمة لنا كياننا الخاص في الجاهلية والإسلام، ونربأ بأنفسنا عن التبعية في كل شؤوننا، وخاصة في أغلى ما نملكه وهو العقيدة الإسلامية، ولنا السيادة والقيادة للعالم كله بما وهبنا الله من الصفات والمقدسات ما استقمنا على الدين وحكمناه. وإذا كان مثل هذا الكلام يقال في حق الدين وحملته والمدافعين عنه عبر القرون من العلماء والحكام، ثم لا يناقش فمن يناقش.

ولقد قامت الدنيا وقعدت من الطوائف المتشيعة عندما نشر في مجلة (راية الإسلام) كلمة موهومة في (جعفر الصادق) خاصة فكيف بمن طعن في الأولين والآخرين. وحكومتنا لا ترضى بما رضيه القاسم، والله سينصر دينه على يد من أراد لهم السعادة من العلماء والحكام، ويكبت من حاد الله وحاد رسوله وشرعه، كما وعد بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١ ﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

ونهيب بحكومتنا الرشيدة أن تنزل به ما تقضي به الشريعة من العقوبة أسوة بأسلافها في الأخذ على يد العابثين المعتدين، وإنا لمنتظرون تقديمه للمحاكمة وتنفيذ حكم الشرع فيه وكبته عقوبة له وزجراً لأمثاله.

يا لله يا للمسلمين

كيف يصح ما يدعونا إليه القاسم، والعالم الإسلامي كله قد وضع ثقته في أهل هذه الجزيرة وينظر إليهم نظرة الحائر المتلهف المستغيث، ويطالبهم بالزعامة وتحقيقها حالياً بإنشاء وحدة إسلامية صرفة لا شرقية، ولا غربية.

يا عباد الله: يا حماة الإسلام: أين مبدؤنا في إنشاء الرابطة الإسلامية والمبالغ التي تصرف من أجل أهدافها؟! وأين نتيجتنا من إنشاء الجامعة الإسلامية، والملايين التي تنفق عليها، وأين أهدافنا في الجامعات الأخرى؟!

وأين أهداف الحكومة في نشر الكتب الإسلامية من كتب العقيدة والفقه في العبادات والمعاملات؟! وأين المساعدات التي تبذلها الحكومة للحكومات والجمعيات الإسلامية فيها وفي غيرها؟ وأين؟ وأين؟!

على الله توكلنا، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، حسبنا الله ونعم الوكيل.

والقاسم بهذا العمل قد شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين، بل أبلغ من ذلك خوّنهم بأنهم سادوا الأمة بآرائهم واجتهاداتهم بل زاد الطين بلة بما يلزم من أقواله من

تنقص الدين بعدم الكفاية والكمال، والرسول بعدم البيان والبلاغ، جهلاً منه وحقارة.

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه[(١)]

ونحن طالبناه فيما سبق بأن يحدد لنا الأعمال التي فيها التعويض والتي لا تعويض فيها، إذ إن الأعمال تتنوع.

فمنها أعمال صناعة، وهي أيضًا متنوعة، ومنها أعمال زراعة، ومنها أعمال عمارات، ومنها أعمال معادن، ومنها أعمال آبار ونحوها، ومنها أعمال كتابة وحراسة، وغير ذلك من الأعمال التي يشترك فيها الحكومة والشعب، والكل يطلق عليهم عمال في العرف الشرعي واللغوي.

وهذه التشريعات الوضعية يظهر للمتأمل تناقضها وعدم عدالتها وعدم اطرادها، لأول وهلة. وبمثال واحد يتضح بطلان ما درج عليه نظام العمل في التعويض.

ذلك لو أن مقاولاً أخذ عمارة بكاملها فهو عامل عند صاحبها بلا شك، ثم إن المقاول كما هو المعروف قاول على النجارة نجاراً وعلى بقية الأعمال مهندساً معماريًّا، وقدر الله أن حصل على النجار إصابة، فمن يقوم بالتعويض في هذه الحالة: هل هو صاحب العمارة، أو المقاول؟ لا ندري ما الحكم في الشرع الجديد.

أما الذي عرفناه من دين الرسول أن الجميع غير مسئولين إلا إذا كان منهم سبب أو تغرير، ويستوي في هذا هم وغيرهم، ونحن نطلب من يخالف هذا حلًّا مقنعاً لا يتناقض، وهيهات ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. وما علينا إلا أن نترسم ما نزل إلينا من قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢].

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (٣/ ١٧٢) وعزاه إلى صالح بن عبد القدوس الأزدي صاحب الفلسفة والزندقة. قتله المهدي على الزندقة. وذكره الذهبي أيضًا في ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ٤٠٧) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٢).

أغلاط القاسم في اللفظ والمعنى

قال القاسم: (مغالطات) (وما انتهى إليه العطار من أن ذلك قضاء الله ورسوله ولا راد لقضائه، هو من باب المغالطات، فكل شيء هو قضاء الله وقدره) إلى قوله: (ويعزز الأستاذ العطار حكمه بقول لا يجديه، إذ يقول: وجميع شروح الحديث، ومعاجم اللغة العربية مجمعة على أن تفسير الجبار بأنه هدر لا غرم فيه ولا ضمان ولا تعويض، ويعلق عليه بقوله: فإصابات العمال هدر لا تعويض فيها كما بينه قضاء رسول الله ﷺ، وهو قضاء ملزم لا يمكن لمسلم حق أن يبدله بقضاء غيره، وأن يستبدل به قضاء مستورداً من الخارج، وتعليقي على هذا هو أنه حكم صدر بلا تروٍ، وفيه طعن في ولي الأمر، كما أن فيه اتهاماً للشريعة بالجمود وهي بريئة منه، وفيه مغالطات لا تليق بأديب فاهم، وقد توصل إلى هذه النتيجة دون طريق سليم).

إلى أن قال: فكل الآيات التي أوردها والأحاديث لا توصل إلى هذه النتيجة، أما أقوال الفقهاء فهي كما تقدم آراء اجتهادية أوجدت حلولاً لمشاكل عصرهم لعدم تدخل ولي الأمر، أما ما دام قد تدخل فأمره واجب الطاعة بنص القرآن فهو بذلك جزء من الشريعة ملزم للجميع واجب الاتباع ما دام لا يتعارض مع نص قرآني أو حديث نبوي، فعلى ولي الأمر يقع عبء تنظيم العلاقات بين الناس والعلاقة بين العامل ورب العمل أولى بهذا التنظيم.

هذا كلام القاسم نقلناه بحرفه لتكون على بصيرة منه، فهو يقول: (إن كلام العطار في دعواه أنه قضاء الله ورسوله من باب المغالطات).

وقد سبق لك أن مستند العطار الحديث الصحيح.

والواقع أن كلام القاسم هو المغالطة في اللفظ والمعنى، كما ستقف عليه.

ثم يبرر القاسم موقفه بأن يقول: فكل شيء بقضاء الله وقدره. لا ندري لماذا انصرف القاسم إلى البحث في القضاء والقدر، ولم يجر له ذكر في كلام العطار لا من قريب ولا من بعيد، ولٰكنك تعجب أيها القارئ من هذه المكابرة والجرأة في هذا

الرجل الذي تظهر منه كراهة الشرع، وبالتالي لا يقرع الحجة بالحجة جبناً وإفلاساً.

ولعجزه وجبنه أن ينكر أن هذا هو قضاء الله ورسوله يلتوي ويقول: إن كل شيء بقضاء وقدر، أو إنه لا يعرف الفرق بين القضاء والقدر، وبين قضاء الله ورسوله وهذه أدهى وأمر. فمن هذا سبيله هو المغالط في اللفظ والمعنى بلا شك.

أما قوله: وكل ضامن الخ. هذه قواعد شرعية أصّلها العلماء استناداً إلى الكتاب والسنة والتفصيل فيها يطول، ونحن نطالبه بموجب ما فسرها به السابقون فقط، أما أن يتلاعب ويفسرها برأيه فلسنا بحاجة إليه.

ولٰكننا نتساءل مع القاسم على ضوء هذه القواعد بمثالين:

الأول: لو أن صاحب عقار اتفق مع مزارع، وأحضرا محركات مناصفة بينهما، ثم إنه حصل الاتفاق بينهما على أن يقوم المزارع بإدارة المحركات بنفسه هو أو أولاده أو غيرهم، فقدر الله أن حصل أي تلف على الأرواح فمن يضمن في هذه الحالة، إذا لم يكن من صاحب العقار سبب ولا تغرير، ولا من المزارع أيضاً.

الثاني: لو تلف المصنع بما فيه من المعدات والعمال بحادث قهري على صاحبه وعلى العمال، فهل تقول بالضمان إذا لم يكن سبب ولا تغرير، المذهب الذي أنت تناصره لازمه الضمان، ولٰكن لا ندري على من؟

هل تضمن صاحب العقار أو المزارع في الأول.

أما في الثاني فيمكن أن تقول بالتعويض على صاحب المصنع، فتكون مصيبة فوق مصيبة. ولو فرضنا أيضاً أن صاحب المصنع مع جملة التالفين فلازم مذهبك أن تقول بالتعويض في تركته إن كان له تركة، وإلا فيبقى في ذمته يستوفيه أصحابه يوم القيامة من حسناته.

إن هذا التصرف وهذه التشريعات المتناقضة مما يضحك ويبكي لمخالفتها المنقول والمعقول، وصدق الله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]. أما الشرع فلا يضمن أحداً من هؤلاء ما لم يكن سبب شرعي

صحيح، أو تغرير (وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل)[١].

أما قول القاسم: (ويعزز الأستاذ العطار حكمه بقول لا يجديه) الخ كلامه.

فلا وجه له مادام الأستاذ العطار قد استدل بالسنة على دعواه وعزز ذلك بالإجماع من الأمة وخاصة الفقهاء، وهنا يعزز دعواه بقول أهل الحديث وأهل اللغة، ولٰكن القاسم لا يعترف بهؤلاء، وفي عينه لا يساوون شيئاً.

لماذا يا قاسم تنكرت لهؤلاء؟

إذاً يا قاسم فمن نأخذ عنه إذا كان هؤلاء نكرة في نظرك، فلابد من أمرين:

إما أن تنصب نفسك مشرعاً جديداً.

أو تحيلنا على أساتذتك في الشرع الوضعي، ونحن كافرون بك وبأساتذتك هؤلاء، وأنت بالخيار في أن تستمر على رفضك الحديث وأهله واللغة وأهلها، أو تعود إلى الحظيرة؟ فإن شئت فآمن بهم، وإن شئت فاكفر بهم.

أما قول القاسم: (وتعليقي على هذا أنه حكم صدر بلا تروٍ) الخ تهجماته على العطار.

فنقول هنا: إذا كان العطار حكم بما حكم به رسول الله ﷺ فقد حكم بتروٍ، وسار على الجادة الموصلة للسعادة للمجتمع كله، ولا يليق بمسلم أن يقول مثل قولك هذا في حكم ثبت عن رسول الله ﷺ، وتلقته الأمة بالقبول.

ثم يقول القاسم: (وفيه طعن في ولي الأمر).

ونحن نقول له: بل أنت الذي طعنت في ولي الأمر بدعواك: أنه هو الذي وضع القوانين المخالفة للشرع، ومن أين يكون العطار طعن في ولي الأمر عندما يدعو إلى الشرع الذي يحميه ولي الأمر.

ثم قال القاسم: (كما أن فيه اتهاماً للشريعة بالجمود، وهي بريئة منه).

---

(١) ذكره المباركفوري في تحفة الأحوذي (٤/ ١٠٧) (٥/ ٢٨) والمناوي في فيض القدير (١/ ٥٦٣) (٤/ ٤٢١) والقاسمي في قواعد التحديث (ص٩٨) والشوكاني في نيل الأوطار (٤/ ١١٠) (٥/ ٦٦) (٧/ ٣٣٠) وصديق حسن خان في أبجد العلوم (٢/ ٢٨٧).

لا ندري ماذا يقصد بالجمود، هل يقصد أن التمسك بعموم الكتاب والسنة، جمود من المسلمين، فنحن جامدون. أم يريد أن الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح ضاقت عن استيعاب الحوادث في المجتمع، فهو كاذب.

والواقع المعروف عند المسلمين أن الشريعة المحمدية غاية في الاتساع، فلا تحدث قضية إلا ويوجد حلها على ضوء الكتاب والسنة، شاء القاسم أم أ بى. وسيأتي في كلامه الاعتراف بهذا بقوله: (**وللشريعة الإسلامية مصادر متعددة**). إلخ.

أم يريد أن الشريعة جامدة على تحريم الزنا والربا وإقامة الحدود والقضاء بالحق والعدل بالشرع، وتقف أمام العاهرين والفجرة والمارقين ودعاة الفسق، ويراها جامدة بهذا المعنى فهو صادق.

ثم قال القاسم: (وفيه مغالطات لا تليق بأديب فاهم، وقد توصل إلى هذه النتيجة دون طريق سليم).

يقول القاسم هذا في حق العطار، وقد سبق لك أن المغالطة في اللفظ والمعنى من القاسم، وفي المثل: (رمتني بدائها وانسلت)[1]. وهنا مثار العجب، فالقاسم أديب فاهم منصف، طريقه سليمة لأنه يدعو إلى الحكم بالقانون، وليس عنده دليل.

والعطار مغالط جاهل طريقه ليست سليمة؛ لأنه يدعو إلى الحكم بالشرع، ويستدل بالحديث واللغة وأقوال الفقهاء، ولذا يقول القاسم: (**فكل الآيات والأحاديث لا توصل إلى هذه النتيجة**).

وهذا صحيح على مذهبه، لأنه يحاول عدم العمل بها إذا تعارضت مع ما نهل منه من القوانين.

---

(١) ذكره الذهبي في الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم (ص٢٧) وابن منظور في لسان العرب (٤/ ٤١) (١١/ ٣٣٨، ٤٥٧) وانظر: معجم الأمثال العربية (٢/ ٢٧١).

مهزلة القاسم

(أما أقوال الفقهاء فهي كما تقدم آراء اجتهادية أوجدت حلولاً لمشاكل عصرهم، لعدم تدخل ولي الأمر).

هنا نرى القاسم قد تجاهل الفقهاء كما تجاهل السنة قبل ولم يعرهم باله، وهذه عبارة كررها عدة مرات.

ونراه دائماً يتنكر للفقهاء، ومن باب أولى وأحرى للولاة الذين عاصروهم فهم في نظره غير فاهمين للشرع ولا عارفين لشيء من تنظيم الحياة العامة مدة القرون الأربعة عشر حتى جاء القاسم فظهر على يده الشرع والعدل والتنظيم.

يا لها من مهزلة كل القرون السابقة درجت على الجهل والضلال، ولم نتحصل على واحد منهم يكون فاهماً مثلك، بل أجمعوا على الضلال، وكلهم مع حكامهم غير نابهين، ندع الحكم لك أيها القارئ.

وقد سبق لنا ما هو كفيل بالرد على مثل هذه الجمل التي أشار إليها من الآيات والأحاديث وتسفيه الفقهاء والولاة الذين عاصروهم.

قال القاسم: **(وما دام ولي الأمر قد تدخل فأمره واجب الطاعة بنص القرآن)** الخ كلامه.

تقدم توضيح ما أشار إليه هنا وتوضيح غلطه.

أما ما يهدف إليه من وجوب طاعة ولي الأمر الذي يقصده وهو الحاكم، فله أدلة معروفة لا حاجة لذكرها هنا، وطاعته مقيدة بالمعروف، أما أن طاعته واجبة مطلقاً ولو خالف الأمور الشرعية فأمر لا يوافق عليه القاسم، وهو مخالف للكتاب والسنة والإجماع.

أما قوله: (فهو بذلك جزء من الشريعة).

فنقول له: هذا كلام محدث لم تسبق إليه، والشريعة لا تتجزأ، بل هي وحي من السماء، لا شركة فيها لولي ولا لغيره.

ونريد أن نعرف من هذا التعبير كم أجزاء الشريعة التي تجزأ منها أمر ولي الأمر، الجواب عند القاسم. كذلك نريد أن نعرف من يؤخذ بقوله من الولاة الذين هم الحكام عند التعارض لأوامرهم، وهل نأخذ بالأول، أو المتوسط أو الأخير، الجواب عند القاسم.

والقاسم يحاول بهذه الالتواءات الصد عن حكم الله بالباطل، والحق الذي يعرفه الحكام إرجاع القضايا العمالية وغيرها إلى حكم الله وشرعه، الذي سارت عليه القرون الأولى، وأجمعت عليه الأمة الإسلامية، قبل وجود هذا الحدث الذي أحدثه المحدثون، والرسول ﷺ يقول: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١).

ومن هذا نعرف أنه ليس لأحد أمر يطاع غير أمر الله وأمر رسوله في كل شئون الحياة، التي نظمها الشرع، وفرغ منها في جميع المجالات من العبادات والمعاملات.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فكل قوم لهم وارث، فالقاسم عمله شبيه بمن حكى الله عنهم في سورة النساء بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٠-٦٥].

هذه الآيات تحكي إرادة أناس في عهد الرسول ﷺ أخبر الله عنهم أن إيمانهم

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٩٧) ومسلم (رقم ١٧١٨).

أصبح مجرد زعم، حيث أرادوا التحاكم إلى غير الرسول، ومن عملهم إذا دعوا إلى الرسول صدوا وطلبوا التحاكم إلى غيره، وأخبر عنهم أنهم يعللون ذلك عندما يقتضي الأمر الاعتذار منهم عن هذه الإدارة والصدود بقولهم: ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أي نريد الإحسان إلى الناس والتوفيق بين الشريعة والسياسة.

وأشباههم اليوم يقولون نريد الإصلاح وحفظ الحقوق والمصالح للعمال، والتوفيق بين الشريعة والقانون، ولا نطيل بأكثر من هذا من تعليلاتهم لتخطي حدود الله لأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل.

وفي الجملة فكل من طلب التحكيم في شيء ما إلى غير ما جاء به الرسول، ويظن أن ذلك حسن، وجمع بين الشرع والمصلحة فهو داخل في هذه الآية ولابد، شاء أم أبى.

ويؤتي هؤلاء من قبل جهلهم بما ورد عن الرسول ﷺ وعدم فقههم فيه، فبجهلهم بالشريعة تنقصوها ورأوا فيها عدم الكفاية، وجعلوا النقص الذي اتصفوا به نقصاً في شريعة الإسلام، والذنب ذنبهم لا ذنب الشريعة، هذا من ناحية.

كما أنهم أتوا من ناحية أخرى، وهي الدعاية المغرضة من أعداء الإسلام والأخذ عنهم علومهم الضارة، والاستجابة لهم في إضعاف العلوم الشرعية، حتى نشأت فئات تدعي العلم، وهي منه فقيرة على الأصح، أعني العلم النافع في الدين والدنيا، وأصبحت هذه الفئات في وظائف تتطلب منها حل المشاكل، وهي مفلسة من العلم الشرعي، فلم يكن لهم بد من هذا المسلك الشائن، خوفاً من أن يصفوهم بالجهل والنقص، فأحالوا النقص الذي هم أولى به على الإسلام وأهله.

أما إن أرادوا الكمال، فما عليهم إلا أن يتدبروا القرآن والسنة، وفيهما الكفاية في كل شيء، وخاصة في تنظيم العلاقات بين الناس إن كان رائدهم الحق والعدالة.

ومما تقدم علمنا أن الواجب التوقف في التحليل والتحريم إلا بمستند شرعي، والمستندات الشرعية لا يعرفها إلا الذين درسوا الشريعة وفهموها.

أما الذين لم يدرسوها، ولو درسوا غيرها وكانوا فيه فلاسفة، ثم يحاولون التحليل والتحريم بآرائهم فهم كذبة على الله، لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

ثم قال القاسم: (وعلى ولي الأمر يقع عبء تنظيم العلاقات بين الناس).

حسبنا الله ماذا بقي لله، وهذا الكلام من القاسم عام بدون قيد الرجوع إلى الشرع، وهو مؤاخذ عليه أكبر مؤاخذة.

والمسكين تجاهل كل شيء، فلم يطرأ على باله الإشارة إلى كتاب الله وسنة رسوله، اللذين فيهما الكفاية لتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات المسلمة، بل حتى الكافرة، واللذين كفلا للبشرية الرقي والازدهار والسعادة والحضارة النزيهة، واللذين ساد بهما السابقون الأمم.

ثم قال القاسم: (وللشريعة الإسلامية مصادر متعددة، وهي مصادر لا تضيق ولن تضيق بحاجات الأمة ومتطلبات حياتها، ومنها تستمد كثير من القوانين الوضعية).

في هذا يقول القاسم: إن للشريعة الإسلامية مصادر، وكأنه بهذا يذكر للناس شيئاً جديداً لم يعرفوه قبل اليوم. وفيه أيضاً اعتراف منه بأن الشريعة في غاية الاتساع في الحاجات ومتطلبات الحياة، وإذا كان الأمر كذلك فما حاجتنا إلى القانون الذي يدافع عنه من نظام العمل والعمال.

وهو بهذا لم يحوجنا إلى المزيد في تقدير ما كنا طرقناه من استيعاب الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح لكل الحوادث.

وبهذا الاعتراف منه يتبين أنه هادف إلى وقوفه في جانب الباطل لأمر لم نعرفه.

ويوضح ما اعترف به من الحق قوله: (ومنها تستمد كثير من القوانين الوضعية) وهو بهذا دلل على أن شرعنا فيه الكمال.

لكننا نتساءل لم يدعونا إلى النظر في القوانين وتطبيقها وهي مستمدة من شريعتنا، ولأي شيء ينصب نفسه خصماً للعطار حينما نقد نظام العمل والعمال، ومادام الأمر على ما ذكره من سعة الشريعة فأولى بنا أن نبقى على الأصل من الشريعة، ولا حاجة لنا بما يخالفها ويناقضها، وحفظ الأصول أكبر محصول.

قال القاسم: (ثم إن أكثر النصوص التي نقلها والتي ترفض التعويض وتهدر دم العامل تقوم على أن الإصابة ترجع إلى عمده).

هذا اعتراف من القاسم بوجود النصوص الشرعية.

أما دعواه أنها مقصورة على العمد فعليه أن يثبته، ومادام اعترف بالنصوص فما أورده العطار من النصوص في عمد العامل إلى ضرر نفسه، أو إصابة نفسه مباشرة منه خطئاً، هو الذي طبق عليه العلماء نصوص الشريعة، ودعوى القاسم أن النصوص في العمد لم يذكرها أحد ممن نعرفه بالعلم الشرعي.

وإذا كانت الإصابة بقضاء الله وقدره في الخطأ بتصرف العامل بنفسه مباشرة دون تغرير أو تسبب من صاحب العمل وقلنا بالتعويض، فنحن قد افترضنا أن صاحب العمل ضامن على الله، وهذا خلاف الشرع والعدل، والعقل الرجيح.

ويعلل أهل هذا المذهب المحدث أنه قد يتعطل العامل أو يموت فيضيع بنفسه أو يضيع أولاده، فافترضوا أنفسهم أرحم من الله بعباده، والرد عليهم أننا لو فرضنا أنه مات في حين مباشرته للعمل بداء السكت مثلاً، فإن قالوا بالتغريم عرفنا بطلان مذهبهم، وإن لم يقولوا به فالمسألتان من باب واحد في كونهما قضاءً وقدراً، وطرق النقض لهذا المذهب كثيرة.

أما جوابنا عن دعواهم بأنه يضيع هو أو أولاده فنقول:

أولاً: إن صاحب العمل ليس ضامناً على الله حياة ولا رزقاً، فالموت والحياة والرزق بيد الله.

ثانياً: جعل الله للمحاويج أيًا كانوا الزكوات وصدقة التطوع ونفقات الأقارب

على ما قرره الشرع.

ثالثاً: بيت مال المسلمين يتحمل ما قصرت عنه الزكوات والأقارب والصدقات على ما هو معروف عند علماء الشرع، أما تغريم صاحب العمل فيترتب عليه مضار كثيرة:

منها: الحكم عليه بما لم يلزمه به الشرع، فيكون ظلماً.

ومنها: أنه تحليل لما حرم الله من أكل أموال الناس بالباطل.

ومنها: أنه إدخال للحرام في بطون القصار وغيرهم.

ومنها: الحكم بغير ما أنزل الله، وهو شر مستطير.

وإذا فرضنا أن التلف بيد العامل كان لمعدات صاحب العمل خطأ ففي هذه الحالة، هل نقول بتغريم العامل ما تلف بسببه خطأ؟ بالطبع لا، إذا فما هذا التفريق والتناقض، وهل العامل داخل في رحمة الله وصاحب العمل خارج عنها، وصدق الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فمن هذا عرفنا أن التفريق بين عمد العامل وخطئه تفريق بلا دليل، وأيضاً فالنصوص التي جاء بها العطار، من قول النبي ﷺ: «البئر جبار، والمعدن جبار» الخ. تدل على أن الإهدار في غير العمد، إذ إنه كيف يصح أن يعمد العاقل إلى إهلاك نفسه عمداً بما ذكر من البئر ونحوه مما أشار الشارع إلى التمثيل به، ثم نغرم صاحب العمل، والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر:٧].

ثانياً: قد خاطب الشرع من تعدى على نفسه بالوعيد الشديد في الصحيحين وغيرهما ولم يخاطب غيره، ولكن ماذا نقول لهؤلاء البلهاء الذين خالفوا المنقول والمعقول، إذ التعويض في مقابل تفويت شيء على الغير.

وهنا لم يفوت صاحب العمل على العامل شيئاً، لا بقول ولا بفعل ولا بسبب ولا تغرير. فدعوى أن النصوص في العمد مغالطة ومناقضة لما أرشدت إليه الشريعة.

وهذا كما قلنا إما مغالطة أو مكابرة أو عمى بصيرة وزيغ، وليس بغريب أن يزيغ

قلب القاسم، ويتنكب الجادة، ويتخبط في نقاشه، عقوبة له على تكبره على الحق.

ذلك أن من تشبعت روحه بالنظم الوضعية وعكف على دراستها ورآها أصلح من الشرع تنعكس بصيرته فيرى الحق باطلاً، والباطل حقًّا، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥]، ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٦]. فبهذا تعرف أن كلام القاسم لم يصادف هدفاً، بل هو في الواقع من الهراء، والكلام الذي لا يعقل.

غلط القاسم في النقل والتفكير

قال القاسم: ثم يقول ـ أي العطار ـ: (إن الشريعة تجازي من أضر بنفسه ولا تجازي رب العمل كما فعله نظام العمل والعمال، والحقيقة أنه لا يوجد نظام يعوض العامل عما يسببه لنفسه بخطئه العمدي، فإن مبنى التعويض كما هو الأصل دائماً أن يكون العمل هو سبب الإصابة ـ وفي أثنائه ـ وبدون عمد من العامل، ومتى أثبت رب العمل هذا العمد فلا يستحق العامل في هذه الحالة تعويضاً، فالتعويض يفترض توافر شروطه ولو لم ينص عليها، إذ توافرها من لوازمه ولا يكفي لتحريمه أن نقول إنه قضاء الله وقدره، فصحيح أن كل شيء يحدث هو قضاء الله وقدره، فالقاتل يقتل عمداً هو بقضاء الله وقدره، والسارق يسرق أيضًا كذلك، ومع ذلك تقام الحدود، لأن كلاً منهما سبب لما فعله، فرب العمل أيضاً يلزم بالتعويض، لأنه سبب بمعداته ونشاطه للإصابة، وليس ذلك عقوبة، وإنما هو تعويض لخسارة سبب حدوثها، فهو كالدية عن القتل أو الإصابة الخطأ: هذا آخر ما نشرته الندوة).

هنا نرى القاسم أفرغ ما في جعبته، ونقل كلام العطار أيضاً، ويظهر أنه مقتنع به على ما في عبارته من الالتواء والخفاء والغلط لفظاً ومعنىً ونقلاً، ولكنه مضطر

للتسليم، ونراه يحاول تبرير نظام العمل والعمال، وحيث قد أفلس من كل الطرق لم يبق بيده غير الاعتذار بعد وجود النظام بهذا، قال: (والحقيقة) الخ.

ولٰكن الواقع يخالف حقيقته، فقد وجدت فقرة تنص على عمد العامل في نظام العمل والعمال، ورغم ما فيها من الباطل فيجب أن نوقف القراء على جهل القاسم وعلى الحقيقة واقعياً، رغم أن كثيراً من نظام العمل والعمال باطل، وإليك نص العبارة والرد عليها نقلاً من كتاب الشيخ عبد الله بن حميد في الرد على نظام العمل والعمال:

(جاء في الفقرة الثالثة من المادة ٣٤ فيما يجوز به حرمان العامل من التعويض إذا ألحق العامل الإصابة بنفسه عمداً بشرط أن لا يتسبب عن الإصابة وفاة أو عاهة مستديمة).

ويلاحظ على هذه الفقرة ما يلي:

قوله: إذا ألحق العالم الإصابة بنفسه عمداً، والمفهوم من قوله: عمداً. أن الحكم يتغير إذا أخطأ، وأنه يرجع الضمان على المؤجر في حالة الخطأ، وهذا كسابقه من القول على الله بلا علم، ومناقضة لقول رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»[(١)].

وقوله: إلا أن يتسبب عن الإصابة وفاة أو عاهة مستديمة، فظاهرها إذا حصل شيء من ذلك فضمان الإصابة أيضاً على المؤجر، وهذه أيضاً كسابقتها في جانب بعيد عن الصواب. فكيف يلزم المؤجر جناية العامل على نفسه، كما لو ضرب العامل يد نفسه فعابت وتعطل العمل بها ـ سبحان الله ما أعجب هذا الجهل، فالعقل السليم يأبى هذا وينكره)[(٢)] إهـ كلام الشيخ.

وعبارة القاسم في غاية من الركاكة، حيث يقول: (عما يسببه لنفسه من الخطأ العمدي).

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٤).

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٢٩٤-٢٩٥).

ويحسن به أن يقول عما فعله بنفسه عمداً، إذ العمد لا يقال له سبب، بل هو مباشرة قصداً، والخطأ غير العمد، أما قوله الخطأ العمدي فهذا وما قبله تعبير خاطئ لفظاً ومعنى مرتين في جملة واحدة.

أما غلطه في النقل فيما يدعيه حقيقة من عدم وجود النظام، فقد بينا عدم صحته قريباً، وهكذا حقائق الليسانس.

وعلى أي حال فقد بلينا به، وما علينا إلا العلاج لدائه العضال في ألفاظه ومعانيه وأخباره، وليست هذه أول عبارة ملتوية تمر في كلامه، فقد مضى لها سوابق، ولم نبين إلا ما اضطررنا إليه لبيان المعنى.

ثم قال القاسم، محاولاً تبرير التعويض بدون مستند شرعي قال: **(فإن مبنى التعويض كما هو الأصل دائماً أن يكون العمل هو سبب الإصابة، وفي أثنائه، وبدون عمد العامل؛ ومتى أثبت رب العمل هذا العمد فلا يستحق العامل في هذه الحالة تعويضاً.**

يقرر القاسم هنا الأصل في تشريعه الجديد، كما عرفت أنه غير متقيد بالأحاديث والفقه وأهله، فأثبت أن العمل هو سبب الإصابة، والعمل ليس منه سبب لا شرعاً ولا عرفاً ولا عقلاً، ونحن نقول له: إن العمل الذي تريد أن تغرم بسببه لا يصلح أن يكون سبباً لما ذكرنا، وصاحبه لم يقهر العامل ولم يغرر به، وما ادعيته سبباً مطرح عقلاً وشرعاً وعرفاً، إذ الواقع أن العامل باشر باختياره ولمصلحته وهو المباشر لإصابته.

ولو فرضنا أنه شريك في المعدات فهل تغرم شريكه صاحب العمل دية كاملة أو بقسطه من الشركة، أو في هذه الحالة تغرم الذي اخترع الآلات؛ لأنه سبب باختراعه الإصابة، وهذا أقرب لأنه هو المعقول على مذهب القاسم، أو تغرم الذي حملها إلى المصنع، أو غير ذلك.

ثم إن العمال أنواع منهم الدائمون وهم الذين يعملون يومياً، ومنهم الذين

يعملون مقاولة، وغير ذلك من الأنواع، وقد طالبناك يا قاسم فيما سبق تمييز الأعمال التي فيها التعويض والتي لا تعويض فيها مع الدليل، ونجزم بأنه ليس عندك إلا الهراء كما عرفناك، ويكفينا دليلاً على تداعي أصلك الذي تدعيه، لأنه بني على شفا جرف هار.

قولك: (فالتعويض يشترط توافر شروطه ولو لم ينص عليها، إذ توافرها من لوازمه).

هذا الكلام يدل صراحةً على أن حكم التعويض أمر جديد، فات أصحابه أن يضعوا له ما يلزم من الشروط، فإذا لم يوجد شيء من شروطهم التي نحتوها فلننحت من جديد حتى نتمكن من الحكم بغير الحق والعدالة وأكل أموال الناس بالباطل.

ولذا يقول: **(لا يكفي لتحريمه أن نقول إنه قضاء الله وقدره).**

وهذه العبارة هي نتجية فهمه الخاطئ لقول العطار: (إن إلغاء التعويض هو قضاء الله ورسوله)، والعطار لم يتعرض للقضاء والقدر أصلاً، وقد تقدم البحث.

أو يكون قصد القاسم إيهام القراء حيث عرف أن بنيانه على غير أساس، ويحاول إقامته ولكن هيهات؛ فلذا يقول: **(ولا يكفي)** الخ.

ونحن من باب الإيضاح للحق نرد عليه بأن الأمر إذا كان من الله قضاءً وقدراً، ولم يكن من صاحب العمل سبب ولا تغرير، فما هناك من حجة عليه إلا إذا فرضنا أنه ضامن على الله، والأمر بخلاف ذلك فإلزامه بالتعويض باطل، وباطل، وباطل، شاء القاسم أم أبى. وينبغي أن نفهم أيضًا أن الواقع في الحوادث، أن يكون الحادث إما مباشرة أو تسبباً صحيحاً.

والقاعدة الشرعية الصحيحة (أنه إذا اجتمع مباشر ومتسبب فالغرم يكون على المباشر)[(١)]، هذا مع الاجتماع: أما في قضية العامل الذي أخطأ في حق نفسه فهو مباشر، وليس هناك سبب صحيح أصلاً، وفي نفس المسألة لو أن العامل أصاب غير

---

(١) انظر: المغني (٦/ ٦١١) ومجلة الأحكام العدلية، المادة (٩١٦) سليم رستم باز اللبناني.

نفسه خطأ بضرر قضى على حياة الغير أو ما دونها، فعلى شرع القاسم أن العامل في عافية من هذه الإصابة والغرم على صاحب العمل، لأن آلته هي السبب في الإصابة.

فإن قال بهذا ظهر بطلان شرعه المحدث كالشمس في رابعة النهار، والأمر كذلك في الواقع.

وإن قال بتغريم العامل وإعفاء صاحب العمل فما الفرق بين جنايته على غيره وجنايته على نفسه بأمر قهري، إلا على ما سبق أن قلنا: إن صاحب العمل ضامن على الله وليس بصحيح.

أو قلنا: إن العامل داخل في رحمة الله وصاحب العمل خارج عنها، وليس بصحيح أيضاً، إذ شرع الله لا جور فيه على أحد.

وفي هذه المسألة لو كانت الإصابة خطأ على صاحب العمل بسبب تصرف العامل في الآلة خطأ فهل يغرم العامل كما هو الشرع أو نغرم المخترع، أو نهدر دية صاحب العمل كما هو صريح مذهب القاسم، وإن لم يكن صريحاً فهو لازم مذهبه لابد من هذا، أو هذا، أو هذا.

فظهر بهذا بطلان مذهب القاسم في شرعه الجديد، وبطلان نظام العمل والعمال في هذه القضية وفي كثير من مواده، كما ذكره الشيخ عبد الله بن حميد، في نقده لنظام العمل والعمال، وعند الفحص نجد أكثر نظام العمل والعمال يمثل الجور الذي نهى الله عنه، كما أنه أبعد شيء عن شريعة الإسلام، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولذا يقول القاسم مقرراً لأصلنا الصحيح: **(فصحيح أن كل شيء بقضاء الله وقدره)**. وهو بهذا يعود إلى الحق، ولازم له أنه إذا كان ما حصل من الله، فلماذا نحمل ما حصل بقضاء الله وقدره صاحب العمل بدون مبرر شرعي.

ثم إن القاسم طال عليه التفكير فكتب بهوس ما نصه:

(فالقاتل يقتل عمداً هو بقضاء الله وقدره، والسارق يسرق أيضاً كذلك، ومع ذلك تقام الحدود لأن كلًّا منهما سبب لما فعله).

وأنت أيها القارئ عارف أنه لم يكن النزاع في القضاء والقدر، ولم يكن النزاع في العمد في الإصابات فلم أدخلها في البحث؟! ولم جعل صاحب العمل الشريف شرعاً وعقلاً وعرفاً مثل القاتل والسارق سواء بسواء في الحكم؟! والقاتل والسارق قد باشرا قصداً بأنفسهما وعملها من الكبائر، ورتب الشارع عليهما الحد شرعاً جزاءً بما كسبا من الظلم والبغي والفوضى والفساد، وقال الرسول ﷺ عنهما: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»**[1] الخ الحديث.

سبحان الله! كيف يقيس صاحب العمل الذي يحاول الخير لبلاده ولمجتمعه ويوصف عمله بالإصلاح بالقاتل والسارق؟! اللذين يوصف عملهما بالظلم والفساد!! إن هذا قياس لا أقول إنه فاسد كاسد بل الفساد مشتق منه، بل هو غاية في السقوط والسفه، ونحن نشفع عندك يا قاسم أن يبقى صاحب العمل مؤمناً، وبهذه البراعة الفائقة في الجهل والبلادة يقول:

(فرب العمل أيضاً يلزم بالتعريض، لأنه سبب بمعداته ونشاطه للإصابة).

أقول من باب التهكم: حقًّا إن صاحب العمل يغرم إصابة العامل المخطئ على نفسه كالقاتل والسارق، إن هذا لشيء عجيب، ثم بدا للمسكين أن يدفع الاعتراض القائم من أنه إذا كانت النتيجة من تشغيل العمال أن يضمن رب العمل تصرفاتهم التي لا علاقة له بها بوجه من الوجوه، فهذا عقوبة له على نهوضه ببلاده وأهلها، وعقوبة له أيضاً على تشغيل الأيدي العاطلة وكفها عن السؤال وإغنائها بالكسب الحلال، فيقول: **(وليس ذلك عقوبة).**

ونحن نقول: إنه عقوبة ومحنة وبلاء وباطل وظلم وسحت، شاء أم أبى. وهذا النظام حيث كان وضعاً من البشر محدودي الخبرة والتفكير قد ترتب عليه أمور:

منها: وهو أعظمها مخالفة شرع الله وعصيانه، وهذا ذنب كبير.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧٥) ومسلم (رقم ٥٧).

ومنها: أنه أوقف نمو بعض المشاريع الموجودة في البلاد فبقيت راكدة.

ومنها: أنه حطم نوايا الناس عن إنشاء مشاريع جديدة تنفع البلاد، وكيف نطمع في أن تكون بلادنا زراعية أو صناعية، ونحن قد وضعنا العراقيل في بدء طريق نهضتنا بما يخالف الشرع والعقل والسياسة، فبدل أن نسير في طريق سليم نسلك طريقاً معاكساً.

ولقد فكرت في هذا النظام فرأيت الكثير منه مدسوسًا على الدولة، ولا أدل على ذلك من أنه لم يصرح بكاتبه، كما أنه ينسب إلى عهد متقدم لم توجد فيه وزارة العمل، والحقيقة أنه ضد الدين والدنيا والسياسة.

ومنها: أن فيه جورًا وظلمًا على العامل وصاحب العمل في الجملة.

ومنها: أن فيه موافقة للكفار في أحكامهم ومشابهة لهم، وهم أحرص شيء على هذا، ويبذلون الأموال الطائلة من أجله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال:٣٦].

ومنها: أن هذا العمل سبب لرضاهم عن فاعليه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...﴾ [البقرة:١٢٠] الآية. وهم لا يرضون عنا إذا سرنا فيما يرضي الله.

ومنها: أن تأخر إنشاء المشاريع عندنا ضار لاقتصادنا، وبالتالي هو نافع لاقتصاد غيرنا.

ومنها: أنه ينشأ عن تأخر المشاريع عندنا كثرة الأيدي العاطلة، وإثقال كاهل الحكومة بالمساعدات وإيجاد الحلول لمتطلبات الشعب، وكل هذا وغيره بمخالفة الشرع الحكيم الكفيل بمصالح العباد ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٤].

ثم يقول أيضاً مبرراً لما ذهب إليه: (وإنما هو تعويض لخسارة سبب حدوثها).

ولكن هذا كما عرفت فيما سبق غير مسلم لا شرعاً ولا عقلاً ولا عرفاً، فليس

رب العمل متسبباً. والله الذي قدَّر على العامل في الأزل هذه الإصابة، والرسول ﷺ حكم بأنه جبار.

أما الإحكام في القوانين الوضعية فواجبنا إطراحها وإطراح من يدعو إليها.

أما قوله: (فهو كالدية عن القتل).

فقد سبق أنه قول ساقط لا يعول عليه، وهو أشبه شيء بكلام المجذوبين، إذ كيف يصح أن نجعل رب العامل الناهض بأهل بلاده والمتعطف عليهم مثل القاتل عمداً أو خطأ، وحكمهما معروف لدى الجميع بأن القاتل عمداً مرتكب كبيرة مباشر لها مفسد.

وأما المخطئ فلا يوصف بالفساد لكنه يعتبر مباشراً للجريمة خطئاً، ولذلك خفف عنه الشارع الحكيم بعض التخفيف، والقاسم المسكين مختل توازنه في هذا القياس، وفي كثير من كلامه. ونحن قد حاولنا إنارة الطريق له، ولمن هدفه العدل والحق: وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وبهذا انتهى ما أردنا كتابته، متحرين السير وراء الشرع القويم.

ونسأل الله أن يهدينا وإخواننا لما فيه صلاح ديننا ودنيانا، وأن يجنبنا طريق المغضوب عليهم والضالين، وأن يصلح منا ما فسد، إنه رؤوف رحيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرسالة الحادية والعشرون:

دعوة المسلمين

إلى احترام شعائر الدين

تأليف

فضيلة الشيخ: علي بن حمد المحمد الصالحي رحمه الله

تقريظ

ابن عثيمين رحمه الله وابن جبرين

حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الكلمة حول التحذير من التبرج والسفور جيدة تستحق النشر بين المسلمين قال ذلك كاتبه محمد الصالح العثيمين في ١١/ ١٠/ ١٤١٣هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم
هذه الكلمة حول التحذير من التبرج والسفور جيدة تستحق النشر بين المسلمين
قال ذلك كاتبه محمد الصالح العثيمين في ١١/١٠/١٤١٣هـ
محمد الصالح العثيمين

***

الحمد لله وحده وبعد فقد قرأت هذه المقالة المتعلقة بالحج وما يقع فيه من بعض النساء من التكشف والسفور وما يحصل من الفتنة بهن والاندفاع إلى الحرام ومحاولة التحجب ومصالحه وحكمه فجزى الله الكاتب خيراً على نصحه وإخلاصه لأمة الإسلام ونفع بهذه المقالة من أراد به خيرًا قاله وكتبه عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين عضو اللجنة وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ١٤/ ١٠/ ١٤١٣هـ

الحمد لله وحده. وبعد فقد قرأت هذه المقالة المتعلقة بالحج وما يقع فيه من بعض النساء
من التكشف والسفور وما يحصل من الفتنة بهن والاندفاع إلى الحرام ومحاولة التحجب ومصالحه
وحكمه فجزى الله الكاتب خيرًا على نصحه وإخلاصه لأمة الإسلام ونفع بهذه المقالة ونحوها
وجزى خيرًا من أعان على نشرها في مواسم الحج وغيرها رجاء أن ينفع الله بها من أراد به
خيرًا قاله وكتبه عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين عضو الإفتاء وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم
١٤/٢/١٤١٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه. وبعد:

فقد كتب الله لي الحج، وانشرح صدري لمشاعره، وكان عهدي بالناس في مثل هذا النسك أن تستحضر نفوسهم خشية الله، وأن يقدروا الخطوات التي خطوها من بعد أو قرب إلى مهبط الوحي قدرها، فيستشعروا عظمة أمر الله والزمان والمكان والعبادة، وتخشع قلوبهم لشعائر الله.

لكنني ما كدت أشاهد الناس في زحمة الحجيج حول البيت العتيق وبين الصفا والمروة؛ حتى هالني ما هم عليه من استهانة بالحرمات، وانحراف عن الجادة، حيث رأيت بعض النساء الحاجات يختلطن بالرجال سافرات الوجوه، فتعجبت وسألت، فلم أجد لذلك مندوحة سوى تعلات غير مقبولة، فقد وجد من لا يرى اشتراط المحرم في سفر المرأة مستهينًا بما صح عن رسول الله ﷺ، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا ومعها ذو محرم**»[(١)] متفق عليه، ثم وإن سافرت مع محرم فإن الفهم الخاطئ لما يأتي على ألسنة الفقهاء من أن إحرام المرأة في وجهها وكفيها[(٢)]؛ أدى بهؤلاء النسوة أن يكشفن عن وجوههن ويبالغن في إبداء زينتهن وما يفتن من أجسادهن دون أن يردعهن المحارم، وما علم هؤلاء أن كلمة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٠٨٦، ١٠٨٧) ومسلم (رقم ١٣٣٨) وانظر: فتح الباري (٤/ ٧٥-٧٦) وشرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٠٢-١١٠) وعمدة القاري (٧/ ١٢٦-١٣٠) والتمهيد (٢١/ ٥٣-٥٥) والديباج على مسلم (٣/ ٣٨٩) وتحفة الأحوذي (٤/ ٢٨١) وشرح الزرقاني (٤/ ٥٠٢) وعون المعبود (٥/ ١٠٢).

(٢) قال ابن عبد البر في الاستذكار (٤/ ١٤): وأجمعوا أن إحرام المرأة في وجهها، وأن لها أن تغطي رأسها وتستر شعرها وهي محرمة، وأن لها أن تسدل الثوب على وجهها من فوق رأسها سدلاً خفيفًا تستتر به عن نظر الرجل إليها. وانظر: التمهيد (٩/ ١٢٤) (١٥/ ١٠٤-١٠٨) والمغني (٣/ ١٥٦) وبداية المجتهد (١/ ٢٣٩).

الفقهاء ليست على ظاهرها في كل حال، فإحرام المرأة في وجهها وكفيها حين تكون وحدها أو مع نسوة مثلها.

فعن عائشة قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه»(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

هذه المعاني أثارت في نفسي غيرة دفعتني إلى أن أوجه هذا النداء نصيحة للمسلمين والمسلمات ابتغاء وجه الله: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

***

أيها المسلمون والمسلمات:

وصلتم إلى أقدس بقعة في الأرض لتؤدوا فريضة الحج الذي أوجبه الله على المستطيع بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وجعله رسولنا ﷺ من أركان الإسلام الخمسة، وقد يسر الله لكم السبيل فجئتم إلى هذه البقاع الشريفة، تلتمسون مغفرة الله ورضوانه، وتركتم وراء ظهوركم الولد والوالد والأهل والأحباب، وتجشمتم وعثاء السفر، وجاهدتم النفس فيما تنفقونه من أموالكم، وجددتم العهد مع الله بالتوبة النصوح إن شاء الله، وشهدتم المنافع التي ندبكم الله لحضورها في هذه الديار المباركة من الطواف والسعي وسائر المناسك.

أيها المسلمون والمسلمات:

إن الحج مؤتمر عام يلتقي فيه المسلمون من جميع أنحاء المعمورة، فيتعارفون

---

(١) أخرجه أبو داو (رقم ١٨٣٣) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٤٨ رقم ٨٨٣٣) وأحمد (٦/ ٣٠) وانظر: حاشية ابن القيم (٥/ ١٩٨) والمغني (٣/ ١٥٤). ونيل الأوطار (٥/ ٧٠).

ويتبادلون الآراء والأفكار، تربطهم آصرة الأخوة الإسلامية التي توجب كمال نصح الأخ لأخيه، ويوحد بينهم هدف العقيدة التي جاءت بهم إلى هذه الأماكن المقدسة، امتثالاً لأمر الله، فالجميع يتحرى رضاء الله في كل ما يأتي وما يذر من أصول الدين وفروعه قولاً وعملاً.

وقد توعد الله من خالف أمره أو أمر رسوله بقوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] وهو تحذير ينطق بالخطر البالغ والوعيد الشديد ممن بيده ملكوت السموات والأرض(١).

وقد رضي الله لنا الإسلام دينًا، وشرع لنا من مكارم الأخلاق وجميع الخصال ما يحيطنا بسياج من الشرف والعفة والفضيلة، ففرض الحجاب على المرأة المسلمة تكريمًا لها وحماية من المطامع والأهواء، وسُموًا بها عن الظنون والريب، وصيانة للمجتمع من نزغات الشيطان وانحراف الغرائز.

وأي فتنة أعظم من أن تسفر المرأة عن وجهها، وتبدي زينتها، وتعرض للرجال جمالها؟ لا تبالي بالغايات السامية التي يهدف إليها الإسلام في شريعة الحجاب: من طهر وشرف وعفة، ولا تعير أوامر الله وأوامر رسوله التفاتاً.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فبين سبحانه ما في الحجاب: من طهارة القلوب للرجال والنساء ـ ولئن كانت الآية في حق زوجات الرسول الطاهرات بمجتمع الصحابة الطاهر فأولى بذلك غيرهن من النساء.

ونحن اليوم نعيش في عصر فسدت فيه الأخلاق، ورخصت العفة، وذهب الحياء، أفلا يكون الحجاب ألزم لنا وقاية لأعراضنا؟

قال تعالى في النساء عامة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٧٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٨) والأم (٧/ ٩٣).

يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] فأمرهن بإدناء الجلابيب، وهي كل ما ترتديه المرأة كالدثار والخمار، والإدناء كما قال المفسرون: الإطالة حتى تخفي الوجه والأطراف، والتوسعة حتى تخفي تفاصيل الجسم ومفاتنه، ويقول ابن عباس وعبيدة ﷺ في تفسير هذه الآية: «أمر الله النساء المؤمنات إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب»[(١)] وذكر أبو حيان هنا في الآية أن قوله: ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾ يتعين أن يكون على الوجوه خاصة، لأنه هو الذي جرت عادة نساء الجاهلية بكشفه.

ويقول جل شأنه: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] والأمر بغض البصر لا يقطع أسباب الفتنة مع بقاء الوجوه سافرة، والزينة الظاهرة التي يفسرها البعض بالوجه وكحل العينين وخضاب الكف والخاتم قالوا عنها: هي ما تظهره في بيتها لمن دخل عليها، وعن ابن مسعود قال: الزينة الظاهرة هي الثياب والجلباب[(٢)]، وتقول عائشة رضي الله عنها: «رحم الله نساء المهاجرين الأول لما أنزل الله ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أخذ النساء أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها»[(٣)] أخرجه البخاري وغيره.

هذه الآيات وغيرها من النصوص تدل على وجوب الحجاب على نساء المؤمنين تحقيقًا للإيمان، فالمرأة المؤمنة في نظر الإسلام كالدرة المصونة التي يضن بها عن ابتذال الأنظار، حماية للأعراض وتطهيرًا للقلوب، ولم يذكر لنا التاريخ أن نساء

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٤٦) وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٥٤) وتفسير السيوطي (٦/ ٦٥٩) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥١٩) وعون المعبود (١١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٨ رقم ٩١١٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٥٨، ٤٧٥٩) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٩٢).

الصحابة كن يظهرن بعد الحجاب سافرات يمشين في الأسواق ويختلطن بالرجال.

ولئن شذ قسم من نسائنا وأسفرن عن وجوههن، فهن بهذا قد خالفن أمر الله واتبعن غير سبيل المؤمنين، واستجبن لدعوة أعداء الدين الغربيين، وأبواقهم الذين دأبوا على إفساد ديننا ومجتمعنا الصالح بكل وسيلة يقدرون عليها، ويأبى الله وتأبين أيتها المسلمة أن تمتثلي أمر عدو الله وعدوك وتتركي أمر الله، وقد اتضح الحق، فاعملي بما فيه صلاحك في دينك ودنياك والله رقيب عليك.

أيها المسلمون والمسلمات:

أليس مما يحز في النفس ويبكي العين ويؤلم القلب ما نشاهده من صنيع تلك الخلاصة المؤمنة التي هجرت أوطانها وتركت أولادها ومتاعها في سبيل توبة صادقة، ثم نراها ـ مع الأسف الشديد ـ قد أسفرت عن وجهها وزاحمت الرجال دون حياء ولا خجل في الطواف والسعي وحول زمزم وفي غير ذلك من المواطن؟!

وقد يكون هناك بعض اللائمة على أوليائهن ومطوفيهن، إذ لم يناصحوهن ويفهموهن الواجب عليهن: أن الإسلام فرض الحجاب حتى في الإحرام.

فقد روي عن أم سلمة، زوج النبي ﷺ قالت: «كنا نكون مع النبي ﷺ ونحن محرمات، فيمر بنا الركب فتسدل إحدانا الثوب على وجهها من فوق رأسها، وربما قالت من فوق الخمار»(١) وروي عن عائشة قريب منه كما مر آنفًا.

فمن هذا يتضح أن كشف المرأة لوجهها مرهون بالظروف المحيطة بها، فإن كانت وحدها أو مع نساء مثلها فإن إحرامها يكون في وجهها، وأما بحضرة الرجال فيتحتم عليها أن تسدل خمارها على وجهها، حتى لا تقع أنظارهم عليها، وذلك ألزم في الحج لأنه أكبر حشد يكثر فيه الاختلاط، فتعظم مضرته.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٠ رقم ٦٠٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٢٠): رواه الطبراني في الكبير وفيه يزيد بن أبي زياد وثقه ابن المبارك وغيره وضعفه جماعة.

وقد قصد الشارع الحكيم من حجاب النساء: الإحسان إليهن وتطهير قلوبهن، وتكريم شرفهن، وصيانة عفتهن، وقطع أطماع أصحاب القلوب المريضة فيهن.

وذلك لأن الإسفار يجذب الأنظار، ولأن العين بريد القلب، فتهيج فيه بواعث الشر ودوافع الغريزة، كما قال الرسول ﷺ: «**النظر سهم مسموم من سهام إبليس**»(١) وما فرض الله الحجاب ـ وهو أحكم الحاكمين ـ إلا لما ينطوي عليه من عفة وكرامة وصلاح للمجتمع.

وإذا كان الإسلام قد أباح للقواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن، فيتبرجن بها ولا يطمع فيهن الرجال لكبرهن، وضع الثياب الظاهرة غير قاصدات بذلك التبرج وإظهار ما يجب إخفاؤه من الزينة، وجعل استعفافهن عن وضع الثياب خيرًا لهن في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٠] فإذا كان الإسلام يرى في حق القواعد هذا فكيف؛ يبيح للكواعب وذوات الجمال أن يضعن ما يستر جمالهن من الثياب؟! هذا لا يصح عقلاً ولا شرعًا.

والإسلام بهذا الحجاب لا يسيء الظن بالمرأة، ولا يحكم عليها بالحبس والتضييق كما يتوهم بعض الناس، وإنما يحفظ كرامتها، ويصون عفتها، ويقي المجتمع من داء السفور الذي يفتك بالأمم، وتنهار أمام مفاتنه أخلاق الشعوب وتهدر حرمات الدين.

أيها المسلمون والمسلمات:

هذه هي نصيحتي، أسديها إليكم غيرة على حرمات الله وحرماتكم مبتغيًا بها

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٩٥ رقم ٢٩٢، ٢٩٣) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢٣ رقم ٢٩٢٣): رواه الطبراني والحاكم من حديث حذيفة وقال: صحيح الإسناد.

وجه الله، وآمل أن تقع من نفوسكم موقع القبول والطاعة لله ولرسوله وقد قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]. وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

والمعنى أن العمل بما ذكرنا الله به في كتابه كفيل بمصالحنا الدينية والدنيوية والأخروية، وفيه شرفنا وعزنا في الدنيا والآخرة.

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وبكل ما يقرب إليه أن يأخذ بنواصينا ونواصي إخواننا المسلمين إلى الخير والسعادة في الدارين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

علي الحمد الصالحي

❁❁❁

فهرس الموضوعات

الفهرس التفصيلي

الموضوع — الصفحة

مقدمة التحقيق ٦
ترجمة صاحب المجموع: فضيلة الشيخ علي الحمد الصالحي رحمه الله ٨

الرسالة الأولى: قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع والمعاصي

صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه ٢٥
من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات ٢٦
لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه ٢٨
أجمع المسلمون على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ٣٤
ثبت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن كل من تاب تاب الله عليه ٣٦
ثناء الشيخ محمد رشيد رضا على رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله ٣٧

الرسالة الثانية: قاعدة في المعجزات والكرامات

تعريف المعجزة والكرامة ٤١
قد جمع لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع المعجزات والخوارق ٤٤
الخارق إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين فهو من الأعمال الصالحة ٤٨
كلمات الله تعالى نوعان: كلمات كونية وكلمات دينية ٥٠
إن عدم الخوارق لا تضر المسلم في دينه ٥١
أنفع الخوارق الخارق الديني، وهو حال نبينا محمد ﷺ ٥٨
العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة ٦٠
طرق الأحكام الشرعية بإجماع المسلمين ٦٢
القول الجامع: إن الشريعة لا تهمل مصلحة قط ٦٧

الموضوع الصفحة

العبادات بعضها صحيح وبعضها باطل ٧٠
المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب ٧٧
الأصل العظيم: مسألة خلقه وأمره ٨٠

الرسالة الثالثة: رسالة من ابن تيمية إلى ملك قبرص

مقدمة الرسالة ٨٣
قصة الصراع بين التوحيد والشرك ٨٥
المسيح.. وبنو إسرائيل ٨٨
الناس يختلفون في عيسى ٨٩
انحراف النصارى ٩٠
تناقض ٩٢
عبادات مبتدعة ٩٣
مقارنة بين اليهود والنصارى ٩٤
الأمة والوسط ٩٦
شيخ الإسلام يحارب المغول ٩٩
أسرى .. أسرى! ١٠٣
الفدائيون ١٠٤
كيف كان يحارب المسلمون؟ ١٠٨

الرسالة الرابعة: رسالة الحسن بن أيوب

المقدمة بقلم علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله ١١٣
أخبر الناس بمقالات النصارى من كان من علمائهم وأسلم كالحسن بن أيوب ١١٥
خروج الحسن بن أيوب مهاجرًا إلى الله وهاربًا بدينه ١١٦
اليعقوبية يقولون: إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين ١١٧

الموضوع | الصفحة

الملكانية يقولون: إن الابن الأزلي هو الله الكلمة تجسد من مريم ١١٨
النسطورية يقولون: إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة ١١٩
أصل أمر المسيح عند النصارى ١٢٠
النصارى حرفوا كتب الله ١٣٩
جاء القرآن بإبطال هذه المعاني ١٥٣
جاءت الشريعة الحنيفية القرآنية بسد الذرائع ١٥٥
فصل في بطلان ما قاله النصارى في المسيح ١٥٧
البلاء العظيم: الاختلاف في المعبود ١٦٩

الرسالة الخامسة: نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس

قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك...» ١٧٣
قوله ﷺ: «احفظه الله تجده تجاهك» ١٧٤
قوله ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء» ١٩٤
قوله ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله» ٢٠١
قوله ﷺ: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا» ٢٠٥
قوله ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر» ٢١١
قوله ﷺ: «إن الفرج مع الكرب» ٢١٥
قوله ﷺ: «إن مع العسر يسرًا» ٢١٧
قوله ﷺ: «إذا اشتد الكرب وعظم الخطب» ٢٢٢

الرسالة السادسة: فضل علم السلف على علم الخلف

خطبة المؤلف ٢٢٩
قصة آدم عليه السلام مع الملائكة وقوله تعالى: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها...﴾ الآية. ٢٢٩
قصة موسى عليه السلام مع الخضر وبيان خطأ من فهم من الآية أن الشيخ المربي يسلم له حاله ٢٢٩

الموضوع | الصفحة

تقسيم العلم إلى نافع وغير نافع ٢٣٠
بيان معنى أعوذ بالله ٢٣٠
بيان معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان سحراً» ٢٣١
تعريف علم الأنساب وبيان أول من ألف فيه والجمع بين الأمر بتعلمه وبين النهي عنه ٢٣٢
بيان معنى الآية المحكمة والسنة الثابتة والفريضة العادلة ٢٣٢
الكلام على علم النجوم وبيان ما يجوز منه شرعًا وما لا يجوز ٢٣٣
بيان معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت» ٢٣٤
إنكار الإمام أحمد الاستدلال بالجدي وقول المنجمين إن الزوال يختلف باختلاف البلدان وعلة ذلك وفساده ٢٣٤
إنكار السلف الصالح ﷺ التوسع في العلوم التي لا تفيد عملًا مكلفًا به وبيان أن ما أحدث بعد الصحابة من العلوم بدعة منهي عنها ٢٣٥
النهي عن الخوض في القدر وبيان ما أحدثه المعتزلة من الكلام في ذات الله وصفاته ٢٣٦
بيان طريقة السلف وعلمهم ٢٣٧
بيان أن عمل أهل المدينة هل هو حجة أم لا، وبيان أن مذهب الإمام مالك في ذلك ليس كما فهمه المالكية ٢٣٨
بيان أن الإكثار في المسائل مذموم والأدلة في ذلك ٢٣٩
تفسير أغلوطات المسائل ٢٣٩
بيان قوله ﷺ: «إن من البيان سحرًا» وأنه ذم للبيان لا مدح له ٢٤١
بيان معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليبغض البليغ من الرجال» ٢٤٢
كلام الأئمة في وصف الصحابة، وبيان أن من كثر علمه وقل قوله هو الممدوح، ومن كان بالعكس فهو المذموم ٢٤٢

الموضوع الصفحة

بيان أن أفضل العلوم في الحلال والحرام ما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى زمن أئمة الإسلام كالثوري والأوزاعي والشافعي وغيرهم ٢٤٤

بيان أن سنة الصحابة يقتدى بها ويرجع إليها وأدلة ذلك من وجوه ٢٤٥

بيان أن من عصى لا يجد حلاوة الطاعة ولا من هم ٢٤٧

بيان ثمرة السالك إلى ربه ٢٤٨

علامات العلم النافع ٢٥١

بيان انحطاط أهل هذا الزمان من حيث العلم ٢٥١

بيان أن كثرة الكلام وشقشقة اللسان ليس من العلم، وليس العي قلة الكلام ولكن من سفه الحق ٢٥٢

بيان أن من سلك سبيل السلف فقد اهتدى ومن سلك غير سبيلهم... .... ٢٥٣

كلام الإمام الشافعي في الصبر ٢٥٥

تفسير قوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا...﴾ الآية. ٢٥٥

ذم أهل الكتاب بسبب قسوة قلوبهم ٢٥٥

بيان أن دواء قسوة القلوب بتلاوة القرآن وتدبر السنة ٢٥٥

فساد علماء زماننا بسبب مشابهتهم لأهل الكتاب وهو خاتمة الرسالة ٢٥٥

الرسالة السابعة: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد

مقدمة الكتاب ٢٥٩

الأصل الأول: كل ما في القرآن حق ٢٦٠

الأصل الثاني: الرسل بعثوا للدعوة إلى توحيد الله ٢٦٠

الأصل الثالث: أقسام التوحيد ٢٦١

الأصل الرابع: المشركون مقرون أن الله خالقهم... الخ. ٢٦٢

الأصل الخامس: أساس العبادة توحيد الله ٢٦٣

الموضوع | الصفحة

أنواع العبادة.......... ٢٦٣
الرسل مبعوثون للدعوة إلى إفراد الله بالعبادة.......... ٢٦٥
الإقرار بالله لا يكفي في التوحيد مع الشرك في العبادة.......... ٢٦٧
الاعتقاد في غير الله في النفع والضر شرك.......... ٢٦٩
طلب الدعاء من الحي غير الطلب من الميت.......... ٢٦٩
الأسماء لا أثر لها ولا يعتبر إلا المعاني.......... ٢٦٩
تسمية القبر مشهدًا لا تخرجه عن اسم الصنم.......... ٢٦٩
محاجة مع من يذكر اسم الله في الذبح عند القبر.......... ٢٧١
الجهل بلغ بالمشركين حتى اعتقدوا في الفسقة.......... ٢٧١
عودة إلى بحث الطلب من الحي والميت بتفصيل.......... ٢٧٢
من حلف بغير الله هل يكون مرتدًّا أم لا؟.......... ٢٧٦
حكم النذور والنحائر للقبور.......... ٢٧٩
بحث فيما يحصل للمشركين من تضليل الشيطان وجنوده من الجن والإنس وطاعة العامة لهم بسبب ما يوسوسون به.......... ٢٨١
من البلاء العظيم أكل العلماء السحت من النذور والنحائر على القبور وسكوتهم عن إنكار المنكر.......... ٢٨٢
أمثلة لمنكرات عمت البلوى بها واضطر العلماء السكوت عنها مما تقر به عين إبليس وجنوده.......... ٢٨٤
سكوت العالم عن الإنكار لا يصلح حجة على الجواز لأن المنكرات قد يحميها من بيده السلطة.......... ٢٨٥
حكم من يحصل له خوارق من الأفعال.......... ٢٨٧
حكم ما يعمل من الأذكار المبتدعة والأحوال الشيطانية بإيضاح وتفصيل وإلحاق بعضه بالسحر.......... ٢٨٨

الموضوع الصفحة

الرسالة الثامنة: كشف الشبهات

ترجمة الشيخ المؤلف لحفيده عبد اللطيف بن إبراهيم........ ٢٩٣
مقدمة تضمنت لأنواع التوحيد وبإيجاز، للشيخ علي الصالحي........ ٢٩٨
الفصل الأول: بيان أن مهمة الرسل الأولى تحقيق توحيد العبادة........ ٣٠١
الفصل الثاني: الأدلة على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية........ ٣٠٢
الفصل الثالث: بيان أن توحيد العبادة هو معنى لا إله إلا الله........ ٣٠٣
الفصل الرابع: معرفة المؤمن نعمة الله عليه بالتوحيد........ ٣٠٤
الفصل الخامس: حكمة الله اقتضت بأن جعل لأنبيائه وأوليائه أعداء........ ٣٠٥
الفصل السادس: وجوب التسلح بالعلم........ ٣٠٥
الفصل السابع: الرد على أهل الباطل إجمالًا وتفصيلًا........ ٣٠٦
الفصل الثامن: الرد على من زعم أن الدعاء ليس بعبادة........ ٣٠٩
الفصل التاسع: الفرق بين الشفاعة الشرعية والشركية........ ٣١٠
الفصل العاشر: إثبات أن الالتجاء إلى الصالحين شرك........ ٣١١
الفصل الحادي عشر: إثبات أن شرك الأولين أخف........ ٣١٣
الفصل الثاني عشر: حكم من آمن ببعض وكفر ببعض........ ٣١٤
الفصل الثالث عشر: حكم من وقع في الشرك ثم تاب........ ٣١٨
الفصل الرابع عشر: حكم من أتى بما ينقض الشهادة........ ٣١٩
الفصل الخامس عشر: الفرق بين الاستغاثة بالحي والميت........ ٣٢١
الفصل السادس عشر: وجوب التوحيد بالقول والعمل........ ٣٢٢
تذييل قيم جدًا للشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله........ ٣٢٤

الرسالة التاسعة: الأصول الثلاثة

مقدمة فيما يجب تعلمه........ ٣٣٣
الأصل الأول: معرفة الله........ ٣٣٥

الموضوع الصفحة

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة ٣٣٩
الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد ﷺ ٣٤٣

الرسالة العاشرة: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين

تعريف مؤجز بمؤلف هذا الكتاب ٣٤٩
المقدمة ٣٥٠
الباب الأول: فيما يجب على الأمير من حسن النية ٣٥١
الباب الثاني: فيما يجب على الأمير من حسن الهيئة ٣٥١
الباب الثالث: فيما يجب على الأمير من ترتيب مملكته ٣٥٤
الباب الرابع: فيما يجب على الأمير من الحذر بالحضر والسفر ٣٥٥
الباب الخامس: فيما يجب على الأمير من الكشف عن الأمور ٣٥٧
الباب السادس: فيما يجب على الحكام من العدل في الأحكام ٣٥٩
الباب السابع: في مجبي الأموال من وجوه الحلال ٣٦١
الباب الثامن: في مصارف أموال الله ٣٦٣
مختارات ٣٦٦

الرسالة الحادية عشرة: رسالة الإمام عبد العزيز الأول

مقدمة الشيخ علي الصالحي رحمه الله ٣٦٩
نبذة وجيزة عن حياة الإمام عبد العزيز الأول رحمه الله ٣٧١
توجيه الخطاب لعموم خواص الناس ـ والحكمة التي خلق الله لها العباد ٣٧٣
تفسير العبادة والإله ـ ومعنى «لا إله إلا الله» ـ ومعنى العبادة ٣٧٤
نفي شفاعة جميع الشفعاء إلا بإذن الله ـ تحامل أهل الأهوء ضد من دعا إلى الحق ٣٧٥
الدعوة إلى العمل بالقرآن وعلامة صدق من ادعى اتباع الرسل ٣٧٦

الموضوع الصفحة

واجب المسلم ـ عود إلى البحث في الشفاعة ٣٧٧
تحقيق البحث في دعاء الله ودعاء غيره وما ذكره مالك في صفة زيارة قبر النبي ﷺ ٣٨١
حكم السفر لزيارة المساجد والقبور، والأحاديث في هذا المقام ٣٨٤
اتخاذ القبور مساجد أوقع الأمم في الشرك ٣٨٤
النصوص الواردة في الدعاء من القرآن وافتراق الناس في ذلك تضليلاً من الشيطان لهم ٣٨٥
صفة الموحد حقًّا أن لا يدعو إلا الله ٣٨٨
تحقيق أن الدعاء هو العبادة ـ إيضاحه بالأدلة ٣٩٠
الشرك أنواع ـ وحكم الشرك الأصغر ٣٩٢
ما يجوز التوسل به ـ وما لا يجوز ٣٩٣
بحث الإقسام على الله بمخلوق ٣٩٤
رد شبهة من يجيز التوسل، ودعوة غير الله بالأدلة ٣٩٥
تنبيه العوام أن الشيطان خدعهم بسبب أهل الضلال والبدع ـ وإرشادهم بأبسط بيان اهـ ٤٠٢

الرسالة الثانية عشرة

رسالة الإمام عبد العزيز الثاني أو حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

مقدمة الشيخ علي الحمد الصالحي ٤٠٨
مقدمة موجزة عن دوافع نشر هذه الرسالة ٤١٠
تاريخ وأسباب تأليفها ٤١٠
بيان العبادة: أصولها وأنواعها وما يفسدها ٤١١
أساليب الشيطان في إغواء بني آدم ٤١٢

الموضوع الصفحة

حماية جناب التوحيد وسد ذرائع الشرك.. ٤١٤
التشهير بمن نسب إلى الوهابية خلاف ما ذكره.. ٤١٥

الرسالة الثالثة عشرة: الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب

المقدمة.. ٤٢٣
المسألة الأولى: فيمن دعا نبيًّا أو وليًّا... الخ.. ٤٢٤
الجواب بالتفصيل.. ٤٢٤
مقدمة الجواب بوجوب التمسك بالكتاب والسنة.. ٤٢٥
المشروع من الأعمال عند الزيارة للقبور.. ٤٢٦
منع التوسل بالمقبورين.. ٤٢٦
الأدلة على ذلك.. ٤٢٧
دعاء الموتى يتضمن الاستهزاء بالدين.. ٤٢٩
من دعا غير الله فهو مشرك.. ٤٣٠
تحقيق البحث في الوسائط وكلام العلماء في ذلك على ضوء كتاب الله.. ٤٣١
مقاصد عباد الأصنام في الوسائط على زعمهم.. ٤٣١
البحث في الشفاعة وأدلة ذلك.. ٤٣٢
أهل التوحيد هم أهل الشفاعة.. ٤٣٤
المشرك لا يشفع فيه أحد.. ٤٣٤
اتخاذ الوسائط يتنافى مع التوحيد من وجوه.. ٤٣٥
المسألة الثانية: من نطق بالشهادتين دون العمل بمضمونها ما حكمه.. ٤٤١
الجواب مفصلاً.. ٤٤١
وجوب الرد عند التنازع إلى الكتاب والسنة والأدلة على ذلك.. ٤٤٢
خلاف العلماء في حكم تارك الصلاة.. ٤٤٣

الموضوع | الصفحة

أقوال العلماء بكفر تارك الصلاة والأدلة على ذلك.......... ٤٤٥
إجماع العلماء على قتل تارك الصلاة والأدلة على ذلك.......... ٤٤٦
إجماع العلماء على قتال مانعي الزكاة والأدلة على ذلك.......... ٤٤٧
كلام العلماء في من ترك فرضًا على التفصيل.......... ٤٤٩
كلام الشافعيين.......... ٤٥٧
كلام الحنابلة.......... ٤٥٩
المسألة الثالثة: هل يجوز البناء على القبور؟.......... ٤٦٥
والجواب عن ذلك مفصلًا بالأدلة الشرعية.......... ٤٦٥
الأمر بهدم ما بني على القبور.......... ٤٦٦
بطلان الوصية ببناء القبور.......... ٤٦٦
النهي عن تجصيص القبور والكتابة عليها.......... ٤٦٦
لعن من أسرج القبور بالنص.......... ٤٦٨
دعاء الموتى من الشرك الأكبر.......... ٤٦٨
الأدلة على أن الدعاء عبادة.......... ٤٦٩

الرسالة الرابعة عشرة: تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن

مقدمة الشيخ علي الحمد الصالحي رحمه الله.......... ٤٧٣
بيان أعظم أسباب التأخر والتقهقر.......... ٤٧٦
أتباع كل ناعق.......... ٤٧٨
الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذا الخلق عبثًا.......... ٤٨٠
الشريعة مبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه.......... ٤٨٢
قاعدة عظيمة لمعرفة كل قول ينسب إلى الشرع.......... ٤٨٢

الموضوع | الصفحة

دين الأنبياء كلهم واحد.. ٤٨٤
أصل الإيمان والتقوى وأصل الكفر والنفاق.................................. ٤٨٥
كل من ابتلاه بقرينه من الشياطين إنما سبب إعراضه وعشوه عن ذكر الله............ ٤٨٨
هل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى............................ ٤٨٨
تعريف الطاغوت.. ٤٩٠
طائفة الحق لا تزال تقاتل وتجاهد على تحكيم ما أنزل الله........................ ٤٩١
ضمن الله لكل من نصر دينه وأطاع رسوله أن ينصره في الدنيا والآخرة............. ٤٩٣
إما الاستجابة لله وللرسول ﷺ وإما اتباع الهوى................................ ٤٩٦
التولي عن حكم الله وحكم رسوله سبب المصائب................................ ٤٩٧
حكاية لطيفة... ٥٠١
آية محبة الله اتباعه ﷺ.. ٥٠٤
أقسم الله سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله ﷺ.......... ٥٠٦
تحذير للسياسيين أن يسوسوا الناس بغير ما أنزل الله............................ ٥٠٨
العجب العجاب ممن يتزينون بزي أهل القرآن وهم يختلقون الإفك والفشار........... ٥١٠
القرآن متكفل بنظام المعاد والمعاش في التفرق والاجتماع على أكمل وجه............ ٥١٥
إن الله عز وجل لم يحوجنا إلى كتاب آخر من الكتب السماوية...................... ٥١٧
الحكمة في إرسال الرسل في الأمم واحدًا بعد واحد.............................. ٥٢٠
كل من حكم بما أنزل الله فقد عدل وكل من حكم بغيره فقد ظلم.................... ٥٢١

الرسالة الخامسة عشرة: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان

افتتاحية المؤلف... ٥٢٥
الفصل الأول: في حد الإيمان وتفسيره، وزيادته ونقصه........................... ٥٢٦

الموضوع الصفحة

حديث: «إن أهل الجنة ليتراءون في الغرف»........ ٥٢٧
حديث: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»........ ٥٣١
حديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»........ ٥٣٢
حديث جبريل المشهور عن الإيمان والإسلام........ ٥٣٢
حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»........ ٥٣٣
حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»........ ٥٣٣
حديث: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا»........ ٥٣٣
حديث: «قل: آمنت بالله، ثم استقم»........ ٥٣٤
حديث: ابن عباس في وفد عبد القيس........ ٥٣٤
حديث: «من أحب لله.. فقد استكمل الإيمان»........ ٥٣٥
حديث: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»........ ٥٣٦
قول الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتمني والتحلي»........ ٥٣٦
تفسير الإيمان بالصلاة، وحديث أبي داود وغيره في ذلك........ ٥٣٧
حديث: «إن الله يخرج من النار من في قلبه أدنى مثقال حبة من خردل»........ ٥٣٧
حديث: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران»........ ٥٣٧
حديث: «من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا»........ ٥٣٨
فصل معقود لتأكيد كون الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف........ ٥٣٨
بيان أن مراتب المؤمنين ثلاث........ ٥٣٩
الفصل الثاني: في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان وبيانها بالإجمال والتفصيل........ ٥٤٠
حديث: «إن لله تسعاً وتسعين اسمًا»........ ٥٤١
أنواع التوحيد الثلاثة........ ٥٤١

الموضوع الصفحة

قول بعض الناس ـ مستدلًا على مبادرته بإيمانه بمحمد ﷺ: «ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته نهى عنه...» ٥٤٥
اعتراف هرقل ملك الروم: بأن محمدًا من أعظم الرسل ٥٤٥
حديث: «الدين النصيحة» ٥٤٨
حديث: «الصدقة برهان» ٥٤٩
حديث: «لا إيمان لمن لا أمانة له» ٥٤٩
الفصل الثالث: في فوائد الإيمان وثمراته؛ وهو آخر فصول الرسالة ٥٥٢
الإشارة إلى الأحاديث التي تفيد عدم تخليد المؤمن في النار ٥٥٣
حديث: «دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته» ٥٥٤
حديث: «تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة» ٥٥٨
حديث: «عجبًا لأمر المؤمن: إن أمره كله خير» ٥٦١
حديث: «لا يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى، إلا كفر الله عنه بها من خطايا» ٥٦١
حديث أبي هريرة: «لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقال: هذا الله خلق الخلق...» ٥٦١
حديث: «مثل المؤمن ومثل الإيمان كالفرس المربوط في آخيته» ٥٦٣
حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» ٥٦٣
حديث: «مثل الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة» ٥٦٤
حديث: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» ٥٦٤
حديث: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن... ٥٦٥

الرسالة السادسة عشرة: الدرة المختصرة في محاسن دين الإسلام

مقدمة الشيخ: علي الحمد الصالحي رحمه الله ٥٦٩
مقدمة المصنف رحمه الله ٥٧٣

الموضوع الصفحة

المثال الأول: دين الإسلام مبني على أصول الإيمان المذكورة في قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...﴾ ٥٧٤
المثال الثاني: شرائع الإسلام الكبار بعد الإيمان هي إقام الصلاة الخ ٥٧٥
المثال الثالث: أمر الشارع بوجوب الاجتماع ونهى عن التفرق والاختلاف ٥٧٧
المثال الرابع: دين الإسلام دين رحمة وبركة وإحسان ٥٧٨
المثال الخامس: دين الإسلام دين حكمة ودين فطرة وعقل ٥٧٨
المثال السادس: جاء هذا الدين بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٧٩
المثال السابع: جاءت هذه الشريعة بإباحة البيوع والإجارات والشركات وأنواع المعاملات ٥٨٠
المثال الثامن: جاءت هذه الشريعة بإباحة الطيبات ٥٨١
المثال التاسع: ما شرعه الله ورسوله بين الخلق من الحقوق التي هي صلاح ٥٨٢
المثال العاشر: جاءت الشريعة بانتقال المال والتركات بعد الموت وكيفية توزيع المال .. ٥٨٣
المثال الحادي عشر: ما جاءت به الشريعة من الحدود وتنوعها بحسب الجرائم ٥٨٣
المثال الثاني عشر: ما جاءت به الشريعة من الأمر بالحجر على الإنسان عن التصرف في ماله إذا كان مضرًا به أو بغيره ٥٨٤
المثال الثالث عشر: ما جاءت به الشريعة من مشروعية الوثائق التي يتوثق بها أهل الحقوق . ٥٨٤
المثال الرابع عشر: ما حث الشارع عليه من الإحسان الذي يكسب صاحبه الأجر عند الله ... ٥٨٥
المثال الخامس عشر: الأصول والقواعد لفصل الخصومات وحل المشاكل ٥٨٥
المثال السادس عشر: ما جاءت به الشريعة من الأمر بالشورى ٥٨٦
المثال السابع عشر: إن هذه الشريعة جاءت بإصلاح الدين والدنيا ٥٨٧
المثال الثامن عشر: إن الشرع جعل العلم والدين والولاية والحكم متآزرات متعاضدات ٥٨٨
المثال التاسع عشر: إن الشرع لا يأتي بما تحيله القول ولا بما ينقضه العلم الصحيح ٥٨٨

الموضوع | الصفحة

المثال العشرون: نظرة مجملة في فتوحات الإسلام المتسعة ٥٨٨
المثال الحادي والعشرون: دين الإسلام مبني على العقائد الصحيحة النافعة وعلى الأخلاق الكريمة ٥٩٠

الرسالة السابعة عشرة: واجب المسلمين

مقدمة الشيخ علي الحمد الصالحي رحمه الله ٥٩٣
أوجب الله على المؤمنين الجهاد في سبيله والاعتصام بدينه ٥٩٥
يجب على المؤمنين الارتباط الأخوة الدينية ٥٩٦
سبب تأخر المسلمين عن الأمم ٥٩٧
الحذر من المخذلين المرجفين ٥٩٩
المشاورة أحد أصول السياسة الدينية ٦٠١
أوجب الله على المسلمين أمرين عظيمين عليهما مدار الجهاد ٦٠٢
على أهل الحل والعقد تحصيل القوتين المعنوية والمادية ٦٠٤
بيان فضل الجهاد ووجوبه ٦٠٥
أصلان عظيمان: القيام بالقسط والوفاء بالعهد ٦٠٧
من أعظم أصول الجهاد الاعتناء شباب الأمة ٦٠٩
أهم صفات قواد المسلمين الاقتداء بالنبي ﷺ ٦١١
أكبر الجهاد الجهاد بالدين ٦١١

الرسالة الثامنة عشرة: الهدية الثمينة فيما يحفظ به المرء دينه

وصف حال أهل الإسلام في هذا الزمان ٦١٥
تحقير الدنيا وأهلها وتعظيم الدين وأهله ٦١٧
أسباب ما حل بالمسلمين من هوان وتأخر ٦١٨

الموضوع | الصفحة

صفات المنافقين وانطباقها على أكثر المسلمين ٦٢٠
آيات وأحاديث في تحريم موالاة المشركين ٦٢٣
تفسير ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ٦٢٤
أمور خطيرة من فعلها استحق الوعيد ٦٢٤
الفرق بين التولي والموالاة ٦٢٧
حكم البقاء في بلاد الكفار لغير ضرورة ٦٢٩
الإسلام والتوحيد يتنافيان مع موالاة الكفار ٦٣١
الخطر على العقيدة من العمل بالشركات الأجنبية ٦٣٣
الخطر على دين التلاميذ بالمدارس الأجنبية ٦٣٦
الحث على هجر أهل الشرك والكفر ٦٣٧

الرسالة التاسعة عشرة: البراهين الإنجيلية

المقدمة، وفيها بيان سبب تأليف هذه الرسالة ٦٤١
بيان أن عيسى ﷺ عبد والله عز وجل سيد ورب ٦٤٢
الأدلة على أن قصة الصلب موضوعة ٦٤٧
تعصب النصارى وعدوانهم على المسلمين ٦٤٨

الرسالة العشرون: العطار والقاسم في الميزان

مقدمة فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله ٦٦٣
مقدمة المصنف وفيها بيان سبب هذا الرد ٦٦٤
الفرية الكبرى والداهية العظمى من كلام القاسم ٦٧٠
جناية القاسم على الفقهاء ٦٧٧
يا لله يا للمسلمين ٦٧٩

الموضوع الصفحة

أغلاط القاسم في اللفظ والمعنى........ ٦٨١
مهزلة القاسم........ ٦٨٥
غلط القاسم في النقل والتفكير........ ٦٩١

الرسالة الحادية والعشرون: دعوة المسلمين إلى احترام شعائر الدين

تقريظ ابن عثيمين رحمه الله وابن جبرين حفظه الله........ ٧٠١
مقدمة المصنف رحمه الله وفيها بيان غيرته الشديدة على حرمات المسلمين........ ٧٠٢
نداء المصنف للمسلمين وهم في أقدس بقعة في الأرض........ ٧٠٣
نداء المصنف لحجاج بيت الله وفيها من النصح ما فيها........ ٧٠٣
دعوة المصنف للنساء بالاحتشام والحفاظ على الحجاب........ ٧٠٤
تأسف المصنف على التبرج والسفور والاختلاط في الحج........ ٧٠٦
نصيحة غالية فيها الغيرة على حرمات الله عز وجل........ ٧٠٧
فهرس الموضوعات........ ٧١١